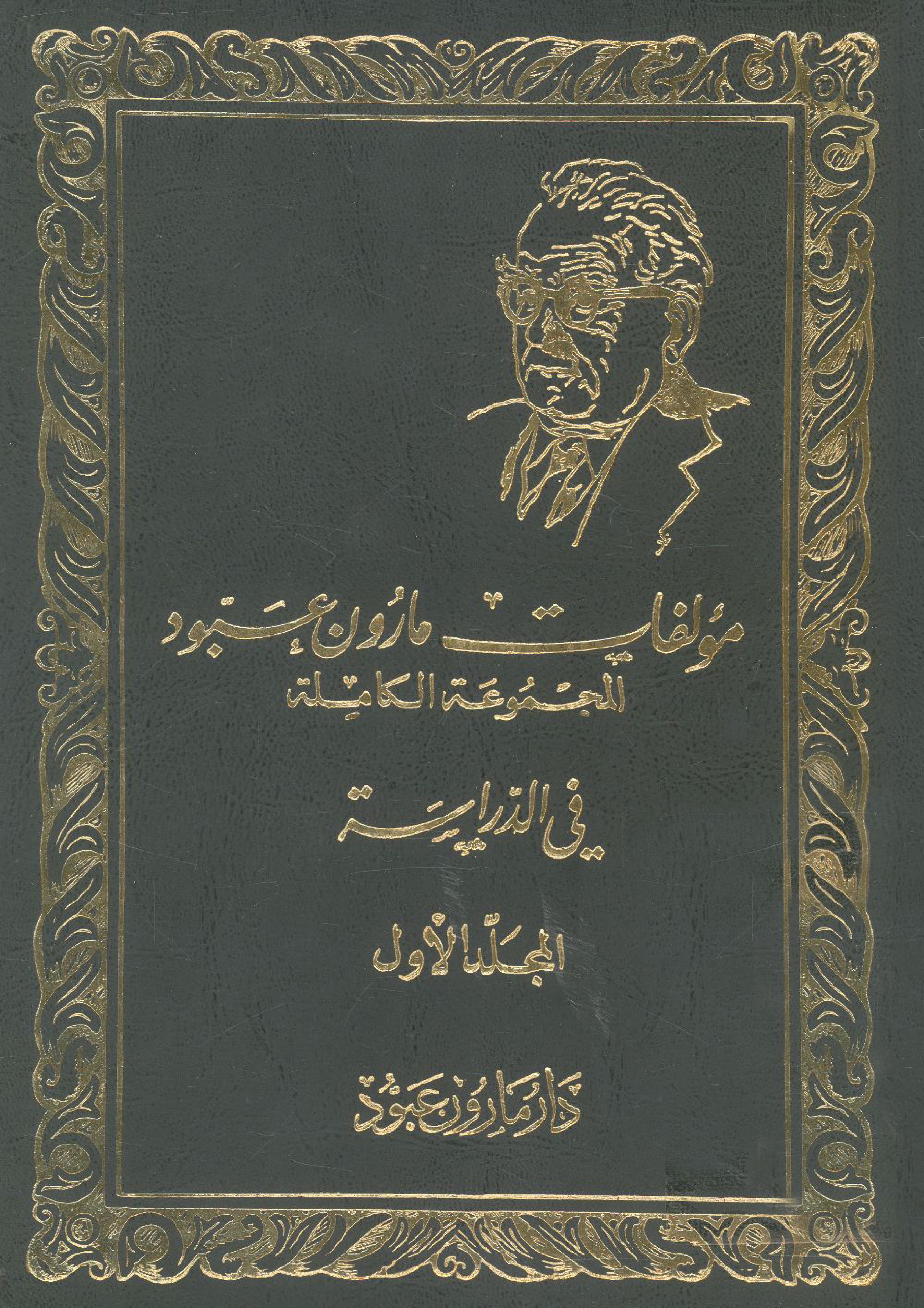

مؤلفات مارون عبود
المجموعة الكاملة
في الدراية
المجلد الأول
دار مارون عبود



مؤلفات مارون عبّود
المجموعة الكاملة

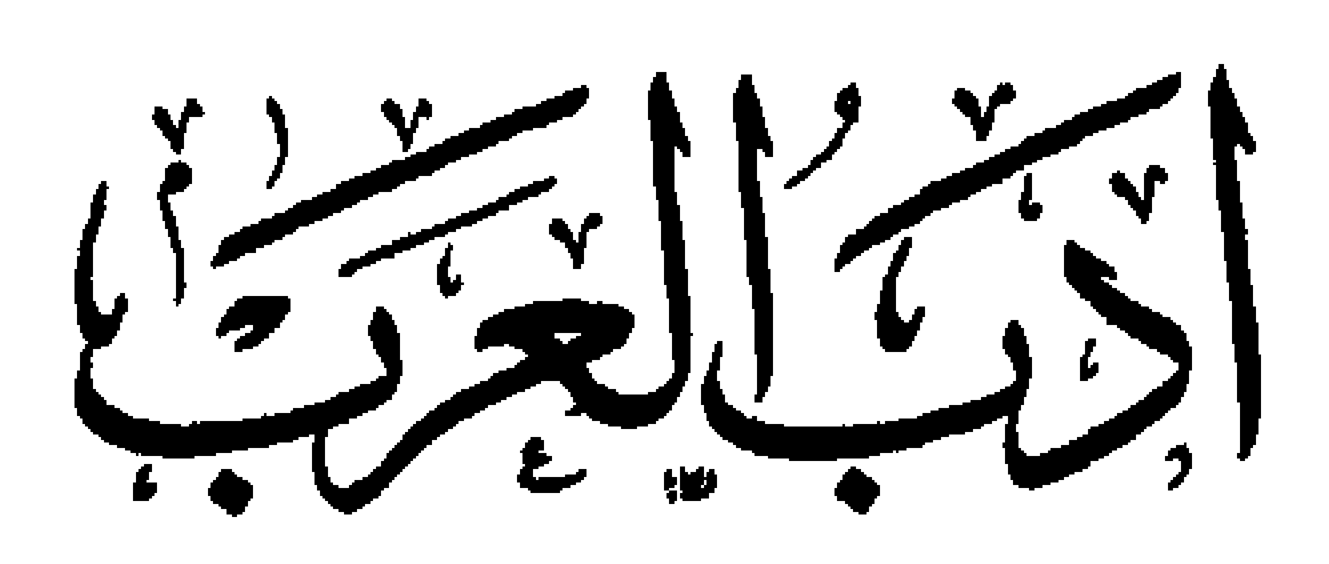
في الدّراسة

يحتوي هذا المجلد على:

أدب العرب
الرؤوس

المجلد الأول

دار مارون عبّود



مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله

وخطوط أولى من صورهم



١٨٨٦ — ١٩٦٢

توطئة

هذا كتاب جملته ملخصاً لتسهل على النشء مراجعتـــه في اضيق وقت ، ويحقق قول العرب في تحديد الأديب : هو من الم بطرف من كل فن .

لقد تضمن هذا المجلد ما يحتاج اليه الطالب قبل اقدامه على الامتحان . وهو في الوقت نفسه مرجع يغني من قلّت مروءته عن مطالعة المطوّلات [1] . قــد بعدت فيه عن السحر الكلامي الذي لا يشبع البطن ، ولا يسمّن الضلع . وما التوفيق الا بالله والاجتهاد :

بقدر الكد تُكتسَب المعالي　　ومن طلب العلى سَهِر الليالي
ومن طلب العلوم بغير كدٍّ　　اضاع العمرَ في طلب المحالِ

اسمعت يا حبيبي ؟ فأنا مجرّب وحكيم في وقت واحــــد ، استغفر الله ، ولكن الانسان تظل تعجبه نفسه حتى يمرض ، وحسبي انه صحّ فيَّ قـــول المتنبي :

يهون علينا ان تصابَ جسومُنا　　وتسلم اعراضٌ لنـــا وعقولُ

١٩٦٠　　　　مارون عبود

١ ـ من شاء المطولات فعليه بكتاب الرؤوس للمؤلف نفسه .

العرب وبلادهم وأنسابهم

العرب : نسبة ليعرُب « جد العرب » او عربة (اسم مكان في الجزيرة) اوبمعنى بدو ، وهو الراجح .

اصلهم : ليس العرب كلهم من أصل واحد . ولجوا الجزيرة من الشمال فارّين من وجه أعدائهم ، فعاشوا فيها عيشة بـــدو على الانعام والاعشاب فتنازعوا البقاء ، وهكذا نشأ الغزو وكانت الغارات .

موطنهم : شبه جزيرة العرب – وان لم يكونوا كلهم فيها – ، وهي واقعة في الجنوب الغربي من آسيا .

حدودها : تحدها شمالاً بادية الشام ، وشرقاً الخليج العربي وبحر عُمان ، وجنوباً المحيط الهندي ، وغرباً البحر الأحمر .

طبيعتها : أكثرها **صحراء** ، والصحراء ثلاث مناطق :

ا – بادية السماوة : مرملة ، شحيحة الماء ، مجدبة ، قيظهـــا شديد وأغلب سكانها بدو .

يقع جنوبيها جبل شمّر المعتدل المناخ الغزير المطر والنبات . فيــه قرى وبلدان عديدة ويُعرف بجبل طيء .

ب – صحراء الجنوب : أرضها صلبة مجدبة في الغالب الاّ إذا أمطرتهـــا السماء . في بعض بقاعها نخيل واشجار ، فيها الاحقاف والدهناء وتعرف كلهـــا بالربع الخالي .

ج – الحرار : أرض بركانية تمتد من شرقي حوران حتى المدينة .

الحجاز واليمن : إذا أغفلنا شأن الصحراء فالجزيرة تتألف من جزئين : الحجاز واليمن .

ا – **الحجاز** : في الشمال ، يمتد من العقبة إلى اليمن ، وسمّي حجازاً لفصله تهامة عن نجد . والحجاز قطر كان فقيراً – قبل ظهور النفط – كثير الأودية الشتويّة ، قليل الماء ، حار المناخ ، ما عدا الطائف . اكثرية سكانه الساحقة بدو . وقع على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشمال فكان ذا اهمية تجارية ، فأمّه اليهود في الجاهلية واستعمروا خيبر والمدينة (يثرب) وغيرهما .

ب – **اليمن** : يقع جنوبي الحجاز في الزاوية الغربية الجنوبية من الجزيرة . اشتهر بالغنى والخصب . اشهر مدنه : صنعاء ، نجران ، عدن . لسكانه القدماء علاقات بالهند والشرق الادنى .

وتلي اليمن شرقاً **حضرموت** وهي صقع جبلي كان عامراً بدليل الخط المسند الموجود في بعض خرائبه ، **وظفار** ، مصدر التوابل ، تقع شرقي حضرموت .

وفي الزاوية الجنوبية **عُمان** ، وهو قطر جبلي على شاطىء البحر ، اشتهر سكّانه بالملاحة ، وفي الشمال الغربي من عمان ، **قطر البحرين** ، الممتد إلى حدود العراق .

نجد : اما نجد فهي الجزء المرتفع الممتد من جبل الحجاز إلى صحراء البحرين شرقاً ، فيه الصحاري والاراضي الزراعية ، وهو اصح بلاد العرب واجودها هواء .

مناخ الجزيرة عموماً : شديد الحرارة ، يعتدل في الجبال ليلاً في الصيف ، وتتجمد مياهه في الشتاء . احسن أهوائها الرياح الشرقية المعروفة بالصّبا ، واردأ الرياح ريح السموم . احسن أيام الجزيرة فصل الربيع غبّ المطر ، إذ ينبت العشب ، ويحق سمّى العرب المطر غيثاً ، لأنه غوث لهم .

سكان الجزيرة : تُصوّرهم لنا التوراة تجّاراً يربطون مصر وسوريا وفلسطين ، في حين انهم لم يكونوا في أول عهدهم غير نقلة التجارة وحماة القوافل في أرضهم

من اعتداءات اخوانهم ، الى ان تدرّجوا في سلم التجارة وصار بعضهم في آخر جاهليتهم تجاراً . وينبئنا التاريخ ان النبي (صلعم) جاء سوريا مرتين متجّراً.

أمّا أصلهم فيزعم بعض المؤرخين أنهم وسكان الفرات ووادي النيل من أصل واحد . تحضّر اولئك وغرق العرب في بـداوتهم فكانت سبب تأخّرهم عمّن حولهم ، فعاشوا قبائل متـّكلين على الأرض والسماء ، لا يفكـّرون بالرقي ولا يستخدمون عقلهم في تنظيم شؤون حياتهم ، كل رجائهم بالانعام ، فهي في نظرهم كل شيء من موارد الرزق .

أمّا سكان **اليمن** فكانوا متمدّنين .

أقسامهم وأنسابهم : انقسم العرب — ككل المغرقين في البداوة — الى قبائل متعددة . أساس القبيلة الجد الواحد ، والأنساب عن طريق الحلـف والولاء . وعلى القبيلة بنوا نظامهم الاجتماعي .

عاشت القبائل في نزاع دائم . يتحالفون للدفاع والهجوم فيؤدّي هـــذا التحالف ، اذا طال امده ، الى اندغام عدة قبائل وانتسابها لاقواها ، فيزعمون اخيراً انهم من أصل واحد . ولذلك ترى الأنساب التي عني فيها العرب جداً عرضة للشك والريب . فاليمنيّون اختلطوا بالحجازيين لمّا نزحوا الى بلادهم عند انحطاط تجارة اليمن ، قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وكذلك رحل الحجازيون الى اليمن لكثرة نسلهم وضيق موطنهم . فتاريخ العرب غير ثابت لأنه لم يكتب ، لبداوة العرب واميّتهم ، ولا آثار تثبته حين كان العرب متحضّرين كاليمنيين والحميريين ، اذ لم يُعثر الّا على شيء يسير من آثارهم .

فالاعتماد في تاريخ العرب على ما دوّنه الرومان واليونان والمصريّون والفرس ، والشعر الجاهلي الذي لم يدوّن الا في العصر الثالث .

خلاصة الانساب : اليكها كما إتفق عليها أهل هذا الزمان ، تبعـــاً لرواية التوراة التي تجعل عرب الشمال : الحجازيين او العدنانيين ، من نسل اسمعيل ؛ وعرب الجنوب : اليمنيين او القحطانيين ، من نسل يقطان (قحطان) .

نسل قحطان : كهلان وحمير

شعب كهلان :

أ — طيء ، وهي القبيلة المشهورة التي اطلق السريان والفرس اسمها على كل العرب .

ب — همدان .

ج — مذحج ، ومنها بنو الحارث ، سكان جنوب الطائف .

د — بجيلة ، كان لها أثر عظيم في فتوح العراق في عهد عمر .

هـ — جذام : سكان بادية الشام ، ومن جذام **لخم** مؤسسة ملك الحيرة على الفرات ، **وكندة** سيدة حضرموت واليامة ، ومنها امرؤ القيس .

و — الازد ، حكمت عمان ، ومنهم غساسنة الشام وخزاعة سيدة مكة قبل قريش ، ومنهم ايضاً **الأوس والخزرج** سكان يثرب .

شعب حمير :

أ — قضاعة في شمالي الحجاز .

ب — تنوخ ، سكان شمالي الشام .

ج — كلب ، سكان بادية الشام .

د — جهينة وعذرة ، في وادي أضم بالحجاز ، والهوى العذري منسوب الى هذه القبيلة ..

نسل عدنان : ربيعة ومضر

شعب ربيعة :

أ — اسد .

ب — وائل ، ومن وائل : **بكر وتغلب** ، كانت بينهما حروب طاحنة

ملأت حوادثها وقصصها التاريخ العربي المؤيد بالشعر .

شعب مضر : قيس : ويطلق اسمها على من ليس باليمني « **قيسي ويمني** » ومن قيس **غطفان** ، ومن غطفان **عبس وذبيان** ، **وتميم** سكان البصرة ، **وهذيل** الذين اشتهروا باجادة الشعر والاكثار منه ، **وكنانة** ومنها **قريش** .

وعلى هذه القاعدة النسبية انقسم العرب في عصبيتهم ، ولا بد من معرفتها لمن يشاء تفهم حوادث التاريخ وحل نصوص الشعر والأدب ، وخصوصاً الفخر والهجاء .

قيسي ويمني : كان العداء بين **ربيعة ومضر** بالغاً أشده ، حتى أن ربيعة كثيراً ما كانت تحالف اليمنيين لمقاتلة القيسيين احفاد مضر ، ابناء عمهم . وهكذا أصبح اليمنيون وابناء ربيعة حلفاً ، والمضريون المعروفون بالقيسيين حلفاً آخر ، فعرف هذان بحزبين عربيين « قيسي ويمني » لا يزال يرافقنا في احزابنا حتى اليوم .

عداء القحطانيين والعدنانيين : القحطانيون او اليمنيون ، اهل الجنوب ، عاشوا متحضرين .

العدنانيون او النزاريون او المعدّيون ، اهل الشمال غلبت عليهم البداوة . لغة اليمنيين كانت تخالف لغة الحجاز وضعاً وتصريفاً ، وهي اكثر اتصالاً باللغة الاكّادية والحبشية . اما لغة الحجاز فاكثر اتصالاً بالعبرية والنبطية .

اما رقي هذين الشعبين فاختلف تبعاً للحضارة واللغة والاختلاط بالشعوب .

وقد كان العداء بينهما شديداً حتى اختلفت العمائم والرايات، فاعتمّ المضريون باللون الاحمر ، واليمنيّون باللون الاصفر وفي ذلك قال أبو تمام :

محمرّة مصفرّة فكأنها عصَب تيمّن في الورى وتمضّر

وسبب العداء النزاع الطبيعي بين البداوة والحضارة . يدلنا على هذا العداء ما كان بين اهل المدينة — الأوس والخزرج — وهم يمنيون ، واهل مكة وهم عدنانيون .

وظلّ هذا الخلاف والتنافس بينهم بعد الاسلام ، تثبته اقوال شعرائهم .

وظلّت كفّة اليمنيين في التنافس راجحة حتى ظهر النبي وهو عدناني ، ثم صارت الخلافة في قريش آله .

فعني اذ ذاك القحطانيّون بتلوين تاريخهم ، فقالوا أن قحطان جدّهم هو ابن هود ، ثم قالوا ان اسمعيل هو ابو العرب جميعاً .

اقسام تاريخ العرب ثلاثة :

ا ــ بائدة ، وهي الأمم التي انقرضت قبل التاريخ الجلي .

ب ــ عاربة ، وهم القحطانيون .

ج ــ مستعربة وهم العدنانيون .

ويرى الدكتور احمد امين صاحب «فجر الاسلام» انه لا يبعد ان يكون هذا التقسيم قحطانياً فجعلوا العدنانيين بعدهم في العروبة .

عصبية العرب : ظهر الاسلام والعرب ثلاث فرق : ربيعة ومضر واليمن ، وكانت عصبية الجاهلية تأكل قلوبهم وتملك عليهم كل مشاعرهم ، فحاول النبي إطفاء جذوتها فخمدت حيناً ، وما لبثت ان تأجّجت بعد موته في سقيفة بني ساعدة ، وامتد لسانها في عهد عثمان ومعاوية وعلي ، فالتهمت الامويين وا كلت العباسيين .

استغل الامويّون هذه النعرة العصبية فمزّقوا شمل العرب . ليست الخلافة سبب الشقاق في الاسلام ، انما هي العصبية الجاهلية « بلوى العرب » ، ولا يزال التفريق الذي نتج عن هذه العصبية يتهدد ملوك العرب حتى يومنا هذا .

الدول العربية كانت العرب ثلاث دول ، وامارات متعددة :

أ ــ الدولة الأولى : التبابعة ، كانوا في صنعــــاء ، أشهر ملوكهم بلقيس معاصرة سليمان بن داود .

ب ــ الدولة الثانية : المنـــاذرة ، كانوا في العراق ، عاصمتهم الحيرة ، من ملوكهم عمرو بن هند ، والنعمان الرابع ممـدوح النابغة . كان هؤلاء الملوك غير مستقلّين يخضعون للفرس .

ج – الدولة الثالثة : الغساسنة ، عاصمتهم دمشق والبلقاء ، يخضعون للروم خضوع المناذرة للفرس . (اشبه شيء بالانتدابات التي كانت عندنا) .

الامارات : اما الامارات فعديدة ، منهـــا : كندة وتغلب وبكر وعبس وغيرهم . وكانت الإمارة تتناول أكثر من قبيلة .

كانت هذه الدويلات والامارات عربية في اخلاقهـا وعاداتها ولغتها ، أمّا ميولها فلم تكن عربية بحتة . كان المنــاذرة ميّالين للفرس ، والغساسنة للروم . وكانوا في شقاق مستمر ونزاع دائم ، فضعفوا ولم يستطيعوا مقـــاومة جيوش المسلمين عند امتداد موجة الفتح الأولى .

حالة العرب الاجتماعية ونظمهم : عاشوا متفرّقين قبائل ، لا تربطهم جامعة النسب بل العصبية للقبيلة ، ضلـّت أم أصابت . يندغم الفرد بقبيلته حتى يكاد لا يشعر بذاتيته المستقلة . قبيلتهم أمــــة ، واسرتهم طائفة . تتألف القبيلة من الاسرة ، رأس الاسرة الأب ، فالكبير من الذكور ، يئد بناته وينتقي من أبناء أمته إذا شاء ، وللزوجة المحل الثاني في الاسرة ، يحلها الزوج وينتسب اليهــا الابن انتسابه إلى أبيه ، تشارك الرجل في شؤون الحياة كافـة ، فهي إلى الرجل أقرب منها إلى المرأة .

أمّا رأس القبيلة فقَيدومها الممتاز ، ثم صارت الامــــارة في بيوت خاصة كولاية العهد ، وأمير القبيلة سيدها الآمر المطلق ، وهو القاضي والحاكم ، واليه يرجعون في شؤونهم حسب عرفهم وتقاليدهم المرعيّة – هــــذا ما يعرف بحكم العشائر حتى يومنا هذا – إذن ، فلا حكومة مسيطرة على العرب ، مــــا عدا المتحضّرين منهم – ولا يطالب بحقوق الفرد غير قبيلته .

وعلاقات القبائل ببعضها عدائية أكثر منها ولائيــــة ، غزو دائم وغارات مستمرة . إذا لم تجد القبيلة من تغزوه غزت بعضها كقول القطامي :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وقد تتحالف قبيلتان إذ تلجأ الضعيفة إلى القويّة لتذود عنها ، ولكن حلفهم هذا لا يدوم ، فينقلبون أعداء متحاربين .

زواجهم عقد بسيط. للرجل حق الطلاق ما لم يشترط غير ذلك عند العقد ، وهناك زواج آخر أشبه شيء بزواج المسافحة ، يعقده الفساق من الشباب ، وزواج السبي ، وهو إذا تغلّبوا على رجال أخذوا نساءهم واستحلّوهن زوجات لهم . أما تعدّد الزوجات عندهم فلم يقف عند حد، والعصبية في الزواج صيّرت ابن العم المالك الحقيقي لابنة عمه ، لا تُزف إلى سواه إلاّ بإرادته .

والاسرة مرتبطة بالقبيلة أشد ارتباط . إذا جنى أحدهم جناية حملت قبيلته وزرها ، وإذا غنم فللقبيلة غنيمته ، وللزعيم خيرها .

إذا جنى العربي في عشيرته يلجأ إلى سواها ، فإن حمته والاها وصار منها يتعصب لها وتتعصب له .

شرائع وعادات :

البنون والبنات . مولد الغلام عيد . ومولد الابنة يوم بؤس وحزن . وقد يئدون البنت أو تنفى الى الجبال لرعي الإبل .

الختان : كانوا يختنون الطفل قبل بلوغه الحول الأول ، كما كانوا يختنون البنت .

الميراث : لم يكن للميراث قاعدة مقيدة بنظام ، فقد يتحالف رجلان فيرث أحدهما الآخر، ويرث المتبنّى كالبنين، وقد يحرم الرجل زوجته واولاده ويهب ثروته لبطل قبيلته .

الطلاق : مرجعه الرجل ، كما تقدم ، وهو انواع لا محل لذكرها هنا .

الاخذ بالثأر : لا بد منه ما لم تفصل القضية في محكمة العشيرة .

العقوبات : يقضي بها شيخ القبيلة وهي قطع اليد على السارق ، والرجم على الزناة ، والقتل على القاتل عمداً .

وقد تستبدل عقوبة القتل بدفع الف بعير فدية لأهل المقتول إن كان شريفاً، ومئة إن كان من العامة ، وقد تدفع القبيلة الفدية عن القاتل لتنقذه من الموت .

هتك العرض : هذه أفظع الجرائم عند العرب . فقد تتفانى لأجلها قبيلتان

انتقاماً لعرض بكر ، ودفاعاً عن شرف القبيلة وسمعتها .

خرافاتهم : الكهانة ، العرافة ، الزجر ، الطيرة ، الميسر ، الازلام ، رمي البعرة ، وأد البنات ، حبس البلايا ، تعليق كعب الارنب ، تعليق سن الثعلب والهرّة ، تعليق حلي النساء على الملسوع ، كيّ السليم من الإبل ليبرأ الأجرب . وطء المقلاّت جثة المقتول ، مسح الطارف عين المطروف سبع مرات ليسكن هيجانها ، الغول ، الهامة ، رمي سنّ الصبي ، جزّ نواصي الأسرى .

دياناتهم : البدوي قليل الدين قلما يكترث لما يعبد .

عاش العرب مشركين فألّهوا قوى الطبيعة ومظاهرها التي لم يكن يحجبها عن أبصارهم حاجز من حواجز الحضارة ، اذ يقابلها البدوي وجهاً لوجه . فعبدوا الشمس والقمر والاجرام والنار ثم الاصنام والاوثان . وليست اصنامهم وليدة الفن كاليونان والرومان . قد يعثر البدوي في رحلة على حجر يمثل مخلوقاً بعض التمثيل فيأتي به الى الكعبة حيث ينصبه إلهاً يتقيه ويخشاه ، ثم يستشيره في المهمات . فقد كانوا اذا عمدوا الى غزوة اجتمعوا حول الوثن يستشيرونه بالامر ، بواسطة أزلام يجيلها سادن كعبتهم ، فإن خرج له « لا تفعل » أحجموا ، وإن خرج « افعل » أقدموا . وفي ذلك يقول شاعرهم :

انـّا اجتمعنا فهبِ السراحا ان لم تقله َفمُر القداحـا

ومن أشهر أصنامهم بنات الله الثلاثِ : اللاتِ والعزّى ومناة . وقد تهوّد وتنصر فريق منهم .

اليهودية والنصرانية: انتشرت اليهودية في يثرب وخيبر واليمن والطائف، وكانت النصرانية في نجران ، فنازعت اليهودية في الجزيرة ، يغشى قسيسوهـا وأحبارها أسواق العرب مبشّرين معلمين . ومن نصارى العرب غساسنة البلقاء ومناذرة الحيرة .

تشيّع لليهودية ذو نواس ، أحد ملوك حِميَر ، فاضطهد نصارى نجران وقتلهم . فانتصر لهم نجاشي الحبشة وهاجم ذا نواس الخ ...

وقد كانت هذه الأديان من بواعث الفتن في الجزيرة .

وقبل ظهور الاسلام كان قـــد تسرّب الشك بالأصنام والاوثان الى نفوس العرب ، كما جرى لأحدهم مع أحد الاوثان اذ رأى ثعلباً يبول برأسه ، فقال :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه ! لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

فلما ظهر الاسلام أسلم كثيرون بعد صراع ونزاع، فساد الاسلام إلا في بعض القبائل ككندة وبكر وقيس .

ثقافتهم : ثقّف العرب بعض الثقافة ثلاثة امور :

١ – اتصالهم بالروم والفرس بواسطة دولاتهم المار ذكرها التي كانت قائمة على التخوم . شيّدها غير العرب ليصدّوا بها غارات العرب عن مستعمراتهم .

٢ – التجارة التي مزجتهم بالأمم بعض المزج ، فاقتبسوا باختلاطهم بهـــا مدنية وادباً وعلماً .

٣ – اليهودية والنصرانية اللتان حملتا إلى الجزيرة بعض الثقافة اليونانية من الفلسفة والأدب إلى جانب علوم التوراة وما فيها من تاريخ التكوين وحـــديث الثواب والعقاب والبعث والجنّة والنار الخ ...

وحملت اليهودية ايضاً الزراعة والصناعة .

فمن هذه العوامل دخلت اللغة ألفاظ جديدة لأغراض جديـدة ، وتأثرت العقول بمبادىء جديدة لم يألفها العرب كالشك والزهد الخ ...

نعم ، إن دخول هذه الثقافة لم يكن منظـّماً ، ولم تسر سيراً سريعاً لتبدّي العرب وأميّتهم ، وإعراض السواد الأعظم عن كل ما هو جديد . وهـذا شأن كل امّة في اقتبال الجديد واعتناقها له مهما كانت عريقة في الحضارة .

وقصارى الكلام ان تثقـّف العرب كان بطيئاً ضيّق النطاق ، فأهل الحيرة عرفوا شيئاً من علوم الفرس واليونان وآدابهم ، وغساسنة الشام أدركوا أشياء من حضارة الرومان واليونان وآدابهم ، وأهل اليمن كانوا متـّصلين منذ عهـــد بعيد بالفرس والحبشة والرومان .

علومهم: امّا غير هؤلاء من عرب الجزيرة فكانوا لا يدركون من العلم والفن إلا ما توصلوا اليه بالتجارب والاختبار . إننا نستطيع ان نسمّيه علمـــا بالنسبة

لأيامهم ، وهاك بعض علومهم :

علم النجوم : عرفوا شيئاً منه لحاجتهم إلى معرفة الفصول والرياح والسرى والأمطار ، كما عرف جيرانهم واخوانهم الفينيقيون نجمة القطب ليهتدوا بها في مخر البحار .

الطب والبيطرة : عالجوا أنفسهم وحيواناتهم بالعقاقير والكي والحجامة ، ثم بالرقي والطلاسم .

علم الانساب : حرصهم على عصبيّتهم أوجد هذا العلم .

الفراسة والقيافة : لكثرة ملاحظاتهم استدلّوا بهيئة الإنسان الخارجية على أخلاقه ، وبأعضائه على نسبه ، وذلك ليكشفوا الدعيّ منهم .

حروبهم وأول عهدهم بالاتحاد: أضعفتهم الحروب وكادت تفنيهم ، فاستيقظ العرب لأول مرة واتحدوا عندما هاجم جزيرتهم أبرهة الحبشي واحتلها ، فأبت انفه العربي واباؤه ونزعته الاستقلالية إحتمال النير الاجنبي ، فاستعان سيف بن ذي يزن بالرومان فخيبوه ، لأن احتلال الحبشة لليمن كان بتشجيعهم ، فالتجأ إلى كسرى فأمده بجيش لجب تغلب به على الحبشة واستعاد حرية العرب بعام الفيل ، وصار سيف بن ذي يزن ملكاً عليهم .

استعادوا الاستقلال ، ضالة البدوي المنشودة ، وظلوا كذلك حتى طمعت الفرس بملك العرب بعد وفاة « سيفهم » ، فبسطوا سيادتهم عليهم ، ثم استبدوا فقتلوا النعمان ملك العرب ، فهاج العرب وتجمعوا وقاتلوا الفرس فاستظهروا عليهم بيوم ذي قار .

شعر العرب بفائدة الاتحاد فاعتصموا به وظهروا أمام الأعاجم كدولة قوّية متّحدة . وبلغ اتحادهم الأوج تحت لواء النبي (صلعم) .

اخلاقهم : العربي معجب بنفسه ، معتد بشخصيته ، حريص على حريته واستقلاله ، وذاك ربيب الصحراء ، كريم مضياف ، وهّاب. أحوجته العازة إلى الغزو فصار السلب بالقوة فخراً ومجداً ، شجاع يقظ على حد قول الشاعر :

ينام باحدى مقلتيه ويتّقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائمُ

انشأته على هذه الاخلاق مجاورته القبائل المعادية والحيوانات الضارية .

أبي النفس ، سخي ، شجاع ، كريم ، فخور ، يحب اللهو وآلاته من خمر وميسر وصيد وغناء، يدلّك على ذلك شعرهم الحافل بالتغنّي بهذه السجايا .

والخلاصة ان مثل العربي الاعلى في الاخلاق هو المروءة ، وهي لفظة تنطوي تحتها ، في عرفهم ، كل الصفات الكريمة .

البدوي يحتقر كل عمل غير رعي الابل والاغارة . يرى كل رزقه في أنعامه ، فيقتتل على الغدير ، ويتطاحن على المراعي . هو غير أهل للتجارة ، ولم يكن في أول عهده بين التجار غير سائق أو دليل ، او حامٍ من إغارة ابناء عمّه وخاله . وهو مع ذلك ذكي نبيه ، تكفيه اشارة لفهم المراد .

يعيش عيشة رخاء في العام الخصيب، ويأكل الضب واليربوع في زمن الجدب والقحط .

اذا مـــا تميميٌ أتاك مفاخراً   فقل عدّ عنه كيف أكلك للضبّ

سائح أبدي لا يقرُّ له قرار. ينازل الطبيعة وجهاً لوجه . واذا كان لناموس بقاء الأنسب تأثير في البشر فالعربي البدوي انسب الناس .

لغة العرب

أصلها : إحدى اللغات الساميّة ، نسبة لسام ، أحد الآباء الأوّلين – كما اتفق الناس – الذي من أصله العرب . ويقول المحقّقون من علماء اللغات أن لغتنا العربية أقرب اللغات شبهاً باللغة التي اشتقّت منها ، معلّلين ذلك بانزواء العرب في جزيرتهم واعتزالهم .

كانت في بدء عهدها فرعين عظيمين : لغة مضر ، ولغة حِمْيَر . وكان بينهما فروق كما ورد في كلامنا على لغة القحطانيين والعدنانيين . اما اللهجات فتعددت الى حد عظيم ، بيد انه مع توالي الايام والعصور صرعت لهجة قريش لهجات الجزيرة كلها ، لأسباب ستأتي . لغة الأدب (الشعر والنثر) ولغة الدين (القرآن) ولغة السياسة والإدارة (بعد الاسلام) فاغتنت بما أُدخل عليها من الألفاظ الجديدة التي دعا إليها الدين والسياسة والحضارة والعلم الجديد .

لقد كان العرب والسريان والعبران في الجزيرة يتفاهمون بلا ترجمان . ولكن تطوّر اللغة العربية بتطوّر قومها أبعدها عن أخواتها . واللغة تسود بسيادة قومها وتنمو برقيّهم ، فلذلك لم يبقَ رابطة تربطها باختيها غير ألفاظ تختلف لهجة يعرفها المطّلعون على هذه اللغات الثلاث ، ومنها يعرفون ان هذه اللغات من مقلع واحد .

اسباب نموّها ورقيّها : هي العوامل التي تقدّم ذكرها في كلامنا عن ثقافة العرب تحت عنوان « ثقافتهم » .

فاللغة كائن ينمو ويتكاثر . فكلّما وُجدت الأغراض خُلقت الألفاظ . وصار

العرب دولة بعد الفتح الإسلامي ، فكانوا كالبوتقة للغات ، فصهروها وطبعوها بطابع لغتهم الخاص ، وأخذوا منها كل ما احتاجوا اليه ، فاتّسع نطاق لغتهم أيّما اتساع .

وأهم أسباب النمو هي : المجـــاز ، والاشتقاق ، والابدال ، والنحت ، والقلب ، والتعريب ، وهاك التفصيل :

أ ــ المجاز أو التجوز : وهو أوسع أبواب اللغة ، فمنه تثري اللغة إلى مـا لا حد له . ومن شروطه وجود العلاقة بين المعنى والكلمة التي نقلت اليه . ويكون المجاز في المفرد والجملة .

ب ــ الاشتقاق : هو من ميّزات اللغة العربية وبه تتناسل إلى حد بعيد . فبنقلك اللفظة من صيغة إلى صيغة تنقلهـــا من معنى إلى معنى آخر ، فتستغني غالباً بكلمة عن جملة كقولك : استكتبت فلاناً ، أي طلبت اليه ان يكون كاتباً لي الخ ...

ج ــ الابدال : وهو إبدال حرف بحرف من لفظة فتكونان بمعنى واحد . وللإبدال اسباب ، منها استثقال بعض الحروف عند بعض النـــاس ، فأبدلوها بأخف منها . وللإبدال أثر كبير في اللغة تعثر عليه في أكثر كلماتها ان لم نقل كلها ، واليك المثل : **اقلس املص املز** أي اخلص . **لصق لسق لزق . البصاق البزاق البساق الخ ...**

د ــ القلب : وهو تقديم حرف أو تأخيره في اللفظة بشرط أن لا تتبدّل الحروف كقولك : فطس طفس ، يتسكع يتكسع ، اوباش اوشاب الخ ...

هـ ــ النحت . ويقصد به الايجاز ــ والايجاز بغيـــة العربي ومطلبه في كل شؤونه حتى اللغة . لباسه وجيز ، وأكله وجيز ، وبيته وجيز ــ وهو أن تصوغ كلمة تدل على كلمات كقولهم : « بسملَ » و « كبّر » . ويكون النحت بالفعل نحو « سمعل » (قال السلام عليكم) ، وبالوصف نحو صلدم ، للحافر الشديد من الصلد والصدم ، وبالاسم نحو جلمود من جلد وجمد ، وبالنسبة نحو مرقسي (من سلالة امرىء القيس) .

و — التعريب : وهو نقـــل الكلمة الأعجمية على نهج العرب وأسلوبهم . فالحاجة إلى التعريب ماسّة دائماً في كل مكان وزمـــان . وقد لجأ اليها العرب في كل اطوارهم ولم يأنفوا من الإلتجاء اليها كما نأنف نحن اليوم . وفي اللغة الفاظ لا تعد كلها أعجمية معربة . وفي القرآن الكريم مئة كلمة منها .

خصائص لغة العرب : للغة العربية خصائص في افهام المعاني ليست لغيرها من اللغات ، منها :

١ — الايجاز : وهو وليد الاشتقاق والنحت .

٢ — جمال التعبير : الذي تتولد منه معانٍ فرعية عديدة تفقد رونقها وجمالها الفني إذا ترجمت .

٣ — الاعراب : الذي به يعرف الخبر من الانشاء ، والمفعول من الفاعل ، والمضاف من المنعوت ، والتعجب من الاستفهام ، والنعت من الحال ، والحال من الخبر . ففي اعراب ما أحسن زيد ، تتضح الاغراض الثلاثة .

٤ — الحركات : كقولهم مِفتح للآلة ومَفتح لموضع الفتـــح ، ومقصّ كذلك الخ ...

٥ — ترك التأنيث : حيث لا يشارك المذكر المؤنث في الصفة كقولهم : امرأة طاهر (من الحيض) وطاهرة (من العيب) وقاعد (من الحبل) وقاعدة (من القعود) الخ . ومثل قولهم : كم رأيت رجلاً ، في الاستخبار أي الاستفهام ، وكم رجل رأيت ، في الاخبار للتكثير .

٦ — مخالفة الظاهر : كقولهم : قاتله الله ، الخ ...

٧ — الزيادة : كقولهم : صه وصهن ، ضيف ضيفن ، ورعشن ، الخ ...

٨ — الاختصار : كقولهم : أثعلبا وتفر .

٩ — ورود الفاظ كثيرة بمعنى واحد يلجأ اليها الألثغ ليكتم لثغته أمـــام الناس ، كقولهم راية وغاية (للعلم) ، رمّازة وغمّازة (للفتاة) ملّث وملس ، وفاضت وفاظت الخ ...

١٠ — كثرة حروفها وهي صالحة للاتصال بما بعدها وما قبلها ، الا ستـــة

حروف فانها لا تتصل الا بما قبلها وهي : ر و ز ذ د ا .

كلمة لا بد منها : نمت اللغة العربية وتناسلت فكثرت ثروتها الأدبية حتى انتهت الينا فوقفنا بها موقف الجمود . والجمود دليل الموت والفناء . أغلقنا باب المجاز والاشتقاق ، وسددنا على انفسنا منافذ النحت والتعريب ، فاصبحت الفاظ لغتنا كالمحنطات في المتاحف او كالمتاع الذي لا يصلح للاستعمال . لقد صارت كالأوثان في كعبة الجاهليين لا نجرؤ على مسها ، نأنف من ادخال الدخيل اليها بالتعريب مع انها مملوءة به وهو منبع ثروتها . لا نستعمل الا ما ورد في كلامهم ، فاصبحت لغتنا لا تصلح الا للتعبير عن اغراض ذلك الزمان .

ما أشبه لغتنا بشجرة لم تمسها فأس مشذّب ، لا مائية ولا نضارة فيها . ييبس منها ما ييبس ولا تفرخ جديداً .

نزعم إنها تحتوي كل الألفاظ من قديم وجديد ، مما ولد وسيولد ، وذاك لعمري الضلال المبين . اجل ان العربي لأنوف من كل غريب ، حتى الالفاظ التي يحتاج اليها ليعبّر عن غرضه . وهذا لعمري منتهى الضلال والشطط . فهذه أرقى اللغات الاوروبية تدخل اليها الألفاظ الجديدة بالمئات كل عام ، من دخيل وغيره ، وهذه معاجمهم تدلنا على أصل كل كلمة دخلت لغتهم ، ولا حياء ولا خجل .

أنا لا اقول بادخال كل لفظة إلى لغتنا فتصبح فوضى ، ولكنني اقول بأخذ كل ما نعجز عن إيجاده لنتفاهم مع ناس هذا الزمان .

وان كان لا بد من اخذ الفاظ من اللغة واطلاقها على مسميات مستنبطات جديدة ، فنحن محتاجون إلى قاموس مصوّر يخصص كل اسم بمسماه بعد رسمه وتعريفه التعريف الذي لا التباس فيه ، فلا يكون تفسير سَعُدَ ضد شقيَ وشقي ضد سعد كما هي الحالة في المعاجم التي بين ايدينا .

إن الحيوانات والحشرات بريّة وبحريّة ، مختلفة متنوّعة ، ولها أسماء عديدة في لغتنا ، فلماذا لا نخصّ كل نوع باسم خاص به ، وكذا قُلْ في النبات وغيره من الاشياء .

لماذا لا نشتق تلفن من التلفون ، كما اشتقّ الإمام علي نَوْرز من كلمة نيروز بقوله : « نورزوا لنا كل يوم » ، وكما قالوا دوّن من كلمة ديوان . اما اذا كان لا بد من استعمال كلمة هاتف للتلفون ، فلتكن كلمـــة هتف بدلاً من تلفن . وهكذا قل في كل الالفاظ المستحدثة .

فما اشبهنا بأبناء اتصلت بهم ثروة آبائهم فلم يعملوا على زيادتها وانمائهـــا ، فكادت تفنى وتضمحل وهم ينظرون اليها نظرة الجاهل الى مريض يتململ امامه ولا يعرف بما يسعفه .

آداب الامم

الفكر العام : من اطّلع على آداب الأمم ظهر له أن الفكر الإنساني متّفق على بعد القارات . فعدة كتّاب في أمم مختلفة ، اتفقوا في النظر الى الحياة ، وان اختلفوا جنساً وديناً وعصراً ولغة .

الأدب العام : هو مأثورات كل أمة مما روي عن نوابغها من كلام ، وخير الادب ما استهواك وملت إلى استماعه مراراً وتلذذت بأخيلته ومعانيه وطربت لموسيقى الفاظه .

ولكل الأمم آداب ، ومن اطلع على آداب احدى الأمم برويّة وإمعان ، أدرك عاداتها الاجتماعية والدينية ، ورأى أمامه اخلاقها مصورة ادق تصوير .

تاريخ الادب علم يبحث عن تطوّرات كل لغة وما فيها من ثروة أدبية نظماً ونثراً ، ثم يتتبع سير الفكر في تلك الأمة ، يرافقه في سيره صعوداً وهبوطاً من الولادة إلى الشباب فالهرم فالموت فالانبعاث . ويُعنى هذا العلم بتاريخ من نبه من حملة القلم ، ناقداً ما كتبوه ، مبيّناً تأثيرهم ببعضهم صناعة وتفكيراً . ومن درس تاريخ آداب أمة رآها في همجيتها ومدنيتها . فدرس آداب أمة هو درس تاريخها ، ولكي يكون حكمنا صحيحاً يجب أن ندرس كل العصور . .

اهمية تاريخ الادب : الأدب مرتبط باللغة والتاريخ . فدرس تاريخ الامة من حيث الاجتماع والدين والسياسة ضروري لفهم آدابها . ودرس آدابها ضروري لتصديق تاريخها . فالأدب صورة العصر بما فيه من جمال وقبح . ومتى فقدت أمة آدابها فقدت لغتها وتاريخها . وكل أمة تتضعضع لغتها وتندثر ، تتفكك عرى

وحدتها وتجهل أمجادها ومفاخرها. وكل أمة منيت بهذا الداء سهُل إستعبادها ، وماتت قوميتها، وانحطّت مهما كانت نبيلة ، كسلسلة ذهبية مفككة الحلقات.

فوائد تاريخ الأدب، يُبيّن لنا فكر الشعب العام وتطور التعبير والاسلوب بتطور الامة وامتزاجها بسواها . وباطلاعنا على التأثيرات الإجتماعية والسياسية والدينية ، نحكم على الانشاء في اي عصر كتب . فما يستعمل في عصر من الألفاظ قد لا يستعمل في عصر آخر ، لأن اللغة اكتسابية ، خاضعة للنمو . ومن درس تاريخ الادب فهم أساليب الكتّاب .

اقسام الأدب : الأدب قسمان: نظم ونثر. ولا نبحث الآن في شيء من هذا، بل نرجئه الى الفصل التالي ونقدّم عليه الآن البحث في العقلية العربية .

العقلية العربية

العربي : ذكي تكفيه الإشارة ليفهم — إن اللبيب من الاشارة يفهم — حاضر البديهة ، ذكاؤه ليس في الابـــداع بل تفنـّن بأساليب الكلام . مفرط بحب الحرية الشخصية — لا الاجتماعية — لا يخضع ولا يدين لاحد. ولذلـك قال عنه الأب لامنس اليسوعي : العربي مثال الديمقراطية. سبب كل شقائه إغراقه في محبة الحريـّة وثورته على السلطة . وهو من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد القبيلة ، كريم مضياف ، يبر اذا حالف ، ويفي اذا صادق .

قال اوليري : **« العربي ضعيف الخيال جامد العواطف »**

ليس العربي جامد العواطف ضعيف الخيال ، بل العربي مقلـّد لا يفكـّر كثيراً ، ككلّ من يعيش في محيط محدود . هو في أدبه مثله في حياتـه . فكما أنه لم يفكـّر بتغيير مجرى حياته ، لم يفكـّر بتغيير أسلوب أدبه وتفكيره . ولذلك لم يخرج على مألوف من تقدموه الّا خروجاً ضئيلاً في كل اطواره . فهذه آثار البداوة لا تزال ظاهرة في شعراء القرن العشرين وادبائه ظهوراً ملموساً .

قلـّة تفكير العربي جعلته يصدّق خرافات كثيرة . وليس العربي وحـــده مصدّقاً للخرافات ، فللأمم العريقة في المدنية خرافات تضحك كل مفكر .

فماذا نقول متى عرفنا ان الاميركي يعتقد اعتقاداً يكاد يكون عقيدة ان « نعلة الفرس » فيها سعادة وفأل ؟

العقل العربي لا ينظر إلى الاشياء نظرة شاملة تتحرّى المسائل من أصولهـا ، بل يطوف حول الموضوع كالنحلة ، تأخذ شيئاً من الشهد وتترك كثيراً ، ولكن

عسلها في كل حال لذيذ .

ولهـــذا ضَعُفَ « منطقه » وظهرت أفـكاره كسلسلة ذهبية مفككة الحلقات . وهذا ما نلمسه في الشعر العربي . وبناء على هذه الخاصة جعلوا البيت وحدة القصيدة .

وقد قصرَ نفَس الشاعر العربي وصرت إذا أغفلت من القصيدة بعض أبياتها أو قدمت أو أخرت فيها لا تدرك أن هناك شيئاً مفقوداً .

اسباب تكوين عقلية العرب : أولاً البيئة الطبيعية ، وهي المحيط الذي عاشوا فيه . فهناك جبال وأنهار وصحراء .

ثانياً – البيئة الاجتماعية : كنظام الحكومة والدين والاسرة الخ ...

فبيئتهم الطبيعيّة القاسية حالت دون دخول المدنيّة اليها . فلم يطمـــع بجزيرتهم الفاتحون والمستعمرون لجدبها وخشونة العيش فيها .

إن حياة الصحراء على وتيرة واحدة ، ولذلك جاء الأدب العربي على وتيرة واحدة ، فلا تبدّل ولا تغيير في مشاهد الطبيعة يولـّد الفكر ، وينوّع الخيال ، ويلوّن التصوّر .

ففي ذلك الإقليم الطلق نشأ عقل طلق الا ّ من قيـــدين : قيد الدين ، وقيد القبيلة .

قيد الدين : دعاهم اليه خوفهم من عناصر الطبيعة الثائرة التي تقابلهم وجهاً لوجه ، فترهبهم .

قيد القبيلة : دعاهم اليه التنازع والخصام والحروب في سبيل المعـاش . في لغتهم دلالة على عقليتهم . سمّوا المطر غيثاً لقحط أرضهم . وعـــدّوا الكرم رأس الفضائل لبؤسهم . وجعلوا الشجاعة رأس المـكارم الاخلاقيـــة لحاجتهم الى الدفاع .

اللغة وعملها في تكوين العقلية : اللغة تدل على العقلية بألفاظهـــا الدالة على الاشياء التي تعرفها الأمة . وهذا نعرفه من المعاجم. امّا معاجمنا فلا تدل على شيء من هذا ، لأنها لم توضع في عصور مختلفة ، بل جمعت كلها دفعة واحـدة ،

فخلطت الألفاظ الجاهلية بالأموية والعبّاسية . قد تصلح دليــــلاً على العصور السالفة، اما أن تدل في الغد على عقليتنا نحن فهذا بعيد ، لأننا لم ندخل فيها شيئاً يدل على عقليتنا من مسمّيات علومنا وما نعرفه من غرائب العـــلم والفن على اختلاف فروعها .

امّا أسلافنا الأقدمون فمن لغتهم نستدل على عقليتهم .

ففي الماديات أوجدت حاجتهم إلى الناقة الألفـــاظ الكثيرة المتعلّقة بهـــا . وقلة احتياجهم إلى السفينة والانتفاع بها قلل الفاظها جداً . وصفوا الصحراء وما فيها بكل دقّة . ولم يصفوا البحر الا ّ قليلا . وهذا طبيعي إذ لا يصف الانسان إلّا ما يحتك به .

ألم يقل عمر بن الخطاب لأحد قوّاده: « صف لي البحر » عندما سأله ركوبه للفتح ؟ ألم يقل الشاعر العربي في ذلك الزمان :

لا أركب البحر أخشى   عـــليّ منه المعاطب
طين أنا وهو مـــاء   والطين في الماء ذائب

وفي المعنويات نجد الفاظ البؤس أكثر من الفاظ السعادة ، لكثرة مصائبهم وويلاتهم .

إذا لجأنا إلى الشعر فلا نستطيع أن نحكم به على عقلية العرب جيماً ، لأنهم كانوا قبائل متعددة تستعمل الفاظاً مختلفة ، ولأسباب أخرى ستأتي فيا يلي :

وإذا لجأنا إلى القرآن الكريم – كما يريـــد الدكتور طه حسين – فلا نجد صورة الجاهلية تامة ، لأن في ألفاظه وتعابيره ما هو خارج عن مألوف عرب الجاهلية .

الشعر : الشاعر علم القبيلة . والشعر في عرفهم من شعر ، أي عـــلم ، أمّا علماء اللغات فيقولون أنه من كلمة شير العبرانية ، ومعناها الغنـــاء . ونحن إلى هذا الرأي أقرب ، لأننا إلى الآن لا نزال نقول أنشد فلان قصيدة .

إننا نخالف القائلين ان معنى شعر علم ، لأن شعراءنا اليوم (شعراء الزجل) ليسوا أعلم الأمة ، بل هم ذوو قرائح منحتهم ايّاها الطبيعة . وكذلك كان

الشعراء في الجاهلية .

الشعر ديوان العرب — هكذا قال الأقدمون ، وهذا معناه ان الشعر وثائق تاريخية ، وهو كذلك لو عني الرواة بحفظ الشعر نظراً لقيمته التاريخية. ولكنهم لم يحفظوا ولم يدوّنوا إلاّ ما لاءم أذواقهم ، واغفلوا كثيراً من الشعر الذي لو حفظ وبقي لكان منه وثائق تاريخيـــة ذات قيمة تدل دلالة واضحة على عقلية العرب .

الامثال : تدل دلالة أصدق من الشعر على عقلية الأمة ، لأنهـــا صادرة عن مجموعها ، بخلاف الشعر الذي ينبع من أفرادها .

والأمثال تدل على ضروب حياة الأمم تجارية واجتماعية وزراعية، كقولهم:

استنوقَ الجمل ، لا في العير ولا في النفير ، في بيته يؤتى الحكم . فالأمثال التي قيلت في المرأة تدل على انحطاط مقامها ، والتي قيلت في الحياة الاقتصادية تدل على جدب البلاد وقحطها .

الأحاجي والأسئلة : وهـــذه تدل على مبلغ عقليتهم أيضـاً كما جرى لعبيد الأبرص مع امرىء القيس ، وما جرى لامرىء القيس مع الابنة التي خطبها ، ومعاوية مع من سأله .

القصص : القصص التي خلقوها للحيوانات تدل على عقليتهم أيضاً كقولهم : ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين .

ومن القصص ، أيام العرب ، أي حروبهم وأحاديث الهوى، وقصص أخرى أخذوها من أمم أخرى ، أو أحدثوا هم ما يشبهها ، وهذا يـــدل على أنهم لم يكونوا بمعزل عن غيرهم من الأمم كما يظن ، بل كان هناك امتزاج .

الاسلام وعقلية العرب للاسلام اعظم أثر في عقلية العرب فقد جاءبتعاليم جديدة مخالفة لمتقدهم فغيّرت عقليتهم.وبواسطة الفتح الاسلامي استفاد العرب من مدنيّات الأمم التي استولوا عليها فاخصبت عقليتهم .

الإسلام غيّر قيمة الأشياء في نظرهم . فمنها ما غلا ومنها ما رخص . فمثل الإسلام الأعلى غير المثل الجاهلي .

المثل الجاهلي : شجاعة شخصية ، شهامة لا حدّ لها ، اسراف في الكرم ، منتهى الاخلاص للقبيلة ، انتقام ، ثأر ، عصبية ، لذّات ، تمتع .

المثل الاسلامي : خضوع لله وانقياد اعمى ، صبر ، اخضاع منافع الشخص والقبيلة لأوامر الدين ، قناعة ، تواضع ، مساواة لقتل العصبية ، تعصب للجنس.

في القرآن الكريم : ليس البر أن تولوا الخ . ولكن البر من آمن بالله الخ . . .

وفي الشعر الجاهلي : اذا القوم قالوا من فتى خلتُ أنني الخ .

الأ ان العصبية التي حاربها الإسلام ظهرت من حين الى آخر في التاريخ الإسلامي ، وهي سبب النزاع بين عثمان وعلي ومعاوية .

أجل ، لم يصبغ الإسلام كل العرب صبغة واحدة ، بل صبغ الذين تغلغل الإسلام في اعماق نفوسهم ، وهم المهاجرون والأنصار . والنزعة الجاهليّة ظاهرة أشد الظهور في الشعر الاموي .

التازج : وامتزج العرب بغيرهم من الامم .والشعوب بعد الفتح الاسلامي ، فتغيّرت بذلك العقلية العربية ، وتناول المزج كل شؤون الحياة من اجتماع وآراء ودين .

وقد ساعد **الرقّ والولاء** على الامتزاج . فالاسلام حبّب عتق الرقيق وجعله كفّارة عن جرائم كثيرة ، ومن أعتِقَ كان **« مولى »** ، وهذا ما عرف بالولاء. واذا مات المعتَق بدون عقب ورثه المعتِق .

إن **للموالي** هؤلاء يداً كبرى في تكوّن العقلية العربية . فبالزواج بالاماء والموالي ، اختلط الدم العربي بسواه . ومن ابناء هؤلاء السراري : زين العابدين ابن الحسين ، وقاسم بن محمد بن ابي بكر ، وغيرهما . وقد نبغ كثير من أبنائهن فزادوا في ثروة الأدب العربي .

والاختلاط في السكنى كان من أقوى عوامل المزج . فالعجم الذين جاؤوا بلاد العرب أسرى حرب صاروا فيما بعد موالي أحرارا ، وامست تعج بهم الأمصار ، فاحتكروا الصناعة والتجارة ، كما يحدث بعد كل انقلاب عظيم .

فمن كل الأسباب المتقدمة امتزجت العادات والأنظمة والحكم والفلسفة

وضروب الحكم .

ولمّا كانت هذه الأمم المغلوبة ارقى مدنية من العرب، كانت السيادة لمدنيتها وحضارتها ونظمها . ولما كان العرب العنصر الأقوى ، صبغوا هذه المدنيات بصبغتهم الخاصة .

وبالاجمال كان هذا التمازج تطعيماً بين العقل العربي والعقل الأجنبي انتج بعد زمن قليل .

فلما اطمأن المغلوبون الى الاسلام بدأوا يؤلفون في علومهم ، فتأثّر العرب بها بكل شيء ، حتى العقيدة الاسلامية لم تخل من تأثر .

وكانت الحرب سجالا في الشؤون الاجتماعية والدينية واللغات والآمال والأماني والنظم والعصبية ، فللعربي فيها ما ينافي غيره .

ثم ظهرت نتائج كل هذا في العصور التي تلت الفتح الاسلامي ، فانخذل العرب في النظم الاجتماعية والسياسية ، وانتصروا في اللغة والدين .

غلبت اللغة جميع اللغات وهزمتها ، واعتنق المغلوبون الدين الاسلامي ، وان تأثر الدين واللغة بشيء اعجمي .

أثر الفرس ، اعتنق الفرس الاسلام ولم يكونوا كالمسلمين العرب . وتعلموا العربية ولكنهم لم يفكّروا كالعرب ولم يتخيّلوا مثلهم ، فدخلت بذلك تعاليم جديدة في الاسلام ظهرت في التشيّع والتصوّف ، وغُمر الأدب العربي بمنتوجات فارس الأدبية .

مراكز الحياة العقلية : الحياة في المدن تختلف طبعاً عنها في السواد ، وقد تمتاز كل مدينة بعلم لأسباب أدبية .

فظهور النبي في مكّة وهجرته إلى المدينة جعل لهما صبغة علمية خاصة ، وكثرة الاحداث السياسيّة في العراق وتتابع الفتن انشأا المذاهب الدينية ، ووجود الدولة الأموية في الشام كيّف الحياة العلميّة فيها .

فأهم المراكز العقليّة هي : ١ — مكة والمدينة في الحجاز . ٢ — البصرة والكوفة في العراق . ٣ — دمشق في الشام . ٤ — الفسطاط بمصر .

الحجاز – مكة والمدينة : مركزان لطلاّب الحديث والفقه والتاريخ، فاقت المدينة مكـّة لكثرة مهاجرة الناس اليها ، فهي مقر الخلافة وكبار الصحابة ، لا يبرحها كبار قريش الّا لحاجة ماسّة ، وبها كانت توزّع الأسرى . فلهـــذه الاسباب كانت تزدحم فيها الناس من كل طبقة .

إن هؤلاء الأسرى كانوا من طبقة عالية من مختلف الأمم التي دوّخها العرب. وبتوزيعهم على العرب صبغوا الحياة الاسلامية بعقلية تخالف ، من بعض الوجوه ، عقلية العرب لأن الاسرى كانوا ابناء علم منظّم .

كان في المدينتين حياتان متناقضتان : حياة زهد وتقى وعلم لوجود الصحابة **الأتقياء** القانتين ، وحياة لهو وتمتع أنتجت فنـّاً وادباً . وقد امتلأت المدينـــة ومكة بالمغنـّين والمغنـّيات ، لأن طبقة العرب العليا كانت هناك ، وكان افرادها يتسابقون الى اقتناء اولئك المغنين والمغنيات ويتهادونهم كما يتهادون بالسلع .

العراق : رغب العرب في الهجرة اليه لغناه وخصبه ، فحملوا اليه العصبية القبلية وارستقراطية الفاتح .

فالعصبية القبلية ظهرت تجاه بعضهم بعضاً اذ خطـّطوا البصرة والكوفـة تخطيطاً قبليّاً ، كل فريق على جانب ، كما في بعض المدن الاسلامية المسيحيـــة اليوم : حارة الاسلام وحارة النصارى .

امّا أرستقراطية الفاتح فظهرت في موقف العرب من الموالي .

ثم تحوّلت العصبيّة القبليّة الى عصبيّة للمدينة ، فالبصريّون تعصّبوا للبصرة ، والكوفيون تعصّبوا للكوفة . تفاخروا بالفتوح اولاً ثم بالعـــلم ، وتعصّب كل لعلمائه في مختلف الفروع .

فالعراق اكثر البلاد ثروة علمية وأدبية لأسباب أبرزها :

١ – المدنيّات التي ورثها العرب عن العراق ، وثروة البلاد التي تمكن العالم من التفكير إذا تهيأ معاشه .

٢ – كثرة الفتن التي كان العراق ساحتها، ونزوح كبار العرب اليه ، وبحثهم هناك في الحقوق والشرع توصلاً لمعرفة صاحب الحق من الزعماء .

٣ - اضطرار العرب الى وضع علم النحو لكثرة الموالي في العراق ليتعلموا العربية ، وقد وضع على النمط السرياني لأن السريان كانوا قبل العرب في العراق.

الشام : خصب الأرض واعتدال الجو بمثا كثيراً من الانبياء في هذا القطر ، فنشروا تعاليمهم . وتعاقب المدنيات عليه أورثه علوماً كثيرة. فحروف الكتابة عن الفينيقيين ، والتعاليم الإلهية عن العبريين ، والمذاهب الفلسفية عن اليونان ، والنظرات الفقهيّة عن الرومان .

نزح العرب الى الشام في جاهليتهم وصاروا فيها ملوكاً وامراء ، واليها انتسبوا لا الى الجزيرة العربية .

فعند الفتح الاسلامي سادت لغة قريش فيها بدلاً من لغتها التي كانت خليطاً من الآرامية والعربية .

وكان فيها نصارى كثيرون احتفظوا بدينهم ، فقامت المساجد بجانب الكنائس ، وحصل احتكاك وجدال وحوار وخصومة ، فأدّى كل ذلك إلى البحث في القضاء والقدر وصفات الله التي هي الأساس لعلم الكلام .

مصر : أهم علومها كان علم الدين أوّلاً ، فلمّا هدأت حركة الفتح استعادت الثقافة اليونانية الرومانية نشاطها الى ان اصطبغت بصبغة اسلامية ، وهذا لم يظهر الاّ في آخر عهد الدولة الاموية .

الخلاصة ، عقلية عربيّة لها طبيعة خاصة هي نتاج بيئتها ، وعيشة اجتماعية خاصة يعيشها العرب في جاهليتهم .

دين إسلامي جديد أتى بتعاليم جديدة ، رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الجاهلي .

فتح إسلامي مدّ سلطانه على فارس وما حولها من مستعمرات رومانية كثيرة ، فأذاب مدنية الفرس وعلمهم ودينهم ودين المستعمرات الرومانية ومدنيتها وعلمها وكوّن منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر .

كل هذه الأشياء كانت اسباباً لها نتائجها ، ومن نتائجها ما كان من حركة علمية ودينية .

وهكذا تطوّرت العقلية في وقت قصير وبلغت شأواً غير قليل ، ولكنها عادت إلى الجمود عندما ضَعُفَ أمر العرب ، وصارت إلى الهمود لمّا ذهب الملك من يدهم وآل إلى الاتراك ، وعادت إلى اليقظة والانبعاث حين فكر العرب بحقهم المسلوب ، وقاموا يجاهدون للوصول اليه ، ولا يزالون يجاهدون لاستعادة امجادهم الغابرة . اما اللغة فظلت تقاوم العوادي ، ولو لم تثبت في وجه الزمان لبادت الأمة واضمحلّ كيانها . وسترى اسباب هذا الثبات بعد قليل .

الادب العربي

كلمة عامة : الأدب العربي — الذي بين أيدينا اليوم — من الجاهلي حتى عصر الانحطاط ، غنيّ جداً ، لأنه أدب شعوب جمّة . فهو وارث مدنيات عديدة لها تصوّراتها وخيالاتها وأفكارها وحكمتها وفلسفتها ونظريّاتها الاجتماعية . لقد كان الفتح الإسلامي أشبه بالبوتقة التي صهرت فيها المعادن المختلفة ، ثم كوّنت منها شيئاً مطبوعاً بطابعها الخاص .

أدب البداوة : البداوة طور اجتماعي تمر به كل الأمم ، بل هو معبر إلى الحضارة لا بد أن تمرّ به كل أمة مهما سمت مدنيتها .

وللبداوة في الحياة طريقة خاصة وأدب خاص يكون في أول عهده شعراً ، لأن الشعر وليد الخيال والخيال يسبق الفكر ، لأن الشعر غناء والإنسان مفطور على الغناء منذ نشأته .

امّا النثر — ونعني الفنّي منه لا لغة التخاطب — فإنه وليد الفكر ، والبدوي قليل الفكر ينفر من المنطق . فعقلية البدوي وثابة سريعة الانتقال ، كانتقاله بين ليلة وضحاها من مفازة إلى مفازة .

ليس هذا في الأدب العربي فقط ، فكل أمة في عهد بداوتها لا يكون أدبها الّا شعراً ، ومتى انتقلت إلى الحضارة لا تحمل من تاريخها غير تلك الأناشيد الشعرية التي ترى فيها كل فخرها ومجدها .

فإذا بحثت في عهد بداوة العرب وغيرهم من الامم لا تجد الساسة والحكماء والقادة ومدبري الشؤون الاجتماعية الاّ شعراء ، ولا تجد انظمة البدو وعواطفهم

وحكمتهم الّا في الشعر .

الشعر : فالشعر اول مظاهر الحياة الاجتماعية القوّية لكل أمـــة كانت بدوية ثم تحضرت . فالأمة اليونانية ، مثلاً ، أول مظاهر حياتها الادبية ، الشعر.

فالحضارة بنت البداوة ، والأدب المتحضّر ربيب الأدب المتبدّي ، فــلولا امرؤ القيس ما كان عمر بن ابي ربيعة وبشّار ، ولا ابو نواس الخ .

لقد كان الشاعر منبراً متنقـّلاً ُتلقى عنه الدروس السامية ، وكان سيّده ، وهو الشاعر ، يزرع في العقول المبادىء الاجتماعية البدويّة ، بــل يغرسها في الألباب غرساً ، فكل المثل العليا في الحياة البدوية تجدها في شعرهم .

النثر : امّا النثر في آداب الامم المتبدّية فلا أثر له ، لأن النثر أقل تأثـيراً في النفوس من الشعر ، وأقل حفظاً ايضاً ، ولذلك لم يصل الينا من النثر البدوي الاّ بعض فقرات من سجع الكهّـان لا تستحق الاهتمام والاعتبار ، ما خـلا الأمثال ، فهذه بمنزلة الشعر من حيث التأثير والحفظ .

تطور الادب : يكون الأدب في بدء عهده ساذجـاً ، تلقيه السليقة بـلا أصول ولا قيود . يفصح الانسان عن فكرته كل ما جـاش في صدره بعبـارة أقرب الى البساطة منها إلى الفصاحة والتأنق في التعبير ، يوردها كما توحي اليه بها طبيعته ، بلا تأنق ولا تنميق ، بعيداً عن الفن والتكلف .

وإن سأل سائل : ما دام الأمر كذلك ، اليس الشعر أكثر تصنـّعا وتعملاً من النثر ؟ فلماذا لم يفصح البدوي عن فكره نثراً ؟

فعليه نجيب : ان النثر كان موجوداً ، ولكن غير فني ، اي لغـة تخاطب . ومثل هذا الكلام لا يحفظ ولا يتناقله الناس كالشعر ليبقى ، ولا كتابة وتدوين تحفظه ، فباد . وكما أن الشعر ضرب من الغناء ، والأغاني طويلة الاعمار ، فلذلك أبدى البدوي أدبه بصورته المنظـّمة التي ندعوهـــا شعراً ، يتناشدها الناس في مجالسهم ، ولذلك قالوا : الشعر ديوان العرب .

أجل إن الشعر هو الحافظ الأمين لآداب الأمم القديمة ، كاليونان في الياذتهم ، والعبران في توراتهم الخ .

وقد مرّت على الأدب أطوار عديدة صقلته وهذّبته ونوّعته فوصل الينا في ارقى اشكاله . والادب نوعان : انشائي ووصفي .

الادب الانشائي : ويسمّيه الإفرنج أدب قوة ، وهو الكلام الذي ينشئه صاحبه نظماً ونثراً ، وهو الادب الحق الصرف .

فالأدب الانشائي يتأثر بالبيئة والعصر ، فهو مرآة العصر والبيئة ، يتطور بتطورهما وفيه القديم والجديد .

والأدباء قسمان : قسم ادبه قطعة من روحه ، فهو قوي الشخصية جبارها لا يهمه غضبَ الناس أم رضوا ، فهو على حد قولهم : قل كلمتك وامش .

وقسم يهمّه رضا الجمهور ، يفني شخصيته فيهم ولا يفنون فيه ، فهو يمثّلهم ولا يمثّل نفسه بشيء .

فالأدباء عموماً تلتمس شخصيتهم فيما يكتبون ويؤلفون ، بخلاف العلماء فإنك لا تلمس شخصيتهم فيما خطته ايديهم .

الأدب الوصفي : يتناول الأدب الانشائي شرحاً وتحليلاً وتاريخاً ، بل هو النقد بعينه .

إن الادب الوصفي هو ما نسميه تاريخ الآداب . فبينما الأدب الانشائي فن كله يكاد يفسده العلم إن دخل فيه ، نرى الأدب الوصفي يكاد يكون علماً كله أو مزيجاً من العلم والفن بل البحث والذوق . الادب الوصفي قديم في كل الأمم التي كان لها أدب انشائي ومدنية زاهرة .

أنشأ الأدباء أولاً بلا علم ولا فن ، كما تقدم ، ثم ارتقى النـــاس فجاؤوا يضعون القيود والأصول للأدب مستنتجينها من أقوال الأقـــدمين الغريزية ، فما رأيت اعظم من محبة النـــاس للقيود والتقاليد ، والقوانين في كل شيء ولكل شيء .

فالأدب اليوناني كانــ في أول عهده فناً كله ، ولم يكن الجمع والترتيب واستنباط النظريات ووضع الأصول والقواعد للنقد والبيان الّا في القرن الرابع ، وكذاك فعل الرومان وكذا فعل العرب .

أنشأ الإسلاميون والجاهليون وبعض العباسيين ، ثم استنبط العباسيون المتأخرون الاصول والنظريات .

فالجاحظ والمبرّد وابن قتيبة وابن سلاّم ادباء وصفيون .

تاريخ الادب : ان تاريخ الأدب علم قديم وليس علماً متكلفاً، بل هو كغيره من العلوم والفنون متأثر بكل ما يؤثر بالحياة البشرية ، فهو يتطور ويتغير وينحط ويرقى .

كان يفهم بكلمة ادب في اطواره العديدة : مأثور الكلام من شعر ونثر ، ثم توسع هذا الموضوع ودخل فيه علوم عديدة خاصة كالبلاغة والنقد البياني، ثم عمّ علوماً كثيرة ، ثم تقلّص بعد التمدّد وعاد هذا التحديد إلى ما نفهم به اليوم : مأثور الكلام نظماً ونثراً .

ولتذوّق الأدب وتفهمه ، على الأديب أن يلمّ بتاريخه ، وتاريخه هذا يعين الطالب على فهمه بدون عناء وتعب ، أي أنه يكفيه مؤونة البحث والتنقيب في الكتب الأدبية التي تعد بالمئات، وقصارى الكلام: ان تاريخ الادب « قادومية » اي اقرب الطرق للمتأدّبين .

وتاريخ الادب متصل بالادب كل الاتصال اي ان غير المتأدب لا يستطيع ان يكتب في تاريخ الادب، بخلاف بقية التواريخ فقد يكتبها ويدوّنها ويفهمها من ليس له علاقة بالموضوع .

الادب العربي : مرّ الأدب العربي الذي ندرسه بأطوار عديدة، منها الطور الجاهلي. ولم يصل الينا من هذا الطور الاّ قصائد تمثّل لنا حياة الجاهليين من كل مناحيها . فما تأثروا به اكثر وصفوه اكثر . أمّا النثر فلم يكن منه شيء ، كما سبق الكلام ، الا امثال تبيّن لنا ضروب الحياة والوانها . فالنثر الفني كان معدوماً . ولا اظن سجع الكهّان ممّا يعتد به .

ثم الطور الإسلامي الذي تأثّر كثيراً بالدين الجديد ، ثم بحضارات متعدّدة هضمها العرب والفوا منها حضارة خاصة بهم .

ليس الآن مجال البحث عن الأدب الجاهلي او الاسلامي ، إنمّا سنفرد لكل

منها بابا خاصاً فيما بعد . امّا الآن فنقول كلمة عامـــة عن تطور الأدب العربي وتأثره بغيره من آداب الامم عندما بسط العرب عليها اجنحة سلطتهم وفتوحهم .

ليس في الجاهلية فلسفة تستحق أن تسمى مذهباً ، فما حكمتهم التي نلمحها في اشعارهم الا خطرات أفكار تعرض لكل مفكر في الحياة وشؤونها . ولكننا ، نحن العرب ، نغالي بكل شيء ، حتى قلنا أن المعري عرف مـــذهب دروين لأنه قال :

والذي حارتِ البريةُ فيـــهِ حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ

وإنه خبير بعلم الفلك كعلماء هذا العصر لقوله :

ولنارِ المريخِ من حدثانِ الدهرِ مُطْفٍ وإنْ عَلَتْ باتقادِ

والثريا رهينـــة بافتراق الشمل حتى تعـــد بالآحـــاد

وإنه تنبأ عن الطيّارات والغوّاصات لأنه قال :

أقلقتمُ السابحَ في لجـــةٍ ورعتمُ في الجوْ ذاتِ الجناح

فالشعر الجاهلي ليس بتنوّع المواضيع ولا غزير المعاني،بل هو نغمة واحدة، قليل الابتكار والتنوع. وقد تصرّف في الشعر وابوابه من جاء بعدهم من الشعراء الأمويين والعباسيين ومن جاء بعـدهم حتى عصرنا هذا ، فتطوّر الشعر بتطوّر العصور .

وسنقول كلمة في آداب الامم التي تأثر بها الأدب العربي من الجاهليـة حتى اليوم .

الادب الفارسي وتأثيره : يظهر أثره واضحاً جلياً في شعراء العرب المنتمين إلى أصل فارسي ، فكثيرون من الفرس دانوا بالدين الاسلامي عندما غلبهم العرب على أمرهم فتعرّبوا . ومن هؤلاء ظهر شعراء وادباء كثيرون خلفوا آثاراً ملموسة في خيالنا ولغتنا .

فشعراء العرب الفرس ، ألفاظهم وتراكيبهم واوزانهم عربية ، امّا خيالهم ومعانيهم وروحهم ففارسيّة ، وفي شعر اكـــثرهم التسلسل المنطقي المكتسب من السلالة .

امّا اللغة : فعندما افتتح العرب بلاد فارس لم يكن في لغتهم غير الفـــاظ بدويّة صحراوية دعت اليها حالتهم الاجتماعية ، فاضطرّوا أن يأخذوا اسمـاء عديدة لمسميات شتى لم تكن عندهم في بداوتهم ، فعمدوا إلى لغـــة فارس ، أقرب الدول اليهم ، فاخذوا منها ألفاظاً لا تحصى ، ولا بد ان يكونوا تأثروا بالتعابير كما تأثروا بالالفاظ .

الحكمة : واقتبس العرب حكماً كثيرة من الفرس لأنها قريبة من العقل العربي الذي لا يحب البحث العميق .

الغناء : أخذ العرب كثيراً من الانغام الفارسية ووقّعوا عليها شعرهم العربي ثم تبع ذلك صورة مجالس الغناء والاجتماع لسماعه ، وقد كانت مجالس الغناء مجالس مساجلات أدبية يعرض فيها خير الشعر وينقد .

ثم تسمية الندماء واحتجاب الخلفاء عنهم بستارة جرياً على عادة مــلوك الفرس ، ثم آل الأمر الى حضور الخلفاء مع الندماء حتى التجرد .

أسلوب الكتابة : وتـــأثر العرب بأسلوب الكتابة الذي انشأه عبد الحميد الكاتب وجرت عليه «مدرسته» ، فتأثربذلك كل اصحاب الأساليببعده.

الادب اليوناني : تأثر الأدب العربي بالفلسفة اليونانية اكثر من تأثره بالادب، لأن العرب بعد الاسلام كانوا أميَل إلى الدين منهم الى العلم والادب ، فكان للأدب الفارسي تأثير اكبر من تأثير الادب اليوناني في الادب العربي .

من اسباب ذلك تقيد العرب بخطط القدماء ،وامتزاجهم بالفرس ،وتذوّقهم عاداتهم ، بعكس ذلك بعدهم عن اليونان ، فلم ينظروا طرق حياتهم والوانها . كما ان تعاليم اليونان الدينية كانت تخالف كل المخالفة دين العرب . وكذلك نظمهم السياسية والاجتماعية ، فلهـــذا نرى اثر الادب اليوناني اضعف من اثر الادب الفارسي في الادب العربي .

آثاره : اما الآثار اليونانية في الادب العربي فهي :

١ — كلمات اخذها العرب من اليونانية .

٢ — ما كان من اثر في الشعر لشعراء النصرانيـــة في الاسلام كالاخطل

والقطامي . يقول الاب لامنس : ان اثر النصرانية في ديوان الأخطل اثرضعيف، ونصرانيته نصرانية سطحية ككل العقائد الدينية في البدو .

وتأييداً لقول العلامة نذكـّر القارىء بان الاخطل طلـّق زوجته ، وهـذا غير جائز في النصرانية . ولا نظن ان رواية تأديب القسيس له ، عندما كان يسكر ، الا رواية ملفقة .

٣ — الحِكم اليونانية ، عني بنقلها السريان قبل العرب فنقلوا منها شيئاً كثيراً، ثم اخذها العرب لاتفاقها مع ذوقهم الادبي .

السريان : ان اثر السريان في اللغة غـــير قليل . فاصول النحو والصرف صنـّفها العرب على المثال السرياني لان اللغتين شقيقتان . والسريان اغنوا اللغـة العربية بما نقلوا اليها من علوم اليونان وآدابهم وآداب غيرهم من الامم . ومن ينقل مثل هذه العلوم والآداب الى اللغة يدخل معها الى اللغة التي يترجم اليها الفاظاً واساليب لا يجد ما يناسبها في اللغة المترجم اليها ، ولا سيما اذا كانت كاللغـــة العربية في اول عهد حضارتها .

فالثقافة اليونانية انتشرت في العراق والشام والاسكندرية على يدالسريانيين، فمن الخطأ ان نعتقد ان العرب كانوا بعيدين عن الاختـــلاط بسواهم قبل العصر العباسي .

والفلسفة اليونانية دخلت الاسلام عن طريق كتب هؤلاء النصارى بواسطة المعتزلة والحكماء والصوفية ، وعنهم اخذت جماعة اخوان الصفاء جل افكارهم .

فالسريان قـاموا بنشر الفلسفة اليونانية وخاصة المذهب الافلاطوني . وقد كانت اللغة السريانية لغة الأدب والعلم لجميع كتـّاب النصرانية في أنطاكيـــة وجوارها ، وأنشئت في الرها ونصيبين وجندي سابور وغيرهـا مدارس دينية كانت تعلـّم فيها اللغة السريانية واليونانية معاً . وكانت السريانية ايضاً لغـة الوثنية في حرّان ، وظلت هذه مركزاً للديانة الوثنية والثقافة اليونانية الى ما بعد الاسلام . وهؤلاء الوثنيون الذين نعنيهم هم الصابئة .

ترجم السريان اكثر ممّا الـّفوا ، فأغنوا الأدب العربي بما ترجموه . ولا نزال

نلمح أثر لغتهم في الشعر العربي العباسي كقول الشاعر العبّاسي بساقٍ سرياني :

فقال « آزال بشينو »[1] حين ودّعنا   فقلت والله زلنا عنـــك بالشين

لم يبتكر السريان فيما كتبوه ، وشعرهم اكثره ديني لأن علماءهم رهبان .

فاللغة السريانية حفظت بعض الكتب اليونانية التي فقد أصلها ، كما ان ترجمتهم عن اليونانية أساس علوم المسلمين .

لقد نقل السريان العلوم عن اليونانية بأمانة ، امّا الإلهيات فحوّروها بمـــا يتفق مع المسيحيّة ، وكذلك فعل المسلمون بمدئذٍ فيما يخالف تعاليم الإسلام .

ولم يترجم السريان عن اللغة اليونانية وحدها ، بل ترجموا ايضاً عن اللغـــة الفهلوية . وفي جملة ما ترجموه « كتاب كليلة ودمنة » .

لقد قدّم هؤلاء السريان خدمة جليلة للعلم في العصر الاسلامي ، وقـــدّموا كذلك خدمة جلّى للعرب فكانت مدارسهم تهتم بنشر الثقافة ، ودخلها كثير من أبناء المسلمين ، فعلّموهم العلوم العالية . تدلنا على ذلك تلك الفتوى التي افتى بها رجال الدين النصارى في ذلك العهد . واليك تلك الفتوى كما جاءت في كتاب فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين :

يحلّ لنا ان نعلّم ابناء المسلمين التعليم العالي .

هذه هي العناصر التي يتألف منها الأدب العربي في عصوره القديم : الجاهلي والأموي والعبّاسي ، امّا تطوّره واصطباغه بصبغة النهضة الجديدة ، فسنفرد له باباً خاصاً عند بلوغنا الكلام عن عصر الانبعاث .

وكذلك سنفعل حين نبحث أدبنا الغربي ونعني به الأندلسي .

---

(١) معناها : اذهب بسلام .

اطوار الادب العربي

تعوّدنا أن نقسّم الأدب العربي تبعاً للسياسة لأنهـا من العوامل التي تؤثر بالأدب فقد تخمده أو تضرمه . فإذا كان السلطان من المولعين بالأدب والأدباء راجت سوقه ، وأقبل الأدباء على أعمال الفكر للإتيان بالروائع . وإن كان من المعرضين عن بنات الأفكار بقيت مستقرّة حيث ختم الله عليها .

فالمقياس السياسي ، كما رأى طه حسين – وهو ينظر إلى الأدب الغربي – لا يصحُّ مقياساً للأدب السلطاني العتيق ، امّا في الأدب الغربي فيصح . ثم في الأدب العربي دواعٍ غير دواعي الأدب الغربي . الأديب الأجنبي عوّل أخيراً على الشعب فيما كتب ، امّا الأديب العربي فما زال يعوّل على الحاكم الذي يمده بماله وعطاياه واكرامه . ولمّا ذهب الأمراء المولعون بالادب ، سقط الشعر من أوجه ، إلى أن كانت النهضة الأخيرة التي ظهرت في مصر فأخرجت البارودي وصبري وشوقي . وظهورهم أهاب بغيرهم ودفع الأدباء والمفكرين إلى النسج على منوالهم ، فبدت في العالم العربي نهضة شعرية أدبية جديدة ، اشتد ساعدها بظهور النقد الجديد وعلم الأدب الجديد ، ولكنها بقيت تعوّل على بيت المال .

فكل هذا سببه اهتمام حكومة مصر . فلولا عباس لم يكن شوقي ، ولولا الجامعة المصرية لم يكن طه حسين ، بل كان لا يزال قابعـاً في إحدى زوايا الأزهر الشريف .

إذن ، فالمقياس السياسي يصلح لعصور الأدب مقياساً عندنا ، وعلى هـذه النظريّة التي نؤمن بها كل الايمان نجاري من قسموه إلى خمسة عصور :

العصر الجاهـــلي ، العصر الأموي ، العصور العباسية ، عصر الانحطاط ، عصر النهضة .

العصر الجاهلي

لم يسمَّ هذا العصر بالجاهلية إلاّ بعد ظهور الإسلام . سمّاه القرآن الكريم الجاهلية ، بمعنى الجهل ضد الحلم .

الأدب الجاهلي : نسبناه إلى الجاهلية فقلنـــا الأدب الجاهلي ، وهو يتناول الشعر والنثر ، الدالين على حالة ذلك العصر من اجتماع وسياسة ودين . وهــــذا الأدب لم يُبدأ بتدوينه إلاّ في القرن الثاني للهجرة ، حـــين بدأ عصر التصنيف والجمع .

كان ذلك الأدب غير مدوّن ، شأن سواه في عصر كعصر الجاهلية قلّ فيه من يكتبون ويعنون بهذه الشؤون .

دُوّن هذا الادب فساد الخلاف وحامت الشكوك والظنون حول صحّته . فمنهم من شك ببعضها ، ومنهم من انكره جملة وتفصيلاً . ولا يزال إلى يومنا هذا عرضة للنقد والتمحيص وميداناً لطالبي الشهرة العاجلة . لا يعنينا البحث في صحة هذه النصوص ، بل نفترضها صحيحة كما هي خوفاً من إضاعة الوقت بما لا يفيد .

نشأة الشعر الجاهلي : لا أحيلك ، يا أخي ، على التاريخ ، فهناك مسالك وعرة لا تستطيع اجتيازها ، وخرافات لا يمكن تصديقها . فأجدادنا ، رحمهم الله ، أكّدوا لنا ان جدنا آدم نطق بالشعر . واتسعت دائرة أوهامهم حتى قالوا لنا ان ابليس أيضاً قال الشعر العربي . فهذا ما لا أريد أنْ أحشو به دماغك . وعليه أقول : الشعر العربي نشأ ككل شعر في كل أمة متبدية كاليونان وغيرها . الشعر غناء ، وأوزانه توافق الغناء . ولذلك سبق الشعر النثر . فالشعر وليد الخيال ، والنثر وليد التفكير ، والخيال في العقل البشري أسبق من التفكير .

أمّا كيف نشأ الشعر ، فليس لدينا تاريخ نعوّل عليه ، بل جلّ ما هنالك أقاصيص وخرافات . فان رغبت فيها فإنني أحيلك على خزائن الأدب ، فهي تعج بها عجيجاً .

اقسام الشعر الجاهلي : الشعر الجاهلي قسمان : قسم قاله الشعراء ارتجالاً بلا تروٍّ ولا كدّ ذهن ، كشعراء الزجل عندنا اليوم . وقسم قالوه بتعمّل واعنات رويّة . وآية هذا ما قرأناه عن زهير وقصائده الحوليّات التي كانت تنظم بأربعة اشهر ، وتنقّح باربعة وتعرض باربعة .

الوحدة في الشعر الجاهلي : نتهم الشعر العربي عموماً والشعر الجاهلي خصوصاً بأن لا وحدة فيه بل وحدته تقوم في البيت لا في القصيدة . وهذا أراه تطرّفاً ، بل تحاملاً على الشعر العربي جاء بها بعض ادباء اليوم ، واليك البيان :

ان الشعر العربي الجاهلي لم يتبع الوحدة المنطقية كما يكتب شعراء الغرب الذين ينظمون طبقاً لأصول وقواعد معلومة . ولكن هذا لا يعني ان الشعر العربي يخلو من الوحدة . فكل كلام يخلو من وحدة تربطه ببعضه نعدّ صاحبه مجنوناً. وأسلافنا لم يكونوا كذلك ، بل هم اصحاب عقول ثاقبة كما تخبرنا آثارهم .

ان وحدة **الشعر العربي الجاهلي** تقوم بالعاطفة ، والتصور ، والخطة الواقعية .

فالشاعر الجاهلي اتبع السلّم العقلي بقصيدته التي ينتقل فيها من ذكرى الى ذكرى . والشعر الحقيقي ذكريات عذبة ومُرة ، وهي منبع الشعر .

اذن ، فللشعر الجاهلي وحدة خاصة هي وحدة العاطفة التي تدفعه إلى ترتيب قصيدته بحسب ذكريات الشاعر واحدة تلو الأخرى.وكما ان لكل شاعر اسلوباً خاصاً ، نستطيع ان نقول ان للشعر الجاهلي اسلوباً خاصاً ووحدة خاصة .

مسلك الشعر القديم : سلك الشعر العربي منذ نشأته طريقاً غير الطريق التي سلكها الشعر الاجنبي . نشأ هذا **قصصياً** يتناول وصف حياة الآلهة والابطال. لا يذكر الشاعر نفسه بشيء بل يتكلم بلسان الجماعة ، فكان شعرهم طبقاً

لصور اجتماعاتهم .

وبعد زمن عثر الشاعر الاجنبي القديم على شخصيته ، فأخـــذ يصفها فانشأ **الشعر الغنائي**

ثم تطوّرت تلك العقلية ، فنظم أولئك الشعراء الشعر الذي يصف الحيـاة الاجتماعية وصفاً دقيقاً ، ونعني به **الشعر التمثيلي** .

هكذا نشأ الشعر عند اليونان والرومان وعند شعراء القرون الوسطى في اوروبا ، وعلى هذه الطريق سلك شعر الهند ، نشأ قصصياً وصار غنائياً ،ولكنه لم يصل إلى التمثيل .

مسلك الشعر العربي : أمّا الشعر العربي فسلك سبيلا خاصاً : ابتدأ غنائياً خطابي اللهجة ولم يزل . لا يصف الجماعة ، وان وصفها فالقسط الأوفر لعواطفه وميوله ، ولذلك كان قصصياً لا تمثيلياً .

فالعربي ، كما قلنا ، لا يعرف من الدنيا الا ّ شخصيته فقبيلته ، فان تكلم في شعره فعن شخصيته اولاً، ولا يذكر قبيلته الا اذا اقتضت الحال ان يفتخر بها، ولذلك لا نرى الشعر العربي الا غزلاً ومدحاً وفخراً وهجاء ورثاء (اكثره أهلي) .

وكل هذا من الشعر الغنائي . أمّا النهضة الحديثة فلا نتناولها بالبحث الآن كما قلنا سابقاً .

النفَس العربي ، الشعر العربي ، بالنسبة لغيره ، قصير النفَس ، قوامــه القصيدة، وأطولها ما أربى على المئة قليلاً. وقِصَر نفَس الشعراء العرب جعلهم يحسبون كل سبعة ابيات قصيدة . وتقيّدهم بقافية واحدة سبب قصر النفَس .

القصيدة : قوامها الموضوع ، والقافية ، والوزن . والأوزان ستة عشر . فالقافية والوزن يلتزمها الشاعر في كل القصيدة ، اما الموضوع فقد يتوصل الى الوصول اليه بدواع عدة ، واليكها :

سياق التصور : غالباً ما يكون هكذا :

راحل راكب جملاً ومعه رفيق او رفيقان . يرى آثار الأحبة فيذكر ايّامه معهم ، فيبدأ بوصف الحبيبة ثم الناقة . يصف وعوثة الطريق ومشقّات السفر—

السفر قطعة من العذاب — ثم يصف الحيوانات التي تعرض فيصطادها ، ثم يتخلص الى غايته التي كثيراً ما يفاجئك بها، وينتقل الى الفخر بالنفس فالقبيلة الخ .

أغراض الشعر : اغراض الشعر عند العرب يسيرة . والبدوي العربي يحب الاختصار في كل شيء حتى في الشعر . فكما ان لباسه مختصر ، فهو يختصر في تصوره ايضاً . ولذلك كانت اغراضه الشعرية قليلة سهلة هينة ، فلا يصف غير مرئياته ، ولهذا فهو لا يكد ذهنك ولا يتعبك .

كانوا أقدر في الصور اللفظيّة منهم في المعاني والابتكار . لبعضهم شخصية واضحة كزهير وطرفة، وبعضهم يندمج بقبيلته، وهذا اقل، كعمرو بن كلثوم، فما معلقته الا قبيلة تتكلم . وقد بدت في سماء الشعر العربي ظاهرة جديدة بظهور النصرانية واليهودية في الجزيرة .

ديباجة الشعر الجاهلي : الشعر الجاهلي سهل متين شديد الأسر ، حلو الوقع في الآذان ، لا تكلف فيه ، متين رصين قليل الغرابة والحوشية ، اذا قسناه بمقياس بيئتهم ومحيطهم ، لا بمقياس بيئتنا وعصرنا هذا .

لم يألفوا الغرابة ، لم يميلوا اليها الّا في بعض قصائد يسمّونها **المعلّقات** . امّا القصائد الرقيقة جداً كبعض شعر المهلهل وعنترة ، فيظن انها ليست من قولهم ، بل اكثرها منحول .

اللغة في الجاهلية : من صفات اللغة في الجاهلية :

أ — مقدرتها على التعبير عن النفس البدوية ومطامحها واغراضها .

ب — مقدرتها على التعبير عن المشاحنات والمنازعات على كل مرافق الحياة .

ج — وصف الوقائع والغارات والانتصارات والمفاخر وما يختلج في الصدر من لواعج .

د — عجزها عن شرح الأفكار العامّة والمعاني المعقولة ، وما يتعلق بما وراء الطبيعة من علوم دينية وغيرها ، لأنهم لم يعنوا بذلك .

العبارة الجاهلية — صفاتها :

أ — استعمال الالفاظ في معانيها الوصفية الحقيقية .

ب — اجتناب تلطيف العبارة .

ج — كثرة المترادف والمتوارد الناتج عن لغات قبائل متعددة .

هـ — الايجاز وهو مزيّة من أهم مزايا الأدب الجاهلي .

النهضة الجاهلية : الذي وصل الينا من الشعر الجاهلي يدل على أنّ أصحابه مقلدون من تقدمهم ، فهم متّبِعون لا مبتدعون .

بيد أن شعر المتأخرين منهم كزهير والأعشى وعنترة والنابغة هو خير ما نُظم في ذلك العهد . فهؤلاء جاروا المتوسّطين كإمرىء القيس وطرفة وابن حلـّزة وابن كلثوم وفاقوا المتقدمين .

فالعهد الأخير من العصر الجاهلي — اي المئة الاخيرة — هو عصر النهضة الجاهلية .

الاسواق : كانت ولا تزال إلى اليوم تقام في البلاد العربية ، في مدن عديدة ومواقع متوسطة . دعا اليها اولاً الاضطرار إلى المقايضة ، لأن الناس لم تكن تتعامل كاليوم بالنقود . كان للعرب كما كان لغيرهم من أمم الارض في طور البداوة أسواق تعرض فيها منتوجاتهم . وهذا لا يزال أثره إلى اليوم في العالم .

بيد أن الإقبال على هذه الاسواق لا يعظم الا اذا كانت الغاية منها دينية كالحج عند العرب .

اسواق العرب : للعرب اسواق كانوا يقيمونها سنوياً فيحضرها السوادالاعظم منهم . ينتقلون من سوق إلى أخرى ، ينزلون دومة الجندل في أعالي نجد في غرة ربيع الاول ، فيقيمون الأسواق للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، ثم ينتقلون إلى هَجَر فيقيمون شهراً ، ثم ينتقلون إلى عُمان ثم إلى حضرَموت فعَدَن ، ثم الى عكاظ في الاشهر الحرام . وكانت لهم أسواق أخرى في المجنّة وذي المجاز .

عكاظ : أشهر الأسواق ، وهو مكان بين نخلة والطائف ، وهي خاتمة الأسواق يقيمون فيها من غرة ذي القعدة إلى العشرين منه ، ثم يتوجّهون إلى مكـّة لقضاء مناسك الحج . كان شرفاء العرب يحضرون من الاسواق سوق بلدهم إلا عكاظاً فانهم كانوا يحضرون اليها جميعهم . ففيها تفصل الدعاوى وتفتدى

الأسرى ، ويطلب الثأر ، ويفاخر العرب بعضهم بعضاً . فقد كان العرب يفاخرون بكل شيء حتى في كبر المصائب .

ثم تطوّرت النظرية فصارت السوق سوق ادب ايضاً .

لقد كانت هذه الاسواق محترمة جداً ، وخصوصاً سوق عكاظ ، لا يدخلها أحد بسلاحه ، بل يسلّمون اسلحتهم لأهل السدانة من قريش . ومن لا يفعل يعرّض نفسه للقتل .

وكان ينادي المنادي في هذه الاسواق على لسان اشراف العرب : هل من راحل فنحمله ، او من جائع فنطعمه ، او خائف فنؤمّنه . وكان الامراء في هذه المجتمعات يتقاضون الضرائب ، والأتاوة .

عكاظ واللغة : لم يكن العرب وحدهم يقيمون مثل هذه المجتمعات الادبية . فعند الرومان كان الجناسيوم مجتمعاً للالعاب ، وفيه كان يتباحث فلاسفتهم وعلماؤهم ويتنافرون كالعرب في عكاظ .

إن أثر عكاظ في اللغة عظيم . فهذه السوق جعلت لغة العرب واحدة . ولولاها لصارت اللغة العربية لغات مختلفة منفصلة انفصال السريانية والعبرية عن أختها اللغة العربية . فاختلاف منطق العرب جعل المترادفات كثيرة ، وهذه اوقعتنا ببلية عين الفعل وغيرها ، تلك التي لا يسلم من الوقوع بها أكبر علماء اللغة ، فللسيف والأسد والجمل الفاظ عديدة جداً لأن كل قبيلة تسميها اسماً . فلما عظم شأن عكاظ عمد الشعراء إلى انتقاء افصح الألفاظ ، طلباً للاستحسان .

لغة قريش: لوقوع عكاظ بين نخلة والطائف كانت السيادة فيها لقريش سدنة الكعبة . والقرشيون رجال تجارة يعرفون كيف يروّجون الاسواق أكثر من غيرهم الذين لا عهد لهم بالتجارة ، فغلبت سوقهم الاسواق كلها لهذا السبب . وهناك سبب آخر لرواجها هو دنوها من الكعبة .

ولما صارت عكاظ سوقاً ادبية ايضاً كانت السيادة فيها للغة قريش طبعاً كما تسود اليوم لغة الاجانب في البلاد المستعمرة .

فعمد الشعراء للغة قريش المُضَرِيَّة تقرباً منهم ، وهكذا قويت لغتهم وغلبت بقية اللهجات .

اقسام الشعر وطبقات الشعراء : يقسم الشعر الجاهلي من حيث الكمية إلى شعراء **مكثرين ومعتدلين ومقلّين** .

يقسم الشعر الجاهلي **من حيث الزمان** إلى شعراء **متقدّمين ومتوسّطين ومتأخّرين** .

يقسم الشعر الجاهلي **من حيث الاجادة** إلى شعراء **متفوّقين وممتازين ومجيدين** .

فالمتفوّقون هم أصحاب المعلقات شعراء الطبقة الأولى: امرؤ القيس ، زهير ، النابغة .

والممتازون شعراء الطبقة الثانية : الاعشى ، لبيد ، طرفة .

والمجيدون شعراء الطبقة الثالثة : عنترة ، عروة بن الورد ، دُريد بن الصِمة ، المرقش الاكبر .

فالشعراء الجاهليون كلهم مجيدون ولكنهم متفاوتون في الاجادة ، وهم طبقات كما سترى .

قال الشاعر العربي :

الشعراء فاعلمنّ اربعه ... فشاعر يجري ولا يُجرى معه
وشاعر يخوض وسط المعمعه ... وشاعر لا تشتهي أن تسمعه
وشاعر لا تستحي ان تصفعه

الطبقة الأولى : شعراء الطبقة الأولى هم أصحاب المعلقات السبع ، ومنهم من زاد عليهم ثلاثة ، ومنهم من جعل النابغة والاعشى موضع عنترة ولبيد . اما المقدمون على الجميع أي **المتفوّقون** فهم : **امرؤ القيس والنابغة وزهير** .

واختلف الناس في أيّ من هؤلاء أشعر من أخيه .

اغراض شعرهم : وصف الأطلال والأحباب ، الفراق والهيام وسوء المصير ، وصف الناقة والقِرى ، مفاخر القبيلة ومآثرها ، مفاخر الشاعر والممدوح ،

وصف الصحراء وما يعرض لهم بها . وبكلمة مختصرة وصفوا كلما أحسوا به من المرثيات وصفاً دقيقاً . إن قوام الشعر العربي في هـــذا الطور كان الوصف من جميع مناحيه والوانه .

مزيّة شعرهم : الدنو من الحقيقة ، البعد عن الخيال والمجاز ، وصف ما تراه العين ، وتسمع به الأذن ويشعر به القلب ، وهذه حقيقة الشعر .

ميزته : سذاجة ، ابتكار معان وتصورات ، متانة تعبير مع خشونة ألفاظ وفخامة ، اختصار وايجاز مع قصد في المجـــاز ، مطابقة المعاني للواقع ، قلّة الغلو والمبالغة ، قلة المعاني الغريبة ، قلة التأنق في ترتيب المعـــاني والأفكار ، الانتقال الفجائي من غرض إلى غرض بلا تمهيد ، بل قد يكتفي الشاعر بأن يقول لك : دع ذا أو عـــدّ عن ذا ، كما نقول نحن اليوم ، في حديثنا : بلا طول سيرة .

ثم مقت استعمال الاعجمي ،وعدم تعمد المحسنات البديعية مثل الجناس،الخ .

أفضلية هذا الطور : يفضّل هذا الطور سواه بكثرة الشعراء المجيدين فيه ، فكل شاعر يفضل غيره بباب يبدع فيه .

فلامرىء القيس : حسن الوصف والتشبيه والابتكار والتصرّف بالمعاني .

ولزهير : الحكم والمدح والصناعة الشعرية ، أي اتقان التعبير .

وللنابغة : التصبّر والاعتذار وجودة القريحة والاحاطة بالموضوع من جميع أطرافه .

وللأعشى : الرنة الشعرية .

ولعمرو بن كلثوم : الفخر والحماسة .

وللحارث بن حلزة : البرهان والحجة .

وللمهلهل : رقة الشعور والشعر والحماسة .

شعراء الجاهلية بحسب التاريخ : اولاً : **المتقدمون** .

يكثرون الغريب من الألفاظ والوصف . معظم شعرهم في وصف الوحوش والأودية القفرة الكثيرة الخطر ، وأشهرهم : الشنفرى وتأبط شراً والمهلهل .

ثانياً : المتوسطون .

طالت قصائدهم ، وتنسقت معانيهم، واتسعت ورقّت أفكارهم ، فرقّت عبارتهم وتوسعوا بالأوصاف المختلفة . اشهرهم : امرؤ القيس وطرفة وابن حلزة وابن كلثوم .

ثالثاً : المتأخرون .

نسجوا على منوال المتوسطين ، ويمتـــاز شعرهم بدقّة الوصف وخصوصاً المحسوسات والاسباب حتى التمام . وأشهرهم : عنترة وزهير والنـابغة والاعشى ولبيد .

الشعراء الاولون

الشنفرى

هو ثابت بن أوس ، أو عمرو بن مالك الأزدي اليمني ، لُقّب الشنفرى لضخامة شفتيه ، أو لحدّته .

أمّا كيف أسره بنو سلامان صغيراً وأدرك ذلك كبيراً وتركهم وحلف أنه يقتل منهم مئة ، وكيف قتل تسعة وتسعين ، وكيف كان يترصدهم ولا يصيب من الرجل إلاّ عينه فيرديه ، وكيف كملت المئة بعد موته ، فهذا ما لا أصدّقه أنا ، امّا انت فصدّق ان شئت .

عدوه : كان الشنفرى من عدّائي العرب وهم : تأبّط شراً الذي يروي صاحب الأغاني قصيدة له في رثاء الشنفرى زميله ، واشتهر تأبط شراً بوصف الأودية وقتال الغول .

ومن عدائي العرب السّليك بن السلكة وعمرو بن البراق وأسيد بن جابر ، وقد فاقهم الشنفرى جميعاً فقيل : « أعدى من الشنفرى » . وبالطبع فهذا العَدْو في الجاهلية يحبّب إلى صاحبه الغزو والنهب ، وما لاميّة العرب إلّا وصف حالة هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين كانوا يخيفون الناس ويقلقون راحتهم . ومعظم شعرهم في غزواتهم ، وهربهم بعد سرقتهم وغزوهم .

لاميته : ٦٨ بيتاً من بحر الطويل ، مطلقة القافية ، عني بطبعها وشرحها كثيرون من أدباء العرب ، وترجمها كثيرون من المتمشرقين الى لغاتهم وطبعوها .

شكّ بعضهم بنسبتها اليه ، ولكنهم اتفقوا على انها تمثل الجاهلية ، ولا يعنينا من أمرها أكثر من هذا .

اغراضها : يبدأها قائلها بالتأهب للرحيل عن قومه لأن في الابتعـاد منأى للكريم عن الأذى، ثم شرع يفضّل الضواري على قومه لأنها لا تبوح بسره مثلهم، ولا تتركه اذا اقترف جريمة . ويقول عن الضواري انها ان كانت باسلة فهو أبسل منها . ثم ينتقل الى وصف عفته عن الطعام ليقنع قومه انه سيعيش في البرية راضياً قانعاً . أمّا رفاقه في هذه الرحلة فثلاثة : فؤاده ، وسيفه ، وقوسه ، التي وصفها ببضعة أبيات .

ولكي يؤكد لهم أنّه لن يعود اليهم يصف شخصيته ويفتخر بنفسه وباعماله . يقول انه ليس من المولعين بالنساء وليس بالجبان ، وليس من المخنّثين ولا الاوغاد القليلي الخير ، او الجاهلين بمخارم الارض . وهنـا يصف جلـّده على الاسفار واحتماله وعوثة الطريق :

اذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي تطايرَ منـه قادح ومفلـّل

امّا الجوع فيقول بشأنه :

أديم مطـال الجوع حتى اميته واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهلُ

واذا اضطرّ فإنه يستفّ ترب الارض كيلا يكون لأحد عليه فضل. وهناك أوصاف شديدة لمعاناة الصبر على الجوع لأن نفسه لا تقيم على الضيم .

ولمّا اشتد جوعه دعا الضواري فألفاها أشدّ منه جوعاً ، واخذ يصف حالها وحالته ، الى ان وصف نفسه بأنه اشد منها ، واسرع عَدْواً حتى أنـه يسبق القطا الى المورد ولو كانت عطاشاً لخمس .

وهو يرى في الترب فراشاً وثيراً ينام عليه هانئاً ، ثم يصف حلمه وعزمـه اللذين لا يطيران حتى في أشد الليالي ظلمة وبَرْداً ، وتلك الليلة التي يصطلي بها الرجل قوسه وسهامه وهي عدة البدوي ، وسلاح المسافر في الصحراء . كل هذا الشقاء والشنفرى ماض في سبيله لا تثني عزمـه المخاوف والأهوال حتى مر

بالغميصاء فأزعـــج الحي والكلاب فاصبحوا يتساءلون عن الطارق أهو أنس أم جنّ .

ولمّا انتهى من برْد الليل وصف ما لاقاه في نهاره من شدة الحر ، وكيف قابل تلك الحرارة المحرقة بوجه لا تؤثر به النار ، وكان له من شعره ظلّ يقيه ، فظل سائراً حتى ادرك الجبال واقام بين الوعول . آه .

وللشنفرى شعر غير هذه اللامية اهمها تائيته التي مطلعهـــا : ارى أم عمرو ازمعتْ ثم ولّتِ الخ .

شعره : شديد الأسر ، خشن المبنى والمعنى . وماذا تطلب من واحد اليف وحوش ويعيش كالوحوش، دقيق التصوير، وصفه حقيقي، مادي، تام الاخراج، قويّ الخيال ، بديهي .

المهلهل

ابو ليلى عدي بن ربيعة التغلبي ، شاعر يمني نجدي ، لم يُرْوَ لاحد قبله شعر طويل . سمّي المهلهل لأنـــه أول من هلهل الشعر اي جعله رقيقاً ، وقال فيه الغزل .

عاش في أول حياته رجل لهو وقصف وسكر ، حتى سمّاه اخـــوه كليب « زير نساء » .

قال معظم شعره في رثاء أخيه كليب الذي قتله جساس بناقـــة البسوس التي عرفت حرب تغلب والبسوس بإسمها ، وبشؤمها ضرب المثـــل « اشأم من البسوس » .

لم يكن سبب مقتل كليب تلك الناقة ، إنما قتل كليباً بغيـــه . كان كليب ذا بغي .

شعره : يُلتمس الشاعر في البيئة التي توجده . فالشاعر أثر من اثار البيئـة والزمان والجنس .

كان المهلهل اميراً لاهيـاً سكيراً محباً للنساء كما يصفه لنا المؤرخون ، فرقّ شعره ديباجة وسهل معنى .

أغراض شعره ، ديباجته : رثاء ، غزل ، وصف الخمر والحروب ، تهديـــد ووعيد ، اتفق والخنساء في موضوع واحد هو رثاء الأخ .

سهل الألفاظ ، سهل التركيب ، لا شدّة فيه ولا أسر ، تتدفق منه العاطفة تدفقاً . تقرأه فتشعر أنــك تقرأ شعر رجل من معاصريك ، حتى تخال نفسك

شريكاً له في بلواه .

خير قصائده :

أهاج قـــذاء عيني الاذّكار هـــدوءاً فالدموع لها انحدار
كليب لا خير في الدنيا وما فيها إن انت خلـّيتها فيمن يخلّيها

امّا صاحب جمهرة العرب فنقل له القصيدة التي عرفت بـ « الداهيـــة » ، واحصاها في مصاف « المنتقيات » . واليك مطلعها :

جارتْ بنو بكر ولم يعدلوا والمرء قد يعرف قصد الطريق

وأظنّه عدّها من المنتقيات لأن فيها بعض الألفاظ الغريبة التي كان يألفهـا الجاهليّون ، ولأنها اكثر بقية قصائده متانة وشدة اسر .

الشنفرى والمهلهل :

شاعران مختلفان معنى ومبنى ، وإن كانا من الشعراء الأولين ، فكأنهما لم يعيشا في عصر واحد ، بل كأن بينهما الف عام .

اما الأسباب فاليكها :

عاش الشنفرى كما مرّ بك عيشة شظف وخشونة ليس بعدها خشونة ، في بيئة هي أخشن البيئات كما مثّلها في لاميته ، فجاء شعره خشن المعنى والمبنى .

انت تكره تلك الخشونة وتأنس بسهولة المهلهل ورقته . انما عليك ان تعلم :

ان الشنفرى أليف المحسوسات ، لا يصف الا السلب والنهب ، وما يتبعهما من اهوال ومخاوف ، فترى ذلك الجفاء وتلك الغلظة في نظمه ، لأن الموضوع يتطلبها ، فهما اذن متفقان كل الاتفاق مع موضوعاته .

وبالعكس المهلهل فإنه رقّ لأنه عاش عيشة ترف ورخاء ، فبعـــد عن كل خشونة .

فإذا رأيت شاعراً يصلب ويلين ولو في القصيدة الواحـــدة فلا تعلل ذلك بالانتحال ، بل انظر إلى الموضوع والمعاني، فقد يستدعي معنى ما رقة وعذوبة لفظ كما يستدعي معنى غيره شدة اسر وخشونة لفظ . وقد يكون ذلك كله في قصيدة واحدة .

اصحاب المعلقات السبع

الشاعر : الشاعر علم القبيلة وخطيبها المـُدرَه ، ولذلك كان له المقام الاول في القبيلة ، وكانت القبيلة تهنأ ، كما قال صاحب العمدة ، «ابن رشيق» بظهور شاعر فيها لشدة احتياجها اليه ، فتولـَم الولائم وتـُقام الافراح .

ولذلك ترى اكثر الشعر الجاهلي خطابي اللهجة لأنـه كان يلقى على الجماهير . ولا بدع في ذلك فالشاعر كان الخطيب ، في المفاخرة والمنافرة الخ .

وما هذه العاطفة التي تراها في مطلع كل قصيدة إلاّ نتيجة تنقـّلهم المستمر الذي يولد فيهم هذه العواطف ، فيصوّرونها لك شعراً يعرب عمـا في نفوسهم من تأثر .

فما العربي الجاهلي إلاّ مسافر لا يقرّ له قرار ولا ينام الا على سفر

المعلقات : هذه القصائد اختارها الرواة القدماء ، فمنهم من عدّها سبعاً ، ومنهم من عدّها عشراً بحسب الغرض والميل . وهكذا صنـّفوا الشعراء طبقات اولى فثانية فثالثة حتى العاشرة .

فالبصرة قدّمت امرأ القيس لأنها يمنية ربعية ، والكوفيون قدّموا الأعشى ، وأهل البادية والحجاز قدموا النابغة وزهيراً لأنهما مواطنان لها ، وعلى هـذا القيام صنـّفوا مراتب أصحاب المعلقات .

سمّوها **المطوّلات ثم المعلقات** ، وسيّان عندنا أعُلقت على أستار الكعبة أم لم تُعلـّق فلا يعنيني ان ابحث في هذا الأمر .

هذه القصائد عني بها فريق من الأدباء فشرحوها وفسروها وذهبوا فيهـا

مذاهب شتى . فمنهم من أنكر صحتها كلها ، ومنهم من شك ببعض أبيات منها، ومنهم من اختلف بروايتها ، ومنهم من اغفل كثيراً من الشعراء الذين لا يقلون اهمية و شأناً عن أصحاب هذه المعلقات .

أصحاب المعلقات : امّا أصحاب المعلقات الذين يهمنا درسهم فهم : امرؤ القيس ، طرفة ، زهير ، لبيد ، عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلـّزة ، عنترة .

امرؤ القيس

نسبه : الملك الضليل ، ابو الحارث جندح بن حجر الكنديّ ، شاعر يماني ، حامل لواء الشعر في الجاهلية ، الفاتح فيه فتحاً مبيناً . لا أرى أسلوب عمر بن ابي ربيعة الا وليد أسلوبه . طالع بدقة معلقته وقصيدتـــه اللامية : « الا عم صباحاً ايها الطلل البالي » ، فتشاركني في الحكم .

أبوه ملك كندة ، وخالاه كليب والمهلهل ، وهنا أبدي رأياً آخر ، وهو أن العذوبة الشعرية في شعر امرىءالقيس والمهلهل وابن كلثوم متأتية عن هذا النسب ، كما تأتّت الديباجة التي سيأتي الكلام عليها في شعر زهير ومدرسته .

عاش امرؤ القيس كما عاش المهلهل يسكر ويلهو ويقامر وينادم ويلحق بالنساء ويتشبّب بهن . فغضب لذلك أبوه وركب الفتى رأسه ، وانصرف الى الملذّات حتى ُقتِلَ أبوه لعسفه في حكمه وارهاقه الرعية وقسوته في الجباية .

فهبّ امرؤ القيس من سكرته عندما القيت التبعة عليه وصار مسؤولاً عن دم أبيه ، فكان في حالته هذه أشبه بخاله المهلهل ، فاستنجد قبائل العرب فلم ينجده الا قليل منهم .

قاتل بني أسد قتلة ابيه ، فانجدهم المنذر احد ملوك الحيرة وناهض امرأ القيس لعداوة قديمة بينه وبين الحارث َجدّ امرىء القيس ، فغُلب امرؤ القيس على امره وفرّ من وجههم ، ونزل على السموأل فاودعـــه دروعه وابنته وكل ما له من متاع .

وذهب الى ملك الروم يستنصره على مناوئيه ، شيعة المناذرة التابعين للفرس ،

والفرس ، كما نعلم ، اعداء الروم في جزيرة العرب .

يقال أن قيصر انجده ثم عدل ، ومنهم من ينكر ذهابه الى قيصر الروم ، وحجته ان امرأ القيس لم يصف شيئاً من مظاهر القسطنطينية .

والعالم بنكبته لا ينكر ذهابه الى القسطنطينية لأنه لم يصفها ولم يصف إحدى كنائسها فأظن انه كان في شاغل عنها !

وهب أننا قلنا وصفها ، فكيف يصل الينا ما قاله فيها ونحن نعلم انه مات على الطريق .

امّا قولهم أنه مات بحلّة مسمومة ارسلها اليه قيصر فهو ما لا اصدقه . ولا أظن الا أنه مات بالجدري . هذا أصح تأويل لتلك القروح ، وقد ثبت تاريخياً ان الجدري كان منتشراً في السنة التي مات فيها . ويقولون أنه دفن في انقره حيث لفظ روحه .

شعره : ١ — تشبيب ووصف أيام الصبا ، وذكر حوادث غرامية . شكوى وألم في المحنة ، ويعذره من أنكروا وجوده لأنه رقّق النسيب وأجاد الاستعارة وتفنّن بالتشبيه ، لما تقدّم من الاسباب .

٢ — تصرّف في المعنى الواحد بطرق عديدة ، وهذا تجديد البيان العربي .

٣ — وصف دقيق مطابق للحقيقة والواقع .

٤ — ابتداع اسلوب جديد اتّبع ولا يزال بعضهم يمشي على الطريق التي شقّها لهم .

٥ — في شعره تهتّك وفحش ، الى جانب النبل والسيادة .

٦ — في بعض شعره عبارة جافية ، ألفاظ خشنة ، ومعانٍ قد تغرب عنك ، وإلى جانب كل هذا : ديباجة حسنة ، معنى بديع ، رقة نسيب ، سهولة مأخذ ، وعلى منواله نسج الذين جاؤوا بعده . وبكلمة مختصرة : انه زعيم الشعراء الوصّافين في هذا العصر .

معلقته — موضوعها : ذكر الأطلال والبكاء عليها ، ذكرى عنيزة ويوم دارة جلجل ، وصف الليل وتشكي طوله ، وصف الوادي والمطر والوحوش والفرس

والبرق ، وكاد يكون صادقاً في كل ما قال .

وتفوق معلقته غيرها بما يأتي :

١ – ابتداع طريقة اتبعها بعده الشعراء ، فكأنها كانت الطريق المعبدة حتى آخر العصر العباسي . واستطيع القول ان شعر النهضة الأخيرة لم يخل من التأثر بها .

٢ – وصف صحيح ، تشابيه مبتكرة ، مطابقة للواقع لم يسبق اليها ولم يلحق بها ، فقلما خلا بيت من تشبيه ووصف معاً .

٣ – قوة التصرف بالمعنى الواحد ، فيكون المعنى حسب المقام ، فلا يمل بالإسهاب كطرفة ولبيد بوصف الناقة ، ولا يخل بالايجاز .

٤ – فيها بعض الفاظ ينفر منها السمع ، وقد تجاوز حدود اللياقة والكياسة ببعض تعابير وأوصاف فكان كلامه فيها من نوع الأدب العاري .

٥ – فيها وصف خمسة اشياء : النساء ، الليل ، الخيل ، الصيد ، المطر وما يتخلله ويعقبه الخ .

وبكلمة مختصرة نقول : لو قام الشعر بالوصف والتشبيه فقط لكانت خير الشعر .

طرفة بن العبد

سيرته : طرفة بن العبد ، شاعر بكري من ربيعة . أقصر فحول الشعراء الجاهليين عمراً ، واجودهم طويلة ، واوصفهم للناقة .

طواه الردى في ميعة الشباب . سمّاه المتقدمون « ابن العشرين » لأنه مات في تلك السن ، او ما يناهزها .

يُروى أنه نادم النعمان ، ومنهم من قال عمرو بن هند ، مع خاله المتلمس . ثم توتّرت العلاقات بينهما لاسباب لا تهمّنا معرفتها ، فسلّم النعمان كلاً منهما رسالة إلى عامله في البحرين ، فأخذا الكتابين معتقدين ان فيهما جائزة او صلة ، فإذا الامر بالعكس ، لأن المتلمّس شك فأقرأ كتابه غلاماً من الحيرة ، فاذا فيه امر بالقتل . فالقى المتلمس كتابه في النهر وهرب الى الشام . وفي صحيفة المتلمّس يضرب المثل ، وقد قال الشاعر فيه :

القى الصحيفة كي يخفف رحله ‏ ‏ ‏ والزاد ، حتى نعله القاها

وعاش المتلمّس بقيّة عمره يهجو النعمان ، ويدعو العرب الى عصيانه .

امّا طرفة فلم يشك ، وظل سائراً في طريقه الى البحرين حيث قتله عامل النعمان فمات ولما يتمتع بشبابه الا قليلاً .

شعره : على قلته قيّم ، ممتع ، (عموماً) شديد الأسر ، متين النسج ، (احياناً) معقد التركيب ، كثير الغريب ، مبهم المعنى .

جيّد الوصف ، مع عدم تطرّف في الغلو ، يدل شعره على نفسية عاتية جبّارة ، لا تنظر الاّ إلى الساعة التي هي فيها . يرى الدنيا على حداثته بعين

الحكيم المجرّب .

معلقته – اغراضها : وصف الدار وآثارها ، تغزّل ، وصف الاحباب وسفرهم ، وصف الناقة ، افتخار بالنفس ، زهد بالحياة ، يأس منها ، حكم .

مميزاتها : متينة اللفظ والأسلوب ، يكثر فيها الغريب في مواضع وتسهل في مواضع ، غزيرة المعنى ، دقيقة الوضع والوصف إلى حد الاسهاب الممل .

هي من أجود المعلقات السبع ، تمثل حياة صاحبها الخاصة ونفسيته ، والمثل الاعلى في الحياة الجاهلية ، وهذا مكتسب من المحيط وتقاليده .

أسهب من وصف ناقته ، فاغرب في الألفاظ والمعاني لاضطراره الى الفاظ وضعية .

أهم ما يلفت النظر في معلقته ، نظره الى الحياة ويأسه منها ، ومعرفته أنه فانٍ . فلماذا لا يتلذذ في حياته ويقابل منيته بكل ما يملك ؟

ثم يعلن رغبته في الحياة لثلاثة أسباب هي لذّاته الثلاث : الحب والشرب والحرب .

وإذا تساءلنا عما جاء به طرفة من فكرة فلسفيّة فلا نجده جاء بالبدع ، ولم يقل الاّ ما يعرفه كل رجل رأى وسمع . أنصت الى مناقشة اهل قريتك لتصدّقني .

زهير بن ابي سلمى

نسبه : زهير بن ابي سلمى المزنيّ ، نشأ في غطفان، وان كان نسبه فيمزينة، فهو شاعر قيسي مضري .

بيته: جلّ أهل بيته شعراء ، رجالاً ونساء ، أخذ الشعر والحكمة عن خال أبيه بشامة بن الغدير احد اشراف غطفان . كان خال ابيه بشامة هذا مقعـداً فلزمه زهير فتخلـّق باخلاقه .

زهير الراوية : كان أوس بن حَجَر شاعر مضر في زمانه ، فلزمه زهير ، فروى عنه الشعر ، فتأثر به في عمل الشعر ، ثمّ فاقه فأخمله .

المدرسة الشعرية : رأى طه حسين بالاستنتاج من اقوال القدمـاء ، ورأيه حق ، ان رواية زهير لشعر أوس بن حجر كوّنت مـدرسة شعرية ، امتازت بوصف المرئيات والمحسوسات ، مؤسسها أوس بن حَجر زوج ام زهير . اتبـع طريقة هذه المدرسة زهير فإبناه : كعب وبجـير ، والحطيئة الذي كان راوية زهير ، والنابغة . ثم امتد بهذه المدرسة إلى جميل الذي اخذ عن الحطيئة وتأثر بطريقته ، فكثـّير الذي أخذ عن جميل وتأثر به .

إن أهم مميزات هؤلاء الشعراء المأخوذة عن استاذهم الأكبر أوس هي :

١ ــ الخيال المادي الحسي ، حتى جاء شعر أوس أشبه بالتصوير منـه بأي شيء آخر .

٢ ــ الفن ، أي اتخاذ الشعر صنعة وحرفة فيمحّصه ويتعلمه صاحبه عملياً وينشئه بامعان وروية ، ولا يقوله عفو الطبع .

وعلى هذا النمط درج زهير في حولياته وبقيّة شعره ، وهكذا فعل الحطيئة الذي سمّاه الاقدمون **عبد الشعر** ، لكثرة تجويده واطالة النظر فيه .

التكسب بالشعر : كان اشراف العرب يأنفون ان يقولوا الشعر ، فهل الشعر معرّة ؟

لا لعمري ، ولكن تكسّب بعض الشعراء به وجعْلهم إيّاه وسيلة للإرتزاق جعل نبلاء العرب يتجافونه . امّا كيف نشأ التكسب بالشعر فأقول كلمة هي رأي خاص ، وهي أن ميل العرب الى المنافسة في الجاهلية جعلهم يحملون بعض الشعراء على مدحهم واعطوهم مالاً لقاء هذا العمل فشاعت الفكرة واستغلها الشعراء .

امّا تكسب زهير بالشعر فلم يكن مبتذلاً مكروهاً ، ولم يحطّ من قدره كما حطّ من قدر راويته الحطيئة .

مدحه : قال زهير معظم شعره في مدح هرم بن سنان ، وهو سيد غنيّ توسط مع الحارث بن عوف في الإصلاح بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب « داحس والغبراء » ودفعا ديّات القتلى من مالهما ، وقد بلغت ٣٠٠٠ بعير .

شخصيته : كان زهير حكيماً طيب النفس ، مؤثراً للخير ، محبّاً للسلم داعياً اليه ، ولو كانت جائزة نوبل للسلم في زمانه لأخذها واستراح من تعب الفكر .

شعره : عفيف القول ، وجيز اللفظ ، غزير الحكمة ، تهذيب كثير ، لا تعقيد ولا حشو ، مدح صادق ، لا سخف ولا هذر في كلامه ، شديد الاعتماد على الحواس في اخراج صوره الشعرية ، برّز في الحكمة العامة والامثال ، وقد يكون شق الطريق لمن جاؤوا بعده وقالوا الحكمة في شعرهم كأبي العتاهية والمتنبي والمعري .

دقيق التصوير ، يسير اللغة ، منسجم التركيب .

معلقته — موضوعها : ذكر الديار ، وصف رحيل الاحباب ، وصف الحرب وشؤمها ، ذكر حزنه ، مدح هرم والحارث ، وصف زهده في الحياة

وسآمته ، حكم عامة .

صفتها : متينة الألفاظ والتعبير ، اكثر ابياتها صور محسوسة ، اعتمد عليها ليصل الى غايته وهي المدح ، ولذلك لم يبحث في معلقته بحث امرىء القيس وطرفة . ومع ان غرضه وهو المدح لا يمكنه من اظهار شخصيته ، فقد استطاع ان يرينا شخصية انسانية عامة النزعة في عهد لم يكن فيه أثر ألّا أثر القبيلة .

انتقل إلى المدح بلا تخلص ولا حيلة ، ومدح صاحبيه بطريقة قصصية . وقد اصاب ، لأن سرد القصة الواقعية عن عمل نبيل كعملهما ، هو اعظم مدح .

وبعد ان امتدح عملهما واصلاحهما بين قبيلتين كبيرتين أخذ يعرض أمامنـــا صوره في تقبيح الحرب ، فجاءت هذه الصور أشبه بصور السينما الناطقة حتى لتكاد تسمعك الضوضاء .

ثم أعاد الكرة على صاحبيه فمدحهما حتى شبع . وبعد أن أخذ قسطاً قليلاً من الراحة وجّه نظره إلى الانسانية جمعاء فقال :

« سئمت تكاليف الحياة الخ ... »

وفي أبياته الأخيرة هذه يتّصل بطرفة من حيث النظر في الحياة .

فكلاهما لم يهتد إلى حل لغز الحياة الا كما تراءى له وبما أوحي به اليه ، وبما اعتقد انه خير حل لمعضلة الحياة والعيش .

رأى طرفة الحياة فراح يجني ثمار ملذاتها ، ويلبي من دعاه إلى الجلّى ، امّا زهير فلم يفكر الا بما اخذه عن خال ابيه المقعد ، والمقعد لا يدعو إلى السيف .

لبيـد

حياته : ابو عقيل ، لبيد بن ربيعة ، عامري ، من قبيلة قيس ، مضري .
عمّر طويلاً بدليل قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

عاش في الجاهلية عيشة الشعراء الفرسان الاغنياء ، قال أكثر شعره في الجاهلية . دخل الاسلام وشغل عن الشعر بحفظ القرآن وتلاوته . ويقولون إنه لم يقل الا بيتاً واحداً في الاسلام هو احد هذين البيتين :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح
او الحمد لله لمّا يأتني أجلي حتى لبست من الاسلام سربالا

خصاله : جواد ، شجاع ، فاتك ، ورث الجود عن ابيه الملقب بربيعة المعترّين ، والشجاعة والفتك عن قبيلته ، فعمه ملاعب الاسنة ، فارس مضر .

عاش بعد فتح العراق في الكوفة عيشة وداعة وكرم ، ينفق ماله على الضعفاء الجياع ، حتى كان والي الكوفة يسأل الناس ان يعينوه على مروءته ، وقد ارسل اليه ، كما يروى ، ١٠٠ ناقة بَكـْرة ، لأنه ألزم نفسه في الجاهلية « الا تهبّ الصبا إلا أطعم » وبقي على ذلك في الاسلام .

أغراض شعره : لم يقل الشعر الا كما قاله الشعراء الفرسان ، فلم يتكسّب به . قاله بالفخر والفتوة والنجدة والكرم وإيواء الجار وعزة القبيلة . في شعره الحكمة والموعظة .

في رثائه التعزية والحكمة ، وهو احد الرثّائين الثلاثة : المهلهل والخنساء ،

ويزيدهما بما يمزج به رثاءه من الحـكم .

ديباجته : جزل الألفاظ ، فخم العبارة ، دقيق المعنى ، لا لغو ولا حشو ، لا غرابة لفظ ولا تعقيد معنى .

معلقته - اغراضها : ذكر الديار ، وصف الناقة ، وصف نفسه لاهيـاً متغزّلاً ، جواداً في السلم ، باسلاً مخاطراً في الحرب .

الافتخار بنفسه وقومه ووصفهم بخير الخلال الجاهلية التي يتعشّقها العرب وهي تمثل الحياة ومطمح اصحابها .

ديباجتها : متينة لفظاً واسلوباً ، صلابة وفخامة ، حتى في اسهل ابياتها . تشابيهها لطيفة ممتعة وخصوصاً عندما يصف ناقته ، وهو في كل هذا لم يعمد إلى الكذب والغلو .

والخلاصة إنه شاعر قوي يستمد قوته من صدقه وإخلاصه وايمانه الشديد بالمثل العليا الأخلاقية البدوية التي يسمو اليها .

عيب : في معلقته هفوة نحوية في هذا البيت :

ترّاك امكنـــة اذا لم أرضها أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

فلا داع هنا لجزم يرتبط .

عمرو بن كلثوم

حياته : هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مـالك التغلبي ، زعيم تغلب وفارسها وشاعرها .

أمه بنت المهلهل أخي كليب . نشأ بالجزيرة الفراتية شاعراً خطيباً . قـاد قبيلته في « ايام » جمّة كان الظفر حليفه في معظمها .

أما ايّام تغلب فكانت مع اختها قبيـلة بكر ، إلى أن كان الصلح على يد عمرو بن هند آخر ملوك الحيرة من آل المنذر .

يقولون انه بعد الصلح بقليل اجتمع وجوه تغلب وبكر في مجلس عمرو بن هند وتلاحوا حتى التشاتم ، واذ ذاك أنشد الحارث بن حلـّزة معلقته « آذنتنا ببينها اسماء » .

وبعد إنشادها خرج عمرو بن كلثوم غاضباً من مجلس عمرو بن هند لأنه رأى ميله مع البكريين .

شخصيته : أبيّ النفس ، عظيم الهوس والنخوة ، جريء النفس عزيزها ، لا يهاب انساناً ولو ملكاً ، لا تستطيع أن تفصل شخصيته عن قبيلته في شعره .

شعره : حسن اللفظ ، منسجم العبارة ، واضح المعنى ، رشيق الاسلوب ، حافل بفخر لا يضاهى ، نبيل القصد والمرمى ، يقول شعره لحاجة في نفسه .

معلقته - أغراضها : غزلية خمرية ، قصصية – أي أنه يصف حادثته مع عمرو بن هند عندما حاول استخدام أمه ، حماسية فخرية بالنفس والقوم ، فيها شيء من ملامح الملاحم .

ديباجتها : كما جاء في وصف شعره ، لا غرابة فيها ، اتفاق تام بين أغراضها وألفاظها ومعانيها ، رنانة طنانة .

محاسنها :

١ — نفس شعري متصل من المطلع حتى ختامها الجميل .

٢ — مملوءة عاطفة وشاعرية .

٣ — شعرها سليقي فطري لا تكلّف فيه .

٤ — حافلة بالطلاوة والرونق والمتانة إلى جانب الحمية والزهو والحماسة .

٥ — جاء فيها على موضوعات شتى جمعها في موضوع واحد وهو هذه القصيدة

٦ — فيها محسّنات الشعر اللفظية كالتشابيه والاستعارات المطابقة للواقع .

٧ — إفناء شخصيته في شخصية قبيلته ، فكأنّ القصيدة قبيلة تتكلّم لا سيدها وزعيمها . وهذا يدلّنا على زعامتـه الحقيقية في رهطه ، فكأنه يعتبر قبيلته شخصيته نفسها .

٨ — إننا نسمّيها بحق « انشودة الشباب » لإنطباقها على ميوله واهوائه .

عيوبها :

١ — ترديد بعض الأفكار ومراجعتها .

٢ — تنسيقها غير واضح .

٣ — ضعف الارتباط ما بين أغراضها .

٤ — غلو زائد ، على غير ما ألفناه من شعراء الجاهلية ، انما يصيّره مقبولاً حسن الابتكار ، وتوطّيء له الحماسة .

مدرسة أخرى : المهلهل وامرؤ القيس وعمرو بن كلثوم مدرسة واحدة ، منشئها المهلهل ولم يخرج عن منهاجها عمر بن كلثوم ، وإن اختلف عنها امرؤ القيس في معلقته، كما خرج المهلهل بـ « الداهية » التي عدّها صاحب جمهرة العرب من المنتقيات .

وللوراثة عملها في هذه المدرسة . فهؤلاء الشعراء من سلالة واحدة .

الحارث بن حلزة

نسبه : الحارث بن حلّزة اليشكري ، البكري كان من اليشكريين كابن كلثوم من التغلبيين .

معلقته : قيلت في مجلس عمرو بن هند كما تقدم . يقولون انه قالها ارتجالاً – ولا اظن ذلك – دفاعاً عن قومه .

اغراضها : تغزل ، وصف الناقة ، مدح الملك عمرو بن هند ، الفخر بقومه وذكر كثير من ايام العرب ، تعييب بني تغلب .

ديباجتها : محكمة النسج ، متينة السبك ، وجيزة الوصف ، رشيقة العبارة ، بليغة ، أي انها تجمع معاني كثيرة في قليل من الالفاظ ، كثيرة الغريب ، عديدة الفنون ، شديدة الارتباط .

محاسنها :

١ – التحام شديد وبراهين تدريجية قاطعة لاثبات القضية بجلاء .
٢ – تهكّم ذو أسلوب خاص في تعييب التغلبيين ، وإلقاء التبعة على التاريخ .
٣ – حجة قوّية ، دفاع بلا اندفاع .
٤ – مخاطبة الملك كما يود الملك ، بخلاف عمرو بن كلثوم فإنه خاطبه كندّ له .
٥ – تبين مناصرة البكريين لعمرو بن هند ، وخذل التغلبيين له .

اما « الخدم » التي بيّنها الحارث فهي : ١ – مساعدتهم اياه . ٢ – تخليص امرىء القيس من السجن واخذهم بثأر أبيه من بني كندة . ٣ – القرابة بين ابن هند والبكريين .

اما عيوبها فهي :

١ — الاقواء ، وهذا وارد في الشعر الجاهلي .

٢ — كان صاحبها خطيباً اكثر منه شاعراً ، ولهذا قلنا انها غير مرتجلة كما زعموا .

بين المعلقتين : الشعراء ، وخصوصاً الشباب ، يفضلون معلقـــة ابن كلثوم لحماستها ورنتها وسهولة فهمها وقوة نفسها الشعري، واستيفاء كل معاني الموضوع بلا ضجر ولا ملل .

امّا الخطباء ، فيفضلون معلقة الحارث بن حلـّزة على كل معلقـــات العرب لحججها وبراهينها القاطعة . وبكلمة نقول: ان الحارث ادهى من عمرو بن كلثوم فاستطاع بمداورته ان يستميل الملك ويوقفه في صف قبيلته ، فكان ما كان بينه وبين عمرو بن كلثوم ، ان صدقت الرواية .

ولا بد من كلمة أخرى بشأن معلقة الحارث ، فهي أمتن وارصن من اختهـا الكلثومية .

عنترة

نسبه : عنترة بن عمرو بن شداد العبسي ، من الشعراء الفرسان ، احد اغربة الجاهلية وهم : خفاف بن ندبة ، وابو عمر بن الحباب ، والسليك بن السلكة . ابوه سيد عبسي وأمّه أمَةٌ حبشية . نشأ عبداً كعادة العرب في ابناء الإماء وقد حررته شجاعته كما يروي لنا الرواة . كان بطل حرب داحس والغبراء ومات بعد ان عمّر طويلاً .

في شعر عنترة اشارة إلى كل ما يرويه الرواة عنه. ولهذا يُشك في صحة نسبة كل هذا الشعر إليه . فهو يخبرنا في هذا الشعر عن عبوديته وعن فروسيته وعن سواده .

إننا إلى الشك اميَل في هذا الشعر ، فهو موضوع مع القصة المعروفة باسم « عنترة » والقصة من إنتاج اقلام القرن الرابع كما سنتكلّم عن ذلك حين ندرس القصة في الادب العربي .

شعره : سهل اللفظ بالنسبة للجاهليين ، منسجم التركيب ، فخم ، رنان الاسلوب ، بعيد عن الكلام الوحشي ، جليل الوصف ، رقيق الغزل عفيفه ، وقد قيل ان النبي (صلعم) قال : « ما ذكر لي شاعر واحببت أن أراه الا عنترة » . وهو يقصد بهذا القول أن عنترة عفيف القول وعفيف الفعل لم ينزل عن المستوى العربي الرفيع وهو القائل :

واغضّ طرفي ان بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

معلقة عنترة - موضوعها : ١ – ذكر الديار والاحباب . ٢ – الغزل .

٣ – وصف ناقته وجـــواده . ٤ – وصف شربه الخمر . ٥ – فخره بنفسه وسيفه . ٦ – اعتزازه بها . ٧ – وصف النزال والطعن وتقتيـل الفرسان . ٨ – عزّته بقومه . ٩ – شتم شاتميه .

الكبت : كان معيناً لعنترة على قول الشعر ، لأن العاطفة متى اتقدت يسهل قول الشعر على الشاعر ويدخل قلوب سامعيه ، بعكس الشاعر الذي لا يحسّ شيئاً فإنه لا يوفّق مهما كان مجيداً .

مركب النقص : « كل ذي عاهة جبّار » هذا ما قالته العرب قبل الوصول إلى معرفة العقل الباطن في علم النفس ، فكل فراغ عند الإنسان لا بـدّ له من ملء . فعندما يحسّ الرجـل أنه ينقصه شيء ، يسعى إلى الحصـول عليه من جهة أُخرى .

اسلوب عنترة : هو أقرب الشعراء الجاهليين الينا ، فلسفته سهلة وعبارته هينة ومعانيه سامية ، فهو لم يلهِ نفسه بالسفاسف ومـا عالج الا كل موضـوع اخلاقي ، فوصف نفسه بأنه متنزه عن كل هذه الاشياء ، وقد عمل بما قال ، كل ذلك بصورة لطيفة ذات تشابيه واستعارات من حياة راقية ، لا كما رأينا عند امرىء القيس مثلاً حين راح يشبّه اصابع عنيزة بالديدان .

لا أثر للكلفة والتعمد في قصيدة عنترة ، ولا عيب فيها الا الانتقـال من غائب إلى مخاطب ، ولكن بصورة مستحبة ، وهي لا تخلو من ألفـــاظ وان كانت كريهة وقبيحة الوقع في السمع لكنها مفهومة . يتنقّل سريعاً من موضوع إلى آخر ، فتبدو قصيدته كأنها مفككة ، وقد استعمل هذا العبد الفاظاً جميلة مثل « دار لآنسةٍ » و « حامي الحقيقة » الخ .

فخره : كان عنترة يفخر بنفسه ولا يخرج في شعره عن وصف ذاتـــه ، وسبب ذلك مركب النقص والكبت . فإذا فتّشنا عن شاعر عربي مغرم بذاته « نرجسي » لم نجد له مثيلاً ، ففخره يتناول جميع ما تفخر به العرب من شجاعة وجود وفروسية ودفاع عن الحوض . وهو في هـــذا يختلف عن شعراء الفخر كالشريف الرضي الذي يفتخر اكثر ما يفتخر بنبل أصله وشرف جدوده ، بينما

عنترة والمتنبي لا يفتخران إلّا بشخصهما كقول المتنبي مثلاً :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي   وبجـــدّي سموت لا بجدودي

تأثير سواده : كان عنترة في جهد جهيد من سواده وهو لا يعرف كيف يتخلص من نكبته ، فإذا بإحساسه يحمله يشعر بأن هذا السواد لا بد له من ماحٍ ، فلجأ إلى الصور الشعرية التي لم يوفّق اليها أسود غيره ، قال :

يعيبون لوني بالسواد جهالة   ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

تعيرني العدى بسواد جلدي   وبيض فعـــائلي تمحو السوادا

والمتنبي يلتقي مع عنترة عند كافور فيقول له : « ابا المسك » .

تفضح الشمس متى تطلع الشمس   بشمس   منـــيرة   سوداء

كما شبّه الملوك بكتيبة من الخيل تتسابق في الميـــدان وكافور هو المجلّـي : « سوابق خيل يهتدين بأدهمٍ » .

شعره الملحمي : نلتقي مع هوميروس بقصّة عنترة عندنا ، وسيأتي الكلام على هوميروس ، ونرى ان قصـــة الإلياذة شديدة الشبه بقصة عنترة . والناس مختلفون حول عنترة ، فمنهم من ينكر وجـــوده كما أنكر بعضهم وجود هوميروس. وسيّان عندنا أوُجد عنترة أم لم يوجد فنحن ننظر إلى هذا الشخص الذي تعجبنا أخلاقه وفروسيته فنحبه ونعجب به .

وأخيراً أقول في هذا البطل : سيّان عندنا أكان هجينـــاً ، أم كان غراباً ، مشقوق الشفة . ومـــاذا تهمنا أمّه ، فلتكن زبيبة ، أو زيتونـــة ، أو تفاحة . المهم خلق الرجل وشجاعته ، وهـــذان لا يشك بهما أحد . وإذا لم يكن قد وجد ، فالفضل للذي أوجده . ولا بأس علينا إذا كرّمناه كما نكرّم الجندي المجهول . هب أنه شخص روائي مثل شخوص سرفنتس وموليير والجاحظ ، أفما صار هـــؤلاء كالأشخاص الأكابر الذين عـــاشوا على وجـــه الأرض ؟ فلينعم عنترة بالاً .

انواع الشعر الاخرى

الرثاء : هو عندي أصدق أغراض الشعر إذا قيل عن عاطفة ، كما كان يقوله المهلهل ، وامرؤ القيس ، ولبيد ، والخنساء ، وكما قالته جليلة . وأرى ابعده عن الشعر ما كان من الرثاء الاصطناعي .

ان الرثاء الاصطنـــاعي لأشبه بقول النوادب في المآتم ، يرددن اقوالا لا يشعرن بما فيها من التأثير والعاطفة .

لم يقل شعراء العرب في الجاهلية الرثاء الا في اخوانهم وابنائهم واحبابهم ، فجاء مؤثراً واتصل بالقلب لانه صادر من القلب .

يقولون ان الرثاء هو مدح الميت ، وهذا بعيد عن الحقيقة ، فليس الرثاء من المديح في شيء اذا كان عاطفياً ، اما اذا كان صناعيساً موضوعياً ، فهو المديح المزيّف .

امامك رثاء الشعراء الجاهليين الذي قالوه في ذويهم وآلهم ، كرثاء جرير في زوجته ، ورثاء ابن الرومي في بنيه .

اقرأ قصيدة «واكبدا قد تقطعت كبدي» ترَ العاطفة متدفقة. اقرأ قصيدة «حكم المنية فيالبرية جار»تطلـّععلى برودة عاطفتهاومحاولة الموعظة فيها،والاعتماد على الصناعة الشعرية .

قابل كل هذا الرثاء بغيره من الذي يقال للقيام بالواجب تدرك الفرق .

إن هذا الشعر الذي نطلق عليه في الأدب العربي اسم الرثاء، لهو شعر الصنعة والكلفة ، يقوله كثير من الشعراء حتى يقال أنهم نظموا في كل أغراض الشعر ، وهكذا تتحول الحفلة التأبينيّة مباراة شعرية .

الخنساء

نسبها : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية ، لقبها الخنساء ، — وهي مؤنث الأخنث من صفات الظباء ، وهو تأخر الأنف وارتفاع أرنبته . ودعيت خناس اختزالاً للتحبب ، وهذا كثير حتى في اللغة العاميّة .

كانت جميلة الصورة ،خطبها كثير من أجواد العرب فلم تتزوّج الا ّ في قومها. رُزقت أولاداً أربعة ماتوا في وقعة القادسيّة جملة ، امّا هي فماتت في البادية في خلافة معاوية .

رثاؤها : وهذا ما اشتهرت فيه من ضروب الشعر . قالت معظمه وأجوده في صخر أخيها لابيها ، ثم في شقيقها معاوية ، وكلاهما قتلا .

قتل معاوية أولاً في يوم الحوزة الاول ، وسبب قتله خـــلاف نشأ في سوق عكاظ بينه وبين هاشم بن حرملة المرّي النطفاني .

أمّا صخر فجرح في يوم كلاب مطالباً بثأر أخيه ومات متأثراً من جراحه .

إن موت أخويّ الخنساء وخصوصاً صخراً أفاض شعورها وأسال قريحتها كينبوع غزير ، تدفق حين انبثق .

ومعظم رثائها قالته في اخيها صخر ، لانه كان يحبها حباً جماً ، ويعطف عليها اشد العطف ، حتى قسم ثروته بينها وبينه مراراً .

شعرها – أغراضه : الرثاء وما يدخل فيه من محامد وفخر .

هي أشعر النساء من حيث المطوّلات والإكثار من الشعر ، والقدماء يجمعون على أنها اشعر النساء في الرثاء .

ديباجته : متين التركيب ، ليّن الالفـاظ ، رقيق التعبير ، سهل الفهم ،

شديد الوقع في النفوس لأنه شعر العاطفة .

في عكاظ : يقولون إنها انشدت النابغة في عكاظ ، ويقولون إن قصيدتها كانت في رثاء أخيها صخر وإنها « قذىً بعينكِ أم بالعين عوّار » .

ثم يخبروننا عن غضب حسان بن ثابت عندما سمع النابغة يقول لها : كنت فضّلتك على شعراء الموسم ، لو لم ينشدني أبو بصير ، أي الاعشى .

ثم مساجلتها مع حسان بن ثابت ، ونقدها شعره « لنا الجفنات الغر الخ . » الى آخر ما هنالك من القصة .

لا ريب أن هذه القصة من تلفيق الرواة ، نأتي لدحضها بدليل واحد نظن أنه كاف وهو : إننا نسأل هل كانت القواعد وخصوصاً قاعدة « الجموع » من حيث القلة والكثرة معروفة كما هي مدوّنة بالكتب النحوية اليوم ؟

الجواب لا . لأن اصول النحو وضعت بعد عكاظ بكثير .

امّا قصيدتها « قذىً بعينكِ ام بالعين عوّار » فإنني أرى فيها صنعة ظاهرة وتكلفاً بادياً، وما سياقها وضخامتها باللذين عرفناهما في شعر شاعرتنا.فقصيدتها هذه أقرب إلى المدح منها إلى الرثاء والتفجّع اللذين نلمسهما في شعر الخنساء.وهي هنا على خلاف عادتها تترك الموضوع ثم تعود اليه ، كأصحابنا شعراء عكاظ .

اسمع ، يا اخي ، الخنساء تقول :

يؤرقني التذكر حين أمسي	الخ ... الى ان تقول :
يذكرني طلوع الشمس صخراً	واذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي	على اخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكين مثل اخي ولكن	أعزّي النفس عنه بالتأسّي
فـلا والله لا انساك حتى	أفارق مهجتي ويشق رمسي
فقد ودعت يوم فراق صخر	ابي حسان ، لذاتي وأنسي
فيا لهفي عليه ولهف نفسي	ايصبح في الضريح وفيه يمسي؟

فيا لها من عاطفة تتجلّى فيها الأخوّة الصادقة بكل قوّتها واخلاصها ، وما أشد هذا التفجع وما اعظم تأثيره في النفس .

لا أدري اذا كنت تتمثلها معي كما أتمثلها انا حين تهتف : فيا لهفي عليه الخ.

أفلا ترى معي أن كل العاطفة الانسانية والمحبة البشرية متمثلة مجسمة بهذا الاصباح والامساء ؟

أمّا قصيدة « قذى بعينك الخ . » التي قالوا ان النابغة حاول تفضيلها فيها فهذا هو رأيي فيها :

ألفاظها ضخمة غريبة لا تتفق وعاطفة الرثاء ، امّا عيوبها فهي قولها : ترتع ما رتعت الخ . فهذا لم نره في شعر الخنساء . ثم قولها : لم ترأه جارة الخ. وقولها ايضاً : تبكي لصخر هي العبرى الخ . وقولها : مورث المجد ميمون نقيبته .

وبكلمة مختصرة أقول : انني وجدت هذه القصيدة اكثر قصائد الشاعرة كلفة . ولا عجب ، فكذلك كانت البضاعة التي تصدّر وتعرض في سوق عكاظ.

أمية بن أبي الصلت

الثقفيّ ، شاعر شهير . واذا قالوا في ابن الرومي انه شاعر يغنّي في غير سربه ، فأميّة هو ذاك الطائر الغريب حقاً . لبس أميّة المسح واطلع على كتب النصارى وشكّ في الاوثان وحرّم الخمر وهو القائل :

كل دينٍ يوم القيامة عند   الله الا دين الحنيفة زورُ

ومن غرائبه تسمية الله بالتغرور وتسمية السماء صاقورة وحاقورة . وأمعن في الإغراب فجعل للقمر غلافاً سماه الساهور . وإغرابه هذا حمل الرواة على الإغراب في حوادث حياته . فراجعها في كتاب الاغاني اذا شئت .

وكان أمية يظن انه سيكون نبي العرب ، فلما خاب ظنه ، اخذ يحرض مقاومي النبيّ على قتاله .

امّا شعره فغريب اللون في تفكيره وتعبيره ، وسترى شيئاً منه في النصوص المختارة .

الاعشى

حياته : ابو بصير ميمون بن قيس البكري . ولقبه الاعشى الاكبر . ولد باليمامة ، وعاش متشرداً ماجناً ، اي بوهيمياً بلغة هذا الزمان . ادمن شرب الخمر وقامر فافتقر وراح يسعى وراء المال ، فرحل الى جميع البلاد العربية طارقاً ابواب الملوك والامراء طالباً عطاءهم .

حكاية : كان للمحلق الكلابي عدة بنات لم يخطبهن احد ، فاكرم الاعشى فقال فيه قصيدته المشهورة : أرقت الخ . وما انشدها في سوق عكاظ حتى نفقت بنات المحلق جميعهن .

التشخيص : كان الاعشى موهوباً ملكة القصص وتشخيص ما لا يعقل . ومن هذا قوله في مدح النبي مخاطباً ناقته :

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم   تراحي وتلقي من فواضله يدا

شاعر الخمرة : كان الاعشى رائداً للاخطل وابي نواس ، فوصف الخمرة مشخصاً لها ، ووصف النديم والساقي والقنينة ، ورسم صورة السكارى ، وادخل في وصف السكارى الحوار مع بياع الخمرة وساقيها .

فن الاعشى : سموه صناجة العرب لموسيقاه التي يقوم عليها اساس فنه الشعري . وشعره سهل منسجم جلي ذو رنة عجيبة مقرونة بمتانة وشدة ، ولذلك تناقل الناس شعره وطارت شهرته وكسب كثيراً .

كان يتغزل ويمدح ، ويقول خمرياته بمناسبة المدح ، اما اسلوبه في مدحه فهو عادة الاسلوب القديم والخطة القديمة للقصيدة . امتاز بالقص الحسن الحوار

الى ابعد حد ، وحسبنا منه نظمه حكاية امرىء القيس والسموأل وابنه .

آثاره : ديوان كبير فيه جميع اغراض الشعر ، وان كان اكثره في المديح بضاعة ذلك الزمان التي كانت تطعم خبزاً . واشهر قصائده اللاميتان . الاولى: ودع هريرة ، وهي معلقة عند الذين يعدون اصحاب المعلقات عشرة ، وقد ترجمت الى الالمانية والفرنسية والفارسية ، وموضوعها غزل ووصف الخمرة واللهو ووصف السفر والعارض والبرق ، واخيراً تهديد ابن عمه يزيد .

منزلته : له مقام رفيع عند من ينظرون الى الفن،ولهذا عدّوه من اصحاب المعلقات . وهو شاعر خمرة عند هؤلاء لا يجارى ، كما انه شاعر قصصي من الطراز الاول . وهاك واحدة من اروع ما قال :

حـــكاية السموأل

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به	في جحفل كسواد الليل جرّارِ
بالأبلق الفرد من تيماء منزله	حصن حصين وجارٌ غير غدّارِ
إذ سامه خطّتي خسفٍ فقال له	مهما تقلهُ فاني سامعٌ حارِ
فقال : ثكلٌ وغدر انت بينهما	فاخترْ فما فيهما حظٌ لمختارِ
فشكَّ غيرَ طويلٍ ثمَّ قال له :	اقتل اسيرك اني مانعٌ جاري
أنا لهُ خلفٌ ان كنت قاتله	وان قتلتَ كريماً غير خوّارِ
وسوف يُعقبهُ ان كنتَ قاتلهُ	ربٌّ كريمٌ وقومٌ ولْدُ احرارِ
فقال محتدماً إذ قام يقتلهُ	أشرفْ سموألُ،فانظر للدم الجاري
أأقتل ابنك صبراً ، او تجيء بها	طوعاً ، فأنكر هذا أيَّ إنكارِ
فشدَّ أوداجه والصدر في مضضٍ	عليه منطوياً كاللدع بالنارِ
واختار ادرعه كيلا يسبَّ بها	ولم يكن عهده فيها بختّارِ
وقال لا نشتري عاراً بمكرمة	واختار مكرمة الدنيا على العارِ
فصان بالصبر عِرْضاً لم يشنه خنا	وزنده في الوفاء الثاقبُ الواري

الهجاء

الهجاء وليد المدح والفخر ، فقـــد كان العرب في اول عهدهم يمدحون ويفخرون . ومن يمتدح نفسه ويفخر بقومه لا بد ان يتعرض لذم من يفتخر عليه ، وهكذا انبثق هذا النوع من الشعر .

لم يكن شعراء العرب في الجاهلية يتوخّون الهجو فيقولونه محضاً ، اي انهم لم يفردوا له باباً خاصاً .

كان الشعراء في بادىء عهدهم يتكسبون بالمدح حتى ملّ الناس من هذا المدح ورغبوا عنه فقلّت الجوائز والصلات . قد يهمل الممدوح الشاعر وقد لا يكاترث له ، وقد ينتظر على باب الامراء مدة . وهذا ما حدث للحطيئة مع الزبرقان ، فانه أهمله ولم يكن شديد الاهتمام به ، حتى جـــاء آل شماس واستمالوه فهجا الزبرقان .

ويشبه هذا ما اصاب المتنبي مع كافور ، فانه ملّ اهمال كافور ووعوده ففر من عنده وهجاه ذاك الهجو الخالد .

اذا ضاق صدر الشاعر يهجو ويذم . وقد يكون الهجاء باباً للرزق ، كما كان يفعل بشار بن برد . وكيف كان الأمر فالشعراء لجأوا إلى هذه الوسيلة اكتساباً للرزق اولاً . ثم قال الشعر بعضهم لغرض سياسي يسعون لتأييده في حزب من الاحزاب ، كما سترى في بحثنا الشعر السياسي .

الهجاؤون : اما الشعراء الهجّاؤون في الجاهلية فليسوا بكثيرين . نذكر منهم اوس بن حجر ، وزهيراً ، والحطيئة الشاعر المخضرم الذي اشتهر بالهجاء في هذا العصر .

الحطيئة

حياته : هو ابو مُلَيكة جَرْوَل ، الحطيئة العبسي ، ولد مغموز النسب في بيت رجل عبسي ، ولكن نسبه لعبس لم يثبت صريحاً ، وهذا ما دعاه إلى هجو امه وابيه ، وهذا ايضاً سهل له الانتماء إلى قبيلة اذا غضب من أخرى .

كان العرب يحرصون على النسب ويفخرون به فجـــاء الحطيئة لا نسب له فغضب على الانسانية جمعاء ، ولم يسلم من هجوه احد كما يقولون حتى نفسه .

شخصيته : كان قبيـــح المنظر ، رثّ الهيئـــة ، فاسد الدين ، بخيلاً ، قليل الخير ، كثير الشر ، دنيء النفس جشعاً ، يلحف في السؤال ، يتهدد الناس بهجوه ليبتز اموالهم ويستدر عطاياهم ، شبهه اذا شئت ببعض الصحف التي تنال من كرامة الناس طمعاً باموالهم .

كان الحطيئة اذا قدم بلداً تنادى اهلها لجمع الأعطيات له ليشتروا بها كرامتهم واعراضهم . وما زال هذا شأنه حتى هجا الزبرقان بن بـــدر صاحب الرسول وعامل عمر بن الخطاب على الصّدقات، فسجنه عمر واخرجه من السجن استجابة لاستعطافه . هدده عمر ان يقطع لسانه ان هجا احداً ، ويقولون ان عمر اشترى منه اعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولكن الحطيئة نكث عهده بعد موت عمر ، وظل يهجو حتى مات في عهد معاوية سنة ٥٣ .

وصيته : لا اخال وصية الحطيئة المشهورة إلا منتحلة ، واهم ما جاء فيها : جعل عبيده عبيد قنّ ، وأكل اموال اليتامى ، وايصـــاء الفقراء بالسؤال والالحاف الخ .

ولكنها في كل حال تدل على اخلاقه اصدق دلالة .

دينه : كما تقدم الكلام عنه في اخلاقه ، أي انه رقيق الاسلام ضعيف الايمان قليل الدين ، أسلم وارتدّ بعد موت النبي ، وفي ذلك يقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا ويلتي ما بالُ دينِ أبي بكر

اخلاقه : يمثل الجاهلية اصدق تمثيل في الحرية والاباحة وقلة الدين .

غلظة طبع وجفوة خلق وخشونة عيش .

اطواره غريبة ، يضحك منه الناس ويخشونه . جبان ساخط على الدين الجديد ولا يجرؤ على اظهار سخطه لجبنه .

تحاماه فريق من الناس خوفاً من لسانه ، وأقبل عليه فريق آخر يستعين بهجائه على خصومه ، كما وقع للزبرقان وابناء عمه .

شعره — اغراضه : الهجاء ، المدح ، الفخر .

ديباجته : متين التعبير ، رائق الاسلوب ، لا غرابة ولا ركاكة فيه ، ولا تعقيد ، بل تأنق وتحكيك حتى سموه عبد الشعر . متأثر قليلاً بالدين الجديد لفظاً ومعنى .

اما معانيه فصورها حسيّة مادية كما قلنا عن استاذه زهير .

هجاؤه : اذا ذكر الهجاء تبادر الى الذهن اسم الحطيئة ، ويظنون انه شتّام في هجوه ، يتناول الاعراض بكلامه البذيء ، في حين ان شعره بريء من ذلك .

فشعره على شدته ولذعه لا فحش فيه ولا هجر ، ينال الناس بهجوه من قبل منزلتهم الاجتماعية ، ويعيّرهم بما يكرهه العرب ، وكثيراً ما يكون هجاؤه دقيق المعنى خفيّه كما في قوله في هجاء الزبرقان .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

وقوله ايضاً في مدح خصومه والتهكم عليهم :

ما كان ذنبيَ ان فلّت معاولكم من آل لأيٍ صفاةٌ اصلها راسِ

وقد رووا له هجواً بوالدته وابيه ونفسه .

راجع قصيدته السينية التي حبس فيها ، وأولها :

والله ما معشر لاموا امرءاً جُنباً ... في آل لأي بن شمّاس ٍ باكياس

مدحه : كان لا يبالغ في مدحه الا باخلاق العرب المحبوبة ، وكثيراً مــا يتعرض لذكر الكرم والجود شأن كل مستعط ، وينزه ممدوحه عن المنّ الذي يشين العطاء ويصيره ممقوتاً عند العرب .

وخير ما قاله من المدح قصيدته الدالية التي مدح فيها آل شماس ، كما ان خير ما قاله في المدح كان فيهم ايضاً .

اما قصيدته الدالية فأذكر لك شيئاً منها وأترك لــك التفتيش عن السينية ومطالعتها :

ألا طرقتنا بعدَما هجعوا هندُ	وقد سرن خمساً واتلأبّ بنا نجدُ
الا حبذا هند وأرضٌ بها هند	وهند اتى من دونها النأى والبعدُ
وهند اتى من دونها ذو غوارب	يقمّــص بالبوصيّ معرورفٌ وردُ
وان التي نكـّبتها عن معاشر	غضاب ٍ علي ان صددت كما صدوا
اتت آل شماس بن لأي وانمـا	أتاهم بها الاحلام والحسب العــد
فان الشقي من تعادي صدورهم	وذو الجد من لانوا اليه ومن ودوا
يسوسون احلاماً بعيداً أناتهـا	وان غضبوا جــاء الحفيظة والجد
أقلـّوا عليهم لا أبا لابيــكمُ	من اللوم او سدّوا المكان الذي سدوا
اولئك قوم ان بنوا احسنوا البنا	وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا
وان كانت النعمى عليهم جزوا بها	وان انعموا لا كدروها ولا كدوا
وان غاب عن لأي بعيد كفتهم	نواشىء لم تطــرر شواربهم مرد
مطاعين في الهيجاء مكاشيف للدجى	بنى لهم آباؤهُم وبنى الجــد
فمن مبلغ لأياً بان قد سعى لكم	الى السورة العليــا أخ لكم جلد
رأى مجد اقوام أضيع فحشهم	على مجــدهم لما رأى انـــه الجد
وقد لامني أفنـــاء سعد عليهم	وما قلت الا بالذي علمت سعــد

وخلاصة الكلام ، ان الصور المادية تسيطر على كل شعره ، فارجع اليه يتضح لك ذلك .

السياسة والمديح

نعلم ان العرب البدو كانوا قليلي التأثر بالدين قبل الاسلام ، ومع ذلك نرى لليهودية والنصرانية تأثيراً في الأدب العربي الجاهلي .

كان العرب في جاهليتهم — كما علمنا — قبائل متعددة متفرقة كل قبيلة تركب رأسها وتتبع هواها ، لا تتأثر الا بالتقاليد التي توارثتها عن الاجداد وتناقلتها كابراً عن كابر دون ان تفكر بتحويرها أو تنكّب عن نهجها .

وكان يجاور هذه القبائل امارتا الحيرة والشام ، كما ان اليهودية والنصرانية احتلتا أماكن كثيرة في جزيرة العرب ، فالمدينة كانت مستعمرة يهودية ، بنى اليهود فيها قلاعهم وحصونهم . وقد تجاوزت اليهودية المدينة إلى اليمن حيث احتلتها وكان لها فيها شأن كبير .

أما النصرانية فقد انتشرت في منـــاذرة الحيرة وفي غساسنة الشام وسائر قبائله ، وقد كان قساوسة النصارى ورهبانهم على جانب كبير من العلم والمعرفة ، وخطيبهم المشهور اسقف نجران ، قس بن ساعدة الايادي، وعظ الناس وخطب فيهم كثيراً وذكـّرهم بالجنة والنار والبعث والحساب . وقد شهده النبي (صلعم) في سوق عكاظ يخطب الناس فيها على جمله .

ومتى وجد الاحتكاك الديني وجد التعصب ، وعن هـــذا التعصب تنشأ الاغراض والاهواء والاحزاب ، وهذا ما يعبرون عنه بالسياسة .

فأربعة أمور أوجدت السياسة في جزيرة العربُ :

الاول : احتكاك الأديان .

الثاني : مخالطة الامم المختلفة بالتجارة .

الثالث : سوق عكاظ التي كانت أشبه ببؤرة سياسية .

الرابع : نفوذ الفرس والرومان الذي يمثله الغساسنة والمناذرة .

لا أخالك تقول بعد هذا : ومـــاذا يعني البدوي الضارب في صحرائه من السياسة ، وإن قلت ذلك فاسمع :

إن ما بينته لك لسبب قوي لإنتاج شعراء عديدين سياسيين ، يخوضون غمار السياسة .

فلا شك ان السياسة وجدت في ذلك الزمان ، ولو لم تكن موجودة فلماذا يترك امرؤ القيس وطنه طالباً من ينصره على قوم قتلوا أباه وسلبوا ملكه ؟

أجل لقد خاض امرؤ القيس الشاعر الحرب السياسية بسيفه وعـــدته كما خاضها بلسانه . لقد قـــال في قصيدته المشهورة بعد أن وصف لك المتاعب والمشقات التي قاساها :

ولو انـــني اسعى لأدنى معيشة كفاني ـ ولم أطلب ـ قليل من المال
ولكنما أسعى لمجـــد مؤثـــل وقـد يدرك المجد المؤثل أمثالي
ومـــا المرء مـــا دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلِ

ثم قوله في قصيدته الرائية :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنـّــا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبكِ عينكَ انمـــا نحـاول ملكاً أو نموت فنعـذرا

ثم مـــا قولك في قصيدة زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان ، وهرم من اجواد العرب ومن كبرائهم ؟

اصلح هرم ذات البين بين عبس وذبيان بمؤازرة الحارث بن عوف ، ودفعا ديات القتلى .

ومعلقة عمرو بن كلثوم أليست من الشعر السياسي أيضاً ؟

ولقد أرسلت النساء الشعر السياسي في الجاهلية كالرجال ، وهـــذا ظاهر جلي في قصة ليلى العفيفة .

فليلى هذه كانت رائعة الجمال غزيرة الأدب ، نزل بها أبوهـــا قرية فارسية

فسمع ملك الفرس بجمالها فاغتصبها من أبيها ، ولكنه لم يتغلب عليها ، بل ظلت تستثير العرب بشعرها وتحثهم على نجدتها وحفظ عرض العرب من العجم ، وبسببها نشبت حرب ضروس قهر بها العربُ العجمَ ورجعت ليلى إلى مأمنها .

وهناك ادلة كثيرة غير هذه لا حاجة إلى سردها ، ولكنني قبل ان اختم هذه الكلمة في السياسة اذكرك بالمتلمّس ، فماذا فعل بعد ان القى صحيفته وهرب ؟ ألم يجعل كل همّه اثارة الناس على عمرو بن هند فكان يقول الشعر دائماً في تأليب العرب عليه ؟

ولماذا غضب النعمان على النابغة ؟ اليس لانه مدح الغساسنة مناظريه السياسيين ، ومنازعيه النفوذ في الجزيرة العربية ؟

اتظن ان كل سبب غضب النعمان عليه لأنه قال شعراً في وصف المتجردة زوجة النعمان ؟ فهذا الوصف لا يستوجب كل هذه الضغينة ، فالادب العاري كان هفوة لا جريمة في الجاهلية بدليل ما نقرأه من شعرهم ...

المديح : كان الشعر في أول عهده وسيلة لاظهار كوامن الصدور وما تجيش به من عواطف . كان قوامه الوصف : وصف العاطفة ، ووصف الطبيعة ، ووصف المشقات والاسفار . وصف كل ما تقع عليه العين ويحس به القلب .

ثم دنا من المدح قليلاً ، عندما قيل في الافتخار بالنفس والاعتداد بها ، ثم مدح عزة القبيلة ومنعتها والاعتزاز بها ، حتى توصلوا اخيراً إلى مدح الافراد والافذاذ ، لا لدفع مغرم او لجر مغنم بل للاعتزاز بهم .

ولما اصبح للعرب شبه ملك ، من امارات وغيرها ، اصبح المدح شخصياً يدفع اليه الغرض والميل حتى صار الشاعر لسان حال الامير ، والامير يجيز الشاعر ويثيبه ، فصار المدح المجرد من ابواب الشعر فلجأ اليه كثيرون ، ثم اصبح مورد رزق لهم يعولون عليه .

وانتقل الشعر من مدح الامراء إلى مدح الافراد الذين لم يؤمّروا ، فقيل في مدح كل جواد كريم يجزل العطاء او يثيب .

وإمام المداحين وزعيمهم النابغة الذبياني ، بيد انه لم يمدح الا الملوك .

النابغة الذبياني

نسبه : هو ابو أمامة ، زياد بن معاوية الذبياني . لقبه النابغة ، وبهذا الاسم عرف عند اهل الادب ورجال التاريخ .

منزلته : من اشراف ذبيان ، الا ان تكسبه بالشعر غضّ من منزلته وان لم يتكسب به الا في مدح الملوك .

في قومه : كانت مكانة النابغة في قومه سامية جداً ، له فيهم نفوذ كبـــير وتأثير عظيم ، وهذه المنزلة العالية جعلت المنـــاذرة والغساسنة يتنافسون في استرضائه ويتسابقون إلى استمالته — شأنه في هذا شأن الاخطل في بني امية — .

فالنابغة كان زعيم قومه النجديين يأمرهم بالحرب وينهاهم عنها . وقد كان في القبائل زعماء ايضاً يعارضونه ويناوئونه ، فكان يدافع في شعره عن سياسته هذه تارة باللين وطوراً بالعنف .

وفي شعره الذي قاله في هذا الباب دليل على ماجريّات السياسة — داخلية وخارجية — في عرب نجد في آخر العصر الجاهلي .

عند الملوك : اتصل النابغة اولاً بملوك الحيرة ومدحهم ، فادناه النعمان بن المنذر ونادمه ، ووصله بجوائز سنية إلى ان وشى به احد بطانته ،فهمّ النعمان بقتله فهرب الى الغساسنة ومدحهم . ولكنه ظل يحنّ إلى النعمان ، ومـا فتىء يعتذر اليه حتى استعطفه واستعاد منزلته عنده .

اسباب الغضب : يزعم الرواة ان سبب غضب النعمان سيف كان عندالنابغة اراده النعمان فوشي به انه ضنين به على الملك .

وفي رواية أخرى ، وصفه المتجردة كما تقدم الكلام . والسببان مدحوضان

لا قيمة لها ، ولا يستوجبان هذا الغضب الشديد.

فسبب الغضب هو كما تقدم ، أي مدح النابغة للغساسنة منافسي النعمان ، وهذه المنافسة ناشئة عن تنافس الفرس والروم في جزيرة العرب ، والناس على دين ملوكهم .

اقسام شعره : شعره ثلاثة اقسام :

الاول قاله في ملوك الحيرة مادحاً ومعتذراً .

الثاني قاله في ملوك غسان مادحاً ومستعطفاً .

الثالث قاله في شؤون بدوية جاهلية تمسّ قبائل نجد وما كان بينها من صلات حرب وسلم .

اغراض شعره : مدح ، فخر ، هجاء ، رثاء ، اعتذار .

ديباجته : هو احسن شعراء العصر الجاهلي ديباجة لفظ ، وجلاء معنى ، ولطف اعتذار ، لم يرسل شعره على السجية (كالقول) بل هو فني يتوكأ على التشبيه والاستعارة والمجاز ، بيد ان هذا التكلف لم يعبه .

له صور شعرية جميلة . حبه الكسب جعله يتفنن في هذه الصور ويبتدعها . صوره مادية حسية ، يشبعها درساً وتلويناً حتى تظهر ظهوراً تاماً ، كما هي الحال في صورة ذهاب الحارث الغساني الى الغزو ، اي الحرب .

انت اشعر العرب : تقديمهم اياه في سوق عكاظ اعتراف له بالاسبقية . فقد كانت تضرب له قبة من أدم فيقضي لشاعر على شاعر .

وكثيراً ما كان ينشده شاعر في غير هذه السوق فيقضي له فوراً بهذه الكلمة المأثورة : انت يا ابن اخي أشعر العرب .

وقد يكون سائراً في الطريق فيستوقفه شاعر وينشده شيئاً فيقول له كلمته المأثورة : انت يا ابن اخي اشعر العرب (على الماشي) .

فاحكم انت اذن (يا ابن اخي) على قيمة هذه الكلمة وتصور ما شئت .

ملاحظة : من ينظر الى شعر هذه الفترة ، كشعر النابغة مثلاً ، وخصوصاً شعر الحطيئة يدرك ان الشعر العربي كان يسير بخطوات واسعة في آخر العصر الجاهلي نحو الرّقة الحضرية .

عديّ بن زيد

حياته : هو عديّ بن زيد العبادي ، تعلّم الفارسيّة وصار ترجمان كسرى ابرويز ملك فارس وكتب له بالعربية . فلما قتل عمرو بن هند أشار عديّ على ملك الفرس بتولية النعمان بن المنذر على العرب ، فولاه . وخاف النعمان من عديّ فسجنه ثم قتله ، ولكن العين الساهرة اقتصّت لعديّ فأمات كسرى النعمان تحت أقدام الفيلة .

شعره : نظم الشعر واقتبس حكايات من التوراة ونظمها شعراً ، مثل حكاية حواء والحية . فجاءت بين بين .

وأشهر قصائده قالها في السجن ووجّهها إلى النعمان قبل ان يقتله .

حكمته : مثل حكمة زهير مقتبسة من واقع الحياة واختبارها ، وكلامه بسيط ساذج ، ونظمه ركيك ، لأن فارسيته أخذت من فصاحة عربيته . ولو كانت قصائده من طراز هذه الأبيات لكان شاعراً معدوداً .

قال في الخمرة :

ودعَوا بالصبوح يوماً فجاءتْ   قينةٌ في يمينها إبريقُ
قدّمتْهُ على عقارٍ كعين   الديك صفّى سُلافها الراووقُ
مزّة قبل مزجها فإذا ما   مُزجت لذّ طعمها من يذوقُ
وطفا فوقها فقاقيع كاليا   قوت حمر يزينها التصفيقُ

النثر – الامثال

يعلّل القدماء قلة النثر بأن الشعر أيسر حفظاً وأعلق بالأذهان لوزنه ورنته ، ومع اعتبارنا لهذا التعليل نقول :

إن الشعر يسبق النثر في جاهليات الأمم لأنه لغة العاطفة والخيال ، والنثر الفني لغة العقل والتفكير ، وقد كان العرب أميين في كثرتهم ، والشعر يعيش مع الامية . أما النثر الفني فلا يستطيع أن يعيش معها .

لا ننكر ان بعض أفراد العرب كانوا يكتبون في المعاملات في آخر عهد الجاهلية ، ولكن الكتابة لم تكن منتشرة الى حد يمكّن من تدوين الشعر والنثر .

إن في النثر شعراً وفي الشعر نثراً .

فهوميروس وشعراء اسرائيل وأصحاب المعلقات وخطباء العرب لم يكونوا شعراء ولا ناثرين في خطبهم وقصائدهم ، بل كان همهم ان يؤثروا في سامعيهم ، ولا فرق عندهم بين النثر والشعر .

ولم يكن العرب يفرقون بين النثر والشعر . ولذلك اعتقد فريق منهم زمناً ان القرآن الكريم شعر ، او طريقة من الانشاد الذي كانوا يسمعونه في منتدياتهم ويسمونه شعراً ، واخذوا يحفظونه وينشدونه بدليل قوله تعالى : « وما علّمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين » .

وظلوا ايضاً بعد هذه الآية الكريمة يخلطون بين ابيات الحكم والامثال الجاهلية والآيات القرآنية حتى عصر الامويين . ولم يكن هذا عند الاعراب

بل تعداهم إلى الخطباء كما ذكر ابن عساكر والاغاني : انهم كانوا يوردون الابيات الحكمية والامثال من المنابر في الجوامع ظانين انها آيات منزلة .

وكذلك كان العرب لا يميزون بين سجع الكهان والعرّافين والرجز – الذي صار بحراً – بل كثيراً ما استعملوا الكلمتين على الترادف ، كما تدلنا خطب قس وغيره ، فهي تبدأ بالسجع المنظم القريب الفواصل التي تتسع بعدئذٍ رويداً رويداً .

ومثلها خطبة اكثم بن صيفي ، ففيها بعض اسطر ذات رنة موسيقية اتت عفواً .

وكذلك بعض الامثال ، فان بعضها شعري اللهجة وبعضها موزون ، وفي القرآن بعض آيات موزونة .

اما النثر الفني فلم يكن موجوداً مستقلاً عن الشعر بل كان نوعاً منه للانشاد .

الخطابة

كان للعرب خطباء ، دعت اليهم الحـــال الاجتماعية والسياسية ، وكان لهم خطباء مشهورون نعرف اسماءهم وشيئاً لا يذكر من اقوالهم .

لقد مهدت لتفشي الخطابة في العرب بلاغتهم الفطرية وسرعـــة الخاطر ، والاحتياج اليها للاقناع في الدفاع . وعدم انتشار الكتابة ، وقلة المواصلات من العوامل التي كانت تدفع الامير العربي الى ان ينتدب عنه رجلاً لسناً للتفاهم على قضية . وقد كانت هذه السفارة في آخر الجاهلية لعمر بن الخطاب .

في اخلاق العربي عصبية شديدة التأثير ، تدفعه الى الاهتزاز بسرعة لاجابة مجيب او رد عليه ، وكانوا يتأثرون بموسيقى الالفاظ ، وقوة ذاكرتهم تحملهم على الحفظ .

قد تكون خطابتهم غير فنية على طرق اليونان ، ولكنها كانت موجودة .

غاية الخطابة :

١ — المواعظ الدينية والاخلاقية والعبَر .
٢ — المفاخرة والمنافرة (حديث السلم) .
٣ — التحريض على اخذ الثأر .
٤ — الحض على الصلح بعد المعارك .
٥ — في عقد الزواج — لتبيين مكارم المخطوب اليه في قبيل المخطوب له.
٦ — التوصية بالمحامد والتبصر والتروي الخ .

سجع الكهان : هو كغيره من الانشاء الجاهلي ويزيـــده في تكلف السجع

والغموض والتلميح .

اشهر كهّانهم سَطيح ، واسمه ربيعة ، مات بعد مولد النبي ، وشقّ أنمار كان كاهناً في عهد كسرى .

اما الخطب فامحى اكثرها ودرس ولم يحفظ لأنه وثني؛ ولم يبق منه الا الذي له علاقة بالاله الواحد ، ولا يمتّ الى الوثنية بنسب .

الامثال : بعكس ذلك ، فانها بقيت لان لا علاقة لها بوثنيتهم ، ولاسيما ان معظمها اصبح كالمفردات والعبارات التي يستعملها الانسان ، وهي تشبه الانشاء الانشادي .

والامثال : حقيقية وفرضية .

فالحقيقة لها اصل معروف او حادثة قيلت فيها .

اما الفرضية فهي تمثل لسان حيوان او نبات او جماد ، ويكثر هذا النوع منها متى اشتد الضغط السياسي .

اما الامثال فنتيجة رويّة شعب مدة اجيال ، والامثال موجودة عند كل الامم ، وكلها مستمدة من التجاريب ومظـاهر الطبيعة والحوادث والطرق التي تتجدد كل يوم .

الحكمة : اشتهر العرب اكثر من سواهم بالحكمة وفاقوا كل الشرقيين بهـا بدليل قول التوراة في سفر الملوك (ف . ٣) « وفاقت حكمة سليمان جميع اهل المشرق »، ويريد العرب .

وللعرب اهتمام كبير بالامثال والحكم لا نزال نلمس اثره حتى يومنا هـذا في انشاء كتابنا .

قيمة الامثال : فالذي نستطيع درسه من النثر الجاهلي هو الامثال .

فللعرب فيجاهليتهم امثال شعبية كثيرة وهي في صورة نثرية غير منظومة .
واذا لم نستطع اخذها مقياساً للنثر في ذلك العصر لقصرها ، فعلى كل حال نرى فيها العقلية العربية والخلق العربي . وفيها نرى الجملة العربية القوية ، الظريفـة التعبير ، المصيبة المعنى ، المتقنة التشبيه ، الحسنة الايجاز .

لقد اجاد العرب في المثل ، وهو يمثلهم اصدق تمثيل لانه ينبع من كل طبقة فيهم ، بخلاف الشعر الذي لا يمثل الشعب كله ، لان الشعراء عادة يكونون أرقى من العامة .

ولكن الامثال الجاهلية اختلطت بالامثال الاسلامية حتى صعب التمييز بينها ، الا اذا كان المثل قيل في حادثة تاريخية او عرف قائله .

اذن فعلى الذين يرغبون فهم النثر الجاهلي ومكانته العالية وجماله الفني ان يطلبوه من « الحديث الشريف » وخطب الخلفاء والامراء في صدر الاسلام حتى آخر العصر الاموي ، واخيراً في عصر بني العباس حين اصبح صناعة فنية .

جمع الامثال : عني العرب بها كثيراً فجمعوها ، وأول جامع لها : **عبيد بن شرية** ، **وحماد العبدي** في عهد معاوية ، ثم **الضبي** في اول الدولة العباسية ، ثم **ابو عبيد القاسم** ، **والاصمعي** ، **وابو زيد القرشي** ، **وهشام الكلبي** ، **وابن الاعرابي** ، **وابن قتيبة** ، **والعسكري** ، **والميداني** ، وهذا جمع ٦٠٠٠ مثل ليست كلها من اصل عربي .

ميزات هذا النثر : لهذا النثر القليل ميزات وان كان قليلاً جداً لا يصلح للحكم عليه ، وابرز ميزاته :

١ – قلة التأنق في الالفاظ .

٢ – بعد قائليه عن المترادف والمتوارد .

٣ – لا تكلف في صوغ العبارة والاساليب .

٤ – قِصَر الجمل او توسطها ، ويلتزمون ذلك في الحِكَم والامثال والوصايا .

٥ – ايجاز من غير اخلال بالمعنى .

٦ – استعمال الكناية القريبة المثال ، والابتعاد عن التصريح بما يستهجن .

٧ – قلة التعمق في المعاني والافكار .

الرواية والرواة

ما وصل الينا من كلام العرب شعر ونثر مرويّ عن اهل البدو الأميين . ورواته اميون ايضاً ، ولذلك ضاع كثير من الادب الجاهلي ، ولم يصل الينا الا ما بقي على ألسن الرواة ، حتى كان الخط والتدوين .

وما الرواة الا الشعراء والمتأدبون وارباب الاحساب والجد فهؤلاء يتفانون في حفظ مفاخر الامم في كل عصر .

لقد كان امرؤ القيس **راوية ابي دؤاد الايادي ، وزهير راوية أوس بن حَجَر ، والاعشى راوية المسيّب بن علس الخ .**

واشتهر من قريش اربعة بأنهم من رواة الاشعار وعلماء بالانساب ، وهم :

مخرمة بن نوفل ، وابو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العزّى ، وعقيل بن ابي طالب .

الخط العربي

عرف العرب الكتابة من النصارى واليهود . وقــد كانت بالخط المسند في اليمن ، وهو منفصل الحروف يشبه الخط الحبشي . اما في الشمال فـكانت بالخط النبطي ، وله علاقة بالخط الآرامي اي « الاسطرنجيلي » ويسمونه الجزم ، وهذا تحول بعدئذٍ إلى الكوفي .

والكتابة وصلت إلى الحجاز من بين النهرين على يد السوريين .

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد :

حكوا ان ثلاثة من طيء اجتمعوا ببقعة وهم : مرار بن مرة ، وأسلَم بن سدرة ، وغامر بن جدرة ، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربيــة على هجاء السريانية فتعلمه قوم من الأنبار ، وجاء الاسلام وليس احد يكتب العربية غير بضعة عشر انساناً .

وفي رواية ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران ، والكوفي من العراق ، وعندما جاء الاسلام فرض على الأسرى ان يفتدوا انفسهم بتعليم الكتابة لعشرة من صبيان المسلمين اذا عجزوا عن دفع الفدية . وكذلك فعل المأمون فيما بعد فجعل **اخراج الكتب ونسخها شرطاً من شروط الصلح** ، فنزل الملوك المغلوبون عند هذا الطلب .

اما تحسن الخط وترقيه إلى ما وصل اليه ، وما دخل عليــه من حركات وضوابط واناقة ، فهنا ليس محل الكلام عنه .

عصر صدر الاسلام

المخضرمون ـــ الامويون

معلومات مختصرة عن امتداد ملك العرب

انكر قرشيو مكة بعثة النبي (صلعم) فحاربوه ففر من مكة نهار الجمعة ١٦ تموز سنة ٦٢٢ م ، وفر معه مريدوه . ثم عاد ففتح مكة وحطّم اصنامها ، ووضع اساس الدين الحنيف الذي به وضعت اسس الوحدة العربية ، فالادب العربي العالمي الذي يشغل علماء اوروبا اليوم .

الفتوحات

الخلفاء الراشدون

ابو بكر : فتح العراق والشام . وقد تم الفتح العراقي على يد خالد ، والشامي على يد ابي عبيدة .

عمر بن الخطاب : فتح القدس ومصر وفارس .

عثمان : فتح افريقية وانقرة .

علي : حروب اهلية .

الحسَن : تنازل لمعاوية .

الخلفاء الامويون

معاوية : نزاع بينه وبين علي .

معاوية الثاني : على عهده فتنة ابن الزبير .

الوليد بن عبد الملك : على عهده فتحت الاندلس .

نشأة الامبراطورية العربية

جمع العرب كلمتهم بعد ظهور الاسلام : فهبوا للفتح حتى سيطروا في آخر عهد بني امية ، من ضفاف الكنج شرقاً وشواطىء الاطلنطيك غرباً واواسط افريقية جنوباً وشمـــالاً الى اواخر ارمينية في آسيا ، وإلى اللوار في اوروبا . واحتلوا مدن كسرى وقيصر ، وحاولوا الاستيلاء على القسطنطينية ، وكانوا في كل فتوحهم يحملون كتاب الله ، يعلمونه الناس .

وهنا نبدأ كلامنا في الوحدة العربية وكيف تكونت وامتدت في العـــالم بأسره .

وحدة الامة العربية

الفتوح : جزيرة العرب ، العراق ، فارس ، الشام ، مصر ، السنـــد ، خوارزم ، سمرقند ، الاندلس .

ورث العرب كل هذه المدنيات وهي وارثة عدة حضارات .

لغاتها : كانت عديدة .

اجناسها : ساميّة ، حاميّة ، آريّة .

اديانها : مختلفة : سماوية ، وغير سماوية ، والعقليات مختلفة .

الشام ومصر : كان الشام ومصر ملحقين بمملكة الروم علمـاً وادباً ودينها النصرانية . والعراق وفارس آدابها فارسية ، ومنها رومية بين نصارى العراق. وكانت الحرب سجالاً بين الدولتين فتغلب عليها العرب .

ففي مصر والشام كانت الآداب عبارة عن العـــادات اليونانية في عصر الاسكندر .

وقد كانت العلوم اليونانية تطورت عند الفتح الاسلامي وخصوصاً الفلسفة لاختلاطها بالمواد اليهودية والمسيحية ، فتولد منها ما يعرف بالفلسفة الافلاطونية ، والفلسفة الفيثاغورية الحديثتين . وكانت مدرسة الاسكندرية ام المــدارس بالطب والهندسة والفلك وسائر العلوم الرياضية والخطابة والشعر .

عاصرتها مدارس طرطوس ورودس وانطاكيـــة وبيروت التي اشتهرت بمدرستها الحقوقية .

وفي العراق وفارس كانت الآداب القديمة التي اضافوا اليهـــا آداب الهند والصين واشور وغيرها من امم الشرق .

وفي ايام سابور في الدولة الساسانية انشئت مدرسة جندي سابور ونقلت فلسفة اليونان اليها في عهد كسرى انوشروان العالم سنة ٥٣١ – ٥٧٨ .

ولما اقفل يوستنيانوس الهياكل والمدارس الوثنية جاء فلاسفة اليونان الوثنيون فنقلوا كتباً شتى عن اليونان ، وكانت الفلسفة الافلاطونية قد نضجت .

ففتحُ الاسلام الكبير جعل مدنية الروم والفرس وادبها في حوزة العرب فتسربت الى المسلمين وامتزجت بعاداتهم وآدابهم .

واختلاط هذه الامم الكثيرة بالعرب ولّد العجمة ، ولم تبق اللغة الفصحى الا في قلب الجزيرة .

ولذلك قال الاصمعي : اربعة لم يلحنوا قط لا في جد ولا في هزل :
الشعبيّ ، عبد الملك بن مروان ، الحجاج بن يوسف ، وابن القريّة .

ولهذا صاروا يحضرون المعلمين للامراء واولياء العهد من افصح العرب ، او يرسلونهم الى البادية .

التمازج : خضعت هــذه الشعوب كلهـا للمسلمين فاختلطت بهم في السكنى والجوار والزواج وكل مرافق الحياة فصارت الامة عربية وغير عربية .

العلوم : أخذ المسلمون العلوم عن المغلوبين لأنهم رأوا أنفسهم دونهم علمـــاً

ومعارف . أخذوا فلسفة ونظماً اجتماعية وعلوماً فلسفية واقتصادية ، وصبغوها بصبغتهم الخاصة فاجتاحت اللغة العربية كل لغات البلدان المفتوحة وانتشرت انتشاراً هائلاً حتى في أوروبا . فزادت ثروة اللغة العربية وأصبح الأدب العربي هو الادب الفارسي المصري السامي الغربي الأندلسي .

ادب عالمي : فهذا التكوين جعل الأدب العربي أدباً عالمياً يهتم له الغربيون للاسباب الآتية :

١ – العرب حملوا مصباح التفكير الإنساني أربعة قرون كانت فيهـا المدنية عنـــدهم ، واشتملت عليها لغتهم . ثم نقلت ولا تزال تنتقـــل إلى أوروبا . فالمستشرقون اليوم أشد اهتماماً بهـــا ، وفي كل يوم يعثرون على كتاب جديد ينشرونه .

٢ – أساس الحركة الفكرية في أوروبا في القرن الثالث عشر يرجـــع إلى مؤلفات العرب التي درسها الاوروبيون .

٣ – الأمـــة العربية انتجت حضارة لا تزال قائمة إلى الآن يبحثها المستشرقون بكل اهتمام .

٤ – يدين العرب بدين كبير له تأثيره في عقليات كثيرة تبلغ مئـات الملايين من الناس من بدء نشأته حتى يومنا هذا .

المظاهر الدينية : عبادة إله واحد ، إله كل شيء ، عـالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، الخلود ، الثواب ، العقاب ، قيمة الإنسان بعمله ، خير النـــاس أتقاهم لا أقواهم .

أما في الجاهلية فكانت العزة للكاثر ، ومنها المال والبنون والأقربون الذين تتولد بهم العصبية .

فالاسلام هدم القبيلة وكوّن الأمة : انما المؤمنون أخوة .

الآداب : عدّ فضائل الجاهليـــة رذائل ، كالخمر والميسر والانتقام ، فحل محلها الصفح والمسالمة ومقاومة الظالم بدلاً من نصرته .

دافـــع عن الضعيف الذي يأكله سيده ، فحرّم الربا وحث على الصدقة

وفرض الزكاة .

فلم يكن الانقلاب الاسلامي انقلابـــاً دينياً ليس غير بل انقلاباً سياسياً اجتماعياً اقتصادياً .

إلا ان النزعات الجاهلية لم تمحِ تماماً ، فالعصبية الجاهلية كانت تظهر في بيئات مختلفة .

ثم نمت أشد النمو في العصر الاموي ، فالشباب الاموي كان يعيش عيشة جاهلية من شراب وصيد وغزل .

الاجتماع والسياسة : بتكوّن أمـــة اسلامية تتكلم لغة واحدة ذات دين واحد ونظام واحد هو الشرع الاسلامي ، تحضّر العرب وصاروا ينتمون إلى المواطن بدلاً من القبائل .

حرّم الاسلام الربا الفاحش والتلاعب بالميزان والكيل وآجال الديون .

كان الزواج غير مقيّد فقيّده، وورّث المرأة وحرّم وأدها، وقسّم الميراث.

العيشة : لمـــا تغلب العرب على الفرس والرومان اكتسبوا مدنية وغنى وخصباً وعاشوا عيشة راضية . فكان الاسلام أشبه ببوتقة: أمة مؤلفة من أمم.

الانظمة : واكتسبوا أيضاً أنظمة سياسية كتدوين الدواين وتنظيم الجيوش . أما **الفرس والرومان** ، فأخـــذوا عن العرب الدين واللغة ، فتعلموا العربية واسلموا ، وبرز بعضهم في العربية على العرب أنفسهم .

الدين الجديد والادب

للاسباب الآنفة الذكر جاء الادب الاسلامي مغايراً للادب الجاهلي ، فهو لا يصف العقل الاسلامي الذي طبعه الاسلام بطابعه الخاص .

لم يحدث التغير في الادب فجأة كما حدث مرة واحدة في السياسة والاجتماع ، بل ظلّ العرب متمسكين بادبهم زمناً .

القرآن الكريم : ادهشهم القرآن الكريم اذ رأوا شيئاً لا عهد لهم به ، بل كل ما كان عندهم بعض اشعار وامثال متفرقة .

ادهشهم القرآن إذ حدثهم بشيء لم يتعودوه ، عن الدين ، عن الانـــذار والتبشير والاشتراع ، فانكروا ذلك أولاً ثم بهرهم جماله واحبوه . وما مضى ربع قرن حتى صار هو المثل الأعلى في الدين والادب والاجتماع والسياسة . وكان الناس بين منكر ومقاوم ومؤمن ومدافع .

الشعر السياسي : وظهر إذ ذاك الشعر السياسي : جماعة يدافعون عن النبي محمد ودينه ، وجماعة يناضلون عن دينهم القديم ويعادون النبي .

فهذا الشعر السياسي كان جاهلياً لفظاً ومعنى ، اسلوباً وغرضاً ، الا انـــه تناول شيئاً لم يتناوله الشعر القديم وهو المعاني الدينية . وكثرت فيه الفاظ لم يذكرها السابقون من الشعراء . وهذه الالفاظ وردت في القرآن الكريم ، كالالفاظ الدينية ، فمنهم من يكثر من ذكرها ، كعبدالله بن رواحة من شعراء الانصار ، ومنهم من كان حيناً يذكر وحينـــاً لا يذكر كحسّان بن ثابت . اما شعراء قريش المعارضون للنبي ودينه الجديد فكانوا يلمّون بها الماماً .

الهجرة : معارضة قريش للنبي دعته للهجرة كما تقـــدم ، وحدثت حروب كثيرة . كل ذلك فتح مجالاً للشعر والاكثار منه ، كالفخر والهجـاء والرثاء ، فكان عصر النبي عصراً نهض فيه الشعر نهضة لم تحدث في الجاهلية ، حتى ان قريش عرفت به وكان قليلا فيها ، لأن القرشيين شعب منصرف للتجـارة وله السيادة على الكعبة .

وبعد موت النبي وحدوث حروب الردّة وظفر الاسلام ، انقطعت المعارضة واشتد الميل للفتح ، وزالت الخصومة الدينية في الحجاز ، وكان عمر يعاقب من يذكر تلك الايام واشعارها حتى نهى حساناً عن انشاد شعره في مسجد النبي ، فضعفت العناية بالشعر وانصرف القوم الى الحروب والفتوح وتأسيس الدولة وتمصير الامصار .

قلّ الاعتناء بالشعر ولكن لم ينصرف عنـــه العرب كل انصراف ، بل بقي منهم من يقوله مدحاً وهجاءً وفخراً .

ومنهم الحطيئة ، وكعب ، والشمّاخ بن ضرار ، والنابغة الجعدي . فهؤلاء ظلوا يقولونه كأنهم في الجاهلية . كما ان البعض منهم انصرفوا عنه او كادوا بعد وفاة النبي ، مثل حسان بن ثابت ، ولبيد .

اما الحطيئة فلم يتأثر بشيء من حيث المبدأ ، بل ظل هجّاء حتى حبسه عمر . وهناك شاعر آخر اسمه ضابىء البرجمي ، اقذع في هجـــوه حتى حبسه عثمان ، ومات في السجن .

هذان الشاعران وامثالهما لم يتركوا جاهليتهم وتفكيرهم ، ولكنهم تأثروا بالتعبير القرآني وبعض معانيه والحياة الاسلامية الجديدة فظهر شيء في شعرهم لم يكن مألوفاً من ذي قبل كقول الحطيئة :

من يفعل الخير لم يعدم جوازيَه لا يذهب العرف بين الله والناس

ففي خلافة عمر وقسم من خلافة عثمان انصرف شباب الامة العربيـة إلى الحروب ، اي تركوا القول ومالوا إلى العمل ، الا بعض رجال البادية فانهم ظلوا محتفظين بعاداتهم خاضعين للنظام الجديد . فهؤلاء كان الشعر حديث مجالسهم .

وبعد تلك الفتوح العظيمة تكونت ناشئة جديدة ونظرية جديدة في الحياة. وأمن العرب شر اعدائهم وأثروا ، فعادوا الى التنافس فيما بينهم ، ومن آثار هذه المنافسة مقتل عثمان وعلي . وحدثت شِيَع واحزاب أخرى بسبب هذا التنافس ايضاً .

وحصل تنافس شعري بسبب مقتل عثمان وعلي لم يقل عن تنافس النبي وقريش ، فقيل شعر كثير .

وظلت الحالة كذلك حتى انقادت السلطة لمعاوية ، فهدأت الاحوال نحو ٢٠ سنة هدوءاً وقتياً ، اشبه بهدنة بين متحاربين ، استعداداً لحرب جديدة .

فما مات معاوية حتى اشتدت الخصومة وشمّرت عن ساقها وعادوا الى ما هو اشبه بأيام الجاهلية من الحروب . فكثرت الاحزاب واشتد النضال بالسيف واللسان .

فظهر الشعر ظهوراً جديداً اشد مما مضى ، وكان مخالفاً للشعر القديم لان الجيل اسلامي ، والجاهليون كانوا انقرضوا تماماً ، وقام جيل جديد متأثر بالاسلام ، وحضارات جديدة ، فتغير عقله تغييراً تاماً .

فالذي يصح ان نسميه ادباً اسلامياً هو ما قاله هؤلاء الذين سمعوا عن الجاهلية الاخبار ولم يروا منها شيئاً . وهؤلاء هم الذين يصح ان يطلق عليهم لقب شعراء اسلاميين .

الحياة الجديدة

فلتفهم الشعر الاسلامي الذي تطور من الشعر الجاهلي وانفصل عنه بعض الانفصال ، عليك ان تفهم ما يلي من الحياة الجديدة التي يصورهـا هذا الشعر الجديد .

ترك العرب الحياة القديمة ، ولم يعد يكسب العربي قوته من الغزو والغارة ، بل عاش بموارد كانت مجهولة عنده ، كالتجارة ، واستثمار الارض ، والجندية ، ورواتبها الضخمة ، واعمال الدولة : سياسة وادارة وقضاء .

ثم المهاجرة الى اقطار بعيدة افتتحها الاسلام حيث يكسبون ويعيشون برخاء اصبح العرب سادة الفرس وسادة الروم في الشام . زحفوا الى مصر ، ثم الى افريقيا ، ثم الى اسبانيا ، حيث سادوا وشادوا .

فكل هذه الاسباب غيّرت اخلاق العرب وحياتهم . فلما أمنوا شر الناس عادوا الى انفسهم فاخذوا في الشقاق والنضال والقتال .

فبعد موت معاوية تألـّفت عدة احزاب :

١ — حزب بني أُمية وكتلته في الشام . التفت حول بني عبد شمس لتثبت لها الملك .

٢ — حزب عبدالله بن الزبير في الحجاز .

٣ — حزب بني هاشم آل البيت في العراق

٤ — حزب يعارض كل هذه الاحزاب ويرميها بالكفر والشقاق ، وهو حزب الخوارج : فالخوارج يريدون ان يكون الامر شُورى .

وكانت بين هذه الاحزاب حرب من اشأم الحروب وأشدها بعـــد موت معاوية وخصوصاً يزيد ابنـه . وكان الأدب نفـير هذا الجهاد ، فلكل حزب شعراء وخطباء .

انتصر حزب الامويين على الزبيريين فمحقهم محقاً ، وانتصر أيضاً على الشيعة نوعاً ما .

كان هذا الحزب يجمد ثم يظهر إذا استجمع قواه وضعفت أعداؤه . ولهذا الحزب أيضاً شعراؤه وخطباؤه .

أما حزب الخوارج فبقي ثابتاً في وجه الامويين يجاهد جهـــاداً عنيفاً ، لا يكاد يُغلب حتى يجدد قواه .

مواطن الأدب الجديد

حفظ الامويون سلطانهم في الأقطار الاسلامية ، وظهرت قوة هذه الوحدة في عهد عبد الملك بن مروان حتى أشبهت ايام معاوية فصارت مراكز القوى العربية ثلاثة :

١ – **الشام** : وفيها الخلافة وما لها من بأس وقوة .

٢ – **العراق** : وفيهـــا الشيعة والمعارضة ، وفريق من أنصار ابن الزبير وجمهرة من الفرس ، واخلاط من أمم متعددة . ففي العراق أرض خصبة ومال وافر إلى جانبها الاضطراب الدائم ، والمعارضة الدائمـــة ، والصراع بين السياسة والدين .

٣ – **الحجاز** : منفى الشباب أبناء المهاجرين والانصار يعيشون عيشة ترف وبذخ لا يبرحون الحجاز إلّا بإذن خاص من الخليفة . (اقامة اجبارية) . لهم من بيت المال رواتب ضخمة . أغدق عليهم الخلفاء العطـــاء وهم ورثة آبائهم الفاتحين أصحاب الاسلاب والغنائم التي لا تحصى .

فهذا الشباب يجمع في صدره عدة عواطف ، وفصاحة ، وشعور ، وحس

دقيق ، وأميال متّقدة ، وكره للدولة القائمة على أركان وضعها آباؤهم وأجدادهم.

وفي هـــذه الأقطار الثلاثة اختلف الأدب باختلاف الشؤون السياسية والطبيعية والاقتصادية .

ادب الشام : لم يكن في الشام شيء من الأدب الا ما ينقل مع الوافدين على الخلفاء من أهل العراق والحجاز ، لأن العرب الذين كانوا في الشام يمانيون ، فليس لهم ما لعرب عدنان من الانتاج الأدبي الذي ورثوه عن الجاهلية .

ادب العراق : كان العراق موطناً لذلك الأدب الذي يغلي كالمرجل ، فهناك معارضة سياسية ، ونضال بين الأحزاب ، وخطب سياسية وشعر سياسي ، وجهاد بين القبائل ، وتنافس بين الأفراد كأنهم في الجاهلية .

فكان هناك الهجاء للأفراد والجماعات ، ثم الفخر والمدح .

الحجاز : أما الحجاز فكان موطناً لشيئين متناقضين : النسك والتقوى والجد في درس العلوم الدينية ، وتحصيلها من جهة ، واللهو والعبث والمجون من جهة أخرى ، لأن هؤلاء الاشراف من قريش والانصار ، لهم ثروتهم وفراغهم .

في الامصار الثـــلاثة تظهر صور الحياة العربية في أواسط القرن الاول الهجري في الشعر ، وتظهر أيضا أغراض الشعر الاسلامي ، فهذا الشعر احتفظ بفنونه الجاهلية كالمدح والهجاء والرثاء والفخر ، وأضاف اليها فنوناً جديدة لم تكن ، وغيّر الفنون القديمة تغييراً عميقاً ..

الغزل : قوي في هذا العصر جداً نظراً لرخاء العيش الجديد والترف ورقة مزاج اهل البدو بتأثير القرآن والحياة الجديدة ، ولهذا اصبح الغزل مستقلاً عن انواع الشعر الاخرى ، ولم يعد تابعاً لسواه ، فصار الغرض منه اظهار عواطف الشاعر واهوائه وميوله ، فاختلفت مذاهب الشعراء الحجازيين فيه .

فشعر **اهل البادية** ، عفيف عذري لا اباحية ولا تهتك فيـــه ولا تجاوز لما اعتاده الناس ، فهو حب طاهر قوي حاد ، يملك كل حواس ناظمه وقائله ، فيصبح مشتعلا به اشتعالاً . فهذا الشعر هو الشعر الذي تقرأه العذراء ولا يحمرّ وجهها ، وزعيم هؤلاء الشعراء **جميل بن معمر** .

اما اهل المدن – مكة والمدينة والطائف – فمنهم ذوو الثروة الكبيرة واللهو العظيم ، وشعرهم يصف حياتهم وصفاً صادقاً بل يصوّرها ادق تصوير ، ولهذا ظهر في شعرهم الاباحية والعبث باختلاف مزاج الشعراء. ومن شعرائهم: **الاحوص ابن محمد** ، فهذا الشاعر اسرف في اللهو والتعرّض لاهل بلده، حتى عذّب ونفي ايام سليمان بن عبد الملك .

والعرجي، في الطائف ومكة تعرض لولاة مكة وسخط على خلفاء دمشق، فعذّب وحبس ومات في سجنه .

وعمر بن ابي ربيعة الذي يعدّ زعيم الغزليين الاباحيين في الشعر العربي.

الغناء : وظهر مع هذا الغزل فن آخر هو فن الغناء . وبالطبع حيث يكثر اللهو يظهر الغناء . ظهر هذا الفن في الحجاز ومنه انتقل الى الاقطار الاخرى . والذين غنوا وتغزلوا في العراق والجزيرة ونجد تأثروا بغزل اهل الحجاز. وكثرة الموالي من الفرس والروم رجالاً ونساء كان لها اثر في نشأة الغناء.

الشعر السياسي : دعا اليه الصراع الحزبي واختلاف آراء الاحزاب في نظام الملك ، وفي الاشخاص الناهضين به من الزعماء ، واتصال هذا النظـــام وهؤلاء الاشخاص بالدين وهو اساس الحكم عند المسلمين .

ومنشأ هـــذا الشعر السياسي يتصل بالشعر القبائلي في الجاهلية . فشعراء القبائل كانوا ينافرون ويفاخرون ويدافعون ويدعون الى القتال والى الصلح والسلام.

اذن فالشعر السياسي تولّد من ذاك كما بيناه سابقاً .

كان اولاً بين القبائل ، ثم صار بين الوثنية والاسلام ، ثم صار بين المسلمين انفسهم بعد مقتل عثمان .

والطور الذى نتكلم عنه الآن هو طور تنظيم الاحزاب السياسية على قواعد معينة .

لم يكن هذا الشعر صورة افراد كما كان من ذي قبل بل صار صورة احزاب منظمة يناضل عنها .

الاحزاب

حزب الشيعة : يرى الحق ان تكون الخلافة في بني هاشم، بل في ابناء علي لأنهم احفاد النبي وابناء عمه ، ولأن النبي أوصى لهم في الحكم .

وما نشأ بعد ذلك حول هذه القضية فليس اساسياً ، انما الاصل هو المبدأ الذي ذكرنا . ولهذا ترى كل شعراء الشيعة يدافعون عن هذا الاصل ، مناصرين كل زعيم ينهض به .

حزب الامويين : يقول بالحكم في بني امية ،لان خليفة اموياً هو عثمان وَلِيَ الخلافة شرعاً ، وقتل ولم يؤخذ بثأره (مزعم جاهلي) ، والامويون اولياؤه الشرعيون والمطالبون بدمه والوارثون له . وهم بعد اقوى قريش واشدها بأساً. وناصرهم في ذلك جمع غفير لا يقل عن الجماعة المناصرة خصومهم .

حول هذا المحور يدور شعراء الامويين وعليه يعتمد الامويون في النهوض باعباء الحكم .

حزب الزبيريين: يقول ان الامويين لا يحق لهم القيام بالحكم بدون استشارة الامة ، فالخلافة شورى لا كما يفعل الاكاسرة والقياصرة ، اذن فالامويون مغتصبون وعليهم ان ينزلوا عن الحكم المغتصب ، وللامة أن تنتخب .

حزب الخوارج : يقوم أولاً على انكار التحكيم بين علي ومعاوية ، ويقول ان التحكيم هذا خطأ ، والخصمان اللذان قبلا به تجاوزا حدود الدين فيه .

فمعاوية، ليس بصاحب حق شرعي ، فهو والٍ بغى على الخليفة ، فلما خاف الهزيمة لجأ الى التحكيم ، خدعة وكيداً .

اما علي ، فلأنه قبل في التحكيم شك بحقه الشرعي في الخلافة. وبما انه شك فليس له حق بالخلافة ، بل قد تجاوز الدين وبهذا كفر ، فليعترف ويعتزل ، والا فالخوارج اعداؤه .

على هذه القواعد قامت الاحزاب السياسية ، ومشى الخصام والجهاد، ولعب قميص عثمان دوره ، فكان لكل حزب سياسة خاصة يمتاز بها ، واخذ الشعراء يدافعون بناءً على الأحوال التي تقدمت .

وسنأتي فيما يلي على ذكر شعراء الاحزاب .

الشعر في صدر الاسلام

شغل القرآن العرب ففتر النظم ، ولكن لمدة قصيرة ، هي التخم الفاصل بين الجاهليين والمخضرمين والأمويين ، ونحن قد ألحقنا المخضرمين بالامويين لأسباب ، منها :

١ — النغمة القرآنية ، وقد أفادتهم كما أفادت الامويين لقرب عهدهم بها . فنفس حسان والفرزدق واحد ، وجرير ككعب بن زهير ، ومثله الاخطل وان كان نصرانياً . وربما علت طبقة الأمويين على المخضرمين في البلاغة .

٢ — لأن الشعراء كانوا أعز نفساً وأرفع شأناً منهم في دولة بني العباس ، لحاجة الأمويين إلى استمالتهم لأن السواد الاعظم الإسلامي كان يكرههم. فحسان مدح النبي حباً بثباته وايماناً بدعوته . وتصح المشابهة بينه وبين الفرزدق إذ مدح هذا زين العابدين ، ولكنها لا تصح بينهما وبين مداحي العباسيين .

٣ — لأن مسحة الفطرة الجاهلية ظاهرة في شعرهم ، فهم والمخضرمون طبقة واحدة ، لا يتخللها فاصل .

الفترة الأولى : كان الشعر ديوان العرب وعليه تقوم العصبية ، فألغاها الإسلام بقوله : المسلم أخو المسلم ، ثم آية : « الشعراء يتبعهم الغاوون الخ » . ولكن بعد مدة أجاز النبي سماع الشعر وأثاب عليه . وكان للدعوة أنصار وأضداد ، فكان في الشعراء معارضون للنبي ومناصرون له .

معارضو النبي : عبدالله بن الزبعرى ، أبو سفيان ، عمرو بن العاص ، طراد ابن الخطاب ، وكلهم قرشيون . ولا تنس أمية بن أبي الصلت ، الذي كان يطمع

بأن يكون نبي الأمة كما يحدثنا صاحب الأغاني .

شعراء النبي : حسان ، كعب بن مالك ، عبدالله بن رواحة .

الفترة الثانية : في أول عصر الراشدين – عصر الفتوح – خمـــدت القرائح قليلاً ، وذلك ما يحدث في كل الأمم لانشغال النابغين،إلى أن انتظمت الاحزاب السياسية فصار لكل حزب سياسي شعراء ينصرونه . وقد قامت الصحف في عصرنا مقام الشعراء .

ولكن تكوّن الأحزاب ، بعد أن استراحوا من الفتح ، قوّى الشعر وهاج القرائح وكثر الشعراء بكثرة الأحزاب ، فكان لكل حزب من الأحزاب التي ذكرناها شعراء . يكثرون ويقلون بحسب أهمية الحزب ، وقد كان أكثر الشعراء مناصرين للأمويين القابضين على مفاتيح بيت المال .

شعراء علي : النعمان بن بشير الانصاري، ساير بني أميّة لكنه كان متعصباً للانصار وهو الذي رد على الأخطل عندما هجاهم .

ابن مفرغ الحميري ، ساير الأمويين وهجا أهل زياد .

ابو الأسود الدؤلي تحزب لعلي ولم يطعن ببني أميّة .

ابن زيد ساير العلويين والهاشميين .

انصار الخوارج : الطرماح بن حكيم ، واسماعيل بن يسار . والطرماح بن حكيم مر الهجاء .

انصار بني أمية : مسكين الدارمي : بث الدعوة بولايـــة العهد ليزيد بن معاوية .

الراعي .

ابو العباس الاعمى ، مدح الأمويين وهجا ابن الزبير الذي بايعه أهل الحجاز.

أعشى ربيعة وغيرهم .

ومن أشهر شعراء بني أمية : جرير والاخطل والفرزدق .

من هنا ترى ان الشعر تطور لا في أساليبه ، التي ظلت كما كانت اذا استثنينا روح القرآن ، اي التحريض على نيل الشهادة واعلاء كلمة الله في ايام الفتوحات ،

بل تطور في غايته . وتقدم هذا التطور بنوع خاص في الهجاءولا سيما السياسي ، ومنه تدرجوا إلى الهجو الادبي .

صفات الشعر :

١ — الايجاز .

٢ — قوة التعبير .

فالقليل من الحضارة الذي توصل اليه هؤلاء الشعراء اضعف فيهم النزعة الفطرية ، فقصروا فيها . ولم يمكنهم التأنق في المعيشة الذي حصل لمن أتوا بعدهم ، ولذلك لم يدركوا شأو العباسيين بالرقة والتصرف بالمعاني ، انما تقدم الهجو فقط في هذا العصر .

اغراضه : ١ً — نشر عقائد الدين . ٢ً — الهجاء . ٣ً — وصف القتال وحصار المدن وفتحها . ٤ً — المدح وليس إلى حد المبالغة . ٥ — الغزل .

كعب بن زهير

كعب : هو ابن بيت كثر فيه أصحاب القرائح الشعرية . أبوه زهير صاحب المعلقة ، أخذ الشعر عن والده ولم يسمح له بقول الشعر الا بعـــد ان امتحنه طويلاً .

ظهر الاسلام فأسلم أخوه بجير ، فقال فيه كعب شعراً يوبخـــه ويلومه على اسلامه ويعرض بالصحابة بقوله .

سقاك ابو بكر بكأس روّية وأنهلك المأمون منهسا وعلـّكا

فاهدر النبي دمه ، ودرى بذلك أخوه بجير فكتب اليه بذلك ، فهـــام كعب على وجهه يستجير فلم يجره أحد ، فلاذ بابي بكر فأمّنه ، وادخله على النبي وانشده قصيدته التي عرفت بالبردة ، التي يقول كليمان هيار انها قصيدة من أشهر الشعر العربي ، ولا يكاد ناطق بالضاد لا يسمع بها .

آثار كعب : اشهرها « بانت سعاد ... »

اقسامها : التغزل بسعاد ١٣ بيتاً ، وصف الناقة ٢١ ، التخلص إلى مـــدح النبي ٤ ابيات ، مدح النبي ١٣ بيتاً ، مدح المهاجرين والانصار ٧ .

قيمته : لم يتخلص من الأسلوب الجاهلي كالغزل ووصف الناقة والألفـــاظ الغريبة غير انه أقدر الجاهليين على التفنن بالمعاني .

ان كعباً عالج مواضيع عديدة في لاميته ، كوصف الناقة والاسد والظهيرة ، اما مطلع قصيدته فقد طبع فيه على غرار من تقدمه من الشعراء ، فسعاد واسمى وغيرهن نساء خياليات .

قال حماد الراوية انه يروي ٧٠٠ قصيدة مطلعها بانت سعاد . ولكن هذا لا يعيب كعباً ففي الغزل ترق عاطفته وينسجم لفظه ويلين ، وفي المدح تشتد الألفاظ وتجزل، وفي وصف القفار والوحوش الضارية تخشن العاطفة والكلام معاً.

ليس في القصيدة ذكر للرسالة الجديدة الا في بيت واحد هو :

مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

حسان بن ثابت

حياته : هو ابو الوليد حسان بن ثابت الانصاري ، من بني النجار من أهل المدينـــة . شاعر النبي ، بعد المناذرة والغساسنة . أسلم بعد هجرة النبي الى المدينة ودافع عنه بلسانه ، وكان له منـــبر في مسجد النبي ينشد شعره عليه ، وكان النبي يسمع هجاءه ويقول : « أجب عني . اللهم أيّده بروح القدس » . عاش بعد النبي مرضياً عنه من الخلفاء حتى مات سنة ٥٤ كفيف البصر في آخر حياته .

قيمته : جبان لم يجرد حساماً . أشعر أهل المدر في الجاهلية . حظي عند ملوك غسان ومدحهم بقصائد عديـــدة ونال اسنى عطاياهم ، وذكر فضلهم حتى آخر عمره . مدح آل جفنة لاهلية النسبة وقرب الجوار مع أهل يثرب .

اسلوبه في مدح النبي : ذكر البعثة ، وصف الشمائل ، تصديق البعثـــة والنبوة ، التعريض بمنكري النبوة ومكذبيها . كان صادقاً في مدح النبي ، دافع عنه بهجـــاء مقذع ، لم يشتم الانساب ولم يمزق الاعراض ، بمساعدة أبي بكر العارف بأنساب العرب . ادخل شيئاً جديداً في الهجاء الذي كان قبـــلا يقوم بذكر الانكسارات وذكر بعض عيوب خارجية أو داخلية محطة من قيمـــة الانساب مثل البخل وسواد الجلد . أمـــا الذين هجاهم حسان فانسباء النبي ، وأعداء الإنسان أهل بيته .

آثاره : له ديوان مطبوع .

قيمته : امرؤ القيس يحمل لواء الشعر في النار وحسان في الجنّة .

شعر في الجاهلية ورق في الإسلام ، وعلى كل لا يعد من الطبقة الأولى .

ادخل في الشعر ألفاظاً جديدة : روح القدس ، جبريل .

لشعره صبغة تاريخية ، لذكره غزوات النبي وأسماء الصحابة والمشركين .

شاعر سياسي في هجائه ، ديني في مدح النبي ، تاريخي بذكر الوقائع . قيل فيه : يفضل حسان الشعراء بثلاثة : شاعر الانصار في الجاهليـــة ، والنبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام .

العصر الاموي

٦٤ — ١١٠

في هذا العصر نظم شعراء عديدون وأكثرهم أنصار بني اميّة لانهم، كما قلنا، اصحاب بيت المال .

كلهم تعرضوا للاحزاب ولكن فريقاً بينهم نظم في غير الشعر السياسي ، أي الغزل . أشهرهم الأخطل ورفاقـه ، والراعي والأحوص ، واختص بالغزل ابن الخطاب وابن معمر .

الهجاء : نحا الهجاء في هذا العصر نحواً جديداً .

١ — فيه فخر واشادة بفضائل قبيلة الشاعر في الجاهلية والاسلام .

٢ — ذم وتشهير بالمهجو وقبيلته في القديم والجديد .

هذا الشعر، أي النوع الثاني منه، بذيء، انتهك حرمة الدين والعرض، ولكنه مصدر تاريخي لحياة العرب في جاهليتهم ، ومرآة صادقة لحياة فريق منهم .

وهو على وقاحته وبذاءته ، حفظ اللغة ايضاً من الضياع .

شعراء البلاط الاموي

الاخطل

شاعر وقف فنه وحياته على السياسة ، واشترك في فنون أخرى من الشعر حتى عدّ من زعماء الشعراء السياسيين، ومن فحول الشعراء الاسلاميين بوجه عام.

حياته ، ولد في قبيلة تغلب التي تسكن الجزيرة والعراق ، وكانت قوية عزيزة شديدة البأس ، فلم تدخل فيما دخل فيه العرب كافة من الاسلام ، ولم تنزل عن دينها حين دهمتها جيوش المسلمين ، فبقيت على نصرانيتها واقرّها عمر على ذلك ورضي بالجزية وظلت هي تؤديها كل عام .

نشأ بدوياً وقال الشعر طفلاً كا روي انه هجا امرأة ابيه ، وقضى شبابه يقول الشعر في حوادث البادية .

ولما كانت ايام معاوية وظهر الشر بين الامويين والانصار احتاج يزيد الى من يهجوهم ، "فدُلّ" على الاخطل ففعل بعد ان نكل غيره عن ذلك ، فطار صيته بشدة هجائه .

ناضل عن بني أمية شاعراً مأجوراً يريد الاتصال ببلاط الخليفة ، وناضل الزبيريين أيام عبد الملك دفاعاً عن قبيلته ومكانتها، فكان في ذلك بالطبع مخلصاً غير مأجور .

فهو تغلبي من ربيعة . وفي الاسلام جاءت قبائل مضرية من قيس ، فزاحمت ربيعة في الجزيرة وشمالي الشام كما زاحمت العرب اليمانية .

فهذه القبائل القيسية المضرية مالت مع ابن الزبير على بني أميــة فاتفقت بذلــك مصلحة الأمويين واليمنيين والتغلبيين على محاربة القيسية والمضرية في الشام والجزيرة والعراق حتى انتصر عبد الملك على مصعب بن الزبير .

شعره : لهذا كان شعر الاخطل ذا مظهرين مختلفين :

١ – الدفاع عن حزب بني أمية والنضال عن وطنهم .

٢ – النضال عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين في الشام ، وألحّ في هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة .

كانت حياته سبباً لتفوقه في فنون الشعر ، فلم يلحقه بها شاعر من معاصريه ، فاتصاله بالقصر وانقطاعه للامراء والخلفاء جعلاه أمدح أهل عصره للملوك ، وبحكم هذا الاتصال كان أمهر الشعراء السياسيين .

وبحكم حياته الخاصة القبائلية واشتراكه الفعلي بما يعرض لهـا من حرب وسلم كان أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير مـا يعرض فيها من هزيمة وانتصار .

كان شرّيب خمر يسرف في شربها ويستعين بهـا على قول الشعر ، ولذلك كان أقدر أهل عصره على وصفها وابرعهم فيه .

وأشهر قصائده التي تجمع كل فنون الشعر المتقدم ذكرها ، هي التي مدح بها عبد الملك بعد انتصاره على مصعب . وكان لها في الادب العربي وحياة القبائل العربية شأن عظيم (القصيدة مشهورة ، في نهاية هذا الفصل مقتطفات منها ...)

وخصومة قبيلة الأخطل لقيس اضطرته إلى هجو جرير الذي كان يدافـع عن قيس بلسانه ، فاصبح الأخطل بهذا من شعراء النقائض ، ونبـه شأنه في الهجاء .

اما هَجوه فمعتدل أكثر من هجاء صاحبيه .

ثم مـات الأخطل في ايام الوليد شيخاً ، واستطاع ان يكسب مركز الزعيم السياسي في قومه وعند الخلفاء الذين نادوا به شاعر بني أمية .

آثاره : لا يسهل عليه النظم الا إذا سكر .

ومن آثاره **الهجاء** : هجا كعب بن جعيد شاعر تغلب وصار هو شاعرها .
هجا جريراً والانصار والفرزدق وبني تميم .

المدح : مدح بني أمية فصار شاعرهم وبخاصة عبد الملك .

الوصف : وصف الخمرة والسكران والحرب .

قيمته : كثير الاعتناء بشعره ، يختار أجود ما نظم ، يبقي الثلاثين من التسعين . يمعن في اخراج صوره حتى تأتي كاملة .

بقي سنة على نظم « خفّ القطين » ... تلك القصيدة الجامعة التي تفوق المعلقات تماسكاً وتسلسلا .

قال فيه حماد : شعره حبب اليّ النصرانية .

وقال جرير : أدركته وله ناب ، ولو أدركته وله نابان لأكلني .

الثلاث : الأخطل وجرير والفرزدق ، شغلوا العصر الأموي فاهتم الناس بتفضيل أحدهم على صاحبيه ، وكان لكل شاعر حزب يفضله ... وكثيرون قالوا في حياتهم : هم طبقة واحدة . اما بعد موت الاحزاب ، ففضل العلماء عامة والنحاة خاصة ، الأخطل للاسباب الآتية : جزالة لفظ ، فخامة عبارة ، صحة تراكيب ، وطول النفَس . اما استمراره على المتانة في القصيدة كلها فيذكرنا بالنابغة وزهير .

اشعر العرب : أعجب العرب المعاصرون للأخطل بأبياته في مدح بني أمية « حُشُدٌ على الحق » ، وعدّوه فيها أشعر العرب .

وفي هذه القصيدة يمّن الاخطل على الخليفة بنصر قبيلته له فيقول :

ولقد نصرت أمير المؤمنين بنا   لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

اما نصرانيته : فلا أدري ما مقدار عمقها ، وأرى عمله فيها لا يتفق مع ما يروى عن تأثير الكهنة .

يروون أنه كان عرضة للقصاص الديني اذا اذنب ، ومن جهة أخرى نقرأ انه فعل ما لا يجوز للنصراني فعله من سكر وطلاق ، فأين كان القسس ؟ ثم أيّ مسيحي هو ذاك الذي يحلف بالصليب والقربان تارةً ، وحيناً باللاتِ والعزّى وربّ الراقصات .

مقتطفات الاخطل

رائيته المشهورة المتضمنة كل اغراض الشعر :

خفّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا … وأزعجتْهم نوىً في صَرْفها غِيَرُ

كأنني شارب يوم استُبِدّ بهم … من قرقفٍ ضمّنتها حمصُ او جُدُرُ

لقد اصابت حميّاها مقاتله … فلم تكد تنجلي عن قلبها الخمر

كأنني ذاك او ذو لوعة خبلت … اوصاله أو اصابت قلبه النشر

شوقاً اليهم ووجداً يوم اتبعهم … طرفي ومنهم بجنبي كوكب زمر

يا قاتل الله وصل الغانيات اذا … ايقن انك ممن قد زها الكبر

اعرضن لما حنى قوسي موتّرها … وابيض بعد سواد اللمة الشعر

ما يرعوين إلى داع لحاجته … ولا لهن إلى ذي شيبه وطر

حتى هبطن إلى الوادي لغضبته … ارضاً تحل بها شيبان او غبر

حتى اذا هن ورّكن القضيم وقد … اشرقن او قلن هذا الخندق الحفر

وقعن اصلا وعجنا من نجائبنا … وقد تحين من ذي حاجة سفر

إلى امرىء لا تعرينا نوافله … اظفره الله فليهنأ له الظفر

الخائض الغمر والميمون طائره … خليفة الله يستسقى به المطر

وما الفرات اذا جاشت حوالبه … في حافتيه وفي اوساطه العشر

وزعزعته رياح الصيف واضطربت … فوق الجآجيء من آذيّه غدر

مُسْحَنْفِرٌ من جبال الروم يستره … منها اكافيف فيها دونه زور

يوماً باجود منه حين تسأله … ولا باجهر منه حين يجتهر

يغشى القناطر يطويها ويهدمها ... مسوّمٌ فوقه الرايات والقتر
حتى يكون لهم بالطفّ ملحمة ... وبالثوية لم ينبض بها وتر
وتستبين لاقوام ضلالتهم ... ويستقيم الذي في خده صعر
ثم استقل باثقال العراق وقد ... كانت له نقمة فيهم ومدخر
من نبعة من قريش يعصبون بها ... ما ان يوازي باعلى نبتها الشجر
تعلو الهضاب وحلوا في ارومتها ... اهل الرباء واهل الفخر ان فخروا
حشد على الحق عيافو الخنا انف ... اذا المّت بهم مكروهة صبروا
وان تدجّت على الافاق مظلمة ... كان لهم مخرج منها ومعتصر
اعطاهم الله جداً ينصرون به ... لا جد الا صغير بعد محتقر
لم يأشروا فيه إذ كانوا مواليه ... ولو يكون لقوم غيرهم أشروا
شُمس العداوة حتى يستقاد لهم ... واعظم الناس احلاماً اذا قدروا
لا يستقل ذوو الاضغان حربهم ... ولا يبيّن في عيدانهم خور
هم الذين يبارون الرياح اذا ... قل الطعام على العافين او قتروا
بني امية نعماكم مجللة ... تمت فلا منّة فيها ولا كدر
بني امية قد ناضلت دونكم ... ابناء قوم هم آووا وهم نصروا
افحمت عنكم بني النجار قد علمت ... عليا معد وكانوا طالما هدروا
حتى استكانوا وهم مني على مضض ... والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر
بني امية اني ناصح لكم ... فلا يبيتن فيكم آمناً زفر
ان الضغينة نلقاها وان قدمت ... كالعرّ يكمن حيناً ثم ينتشر
وقد نُصرتَ امير المؤمنين بنا ... لما اتاك ببطن الغوطة الخبر
يعرفونك راس ابن الحباب وقد ... اضحى وللسيف في خيشومه اثر
لا يسمع الصوت مستكاً مسامعه ... وليس ينطق حتى ينطق الحجر
امست إلى جانب الحشّاك جيفته ... ورأسه دونه اليحموم والصور
وقيس عيلان حتى اقبلوا رقصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ... ولا لعاً لبني ذكوان إذ عثروا
ضجوا من الحرب اذ عضت غواربهم ... وقيس عيلان في اخلاقها الضجر

كانوا ذوي امـــة حتى اذا علقت بهـــا حبائل للشيطان وابتهروا
صكوا على شارف صعب مراكبها حصاء ليس لهـــا هلب ولا وبر
ولم يزل بسليم أمـر جاهلهـــا حتى تعايا بها الايراد والصـــدر
امـــا كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط ايراد ولا صـــدر
مخلفـــون ويقضي النـاس أمرهم وهم بغيب وفي عميـــاء ما شعروا
ملطمون باعقار الحياض فمـــا ينفـــك من دارمي فيهم أثر
بئس الصحاة وبئس الشرب شربهـم اذا جرى فيهم العـزاء والسكر
قوم اناخت اليهـــم كل مخزية وكل فاحشة سبت بهـــا مضر
الآكلون خبيث الزاد وحــــدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخـــبر
واقسم المجدُ حقـاً لا يحالفهم حتى يحالفَ بطنَ الراحةِ الشَّعَر

وصف الخمرة من قصيدته وهي من الملحمات :

وشاربٍ مربحٍ بالكأس ناديني لا بالحصور ولا فيها بسوّارِ
نازعته طيّب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري
من خمر عانة ينصاع الفؤاد لها بجدولٍ صَخِبِ الآذيّ مرّارِ
كمث ثلاثـة احوال بطينتهـــا حتى اذا صرحت من بعد تهدار
آلت إلى النصف من كلفاء اترعها علج ولثمها بالجفن والغـــار
ليست بسوداء من ميثاء مظلمة ولم تعذّب بادناء من النـــار
لها رداءان نسج العنكبوت وقد حفت بآخر من ليف ومن قـــار
صهباء قد كلفت من طول ما حبست في مخدع بين جنات وأنهار
عذراء لم يجتل الخطاب بهجتها حتى اجتلاها عباديّ بدينار
لمـــا أتوهـــا بمصباح ومبزلهم سارت اليهم سؤور الابجل الضاري
تدمى إذا طعنوا فيها بجائفة فوق الزجاج عتيق غير مسطار
كأنما المسك نهبى بين أرحلنا مما تضوع من ناجودها الجاري

الأثر الديني :

اني حلفت برب الراقصات وما أضحى بمكة من حجب وأستار

ومـــا بزمزم من شمط محلقة ومـــا بيثرب من عون وابكار
لألجأتني قريش خائفاً وجـــلا ومولتني قريش بعد اقتـــار

الحرية الدينية :

ولست بصائمٍ رمضانَ عمري ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عنسا بكورا إلى بطحاء مكة للنجـــاح
ولست بقـــائم أبداً أنادي كمثـل العير حيّ على الفـلاح
ولكني سأشربهـا شمـــولاً وأسجد عند منبلج الصباح

هجو الانصار :

لعن الإله من اليهـود عصابـة بالجزع بين جلاجـل وصرار
قـوم إذا هـدر العصير رأيتهم حمرا عيـونهم كجمر النـار
ذهبت قريش بالمكارم والعـلى واللؤم تحت عمـائم الانصـار
فـذروا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجـار

الفرزدق

قلنا ان الشعر تطور في هذا العصر ، عصر صدر الاسلام ، ونهج فيه مناهج جديدة .

الا ان ثلاثة من الشعراء كانوا محتفظين بالسنة الجاهلية القديمة ، فيقصدون الى أنواع الشعر كلها خاضعين للتطور الجديد فيها ، وهم الاخطل وجرير والفرزدق.

الفرزدق : سمّي بذلك لجهومة في وجهه ، ومعناها الرغيف .

حياته : أبو فراس همام بن غالب ، دارمي تميمي قال الشعر صغيراً ، عندما كان طفلاً يرعى الغنم .

نشأ بالبصرة بين فصحاء العرب فلم تشب لغته عجمة ولا لحن .

نشأ كالاخطل من قبيلة عديدة عزيزة مثرية ، اسرته الخاصة اقوى التميميين كريمة الى حـــد الاسراف ، فورث الفرزدق عنها البأس والعزة والنفور من كل سلطة .

كان شكساً محباً للخصومة يهجو الافراد والجماعات . رفع أمره لزياد ففر تاركاً العراق لاجئاً الى الجزيرة حيث مدح عمرو بن العاص فأجاره عمرو . ولما مات زياد عاد الى وطنه وظل فيه حتى مات معاوية ويزيد واشتدّ الاضطراب وفسدت الدولة ، فكان الفرزدق شكساً شديد الشكيمة عجزت السلطات عن تقويمه وامالته الى الاعتدال .

ولكن ظهور جرير اضطره الى التفكر قبل القول ، وأجبره على تجويـد الشعر والعناية به .

وفاته : ثابت الرأي، لا يميل مع الاهواء، وفي لآل البيت حتى مات. طبع ديوانه في بيروت عام ١٩١٠ نقل الى الافرنسية بعناية المستشرق « بوشه » .

اغراض شعره : المديح ، الهجاء ، الوصف .

المديح : مدح آل البيت ، خاصة زين العابدين ، ومدح عمر بن عبد العزيز، وكان ينتجع الخلفاء الامويين فيمدحهم وينال جوائزهم .

الهجاء : هجا عبد الملك وزياداً والحجاج وقبائل عديدة ، والهجاء موضوعه الخاص ، وأشهر مهاجاته مع جرير .

الوصف : قليل ولكنه تام ، وهو في مواضيع مبتذلة كالخمر . أما قصيدته في وصف الذئب فرائعة على صغرها ، وهو يجيد القصص في شعره كما نرى في هجو ابليس .

قيمة شعره : فخم العبارة، جزل اللفظ. كثير الغريب ، وله تعابير خاصة. فيه تعقيد بسبب التقديم والتأخير والفصل والوصل ، أساليب كثيرة متنوعة وتراكيب مختلفة ، ومعانٍ دقيقة اشغلت العلماء اللغويين والنحاة فأعجبوا بها ، وقاسوا عليها في علمهم .

يكاد يشغل الفخر كل عواطفه ، فيفتخر بين يدي الملوك ولو حرم عطاياهم واحالوه على آبائه وأجداده ، كما حدث حين أنشد سليمان بن عبد الملك :

اذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم ، نار غالب

فغضب سليمان بن عبد الملك ، وأحاله على أبيه وألحقه بناره .

ومن جيد مدحه : « هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... »

وقصارى الكلام ، ان شعر الفرزدق بعيد عن العواطف الرقيقة بعكس صاحبه جرير .

فنه في الألفاظ . أكثر من استعمال الجوازات والاغلاط النحوية ، فصارت عبئاً ثقيلاً على عاتقنا .

ميال إلى القصائد الصغيرة لسرعة تداولها .

وكثيراً ما سرق شعراً وادعاه ، وفي هذا روايات عديدة .

منتخبات الفرزدق

من شعره القصصي :

مطلعها

الا من لشوق انت بالليل ذاكره   وانسان عين مـــا يغمض عائره

الى ان قال :

فجاءت باسباب طوال واشرفت   قسيمـة ذي زور مخوف تواتره
اخذت باطراف الحبال وانمـــا   على الله من عوص الامور مياسره
فقلت اقعدا ان القيام مذلة   وشدا معـــا بالحبل اني مخاصره
اذا قلت قد نلت البلاط تذبذبت   حبالي في نيق مخوف مخاصره
منيف ترى العنبان تقصر دونه   ودون كبيدات السماء منـاظره
فلما استوت رجلاي في الأرض نادتا   احيٌ يُرجّى أم قتيل نحـــاذره
فقلت ارفعوا الأسباب لايشعروا بنا   ووليت في اعجاز ليل احاذره
هما دلتاني من ثمانين قامـــة   كما انقض باز أقتم الريش كاسره

مدحه لسليمان بن عبد الملك :

فلا تجزعي اني ساجعل رحلتي   الى الله والباني له وهو غامله
سليمان غوث الممحلين ومن بـــه   عن البائس المسكين حلت سلاسله
وما قام مذ مـات النبي محمد   وعثمان فوق الارض راح يعادله

أرى كل بحر غير بحرك اصبحت ... تشقق عن يبس المعين سواحله
كأن الفرات الجون يجري حبابه ... مفجرة بين البيوت جـــداوله
ارى الله في تسعين عاماً مضت له ... وست مع التسعين عادت فواضله
علينا ولا بلوى كما قد اصابنـــا ... لدهر علينا قــد الحت كلاكله
فاصبح صلب الدين بعد التوائه ... على الناس بالمهدي قوّم مائله

ميميته السياسية المدحية :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحـل والحرم
هذا ابن خــــير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله ... بجـده انبياء الله قـــد ختموا
وليس قولـك من هـذا بضـائره ... العرب تعرف من انكرت والعجم
اذا رأتـــه قريش قـال قائلهـا ... الي مكارم هـذا ينتهي الكرم
يغضي حيـاء ويغضى من مهابتـه ... ولا يكلم الا حـــين يبتسم
يكـاد يمسكه عرفان راحتـه ... ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
من يشكر الله يشكرْ اوليّـة ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم
مشتقة من رسول الله نبعتـــه ... طابت مغـارسه والخيم والشيم
ينشق ثوب الدجى عن نور غرتـه ... كالشمس تنجاب عن اشراقها الظلم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
ان عُدّ اهـل التقى كانوا ائمتهم ... او قيل من خير أهل الأرض قيل هم

فخره :

اذا اغبرّ أفاق السماء وكشفت ... بيوتا وراء الحي نكباء حرجف
واصبح مبيَضّ الصقيع كأنه ... على سروات النيب قطن مندف
ترى جارنا فينا بخير وان جنى ... فلا هو مما ينطف الجـار ينطف
وكنا اذا قامت كليب عن القرى ... الى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف
لنا العزة القعساء والعـدد الذي ... عليه اذا عـد الحصى يتخلف

ترى الناس ان سرنا يسيرون خلفنا وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا
وانك اذ تسعى لتدرك شاونا لانت المعنى يا جرير المخلف

وقوله :

واني سفيه النار للمبتغي القرى واني حليم الكلب للضيف يطرق
اذا مت فابكيني بما انا اهله فكل جميل قلت فيّ يصدق
وكم قائل مات الفرزدق والندى وقائلة مات الندى والفرزدق

ومن فخره :

وكنا اذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الاخادع
احلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً اذا ما نجهل

وصف الذئب :

واطلس عسال ، وما كان صاحبا دعوت لناري موهنا فاتاني
فلما اتى قلت ادن ، دونك انني واياك في زادي لمشتركان
فبت اقدّ الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفي من يدي بمكان
تعشّ ، فان عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وانت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما اخيّين كانا ارضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى رماك بسهم أو شباه سنان
وكل رفيقي كل رحل وان هما تعاطى القنا قوماهما اخوان

جرير

نسبه وحياته : ابو حرزة جرير بن عطية بن الخطفى التميمي اليربوعي ، ولد باليمامة من بيت شعر ، ونشأ بالبادية ، وكان ينزل على من في البصرة من قومه حين يؤمّها .

رأى منزلة الفرزدق وما كسبه من الشعر فودّ لو جاراه . وحمّسه قومه على ذلك اعلاءً لشأنهم ، فوقعت بينهما المهاجاة عشر سنوات ، كان في أثناءها جرير في البادية ، فما زال بنو يربوع بشاعرهم حتى أقدموه البصرة ، فاتصل بالحجاج فأكرمه ، وطار صيته حتى حسد عبد الملك الحجاج عليه .

وحرش الفرزدق بين جرير والشعراء كلهم واغراهم عليه بالمال ، فنصب له منهم ثمانون شاعراً ، فأخرسهم جرير كلهم ، ولم يثبت له إلّا الفرزدق والأخطل. ثم مات الأخطل وظل الفرزدق وجرير يتساجلان طوال حياتهما ، إلّا مدة قليلة تنسك فيها الفرزدق وتاب . ثم مات وجريراً في عام واحد سنة ١١٤٠ ، وليس بينهما إلّا ستة أشهر .

اخلاقه : عفيف ، ديّن ، فخور ، رقيق الطبع ، أنوف ، متعنّت يحب الخصام .

آثاره : ديوانه . فيه المديح ، يمدح ممدوحه مدحاً دينياً أكثر منه دنيوياً ، والعاطفة الدينية قوية في كل شعره .

الهجاء : شديد الهجاء خبيثه ، سفيهه . ووقائعه كثيرة مع شعراء عصره . غضب على الأخطل لحكمه ، وعلى الراعي لتفضيله الفرزدق عليه ، فهجاه وهجا

قومه بني نمير ، فكان ذلك سبباً لطرد الراعي من بلاده ، ومهاجرة أهله للبصرة. قد تفوق في هذا الباب ولم يكن تعففه يمنعه عن الفحش والاقذاع .

اسلوبه : غير أسلوب الفرزدق ، فالفرزدق يعلي نفسه ويوطي خصمه ، اما جرير فيتبع مثالب خصمه واحدة فواحدة ، وان لم تكن ، خلقها ، كهجوه الفرزدق : يعيره بالجبن ، يذكره بطرده من المدينة ، يتهمه بالنصرانية . ولنشأته التي نلخصها لك تأثير في تكوين هذه الصفات .

محيطه : أصغر من الفرزدق سناً ، وقبيلته دون قبيلة الفرزدق عزة ، اسرته فقيرة ، لا شهرة لها ولا حسب بالنسبة للفرزدق ، كان ابوه معدماً فقيراً فنشأ بائساً ضعيفاً ، فاعانه ذلك على التفوق والنبوغ ، فاشتد في الخصام على مقارعيه ، فغلبهم .

كان الهجاء اولاً بينه وبين البعيث من رهط الفرزدق . دافع الفرزدق عن البعيث فانبرى له جرير ، وانصرفا لبعضهما .

تجاوزت خصومتهما حدود الاخلاق والدين والأدب ، وعجزت كل السلطات عن ايقافها واهتم لها الناس كثيراً ، فدامت اربعين سنة ، وهي تتناول كل مناحي الشعر العربي واغراضه ، ولا سيما الهجاء .

اقوال المعاصرين في جرير

الاصمعي : لعل جريراً اول الثلاثة في الهجاء المر .

الفرزدق : قاتله الله ، ما احسن ناحيته واشرد قافيته ، والله ، لو تركوه لابكى العجوز على شبابها ، والشابة على احبابها ، ولكنهم هرّوه فوجدوه عند الهراج نابحاً ، وعند الجد قادحاً .

الحجاج : « انه لجرو هواش » . فلو لم ينصرف إلى مقارعة الشعراء لما ترك باباً من الشعر الا قرعه لما عنده من النزعات الشعرية التي ظهرت في شعره .

قيمة شعره : أسهل الفاظاً من مناظريه ، اكثر تلاعباً بفنون الشعر ، متأثر

بالدين ، ولذلك قال فيه الاخطل :
« جرير يغرف من بحر ».ميله غريب إلى الهجو بدليل ما قاله فيه الحجاج .
قال الفخر بكبرياء ونظم فيه .
انسب صاحبيه وارقها عاطفة ، وهما يعترفان بهذه الميزة .
أقلهم كلفة ، وارقهم ديباجة ولفظاً ، وأكثرهم فنون شعر . يتفرّد بالرثاء الذي لم يحسنه الاخطل والفرزدق .

المقارنـــة

الناس مختلفون على تقديم احد هؤلاء الشعراء الثلاثة على الآخر ، ولكنهم متفقون على ان الفرزدق انفرد في الفخر ، وجرير تفــوق في الهجاء ، وحـظ الفرزدق دون حظ جرير من الغزل ، والرثاء لجرير . والاخطل تفوق بالمدح ووصف الخمرة .

فشعر الفرزدق صلب خشن الالفاظ ، غليظ المعاني في اكثر الاحيان ، لفظه ثقيل في الاذن ، معانيه بدوية جافية . وفي شعر جرير رقة وعذوبة ومعانيه محبوبة . الفرزدق فاجر ، صافي الغزل . جرير عفيف حلو النسيب . الفرزدق يميل بهجوه إلى الفخر ، وجرير مائل بهجوه للذع والعبث والسخر . الفرزدق ينظر الى نفسه فيكبرها ويحقر خصمه . وجرير يستقصي عيوب خصمه وان لم يجد اخترع .

ابو عمرو العلاء ـــ رأيـــه في الثلاثة : يشبّه جريراً بالاعشى ، والفرزدق بزهير ، والاخطل بالنابغة . اما الفقرة الحكيمة فهي في قول الشاعر :

ذهب الفرزدق بالفخار وانمـــا حـــلو الكلام ومرّه لجرير
ولقد هجا فامضّ شاعر تغلبٍ وحوى اللّهى بمديحهِ المشهورِ

منتخبات جرير

المدح (يقدمون للمدح بالنسيب او بتذكر الاحباب الخ ..)

دعا الحجاج مثل دعاء نوح   فاسمع ذا المعارج فاستجابا
صبرت النفس يا ابن ابي عقيل   محافظة فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزّل   مع النصر الملائكة الغضابا
اذا سَعَرَ الخليفة نارَ حرب   راى الحجاج اثقبها شهابا
ترى نصر الامام عليك حقاً   اذا لبسوا بدينهم ارتيابا
تشد فلم تكذّب يوم زحفٍ   اذا الغمّرات زعزّعت العقابا
عفاريت العراق شفيت منهم   فامسوا خاضعين لك الرقابا
وقالوا لن تجامِعَنا امير   اقام الحد واتبع الكتابا
اذا اخذوا وكيدُهم ضعيف   بباب يمكرون فتحت بابا
واشمطَ قد تردد في عماه   جعلت لشيب لحيته خضابا
اذا علقت حبالك حبل عاص   راى العاصي من الاجل اقترابا

وقال في الحجاج ايضاً :

قل للجبان اذا تأخر سرجه   هل انت من شرك المنية ناج
فتعلـّقـَنْ ببنات نعش هارباً   او بالبحور وشدة الامواج
من سد مضطلع النفاق عليكم   او ما يصول كصولة الحجاج
ام من يغار على النساء حفيظةً   اذ لا يثقن بغيره الازواج

ان ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج
ماض على الغمرات يُمضي همه والليل مختلف الطرائق داج
منع الرشا واراكم سبل الهدى واللصّ نكله عن الادلاج
ولقد كسرت سنان كل منافق ولقد منعت حقائب الحجاج

المدح في عبد الملك :

اتصحو ام فوادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح
يقول العاذلات علاك شيب اهذا الشيب يمنعني رواحي
تعزت ام حرزة ثم قالت رايت الواردين ذوي امتناح
تعلل وهي ساغبة بنيهـا بانفـاس من الشبم القراح
سامتـاح البحـور فجنبيني اذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريـك ومن عنـد الخليفـة بالنجاح
ساشكر ان رددت علي ريشي وانبت القوادم في جناحي
الستم خـير من ركب المطـايا وانـدى العالمين بطون راح
لـكم شم الجبال من الرواسي واعظم سيل معتلج البطاح

في عمر بن عبد العزيز :

لجت امامة في لومي وما علمت عرض السماوة روحاني ومبتكري
قد طال قولي اذا ما قمت مبتهلاً يا رب اصلح قوام الدين والبشر
خليفـة الله ثم الله يحفظـه والله يصحبك الرحمن في السفر
انـا لنرجو اذا ما الغيث اخلقنا من الخليفة مـا نرجـو من المطر
اذكـر الجهد والبلوى التي نزلت ام قد كفاني الذي بلـغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تعرقـني قد عي بالحي اصعادي ومنحدري
كم بالمواسم من شعنـاء ارمـلة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعـوة ملهـوف كان به خبلاً من الجن او مساً من البشر
فان تدعهم فمن يرجـون بعدكمُ او تنح منها فقد انجيت من ضرر

خليفة الله مـاذا تأمرون بنـا   لسنا اليـكم ولا في دار منتظر
انت المبارك والمهدي سيرتـه   تعصى الهوى وتقيم الليل بالسور
نال الخلافـة اذ كانت له قـدراً   كما اتى ربـه موسى على قـدر
فلن نزال لهـذا الذين مـا عمروا   منكم عمارة ملك واضح الغرر

الرثاء

في رثاء زوجته وهجو الفرزدق والبعيث ، وتسمى الخوساء :

لولا الحياء لهاجني استعبار   ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتّع نظرة   في اللحد حيث تمكّن الاحفار
ولـّهت قلبي اذ علتـني كبرة   وذوو التمائم من بنيـك صغار
ارعى النجوم وقد مضت غورية   عصب النجوم كأنهن صرار
فسقى ثرى جدث ببرقه ضاحك   هزم أجش وديمـة مـدرار
متراكم زجـل يضيء وميضه   كالبلق تحت بطونهـا الامهـار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر   ومع الجمـال سكينة ووقـار
وإذا سريت رأيت نارك نورت   وجـه أغر يزينـه الاسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا   والطيبون عليـك والأبرار
يا نظرة لك يوم هاجت عبرة   من أم حرزة بالنميرة دار
وكأن منزلة لهـا بجلاجـل   وحي الزبور تجدّه الأحبار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا   ليـل يكر عليهـم ونهـار
أفـأم حرزة يا فرزدق عبتم   غضب المليـك عليكم القهـار

في رثاء ابنه سوادة :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم   من للعرين إذا فارقت اشبالي
لكن سوادة يجلو مقلتي لحم   بأز يصرصر فوق المرقب العالي
قد كنت أعرفه مني إذا غلقت   رهن الجياد ومد الغـاية الغـالي
ألا تكن لك بالديرين باكية   فرب باكية بالرمل معوال

زدنا على وجدها وجدا وان رجعت — في القلب منها خطوب ذات بلبال
فارقتني حين كف الدهر من بصري — وحين صرت كعظم الرمة البالي

غزله :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا — وقطّعوا من حبال الوصل اقرانا
لو تعلمين الذي نلقى أويت لنا — او تسمعين الى ذي العرش شكوانا
كصاحب الموج اذ مالت سفينته — يدعو الى الله اسرارا واعلانا
يا ليت ذا القلب لاقى من يعلله — او ساقيا فسقاه اليوم سلوانا
وا ليتها لم تعلقنا علاقتها — ولم يكن داخل الحب الذي كانا
هلا تحرجت مما تفعلين بنا — يا اطيب الناس يوم الدجن اردانا
يا أم عمرو جزاك الله مكرمة — ردي إليّ فؤادي كالذي كانا
ألست أحسن من يمشي على قدم — يا أملح الناس كل الناس انسانا
كاد الهوى يوم سلمانين يقتلني — وكاد يقتلني يوماً ببيدانا
يا أم عثمان ان الحب عن عرض — يصبي الحليم ويبكي العين احيانا
كيف التلاقي ولا بالقيظ محضركم — منا قريباً ولا مبداك مبدانا
ان العيون التي في طرفها حور — قتلننا ثم لا يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به — وهن أضعف خلق الله انسانا
يا حبذا جبل الريان من جبل — وحبذا ساكن الريان من كانا

ومنه

ما للمنازل لا يجبن حزينا — اصممن أم قدم المدى فبلينا
ان الذين غدوا بلبك غادروا — وشلا بعينك ما يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي — ماذا لقيت من الهوى ولقينا
ولقد تسقطني الوشاة فصادفوا — حصراً بسرك يا اميم ضنينا
كلّفت حاجة ما اكلف ضمرا — مثل القسي من السراء برينا
راحوا العشية روحة منكورة — ان حرن حرنا او هدين هدينا

لمناصفٍ خردٍ يطُفنَ بهــا مثــل الظباءِ يكدن بالسدر
هــذا الذي يسبي الفؤاد ولا يُكنى ولكن راحَ في الشعر
ان الرجــالَ على تآلفهم طبعوا على الاخلافِ والغدر

وقوله :

يا رب انك قد علمتَ بأنها أهوى عبــادك كلهم إنسانا
والذّهم نعمٌ الينا واحــداً واحب من نائي ومن حيانا
فاجز المحب تحيّةً واجزِ الذي يبغي قطيعةَ حبــهِ هجرانا
آمين يا ذا العرشِ فاسمع واستجب لمــا نقولُ ولا تخيبَ دعانا

ومن قوله :

وأرى شوقي سيقتلُني وحبيبُ النفسِ ان هجرا
ان نومي ما يلائمُني من أجلهِ يا أختُ ان ذُكِرَا
فأجابتْ في ملاطفــةٍ اسرعَتْ فيه له الحوَرا
انني ان لم امت عجــلا ارتجي ان راح أو بكرا
فإذا مــا راحَ فاستلِمي ان دنا في طوافــهِ الحجرا
وأشقّي البردَ عنــكِ لهُ كي تشوقيــهِ اذا نظرا
فأرتــني مسفراً حسناً خلتُـــهُ اذ اسفرت قمرا
لشقائي قــادني بصري ولحينٍ وافق القــدرا
ثم قالت للتي معهــا لا تديمي نحوهَ النظرا
خالسيه اخت في خفرٍ فوعيت القول اذ وقرا
انـــه يا اختُ يصرمُنا ان قضى من حاجة وطرا
قلت قد اعطيتِ منزلةً ما أرى عندي لها خطرا
فانيلي عاشقاً دنفــا ثم اخزى اللهُ من كفرا

ابن عتيق

يقول عتيقٌ اذ شكوتُ صبابتي وبيّن داءَ في فؤادي مخامرُ

النقائض

سميت كذلك من النقض ، اي انه على الشاعر ان يرد على خصمه بقصيدة من وزن قصيدته وقافيتها . وهذا النوع شاع كثيراً في العصر الأموي ، وقد كان قبله ولكن قليلا ، وغير مطرد ، فكان يعرض الشاعر لمعاني خصمه فيقلبها أو يفسدها أو ينفيها .

فأول قصيدة عرض فيها الفرزدق لجرير يائية أولها :

ألم ترَ أني يوم جَوّ سويقة بكيت فنادتني هنيدة ما ليا

فقلت لها ان البكاء لراحة به يشتفي من ظن ان لا تلاقيا

ثم يذكر حبه ولوعته لفراقها ، ثم يستطرد الى البعيث الذي استعان به على جرير فهجاه هجواً مراً مقذعاً ، ووصفه بالضعف والجبن وسوء النسب .

ثم انتقل الى جرير فشتمه ووصفه بالذل والقلة ، وفخر عليه بحسبه ونسبه ، فرد عليه جرير بيائية من الوزن والقافية مطلعها :

الا حيّ رهبى ثم حيّ المطاليا فقد كان مأنوساً فاصبح خاليا

فيها غزل طويل يصور نفساً معذبة بالحب. ثم عاتب اسرته الأدنين لاساءتهم اليه وخذلهم اياه . ثم عرض لاسرة الفرزدق وهجاها لأنها اسرة صناع قيون ، لا شرف لهم ولا بلاء ، وفخر بقومه قليلاً وبنفسه كثيراً ، ووصف خصومه بالغدر واسلام الجار .

كل تهاجي الاخطل وجرير والفرزدق على هذا النحو. ففي هذا الشعر جناية على الأدب والأخلاق والأعراض والدين ، الا انه مصدر تاريخي لحياة العرب يوثق به وله فضل حفظ اللغة من الضياع ، آه .

شذرات من النقائض

قال الفرزدق ، وهي أول قصيدة تعرض فيها لجرير وقومه بَني الخطَفى :

الم ترَ أني يومَ جوّ سويقـةٍ بكيتُ فنادتني هنيدة ما بيا
فقلت لها ان البـكاء لراحة بهيشتفي مَنْ ظنّ انلا تلاقيا

الى ان يقول هاجياً :

فان يدعني باسمي البعيث فلم يجد لئيماً كفى في الحرب من كان جانيا
عجبت لحين ابن المراغة ان رأى له غنماً اهدى اليّ القوافيـا
بأيّ اب يا ابن المراغــة تبتغي رهـاني الى غايات عمي وخاليا
هلمّ ابناً كابنَي عقال تعـده ووادهما يا ابن المراغـــة واديا
تجد مجـده عند السماء ، ودارم من المجد قدماً اترعت لي حياضيا
بنى لي به الشيخان من آل دارمٍ بناء يُرى عند المجرة عاليـا

فرد عليه جرير :

الا حيّ رهبى ثم حيّ المطاليا فقـد كان مأنوساً فاصبح خاليا

الى ان يقول :

واني لعفّ الفقر مشترك الغنى سريع اذا لم ارض داري احتماليا
جريء الجنان لا أهال من الردى اذا ما جعلت السيف من عن شماليا
اذا سركم ان تمسحوا وجه سابق جواد فمدّوا وابسطوا من عنانيا
وليس لسيفي في العظام بقيـة ولا السيف أشوى وقعةً من لسانيا
أبالموت خشّتني قيون مجاشع وما زلت مجنيّاً عليّ وجانيـا

تراغيتم يوم الزبير كأنكم ضباعٌ بذي قار تمنّى الامانيا
وآب ابن ذيال بأسلاب جاركم فسُمّيتم بعد الزُبَير الزوانيا

ميميتها . قال الفرزدق :

اذا ما وزنا بالجبال رايتنا نميل بانضاد الجبال الاضاخمِ
ولو سئلت مَن كفؤنا الشمسُ أومأت الى ابنَي مناف عبد شمس وهاشم
وكيف تلاقي دارما حين نلتقي ذراها الى سقف النجوم القوائم
عجبت الى قيس وما قد تكلّفت من الشقوة الحمقاء ذات النقائم
يلوذون مني بالمراغة وابنها وما منها مني لقيس بعاصم
فيا عجباً حتى كليب تسبني وكانت كليب مدرجاً للشتائم

فأجابه جرير :

لقد ولدت ام الفرزدق مُقرفاً فجاءت بوزّار قصيرِ القوائمِ
وما كان جار للفرزدق مسلمٌ ليأمنَ قرداً ليلهُ غيرُ نائم
يوصّل حبلَيه اذا جنّ ليلهُ ليرقى الى جاراته بالسلالم
هو الرجسُ يا أهلَ المدينة فاحذروا مداخلَ رجسٍ بالخبيثات عالم
لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكم طهوراً لما بين المصلّى وراقم
تدلّيت تزني من ثمانين قامةً وقصّرت عن باع العلا والمكارم
وانك يا ابنَ القين لست بنافخٍ بكيرك الا قاعداً غيرَ قائم

فائيتها . قال الفرزدق :

فانك اذ تسعى لتدرك دارماً فانت المعنّى يا جرير المكلّفُ
أبى لجرير رهطُ سوءٍ أذلةٌ وعرضٌ لئيمٌ للمخازي موقّف
اذا ما احتبت لي دارمٌ عند غايةٍ جريتُ اليها جريَ من يتغطرف
همُ يعدلون الأرض لولاهمُ التقت على الناس او كادت تميل فتنسف

فقال جرير :

لحى اللهُ من ينبو الحسام بكفهِ ومن يلج الماخورَ في الحجلِ يرسف

رفقتَ بالكبرين قـينَ مجاشع　　وانت بعزّ المشرفيـة أعنـف
ويومَ منىً نادتْ قريشٌ بغدركم　　ويومَ الهدايا في المشاعر عكّف
تعضُّ الملوكَ الدارعين سيوفنـا　　وَدفّك في نفّاخة الكير أجنفُ

نونية الثلاثة .

قال الاخطل :

أجريرُ انـك والذي تسمو لهُ　　كأسيفةٍ فخرتْ بحِدجِ حصانِ
أتعـدُّ مأثرةَ لغيرك ذكرُها　　وسناؤها في غـابر الازمـان
في دارمٍ تاجُ الملوك وصهرهـا　　أيامَ يربوعٌ مع الرعيانِ
فاذا رأيت مجاشعاً قـد اقبلت　　فاهربْ اليك مخافـة الطوفانِ
فاخسأ اليك كليب ، إنّ مجاشعاً　　وأبا الفوارس نهشلا أخَوَان
قـوم اذا خطرت اليك فحولهم　　جعـلوك بين كلاكل وجرانِ
واذا وضعت اباك في مـيزانهم　　رجحوا وشال أبوك في المـيزان

وقال الفرزدق :

يا ابن المراغةِ والهجاء اذا التقت　　أعناقـه وتماحكَ الخصمان
ما ضرّ تغلبَ وائلٍ أهجوتهـا　　أم بُلتَ حيث تناطح البحرانِ
وأسأل بتغلب كيف كان قديمها　　وقديم قومك أوّل الازمان
قوم هم قتلوا ابن هنـد عَنوة　　عمْراً وهم قسّطوا على النعمان
ان الأراقمَ لن ينال قديمَهـا　　كلبٌ عـوى متهتّم الأسنانِ
قوم اذا وُزنوا بقومك أفضـلوا　　بِمثـلَي موازنهم على الميزانِ

فاجابهما جرير :

لا يخفـينّ عليك ان مجاشعاً　　من نسل كل ضِفنّةٍ مِبطـانِ
يا ذا العباءة ان بشراً قـد قضى　　أن لا تجوز حكومةُ النشوانِ
فدعوا الحكومة لستم من أهلهـا　　يا خزْرَ تغلب لستم بهجـان

كذب الأخيطلُ ان قومي فيهم تاجُ الملوكِ وراية النعمان
تلقى الكرام اذا خُطِبنَ غواليا والتغلبية مهرها فلسان
ما في ديارِ مقامِ تغلبَ مسجدٌ وترى مكاسرَ حنتمٍ ودنان
تغشى الملائكةُ الكرام وفاتَنا والتغلبيُّ جنازة الشيطان
ايصدّقون بمار سرجس وابنه ويكذبون محمد الفرْقانِ
قبح الاله بِسبالَ تغلبَ إنها ضربت بكلِّ مخففٍ جِنّان

رائيتها ، قال جرير :

يا خزر تغلب إني قد وسمتكمُ على الانوف وسوماً ذاتَ احبارِ
لا تفخرنّ فان الله أنزلكم يا خزر تغلبَ دار الذل والعار
ما فيكم حَكَمٌ تُرضي حكومته للمسلمين ولا مستشهدٌ سار
قوم اذا حاولوا حجاً لبيعتهم صرّوا الفلوس وحجّوا غير أبرار
لم تدر أمك ما الحكم الذي حكمت إذ مسّها سكرٌ من دَنّها الضاري
أمّ الأخيطل امٌ غير منجبة أدت لاشهب وسط البوّ نخّار
تضفو الخنانيص والفول الذي أكلت في حاوياتٍ ردوم الليل بجعار

فأجابه الاخطل :

ما زال فينا رباطُ الخيل معلمةٌ وفي كليب رباطُ الذل والعارِ
النازلين بدار الذل ان نزلوا وتستبيح كليب محرم الجار
بمُعْرضٍ أو معيدٍ من بني الخطفي ترجو جريرُ مساماتي وإخطاري
قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم قالوا لامهم بُولي على النار
فتمسكُ البولَ شحّاً لا تجود به ولا تبولُ لهم الا بمقدارِ
أمٌ لئيمة نجلِ الفحل مقرفةٌ أدّتْ لفحلِ لئيم النجل شخّارِ

لاميتها ، قال جرير :

حيِّ الغداة برامةَ الاطلالا رسماً تحمّل اهله فاحالا

طرق الخيال لأمّ حزرةَ مَوْهِناً والحبّ بالطيفِ الملمْ خيـالا

الى ان يقول :

قبح الاله وجوهَ تغلبَ انهـا هانت علي معاطساً وسبالا
قبح الاله وجوهَ تغلبَ كلما شبّح الحجيج وكبّروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميـكالا
أنسيت يومك بالجزيرة بعدمـا كانت عواقبه عليـك وبالا
زُفَرُ الرئيسُ أبو الهذيل أبادكم فسبى النساء وأحرز الأموالا
قـال الاخيطل إذ رأى راياتهم يا مار سرجس لا أريد قتـالا
ترك الاخيطل أمـه وكأنها منحاةُ سانيةٍ تريـد محالا
ولو ان تغلب جمعت انسابهـا يوم التفاخر لم تزن مثقـالا
لا تطلبـنّ خؤولةً في تغلبٍ فالزنج أكرم منهم أخوالا
هل تملكون من المشاعر مشعراً أو تنزلون من الأراك ظـلالا
لولا الجزى قسمَ السوادُ وتغلبٌ في المسلمين فكنتم انفـالا

فأجابه الاخطل :

ولقد علمت اذا العشارُ تروّحتْ هـدج الرئال تكبّهن شمالا
انا نعجل بالعبيط لضيفنـا قبل العيال ونقتل الابطـالا
ابني كليب ان عمّيّ اللـذا قتلا الملوك وفككا الاغـلالا
وبنو غدانة شاخص ابصارهم يسعون تحت بطونهنّ رجالا
ينقلنهم نقل الكلاب جراءها حتى وردن عراعرا وجلالا
ان العرارة والنبـوح لدارم والمستخف أخوهم الاثقالا
وابن المراغـة حابس أعياره قذف الغريبة ما يذقن بلالا

عمر بن أبي ربيعة

أنال عمر بن أبي ربيعة هذه الشهرة الواسعة طريقه الخاص الذي شقه لنفسه فاستمال الناس ، والناس ميالون إلى محاكاة الطبيعة وتمثيلها ، ان كان في الشعر أو في التصوير أو في غير ذلك من الفنون .

فبين شعراء العرب من يفوقونه ديباجة ورقة ومتانة ، ولكن أسلوبه الذي اهتدى اليه خلع عليه هذا الخلود الفني في الأدب العربي ولا سيا انه جعل الغزل فناً مستقلاً بل قل « مهنة » ، ولم لا يكون ذلك وقــد اجتمعت بعمر المفاسد الثلاث : الفراغ والشباب والجده .

فهو في شعره يمثل لنا دوراً يمثل كل يوم . ومما جعل لعمر هذه القيمة الفنية انه ممثل غير متكلف على غير ما تراه عند سواه من الشعراء الغزليين الذين جاؤوا بعده فانهم يتكلفون فيما يصورونه لنا من عواطفهم .

فشعره يمثل لنا السذاجة البدوية ولون الحضارة الجديدة ، ذلك اللون الجديد (الخفيف) الذي لا يبهر العين فتكرهه ككل لون « غامق » شديد .

يمثل حياة المترفين في الحجاز بل حياة الطبقة العليا الهادئة الفارغة ، وهو لم يتعرض للسياسة . ساعده على اختيار هذا الباب من الشعر غناه ، فهو غني وابن غني ، ولابيه ضلع في الحكم على عهد أبي بكر وعمر ، عنده مال كثير ورقيق عديد ورثــه . فاحد المسلمين عرض على النبي ان يستمين باحباش ابن أبي ربيعه في إحدى غزواته .

ان شعر عمر يمثل لنا صلة الرجل والمرأة الثريّين في ذلك الزمــان أصدق

تمثيل ، وهذه الصلة لا تخلو في كل زمان من لهو ودعـــابة وعبث وفكاهة . ان مداعبته العابثة لثريا بنت علي بن عبدالله كانت السبب في تسويد سنتيه ، بعد صفعة كف" أكلها من يدها المباركة خواتمها ...

كان لا يهمه من المرأة إلا جمالها ، فما رأيناه يذكر لنا نفسها ولا جمالهـــا المعنوي ، ولا عجب في ذلك فقد كان ، على ما يظهر من شعره ، سطحي الحب ينتقل من زهرة إلى زهرة . ولذا لم يصف في شعره الا الجمال الجسدي الذي كان يراه المثل الاعلى للانثى ، وهو لم يحدثنا إلا عن الميول والاهواء الطبيعية والاشياء التي يعرفها الانسان بالغريزة ، فكل بحثه تقريباً يحوم حول العلاقة الجنسية التي هي في نظره — على ما أظن — كل الغاية من وجود الانثى .

لقد وصف المرأة وتغنى بجمالها وتأثيرها فيه وفي حياته ، وكان يفهم ان موسم الحج معرض للجمال — كما يفهم أكثر شبابنـــا اليوم بعض الاجتماعات الدينية — فيتزين عند بدء الموسم كما يتزينون ، ويترصد كما يترصدون ، ويلقي في آذان المارات كما يلقون .

ان عمر حسي صادق مع تنقل دائم . واما شعره فتطور بدليل ما قاله فيه جرير : « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر » .

يختلف شعر عمر عن شعر المحرومين القليلي الحظ ، فهو غير شقي في حبه ولا تاعس الجد ولا بكـّاء ، فتقرأ في سطوره دلائل المسرة والابتهاج ، وكأني أرى الابتسامة على فمه حين يصف لنا ما يصف ، ثم لم يشعر بفناء ما عشقه إلا في آخر العمر .

يتكلم كمن يشعر بقوة وسلطان على النساء ، ونستطيع ان نقول ان آثار الابتهار بادية في شعره . ولماذا لا يبتهر وهو القرشي نسباً ، ماله كثير وشبابه رائع ومنطقه فصيح ، وشعره خلاب . منصرف إلى عمله ... كل الانصراف ، هذا العمل الذي اسميناه « مهنته » ؟

والذي أذاع شعره وحفظه من الضياع — بخلاف شعر جميل — مصادفته هوى النفوس وموافقته ميول الناس ، والحب حديث البشرية منذ وجـــدت

وسيظل ، ولذلك وضعوا له النظم الاجتماعية والدينية التي قلما رأينا شاعرنا هذا يحترمها .

اما حظ شعره من الخيال فاراه قليلا لانه لم يتعرض الا لما هو مادي واقعي ، وتلك حالة الشعر في زمانه ، فانهم لم يكونوا يعولون على الخيال إلا لاخراج بعض صور للتشبيه . اما هفواته اللغوية والنحوية فكثيرة .

رائيته الشهيرة

أمن آل « نعم » أنت غادٍ فمُبكِرُ ... غداة غدٍ أم رائح فمهجّرُ

بحاجة نفس لم تقل في جوابها ... فتبلغ عذراً والمقالة تُعذِرُ

تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا القلب مقصِر

ولا قربُ نعم ان دنت لك نافع ... ولا نأيها يُسلي ولا أنت تصبر

وأخرى اتت من دون نعم ومثلُها ... نهى ذا النهى لو ترعوي أو تفكّر

إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة ... لها كلّما لاقيتها يتنمّر

عزيز عليه ان ألمّ ببيتها ... يسّرُ لي الشحناءَ والبغض مُظهَر

ألِكني اليها بالسلام فانه ... يشهَّر المامي بها ويُنَكّر

بآية ما قالت غداة لقيتها ... بمدفع أكنانٍ أهذا المشهّر

قفي فانظري أسماء هل تعرفينه ... أهذا المُغيري الذي كان يذكر

أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن ... وعيشك انساهُ إلى يومِ أقبرُ

فقالت نعم لا شك غيّر لونَه ... سُرى الليل يحيي نصّه والتهجّر

لئن كان اياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغير

رأت رجلاً أمّا اذا الشمس عارضت ... فيضحَى واما في العشي فيَخْصَر

اخا سفرٍ جوّاب ارض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبرُ

قليل على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبّرُ

واعجبها من عيشها ظلُّ غرفةٍ ... وريانُ ملتفُّ الحدائق اخضرُ

ووالٍ كفاها كلُّ شيءٍ يَهمُّها ... فليست لشيءٍ آخِرَ الليل تسهَرُ

* * *

وليلة ذي دورانَ جشمني السرى ... وقد يجشم الهول المحب المغرِرِ
فبت رقيباً للرفاق على شَفا ... احاذر منهم من يطوف وانظر
اليهم متى يستمكنُ النومُ منهم ... ولي مجلِسٍ لولا اللُبانةُ أوعرُ
وباتت قلوصي بالعَراء ورحلُها ... لطارق ليلٍ أو لمن جاء مُعوِرِ
وبت أناجي النفسَ أين خِباؤها ... وكيف لما آتي من الأمر مصدر
فدل عليها القلب ريّا عرفتها ... لها وهوى النفس الذي كاد يظهَر
فلما فقَدتْ الصوتَ منهم واطفئت ... مصابيحُ شُبت بالعِشاء وأنور
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه ... وروّح رعيانٌ ونوّم سُمَّرُ
وخُفضَ عني الصوتُ اقبلت مشيةَ ... الُحباب وشخصي خشية الحي أزور
فحييت إذ فاجأتهــا فتولّهت ... وكادت بمخفوض التحية تجهَر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك اذ هنّا عليك ألم تخف ... وقيت وحولي من عدوك حضّر
فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذَر
فقلت لها بل قادني الشوق والهوى ... اليك وما نفس بذلك تشعُر
فقالت وقد لانت وافرخ روعها ... كلاك بحفــظ ربي المتكبرُ
فأنتَ أبا الخطاب غيرَ مُدافَع ... علي أميرٌ ما مكثتَ مؤمّر
فيا لك من ليل تقاصر طوله ... وما كان ليلي قبل ذلك يقصُر
فيا لك من ملهى هناك ومجلِسٍ ... لنا لم يكدره علينــا مكدِرِ
يمج ذكي المسك منهــا مفلّج ... نقيُ الثنايا ذو غُرُوبٍ مؤشّرُ
تراه إذا مــا افتر عنه كأنه ... حصى بَردٍ أو أُقحوان منوّر
وترنو بعينيهــا إليّ كما رنا ... إلى ظبية وسط الخميلة جؤذَرُ

* * *

فلمــا تقضى الليلُ إلّا اقلّه ... وكادت توالي نجمــه تتغوّر

أشارت بأن الحي قد حان منهم   هبوب ولكن موعد لك عَزْوَرَ
فما راعني إلاّ منادٍ ترحلوا   وقد لاح مفتوق من الصبح اشقر
فلما رأت ان قد تنبه منهم   وايقاظهُم قالت أشرْ كيف تأمر
فقلت اباديهم فإما أفوتهم   وإما ينال السيف ثارا فيثارُ
فقالت اتحقيقاً لما قال كاشح   علينا وتصديقاً لما كان يؤثر
فان كان ما لا بد منه فغيرُه   من الأمر أدنى للخفاء واستر
اقص على أختيّ بدءَ حديثنا   وما لي من أن تعلما متأخّر
لعلهما ان تطلُبا لي مخرجا   وان ترحُبا سرباً بما كنتُ احصَر
فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ   من الحزن تُذري عبرة تتحدر
فقامت اليها حرتان عليهما   كساءان من خز دمقس واخضر
فقالت لاختيها اعينا على فتى   اتى زائراً والأمر للامر يُقدَّر
فاقبلتا فارتاعتا ثم قالتا   اقلي عليك اللومَ فالخطبُ ايسر
يقوم فيمشي بيننا متنكراً   فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهَرُ
فكان مجني دون من كنت اتقي   ثلاثُ شخوصٍ كاعبان ومُعصِرُ
وقلن اهذا دأبُك الدهرَ سادراً   اما تستحي او ترعوي أو تفكر
فان جئت فامنح طرف عينيك غيرنا   لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
فآخر عهد لي بها حين اعرضت   ولاح لها خد نقي ومَحجِرُ
سوى انني قد قلت يا نعم قولة   لها والعتاق الارحبيّات تزجر
هنيئا لاهل العامرية نشرُها   اللذيذ وريّاها التي اتذكر
فقمت إلى عنسٍ تخوّن نيّها   سرى الليل حتى لحمها متحسّر
وحبسي على الحاجات حتى كأنها   بقية لوح او شجار مؤشّر

* * *

وماء بموماة قليل انيسه   بسابس لم يحدث بها الليل محضر
به مبتنى للعنكبوت كأنه   على طرف الارجاء خامٌ منشّر
فقمت إلى مفلاة أرض كأنها   اذا نظرت مجنونة حين تنظر

تنازعني حرصاً على الماء رأسها ومن دون ما تهوى قليبٌ معوّر
محاولة للماء لولا زمامها وجذبي لها كادت مراراً تكسر
فلما رأيت الضر منهـا وانني ببلدة ارض ليس فيها معصّر
قصرت لها من جانب الحوض منشأ جديداً كقاب الشبر او هو أصغر
اذا شرعت فيـه فليس لملتقى مشافرها منه فدى الكف مسأر
ولا دلو الا القعب كان رشاءه إلى الماء نسع والاديم المضفر
فسافت وما عافت وما رد شربها عن الري مطروق من الماء اكدر

الدالية :

ليت هند انجزتنا مـا تعد وشفت انفسنا ممـا تجد
واستبدت مرة واحـدة انما العاجز من لا يستبد
زعموها سألت جارتهـا وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتنـي تبصرنني عمركن الله ام لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لهـا حسن في كل عين من تود
حسدٌ حملنه من شانها وقديماً كان في الناس الحسد
غـادة تفترُ عن اشنبها حين تجلوه اقاحاً وبرد
ولها عينان في طرفيهـما حورٌ منها وفي الخد غيد
طفلةٌ باردة القيظ اذا معمعانُ الصيف اضحى يتقد
ولقد اذكر اذ قيل لهـا ودموعي فوق خدي تطرد
قلت من انت فقالت انا من شفّه الوجدَ وابلاهُ الكمد
نحن اهل الخيفِ من اهلِ منى ما لمقتولٍ قتلناهُ قـود
قلت اهلاً انتم بغيتُنـا فتسمينَ فقالت انا هند
انما ضلـلَ قلبي فاجتوى صعدةٌ من سابريّ تطّرد
انما اهلُـكِ جيرانٌ لنـا انمـا نحنُ وهم شيءٌ احد
حدثوني انها لي نفثت عقداً يا حبذا تلك العُقَد
كلما قلتُ متى ميعـادُنا ضحكت هند وقالت بعد غد

من الغزل المألوف

ردوا التحية ايهـا السَفْر وقفوا فان وقوفـكم اجرُ
ماذا عليـكم في وقوفكُم ريثُ السؤالِ سقاكم المطر
بالله ربكُم امـا لـكم بالمشعرين واهلـهُ خَبَرُ
مكية هامَ الفؤادُ بهـا نسي العزاء فما له صبر
مكيـة الردفين بهكنة رود الشباب كانها قصر
قدرت له حينـاً لتقتله ولكل ما هو كائنٍ قَدَرُ
الشهرُ مثلُ اليومِ إن رضيت واليومُ ان غضبت بـه شهرُ

ومن قوله :

مَنْ رسولي الى الـثريا باني ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتاب
ابرزوها مثل المهاةِ تهادَى بين خمسٍ كواعبٍ اتراب
فاجابت عند الدعاءِ كما لبّى رجالٌ يرجونَ حسنُ الثواب
وهي مكتوفةٌ تحيّر منهـا في اديم الخدين مـاءُ الشباب
ذكرتني من بهجةَ الشمسِ لما طلعت في دجنـنـةٍ وسحاب
فارجحنّتْ في حسنِ خلقٍ عميمٍ تتهادى في مشيها كالحباب

وهذه صورة أخرى :

أبكيتَ من طربٍ أبا بشرٍ وذكرت عثمةَ أيّمـا ذكر
وهي التي لمـا مررتَ بهـا في الطوفِ بين الركنِ والحجرِ
قالت حَصانٌ غيرُ فاحشةٍ فسمعتَ ما قالت ولم تـدر
زعِ القلبَ واستبقِ الحياةَ فانما تباعدُ او تدني الرباب المقادرُ

على مذهب الاقدمين

قف بالديار عفا من اهلها الأثرُ عفّى معالمها الارواحُ والمطرُ
بالمرصتين فمجرى السيل بينهما الى القرين الى ما دونه الاثر

منازل الحيِّ اقوتْ بعد ساكنها   امستْ ترودُ بها الغزلان والبقر
تبدلوا بعدها دارا غيرها   صرفُ الزمانِ وفي تكرارهِ غِيَرُ
وقفتُ فيها طويلا كي أُسائلها   والدارُ ليس لها علمٌ ولا خبر
دار التي قادني حينٌ لرؤيتها   وقد يقود الى الحَيْن الفتى القدر
هيفاءُ لقاءُ مصقولٌ عوارضُها   تكاد من ثقل الارداب تنبتر

جميل بن معمر

حياته : ولد في وادي القرى بالحجاز وشب على حب بنت عمه بثينة ، فعرف بجميل بثينة . وهام بها وهامت به وقال فيها شعراً فغضب أهلها ولم يزوجوه اياها ، فهجاهم ، فاستعدوا عليه مروان بن الحكم والي المدينة فاهدر دمه ، فذهب إلى اليمن والشام فمصر ، وهناك مات .

شعره : صادق ، من أرق الشعر العربي القديم ، فهو صورة لعاطفته القوية وحبه العنيف . يصف المشاهد والمواقف المؤثرة ، ويذكر ما كان يدور بينه وبين بثينة من حديث عفيف :

وأول ما هاج الحبة بيننا ... بوادي بغيض يا بثينَ سبابُ
فقالت لنا قولاً فقلت بمثله ... لكل حديث يا بثينَ جوابُ

واذا كان عمر يمثل الغزل الاباحي ، فجميل يمثل الغزل العذري العفيف .

بقية الشعراء

من اشتهر بالمدح والهجاء في هذا العصر :

غسان البعيث : الملقب بالراعي .

زياد الاعجم : مر الهجاء ، أخاف الفرزدق .

الكميت بن زيد : أثّر سياسياً . هاشمي النزعة .

الأحوص : (عبدالله محمد بن الانصاري) حطيئة الامويين . لقب الاحوص لضيق في مؤخر عينيه . جميل الاخلاق والافعال، هجّاء، ضربه سليمان بن عبد الملك مائة سوط ، ونفاه إلى جزيرة ذهلك في بحر اليمن .

آثاره : أكثرها هجاء قومه ونفسه . يتعرض للناس فيخافونه . شعره سهل رقيق ، لطيف الالفاظ ، الا في الهجاء فكان بذيئاً . لم يتوصل إلى مستوى الشعراء المجيدين بسمو الأفكار والتصورات .

الرقيّات : ابن قيس الرقيّات ، قرشي معتز بقرشيته محب لها ، يريد كل شيء لقريش . مذهبه لا يعتمد على دين بل على العصبية القومية . تألم لمصاب القرشيين وتشتتهم ، وتمنى لو ظلت أيام أبي بكر وعمر .

كره الامويين وهجاهم لاعتزازهم باليمنية على المضرية ، فناصر الزبيريين عليهم **لاعتقاده ان الامويين يعتزون بالاجنبي** ، وظل يناصر مصعباً حتى قتل مصعب ، ففر إلى الكوفة واختفى عند امرأة انصارية ، وهي لا تعرفه .

أمنه عبد الملك ودخل عليه ومدحه فلم يسر به ، فلزم عبد العزيز بن مروان والي مصر حتى مات .

قيمته : شاعر مبتكر في الشعر السياسي ، أثر شعره كثيراً من جهة السياسة . محب للنساء ، يكاد يشبب بهن جميعاً . تغزل بنساء خصومه ولم يسيء اليهن لانهن قرشيات . تغزل بام البنين وام الوليد ، فغاظ عبد الملك وابنه وارضاها لانه لم يسيء اليها ، فشفعت به عند عبد الملك ونالت ما تمنت .

ديباجته : شعره سهل رقيق جداً ، متأثر بمعاشرة النساء . لاحظ هذه الرقة عبد الملك ونسبها إلى الخنوثة ، فادعى انه يتأثر بالقرآن الكريم .

اما عيوبه فهي شذوذه عن مألوف النحو وقلة المعاني .

شعراء الرثاء – متمّم بن نُويرة : يربوعي ، أسلم اخوه وارتد ، فقتله خالد بن الوليد ، فرثاه بقصيدة هي اشهر آثاره .

مالك بن الريب التميمي : كان لصاً يقطع الطرق ، شعر بدنو اجله فنظم قصيدة يرثي نفسه ، وذلك في اثناء عوده من خراسان حيث كان يعاون معاوية ، فلدغته أفعى برجوعه .

قصيدته هذه رقيقة العاطفة والتصور والالفاظ ، غير أنها قليلة الخيال .

الانشاء الخطابي والخطباء

دواعي الخطابة : العربي فصيح ، ذرب اللسان يحب الكلام ، معجب بلغته فيطيل الكلام ويحب سماعه ، يدلــك على ذلك حوار العرب ومجادلاتهم واختصامهم . ولذلك عولوا على القول واعتنــوا به ليؤثروا كما يتأثرون هم ، واتخذوا الكلام سلاحاً للفوز .

ومن اسباب عنايتهم ان الدين الاسلامي اجتماعي قبل كل شيء ، عني بالجماعة اشد اعتناء فجمعها في الصلاة والحج والاعياد والشورى ، فاضطر الحاكم لمحادثة المحكومين وبالعكس .

وعندما ظهر الاسلام ظهر له خصوم وانصار ، فاشتد الجدال في المجتمعات ، وعني بالكلام سلاح الحجة والاقناع .

وبعد موت النبي كثرت مصــالح الاسلام بتكاثر الفتوح ، واختلفت الآراء واحتاجوا إلى التشاور والتناظر . ثم كانت الفتن والاحزاب السياسية والخصومة والجهاد ، واحتاج الزعماء إلى مشاورة انصارهم ومجادلتهم في الآراء وتدبـــير الخطط .

ولما ضعف أمر الاحزاب واغمدت السيوف ، سُلّت الالسنة مكانها فكان المعارضون الاذكياء . فاضطر الخلفاء ان يدافعوا عن سياستهم حيناً باللسان واحياناً بالسيف .

كل هذه الظروف جعلت حظ العرب من الخطابة في هذا العصر وافراً ، ولم تبلغ امة قديمة هذا المبلغ الا اليونان والرومان . واسبابها عندهما تشبه اسبابها

عند العرب . فالخطابة لا تقوى الا في البيئات التي يعظم حظها من الحيـــاة الاجتماعية من جهة ، ويعترف فيها بحرية الفرد من جهة ثانية . وهذان الامران ضمنها الاسلام للعرب ، فكرامة الفرد كانت فيه موفورة وقد لاءم بين حرية الفرد وسلطة الحكومة .

وحدة طباع العرب ومزاجهم وفصاحتهم وخصب شعورهم ، اظهرت فيهم خطباء مفوّهين . ولم يضعف امر الخطابة الا عندما فسد هذا النظام في العصر العباسي فتجاوز سلطان الدولة حد الاعتدال وقضى على حرية الفرد او كاد .

لغة الخطابة : كانت اولاً ساذجة لا تمتاز عن لغة التخاطب الا بعناية يبذلها كل من يحاول الاقناع والتأثير . ولما كثر النزاع والجدال اشتدت العناية باختيار الالفاظ والاساليب التي تساعد على الاقناع والفوز .

وكان مثلهم الاعلى القرآن الكريم الاجتماعي بكل معنى الكلمة ، فكـله موجه إلى الجماعة .

وكانوا قد شاهدوا تأثيره واختبروه في نفوسهم ونفوس من تقدمهم، فتأثروا به واقتبسوا منه ، فاكسبهم قوة وليناً لم يكونا في خطابة من تقدمهم .

فالخطابة العربية الاسلامية تمتاز بروعة القرآن وجاذبيته التي تحبب اليك السماع ، واذا قرأت خطيباً من هؤلاء الخطبـــاء المعدودين تحسب انك تسمعه فتحبه ، او تخافه فتفزع منه ، ولكنك في الحالين تحب سماعه . فاذا بحثت عن السبب وجدت اكثره من تأثر الخطباء بالقرآن واخذهم عنه واقتباس معانيــه واستعارة الفاظه .

عادات الخطباء : الوقوف على نشز ، او صخرة ، او منبر ، او ناقــة . الاعتماد على السيف او القوس او المخصرة . لا يكثرون من تحريك اجسامهم ولا يسرفون بالاشارة . لا يترددون في القول . يكرهون الاضطراب وفساد مخارج الحروف ، والتنحنح والسعال .

أول من خطب جالساً الوليد بن عبد الملـك ، ولكن القيام سنّة مطردة حتى اليوم .

ميزات الخطابة الاسلامية :

١ — روح قرآني ديناً واجتماعاً .

٢ — مضاهاته بالسجع والجمل المتوازنة .

٣ — الابتداء بالحمدلة .

٤ — كثرة الآيات ، وقد تكون بمجموعة آيات ، كخطبة مصعب في العراق حين دعا لمبايعة أخيه طلحة .

وهذه الخطب ، منها خطب طويلة مسهبة ومنها قصيرة موجزة . وفي كل حال لم تكن على الطريقة اليونانية والرومانية براهين وادلة ، لان العربي يفهم من الاشارة ويكلم القلب أكثر من العقل .

الخطباء : عديدون ، دعت إلى كثرتهم الظروف الآنفة الذكر. كان المطنب منهم يخطب طول النهار ، والموجز لا يتجاوز الساعة ، ومنهم من لا يتكلم إلا بضع دقائق .

اما خطباء العرب في صدر الاسلام والعصر الاموي فهم :

ابو بكر الصديق

أعلم العرب بالانساب والايام والمفاخر ، صاحب النبي وأول مؤمن به .

ولي الخلافة بعده ، وأول خطبه خطبة السقيفة عندما دبّ الشقاق باهل المدينة ، حتى كادت تنشب ثورة أهلية .

سمتها : قصيرة ، قوية اللفظ ، تامة المعنى . وكذلك كان انشاء ذلك العصر ، وخصوصاً الرسائل ، وهي منتهى البلاغة .

الامام علي

أشهر خطباء هذه الفترة ، وهو وزياد والحجاج طبعوا الخطابة العربية بطابعهم الخاص .

المامه بالاسلام: ولدقبل الاسلام بسبع سنوات. أدركه الاسلام صبياً فنشأ فيه . اتصل بالنبي طفلاً وشب في كنفه ، فرأينا فيه ما رأينا من قوة الايمان . شهد مع النبي كل الوقعات العظيمة ، فكان قوي النفس شديد البأس . شارك النبي في حلو الحياة ومرها لانه ابن عمه وصهره وتابعة عالم .

حيل بينه وبين الخلافة بعد موت النبي فصبر وظل يخلص النصح للخلفاء حتى كانت الفتنة وقتل عثمان ، فتألبوا عليه : عائشة أم المؤمنين ، ومعها طلحة والزبير . وناصبه معاوية العداء ، فانفق آخر حياته في حرب سوداء ، وظل يكافح حتى قتله ابن ملجم سنة ٤٠ .

حياته : أيام النبي كانت حياة جهاد ورجاء ، وفي ايام الخلفاء الثلاثة كانت حياة اذعان ورضاء بقضاء الله في نصح للخلفاء ، اما في آخر عمره فكانت حياة نضال ويأس وحزن .

صفاته : علم ، جودة رأي ، خطيب ، بأس ، شجاعة ، اقدام ، تضحية ، تسامح ، صبر .

خطبه : احتاج الامام إلى القول والخطابة في آخر ايامه — أي ايام خلافته — فقال وهو ناضج العقل والفكر واللسان .

نسب اليه طائفة كبيرة من الخطب ، يظهر في بعضها التكلف والصنعة لانه منحول ، والبعض الآخر تظهر فيه شخصية بارزة حلوة جذابة شديدة الايمان بالدين والاقتناع بالحق ، لا تتحول عن رأيها إلا مكرهة ، فتنصرف عنه صابرة راضية بقضاء الله ، واثقة بان ما عند الله خير مما عند الناس .

وأكثر خطبه متصل بالسياسة ، يتحدث فيه الى أصحابه محرضاً إياهم على قتال عدوهم ، مظهراً حقه في السلطان ، مبيناً ضلال خصومه عن سواء السبيل ، فوفق خطابياً دائماً ، وقلما وفق عملياً ، لان ظروف حياته كانت اقوى من الخطابة واقوى من الحق واقوى من الصواب . وكانت الناس قد تغيرت ، ومثلهم العليا في الحياة قد تغيرت ايضاً ، واصبح نظام الخلافة ، كما كان يريده علي وكما كان يريده الخلفاء الثلاثة من قبله ، مغايراً لما كان الناس يرجون ويأملون .

زياد ابن ابيه

ابن ابيه أو ابن سمية أو ابن ابي سفيان ، نشأ نشأة اسلامية محضة . كان ذكي القلب واسع الحيلة حازماً حاد اللسان ميالاً الى العنف يطغى في اكثر الأحيان .

عمل مع أبي موسى الأشعري في البصرة فظهر واعجب به الناس ، حتى عمر نفسه . خاف عمر من دهائه فحال بينه وبين العمل السياسي الدائم . ثم استعان

به الامام علي ، فاخمد ثورة فارسية ووفى لعلي حتى قتل . واستماله بعده معاوية والحقه بنسبه وولاه البصرة والكوفة ، وكان يطمع بالحجاز ، وقد مات بالطاعون سنة ٥٣ هـ.

ظهرت قوة شخصيته في العراق فاشتد على حزب المعارضة فاذعنت وهدأت ، وبطش بالمعتدين المفسدين حتى أقرّ الأمن وثبت النظام .

وقد حفظت له خطبته البتراء ، سميت بذلك لانه لم يبتدئها بذكر الله. القاها في البصرة فوجم الناس ، فمنهم من خاف ومنهم من مدح متملقاً ، ومنهم من انكر ما جاء فيها لانه يخالف لشرع الله والحدود المعروفة ، ولكن السياسة العملية بينت لهم انه كان جاداً غير هازل فيما انذر .

خطبته البتراء : بدأها بانكار ما كان عليه البصريون من معصية الله والفسق في الدين وطاعة السلطان ، واعلن ان أمور المسلمين لا تصلح الا بما صلحت به من قبل ، أي لين بغير ضعف ، وشدة بغير عنف . وذكر ان العراقيين استحدثوا آثاماً لم تكن من قبل ، وانه سيحدث عقوبة تلائمها . واعلن عقوبات فاذا بها مجاوزة حدود الله كما تقدم : من نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً... ثم جعل القتل عقوبة لمن ظهر بعد ساعة معينة في الليل (حكم عرفي).

ثم الغى في آخر خطابه ما كان بينه وبين الناس من عداوة ، ثم اثبت حق بني أمية وسأل الناس الإذعان لهم فذلك انفع .

شخصيته : فصاحة لسان ، شدة وعنف ، دهاء ومكر .

الحجاج

نشأ نشأة اسلامية في الطائف ، وشب في خلافة معاوية ، وعرف ما كانت تقوم عليه من دهـــاء وعنف ، وشهد شدة زياد وقسوته . وكأنه أحب زياداً فتمثل به ، فنشأ بعيد المطامع والأمل ، جريئاً ، شديداً لا يتردد .

كان في حرس رَوح بن زِنباع ثم صار منظما للعسكر في عهد عبد الملك ،

فجد وجزم فرفعت مرتبته ، فصار قائداً للجيش الذي ارسله عبـــد الملك لمحاربة ابن الزبير في الحجاز ، فحصر مكة وهـــدم الكعبة ، وقتل ابن الزبير ومثّل به . ثم ولّاه عبـــد الملك على العراق ، فاسكت المعارضة وأقر النظـــام وأخاف الناس ، وبسط سلطانه على الشرق الإسلامي كله ، فكسر الخوارج وبسط سلطان المسلمين على بلاد لم تكن لهم .

صفاته : لسانه كقلبه جرأة ، أشد من زياد تعطشاً للدماء ، ولسانه أحدّ من سيفه ، وخطبه تنمّ عن أكبر طاغية .

خطبه : تمتاز بشدة الفاظها ومعانيها ، وكثرة الاقتباس من القرآن والشعر (لأنه كان معلماً) . جمله متقطعة ، يلقيهـــا على الناس كصخور تقذف من المنجنيق ، فأذهلهم وأفسد عليهم عقولهم ، فصوّر لهم الحق باطـــلاً والباطل حقاً ، واقتادهم فسيّرهم حيث شاء . وهكذا وطد سلطان الامويين حتى مات في آخر أيام الوليد بن عبد الملك .

بعد الحجاج : وظلت الخطابة بعد الحجاج كما كانت في عهده . واتخذوه مع زياد وعلي مثلاً أعلى لاجادة القول والاتقان ، فتحداهم من جـــاء بعدهم ، ومن هذا التحدي تقرر بعض أصول الخطابة .

ثم كثرت المقالات الدينية والسياسية وكثرت المنـــاظرة ، واستحالت الخطابة آخر عهد بني أمية فصارت أقرب إلى الخطابة السياسية ، واشتد هـــذا الجدل حتى قام مقام الخطابة أيام العباسيين .

منتخبات من خطب الحجاج

سمع الحجاج – وهو في قصر الكوفة – تكبيراً في السوق ، فراعه ذلك ، فصعد المنبر وبعد ان حمد وأثنى قال : يا أهل العراق يا أهـل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ، وبني اللكيعة وعبيد العصا واولاد الإماء والنقع بالقرقرة، اني سمعت تكبيراً لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان ، وانما مَثَلي ومثلكم ما قال ابن براق الهمداني :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا بالهمَدَاني ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حمياً تجْتَنبتك المظـالم

اما والله لا تُقرع عصا بعصا إلّا جعلتها كأمس الدابر .

ومن خطبة بالبصرة : ان الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا أمر الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون ، ما لي أراكم تحرصون على ما كفيتم وتضيعون ما به أُمِرتم ، ان العلم يوشِكُ ان يُرْفَعَ ، ورفعه ذهاب العلماء ، ألا واني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس ، الذين لا يقرأون القرآن إلا هجراً ولا يأتون الصلاة الا دبرا ، الا وان الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، الا وان الاخرة داجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر واعلموا انكم ملاقوه ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ألا وان الخير كله بحذافيره في الجنة، ألا وان الشر كله بحذافيره في النار ، ألا وان من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ،

واستغفر الله لي ولـكم .

خطبة اخرى : يا أهل العراق اني لم أجـد دواء أدوأ لدائكم من هـذه المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الاياب وفرحة القفل ، فإنها تعقب راحة واني لا أريد الفرح عندكم ولا الراحة بكم مـا أراكم إلا كارهين لمقالتي أنا والله لرؤيتكم أكره ، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعـة أمير المؤمنين فيكم مـا حملت نفسي مقاساتكم والصبر على النظر اليكم، والله أسأل حُسْنَ العون عليكم .

وشاع ان الحجاج مريض ففرح اهل العراق وقالوا مات الحجاج فلما بلغه ذلك، تحامل حتى صعد المنبر وقال : يا اهل الشقاق والنفاق ، نفخ ابليس في مناخركم فقلتم مات الحجاج ومات الحجاج، فمه والله ما احب ان لا أموت وما أرجو الخير كله الا بعد الموت وما رأيت الله عز وجل رضي الخلود لاحـد من خلقه الا لاهونهم عليه ابليس .

وخطب الحجاج فقال: سوطي سيفي ونجاده في عنقي، وقائمه في يدي، وبابه قلادة لمن اغتر بي. وخطب ايضاً فقال: اللهم ارني الغي غيا فاجتنبه، وارني الهدى فاتبعه ولا تكلني الى نفسي فاضل ضلالا بعيدا، والله ما أحب ان ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه ولما بقي منها بما مضى .

خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فبدأ بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمامة حمراء فقال عليّ بالناس، حتى اذا اجتمعوا بالمسجد قام ثم كشف عن وجهه ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني
صليب العود من سلفي نزار ... كنصل السيف وضاح الجبين
وماذا تبتغي الشعراء مني ... وقد جاوزت حد الاربعين
أخو خمسين مجتمع أشدي ... وتنجدني مداورة الشؤون
واني لا يعـود الي قرني ... غداة العبّ إلا أي حين

أما والله اني لا أحمل الشر بحمله واحذوه بنعله وأجزيه بمثله ، واني لأرى

رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها ، واني لانظر الدماء بين العمائم واللحى تترقرق .

قد شمرت عن ساقها فشمّري　　هذا أوان الشد فاشتدي زِيَم
قد لفها الليل بسواق حُطَم

لست براعي ابل ولا غنم　　ولا بجزار على ظهر وَضَمَ
قد لفها الليـــل بعصلبيّ

اروع جراح من الدوي　　مهاجر ليس باعرابي
قد شمرت عن ساقها فشدوا

ما علتّي وانا شيـــخ إدُّ　　والقرس فيها وتر عُرُدُ
مثل ذراع البكر أو أشد

اني والله يا أهل العراق،ومعدن الشقاق والنفاق ومساويء الاخلاق، لا يغمز جانبي كغماز التين ولا يقعقع لي بالشنان ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة واجريت مع الغاية . وان امير المؤمنين قد نكب كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً واشدها مكسراً فوجهني اليكم ورماكم بي . فانه قد طالما اوضعتم في الفتن وسننتم سنن الغي وايم الله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولاعصبنكم عصب السلَمَة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل. اما والله لا أعد الا وفيت ولا اخلف الا فريت ، واياي وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيم انتم ، والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق او لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده ، من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله وهدمت منزله .

خطبة الحجاج بعد دير الجماجم : يا اهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاد والشغاف ، ثم امضى إلى الامخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم شقاقاً ونفاقاً، وان اشعركم احد خلافاً اتخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤمراً تستشيرونه ، وكيف تنفعكم تجربة او تعظكم وقعة او يحجزكم اسلام ، او

يردكم ايمان ، الستم اصحابي بالاهواز حيث رمتم المكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للكفر ، وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته . وانا ارميكم بطرفي تتسللون لواذا وتنهزمون سرعا يوم الزاوية . وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم اذ وليتم كالابل الشوارد الى أوطانها النوازع الى اعطانها ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوي الشيخ عن بنيه ، حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح يوم دير الجماجم . وما دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقبله ، ويذهل الخليل عن خليله . يا اهل العراق والكفرات الفجرات ، والغدرات بعد الختران ، والثورة بعد الثورات ان ابعثكم الى ثغوركم ، عللتم وخفتم وان امنتم ارجفتم وان خفتم نافقتم ، لا تذكرون خشية ، ولا تشكرون نعمة ، يا اهل العراق هل استخفكم ناكث ، واستغواكم غاو ، واستفزكم عاص ، واستنصركم ظالم ، واستعضدكم خالع الا وثقتموه واويتموه وغررتموه ونصرتموه ورضيتموه ، يا اهل العراق ، هل شغب شاغب ، او نعب ناعب ، او نعق ناعق ، او زفر زافر ، الا كنتم اتباعه وانصاره ؟ يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟

ثم التفت الى اهل الشام فقال : يا أهل الشام ، انما انا لكم كالظليم الذاب عن فراخه ينفي عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر . ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب ، يا اهل الشام ، انتم الجنة والرداء ، والعدة والحذاء .

النثر الفني

لم يكن للجاهليين نثر فني بالمعنى الدقيق ، انما كانت لهم لغـــة غنية عذبة في آخر الجاهليـــة وأول الاسلام . وكانت كتاباتهم شبه مقتصرة على أعمالهم التجارية ، وربما كتبوا رسائل قصيرة في حاجاتهم . ولم تكن لغة التواسل إلّا لغة التخاطب .

اما الكتابة فشاعت وعمت بعد هجرة النبي ، كما قلنا سابقاً . حث النبي على تعلم الكتابة ، وصدرت عنه وعن أصحابه كتب مثلت فصاحتهم وطريقتهم الخاصة في التعبير ، وما هي إلّا لغة حديثهم الخاصة والعــامة ، أي انه لم يكن فرق ظاهر بين لغة الكتابة ولغة الخطابة ولغة الحديث .

فكثرة المصالح واختلاف الآراء والتنــافس بين الأحزاب رقّى الخطابــة وطوّرها . وهذه الأسباب أيضاً جعلت حاجة الدولة إلى الكتابة قوية شديدة لبعد المسافات والحاجة إلى الاتصال بالولاة والعمال . على ان بين الخطابة والكتابة في هذا العصر فرقاً لا بد من ملاحظته .

فالخطابة عربية خالصة نشأة وتطوراً في القرن الاول ، **اما الكتابة** فظلت عربية خالصة حتى كثرت المصالح وتعقدت ، وكانت الفتوح ، فاضطر المسلمون إلى تنظيم الدولة ووضع الاصول والقواعــد التي تجري عليهــا الادارة وأمــور الجيش ، والخراج .

كان العرب يجهلون هذه الادارات فاستعانوا بالامم المغلوبة واستعاروا لذلك نظمها باديء بدء ، فكان النظام فارسياً في العراق وفارس ، ويونانياً أو قبطياً

في الشام ومصر، حتى انقضى الجيل الاول . فعرف العرب اللغات الأجنبية ، وأحسن الاجانب اللغة العربية فنقلت الدواوين إلى اللغة العربية في جميع أقطار الدولة .

بدا ذلك في أيام عبد الملك وتم رويداً رويداً . وكان الأجانب الذين تعلموا اللغة العربية أكثر من العرب الذين تعلموا اللغات الاجنبية ، فاستمر الخلفاء يستعينون بالكتاب والعمال من الموالي ، وعني هؤلاء بكتابة الدواوين عناية عظمى واتخذوها وسيلة يحفظون بها لانفسهم شيئاً من المكانة ويرقون بها الى استرضاء الخلفاء والولاة .

فاتقان هؤلاء الموالي صناعتهم الفنية ، وخدمتهم اللغة العربية ، ومعرفتهم العرب وحرصهم على جودة القول والبراعة فيه ، أظهرت في الأدب العربي هذه الظاهرة التي لا نجدها الا قليلاً في تاريخ الأمم القديمة الأخرى ، وهي :

ان الرسائل الرسمية الفنية أصبحت مظهراً للجمال الفني الأدبي ، يجد قارئها لذة فيها كأنه يستمع لشاعر مجيد أو خطيب حاذق .

ففي هذا النوع ينحصر النثر الفني، وما عداه فبعض أمثال جرت على ألسنة الفصحاء أو ما كان ينشئه القصاص والعلماء كالتي نجدها في كتب التاريخ والادب .

سالم وعبد الحميد : وأول من تفوق في صناعة الكتابة الرسمية سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، ثم تلميذه عبد الحميد بن يحيى ، كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الملقب بالحمار لعظم جلده . وقد دعوه زعيم الكتاب لان من بعده اقتفى أثره حتى قالوا ساجعين كعادتهم : بدأت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

فعبد الحميد هو أول من طوّل الرسائل ونظمها فجعل لها مقدمة وخاتمة وجعلها ذات تسلسل منطقي ، واستعمل التحميدات وأضفى على رسائله روحاً دينية . ولعل تأثر ابن العميد به هو الذي حملهم على قول تلك السجعة الآنفة الذكر . وهذه رسالة من رسائله وجيزة جداً ، ذكرناها لان الكتّاب بعدهما تحدّوها . واليكها :

« حقّ موصل كتابي اليك عليك كحقه عليّ إذ رآك موضعاً لأمله أهـــلا لحاجته ، وقد أنجزت الحاجة فصدق أمله » .

ولا تظن إن جميع رسائله من هذا الطراز فهناك رسائل أطـــول من يوم الجوع .

انصح جميع الأدباء والمتأدبين ان يفتشوا عن رسالة عبد الحميد إلى الكتّاب . .

فهذا النوع ، ظهر واضحاً جلياً قوياً في آخر العصر الأموي ولم يبلغ أشده إلا حين تقدم القرن الثاني ايام بني العباس .

وهذا النثر ، وان يكن عربي اللهجة والأسلوب ، فللأجانب فيه يد طولى .

منتخبات عبد الحميد الكاتب

كتب عبد الحميد إلى أهله وهو منهزم مع مروان : اما بعـــد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره، فمن ساعده الحظ فيها سكن اليها،ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت اذاقتنا أفاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمقتنا مولية فملُح عذبها وخشن لينهـــا ، فابعدتنا عن الاوطان وفرقتنا عن الاخوان. فالدار نازحة والطير بارحة . وقد كتبت والايام تزيدنا منكم بعداً واليـكم وجداً ، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن اخر العهد بـكم وبنا ، وان يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع اليكم بذل الأسار ، والذل شر جار. نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ان يهب لنا ولـكم الفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الابدان والاديان ، فانه رب العالمين وارحم الراحمين .

مما كتبه موصياً بشخص : حق موصِل كتابي عليك كحقه علي ، إذ جعلك موضع لأمله ورآ ني أهلاً لحاجته ، وقد انجزت حاجته فصدق أمله .

من وصيته للكتاب. واياكم والكبر والسخف والعظمة ، فانها عداوة مجتلبَة من غير احنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليهـا بالتي هي أليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم، وان نبا الزمان برجل منكمفاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويقرُب اليه أمره ، وان أقعد أحـداً منـكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته .

من وصفه للمطر والصيد :

وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً فروّت منه الارض وأزهر البقل وسكن القتام من مثـــار السنابك ومتشعبات الأعاصير مهلة ان سرنا غـــلوات ثم برزت الشمس طالعة من الحجـــاب وانكشفت من السحاب مسفرة فتلألأت الاشجار وضحك النوار وانجلت الابصار فلم نر منظراً حسناً ولا مرموقاً أشبه شكلاً من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض والخيل تمرح بنا نشاطاً وتجتذبنا اعنتها انبساطاً ثم لم نلبث ان علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر وتخفي سبل السلام تغشانا تارة وتنكشف أخرى ونحن بارض دمثة الـــتراب أشِبَة الاطراف مغدقة الفجاج مملؤة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب فأدانا المسير إلى غابة دونها مألف الصيد ومجتمع الوحش ونهاية الطلب ، — إلى ان يقول إذ عنت لهم الظباء — تحف حفيف الريح عند هبوبها تسف الأرض سفاً كاشفة عن آثارها طالبة لخيارها حارشة باظفارها قد مزقتها تمزيق الرياح الجراد فمن صائح بها وناعر وهاتف بها وناعق يدعو الكلب باسمه ويفديه بابيه وامه وراكض تحت مفره وخافق بطلبه الرمح وطامع بنمه وسانح قد عارضه بارح . قد حيّرتنا الكثرة والهجتنا القدرة حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد والله المنعم الوهاب .

وكتب هذه الرسالة عن مروان بن محمد لولده عبدالله وكان أرسله لقتـال الضحاك :

أما بعد، فان أمير المؤمنين عندما علم من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الاعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ورعاعة الذين عاثـــوا في الارض فساداً وانتهكوا حرمة الاسلام استخفافاً وبددوا نعمة الله كفراً واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً ، أحب ان يُعهِدَ اليك في لطائف امورك ودخائل أحوالك عهداً يحملك فيه أربه وان كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لحمتك وبني أبيـــك . — ويفيض بالمواعظ حتى يقول :

من ذلك ان تملك أمورك بالقصد وتداوي جندك بالاحسان وتصون سرك بالكتمان وتداوي حقدك بالانصاف وتذلل نفسك بالعدل وتحصن عيوبك بتقويم

اودك وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المرْدي واناتـــك فوقـّها الملال وفوت العمل ، وخلوتك فاحرسها من الغفلة .

إلى ان يقول : وامنع أهل بطانتك وخاصة خدامك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب اليك بالسعاية والاغراء من بعض ببعض والنميمة اليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك .

ثم يذكر له عيب الملوك ويحثه على اجتناب بينتهم فيقول عن أدب مجلس الملوك :

كثرة التنخثم والتبصق والتنخع والتثوباء والتمطي والجشاء وتحريك القدم وتنقيض الأصابع والعبث بالوجه واللحية والشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الايماض بالنظر أو الاشارة بالطرف إلى بعض خدمـــك بأمران أردنه أو السرار في مجلسك أو الاستعجال في طعمك وشربك الخ ..

ويختمها بالدعاء بقوله : أيدك الله بالنصر وغلب لك على القوة وعصمك من الزّيْغ الخ ...

اسلوب كتابة هذا العصر

في عهد الخلفاء الراشدين كان الخليفة بنفسه يتولى أمر الرسائل إلى ان تعددت الشؤون وكثرت ، فاضطروا إلى الدواوين فدونها عمر بن الخطاب . ثم عهد الخلفاء بعده إلى الكتاب من العرب والموالي والمستعربين ، ثم على توالي الأيام أصبحت الكتابة آلة للوزراء، أي أصبح هؤلاء الكتاب يلقبون بالوزراء.

كانت الكتابة في الاقطار بلغة اهلها إلى أن أصبحت اللغة العربية لغة الدولة كلها ، وذلك في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد .

اسلوب الكتابة ومميزاتها :

١ ــ الاقتصار في الإغراض على القدر الكافي لدولة عربية .

٢ ــ الاقتصار في المعاني على الالمام بالحقائق وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل.

٣ ــ استعمال الألفاظ الفحلة الفخمة والعبارات الجزلة والاساليب البليغة في مخاطبة العرب الفصحاء ، وكان البيان هدفهم يكتبون إلى الرجل بقدر ما يسيغ .

٤ ــ مراعاة الايجاز حيث لا تدعو الحال إلى الاطناب .

٥ ــ قلة التفنن في انواع البدء والختام .

٦ ــ استعمال الضمائر بما وضعت له في الاصل ، إلى ان ولي الوليد ففخم المكاتبات .

العلوم والتدوين والتصنيف

تنحصر العلوم في هذا العصر بثلاثة انواع :

الدينية : اقبل كثيرون من الصحابة على القرآن الكريم يتدارسونه ويتفهمونه ، ومن أشهرهم عمر وعلي وزيد بن ثابت وعائشة ، ومن هؤلاء تفرق فريق في الامصار ، فاخذوا عنهم وعرفوا بـ « التابعين » .

ثم اشتغل في هذا العلم الموالي ، فكان شغلهم على نمط قومهم ، ومن اشهرهم الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين بالكوفة .

التاريخية : بدأت الحركة التاريخية تمتد لان الداخلين في الاسلام من الاجانب بدأوا يذكرون تاريخ امهم بين المسلمين . فانتشرت أخبار اليهود والفرس ، فعني المسلمون بالسيرة النبوية وصحابة الرسول ، وفتوحات عمر وابي بكر وأعمالها ، وغير ذلك مما كان اساساً للتاريخ الذي كتب في العصر العباسي .

الفلسفة : بثتها المدارس السريانية المثقفة بالثقافة اليونانية ، ومن هذه المدارس أكثر الاطباء الذين كانوا في قصور بني أمية . وقد كانت الفلسفة متصلة كل الاتصال بالطب كما ظلت عليه الحالة في الاندلس، ومن اشهر هؤلاء « ابن اثال » طبيب معاوية ، وهو نصراني ، وطبيب آخر يهودي اسمه ماسرجويه ، طبيب عمر بن عبد العزيز .

كل هذه العلوم كانت ساذجة بسيطة في هذا العهد ، ولم تنضج ولم يكثر التأليف فيها إلا في العصر العباسي .

التدوين والتصنيف

لم يدوّن المسلمون شيئاً في بادىء امرهم . أحجموا عن التدوين خوفاً من الاعتماد على الكتب وترك الحفظ ، ولما استفحل الأمر تداركوا البلبلة فدونوا :

١ – القرآن الكريم ، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين .

٢ – النحو ، في عهد الراشدين أيضاً . أول من كتب فيه ابو الاسود الدؤلي آخذاً عن علي ، وعن نمط النحو السرياني .

٣ – الحديث الشريف ، على عهد عمر بن عبد العزيز .

هذا كل ما دوّن وصنّف . أما بقية العلوم فعرفوها كما تقدم ، إلّا انه لم يصل الينا شيء مما كتبوه فيها .

الخلاصة : نشط الامويون الآداب وخصوصاً الشعر والخطابة ، وراجت سوق الأدب في البصرة والكوفة ، وكثر الشعراء فنظموا في كل باب ، وفقد كثير مما نظموا .

ففي العصر الأموي تكوّن الفقه والتفسير والنحو وضبط الخط والإعجام والحركات .

وفيه رسخت اللغة العربية في المملكة الاسلامية بنقل الدواوين اليها .

وفيه أيضاً نقلت بعض العلوم الطبيعية .

أما ما خلا الشعر والخطابة فلم يصلنا كتاب في علم من العلوم ، وكل ما بين أيدينا من كتب ومؤلفات شرعية لسانية أدبية في التاريخ والجغرافيا ، أو في علم من العلوم ، انما هو من ثمار العصر العباسي .

حتى ان الشعر الأموي وصل الينا من رواة العصر العباسي .

الرواة : هم عمدة العرب في جاهليتهم وصدر الإسلام ، في ضبط علومهم وآدابهم . أما تدوين الكتاب الحكيم والحديث فقد تقدم ذكره ، وأما الشعر فبقي على ما كان عليه في الجاهلية ، لكل شاعر راوية ، أو عدة رواة . فهدبة ابن خشرم راوية الحطيئة ، وجميل راوية هدبـــة ، وكثيّر راوية جميل ، وأبو شفقل وعبيد أخو ربيعة بن حنظلة راويتا الفرزدق ، ومربع راوية جرير والفرزدق معاً ، الخ .

وظل الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر ، فاشتغل العلمـــاء بالرواية ، وصار الراوية منهم يروي لمئات من الشعراء والشواعر .

ومع تشدد الناس في تصحيح الرواية سنّة وادباً، حدث في الحديث والشعر والخطب كثير من التحريف والتصحيف والنقص والزيادة والانتحال .

حماد الراوية

سيرته : أبو ليلى حماد بن ميسرة ، اعـــلم الناس بأيام العرب واخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها .

كان في أول أمره لصاً صعلوكاً ، ترك ما كان عليه وانصرف الى الأدب ، وهو الذي جمع المعلقات السبع .

قربه الامويون وآثروه ، وكثيراً مـــا كانوا يستزيرونه ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ويجزلون صلته . ادرك العباسيين فلم يكن له كبير حظ عندهم .

يؤخذ عليه في روايته قلة الأمانة ، فإنه كان ينحل من يروي لهم ما لم يقولوه فيفسد شعر القدماء .

دفعه إلى ذلك الطمع وميل العرب إلى التنافس بالمجد القديم ، فاختلق لهم ما لم يُقَلْ لاسترضائهم ، وطمعاً بجوائزهم ، فالحق أناساً بغير انسابهم وأيّد مزاعمه بأقوال انتحلها .

وكذا فعل خلف الاحمر ، الراوية أيضاً ، وقصته مع أبي نواس مشهورة .

القرآن الكريم وتأثيره

نزل القرآن على الرسول الكريم في أوقات مختلفة، ولم يكتب دفعة واحدة، بل كتب على سعف النخل ورَقّ الغزال والحجارة والواح العظام .

حفظه علي وعبيد بن كعب وخصوصاً زيد بن ثابت .

نزوله وجمعه : جمعه زيد بن ثابت بامر ابي بكر ، ولم يحفظ الا السورة التي يتفق على روايتها شاهدان ، فنتج عن ذلك ان سوراً عديدة لم تحفظ . فوقع خلاف بين مسلمي الاقطار البعيدة ، فقام عثمان وجمع السور كلها في كتاب واحد سمي « قانوني » واتلف كل النسخ .

جمعه الحاضر صورة طبق الأصل عن جمع عثمان .

تقسيمه : يقسم إلى سور (والسورة كلمة عبرانية معناها المدماك) . اما سوره فعددها ١١٥ ، منها ٩٣ مكية و ٢٢ مدنيّة . نسبت إلى المكان الذي نزلت فيه ، أي مكة والمدينة .

اما ترتيبه فعلى نظام خارجي، أطول سورة في الاول وهلم جرا دون مراعاة المعنى والتاريخ ، ما خلا سورة الفاتحة لانها فاتحة الكتاب .

أول ما نزل منه « اقرأ باسم ربك الذي خلق الخ . » وآخر ما نزل منه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت نعمتي عليكم ، الخ . »

تركيب السور : تقسم إلى آيات يختلف عددها باختلاف السُوَر ، فبينا سور البقرة ٢٨٦ آية نرى السورة الاخيرة ٦ آيات ، وسورة النصر ثلاث آيات فقط :

وقد قسم القرآن الكريم ٣٠ جزءاً .

من حيث المعنى : ثلاثة اقسام :

القسم الاول : يخاطَب به شعب غير مؤمن بالتوحيد والبعث . والقرآن كلام الله . الجنة للصالحين والنار للهالكين . يدعو إلى عبادة الله الواحد ، ويظهر قدرته الفائقة ووحدانيته من النظر إلى مخلوقاته ، والعالم والاجرام العظيمة ، الخ .

وتذكير بما حل بمن كفروا به ، وفي أكثر هذه السور يتكلم الخالق . وهذا القسم من السور المكية القصيرة .

القسم الثاني : يخاطب به شعب مؤمن ولكنه غير عارف بطرق العبادة . ففيها فرض الصلاة والصوم والحج والزكاة . ففي هذا القسم تنظيم طرق العبادة لله ، وسور هذا القسم مكية ومدنية .

القسم الثالث: الكلام موجه إلى شعب مؤمن يؤلف الهيئة الاجتماعية . ففيه تنظيم القضاء، والشرائع المدنية من زواج وطلاق ومعاملات الخ . فلذلك طالت السور وتغيرت لهجتها .

اسلوبه : يخالف أساليب العرب في نظمها ونثرها : تأليف حسن ، كلمات ملتئمة ، ايجاز وجودة مقاطع ، انسجام ، قصص ، امثال بديعة ، موسيقى لا نهاية لها ، سهولة في اللفظ مع شدة ارتباط في التعبير . كل هذا جعله في اعلى درجات البلاغة ، وجعل لاسلوبه من القوة ما يملأ النفس روعة ، فلا تمل ترديده وقراءته .

يسجع احياناً ولا يلتزم السجع ، ويوازن ولا يلتزم الموازنة . الفاظه سهلة ، قلّ ان تجد فيها غريباً ، وهي مع سهولتها جزلة عذبة ، وهي بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا نبوّ بينها . **فاذا اضفت الى ذلك سموّ معانيه ادركت سر بلاغته واعجازه** (**المجمل** : لطه حسين ورفاقه) .

هو في السور المدنية غيره في الغزوات ، طويل الآيات هادىء المقاطع يفيض ليناً ورحمة .

تأثيره : سحر العقول بيـــانه ، فعكفوا عليه يحفظونه ويقتبسون منه ويحاكونه ، ويتأثرون بألفاظه وتركيبه .

فللقرآن أعظم فضل على اللغـــة في وحدتها وانتشارها ، واحداث علوم جديدة فيها ، وتخليدها .

له في وحدة اللغة أثر بيّن ، باحكام تركيبها وتهذيب عبارتها ، ونشره اياها بانتشار الدين ، وحفظه لها على فصاحتها الأولية . فمن حيث هو كتاب سماوي منزل ضمن لها الحياة على مدى الأجيال ، ما دام في الكون عربي متمسك بدينه ، وصانها من كل ما يشوّه خلقها ، فأصبحت وهي اللغة الوحيدة الحية بين اللغات القديمة التي اختفت آثارها .

وقد أحدث القرآن علوماً شتى ، وجمع كلمة العرب عموماً والمسلمين خصوصاً حيث كانوا ، وألف منهم عيلة واحدة على نمط واحد .

وتأثيره في النثر أكثر من تأثيره في الشعر ، أي ان أثره في الخطابة واضح جلي. والخلاصة ، مهما قلنا عن شدة تأثير القرآن في العقلية العربية فلا نغالي .

خلاصة :

١ ــ ربط اللغة العربية وجعلها لهجة واحدة ، فصارت اللغة السائدة في الجزيرة ، وتحددت معاني الكلمات كما جاءت فيه .

٢ ــ توحيد العرب . بتوحيد اللغة توحدت الأمة ، وبواسطة القرآن فرضت على شعوب كثيرة فصارت لغتهم .

٣ ــ ادخال كلمات جديدة وتعابير خاصة ، منهـــا عربية فتغير معناها للدين ، ومنها غير عربية كمنبر الخ . وبعض اسماء علم عربت .

٤ ــ قواعد الوقف ، وضبط الألفاظ ، بسبب تعلمه غيباً بالشكل الكامل .

٥ ــ النثر ــ أوصله الينا وهو لم يكن موجوداً في الجاهلية ــ كما كان يحكى في ذلك العهد ، فجعل العربية أقدم لغة حية .

العصور العباسية

سقوط الامويين وقيام العباسيين

تحدثنا فيما سبق عن تكون الاحزاب في الأمة العربية وكيف استقام الأمر للامويين، ولكن هذه الهدنة كانت على دخَن ، فالعرب كانوا احزاباً ، بينما كان الشعب الفارسي متربصاً بهم الدوائر لانهم غلبوه على أمره واستولوا على ملكه ، فظل يحاربهم سراً ، ويحاول قلب الملك الجديد . واذ لم يستطع ذلك مباشرة لجأ الى مبدإ « فرّق تسد » ، فانتصر للعباسيين ووقف يرمي سهامه على الأمة العربية ، متحصناً وراء رجل من آل البيت . وهذا ملخص ما حدث :

اتخذ الفرس مأساة الحسين سلماً كما اتخذ معاوية مقتل عثمان . وهناك رجل آخر هو حجدر الكندي بن عدي ، قتله معاوية في نفر من اصحابه ، فكان للقيسيين كالشهيد .

فنشأت جمعيات سرية « التقيّة » مبدأها جواز التكتم حق في العقائدالدينية اذا كان هناك من خوف. اضف الى ذلك ان الاعاجم حقدوا على العرب الامويين المتمسكين بالعصبية العربية العاملين على احتكار المناصب لنبلاء العرب وعلى احتقار الدخلاء . ومن تلك النقمة تولدت « الشعوبية » .

كانت هذه الاحزاب تنفق الاموال وتضحي بكل غال في سبيل النجاح ، وخصوصاً الفرس . أما الأمويون فكانوا لاهين باثارة روح العصبية بين اليمانية والمضرية ، يستميلون هذا حيناً وذاك آونة ، فضعف شأنهم .

كان زمام المعارضين بيد ابي مسلم الخراساني الذي راح يعمل بـلا هوادة ، والامويون لاهون لا يباشرون الادارة بانفسهم ، بل يكلونها الى أرباب اللهو والمجون . وتنازعوا على الخلافة ، فاثاروا القلاقل والبلبلة في البلاد فضعفت همتهم ولعب الفساد بهم .

لم يكن النزاع بين العرب والفرس نزاعاً سياسياً فقط بل دينياً ايضاً ، اراد الفرس ان يدخلوا في الاسلام شيئاً جديداً حتى الاباحية ، فمهدوا السبيل لشيع عديدة منها « الاباضية » ، زعيمها عبدالله بن اباض ، مبدأها قتل الخليفة الاموي لانه أموي ، لأنه خليفة باغ مسيطر على الاسلام بغير حق .

الحركة العباسية: كانت تدعمها سيوف الفرس وأموالهم ويدعو لها رجالهم ، همها القضاء على الامويين ونقل الخلافة الى آل البيت . فأسسوا الجمعيات القوية في العراق وخراسان ، وجمعوا زكاتهم وسلموها لمحمد بن علي « محمد الحنفيّة » مرشحهم للخلافة ، فسار معهم سراً في الأمر . ولما مات ولي ابنه عبدالله من بعده ، ثم عقبه محمد بن علي بن عبدالله بن العباس فاستسلم للفرس وأقـام في خراسان لاعتقاده انهم مخلصون وهو الذي قال : « أبى الله ان تكون شيعتنا إلا أهل خراسان ، ولا ننصر الا بهم . »

ان بعد خراسان عن الشام جعلها ارضاً خصبة صادفت فيها الدعوة العباسية نمواً سريعاً ، فاخذ امر دعاتها يشتد ، فتعقبهم الامويون فلم يقفوا لهم على أثر .

وأهم رجالهم بكير بن مـاهان ، وهو شاب فارسي غني وخطيب مفوّه ، وغيره ممن التفـّوا حوله من الفرس والشيعة ، فضحوا بالمال والراحة والوقت .

ثم عقب محمد بن علي ابنه ابراهيم المعروف بالامـام ، يعضده شاب فارسي داهية هو ابو مسلم الخراساني ، **رجل الدولة العباسية** .

قدمه ابراهيم الامام واسند اليـه زعامة النقباء في خراسان واوصاه بالتكتم ، فاظهر براعة في نشر الدعوة . أرسل الدعاة من خراسان بزي التجار إلى النواحي ، فعظم امره واحبه الجميع ، وصار أعز الناس مـنزلة وارفعهم مقامـاً .

سياسته « فرّق تسد » . أضرم نار الخلاف بين الامويين باذلاً الاموال في سبيل اشعالها ، فوقعت العصبية بين المضرية واليمنية بخراسان لان الحكومة كانت على عهد مروان بن محمد الخليفة الاخير لا توظف احداً من اليمنية . فوالي خراسان ، نصر بن سيار ، كان متعصباً على اليمانية لبغضهم .

فغضب زعيمهم الكرماني واعتزل الحكومة ونصب لهم العداء ، فأخذ ابو مسلم يتقرب من الزعيمين الكرماني وابن سيار وينفذ اليهما الكتب ويساعدهما مالياً ، حتى استمال الكرماني لانه كان اختلف مع نصر الذي سجنه .

فلما اشتد الخلاف بين الزعيمين ، حاول العقلاء من العرب اصلاح ذات البين ، فابى الكرماني لعدم ثقته بنصر . وهكذا ظل العرب يقتتلون نحو عشرين شهراً في خراسان ، وابو مسلم يضرم النار ليوهن قوتهم ويتحين الفرصة لضربهم ضربة قاضية تهلكهم .

فتألم نصر بن سيّار لما اصاب العرب ، فاستنجد بمروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ليدرأ خطر العباسيين قبل ان يهاجموه ويجبروه على الانسحاب الى العراق ، او ليضعف شأن ابي مسلم قبل استفحاله . فكتب الى الخليفة مروان رسالة جاء فيها :

« قد بايعه — اي أبا مسلم — ٢٠٠٠٠٠ رجل ، فتدارك الامر يا امير المؤمنين ، وابعث الي بجنود من قِبَلك يقوى بهم ركني واستعين بهم على محاربة من خالفني » . وختمها بهذه الابيات المشهورة :

اري خلل الرماد وميض نار ... ويوشك ان يكون لها ضرام
فقلت من التعجب : ليت شعري ... أأيقاظ امية ام نيام ؟

فاجابه الخليفة : « احسم انت الداء الذي ظهر عندك » .

فاجابه نصر بابيات منها :

والثوب ان انهج فيه البلى ... اعيى على ذي الحيلة الصانع
كنا نداركها فقد فرقت ... واتسع الخرق على الراقع

وماذا جرى بعد ذلك ؟ قبض مروان على ابراهيم الامام واحضره الى حرّان لما كثرت شيعته ، وامر به فأعدم .

فخاف اخواه السفاح والمنصور فهربا الى الكوفة . واظهر السفاح بها الدعوة وخطب الناس في المسجد الجامع وبويع بالخلافة سنة ١٣٢ فوفدت عليه الناس من اطراف العراق مبايعين خاضعين . وعهد الى عمـــه عبدالله بقتال مروان : فجهز مروان جيشاً من ١٢٩ الفاً والتقى جيش الشام على الزاب، فانكسر مروان لان جنوده كانوا تأثروا بالذهب الفارسي، حتى لم يعد يستطيع مروان ان ينفذ امراً فيهم فوضع المال بين ايديهم وقال اخذوا وقاتلوا. فأخذوا المال ولم يقاتلوا.

فوقعة الزاب هذه تقابل وقعة القادسية التي انتصر فيها العرب على الفرس .

كانت العصبية سبب سقوط الامويين . ولم تقف الـكارثة عند حد سقوط الدولة الاموية فقط بل امعن اعداؤهم الفرس والشيعة في التنكيل فاعملوا السيف في رقابهم حتى افنوا معظمهم ولم يفلت منهم الا عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش ، لأنه فرّ الى الاندلس .

كان الشعراء اكبر المحرضين على ابادة الامويين ، وهاك ما قاله سديف احد موالي بني العباس في حضرة السفاح :

لا يغرّنك ما ترى من رجال ... ان تحت الضلوع داءً دويّا

جرد السيف وارفع العفو حتى ... لا ترى فوق ظهرها امويّـــا

استعمل العباسيون الحيلة في استقدام بني اميـــة . فامنوهم على ارواحهم وأموالهم وأملاكهم حتى قدموا على السفاح مطمئنين ، فنكث عهده وتفنن في تعذيبهم واختلاس أموالهم .

قتلهم ومدّ البسط فوقهم وجلس للطعام . وما فرغوا من الوليمة حتى أمر بجرهم فجروا الى الخارج والقوا في الطريق ، وظلوا حتى انتنوا ودفنوا جميعاً في بئر .

ثم صدرت الأوامر بمطاردة من بقي منهم حتى أبيدوا .

أما أبو مسلم الخراساني ، فاشتد أمره بعد ذلك حتى خاف الخليفة المنصور منه لأنه طمح إلى الخلافة ، فاستقدمه المنصور وأمر بقتـــله فقتل . ثم أصاب البرامكة ما أصاب أبا مسلم ، فقتلوا في عهد الرشيد ، لأنهم طمحوا الى الخلافة . وكذلك فعل المأمون فقتل وزيره الفضل .

النفوذ الاجنبي

فهمت مما تقدم تأثير الفرس ونفوذهم . شاء العرب التخلص منهم فكان ان قتل المنصور أبا مسلم الخراساني ، ومع ذلك بقي نفوذهم كما كان ، يقوى حيناً ويضعف تارة .

كان العصر الأموي عصر تطور خضعت له الأمة العربية من جهة والأمم المغلوبة من جهة ثانية . وسبب هذا التطور الاسلام وامتزاج العرب بغيرهم من الأمم .

فالعصر الاول مظهر صادق لتغير النفس العربية وتأثرها بالحياة الجديدة التي تلت الإسلام ، والعصر الثاني مظهر صادق لتغير النفس الأعجمية الأجنبية بهذه الحياة ، أي ان جوهر الأدب العربي ظل في القرن الأول عربياً ، وتأثر بالإسلام ، وهو دين الدولة ، تأثراً قوياً ، ولم يؤثر فيه اختلاط العرب بغيرهم إلا قليلا .

أما في القرن الثاني فقد أصبح الأدب العربي أجنبياً في الجملة ، لغته العربية . ثم أخذ تأثير العرب يضعف فيه رويداً رويداً لأن منشئيه من الاجانب الذين تعلموا العربية وبرعوا فيها ، فما مرّ العصر الاول حتى دخل كثير من الاجانب في الاسلام ليظفروا بالمساواة في الحقوق السياسية ، والاجتماعية ، واتقنوا اللغة فخدموا الفاتحين وتولوا مناصب خطيرة في الدولة كما تقدم وقلنا في الكلام عن النثر الفني .

وكان ظهور هذا مؤذناً بما سيؤول اليه أمر العرب اذا لم يجدّوا ويشدّوا

لينقذوا سلطانهم من الفناء والاضمحلال . ما عجز العرب عن المحافظة على سلطانهم بل تمادوا وتقسّموا في سبيل العصبية فضعفوا وقوي الأجنبي لأن الثورة التي كانت على العرب كانت أجنبية ، انتصر فيها الأعجمي على العربي ، واستأثر بالسلطان والسيادة . ولا يستغرب ان تظهر هذه البادرة في شرق البلاد الاسلامية،وتفوز فيها الامة الفارسية ، وتظل بقية الامم هادئة في الشام ومصر ، ذلك لان الفرس حين ظهور الاسلام كانت لهم دولة ذات سلطان ، ولذلك كان الصراع شديداً بينهم وبين العرب ، ضعيفاً بينهم وبين الأمم الأخرى . وهذا الصراع كان في العراق ، حيث التقى الشعبان ، وبينهما اختلاف في كل شيء، في الأهواء والمنافع والأغراض ، وفي الدين ايضاً الخ ...

فلهذا كان العراق موطن المعارضة الشديدة ، ومهد الحركة الأدبية والفكرية ، ومن هـذه البيئة شبت الثورة كما رأينا ، وسقط الأمويون وساد العباسيون .

حرية الفكر : كان القرن الأول الهجري عصر احتكاك بالأمم التي شاعت فيها فلسفة الاقدمين ، فتعرف العرب المسلمون على الفلسفة ، من كتب ارسطو وافلاطون بواسطة الترجمة .

وكان مسلمو سوريا مختمرين بالعلوم اليونانية وغيرها فلم يقبلوا الدين على علاته ، كما قبله الأعراب ، فأخذوا يتفلسفون ويتمنطقون ويبحثون ويجـادلون ليبنوا معتقدهم على أساس علمي راسخ . فدب الشك الى قلوبهم فاخذوا يبحثون ويشكّون .

فمنهم من انكروا العجائب وقالوا بخلق القرآن ولم يعتبروا الصحابة ولا الحديث فسموا بالمعتزلة ، وكل هذا مسبب عن تعلمهم المنطق والفلسفة ، ولذلك شاع بينهم « من تمنطق فقد تزندق » . فاطلقت الافكار من سجونها وصار كل واحد يجاهر بمبدإ ولا يخاف .

وتساهل الخلفاء بذلك ولم يبالوا بتقليد ما لم يكن فيه مـا يمس الدولة . وأخذت هذه الحالة تنمو وتشتد بتقـدم العصر العباسي الأول حتى عصر

المأمون . وكان المأمون محباً للفلسفة والمنطق (ونظن ان للوراثة عملها فيه لأن امه فارسية) ، فراجت هذه الابحاث في عهده ايما رواج .

وقد كان هو أشد الخلفاء تسامحاً . كان هو شيعياً ، ووزيره يحيى بن أكثم سنياً ، ووزيره احمد بن داود معتزلياً . وأكبر دليل على تسامحه انتصاره للمعتزلة .

وهكذا كان الرجل في هذا العصر لا يكره على دينه ، فقد يكون في بيت واحد عدة اخوة لكل منهم مذهب . فاولاد أبي الجعد كانوا ستة : اثنان شيعيان ، واثنان خارجيّان ، واثنان مُرجئان .

فتقريب الموالي واعزازهم في الدولة العباسية وكلهم من امم غير عربية لهم دين قديم ، ساعد على نشر حرية الدين .

تقريب الموالي – سببه : تعلم ان دولة العباسيين قامت على اكتاف هؤلاء الموالي ، فالعباسيون كانوا قليلي الثقة بالعرب ، لانهم يعلمون انهم آل البيت وان العرب تخلوا عنهم ونصروا الأمويين ، ولذلك كانوا يكرهون العنصر العربي ، فقربوا الفرس لثقتهم بهم . وقد ظهر تعصب العرب عندما كانت الفتنة بين الامين والمأمون ولدَي الرشيد ، فالعرب نصروا الأمين ، (لان امه عربية ، فأضمرها لهم المأمون) .

ومن اشهر الموالي الذين قبضوا على الحكم آل برمك وآل الفضل ، ولا أرى هؤلاء الا متلبسين بالاسلام تلبساً .

نعم قد أسلموا ولكنهم صبغوا الدين الاسلامي بصبغة فارسية ولم يتجردوا من عقائدهم القديمة وتقاليدهم ، فمن يد هؤلاء دخل التشيع والتصوف في الاسلام .

وفي هذه الآونة ظهرت بادرة جديدة هي التطرف الشديد في الدين وحرية الفكر ، وهي ناتجة عن احتكاكهم بالامم الغريبة ، فاخذوا يزدرون كل شيء قديم من دين وخلق وسياسة وأدب .

فانتشرت الزندقة انتشاراً عظيماً ، وصاروا يزدرون الامة العربية ودينها

وسياستها وادبها ، حتى فضلوا الفارسية عليها ، وهذا ما يعرف بـ « الشعوبية ».

ولم يكن مصدر كل هذا إلا الفرس الذين كانوا يكيدون للعرب . فلما اشتد هذا الأمر في عهد المأمون ، وآلت الخلافة بعد وفاته إلى المتوكل قام وضرب الزنادقة بعصا من حديد ، وجلد العلماء واضطهد الفلاسفة والمناطقة .

وظل هذا الانتقام منتشراً ، يكون بالسيف عندما يتعرض الدين أو الحكم للخطر ، وباللسان عندما لا يتعرض لهذا الخطر إلا الادب .

وهاك مثلاً عن شدة تهكمهم ومجونهم حتى في أقدس الاشياء : كان أبو نواس واصحابه ، على فسقهم ومجونهم ، يتدينون ويقيمون الصلاة . ولكنهم كانوا يعبثون بها عبثهم بغيرها . وربما كانوا يسكرون وتدنو الصلاة فتكف الأيدي عن الكؤوس وتقام الصلاة .

أقاموا الصلاة مرة فأمّهم أحد الندماء واسمه يحيى ، فغلط وهو يقرأ « قل هو الله أحد » فاستحالت الصلاة إلى استهزاء به فقال ابو نواس :

اكثر يحيى غلطاً   في قلْ هو الله أحد

فقال العباس الاحنف : قام طويلاً ساهياً   حتى اذا أعيا سجد

وقال الحسين الخليع : يزحر في محرابه   زحير حبلى بولد

فقال مسلم بن الوليد : كأنما لسانهُ   شُدّ بحبلٍ من مَسَد

ويشبه هذا ما حكاه الجاحظ عن خمسة أمّوا ديراً ، فجاءتهم الدلالة التي تبيع الخمر ، فقالت : كم انتم ؟ فأجابوا : أربعة ، وأهملوا صاحبهم الذي كان يصلي . فقال المصلي بصوت عال : سبحانَ الله ، فعرفتْ إذ ذاك انهم خمسة .

ولم يكن بعض الخلفاء أقل ترفاً في قصورهم من هؤلاء ، فبعضهم كان يعيش عيشتين : عيشة اسلامية لعامة الأمة ، وعيشة ترف ملوكية فارسية في قصره .

الشعر وتأثير الترف فيه

الادب عامة : الادب لسان حال العصر وترجمان المحيط ، فاذا شئنا ان ندرس درساً واضحاً ادب هذا العصر العباسي علينا ان نوطىء له بدرس حضارة هذا العصر .

لم يكن شعب هذا العصر عربياً قحاً ولا فارسياً خالصاً ، بـل مزيجاً من الشعبين وغيرهما من الشعوب التي كانت تسكن العراق وتعمل في ارضه ، وهي مكونة من العقلية العربية والفارسية والسامية القديمة ، متأثرة بالديانة المسيحية وثقافة اليونانيين ، ولذلك كانت مخالفة كل المخالفة لحياة العرب في عهد بني أمية فكان الفرق عظيماً جداً بين الحياتين .

فلذلك ضعف أثر الحياة البدوية الخالصة في هذا الجيل من اهـل العراق ، وتأثر جداً بالحضارة الفارسية القديمة ، فنشأ عن ذلك وعن ذهاب سلطة العرب ، تمتع اهل هذا الجيل الجديد بكل ما كان لا يتمتع فيه العربي في العهد الماضي ، فاستوى فيه الغالب والمغلوب في كل شيء . فتضاءلت سلطة الدين الاسلامي ، لحداثة القوم فيه ولتأثير ديانتهم القديمة الموروثة عليهم .

وكانت لغتهم ايضاً بين الفصاحة الخالصة والرطانة الاعجمية .

والفرق بين هذا الجيل والجيل الذي تقدمه ، ان هذا ظهر فيه ميل شديد للحياة العلمية . فانتشر العلم وتنوع ، فمنه ما حدث ومنه ما نما وارتقى ، ومنه ما نقل ، فمحّصوه ودرسوه حتى هضموه وطبعوه بطابع عربي خاص .

كان في العصر الاموي علم ، ولكنه كان اسلامياً محضاً ، وهو يسير ساذج .

اما في هذا الجيل فكثرت فروعه وتشعبت .

وبعُدَ هذا الجيل عن عهد الادب بالبداوة العربية،فقلّ حظه من السذاجة، فتكلف وتعقد ، وظهرت آثار التعمل فيه ، بعدما كان ساذجاً ، وبعد الطبع ، والسجية الحرة الخالصة . ونشأت في الادب فروع وفنون ، لم تكن معروفة من قبل الا قليلا .

الخلاصة : قد تطور كل شيء تطوراً يلائم البيئة والعقل والدين .

الشعر خاصة : لم يضعف الشعر في هذا العصر بل قوي ونما وتطور في الفاظه ومعانيه واوزانه وقوافيه واغراضه وفنونه .

الفاظه : رقت وسهلت فبعدت جداً عن الفاظ الشعراء في العصر الاسلامي ايام جرير والفرزدق والاخطل . فاذا قرأت شعر بعضهم كمسلم ابن الوليد ، وابي العتاهية ، والعباس بن الاحنف ، فكأنك تقرأ كلاماً منثوراً ، لولا الوزن والقافية .

معانيه : تطورت معاني الشعر فانصرفوا عن المعاني البدوية ، او المعاني البدوية المتأثرة بالحضارة ، الى المعاني الحضرية الصرف . فبعد ان كان الشعر الاسلامي يصدر عن الطبع بلا تكلف ، اصبح متحضراً يسيطر عليه العقل ، ويرده الى ميدان **الخيال الفسيح** ، واذا عدا الشاعر ذلك عدّوه منه تقصيراً عن **الاتقان الفني** .

اوزانه : ورغب الشعراءعن الاوزان الطويلة ، وفضلوا عليها الخفيفة السهلة القصيرة،ولاءموا بينها وبين موضوعاتهم فاختاروا للغزل والمجون اوزاناً تلائمها، واذا مدحوا الخلفاء والوزراء أو رثوا أو جدوا في أمر ، فضلوا الاوزانالطويلة. ويسروا على انفسهم في القوافي واختاروا اسهل الالفاظ واحبها للسمع ، وتجنبوا عيوب الشعر : كالإيطاء والإقواء والإكفاء والسناد .

أغراضه : لم يطل عهد الشعر السياسي في هذا العصر اذ لم تبق حاجة اليه. ورغب الخلفاء عنه فاصبح الشاعر لدى الخليفة كالنديم له ، وذلك بعد انحلال الاحزاب ، فضعف الشعر السياسي حتى اصبح كنوع من الهجاء يقوله الشاعر

متقياً ، عند سنوح الفرصة .

الغزل : اما الغزل العذري ، فامحى الا قليلا لأن العفة والطهارة لم تكونا من مميزات هذا العصر ، فالجواري والغلمان كانت تباع في الاسواق بيع السلع .

اما الغزل العادي، فتطور ولم يعد صورة صادقة للعاطفة وميل النفس،وبقي محفوظاً كفن موروث لا ينبغي ان يضيع .

بدعة جديدة ، وظهرت بدعة جديدة في الغزل ، استنبطها فساد البيئة وكثرة الرقيق ، وهذا الغزل هو المعروف بغزل المذكر ، وهو وصمة في جبين أدبنا .

الهجاء : اما الهجاء فازداد قبحاً واقذاعاً وفحشاً،يبحث فيه عن السيئات.

المدح : واما المدح فتجاوزت فيه المبالغة الحد ، وبعد فيه الشعراء عن الاعتدال الذي هو من مميزات الطبع العربي الخالص ، فانحط به بعض الشعراء واتخذوه اداة لكسبهم بلا حياء ولا كرامة .

المجون : واشد الشعر نمواً في هذا العصر ، شعر المجون ووصف الخمر ، وهو ما نسميه بشعر القصور . فتهالك الناس عليه لفساد اخلاقهم وانحلال روابطهم الاجتماعية، وتسلط الإماء على الحياة المنزلية واستئثارهن بمكان الحرائر،واتقانهن العربية وآدابها ، وبروزهن للناس ، واشتراكهن في حياة العبث واللهو جهراً ، وتسلط الرقيق من غلمان الترك والروم على نفوس الزعماء والسادة، حتى صاروا يدبرون القصور والثروة كما يرغبون .

وساعد ايضاً على اشتداد هذا النوع من الشعر ، ظهور المذاهب الفلسفية والمقالات الدينية وتسلط الشك على النفوس .

الزهد : وظهر فن جديد ، وهو الزهد ، دعا اليه اتصال العرب بالفرس وانتشار الحكمة الفلسفية الفارسية والهندية . ظهر في شعر ابي العتاهية ، كما ظهر في نثر ابن المقفع .

الشعر التعليمي : وظهر نوع جديد من الشعر هو الشعر التعليمي ، اي نظم فنون العلم شعراً ليسهل حفظها ، كنظم كليلة ودمنة ، وقصائد في الفقه .

الوصف : أما الشعر الوصفي فتبدل واشتد ، فبعد ان كان البدوي يصف ناقته وخيله وصحراءه ، وصفوا الحضارة وقصورها والبساتين والخمارات والكؤوس والصيد ، فوصفوا هذا الاخير كما كان يفعل الفرس ، فدققوا في وصف الكلاب والجوارح ، وكان الرجز اداة لهذا الوصف .

وشعراء هذا العصر طبقات يتبع بعضها بعضاً ، ولكل طبقة زعماء. وزعماء أولى هذه الطبقات ثلاثة : بشار بن برد ، والسيد الحِمْيَري ، ومروان بن أبي حفصة .

بشار بن برد

نسبه : بشار بن برد بن يرجوخ ، كنيته أبو معاذ ، لقبه المرعث ، أبوه مولى امرأة عقيلية ، حرفة ابيه طيان . فبشار عربي عجمي ، من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، كثير التبرم بالناس لعماه ، متلون في ولائه ، يكره العرب ويحث الشعوب على كرههم ، ويتعصب لهم احياناً ويتشيع للعلويين. كان الناس يزدرونه حتى يخرج عن طوره ، ولولا خوفهم لسانه ما انفكوا عنه .

شخصيته : ضخم مجدور طويل جاحظ العينين يغشاهما لحم احمر ، فكان اقبح الناس منظرا وعمي وفيه يقول حماد عجرد :

واعمى يشبه القرد   اذا ما عمي القرد

لم ير الدنيا قط ، وقال والده انه لم ير مولوداً اعظم بركة منه .

كان متوقد الذهن ذكي القلب ، وقد زعم ان العمى يقوي الذكاء فيتوافر الحس وتذكو القريحة . قال الشعر ابن عشر سنوات ، وما بلغ الحلم حتى هابه الناس للسانه . هجا جريراً فلم يردّ جرير عليه .

زعامة الشعر : قلده اياها رجال عصره لاسباب : هجوه العلماء ، واتباع اسلوب البادية والفاظ ابنائها ، وتحضير الشعر ، وكثرة المعلمين عليه ، وغزله الرقيق الذي احبه الظرفاء والخالعون ورووه فهبت ريحه ، اضف الى ذلك ما لبشار من صنعة وفن .

قال الجاحظ : « كان بشار يدين بالرجعة ، ويكفّر الأمة ، ويقدّم النار على الطين حيث قال :

الأرض مظلمة والنـــار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار.»

وكان الأصمعي يشبهه بالنابغة والأعشى ويقول انه خاتمة الشعراء .

ادعاؤه : معتدّ بنفسه يرى فيهـــا كل ذكاء ، يرى نفسه أشعر الناس وعلى الناس ان يقولوا ذلك ويعترفوا به . وقد قال عن نفسه : « من أين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجر ٨٠ شيخاً من بني عقيل الفصحاء ، ونساؤهم أفصح منهم » .

ومع هذا نرى لبشار شعراً ركيكاً مبتذلاً لا يقوله فصحاء العرب ، كقوله :

ربابة ربــة البيت تصب الخلّ في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وقوله :

انما عظم سليمى قصب قصب السكر لا عظم الجمل

فاذا ادنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

وقوله : « غنني للقريض يا ابن قنان » . فقـــالوا له : « منو ابن قنان ؟ » فقال : « ألكم قبله دين أو ثار ؟ »

وقوله : « وهلال السماء في البردانـ » . فسئل : « أين البردان ؟ » فقال : « هو بيت في بيتي » .

وقوله ، بلسان حماره : « سيدي خذ بي أتاناً عند باب الاصبهاني

ولها خـــد أثيل مثل خد الشيفران

فسئل : « ما الشيفران ؟ » فقال : « هذا من غريب حماري ، فاذا لقيتموه فاسألوه » .

بشار والنحاة : انتقده الاخفش فهجاه ، فاسترضاه الأخفش فسكت عنه وصار يحتج بشعره ، وكذلك فعل بسيبويه .

استهتاره : كان مستهتراً في شعره خالعاً فاحشاً فنهاه الخليفة المهدي عن الغزل والتشبب بالنساء واغرائهن على الفحشاء . وكان قليل الدين لا يصلي وقد امتحن ذلك أصحابه بوضعهم تراباً على ثيابه فيرونه لم يقم . وقد سئل في ذلك فقال : الذي يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة .

نباهته : جاءه رجل يسأله عن بيت فجعل يفهمه فلم يفهم ، فقاده إلى السبيل حتى أوصله وقال له هذا البيت :

أعمى يقود بصيراً لا أبا لـكم قد ضل من كانت العميان تهديه

صدقه : كان بشار يقول الشعر عن غير عاطفة . فهو غير صادق في لهجته . قال ابن الصباح : دخلت على بشار وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس ، فقلت له : يا أبا معاذ من القائل :

في حلقي جسم فتى ناحــل لو هبت الريــح به طاحا

قال : أنا . قلت : ما الذي حملك على هذا الكذب ؟ وانني لارى ان لو بعث الله الرياح الاربع التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من مدخلـــك . وقس على هذا من شعر بشار .

كيف مات : هجا المهدي لأنه لم يجزه ، ولانه لا يرعى حرمة محسن أو مسيء بل يهجو اياً كان بسبب وبلا سبب ، وكان هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود معاً بقوله :

بني أمية هبـــوا طال نومكم ان الخليفـــة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة لله بين الزقّ والعـــود

فلما أخبره يعقوب بالهجاء ، انحدر إلى البصرة للنظر في أمرها فسمع آذاناً في وقت ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا الآذان ، فقالوا له : بشار يؤذن وهو سكران ، فأمر بجلده ٧٠ سوطاً ، فكان اذا أوجعه السوط قال : حسّ ، فقالوا : يا امير المؤمنين أنظر إلى زندقته فانه لا يسمّي ، فقال بشار : ويحكم أطعام هو فأسمّي عليه . فلما ضرب ٧٠ سوطاً بان الموت فيه ، فالقي في سفينة حتى مات ، ثم رمي في البطيحة .

بغض الناس له : فلما علم أهل البصرة بموته هنأ بعضهم بعضاً . وفي حياتــه كان السعيد منهم من لا يعرف بشاراً . ولم يمش في جنازته غير جارية له . وفيه يقول شاعر من قصيدة :

بل زعموا ان أهـــله فرحاً لمـــا أتاهم نعيه سجدوا

سخريته : أنشد المهدي قصيدة ، وكان خال المهدي ضعيف العقل فأقبل على بشار يسأله : ما صناعتك ؟ فأجابه بشار : أثقب اللؤلؤ . فضحك المهدي وقال له : أتتنادر على خالي ؟ فقال بشار : وماذا أصنع به ؟ ألم يرني رجلاً أعمى ؟

رمحت رجلاً بغلة ، فقال الحمد لله شكراً . فقال له بشار : استزده يزدك .

ومرّ قوم يحملون جنازة مسرعين بها ، فقال بشار : ما لهم مسرعين ، أتراهم سرقوه ؟

انفق غلامه عشرة دراهم على جلاء مرآته ، فتعجب بشار من جلاء مرآة لأعمى . فقال : لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ، ما دفعت أجرة من يجلوها ١٠ دراهم .

سرعة خاطره : قالت له زوجته : لماذا يهابك الناس على قبح وجهك ؟ فقال : ليس من حسنه يُهاب الاسد .

كان جالساً أمام بيته وبيده مخصرة وامامه طبق تفاح ، فحاول أحدهم سرقته ، فضربه بالقضيب . فقال له الرجل : اوَانت أعمى ؟ فاجابه : يا أحمق ، واين الحس ؟

نفسيته : مجان مازح وانما مزحه مؤلم . كان في السبعين كأنه في ريعان صباه ، والدليل آذانه وهو سكران . كان خليعاً شهوانياً ، شَرِهاً في الملذات ، هائج العاطفة ابداً ، تدل على ذلك اشعاره . جريء جسور لا يستحي ، (الحيا في النظر) غير صبور وغير متقن لعمله . والدليل على ذلك ادخاله في شعره الفاظاً لا أصل لها . جبان ثقيل الظل يخاف على روحه ايما خوف لانانيته وحبه لذاته .

كان يهجو ليعيش ، لا لانه يحب الهجاء ، وهجاؤه مجموعة عيوب يضعها فيمن ينقم عليه أو يطمع بماله .

شعره : وصف وقائع حال تأتي عفواً بلا تفكير وكد ذهن . غزله وصف اشياء ظاهرة كالألوان والمحسوسات وبعض الحركات . لا يفهم من الحب الا المادة فقط ، فغزله لا يمثل عاطفة بل التهالك على اللذات والاستقتال في سبيلها . غزير المادة ، غير متكلف في الفاظه ومعانيه . شعره كله ترغيب في الفجور ، كل هجائه

فحش ، ونكتته تضحك وتؤلم معاً .

جمع جزالة العرب إلى فن المحدثين ، ليّن اذا تغزل أو هزل ، متين اذامدح، مدحه لا يخلو من هجاء .

نعجة بشار

أهدى اليه صديق من بني منقر أضحية هزيلة فقال :

وهبتَ لنا يا فتى منقر وعجلٍ وأكرمهم أوّلا
عجوزاً قد أوردها عمرها وأسكنها الدهرُ دار البلى
سلوحاً توهمت ان الرعاء سقوها ليسهلها الحنظلا
وضمت يميني على ظهرها فخلتُ حراقفها الجندلا
وأهوت شمالي لعرقوبهـــا فخلت عراقبهـــا مغزلا
وقلّبت أليتهـــا بعد ذا فشبّهت عصعصها منجلا
فقلتُ أبيـع فـــلا مشترى أرجّي لديها ولا مأكلا
أم اشوي وأطبخ من لحمها وأطيب من ذاك مضغ السلا
إذا ما أمرّتْ على مجلس من العجب سبّح أو هللا
رأوا آيةً خلفها سائق يحثُّ وان هرولت هرولا
وكنتَ أمرتَ بها ضخمة بشحم ولحم قد استكملا
ولكن (روْحاً) عدا طوره وما كنت أحسب أن يفعلا
فجاءتك حتى ترى حالهـــا فتعلم اني بها مبتلى
سألتك لحمـــا لصبياننا فقد زدتني فيهم عيّـــلا
فخذها وأنت بها محسنٌ ومـــا زلت بي محسناً مجملا

منتخبات بشار بن برد

سخرية وهجو

وربما يقل الجليس وان كان ... خفيفاً في كفة الميزان
كيف لاتحمل الامانة ارض ... حملت فوقها أبا سفيان

قال في مصلوب أخذ في خزية فصلب :

لعمري لئن أصبحت فوق مشذب ... طويل تعفيك الرياح من القطر
فقد عشت مبسوط اليدين مبرزاً ... وعوفيت عند الموت من ضغطة القبر
وافلت من ضيق التراب وغمه ... ولم تفقد الدنيا فهل لك من شكر

ومن وصفه :

ودعجاء المحاجر من معد ... كأن حديثها ثمر الجنان
اذا قامت لحاجتها تثنت ... كأن عظامها من خيزران

وقوله :

ابى طلل بالجزع ان يتكلما ... وماذا عليه لو اجاب متيما
وبالجزع آثار "حسان" وباللوى ... ملاعب لا يعرفن الا توهما
ويوم كتنور الاماء سجرته ... وأوقدت فيه الجزل حتى تضرما

ومنها :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

اذا مـــا أعرنا سيداً في قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلمـــا
خلقنـــا سماءً فوقنا بنجومهـــا سيوفاً ونقعاً يقبضُ الطرف اقـــتما

وقوله :

نرجو غداً وغداً كحاملة في الحي لا يدرون ما تضع

وقوله :

ربما سرك البعيد واصلاك القريب النسب ناراً وعارا

وقوله في خياط أعور يدعى عمرواً ، وهذا القول من النوع الذي لا يُعرف أمدح هو أو هجاء :

خاط لي عمرو قبـاء ليـت عينيـه سواء
قلت شعراً ليس يدرى امديح أم هجـــاء

وقوله :

زودينا يا عبد قبل الفراق بتلاق ، وكيف لي بالتلاقي
انا والله اشتهي سحر عينيك واخشى مصارع العشاق

وقوله :

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً اوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبـــه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

إلى قوله :

وليل كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطي حمر ثعـالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنـــا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ويدرك من نجى الفرار مثالبه

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليـل تهـاوى كواكبه
اذا الملك الجبـــار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعـــاتبه

وقوله :

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن بحزم نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافي قـــوة للقوادم
وما خير كف امسك الغل اختها ومـا خير سيف لم يؤيد بقائم
اذا كنت فرداً هرك القوم مقبلاً وان كنت اوفى لم تفز بالعزائم

وقوله :

ان عمراً فاعرفوه عربي من زجاج
مظـلم النسبة لا يعرف إلّا بالسراج

وقوله :

دينار آل سليمان ودرهمهم كبابليين حفــا بالعفاريت
لا يبصران ولا يرجى لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروت

ومن غزله :

م يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألمْ
نفّسي يا عبد عني واعلمي انني يا عبـد من لحم ودم
ان في بردي جسماً ناحلاً لو توكأت عليـه لانهدم
ختم الله لــكم في عنقي موضع الخاتم من أهل الذمم

وقوله :

ونبئت قوماً بهم جنـــة يقولون من ذا وكنت العلم
الا ايها السائلي جاهـلاً ليعرفني انا انف الكرم
نمت في الكرام بني عــامر فروعي واصلي قريش العجم
واني لاغني مقـــام الفتى واصبي الفتاة فلا تعتصم

فقل للخليفة ان جئتـــه نصيحا ولا خـير في المتهم
اذا ايقظتك صروف العدى فنبه لها عمرا ثم نَم
فتى لا يبيت على دمنة ولا يشرب الماء الا بـــدم
اذا مـا غزا بشرت طيره بفـــخ وبشرنا بالنعم
دعـــاني الى عمر جوده وقول العشيرة بحر خضم
ولولا الذي خبروا لم اكن لامدح ريحانة قبل شم

وقوله :

ابا خالد مـا زلت سابح غمرة صغيراً فلما شبت خيمت في الشاطي
كسنور عبدالله بيع بـــدرهم صغيراً فلما شب بيع بقيراط

وقوله :

أبا عمر مـــا في طلابيك حاجة ولا في الذي منيتنا ثم اضجرا
وعدت فلم تصدق وقلت غدا غدا كما وعد الكمون شرباً مؤخراً

ومن قوله :

افنيت عمري ، وتقضّى الشباب بين الحميـــا والجواري الاوباب
والان شفعت أمـــام الهـدى وربمـــا طبت لحب وطـاب
لموت حق راعني داعيا صوت أمير المؤمنين المجاب
لبيك لبيك هجرت الصبـا ونام عذولي ومات العتـــاب
ابصرت رشدي وتركت المنى وربما ذلت لهن الرقاب

وقوله :

وبيضاء يضحك ماء الشباب في وجهها لـــك اذ تبتسم
جارية خلقت وحدهـــا كأن النساء لديها خـــدم
حسان العذارى اذا جئتها اطفن بحوراء مثـــل الصنم
يرحن فيمسحن اركانهـا كما يمسح الحجـر المستـــلم
ظميت اليهـــا فـلم تسقني برى ، ولم تشفني من سقم

السيد الحميري

نشأ في العصر الأموي ، وقـــال الشعر وأجاده في العصر العباسي . شيعي المذهب . قال أكثر شعره في الإمام علي وبنيه ، ومدح العباسيين وأخذ جوائزهم وكان يجاهر بحضرة العباسيين بحب علي وبنيه ، بيد انه يكره اعداءهم الامويين ويفضلهم عليهم ويستبشر بعهدهم .

صفاته : كان ضعيف العقل ، مضطرب النفس ، شعره سهل ، ومعانيه منها الجيد والمبتذل ، مات عام ١٧٣ .

مروان بن ابي حفصة

فارسي الأصل ، نشأ في العصر الأموي ، إلا أن تفوقه في الشعر لم يظهر إلا أيام العباسيين . لم يترك اليامة التي نشأ فيها ، فظل بعيداً عن التأثير الفارسي ، ولذلك تظهر في شعره الرصانة والمتانة ، فهو جزل اللفظ صلب المعنى كشعراء المسلمين الكبار .

مدح في أول عهده معن بن زائدة ، فأجزل عطاءه .

هدفه : ولما طار صيته ، ذهب إلى العراق ومدح الخلفاء العباسيين ، ووجه هذا المدح نحو الدفاع عن الخلافة العباسية ، وانكار حق العلويين فيها ، فاجزلوا له العطاء، وكانوا يشترون منه البيت بألف درهم، وقد كان يجوّد شعره ويبطىء في قوله ، وأشهر بيت قاله في الدفاع عن حق العباسيين بالخلافة :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

لقد كان تأثير الفرس في هؤلاء قوياً وخصوصاً بشار بن برد والحِميَري . أما تأثرهم باليونان فكان ضئيلاً بالنسبة للطبقة التي جاءت بعدهم، وزعماؤها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد .

ابو نواس

هو الحسن بن هانىء ، تلميذ والبة الحباب .

كنيته : الاولى ابو علي ، انما قال له خلف الاحمر الذي كان شديد الميل اليه : انت من اشراف اليمن فتكنّ بالذوين ، فتكنى بذي نواس .

تربيته : لسوء حظ الادب ، لم ينشأ نشأة صالحة ، بل ربي في كنف والبة وامثاله من الفسّاق ، فكان من شخصيته ما ارانا اياها أدبه وشعره واخباره .

شخصيته : جميل الصورة ، خفيف الروح ، فصيح اللسان ، هازل ، سكير ، مستخفّ في الدين .

لغته : قال الجاحظ : ما رأيت احداً أعلم باللغة من ابي نواس ، ولا افصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه .

هو وبشار : قال الجاحظ : « بشار وابو نواس معناهما واحد والعدة اثنان » ، ولكن كان بشار قليل الجلد لا ينقّح ، وابو نواس كثير التنقيح .

اثره في الادب : احسن بالخروج على خطة الشعر الجاهلي ، وترك البكاء على الاطلال ، وجعل الشعر شعراً مصدره الشعور ، وأساء إلى الادب العربي بنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر ، وتلك جناية ووصمة لا تغتفران له .

امتيازه : تفوّق بوصف الخمرة والمجون والغزل والمداعبة ، غرامية او غير غرامية .

الخمرة : وصفها كثيرون في كل العصور ، ففي الجاهلية وصفها وأجاد عدي

ابن زيد العبادي ، وكانت ابياته تغنى للوليد بن يزيد ، وأجاد وصفها الأعشى والاخطل .

اما ابو نواس فلم يصفها وصفاً سبق فيه من تقدمه وحسب بل قدسهـــا تقديساً :

اثن على الخمر بآلائها وسمها احسن اسمائهـــا

شعوبيته : عد النقاد له ما سنرويه لك ، خروجاً على الاسلوب القديم ، ثم عادوا فعدوه « شعوبية » . اما الحقيقة فهي ان ابا نواس مستهزىء بكل شيء ، فاسمع ما يقول :

عاج الشقي عـلى رسم يسائله وعجت اسأل عن خمّارة البـلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ درك قل لي من بنو اسد
ومن تمـــيم ومن قيس ولفّهما ليس الاعاريب عند الله من احد
لا خفّ دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

تهتكه : كان خليعاً متهتكاً لا يبالي بحدود الادب والدين ولا يراعي شيئاً من هذا ، قال :

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر
فعيش الفتى في سكرة اثر سكرة فان طال هذا عنده قصر الدهر
فبح باسم من اهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر
ولا خير في فتك بدون مجانــــة ولا في مجون ليس يتبعه كفر

وقوله في الخمرة :

عتقت في الدّنّ حتى هي في رقـــة ديني

ومن قوله يخاطب أحمد بن أبي صالح :

ناديته بعدما مال النجوم وقـــد صاح الدجاج ببشرى الصبح مرّات
فقلت والليـــل يجلوه الصباح كما يجلو التبسم عن غر الثنيّات
يا احمد المرتجى من كل نائبة قم سيدي نعص جبار السماوات

من مجونهم : لم يبرع ابو نواس هذه البراعة الا لأنـــه صادف ارضاً خصبة وندماء لا ينفكون عن معاقرة الخمرة . ففي ذات ليلة قالوا اين نجلس الليـلة ؟ فقال ابو نواس : فلتكن الدعوة شعراً ، والمجيد منا تقبل دعوته . فنظموا في ذلك ، وكانوا ستة ، فاجادوا جميعاً ، فكانت الجلسة في المقهى .

ومن مجون ابي نواس ، ما رواه ، ابن منظور ، قال : كان ابو نواس مـــع المصلين في المسجد فاذا بالامام يقول : قل يا أيها الكافرون . . فصاح ابو نواس من وراء : لبيك ، فاخرج .

رجاؤه : كان رجاؤه بعفو الله عظيماً كما يقولون ، ولذلك اكثر من المعاصي معتمداً على عفو الله ، حتى ختم همزيته المشهورة بهذين البيتين وهما موجهان الى « النظام » زعيم المعتزلة الذي كان يقول : لا يغفر الله لاصحاب الكبائر :

قولوا لمـــن يدعي بالعـلم فلسفةً   عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء
لا تحظرالعفو ان كنتامرءاً حرجاً   فان حظركه بالدين ازراء

مدحه : كان عربياً خالصاً اذا مدح أو رثى . وقد مدح الامين وكان نديمه ، ومدح البرامكة .

هجوه : وقد هجا بظرف فقال :

خبز المفضل مكتوب عليه ألا   لا بارك الله في ضيف اذا شبعا

وقال :

خان عهدي عمرو وما خنت عهده   وجفاني وما تغـيرت بعـــده
ليس لي مذ حييت ذنب اليه   غـــير اني يوماً تغديت عنده

وقال :

ابو جعفر رجل عــــالم   بما يصلح المعدة الفاسده
تخوف تخمة اضيافه   فعودهم اكلة واحده

مع الجارية جنان : أحب هذه الانثى حباً صادقاً، وقال فيها شعراً كثيراً . ويروون انه ذهب فحج عندما حجت جنان .

وفي ذلك يقول :

حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني وإياها المسير

زهده : ويقال انه زهد في آخر عمره . ومما قاله في الزهد :

من اتقى الله فذاك الذي سيقَ اليه المتجر الرابح
شمّر فما في الدين اغلوطة ورح لما انت له رائح

ما قيل فيه : قال ابو تمام : ابو نواس ومسلم بن الوليد ، اللاتِ والعزّى وأنا اعبدهما .

قال النظام : كأنما جمع الكلام له فاختار احسنه .

قال ابرهيم بن العباس : اذا رأيتُ الرجل يحفظ شعر ابي نواس ، علمتُ ان ذلك عنوان أدبه .

قال العتبي : عندي اشعر الناس ابو نواس ، وعند الناس امرؤ القيس .

قال ابن السكيت : اروِ من المحدثين لابي نواس فحسبك .

خلاصة : متقن اللغة قولاً وعملاً ، عربي خالص اذا جد ، ظريف اذا هزل . اخذ عن العرب قوافيهم ولفظهم المتين الجزل . اخذ عن الفرس اوصافهم المادية للحياة المتحضرة . اخذ عن اليونان معانيهم الدقيقة واصطلاحاتهم الفلسفية .

اشد شعراء عصره ثورة على القديم . يفضل الحضارة على البداوة .

يريد الشعر حضرياً بالفاظه ومعانيه واغراضه .

كان فاسقاً عاصياً لله معتمداً على عفوه ومغفرته .

وقصارى الكلام ، كان شعره صورة لعصره تمثل الحياة فيه .

ابو العتاهية

حياته : ابو اسحق اسماعيل بن كيسان ، ولقبه ابو العتاهية . ولد بالانبار وكان يبيع الجرار بالكوفة . كان في شبابه عشيراً للخالعين مستهتراً ، ثم ظهرت مقدرته الشعرية ، فقال الشعر ، وطرق ابواب الخلفاء ، ونال جوائز المهدي ، وأحب جارية للخليفة اسمها عُتبة ، فخاب في حبه وتنسك ، وصار يقول الشعر في الزهد ويحث على ترك الدنيا وملاذها .

ولكنه ظل محباً للمال ، وعلى زهده بقي يمدح الخليفة ورجال دولته . ثم امتنع عن الشعر ، فحبسه الرشيد لانه لم يلبّ طلبه ، وما اطلقه حتى قال الشعر الذي طلبه منه .

وادرك المأمون وكان من شعرائه وبطانته ينال جوائزه .

آثاره : ديوانه وليس فيه كل شعره .

اغراض شعره : غزل ومدح ورثاء وهجاء وعتاب واستعطاف ، ثم ترك هذه كلها ووقف شعره على الزهد والوعظ والحكمة والمثل .

زهده : روي انه كان يلبس المسح ويقضي الليالي ساهراً مصلياً ، ثم يدع المسح ويعود سيرته الاولى لاهياً . اما مذهبه في زهدياته فمواعظ ادبية ونظرات في الحياة والموت :

الدنيا زائلة فلنحتقرها ، ولنقنع بما يقيتنا . وزهدياته تخاطب العقل لا العاطفة والقلب .

زهديات ابي نواس صادرة من قلب محترق طافح بحب الحياة ، اما زهديات

ابي العتاهية فكثيرة التكلف ، صادرة عن العقل ، وقد اشتهرت بما فيهـا من حكمة جامعة

قريحته : سيالة ، وقد قال عن نفسه : لو اردت ان اتكلم شعراً لتكلمت . ولكن هذه الدعوى ليست بذات بال فالشعر غير النظم .

وهو لو قال نظماً لـكان اصدق .

ساحة الملوك : ولاجل كثرة الساقط في شعره ، قال احد النقاد القدماء : شعره ساحة الملوك ، في كناستها التراب والذهب .

فنه : شعره سهل جداً ، ولولا الوزن والقافية لكاد ان يكون نثراً . وله في فنه سيرة بخلاف شعراء عصره الخلعاء ، وهذا ما جعل له هذه الشهرة . ولكن لابي العتاهية وثبات لا يستهان بها ، الا انها قليلة بالنسبة لشعره الكثير .

ابو تمام

نسبه : حبيب بن أوس الطائي ، نشأ بجاسم وهي قرية من ناحية منبج في جوار حلب . كان يخدم اباه الحيّاك ، ثم ذهب إلى مصر وصار يسقي الماء في جامع عمر . لم يعمّر كثيراً ، وقد توّفي بالموصل وقبره فيها خارج باب الميـدان على حافة الخندق .

صفاته : شاعر مطبوع ، فطن ذكي ، دقيق المعـاني ، سبق الشعراء إلى المطابقة . السليم من شعره لا يعلق به احد ، ورديئه رذل جداً .

الرأي فيه : مريدوه يفضلونه على كل سابق ولاحق ، وكارهوه يحطون من قدره جداً ، وينسبون اليه سرقة شعر غيره .

دعبل : كان من ألد اعدائـه ، ويقول : ان ابا تمـام كان متبعـاً معانيه يسرقها . روى له محمد بن صابر الازدي من شعر ابي تمام وقال له : كيف تراه يا دعبل ؟ فقال : احسن من عافية بعد يأس . فاخبره انه لابي تمام فأجـاب : ولعله سرقه .

ابراهيم بن العباس : كان يقول له : امراء الكلام رعية لاحسانك .
وقـال فيه ايضاً : ابو تمام اخلام ولم يستمتع بخاطره .

روايتان متناقضتان : روى صاحب الاغاني أن أبا تمام مدح الأمير عبدالله ابن طاهر في خراسان بقصيدة بائية هائية ، فنثر عليه الأمير الف دينار ، فـلم يلتقط منها ابو تمام شيئا ، بل تركها للخدم . وروي ايضاً أنـه أنشد أبا دلف القاسم بن عيسى قصيدة بائية ايضاً فاعطاه خمسين الف درهم واعتذر له .

الحسن بن رجاء : انشده أبو تمام قصيدته اللامية فسمعها واقفاً ، وأحسن صلته على بخله .

معانيه : كان يأخذ كثيراً منها مما يسمعه ، ومنها البيت المشهور :

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ان السماء ترجّى حـين تحتجب

اخذه من مخنث يعاتب صديقاً له .

واتهمه دعبل انه أخذ قصيدته التي مطلعها : « كـذا فليجل الخطب » من مكنف ابي سلمى قالها في رثاء زفافة العبسي .

محفوظاته : كثيرة جداً ، يقال انه كان ينشد اربعة آلاف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقطعات .

كتاب الحماسة: حبسته الثلوج في همذان عند رجوعه من عند الأمير عبدالله بن طاهر من خراسان ، فنزل على ابي الوفاء بن سلامة الذي كان له خزانة كتب نادره ، فطالع فيها كثيراً وجمع كتابه « الحماسة » الذي قيل في ابي تمام بسببه : « انه في انتقاء شعر الحماسة أشعر منه في شعره » .

شعره : يفضل تجويد المعنى على تسهيل العبارة . ولما رأى السلاسة تنقصه عمد الى الجناس والمطابقة والاستعارة ، فأثر ذلـك في شعره وكان ظاهر التكلف .

ديوانه : ديوانه جمعه ابو بكر الطولي مرتباً على الحروف الهجائية ، وجمعه علي بن حمزة الأصبهاني مرتباً على الأنواع .

هو والبحتري – قال عنه : مدّاحة نواحة . وكان يقول ايضاً : جيـد ابي تمام خير من جيدي ورديئي خير من رديئه ، أرضي تنخفض عند سمائه ، والله ما أكلت خبزاً الا به . (لانه استاذه) .

ذاكرته : غريبة جداً . قال البحتري : انشدت سعيد بن اسلم الطـائي قصيدتي : « أأفاق صب في الهوى فأفيقا » وكان عنده رجل لا أعرفه ، فلمـا انتهيت ، قال لي ذلك الرجل: اما تستحي ان تنتحل شعري وتنشده بحضوري؟ وانشد القصيدة برمتها ، فتغير وجه سعيد وخرجتُ من عنده كاسف البال .

وبينا انا كذلك اذا برجل يدعوني ضاحكاً ، فاذا هو ابو تمام فقال : الشعر لك وانما هذه عادتي احفظ القصيدة من مرة .

المتمثل به من شعره ١٥٠ بيتاً .

ومن قصائده المشهورة في المـــدح قوله في المعتصم : « هو البحر من اي النواحي الخ . » وفي هذه الابيات يلتقي بزهير .

بائيته المشهورة : قالها بالمناسبة الآتية : زحف توفيل بن ميخائيل ملـــك الروم على البلاد الاسلامية ، حتى بلغ زبرطة ، مولد المعتصم ، واغار على ملطية وغيرها ، فقتل وسبى كثيرين . ومن جملة السبايا كانت امرأة هاشمية لطمهـــا روميٌّ على وجهها ، فصاحت : « وامعتصماه » . فلما بلغ المعتصم الخــبر كانت بيده كأس فطرح الكأس وصاح لبيك لبيك . ثم جهز جيشاً عرمرماً زحف به على بلاد الروم حتى بلغ عمّورية ، فحاصرها ورماها بالمنجنيق ودخلهـــا وقتل نحو ٩٠ الفا منها .

وهنا لا بد من هذه الحكاية ، فنوردها ملخصة جدا ، قالوا :

عندما طال الحصار على عمورية ، جمع المعتصم المنجمـــين فقالوا : انها لا تفتح الا في زمن نضج التين والعنب . وظهر في ذلك العـــام نجم مذنّب تقوّل المنجمون فيه ، وزعموا مزاعم كثيرة . اما عمورية ففتحت قبل الزمـــان الذي حدده المنجمون ، فقال ابو تمام قصيدته الرائعة ، وفيها ردّ على المنجمين وغيرهم. واليك منها ما يشير إلى الحوادث :

السيف اصدق انباءً من الكتبِ	في حده الحـــد بين الجد واللعبِ
والعلم في شهب الأرماح لامعـــة	بين الخميسين لا في السبعة الشهب
اين الرواية بل اين النجوم ومـــا	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
عجائباً زعمـــوا الأيام مجفـــلة	عنهن في صفر الاصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمـــة	اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبـــة	ما كان منقلباً او غـــير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافـــلة	ما دار في فلك منها وفي قطب

لبيت صوتاً زبرطيـــاً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرّد العرب

اجبته معلنـــاً بالسيف منصلتاً ولو اجبت بغير السيف لم تجب

تسعون الفاً كآ. اد الشرى نضجت جلودهم قبـل نضج التين والعنب

إلى ان يقول :

فبين ايامك اللائي نصرت بهـــا وبـــين ايام بدر اقرب النسب

ابقت بني الاصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه، وجلّت أوجه العرب

خلاصة : يعدونه رأس الطبقة الثالثة :

يدقق في المعاني كثيرا ، تارة يهمل الديباجة حتى تبتذل ، وطورا ينمقهـا حتى يظهر أثر التكلف فتعيب .

جعل الشعر صناعة كغيره من الصناعات التي يتكلفها البشر ، حتى لم يترك للسجية اثرا . متأثر بالفلسفة اليونانية الاسلامية .

استغل حكمة اليونان في شعره، فزاد في ثروة اللغة العربية من حيث المعنى.

فتح طريق الحكمة والفلسفة للمتنبي والمعري ، اللذين فاقاه .

تعمده المعاني جعل كثيراً في شعره غامضاً ، وقلة اهتمامـــه جعل في شعره ابياتاً غير قليلة لا يسيغها العربي المعجب بفصاحة لغته .

تعمد الشعر الجاهلي فجاء بالغريب المكروه لفظاً وتركيبا .

يبدع في وصف المرثيات ، يشخّص كل شيء ، ومتى اتقدت عاطفته اختفى التكلف الذي يظهر في اكثر شعره . وقد اشتد الاعجاب به من اجل قصيدته الأولى : « السيف اصدق الخ . » التي سبق ذكر بعضها ، والثانيـــة في حرق الافشين ومطلعها : « الحق أبلج والسيوف عوارِ » .

ولعلّ أبا تمام هو أوّل الذين دخلوا موضوعهم رأساً ، بدون « مقبّلات » حتى قال فيه احدهم :

يا نـــبي الله في الشعر ويا عيسى ابن مـــريم

انت من أفصح خلق الله ما لم تتكـــلم

قال فيه هذا لانه كان يفأفىء ويتمتم متى تكلم .

منتخبات أبي تمام

في مدح خالد بن يزيد الشيباني :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد ... وعاد قتادا عندها كل مرقـد
وانقذها من غمرة الموت انـه ... وداع فراق لا صدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعاً موردا ... من الدم يجري فوق خـد مورد
هي البدر يغنيها تودّد وجهها ... الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكنني لم أحو وفراً مجمعا ... ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا ... الذ بـه الا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجـدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة ... الى الناس اذ ليست عليهم بسرمد
حلفت برب البيض تدمى متونها ... ورب القنـا المناذ والمتقصد
لقد كف سيف الصامتيّ محمد ... تباريح نار الصامتي محمـد
رمى الله منه بابكا وجيوشه ... بقاصمة الاصلاب في كل مشهد
باسمح من صوب الغمام سماحـة ... واشجع من صرف الزمان والنجد
رأى بابك منك التي طلعت له ... بنحس وللدين الحنيف باسعد

في المعتصم :

اجل ايها الربع الذي خف آهله ... لقد ادركت فيك النوى ما تحاوله
وقفت واحشائي منازل للاسى ... به وهو قفر قـد تعفت منازله
اسائلكم ما باله حكم البـلى ... عليه ، والا فاتركوني اسائله

الى ان يقول :

بمعتصم بالله قد عصمت بـــه عرى الدين والتفت عليه وسائله
فان باشر الاصحار فالبيض والقنا قراه واحواض المنايا مناهـــله .
وان يبن حيطانا عليه فانما اولئـك عقـّالاته لا معاقله
هو البحر من أي النواحي اتيته فلجتّـــه المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنـــه ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجـــاد بها فليتق الله سائله
اذا آملٌ ساماه قرطس في المنى مواهبه حتى يؤمل آمله
عطاء لو استطاع الذي يستميحه لأصبح ما بين الورى وهو عاذله
لهى تستثير القلب لولا اتصالهـــا بحسن دفاع الله وَسوسَ سائــله

في الحسن بن رجا :

يكفي وغـــاك فانني لك قال ليست هوادي عزمتي بتـــوال
انا ذو عرفت فان عرتك جهالة فـأنا المقيم قيـــامة العذال
عطفت ملامتهـا على ابن ملمة كالسيف جاب الصبر شخت الال
عـــادت له ايامــــه مسودة حتى توهم انهـــن ليـــال
لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العـــالي
وتنظري خبب الركاب ينصها محيي القريض الى مميت المـال
قد قلت وهي تنال من عرض الفلا بملاطس في الوخـد غير أوال
احوامل الأثقال انك في غـــد بفناء احمل منـــك للأثقـال
لما وردنا ساحة الحسن انقضى عنـــا تعجرف دولة الأمحال
اغلى عذارى الشعر ان مهورها عنـــد الكريم اذا رخصن غوال
ترد الظنون بنا على تصديقها ويحكم الآمـــال في الاموال
اضحى سمي ابيك فيك مصدقاً بأجل فائدة وأصدق فـــال
ورأيتني فسألت نفسك سيبها لي ثم جدت وما انتظرت سؤالي
كالغيث ليس له اريـــد نواله او لم يرد يد من التهطـــال

وقال يرثي محمدا الطوسي :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

توفيت الآمـــال بعد محمـــد واصبح في شغل عن السفر السفر

وما كان إلّا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

الا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

فتى كلما فاضت عيون قبيـــلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر ان فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده اليه الحفاظ المر والخلق الوعر

ونفس تخاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر

فاثبت في مستنقع الروع رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر

دعبل الخزاعي

حياته : ابو علي دعبل بن علي الخزاعي ، ولد بالكوفة وأقام ببغداد . من متقدمي الشعراء ومجيديهم ، إلا انه كان هجّاء خبيث اللسان لم يسلم من لسانه أحد ، أحسن اليه أم أساء ، ولم يفلت منه خليفة أو وزير او نبيه شأن . فهو عندي الشاعر السياسي حقاً وان تقدمه ابن برد .

قضى حياته كلها شريداً هارباً خائفاً . وقد قال عن نفسه : انا احمل خشبتي منذ خمسين عاماً ، ولا اجد من يصلبني عليها .

اخلاقه : ناكر الجميل ، ينسى العطايا ، وقد هجا الرشيد على احسانه اليه . وزاد على كل هذا اللصوصية ، فكان يكمن للناس ليلاً ، وقد رصد صيرفياً يهودياً طمعاً بما معه ، فقتله ، ولم يكن معه غير ثلاث رمانات في خرقة ، فاشتد عليه الطلب فاختفى في الكوفة .

قيمته : مرّ الهجاء ، جرت بينه وبين الشاعر أبي اسعد المخزومي مهاجاة شديدة . والفرق بينه وبين بشار ، ان بشاراً كان اسفل لفظاً واضيق نفساً وأضعف تأثيراً ، إذ لم يكن لبشار حزب سياسي يحميه ويؤيده .

أما دعبل فكان يدافع عن العلويين ويحتمي عند أهل اليمن .

لغته : هي بالاجمال اصح من لغة بشار ، والكثيرين من معاصريه ، حتى فضّله البحتري على مسلم بن الوليد .

امثلة في هجائه : قال يهجو الرشيد لما مات وقبر في الريّ ، وهناك قبر الرضا من ولد علي بن ابي طالب :

قبران في طوس خير الناس كلهم — وقبر شرهم ، هـــذا من العبر
ماينفع الرجس من قرب الزكي وما — على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت — له يداه ، فخذ ما شئت او فـــذر

في المأمون :

ايسومني المأمون خطـــة جاهل — او مـــا رأى بالامس رأس محمد
اني من القـــوم الذين سيوفهم — قتلت اخاك وشرّفتك بقعـــد
شادوا بذكرك بعد طول خموله — واستنقذوك من الحضيض الأوهد

في المعتصم :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة — ولم تأتنـــا عن ثامن لهم كتب
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة — خيار اذا عـدوا ، وثامنهم كلب
واني لأعلي كلبهم عنك رفعـــة — لانـــك ذو ذنب وليس له ذنب

وقال في قيام الواثق بالله وموت المعتصم :

الحمد لله لا صـــبر ولا جـلدُ — ولا عزاء اذا اهل البـلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احـــد — وآخر قـــام لم يفرح به احـــد

العصر العباسي الاول

النثر : تقدم النثر خطوات في آخر العصر الاموي على يد عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر بني امية .

كان الانشاء في العصر الاموي آلة الخطابة التي كان لها الشأن العظيم في سياسة الدولة . فلما ضعف أمر الخطابة في العباسيين بانحلال الاحزاب وضعف الحياة السياسية ، وتسلط العجم واعتماد الدولة على الاقناع بالسيف ، أصبحت بضاعة الخطابة كاسدة لا يلجأ اليها الا في الحفلات الكبرى . بيد انه حل محل النثر الخطابي نثر آخر ، وهو :

١ – نثر الدواوين الذي يصدر عن الخلفاء والوزراء .

٢ – نثر التوسل بين الناس ، الذي حل محل الشعر ، فصار يعبر فيه عن جميع أغراض الشعر .

٣ – نثر التأليف وقد شمل الموضوعات الادبية والوعظ والارشاد والعلم والسياسة وكل فن .

٤ – النثر الذي عُبّر عنه بـ « الادب الوصفي » ، وبه تناولوا الشعر والنثر القديمين بالنقد .

وكما تنوع النثر تنوعت اساليب الكتّاب فيه . فمنهم من كان يوجز ، ومنهم من كان يطنب ، ومنهم من كان وسَطاً بين الإيجاز والاطناب ، ومنهم من كان ينمّق ويسجع ، ومنهم من كان يرسله على السجية .

وفي كل حال اصطبغت الرسائل بالصبغة المدنية الحضرية ، فسهل الانشاء

ولان فجاء منمقاً كالطراز الموشّى .

طاهر بن حسين : وممن اشتهروا بالرسائل : طاهر بن حسين . له مجموعة رسائل ضاعت ، الا رسالة واحدة كتبها لابنه عندما ولاه المأمون مصر ، فيها وصايا بجميع ما يحتاج اليه ديناً وخلقا وسياسة ، وهي مدونـة في مقدمة ابن خلدون .

اما اشهر من عرف في هذا العصر من الكتّاب فهو ابن المقفع .

ابن المقفع

نشأ أبوه المقفع ، واسمه دازويه ، في ولاء آل الاهتم ، وهم بيت فصاحة ولسَن في الجاهلية ، فنشأ المقفع وابنه مستعربين فصيحين . كان المقفع عاملاً للخراج زمن يوسف بن عمر والي العراق ، فظهرت عليه خيانة في مال الدولة ، فضربه الأمير ضرباً تقفّعت منه يده ،فسمي المقفع . أما ابنه روزبة «ابن المقفع» فنشأ في البصرة يتكسب ببضاعة أبيه ، فخدم في دواوين العراق ، آخر زمن بني أمية ، وجمع بين ثقافتي العرب والعجم .

قرأ آداب الفرس والهنود ، وكتب الحكمة التي ترجمها كسرى أنوشروان من اليونانية ، فجعله كل هذا واحد زمانه .

اتصل في العصر العباسي بواليي البصرة والاهواز وكتب لهما ، وهما عمّا ابي جعفر المنصور .

وكان اذ ذاك لا يزال مجوسياً على دين زرادشت. فكتب وترجم لهما وللخليفة المنصور بعض كتب الادب وكتب الفلسفة المنقولة عن اليونانية ، ثم أسلم على أيديهما وسمي بعبدالله .

أما سبب موته فمختلف فيه . فمنهم من قال ان والي البصرة قتله لاتهامه بالزندقة والكيد للاسلام ، ومنهم من قال أن المنصور عبدالله بن علي خرج عليه فهزمته الجيوش فاستجار بأخويْ المنصور سليمان وعيسى. فطلبه المنصور منهما، فأبيا تسليمه الا بأمان خطي . فكلفهما المنصور ان يكتبا الأمان ليوقعه، فأمرا ابن المقفع ، فاحتاط في كتابة الأمان كثيراً حتى لا يجد فيه المنصور مخرجاً

للاخلال بعهده . فأغضب ذلك المنصور ، فأغرى بـــه والي البصرة سفيان بن معاوية فقتله .

ولد ابن المقفع سنة ١٠٦ ومات في الأربعين .

كان ابن المقفع كثير الاستهزاء بهذا الوالي ، ويقولون ان هذا الوالي كان ذا أنف طويل وان ابن المقفع كان اذا دخل عليه قال : السلام عليكما ، وهـذه رواية لا تصدّق .

ثقافته : كان ابن المقفع نتاج ثقافةفارسية عميقة واسعة لقّحت بلقاح عربي ، فكان من هذا وذاك أدب جمّ ، فهو مدين في أكثر معانيه للفرس ، وفي اساليبه والفاظه للعربية . عاش في العصر العباسي عشر سنوات وشاهد ، كما شاهد غيره من الموالي ، اضطهاد العرب واحتقارهم لهم .

شخصيته : ابن المقفع قويّ في خلقه وعقله وعلمه ولسانه . كان نبيلاً كريماً يحافظ على الصداقة جداً ، ويوصي باختيار الاصدقاء ، يدفع نفسه الى المثـــل الأعلى ، يرغب جداً في اصلاح الراعي والرعية ، متمسك بآداب اللياقة ، دقيق فيما يتطلبه الذوق .

وصفه الجاحظ فقال : « كان فارساً جواداً كريماً جميلاً » .

واسع الاطلاع ، متضلع من اللسانين العربي والفارسي ، نقل خير ما كتب باللغة الفهلوية ، غزير المعاني اذا كتب ، وليست كتابته جوفاء . يمعن في اختيار المعنى ثم يمعن في اختيار اللفظ .

قال محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة اذكى من الخليل ولا أجمع ، ولا كان في العجم اذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

قال جعفر بن يحيى : عبد الحميد وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمَر ، واحمد بن يوسف زهر .

تآليفه : الأدب الكبير والأدب الصغير ، اليتيمة ، رسالة الصحابة ، كليلة ودمنة .

اليتيمة والادَبان : ترجمة وتأليف ، جمع فيهـــا المأثور عن ذوي العقول

الراجحة من كل الأمم .

اليتيمة : مفقودة ، وغلطاً اطلقوا اسم اليتيمة على الادب الكبير .

الادب الصغير : كلمات حكمية في الاخلاق اشبه بالمأثور من كلام علي . من أمثلته : أربعة اشياء لا يُستقل منهـا القليل : النـار والمرض والعدو والدّين . وبسبب هذا العدد قالوا : أسلوبه رياضي . ولكنــه غير مرتب ، توضع فيه الفكرة حين تسنح او ترد ، احياناً تسند ، مثل قوله: «قالت الحكماء ، وقال »، واحياناً لا تسند .

الادب الكبير : كالأدب الصغير ، كلمات ولكن مجموعهـا أطول ، مرتبة غالباً. أهم ما جاء فيه موضوعان : **الكلام عن السلطان والولاة ومن يتصل بها.** أجاد الكتابة في هذا الموضوع لأنه اتصل بالولاة فلاحظ مـا لاحظ ، اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه ، وكان ركناً من أركانه ومحرراً لوقائعه ومستشاراً في أمره وقارئاً لمثل هذه الأحداث في سير ملوك الفرس .

والموضوع الثاني منه : **في الصديق والصداقة** . وقد أجـاد أيضاً في هذا الموضوع لتأثره به خلقياً كما سبق . فهو يرى في الاصدقاء عمـاد الحياة ومرآة النفس ، ولا عجب ان احتاج الى الصديق الوفي وهو منقطع لا رحم له . شهد ديناً جديداً ، ودولة تسقط ودولة تقوم ، متصل بالخلفـاء والولاة ، نزّاع الى الاصلاح ، لا يـدري متى يفتكون به . لا يخفي النصيحة ولا يسكت عن ضعف ، يصف العلاج بلا حذر . فمن كان في مثل هذا الموقف يحتاج الى صديق يخلص له الارشاد .

فهذان الكتابان أثر من الثقافة الفارسية ، فيهما حكم كثيرة ونظم عديدة ، لا يخلوان من الثقافة اليونانية ولكنها ضعيفة الأثر فيهما .

رسالة الصحابة : ويعني بالصحابة الولاة والخلفاء . يرجح انه كتبهـا للمنصور ، وهي كتقرير في نقد نظام الحكم إذ ذاك ، ووجوه اصلاحه .

ذكر فيها اولاً غفلة الولاة وعجزهم عن القيام بالاصلاح ، ووصف الحـالة الاجتماعية بقوله : « وأمة إن أخذت بالشدة حميت ، وإن أخذت باللين طغت».

ثم ابتدأ بشرح حال الجند الذين لم يكن لهم نظام يتقيدون به . ونصح أمير المؤمنين ان يحول بين الجند وبين ادارة الشؤون المالية . وأشار بمراعاة الكفاءة بالقيادة وتعليم الجنـــد الكتابة والتفقه بالدين ، ودفع رواتبهم في حينها ، ثم تقصّي احوال الجنود ومعرفة اخبارهم الخ .

وتعرّض لفوضى القضاء الذي لا يرجع لقانون معروف انما هو متروك لرأي القضاة واجتهادهم ، وبذلك تتناقض الأحكام حتى في بلدة واحدة . وارتأى ان ترفع المسائل التي يقع فيها الخلاف إلى أمير المؤمنين . وفي الكتاب تعطيف المنصور على أهل الشام لأن العباسيين نظروا اليهم كأعداء للدولة . وتكلم عن الحجاز واليمن واليمامة . وكانت موضع نقمة المنصور ، إذ خرجت عليه . وسأله ان يولي الصالحين من أهل بيته ، وان تسخو نفسه عن أموالها ، إذا لم يمدها بمال من عنده .

وختم هذا التقرير ، ببيان تأثير الخليفة اذا صلح ، لأن العامة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة ، والخاصة لا تصلح إلا بصلاح الإمام .

كليلة ودمنة : أقدم كتاب خيالي أدبي في لغة العرب ، هنـدي الأصل ، عثر المستشرقون على أبواب كثيرة منه في كتب متفرقة . نقله الفرس الى لغتهم وزادوا عليه باب بعثـــة برزويه ، وباب ملك الجرذان ، (هذا ترجيح) . ويرجحون ان ابن المقفع نفسه زاد عليه باب عرض الكتاب ، وباب الفحص عن أمر دمنة ، وباب الناسك والضيف ، وباب البطة ومالك الحزين .

دفع ابن المقفع الى ترجمة هذا الكتاب ميله الى الاصلاح الاجتماعي ، كما رأينا في الادبين ورسالة الصحابة . ففي كتاب كليلة ودمنـــة يشرح بعض النواحي الاجتماعية شرحا وافيا . ينصح بعدم الاصغاء إلى الحاسد النمام ، والحذر من العدو ، والاعتماد على الصداقة ، ويحث الضعفاء على الاتحاد ليتغلبوا عـــلى القوي البطـّاش ، وينصح باستعمال الحيلة لبلوغ القصد .

عاش ابن المقفع في زمن لم تكن الحرية متوافرة فيه ، وهو ميال للنقد ، ولا يستطيع نقد الخليفة بصراحة لانه نضج في زمان ابي جعفر المنصور الشديـــد

البأس والبطش والسريع إلى إعمال السيف يقطـــع به رأس كل مخالف . فقتل كثيرين بالظنة ، وتذرع في قتلهم بالاتهام بالزندقة . وكان ابن المقفع نفسه احد هذه الضحايا .

ولعل ابن المقفع رأى موقفه مع المنصور كموقف بيدبا مع دبشليم ، فوصف دبشليم الملك بما يتصف به المنصور من العتو والاستبداد بالرعية والاستهانة بها ، وان بيدبا الفيلسوف وعظه ورده الى العدل والانصاف .

لم يستطع ابن المقفع ان يصارح المنصور باكثر مماصارحه به في رسالةالصحابة خوفاً منه على رأسه فعمد إلى ترجمة كتاب كليلة ودمنة — وامثال هذه الكتب تظهر ايام الاستبداد ، كما فعل لافونتين .

ويظهر ما يرمي اليه ابن المقفع في مقدمة الكتاب ، اذ اخفى الغرض الرابع فقال عنه ما يأتي : « والغرض الرابع وهو الاقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف نفسه خاصة » . ويظهر بالاستنتاج ان هــذا الغرض هو النصح للخلفاء حتى لا يحيدوا عن طرق الصواب ، وتفتيح عين الرعيــة حتى يعرفوا الحق ويطالبــوا بتحقيقه . ولعل هذه النزعة كانت من اسباب الايعاز بقتله .

لم يترجم ابن المقفع الكتاب ترجمة حرفية ، بل عدّله ليتفق والذوق العربي الاسلامي ، وجعل فيه شيئا جديداً من روح الدين الجديد ، كمجازاة الله بالخير خيرا وذكر جهنم والاخلاص لله تعالى . وقد ظهرت زيادة ابن المقفع من الاطلاع على النسخة السريانية التي ترجمت سنــة ٥٧٠ م ووجدت في احــد اديار ماردين ونشرت سنة ١٨٧٦ م .

وعلى توالي العصور ، دخل على ترجمة ابن المقفع شيء كثير لان النسخ التي بين ايدينا تختلف عنها اختلافا كثيرا . وفي كتاب « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة » لابن الهبّاريّة ، اختلاف في ترتيب الابواب ، وليس فيه باب الحمامة ومالك الحزين ، وسمى فيه ايلاذ وبلاذ وهيلار وبيلار .

تأثير الكتاب : لقد أثر هذا الكتاب في اللغة العربية جدا . فمنهم من نسج

على منوال لغته واسلوبه وعبارته ، ومنهم من حذا حذوه ، وكثيرون نظموه شعرا . ولعل اسلوب الف ليلة وليلة في تعليق القصص ببعضها قد أتى من هنا .

ناظموه : أبان اللاحقي ، ابن الهبّارية ، وله منظوم ثالث أكمله عبد المؤمن ابن الحسن الصاغاني .

مقلدوه : ابن الهبارية بكتاب « الصادح والباغم » ، وابن ظفر بكتاب « سلوان المطاع في عدوان الطباع » ، وابن عربشاه بكتاب « فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء » ، وترجم كتاب « مرزبان نامه » . واخوان الصفاء لهم في رسائلهم مناظرة بين الانسان والحيوان من لون كليلة ودمنة . ويظن جولد زيهر ان اسم اخوان الصفاء مقتبس من كتاب كليلة ودمنة ، لانه ورد في اول فصل « الحمامة المطوقة » .

فضل الكتاب : ادخاله القصص المفصلة على الادب العربي . للفرس والعرب فيه فضل المحسِّن ، وللهند فيه فضل صاحب الفكرة وواضع الاساس .

زندقته : قال الجاحظ : « ابن المقفع ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم » . وقال المهدي : « ما وجدت كتاب زندقة الا وأصله ابن المقفع » .

خلاصة : ان مؤونة ابن المقفع في كتبه من الثقافة الفارسية ، وقلّ فيها أثر الثقافة العربية الاسلامية ، لأنه غير متأثر بدين. فحكمه مستمدة من تجارب دنيوية حتى ما يتصل منها بالدين .

لا يعمد الى السجع الا ما جاء عفواً، كلامه من السهل الممتنع . أديب مثقف، فارسي النزعة ، مخلص لأصله ، نشر آداب أمته وسياستها وتاريخها . نبيل سام، وقد جاءه هذا النبل والسمو عن طريق الفلسفة والعلم لا الدين . يصدق ، لان الصدق شرف ورفعة ، لا لان الدين يأمر به . رجل مَدَني ، لم يستند الى آية أو حديث ، أشبه بباسكال في أفكاره .

أسلوبه : جيد ، وان ظهرت فيه العجمة ، رصين القول شريف المعاني، سهل

بيّن رشيق ، يختار الكلمة السهلة الصحيحة الفصيحة ، وربما فتش عنها . جمله خالية من أساليب التفنن في كتاب كليلة ودمنة ، أما أسلوبه في الأدبين فمنطقي ولذلك صعبت جملته .

أخذ شيئاً من اسلوب عبد الحميد . وقد اتّبع اسلوب ابن المقفع كثيرون حتى ظهر الجاحظ .

العلوم اللغوية

علم اللغة : هو البحث في ألفاظ اللغة من حيث وضعها وأصولها واشتقاقها ، وغايته وضع المعاجم ، فلم يتم الا في العصر العباسي الثالث ، غير أنهم انتبهوا اليه في أوائل الدولة الأموية فابتدأوا به ، وكان من أشهر علمائه الخليل .

الخليل : حليم وقور ، طاف في البلاد العربية فوقف على الفاظهم . استاذه ابو عمرو بن العلاء . كان الخليل زاهداً ، مات في خراسان قبل ان ينهي كتاب العين ، فأتمّه تلميذه الليث .

كتاب العين : انتقده كثيرون ، منهم بن مريد . وبقي معروفا حتى القرن الرابع عشر ، فضاع ولم يصلنا منه الا ما نقله سيبويه والسيوطي ، غير ان مختصر الزبيدي له موجود منه نسخة في برلين واسكرباد .

ومن كتبه : كتاب النغم ، وآلات الطرب ، وكتاب العروض .

قيمته : الخليل هو أول من ضبط اللغة ووزن الشعر . له فضل المستنبط لأنه مهد لأصحاب المعاجم والنحاة . وقد كان واسع العلم ، عنده من كل فنّ خبر .

علم النحو

النحو : خوف العرب من فساد اللغة واللفظ المؤدي الى فساد المعاني،دفعهم الى ضبط اعراب الكلمات وتصوير الحركات وتحسينها واعجامها ، ومن ذلك توصلوا الى وضع القواعد .

يقال انهم اتبعوا في ذلك السريان والكلدان في كتابتهم . ويرى رِنان ان كتب اليونان المعربة دفعت العرب الى استعمال قياس لغتهم .

ابو الأسود واضع الحركات بشكل النقط . أخذ طريقته عن الكلدان ، وهو أول من الف في النحو ، على نهج السريان ، وأول فصل وضعه « التعجب ».

قيمته : ان لم يستوعب النحو كله فقد أسس علماً كان شغل العلماء الشاغل ، في العصر الأول والثاني العباسيين . فانقسموا إلى مذهبين : البصري والكوفي ، وزادوا في المناقضات والتعليلات حتى صيّروا كل خطأٍ صوابا .

علماء البصرة أصح حجة وأشد تعقلاً بايراد البراهين . اما علماء الكوفة فمتعصبون لعصبية البدو ، وقد فازوا على البصريين لاسباب سياسية .

علماء البصرة : سيبويه ، وهو من أصل فارسي . لزم الخليل واخذ عنه . قصد بغداد وناظر الكسائي فيها ، إلا ان الخلفاء نصروا الكوفيين عليه ، فنفرَ منهم وعاد إلى بلاد الفرس ومات في قرية اسمها البيضاء .

الكتاب : هذا أثر سيبويه الخالد . قال فيه ابو عثمان المزني : من أراد ان يعمل كتاباً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِ .

يقع الكتاب في ٨٢٠ فصلاً ،في ألف صفحة .طبع في باريس بمجلدين مع شروح

ومقدمة بالافرنسية بعناية المستشرق داريمبورغ ، وطُبع في برلين ومصر .

الجزء الأول يحتوي على الكلم واقسامه والفاعل والمفعول الخ .

الجزء الثاني يبتدىء بما ينصرف وما لا ينصرف والنسبة والاضافة الخ . وفيه باب الوقف وشروطه ، والكلمات الفارسية الأصل .

قيمته : كان لكتابه أعظم أثر ، وهو أساس مؤلفات النحو من ذلك الزمان حتى يومنا هذا . واشتهر من علماء البصرة اليزيدي والاخفش .

علماء الكوفة — الكسائي : أشهر نحاة الكوفة . ولد فيها وخرج إلى البصرة فأخذ عن الخليل ، وقدم بغداد فاقامه الرشيد مؤدباً لابنه المأمون . فارتفعت منزلته عند الخلفاء وتعصبوا له ضد سيبويه ، وهو فارسي الأصل ايضاً . طاف البادية حتى قويت لغته .

آثاره : ألّف في النحو والقراءة والادب والنوادر ، ولم يصل الينا إلا رسالة في لحن العامة ، كتبها إجابة لطلب الرشيد .

قيمته : بانتصاره على سيبويه علا قدر الكوفيين .

ومن مشاهير علماء الكوفة : معاذ الهرّاء ، الفراء ، ابن السِكّيت .

ابن السكّيت : علّم ابن المتوكل « المعتز » ، ثم قتله المعتز لانه كان متعصباً للشيعة ، وأرسل إلى ابيه ديّته عشرة آلاف درهم قائلاً : « هـذه ديّة ولدك رحمه الله » .

قيمته : قصير النظر في النحو . أشهر تآليفه : اصـلاح المنطق ، تهذيب الالفاظ ، شرح ديوان الخنساء وديوان طرفة . وله شعر حكمي الا انه جافّ .

المذهبان : البصري والكوفي : البصرة والكوفة مدينتان أُسّستا على عهـد عمر بن الخطاب . اختلط فيها العرب والموالي ثم صارتاأهم مركز علمي ، فاشتهرتا بعلم النحو واللغة . ثم تفوقت البصرة، ولا يزال مذهبها فائزاً يعوّل عليه النحاة .

الكوفيون أكثر استعمالاً للقياس ، والبصريون أكثر استعمالاً للسماع ، أي كما يلفظ الأعراب البدو .

العلوم الاسلامية

سميت كذلك لانها نشأت عن القرآن الكريم وبسببه . اولها الحديث والسنّة ، وهو ما ورد عن النبي وأقواله وأفعاله وغير مدوّن في القرآن .

الحديث : لما كان القرآن كتاباً دينياً منزّلاً لا يحسن شرحه الا بمعنى واحد يتفق عليه الجميع ، ولما كان من الصعب الاتفاق على هذا المعنى ، أخذ المسلمون يتذكّرون سلفاً عن خلف شرح النبي آيات الكتاب وما قاله في كل معنى من المعاني . فحفظ الصحابة ذلك واخذه التابعون ، ولم ينتبهوا إلى هذا العلم الا في العصر الثالث . وقد هلك معظم الصحابة ومن تبعهم ، وكثرت الاحاديث الكاذبة التي كان يصنفها ذوو الاغراض .

اول مصنف: أول من صنف في الحديث مالك بن أنس، اعتمد على الحديث المتسلسل وعلى اخلاص المحدّثين وأمانتهم .

لقد لعبت الشعوبية دوراً عظيماً في تصنيف الاحاديث واسنادها للنبي ، وغاية هؤلاء إفساد الدين بما يدخلون عليه من بهتانهم .

الفقه : هو تطبيق احكام الشريعة على اعمال البشر لتمييز الحلال من الحرام ويعرف بعلم الدين او الفروع . هذا العلم يقوم به العارفون بامور الدين والقرآن وشرحه وناسخه ومنسوخه كالصحابة والتابعين .

سمي علماء الدين في أول أمرهم « قرّاء » ثم لما انتشرت القراءة سُمّوا فقهاء . اما استنباط هذه الاحكام فعائد إلى إعمال العقل ودرس الكتاب ، وهذا كان سبب اختلاف الشرّاح في الشرح ، والتأويل – التأويل ضد المعنى الحرفي –

والاستنتاج . ولهذا كانت غاية الجميع واحدة ، وهي غرض الشارع في احكامه .

فكان من نتيجة هذا الخلاف ان قسم الشرح قسمين : طريقة أهل الحجاز في الحديث وطريقة أهل الرأي . وعن هاتين الطريقتين تفرقت المذاهب الأربعة :

١ – الحنفي : طريقته الدليل العقلي .

٢ – المالكي : طريقته الحديث .

٣ – الشافعي : مزيج من المذهبين .

٤ – الحنبلي : طريقته التثبّت في الحديث وطرح كل قياس عقلي . وهذه المذاهب الاربعة تكاد تكون واحداً ، وكل الدروب تؤدي الى الطاحون .

البدَع : لم يكد يترجم العرب الفلاسفة الاعجام وتبدأ مدنيتهم بالازدهار ، حتى أخذ علماء الدين يطبقون أحكام العقل على القرآن منتقدين ما جاء فيه مخالفاً للعقل ، فنشأت البدَع .

البدعة : هي كل مقالة مبتكرة جديدة في الدين مخالفة للأصول المرعيّة فيه ، وهي كالبروتستانية في المسيحية .

ومن البدَع الإسلامية : المعتزلة ، الخوارج ، المرجئة .

الفِرَق : كما تفرعت البروتستانية إلى فِرَق مختلفة ، كذلك تفرّعت البدَع الإسلامية .

فالشيعة المعتدلة مثلاً تكتفي بتكريم الإمام علي وذريته ، أما الشيعة المغالية ، وهي مجموعة فِرَق ، فتدّعي الحلول في علي وسائر أمته .

علم الكلام

علم الكلام : هو السلاح ضد البدع ، وهو البرهان على العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، للرد على المبتدعة . موضوعه : معرفة عقائد الدين ، وتطبيق حقائق الدين على أعمال البشر . واضعه أبو موسى الأشعري .

العلوم الدخيلة : كالهندسة والموسيقى والفلسفة ، وهي نتيجة ابحاث المسلمين من رجال العلم بالمدنيات القديمة التي وجدوها أول نهضتهم ، فنقلوها الى لغتهم ، وحفظوا خلاصة علم اليونان والكلدان والسريان والهنود والاقباط ، فدرسوها وأتمّوها وبنوا عليها مدنيتهم وبهذا مهدوا السبيل للنهضة العربية في القرون الوسطى .

ومما يجدر ذكره ان الغزاة العرب كانوا أوفر تساهلاً من جميع غزاة الشعوب الأخرى عن قصد أو عن غير قصد ، لأن هؤلاء اذا احتاجوا الى علوم مغلوبيهم طلبوا اليهم فكتبوا المؤلفات بلغتهم الخاصة دون لغة الغالب . أما العرب فكانوا يحضّون المغلوبين على اتباع دينهم وشريعتهم ولغتهم .

النقل : ابتدأ مع المنصور ، وخفّ قليلاً على زمان المهدي ، وهبّ في زمن الرشيد ، وبلغ شأوه في عهد المأمون . فنقل العرب **عن اليونان** : الفلسفة ، الطب ، الهندسة ، الموسيقى ، المنطق ، علم النجوم .

عن الفرس : السِيَر ، الآداب ، الحِكَم ، التاريخ ، الموسيقى ، علم الفلك .

عن الهنود : الطب ، العقاقير ، الحساب ، النجوم ، الموسيقى ، الاقاصيص .

عن المصريين : الكيمياء .

عن الكلدان : الزراعة ، الفلاحة ، التنجيم ، السحر ، الطلاسم .

ولم يأخذوا شيئاً عن آداب اليونان ولا عن تاريخهم .

تأثير النقل

الالفاظ : اجبر النقلة على ادخال الكثير من المفردات العلمية في تراجمهم ، واكثرها في الطب والفلسفة . فاضطروا إلى اشتقاق الفاظ كثيرة من العربية واستعمالها في غير معناها الوضعي الحقيقي ، وخصوصاً في علم الفقه والبدع الاسلامية وصفات الأدوية ومفاعيلها .

ولم يخلُ تركيب اللغة من هذا التأثر كما سبق فقلنا . وكان تعبير الكتب العلمية وخصوصاً الفلسفية لا يضاهي تعبير الكتب الأدبية متانة بسبب استعمال **فعل الكون ، يوجد ، وكثرة الجمل الاعتراضية ، واستعمال الفعل المجهول ، وادخال هو بين المبتدأ والخبر .**

وكان من التعبيرات الجديدة : اللانهاية واللأدرية واللاضرورة ، الكيفية ، الكمية ، الماهيّة ، الهويّة ، ثم بنقل الألفاظ الوضعية او الاسمية : ماني، ماسية .

الفلسفة : تقسم الفلسفة العربية الى شرقية : ومشاهيرها الكندي، الرازي، ابن سينا .

وغربية أي اندلسية : ومشاهيرها ابن باجه ، ابن طفيل ، ابن رشد .

أما أصلها فواحد تقريباً ، يتفرع منها الافلاطونية المستحدثة التي اشتهرت بأنها توفق بين ارسطو وافلاطون ، وقد زاد عليها العرب التوفيق بين العقائد الدينية والمبادىء الفلسفية — كما فعل المسيحيون قبلهم — . والفضل في هذه النهضة للنقلة ، وهم :

حنين ابن اسحاق : ترجم جمهورية افلاطون ، ومنطق ارسطو ، وما وراء

الطبيعة ، واخلاق أرسطو . هذا الرجل عهد اليه المأمون برئاسة بيت الحكمة ، فعمل ما لا تستطيع ان تعمله الجامع . ولم يكتف بما أحضر له من الترجمة بل كان يطوف بنفسه في البلاد ويحضر الكتب النفيسة ويترجمها .

يوحنا ابن البطريق : ترجم سياسة ارسطو .

يوحنا ابن ماسويه : عرّب كتباً عديدة . غير ان الفلاسفة المشهورين لم ينبغوا الا في القرن الثاني .

التاريخ : ان العناية بانتقاء الحديث والرغبة في جمع الكتب وترجمتها ، وخصوصاً الفارسية منها ، دفعت العرب إلى هذا الفن .

المغازي : لما اطلع العرب على ترجمة الكتب التاريخية الفارسية اندفعوا فألفوا في علم التاريخ ، فجمعوا حوادث دولتهم حادثاً فحادثاً ، ومنها تألف تاريخهم .

ابن عقبة : وأول المؤلفين في هذا ، موسى بن عقبة . وهو الملقّب بامام المغازي لانه دوّن مغازي النبي اي حروبه مع المشركين .

ابن اسحق : ابو عبدالله محمد بن اسحق ، كان له كثير من الاعداء فهرب إلى اقطار عديدة ، ثم التقى ابا المنصور ، فدعاه إلى بغداد وفيها مات .

من آثاره : سيرة الرسول ، ضاعت الا بعض اقسام منها استخرجها أحد المستشرقين الالمان .

قيمته : أول من كتب تاريخ الرسول ، ولا يزال العلماء ينتقون مما جاء في هذه السيرة ومما نقله ابن هشام من الحوادث أو النوادر ، فيمحّصونها ويدرسون تاريخها كي يتوصلوا إلى تأليف تاريخ عن النبي محمد ، ومنهم من قضوا الحياة جادّين وراء هذه الغاية .

الموسيقى : طبيعي تقدم الغناء عند العرب ، لانه كان في الجاهلية يزدهر أوان الأسواق في عكاظ وغيرها .

اما نظرية الموسيقى فلم يتوسع فيها العرب الا بعد ازدهار الترجمة عن اليونان ، فبحثوا في ذلك بحثاً ملياً ، وكان اكثر البارعين فيها من العلماء والفلاسفة ،

وهم يذكرونها كاليونان بين الرياضيات ويجعلون مقامها بعد الهندسة .

وأشهر من الـّف بذلـــك : الفارابي ، والكندي ، وابن سينا ، وثابت بن قرّة .

وقد اشتهر الغناء مع الموسيقى الوترية ، فكان للمغنين مراكز رفيعة في عين الخاصة والاعتبار عند الخلفاء . وقد جمع اخبـــارهم وحوادثهم وبعض طرق صناعاتهم ، ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني .

وأشهر المغنين : ابرهيم ابن المهدي، وابرهيم الموصلي ، وابن اسحق ،وغيرهم.

الطب : أول اطباء العرب الحارث بن كلدة الثقفي ، معاصر النبي . أخذ الطب عن الفرس ، وابنه النضر بن خالة النبي ، وقـــد شايع خصومه فقتله الإمام علي .

وبقي هذا العلم محصوراً ببعض وصفات حتى ترجم العلماء العباسيون كتب ابقراط وجالينوس ، فاصبح للطب مصدران أضف اليهما كثير من معلومات العرب .

اشهر الاطباء : آل بختيشوع ، نصارى نساطرة ، نبغوا في الطب وخدموا الخلفاء العباسيين ٣٠٠ سنة .

جرجس بن بختيشوع : وبختيشوع بن جرجس طبيب الرشيد. اما اشهرهم فجبريل بن بختيشوع. ومن مشهوري اطباء النصارى المقربين: يوحنا بن ماسويه، وحنين بن اسحق . فحنين هذا ترجم كتباً فلسفية وطبية . وكان تأثيره اقوى مجرى الفلسفة .

الكيمياء : منبع التفتيش عن حجر الفلاسفة (معنى ذلك ، الحجر الذي يحوّل المعدن ذهباً) . أول من اهتم بهذا ، الأمير خالد بن يزيد بن معاويـــة الأموي . وأشهر علماء هذا العصر جابر بن حيان .

جابر بن حيان

عاش في الكوفة صابئياً . أما الكتب المنسوبة اليه عند الغربيين في القرون الوسطى فأكثر من ٢٠٠ كتاب ، المعروف منها ٢١ في مكاتب اوروبا . اكثرها قد ترجم الى اللاتينية والالمانية وطبع في مدن عديدة. نشر منها برتلو الكيماوي المشهور ، خمسة كتب مع ترجمتها للافرنسية .

آراؤه : الجمادات كالحيوانات ، تولد ثم تنمو وتكبر وتموت . في الاجسام مواد خفيفة وثقيلة طيّارة ، الاولى مائية والثانية حية ، وكل هذه الصفات نسبية .

فالكبريت والزرنيخ حيان بالنسبة للطَلْق ، ميّتان بالنسبة للزئبق .

وفي كل التحام كيماوي جسم وروح .

غاية الكيماوي ان يجد روحاً حياً ، واكسيراً قادراً على تحويل الاجسام ، وهذا الاكسير هو حجر الفلاسفة ، وهذا الحجر ينتج عن كائن حيّ . وهنا يختلف الكيماويون في حقيقته ، فالبعض يقولون دم أو شعر أو بيض أو مفرزات . فاذا وجد هذا الحجر وسحق وجبل بالماء مع بعض العقاقير يتحول الى اكسير .

الاجسام الأوّلية سبعة : الزئبق ، الذهب ، الفضة ، النحاس ، الحديد ، الرصاص ، الطلق .

وهي تختلف كمالاً ، فالذهب اكملها. فعلى الكيماوي ان يربي الباقية ، ويقودها الى الكمال شيئاً فشيئاً .

اختلف العرب في امكان الوصول الى هذه النتيجة، فالرازي يعتقد بصحتها، والكندي وابن سينا ينكران .

قيمته : الرأي الشائع ان كل المشتغلين في الكيمياء منذ القدم إلى اليـــوم يخرقون ويشعوذون .

اما علماء عصرنا فرأوا بعد الاختبارات أن مبادىء القدمـــاء لم تكن كلها فاسدة ، وان كانت اعمالهم قريبة من المحال . فنرى مثلاً تحويل المعادن الذي ذكره جابر منذ اكثر من ألف سنة يشتغل بـــه كيماويو القرن العشرين ، وقد توصل بعضهم الى شيء منه . ويعتقد ان أصل المعـــادن الاورجانوس ، وانه بفضل ما توصل اليه من العلوم الكهربائية عن الذريرات الدقيقة التي تتركب منها المعادن ، وكيفية التحامها ببعضها ، قد يكون لآراء جابر قيمة تذكر .

فالاختبارات التي اجراها هذا العالم بخصوص المغناطيس وقيمته ، والتمغنط به ، وفقدان القوة المغناطيسية ، مما كان يعد جديداً في ذلك الزمـــان ، فهو محدد المغناطيس . (حجر يجذب الحديد بقوة روحية لا تلمس ولا ترى . وقد يعرض لهذا الحجر ما يفقده تلك القوة دون أن ينقصه شيء من وزنه) .

ونسب اليه علماء الغرب اكتشاف المـــاء الملوكي ، وهو مزيج من حامض الاكلور والحامض النتروني .

ونسبوا اليه الحامض الكبريتي والنتروني ونترات الفضة . وعلى كلّ ، فقد فتح جابر باباً واسعاً لكيماويي العرب وغيرهم من بعده .

الرياضيات

الحساب والجبر – أصل الارقام – . ينسب الغربيون أصل الارقام للعرب ، والعرب ينسبونه للهنود ويدعونها الارقام الهندية .

الخوارزمي : هو أبو عبـــدالله محمد بن موسى الخوارزمي ، لا نعرف من حياته إلا انه كان في بغداد على عهد المأمون .

آثاره : له في الحساب كتاب طلبـــه المأمون فاختصره عن كتاب الحساب الهندي المعروف بسند هند .

ألّف كتاباً خاصاً بالحساب ترجم إلى اللاتينية . وله أيضاً كتاب في الجبر .

قيمته : للخوارزمي قيمة ثمينة لأنه أخرج الجبر والهندسة من الغشاوة القديمة التي تغطي العلوم الهندسية القديمـــة ، وألبسها الصراحة العربية ، كما يقول المستشرق كرالوفا . ومما اتحف به الخوارزمي عـــلم الرياضيات ، بعض قواعد وطرق اكتشفها وحسّنها . منها قاعدة الخطأين ، ومنها الطريقة الهندسية لحل المربّعات المجهولة ، وهي اليوم تسمى بالمعادلة من الدرجة الثانية .

الهندسة : يونانية الأصل ، أول من كتب فيهـــا الحجاج الحسين من نقلة الرشيد ، فترجم أصول اقليدس ، ثم صلّحها على عهد المأمون . طبعت هـــذه الترجمة في لندن . أما مهندسو العرب المشهورون فسيأتي ذكرهم .

الفلك والنجامة : ترجم الحسين المذكور كتاب بطليموس ، وكان أول عالم في هذا الفن ابراهيم بن حبيب الزاري . ألّف جداول حساب العرب وصنع اسطرلابا . وخلفه ابن محمد فدرس طريقة النجامة الهندية .

ومن علماء هذا الفنّ يعقوب بن طارق ، كان يعاصر هؤلاء وهو مذكور بين المهندسين الذين خططوا بغداد .

الفيزياء : استفاد العرب في أول عهد العباسيين اشياء من علم الحيل في اثناء نقلهم عن اليونان . ولم يشتهر هذا العلم مع علمَي الهندسة والنجامة الا عندما نبغ ابناء موسى وابناء شاكر وقسطا بن لوقا والفيلسوف الكندي ، وسيأتي الكلام عنهم .

الادب في العصر الاول

الرواة : الاديب عند العرب هو العارف ببعض العلوم أو بها كلها .

وعلومهم : النحو واللغة والتصريف والعروض واخبار العرب وانسابهم .

وقالوا : الأديب ، هو كل من يلمّ باحسن كل علم ، اما العـــالم فهو من يتقن فناً من العلم .

وعلى كلٍّ ، المراد بالادب جمع اقوال العرب واشعارهم وامثالهم واخبارهم ، مع النظر في صحتها للاستعانة بها على تفسير القرآن وضبط الفاظه وتفهم اساليبه اخذاً بقول ابن العباس : « اذا قرأتم شيئاً من كتاب الله لم تعرفـوه ، فاطلبوه من اشعار العرب لان الشعر ديوانهم » .

ظهر هذا الفن في الدولة الأموية ، لحاجة الفقهاء إلى معرفة عـادات العرب القديمة وأقوالهم وطرق تعبيرهم ، ليتمكنوا من فهم القرآن وشرحه . فاختص رجال عديدون بدرس الشعر القديم مع حفظه ، ودرس الأمثال وأخبار العرب وغير ذلك . وعلى هذه الطريقة أخذ الأدب العربي ينمو رويداً ، فما توطـدت اركان الدولة العباسية حتى نضج هذا العلم وألّفت فيه الكتب . على انــه لا يسع الباحث الا أن يتساءل : هل هؤلاء الرواة صادقون فيما قالوا ؟ وهل نقلوا رواياتهم عن رجال ثقة ؟

الجواب : كثيرون من الرواة شكّ الاقدمون في صدقهم ، ومنهم حماد وابن الكلبي وخلف الأحمر .

غير ان المحققين من رواة العصر العباسي الثاني ، مثل ابي الفرج الاصبهاني وابن عبد ربه ، وابن قتيبة ، وابي القاسم البصري ، اشتهروا بنقد هـــذه الروايات وتبيين مواضع الضعف منها ، وقد نجحوا في أكثر اعمالهم . ويمكننا القول ان اكثر الاقوال عن شعر العرب مقبولة صحته ، ما لم يظهر لنـــا برهان واضح مقنع على انـكاره .

اما اشهر ادباء او رواة هذا العصر فهم :

ابو عبيدة

حياته : هو معمر بن المثنى ، يهودي الأصل . ولد بالبصرة ونشأ على بغض العرب . كان شعوبياً خارجياً ، مرهوب الجانب ، خبيث اللسان ، ألثغ. يلحن عمداً اذا قرأ أو تحدث . واذا أنشد الشعر لم يقم وزنه . ومن قوله : النحو شؤم كله .

كان قذر الثياب . درس على عمر ابي العلاء ، ودرّس ابا نواس . استقدمه الوزير ابن الفضل الى بغداد ، فكان يؤلف ويجيد . غير انه جرح العرب اجمع بكتابه « المثالب » ، فكثر اعداؤه ، وسمّ بموز فمات . ولم يسر بجنازته أحد لكرههم له . وكان بينه وبين الأصمعي مساماة ومفاخرة .

آثاره : مؤلفاته بلغت المئتين في النحو واللغة واخبار العرب وأيامها ، لم يبق منها الا القليل ككتاب نقائض الفرزدق وجرير . طبع في لندن بثلاث مجلدات سنة ١٩٠٥ .

قيمته : عليم خبير بالانساب والاخبار ، بروي شعراً كثيراً . أجمع الكثيرون على انه مخلص امين فيما كان يذكره ، ولاسيما فيما يتعلق بمفاخر العرب . له الفضل بفتح الطريق لكثير من جامعي أخبار العرب ، كصاحب الاغاني الذي استفاد كثيراً من كتابه « أيام العرب » .

ركيك العبارة ، بخلاف الاصمعي الذي قلّ عنه علماً ، ولكنه يفوقه تعبيراً .
ولهذا قال ابو نواس : الاصمعي بلبـــل في قفص ، وابو عبيدة أديم طُوي على عِلْم .

الاصمعي

حياته : الأصمعي هو عبد الملك بن قريب الباهلي . ولد بالبصرة ، ودرس على عمر بن العلاء ، وتعلم نقد الشعر عن خلَف . استدعاه هرون الرشيد وألحقه بمجلسه . كان شديد التدين حتى تجاوز الحد . رجع في شيخوخته للبصرة ومات فيها . اشتهر بقوة ذاكرته حتى قيل انه حفظ ١٦٠٠٠ ارجوزة .

آثاره : ذكر ابن النديم اربعين كتاباً ، نعرف منها الاصمعيات ، مجموعة شعرية . ورجز العجّاج ، وهو كتاب له في اللغة ، فيه اسماء الوحوش. وكتاب الابل ، وكتاب خلق الانسان ، وكتاب الخيل ، وكتاب الشاء ، وكتاب الدارات ، وكتاب النبات والشجر .

قيمته : حاز شهرة بعيدة في حياته ومماته ، فاصبح اسمه مرادفاً للفظة عالم واديب ومطّلع . ولهذه الشهرة سبب ، وهو كثرة اشتغاله بدرس مجالّ العرب كما في كتاب الدارات ، وأصل مفردات اللغة ومعانيها ، واسماء اعضاء الحيوانات والنبات وغير ذلك . وقد انتصر على خصمه أبي عبيدة بحادثة الفرس المشهورة

محمد بن سلام

اسمه ابو عبدالله بن سلام الجمحي . كان عالماً بالشعر والاخبار . ذكر له ابن النديم كتاباً في بيوتات العرب وآخر في مدح الاشعار .

أشهر تآليفه : طبقات الشعراء ، طبع في لندن . بدأ فيه بنقــد الشعر وطرق روايته وتاريخــه والمنحول منه . ثم قسم الشعراء طبقتين : جاهليين واسلاميين ، وكل طائفة عشر طبقات ، في كل طبقة اربعــة شعراء . وألحق بشعراء الجاهليين طبقــة لاصحاب المراثي ، ثم الحق بهم شعراء القرى وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين .

قيمته : مع محمد بن سلام يبدأ دور تمحيص الشعر . كان الأدباء قبله يروون الشعر عن غيرهم ، اما هو فابتدأ بنقد الرواة ، واخذ يقابل بين الروايات ويفاضل بين الشعراء ، وتبعه الادباء بعده في ذلك . ولكتابه قيمة تذكر وشأن كبير ، ذكره الكثيرون واستشهدوا به ، وكان اول من قسم الشعراء إلى طبقات .

غير ان انتقاده يــكاد ينحصر بايراد احاديث واحكام من تقدمــه . ثم لا يخفى ان تقسيمه هذا ووضعه اربعة شعراء في كل طبقة لما يؤيد الانتقاد .

ابو زيد القرشي

حياته : محمد بن الخطاب ، بصري ، اشتهر بالنحو ودعاه سيبويه بـ «الثقة». صار من مشاهير الرواة في النوادر واللغة .

آثاره : جمهرة العرب : جمع فيه ٤٩ قصيدة ، قسمها إلى سبع طبقات ، كل طبقة ٧ قصائد . صدّره بمقدمة انتقادية في الشعر واللغة ، وأقوال الشعراء ، واختلاف الناس في قيمته ، والمفاضلة بينهم ، وصفاتهم وبعض اخبارهم .

قيمته : كان لهذا الكتاب تأثير لما فيه من نقد الشعراء ، والمقابلة بين لغته ولغة القرآن واقوال الادباء في الشعر والشعراء . غير اننا نرى فيه ما في كتاب ابن سلاّم من عدم الشخصية ، اي لا آراء خاصة .

نقل أحكام الادباء دون ان يرتبها ، ولم يردّها إلى احكام عامة ومبادىء نقدية ليستخلص منها حكماً خاصاً به ، كما هو شأن نقاد اليوم .

وعلى كلٍّ ، فهو قد خطا خطوة وان قصيرة ، ككل شيء في اول نشأته .

العصر العباسي الثاني

العهد التركي

يبدأ العصر التركي العباسي بخلافة المتوكل ، وينتهي بدخول الديلم وتأليفهم الدولة البويهية .

نفوذ الاتراك : امتاز هذا العصر بنفوذ الاتراك فيه وتسلطهم على الخلفاء . أدخلهم المعتصم ، لان امــه تركيــة ، ليقاوم بهم نفوذ الفرس وعززهم المتوكل لكرهه الشيعة والفرس ، (أمر بهدم قبر علي بن الحسين كرهاً)

لقد بلغ من امر الاتراك ان استبدوا بالخلفاء ، فكانوا يقتلونهم وينصبون من شاؤوا منهم ،(فالمتوكل قتله غلام تركي).وعلى عهد ابن المعتزّ بن المتوكل استفحل أمرهم واستبدادهم .

فلما تولى المعتز أحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش الخليفة . فقال من كان بالمجلس : مهما أراد الأتراك . وهكذا كان ، فانهم قتلوا المعتزّ شر قتلة ، وسملوا عيني المستكفي ، وصار القاهر فقيراً فحبسوه ، فكان يلتف بقطن جبة ، وفي رجله قبقاب خشب .

واخيراً صار الخليفة آلة بيد الاتراك يحلف يمين الطاعة لهم .

نفوذ الخدم : ثم جاء نفوذ الخدم في هذا العصر ، ففيهم كان يحتمي الخلفاء من الاتراك . وقد كان للمقتدر من الخدم ١١ الفاً .

وفي هذا العصر انتشرت الرشوة والفساد ، فاصبح كل حاكم يهمه ان يحتفظ لنفسه بما يستطيع الوصول اليه من المال . **وكثر الاغتيال ، فالخليفة يخاف على نفسه من جنده وحشمه ، والحاكم يخاف على نفسه من الخليفـــة ، والوزير يخاف على نفسه من الجميـع . وكان كل هؤلاء معرضــين لتصفية الاموال وحجز الممتلكات** . وقد تقيدت الأفـكار بداعي الاستبداد والقتل .

مميزات هذا العصر الادبية

١ — أثّر الفساد السياسي في الآداب ، ولا سيما ما كان فيها نفسياً كالشعر والانشاء ، وقيدت الافكار ، وقلّ النابغون . وكان للعلوم السبق على الآثار النفسية .

٢ — ظهر انقلاب في الفاظ اللغة ، فتوسعت معاني بعضها حتى خرجت عما وضعت له في الأصل .

٣ — استقرّ الخط العربي على ما وصل الينا . وكان أول من وضع هـــذه القاعدة ، ابن مقلة سنة ٢٨٣ . مات في السجن بعد ان صودرت امواله وقطعت يده ثم لسانه .

مميزات الشعر :

١ — توسع الشعراء في البديع والزخرفة ، وكان قد ابتدأ بذلك بشار وأبو تمام ، فأتمه في هذا العصر البحتري ، وزاد عليه ابن المعتزّ .

٢ — كان شعراء العصر الأول قد ابتدأوا مع ابي نواس بوصف مجالس الانس والزهريات ، فتوسع نظامها في هذا العصر ، ولطفت تشابيهها مع ابن المعتز .

٣ — اخذت العلوم الفلسفية تؤثر بالشعر ، فظهر التلميح اليها في هذا العصر . على انها لم تزدهر إلا في العصر الثالث ايام المتنبي ثم المعرّي .

٤ — ان التضييق على الحرية ، وعـــدم التبسط في الاغراض السياسية ، وضعف شوكة الاحزاب المختلفة ، أثرت في الآداب النفسية ، فقلّ عدد الشعراء

ولم يشتهر منهم إلا اصحاب الشاعرية القوية .

٥ — كان من نتيجة ذلك انهم بـــدأوا يتذمرون ويتشكون من ذهاب من يعرفون قدر الشعر ، على حدّ قول ابن الرومي :

ذهب الذين تهزهم مدّاحهم   هـزّ الكلام عـوالي المران

٦ — نبغت طبقة من الكتّاب الذين انتقدوا الشعر وروايته ، فـكانوا في العصر السابق ينظرون فيه بلا تمحيص ، فصاروا بهذا العصر يتدبرون معانيـه واساليبه بعين النقد ، حتى أخذ هذا الفنّ يستقل عن بقية الفنون .

ابن الرومي

أصله : من اسمه تعرف انه رومي الأصل غير عربي ، وهو من السوقـــة . غالى الذين ترجموا له ودرسوه فنسبوا إلى أصله أشياء كثيرة رأوها في شعره .

خاصياته :

١ ـ طول قصائده ، وهذا دليل على كثرة أفـكاره .
٢ ـ هجوه مر بذيء احياناً ، يخرجه بشكل صورة هزلية .
٣ ـ خلّاق للمعاني النادرة ، يأخذ الافكار المبتذلة فيأتي بصور ووجـــوه جديدة لم يسبقه اليها شاعر .
٤ ـ تهافته على المعاني جعل شعره غير منقّى .
٥ ـ مبتدع لا متبع .
٦ ـ أطول الشعراء نفساً .
٧ ـ مضطرب المزاج حاد الشعور .
٨ ـ قصيدته ليست ذات موضوعات متعددة كغيره من الشعراء .

شراهته : تظهر شراهته وحبه للطـّعام من نظمه في الطعام والشراب على مختلف أنواعه .

تطيّره : كان كثير التطيّر، يحبس نفسه اياماً في بيته بلا طعام ولا شراب ، اذا تشاءم .

هجاؤه : كان هجّاء لا يخاف أحداً . وقد قتـــل بسبب هجائه، كما حصل لغيره من شعراء عديدين .

اجاد العتاب والهجاء لأنه تأثّر بمعاملة أهل عصره له ، وإعراضهم عنه ، حتى كان يجوع ويعرى احيـــاناً ، وقد طلب الكسوة والرغيف ، كما نقرأ في شعره .

نحوله : من أسباب نحوله تطويله القصائد إلى حـــدّ يمل ، وقلة حيلته ، وهجوه الأمراء ، وبعده عن الناس لتطيّره ، واسلوبه الذي لم يألفوه .

عبقريته : كان يختلف عن شعراء العرب بفكره وأدبـــه ، ولعلّ لأصله الرومي يداً في ذلك .

نظره للطبيعة : كان يعشقها كأنها من لحم ودم ، وهـــذا ظاهر في شعره . ينظر اليها نظرة طبيعية كأنها أنثى حقاً . وهذا بعض ما قاله فيها :

فهي في زينة البغيّ ولكن   هي في عفة الحصان الرزان

وقوله :

تبرجت بعد حياء وخفر   تبرج الأنثى تصدّت للذكر

الالوان : كان محباً للألوان ، يكثر من ذكرها .

حظه : ولد في خـــلافة المعتصم ، وأدرك الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد ، فلم يؤاسه احد منهم ولا وهبوه شيئاً ، فكان فقيراً . يسمعون قوله في وصف مأكولاتهم ولا يجودون عليـــه بفضلاتهم ، بل كانت توصَد الابواب دونه .

خصاصته : يدل عليها طلبه الثياب ليتقي البرد ، ومنهـــا قوله لأبي جعفر النوبختي :

جعلت فداك لم اسألك   ذاك الثـــوب للكفن
سألتكـــه   لالبسه   وروحي بعد في البدن

ضعفه : اغتصبت داره انثى ، فقال يخاطب الوزير عبدالله بن سليمان :

تهَضّمني انثى وتغصب جهرة   عقاري ،وفي هاتيك اعجب معجب
فلا تسلّمني للاعادي وقولهم   إلا من رأى صقراً فريسة ارنب

أصله : لم يكن هذا الشاعر يتبرأ من أصله كغيره من الشعراء المولّدين ، بل يشير الى أنه مولى بني العباس بقوله :

أنا منهم بقضاء من ختمت رسل الإله بــــه وهم اهلي
مولاهم وغـــذيّ نعمتهم والروم حين تنصّني اصلي

لم يكن كأبي نواس تارة نزارياً وطوراً يمنياً ، واحياناً عجمياً . وقد هجـا اسمعيل بن بلبل لانتسابه إلى شيبان زوراً ، حيث قال فيه :

تشيبن حين همّ بأن يشيبا لقد غلط الفتى غلطاً عجيباً

شخصيته : ساخط على الحياة ، ناقم على العصر وابنائه ، نفسه متألمة جداً من فقره ، قال :

شرُطٌ خولوا عقائل بيضا لا باحسابهم بـــل الانساب
فإذا ما تعجب الناس قالوا هل يصيد الظباء غير الكلاب
لم أكن دون مالكي هذه الاملاك لو أنصف الزمان المحابي

شكله : قد وصفه لنا في هذا البيت :

انا من خفّ واستدقّ فما يثقل أرضاً ولا يسدّ فضاء
ان لي مشية اغربل فيها ...

ومع هذا فقد شاخ قبل الأوان .

سخره : قد كان على حظٍّ كبير من السخر والاستخفاف ، قال :

اطلق الجرذان في الليل وصحْ هــــل من مبارز

وقوله في بخيل :

فلو يستطيـــع لتقتيره تنفّس من منخر واحـد

هجوه : قال يهجو طبيباً :

افنى وأعمى ذا الطبيب بطبه وبكحله الأحيــــاء والبصراء

فاذا مررت رأيت من عميانه ... أمماً على امواتـــه قرّاء

اسباب هجائه :

١ ــ سبّ الناس شعره وانتقادهم له .

٢ ــ قيام الكتّاب والحجّاب في سبيل رزقه ومنعهم اياه من الوصول إلى من يرجو عطاءه .

٣ ــ رد الناس مدحه وحرمانه العطاء كما يتضح لنا من هذه الابيات :

رددت إلي مدحي بعـــد مطل ... وقد دنّست ملبسه الجـــديدا
وقلت امدح به من شئت غيري ... ومن ذا يقبل المـــدح الرديدا
ولا سيّما وقـــد أعقبت فيـــه ... مخازيك اللواتي لن تبيـــدا
ومـــا للحي في اكفان ميت ... لبوس بعدما امتلأت صديـــدا

عتابه : كان يحاول اولاً الاستمالة باللطف ، ثم بالتذلل ، ثم التذكير بواجب الصداقة ، والمحافظة عليها لانها نادرة الوجود كقوله :

ثم يخفى عليك اني صديق ... ربمـــا عزّ مثله في الغلاء

وهناك اصدقاء يتكبرون عليه يعاتبهم بشدة وقسوة عظيمتين ، ويتهددهم بهجائه المر المقذع ، وهذا عتابه للقاسم :

لاقيتني ساعـــة لاقيتني ... اثقل خلق الله اجفـــانا
كأنما كنت تضمنت لي ... رد شبابي كالذي كانا
او كل ما لم يستطع فعله ... عيسى ولا موسى بن عمرانا
أنت حلول حائـــل عهده ... تصبغك الساعـات الوانا

هو وابن المعتز ــ قيل له : لماذا لا تشبه مثل ابن المعتز ؟ فقال : انشدوني ما استعجزتموني عنه .

فأنشدوه قول ابن المعتز في الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة ... قـــد اثقلته حمولة من عنبر

فصاح : واغوثاه ! هو ابن خليفة يصف ما في بيته ، وانا أي شيء اصف ؟
وانشدهم قوله في وصف قوس قزح :

وقـــد نشرت أيدي الجنوب غمائما   من الجو دكنا والحواشي على الارض
يطرّزهـــا قوس السحاب باخضر   على احمـــر في اصفر اثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائـــل   مصبّغة والبعض اقصر من بعض

وله في وصف قالي الزلابية وخباز الرقاق ، شعر نفيس .

وله في هجو الورد بيتان مشهوران يدلان على دقة تصوير ولكن بلا ذوق .

خلاصة : اطول الشعراء نفساً ، طبعه حادّ ، كثير الانتاج ، حاد الشعور حتى الهوج . مشوش المزاج إلى حد التطيّر . شعره سلس ، سهل الالفاظ حتى الركاكة . بارع في عتابه ، لسانه مرّ في هجـــائه . هجّاء في معرض الرثاء . قصيدته ذات موضوع واحد ، لا تنقّل فيها .

ادعى انه عباسي كما مرّ بك ، وفي إحدى قصائـــده برهن على انه متشيّع ومتعصب لهم . ولو حظي بمن ينقّي له شعره ، لـــكان له أروع ديوان .

البحتري

نسبه : هو الوليد بن عبدالله ، وينتهي بطيء بن أدد بن يعرب بن قحطان.

كنيته : ابو عبادة ، ولقبه البحتري .

منزلته : شاعر فصيح ، حسن المذهب ، نقي الكـــلام ، مطبوع . حسن التصرف في جميع انواع الشعر إلّا الهجاء .

هجاؤه : عندما دنت وفاته أمر ابنه بحرق كل ما قاله في الهجاء .

تشبيهه : كان يتشبه بأبي تمام وينحو نحوه في البديـع ، ويتخذه إماماً . وقد قال عن نفسه انه تابع له .

ابو تمام : ساعد البحتري لما رآه بحمص ، فكتب لأهـل المعرة يوصيهم بـه خيراً فوظّفوا له بأربعة آلاف درهم فكان أول مال أصابه ، وهذا كتاب أبي تمام لأهل المعرة : « يصل كتابي هذا على يد الوليد بن عبادة الطائي ، وهو على بذاذته شاعر فأكرموه » .

قذارته : كان من أوسخ خلق الله ثوباً وآلة .

بخله : كان أبخل الناس على كل شيء . وكان له أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعاً . فإذا بلغ جوعهما أشده ، جاءا بكيّين فيرمي اليهما بثمن قوتهما مضيّقاً مقتّراً ويقول : « كُلا ، أجاع الله أكبادكما وأطال إجهادكما » .

من أمثلة بخله : قال أبو مسلم الأصفهاني : دخلت على البحتري فاحتبسني عنده ، ودعا بطعام ودعاني اليه فامتنعت من أكله . وكان عنده شيخ شآم لا اعرفه فدعاه الى الطعام ، فتقدم وأكل معه أكلا عنيفاً . فغاظه ذلك فالتفت

إلي وقال : أتعرف هذا الشيخ ؟ هذا شيخ من بني الهجيم الذين يقولون فيهم :

وبني الهجيم قبيلة ملعونة   حصّ اللحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة   بعمان اصبح جمعهم بعمان

فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك .

ارتجاله : مرت بالمتوكل صبية بديعة جداً ومعها كوز ماء، (اسمها برهان). فسألوها لمن هذا الماء ؟ فقالت لستّي . فقال المتوكل : صبّيه في حلقي ، فشربه وقال للبحتري : قل في هذا شيئاً ، فقال :

ما شربة من رحيق كأسها ذهب   جاءت بها الحور من جنات رضوان
يوماً بأطيب من ماء بلا عطش   شربته عبثاً من كف برهان

الانشاد : أنشد البحتري المتوكل قصيدة ، أولها :

عن أي ثغر تبتسم   وبأيّ طرف تحتكم
قل للخليفة جعفر   المتوكل بن المعتصم
أسلم لدين محمد   فإذا سلمت له سلم

وكان البحتري من أكره الناس انشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيه مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه ومنكبيه ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت قائلا : أحسنت والله ، لماذا لا تقولون لي أحسنت ؟

فضجر المتوكل من هذه الحالة ، فقال للصيمري الذي كان حاضراً : أما تسمع ؟ بحياتي تهجوه . فقال الصيمري :

في أي سلح ترتطم   وبأي كف تلتقم ؟

والقصيدة طويلة يختمها بقوله : وعلمت انك تنهزم .

ففرّ البحتري من الديوان ، وضحك المتوكل كثيراً وأمر للصيمري بالجائزة المعدة للبحتري .

امتيازه: يمتاز في المدح.له مقدرة على تصوير اخلاق الممدوح.أبدع في وصف

القصور البديعة وما فيها من مشاهد كالبرك وغيرها، واشتهر بوصف بركة المتوكل وقصر المعتز بالله .

واشهر قصائده في الوصف ، وصف الايوان بقصيدته السينية .

كتبه – ديوانه : جمعه أبو بكر الصولي على الحروف .

حماسته : له ديوان حماسة . وحماسته كحماسة ابي تمام . الا انها أكثر ابواباً ، تخلو مما تنبو السماع عنه . وله ايضاً كتاب معاني الشعر .

مدحه : من قصائده المشهورة ، تهنئة بعيد الفطر رائية القافية .

ومن قوله في الوصف :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه   من منظر خطر المزلة هائل

وقال في الطيف :

اذا ما الكرى ابدى الي خياله   شفى قربه التبريح او نقع الصدى
إذا انتزعتــه من يديّ انتباهة   حسبت حبيباً راح مني او غــدا
ولم ارَ مثلينــا ولا مثل شأننا   نعذب ايقاظاً وننعم هجــدا

من حكمه :

اقوى العواقب يأس قبله أمــل   واعضل الداء نكس بعد ابلال
والمرء طاعــة ايام تنقـّـله   تنقـّل الظل من حال الى حال

شعره : يجيد سبك الالفاظ أكثر من المعنى . معانيه من وحي الخيال، لا من العلم والمنطق كالمتنبي وابي تمام. فأعاد بذلك للشعر ما فقده من روعة وبهجة ديباجة . شعره عذب جزل فصيح . امتاز بذلك على ابي تمام استاذه ، ونهج طريقته هذه معاصروه ومن جاؤوا بعده ، فعرف باسلوبه هذا الذي دعي بالطريقة الشامية .

خلاصة : جرب أولاً ان يتعرض للشعر السياسي فلم ينجح به لفوات الأوان. فسلك مسلك أبي تمام ، ولكنه توسط بعض الشيء ، فمال الى الناحية العربيــة الخالصة ، فقلل من البديع ودقق في المعاني .

وصّاف ماهر يميل الى وصف الحضارة المادية أكثر من ميله الى وصف المعاني.

مصور ماهر للعواطف الانسانية ، يرثي فيُبكي ، ويستعطف فيستميل ، ويبلغ ذلك بلا عناء . خفيف الروح اذا تغزل ، موفق اذا مدح ، شعره رنان حتى قالوا فيه : أراد ان يشعر فغنّى . وقال هو : من الوفاء اجادة الرثاء .

ومع كل ما تقدم من جمال الوصف ، كان مغروراً بنفسه معجباً بها ، ثقيل الظل ، مبغوضاً . في شعره غثّ ساقط ، الا ان القسم الاكبر منه على جانب عظيم من الطلاوة والدقة ، أو براعة التصرف في المعاني والالفاظ ، ينتقل بفكره الى آخر منطقة .

ابن المعتز

اسمه : عبد الله بن المعتز بن المتوكل .

لقبه : المرتضي بالله .

خلافته : كانت يوماً وليلة ، ولذلك لم يعدّ من الخلفاء .

أوصى المكتفي بالله لابن اخيـــه جعفر بن المعتضد ، ولقبه المقتدر بالله ، وكان عمره ١٣ سنة ، فسادَ الخدم والنساء واستولوا على الأمور ، فصعب ذلك على القضاة والقواد فأوصوا الوزير العباس بن حسن في خلعه ومبايعة ابن المعتز ، فقتلوا الوزير وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ .

بايعوه بالخلافة مرغماً ، وطلبوا من المقتدر ان يخلي دار الخلافة لينتقل اليها ابن المعتز ، فاطاع واستمهلهم للغد ، وفي تلك الليلة فرّ إلى الموصل ولم يبق في الدار الّا خادمه مؤنس ، وخازنه موسى . فبلغ ذلك ابن المعتز ، فسار ومعه وزيره محمد بن داود وظن ان الجند يتبعه فخذل ، واختفى مع وزيره خوفاً من الغوغاء التي انتشرت في بغداد ثلاثة ايام .

مقتله : فلما رأى المقتدر ضعف خصمه ، عاد إلى بغداد في العسكر وقبض على خصومه فقتلهم ، اما ابن المعتز فاختفى عند ابن الجصّاص ، فعرف المقتدر مكنه وقبض عليه ، وقتل خنقاً ، ولُفّ في كيس وسلّم لأهله هكذا .

صفاته : حسن الاخلاق واسع الاطلاع على زبدة العلوم وفنـــون الادب ، كثير المطالعة ، مولع بالشطرنج ، حسن المذاكرة ، شريف الهيئة يحب الطيب والتضمخ به ، جذل طروب . جواد عـلى أهل الأدب بماله ، كان لا يخرج من

عنده أديب او نديم إلا بصلة وطيب . وكان يشرب معتمداً على عفو الله :

واشربهـــا وازعمها حرام   وارجو عفو رب ذي امتنان

البديع : مغرم به لدرجة قصوى ، وخصوصاً في الاستعارة والتشبيه . وهو أول من ألّف في البديع ، جمع منه ١٧ باباً ثم عقبه قدامة فزاد ١٣ باباً ،وجاء بعدهم كثيرون فزادوا عليه حتى بلغ ما بلغ .

البلاغة : حددها بقوله : هي البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام .

في نديم : قال في نديم ُجدّر ولم يؤثر به الجدري :

لي قمر ُجدّر لمـــا استوى ،   فزاده حسناً فزادت همومي
أظنه غنّى لشمس الضحى   فنقّطته طربـــاً بالنجوم

النميري : صلّى النميري صلاة خفيفة وسجد سجدة طويلة جداً فقال فيه :

صلاتك بـين الورى نقرة   كما اختلس الجرعـة الوالغ
وتسجد من بعدها سجدة   كما ختم المزود الفـــارغ

عطفه : قال في مغنية محسنة ولكنها قبيحة :

قلـــبي وثاب إلى ذا وذا   ليس يرى شيئـــاً فيأباه
يهـــيم بالحسن كما ينبغي   ويرحم القبح فيهـــواه

وصفه : كان مولعاً في الوصف الى حد بعيد يتقنه جـــداً . وأكثر شعره قوامه الوصف الدقيق في أشياء كثيرة ، وخصوصاً مجالس الأنس وما اليها .

القمر : هجا القمر ، مخالفاً بذلك شعراء الزمن ، فقال :

يا سارق الانوار من شمس الضحى   يا مثكلي طيب الكرى ومنغصي
أما ضياء الشمس فيـــك فناقص   وأرى حرارة نارهـــا لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائـــل   متسلخ بهقـــاً كلون الأبرص

الخلافة : الابيات التالية تدل اصدق دلالة على ابن المعتز وميوله :

قليـــل هموم القلب إلا للذة   ينعّم نفساً اذنت بالتنقـــل

فان تطلّبه تقتنصه بحانــة والا ببستان وظل مظلل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان او علي

سخطه :

كن جاهلاً أو فتجاهل تفز للجهل من ذا الدهر جاه عريض
والعقل محروم يرى ما يرى كما ترى الوارث عين المريض

من رائع شعره قوله :

عجباً للزمان في حالتيه وبلاء وقعت منه اليــه
رب يوم بكيت فيه فلمــا صرت في غيره بكيت عليه

وهذا وصفه موكب الصلاة على المعتصم :

قضوا ما قضوا من حقه ثم قدّموا إماماً يؤمّ الخلق بين يــديه
وصلوا عليه خــاشعين كأنهم صفوف قيام للسلام عليــه

ومن بديع وصفه ، وهو يدل على حبه السَمَر :

وأبكي اذا ما غاب نجم كأنني فقدت صديقاً أو رزئت حميا
فلو شقّ من طرف الليالي كواكب شققت له من ناظري نجومــا

وقد نُسب اليه موشح لطيف جداً أطلبه في موضعه . ولا نستطيع ان نقول عن الاسبقية ، ألهُ هي أم لغيره من الاندلسيين .

في غلام :

رشأ يتيه بحسن صورتــه عبث الفتور بلحظ مقلتــه
وكأن عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنتــه

في الهلال :

أنظر الى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا

كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

زهده :

ولقـــد قضت نفسي مآربها وقضيت غيّـــاً تارة ورَشد
ونهار شيب الرأس يوقظ من قد كان في ليل الشباب رقد

وقال : أعاذل قد كبرت على العتاب وقدضحكالمشيبمن الشباب
رددت الى التقى نفسي فقرت كما رد الحسام الى القـــراب

آخر ما نظم :

يا نفسُ صبراً لعل الخير عقباكِ خانتك من بعد طول الأمر دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتـــني اياك طوباك
ورُبَّ آمنــةٍ كانت شبيهتها ورُبَّ مطلقة من بين اشراك
أظنه آخر الايام من عمري ويوشك اليومَ ان يبكي لي الباكي

مذهبه : يظهر انه حنفي بدلالة قوله في الخمر المطبوخة وهو معنى بديع :

خليلي قد طاب الشراب المورّدُ وقد عدتبعد النسك والعود احمد
فهاتا عقاراً في قميص زجاجة كياقوتة في درة تتوقـدُ
يصوغ عليها الماء شبّاك فضةٍ له حلق بيض تحـــل وتعقد
وقتني من نار الجحيم بجرهــا وذلك من احسانها ليس يجحد

الطرديات : وله في الطرديات شعر كثير جيد لا محل لذكره هنا .

أثاره : ديوانه ، كتاب البديع ، مختصر طبقات الشعراء ، أشعار الملوك ، كتاب الشراب .

حياته : ملاهٍ وأنس — حياة ملوك — شعره مرآة حياته .

خلاصة : رجل عربي قحّ ، ترفّع عن بذيء اللفظ ومبتذل المعنى . جميل الأفكار ، مختـــار اللفظ ، دقيق التعبير . شعره خالٍ من الزلفى ، يحب الفنّ للفنّ . ألهى عقله بالشعر ، كما التهى بالصيد والشراب والزينـــة . هو في

العباسيين كالوليد في الأمويين ، والفرق بينهما أن ابن المعتز شاعر الصنعة ، والوليد شاعر السليقة ، وكل منهما اجاد في ناحيته .

ميزة شعره : رقة وانسجام ، وسهولة لفظ وتعبير ، وهذا ناتج عن أخلاقه وتربيته .

لم يمدح إلا نادراً وعن اقتناع بوجوب المدح . معظم شعره في وصف الجنائن ومجالس الخلان ، وأندية الطرب وجمال الطبيعة ، والصيد والكلاب ، والبواشق والبزان .

أبرع شعراء العرب استعارة وتشبيهاً ووصفاً . فإذا صح قولهم : كلام الملوك ملوك الكلام ، فذلك ينطبق على ابن المعتز في زمانه .

الخلاصة : ان في شعره رقة الملوك ، وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين .

خلاصة عامة

شعراء هذا العصر يمتازون عن الذين تقدموهم بأنهم جمعوا بين الغزل والعلم ، فكانوا شعراء ومؤلفين ، إلّا ابن الرومي فإنه كان شاعراً فقط .

النثر

الانشاء : إمام الانشاء في العصر العباسي الاول ابن المقفع . اطال الجملة وصرفها عن ايجاز الراشدين إلى تنميق عبد الحميد . واشتهر أسلوبه في انشاء كليلة ودمنة ، وهو أسلوب الكتاب أي الانشاء المرسل ، بلا تسجيع ولاتقطيع ، فتبعه الكثيرون ، حتى ظهر الجاحظ في هذا العصر ، فقصر الاسلوب القديم وجعل الجملة قطعاً صغيرة ، وادخل في الدعاء الجمل الاعتراضية ، فتبعه كثيرون حتى أطالوها فأضحت غامضة .

كانت الافكار في صدر الاسلام وما قبله ، جامعة مختصرة عامة غير مفصلة ، فجاء التعبير موجزاً بليغاً . فلما توسع الفكر وفصلت معانيه ، طال الانشاء واتسع . فابتدأ هذا الاسلوب بعبد الحميد ، ثم جاء ابن المقفع فخلا نثره من التسجيع والتقطيع ، لاتصال المعاني بالافكار وخروجها من بعضها البعض ، فكان الانشاء المرسل .

ثم جاء الجاحظ ، وادخل أسلوبه المعروف ، أي عبارات قصيرة كالشعر ولكن دون قافية ووزن . وكان هذا الانشاء عنوان التفكير المفصل غاية التفصيل ، والرجوع إلى الذات .

العلوم اللغوية : عرفنا فيما تقدم كيف نشأ علم اللغة وتوسع ، وذكرنا من مشاهيره الخليل . اما في هذا العصر ، فاتسع هذا العلم توسعاً كبيراً ، وظهرت الكتب المطولة التي مهدت السبيل للمعاجم اللغوية التي نضجت في العصر الثالث . وكان من أشهر اللغويين في هذا العصر : المبرّد .

المبرّد : أشهر تآليفه : « الكامل » ، وهو كتاب أمالي ولغة ونحو . المبرّد يمثل الثقافة العربية في العصور العباسية ، لأنه لم يعتمد على ادب اجنبي ، وهو شديد النزعة إلى العروبة ، وخصوصاً ابناء قومه الذين أشاد بذكرهم في كتابه هذا ، وروى ما له علاقة بامجادهم .

ابن دريد : صاحب المقصورة الدريدية . وله كتاب جمهرة العرب ، وهو معجم مرتب على حروف الهجاء ، وكتاب الاشتقاق ، وهو قاموس في اسماء القبائل العربية .

عبد الرحمن الهمداني : من تآليفه : الالفاظ الكتابية ، وهو كتاب فيه مترادفات ، والفاظ وجمل يستعملها الكتّاب .

علم النحو : فساد ملكة اللسان أدى إلى وضع القواعد . وكان الخليل اسبق الناس إلى ذلك . وسبب فساد اللغة الامتزاج بالاعاجم ومخالطتهم بالسكنى والزواج .

وقد رأيت فيا مضى مذهبي البصريين والكوفيين وغلوهما . أما في هذا العصر فنشأ مذهب بين بين ، وهو مذهب البغداديين . أشهر أركانه **المازني** ، وهو أول من دوّن علم الصرف منفرداً عن النحو .

ثعلب ابو العباس ، الّف كتاب الفصيح المعروف باسمه ، «فصيح ثعلب». وله ايضاً قواعد الشعر وشرح ديوان زهير ، وديوان الأعشى ، وكتاب الامالي المعروف باسم : « مجالس ثعلب » .

فهؤلاء الكتّاب لم ينصرفوا الى اللغة وحدها بل كتبوا في الأدب كما رأيت.

العلوم الدخيلة

النقل : رأينا في العصر العباسي الأول أن جلّ همّ الخلفاء كان لنقــل الكتب العلمية الى العربية ، وظلّ هــذا العمل موضوع الاهتمام في أوائــل العصر الثاني ، فكان خير تمهيد للتآليف العلمية . أما نقلة هذا العصر فمنهم :

أسحق بن حنين : كان طبيباً ايضاً . أكثر منقولاته في الفلسفة عن ارسطو. ونقل كتاب اقليدس .

قسطا بن لوقا : نصراني بعلبكي ، اتقن اليونانية والعربيــة والسريانية ، واتصفت ترجماته باناقة العبارة ورشاقة التعبير .

متى ابو بشر : ابن يونس ، ترجم كتاب ارسطو في الشعر .

يحي ابو زكريا : ابن عدي ، نصراني من اليعاقبة .

العلوم الطبيعية

أشهر فروع علم الطبيعة التي اشتغل فيها العرب في هذا العصر هي : الطب ، الكيمياء ، الطبيعيات .

الطب: اشتهر به **ابو بكر الرازي**، جالينوس العرب، ويسميه الافرنج Rases .

آثاره : كتاب « الحاوي » : ملخص الطب ، كتاب « الجامــع » ، برء الساعة . « الطب المنصوري » : يحتوي على عشرة كتب منها : « الجــدري والحصبة » ، وهو ما ألّف في هذا الموضوع ، وقد بقي زماناً طويلاً الكتــاب

الوحيد من نوعه . طبع في المطبعة الاميركية .وينسب للرازي طريقة استحضار الحامض الكبريتي (زيت الزاج) باستحضار كبريتات الحديد ، وينسب اليه اكتشاف الكحول .

سنان بن ثابت : له عدة رسائل في الطب والهندسة والهيئة والتاريخ ، منها كتاب « التاجي » ، قدمه الى تاج الله عضد الدولة بن بويه .

الكيمياء والتاريخ الطبيعي : أشهر من يذكر في هـذا العلم أبو بكر بن وحشية . اشهر تآليفه كتاب « الفلاحة النبطية » ، كتبـه زاعماً أنه نقله من النبطية . والراجح اليوم انه تأليفه ، ولم يترجمه . أدخل فيه بعض مغامز ضد الاسلام ، يقصد من ذلك أن يظهر بطريقة فنية ما للكلدان من السبق في المدنية وما في ديانة البابليين من الميزة على الاسلام .

الهندسة : للعرب فضل يذكر في علم الهندسة . نقلوا علوم اليونان واوصلوها الى أوروبا في القرون الوسطى مع شروحهم عليها وتعاليقهم . وكان من آثارهم المشهورة أصول أقليدس ، وكتاب المجسطي لبطليموس ، والكتاب الخـامس والرابع من مخروطات فولبوس .

ثابت بن قرة : أما المشهورون في الرياضيات فهم: ثابت بن قرة، ترك نحواً من ١٥٩ تأليفاً في العربية و١٦ في السريانية ، أهمهـا ترجمة المجيسطي لبطليموس .

شرح كتاب ارسطو ، وكتب مقدمة أصول اقليدس . وله رسالة في حل الصعوبات الموجودة في جمهورية افلاطون .

كان صابئي المذهب ، قطع من مجمع قومه لآراء انكروها عليه . عاش بين منجمي المعتضد مقرباً منه ، يقبل اليه دون وزرائه وخاصته . وكان ايضاً من المبرزين في الطب والفلسفة ، ومن القلة المشهورين .

ابناء موسى شاكر : محمد واحمد والحسن . كان أبوهم في حداثته حراميـاً ثم تاب .

اشتهر ابو جعفر محمد في الهندسة والنجوم ، واشتهر احمد في علم الحيل ، واشتهر الحسن في الهندسة ، وكان وافر المقدرة في الاستنتاج .

فالحسن هذا لم يقرأ في كتاب اقليدس الا قليلا ، اما بقية العلم فاخترعه من عند نفسه . كان له مرصد على جسر بغداد ، أكثر به الأرصاد والتحقيقات في سير النجوم ، وألّف فيها ، هو وسواه ، رسالات عديدة ، وكذلك في الموازين والأشكال المخروطة ، وقياس الدائرة ، وخواص الزوايا .

وقد ترجم كتابه في قياس الأشكال المسطحة إلى اللغة اللاتينية .

مساحة المثلثات : لم يعرف اليونان علم مساحة المثلثات بالمعنى الذي نعرفه اليوم ، أي تلك الطريقة التي تحول الاعمال الحسابية إلى مثلثات وحلّ زواياها . فهذه الطريقة السهلة كان الفضل للعرب في اكتشافها ، فكان علم الرياضيات .

البتاني : ابو عبدالله بن جابر البتّاني ، نسبة إلى بتّان ، ناحية من حرّان . كان اصله صابئياً ، اشتغل برصد الكواكب في الرقّة على الفرات مدة ٤٨ سنة . وكان مرصده كثير الآلات الفلكية ، بعضها من مخترعاته .

آثاره : أشهرها الزيج الصابي ، نسبة إلى دينه . والزيج اسم كل كتاب تعرف به أحوال الكواكب وحركاتها ، ويؤخذ منه التقويم . وهو قسمان ، ذكر فيه خلاصة ارصاده ومراقباته ومعلوماته عن النجوم ومجاريها والفلك وطبقاته . ترجم إلى اللاتينية وطبع مرات . في الجزء الثالث منه يستعين المؤلف بالمثلثات في قياس ابعاد الكواكب .

قيمته : قال ابن العبري : لا يُعرف أحد في الاسلام بلغ مبلغه بتصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها . واننا نتحقق ذلك اذا عرفنا التأثير الذي أحدثته ترجمة كتابه في اوروبا ، حتى كان أعظم الفلكيين يعجب به في أواخر القرن الثامن عشر . وكفى البتاني فخراً استبداله اوتاد الدائرة بالجنوب ، ووضعه لهذه الطريقة علماً اسمه علم المثلثات .

ابو معشر الفلكي : تعلم علم النجوم بعد بلوغه السابعة والاربعين من عمره ،

وكان مدمناً الخمرة .

الفلسفة : اختص العصر العباسي الأول ، من حيث الفلسفة ، بنقل الكتب ، فانتشرت بين المفكرين وطالعوها . لما ظهر العصر العباسي الثاني حتى بدأوا بالتأليف من عندياتهم ، فكان من فلاسفة العرب الاولين : الكندي والفارابي .

الكندي : فيلسوف العرب لانه عربي الاصل ، وهو أمر يستحق الذكر ، فاكثر الفلاسفة الذين كتبوا في العربية كانوا من شعوب غير عربية .

ذُكر له مؤلفات بلغ بها بعضهم المئتين ، ولم يصلنا منها الا بعض مقاطع في العلوم مع أربع رسائل فلسفية بترجمتها للاتينية ، واحدة منها في العقل والمعقول ، وأخرى في العناصر الخمسة : المادة والهيئة والحركة والزمان والمكان .

الفارابي : « المعلم الثاني » ، (الاول ارسطو) ، تركي الاصل ، أتى بغداد وتعلم العربية ، ثم جاء الشام ، وقصد سيف الدولة بحلب وصحبه حتى مات .

آثاره : في جميع العلوم المعروفة في عصره ، أشهرها : « كتاب المدينة الفاضلة » و « السياسة المدنية » ، « وإحصاء العلوم » .

الجغرافيا والتاريخ : هما من العلوم الدخيلة عند العرب . قبل الاسلام ، كان العرب يعرفون مساكن الجزيرة ومحلاتها ، مهتدين بالكواكب بسبب النجعة والقوافل . فهذه معلوماتهم قبل الاسلام . اما بعده ، فشعروا بالحاجة إلى الجغرافيا ، وقد فرض الحج على الجميع فاضطروا إلى معرفة موقع المدينة ومكة وطرقاتها والقبلة ، لاتجاههم اليها وقت الصلاة .

والفتوحات جعلت البلدان تحت سلطة الخلفاء ، فكان من اللازم معرفة مواقعها وبُعد بعضها عن بعض ومحصولاتها ، ليسنّوا عليها الخراج ، وليتمكن اصحاب البريد من الوصول اليها بلا تردد ، فتسهل المواصلات .

كان النقلة قد ترجموا كتاب الجغرافيا لبطليموس فدرسه الناس وتوسعوا فيه ، وكان أول عملهم شرح هذا الكتاب ، حتى كان العصر العباسي الثاني ، فألّفوا

الكتب الخاصة في الجغرافيا العربية . وأهم المؤلفين في هذا العصر همـــا : ابن خرداذبة واليعقوبي .

ابن خرداذبة : فارسي الأصل ، نشأ ببغداد ، واشتهر بكتاب « المسالك والممالك » ، طبع في مجلة اسيوية . منه فوائد كثيرة تاريخية ، فضلاً عن تقاسيم المملكة وطول المسافات بين البلاد .

اليعقوبي : تآليفه : « كتاب البلدان » ، و « تاريخ الخلفاء العباسيين » .

التـاريخ

ولد في عصر الامويين ونضج في العصر العباسي

لم يكن للعرب تاريخ سوى شعرهم في جاهليتهم . امـا في صدر الاسلام ، فـكان من التاريخ سيرة النبي ومغازيه ، والحوادث التي وقعت في ايامـه وايام الصحابة .

نزع العرب إلى تدوين التاريخ في العصر الاموي ، فكتبوا أولاً تاريخ الامم الأخرى ، لرغبة الخلفاء والقواد في الاطلاع على أحوالهم عـبرة واقتداء . وعلى هذا الأساس بنيت أسس التاريخ الاسلامي . فقبـل الاسلام كان تاريخهم في الشعر . وفي صدر الاسلام كان مؤرخوهم الرواة والعارفون بعلم الانساب الذي تتوقف عليه منزلة القبائل والافراد .

اما أول من دوّن في التاريخ فهو عبيد بن سارية .

عبيد بن سارية : الـّف كتاب « الملوك وأخبار الماضين » لمعاوية . وذكر ابن خلـكان تأليفاً لابن منبه ، المتوفي عام ١١٦ ، في ملوك حِميَر وأخبارهم .

اذاً بدء التاريخ يكون حقاً في العصر الأموي ، بالاطراد من مدح المشاهير في تحقيق الانساب لاجل العطاء . انما كل هذا ذهب ضياعاً .

وفي العصر العباسي الأول ، مُهّد السبيل لتأليف التواريخ العامة والخاصة . فكتب ابن هشام سيرة النبي والمغازي والفتوحات .

كتب الواقدي في الفتوحات والمغازي ، ثم وضع ابن سلام طبقات الشعراء ،

ووضع ابن سعد طبقات الصحابة .

وفي العصر العباسي الثاني ، ظهر التاريخ بمعناه الحقيقي . وامتاز هذا العصر بكتابة التاريخ العام الشامل لأخبار القدماء والمحدثين . فانقسم المؤرخون في هذا العصر أربعة اقسام :

مؤرخو الفتوح : وفي مقدمتهم البلاذري — « فتوح البلدان » .

مؤرخو أخبار العرب وشعرائهم وطبقاتهم .

مؤرخو التاريخ الخاص : تاريخ كل بلد وامة على حدة .

مؤرخو التاريخ العام : وابرزهم الطبري .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، فارسي الاصل ، ولد بآمل من أعمال طبرستان . سافر إلى مصر وسوريا والعراق . اقام ببغداد يعلّم الحديث والفقه ، وفيها كتب تأليفه الكبير . كان في أول عهده شافعي المذهب ، ثم اختار مذهباً خاصاً فلم ينجح . اشتهر بقدرته على التأليف . قيل انه كان كل يوم يسوّد أربعين صحيفة على مدة أربعين سنة . وقد توفي ببغداد .

آثاره : أشهر كتبه « **تاريخ الرسل والملوك** » ، طبع بعد تعب كثير وعناية عجيبة باحد عشر مجلداً ، في لندن . وهو تاريخ عام يبتدىء بآدم وينتهي بالطبري صاحبه .

وله كتاب « **تهذيب الآثار** » ، في الفقه على مذهب جديد اختطه لنفسه ، تكلم فيه عن اختلاف الفقهاء الاربعة ، فقال في ابن حنبل : « لم يكن فقيهاً لكن محدّثاً » ، فنقم عليه الحنابلة فضايقوه . ولما مات دفن ليلاً في داره خوفاً منهم .

وله « **التفسير الكبير** » ، طبع في القاهرة .

قيمته : أعظم مؤرخي هذا العصر ، بل العرب في كل عصر ، لانه جمع في كتابه أخباراً عديدة لولاه لخسرناها .

وتاريخه الفريد في بابه هو مختصر تاريخه الأكبر . تراجع تلاميذه عن نسخه فاختصروه .

وهو ، فوق كل هذا ، مفسر وفقيه ضليـع يفوق غيره من المفسرين .

البلاذري : من تآليفه : « فتوح البلدان » . كان شاعراً وكاتباً ومترجماً ، ينقل من الفارسية إلى العربية .

نشأ ببغداد وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز . ذكر في كتابه « فتوح البلدان » أخبار المسلمين خبراً خبراً ، وأنساب الاشراف منهم .

ابو بكر الصولي : ألـّف تاريخاً للشعراء ، رتب اسماءهم على احرف الهجاء. ويعرف بالشطرنجي لانه كان ألعب أهل زمانه فيه . أصله من ملوك جرجان . كان نديم الخلفاء . جمع اشعاراً كثيرة كما فعل السكـّري بالقدماء .

وله تآليف أخر في أخبار آل عباس واشعارهم ، ولكنه لم يتمّه .

الادب

تحوّل الادب في هذا العصر عما كان فيه في العصر السابق ، فتقدم لاسباب ، منها تغيّر عقلية الخلفاء والولاة ، ومعيشة الشعب ، والتأثر بالعلوم المنقولة .

لم تبقَ في الخلفاء تلك الرغبة القوية في الاطلاع على أخبار العرب ومنازعاتهم وأمثالهم وحوادثهم الشعرية التي كانت تدفع الأدباء السالفين ، كالأصمعي وخلف الأحمر وحماد ، الى قطع البراري وتعرُّف القبائل ، لجمع أخبار الشعراء والمتاجرة بها . فانصرف من كان من هذا النوع عن غاية التجارة الى غاية العلم ، فدققوا في صناعتهم ، وأخذوا يشتغلون اشغالاً أخرى الى جانب عملهم الأدبي ، فندر وجود أدباء لم يشتغلوا الا بالادب .

أما الأسباب فلأن البيئة اصبحت غير عربية . فالحكام اعاجم لا تهمهم اخبار العرب وحكاياتهم ، والشعب كأمرائه لا يكترث للعربية . فاعتاض رواته عن الشعر العربي وأخبار العرب ، بالقصص من مصدر غريب ، مثل الف ليلة وليلة .

وكان ان فساد الحكومة ، والنزاع الدائم على الخلافة ، ومصائب الخلفاء وكبار القوم ، دفعت الأدباء الى تعزية جمهور المصابين وتخفيف وقع النكبات بالاقوال الحكمية ، ومبادىء الزهد ، وأخبار رجال الدنيا وأصحاب الفضيلة . فكثرت هذه الأنواع ، واحتلت من كتب العرب مقاماً فسيحاً .

اما ما استفاده أدباء العرب في هذا العصر من كتب الاقدمين ، فهو روح التقسيم والترتيب ، وجمع اطراف الموضوع في مقام واحد ، وفصل كل موضوع عن غيره . فقاموا يميزون بين الادب والنحو واللغة ، يجمعون مظاهر كل فن في

كتب مستقلة ، يبوّبونها بطرق مرتبة سهلة المأخذ .

السكّري : كان من النحاة ، وكان راوية العصر بين جميع الشعراء . وأهم ما بين ايدينا من أشعار الجاهليين وصدر الاسلام الى أيامه ، هو من جمعه .

من تآليفه : شعر القبائل، ديوان الهزليين ، أخبار اللصوص ، شعر الافراد. جمع اشعار الكثيرين من الجاهليين كامرىء القيس والنابغة الخ ...

قدامة بن جعفر ، كاتب بغدادي ،كان أبوه نصرانياً وأسلم في أيام المستكفي.

آثاره : ألّف كتبا عديدة لم يصل الينا منها الّا كتاب الخراج في الجغرافية ، وكتاب نقد الشعر ، ونقد النثر. وهذان الكتابان الأخيران من خير ما كتب في ذلك الزمان .

الوشّاء : عاش في أواخر القرن الثالث للهجرة . أديب ظريف نحوي ، له تآليف لم يصل الينا منها الا كتاب الموشّى ، الفريد في بابه ، وهو يمثل ذلك العصر ، ولاسيا وصف الأدباء ، على اختلاف الطبقات ، بما كانوا يكتبونه من الاشعار عن الشباب والمصائب .

ابن قتيبة ، اديب نحوي قاضٍ، ولد في الدينور فنسب اليها. علّم ببغداد. جمّ المعارف ، واسع الاطلاع ، جريء في قول الحق . ألّف بالحديث والأدب واللغة والتاريخ .

آثاره : كتاب الشعر والشعراء، فيه تراجم الشعراء والمشهورين الذين يعرفهم جلّ اهل الأدب ، ويحتج باشعارهم في النحو وكتاب الله ، وهم المشهورون من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام في زمن المؤلف ، وقد أورد أمثلة من أشعارهم ونظر فيها وانتقدها .

أدب الكاتب : يحتوي على ما يحتاج اليه الكاتب الأديب في صناعة الكتابة من الاطلاع على الآداب والعلوم ، مع اصلاح ما كان يقع فيه الكتاب من الغلط والوهم في معاني الكلمات والتركيب . وقسمه ثلاثة اقسام : ١ — إقامة الهجاء أي الاملاء . ٢ — تقويم اللسان . ٣ — الأبنية .

لُخص هـــذا الكتاب وشُرح ثلاث مرات . وله كتاب الشعر الكبير ،

خطّ بالقسطنطينية . وكتاب عيون الأخبار ، عشرة كتب ، طبع حديثاً في مصر .

وله في غير الأدب كتب عديدة ، منها :

كتاب المعارف : وهو خلاصة تاريخ الخلفاء والصحابة ، ومغازي النبي ، وأحاديث القراء ، وأهل العاهات ، وأخبار ملوك العجم .

الامامة والسياسة: تاريخ الخلافة من وفاة النبي إلى عهد المأمون مع شروطها.

التسوية بين العرب والعجم : فيه تفضيل العرب على العجم .

كتاب الرحّل والنزّل : في اللغة .

قيمته : عالم باللغة والنحو ، والتاريخ والفقه والأدب . وهو أول أديب اشتغل بالأدب إلى جانب غيره من العلوم . أما ما يهمنا الآن فهو قيمته في الأدب .

لقد استفاد كثيراً من علومه المختلفة ، فأدخل روحاً جديداً في الانتقاد . أي انه كان جريئاً تجاوز نقد الظاهر الى المعنى ، ففند كثيراً من مصطلحات الأدباء .

ومن اطلع على كتابه : « عيون الأخبار » ، يرى فيه شيئاً من كل آداب الأمم .

الجاحظ

ترجمته : اسمه ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب . جده عبد أسود كان جمّالاً لعمرو بن الكناني .

ولد في البصرة ، وكان في أول عهده بيـــاع خبز وسمك . لقب الجاحظ لدمامة خلقه ، وجحوظ عينيــــه . استدعاه المتوكل لتهذيب ولده ، فاستبشع سحنته ، فصرفه بعد ان أمر له بشيء من المال .

انتحاله : كتب في أول عهده ، ونسب ما كتبه الى الأقدمـــين كابن المقفع وسهل بن هرون .

سجنه : سجن في عهد المتوكل ، عـــدو المعتزلة . وسبب سجنه طريقته « الجاحظية » المعروفة باسمه ، وهي تخالف آراء السنّة والمعتزلة .

دينه : قال ابن أبي دؤاد : « أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه » .

مرضه : أُصيب في آخر حياته بالفالج ، وفي ذلك قال :

عليل في مكانين   من الأسقام والدّين

وكان يقول : « وماذا تصنع بلعاب سائل ، وشقٍّ مائل ، ولون حائل ؟ » ومما قاله لابن اخته : « لم يبقَ لي من مـــلاذ الدنيا إلا ثلاث : ذمّ البخلاء ، وحكّ الجرَب ، وأكل الحديد » .

مع المبرّد : قال المبرّد : « زرت الجاحظ في آخر ايامـــه ، فقلت : كيف أنت ؟ فاجاب : كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر بالمناشير لما أحس به ،

ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، والامرّ في ذلك اني قد جزت التسعين !

أترجو ان تكون وانت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب خليق كالجديد من الثياب ».

الجاحظية : كان بادىء أمره تلميذاً للنّظام ، والنظام كان يسير على مبادىء ارسطو وتلامذته ، محكّماً العقل في الوحي . اما الجاحظ فرأى جفاف تلك الفلسفة « اليونانية المنطقية » ، فلجأ إلى تطبيق مبادئه على التاريخ والاختبار . فانفرد عن المعتزلة وأسّس مذهباً جديداً في الفلسفة اللاهوتية ، عرف بـ « الجاحظية » .

المعتزلة

مبادئها :

١ – القول بالمنزلة بين المنزلتين ، (كقضية المطهر في الكثلكة) .
٢ – القول بالقدَر ، وان الله لا يخلق افعال الناس بل هم يخلقون اعمالهم ، ومن اجل ذلك يثابون ويعاقبون .
٣ – التوحيد ، اي ان الله ليس له صفات أزلية زائدة على ذاته .
٤ – القول بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولم يرد بهما شرع . اي ان الشرع لم يجعل الشيء حسناً بأمره به .

الجاحظية

اما الجاحظية فتخالف المعتزلة فيما يأتي :
١ – ليس للعباد كسب سوى الارادة ، اما الافعال فجبرية يأتيها العباد طبيعة .

فيستنتج من هذا ان لا فضل لهم بالعمل ، ثم يتخطّى إلى انه لا ثواب ولا عقاب ، كما لا يثاب الانسان ولا يعاقب على تركيب بدنه ولونه .

٢ – أهل النار يصيرون إلى طبيعة النار ولا يدخلون فيها .

٣ – الجاهل بالله معذور والعالم محجوج .

٤ – خلق القرآن .

شكله : كان شنيع الشكل بشع الصورة ، وقد قيل فيه :

لو يخلق الخنزير خلقاً ثانياً ما كان الّا دون قبح الجاحظ

ثقافته : أخذ العربية من المربد ومن الاصمعي وابي زيد ، واليونانية من مناظرة علماء الكلام ومشافهة حنين بن اسحق وابن سلمويه . وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وأخذه عن أبي عبيدة .وتوسع في الثقافات كلها من مطالعة الكتب ، فعرف المسيحية كما فهم اليهودية والمانوية ، فجاءت ثقافته مجموعة ثقافات .

ولقد كان الزمان أكبر مثقف للجاحظ . فولد في خلافة المهدي ، ونشأ في خلافة الهادي ، وشبّ في عهد الرشيد ، وشهد صراع الامين والمأمون ، ونضج في عهد ازدهار المعتزلة ، واشترك في جميع الابحاث العلمية والفلسفية . رأى الفرس وغلبتهم ، والترك وسطوتهم وحلولهم محل الفرس . كما عاين دولة الواثق تنهج نهج المعتصم ، والمأمون يناصر المعتزلة والمتوكل يشرد اصحابها . ومرت عليه دولة المنتصر والمستعين والمعتز ، وهو يعاني الفالج والنقرس ، حتى مات في عهد المهتدي بالله .

فحياة الجاحظ تاريخ قرن بكامله ، وهو زهرة القرون العباسية ، وقد مر في كل اطوار الحياة : من ولد يبيع خبزاً وسمكا بسيحان ،إلى رجل يخالط العلماء ، الى كاتب مثقف يعتني بما ألـّف ، ويمتلك ضيعة تنسب اليه ، ويبني قصراً ،ويقتني عبيداً خدموا في قصور الملوك .

رحل الى بغداد زمناً ، ثم الى دمشق وانطاكية ، وهذه ثقافة جديدة اكتسبها من غير الكتب بدرس طبائع الناس واخلاقهم ومعرفة دخائلهم .

ولهذا ترى في كتبه شيئاً ملموساً عن الحياة . فكأنك تراها وتذوقهـــا من وصفه ، وهـــذا لا تراه الا في كتبه . فكامل المبرد ، واماني القالي ، وعيون ابن قتيبة ، لا تريك شيئاً مما يريك ، مما يجعل كتبه أغزر مصدر لدرس الحياة الاجتماعية في هذا العصر .

كتبه : كتب الجـــاحظ في كل شيء ، من صفات الله الى القيان والحُول والعُور ، والحيوانات والدبابات والحشرات مزج العــلم بالأدب ، نظريات وتجاريب ، اخبار وحوادث واقعية . مزج الشعر الجاهلي بالاسلامي ، بعــلم ارسطو ، بطب جالينوس ، وآي القرآن بالحديث ، ورأي الطبيعيين والدهريين ، واليهودية والنصرانية والزردشتيين والمانويين .

اسلوبه : مزج كل هذه الاشياء ببعضها والقارىء يقبلها منه لخلطه الجـــد بالهزل ، ومزج اللقمة بكثير من الحلوى ، حتى اذا أعدك للبكاء ، رماك بنادرة تمعن منها في الضحك . واضح البرهان ، جزل اللفظ ، سريع التنقل من حكمة بليغة الى نادرة ظريفة . غلبت عليه النزعة الأدبية في كل مـــا كتب ، حتى في كتاب الحيوان . يتخير خير الالفاظ وأحسن التعبيرات ، ويفرّ سريعـــاً من الأسلوب العلمي الى مناحي الأدب ، من شعر أو حكمة أو نادرة .

البيان والتبيين : آخر ما ألّف الجاحظ ، بدأ بالتعوذ من العي ، وساق الشعر في ذمه ، وانتقل الى مدح فصاحة اللسان ، ثم الى اختلاف لغات العرب . وتكلم عن اللثغة ، ومنها انتقل الى عيوب اللسان ، فنحنحة الخطباء ، وعدّد كثيراً منهم ، ثم تكلم عن الالفاظ المتنافرة ، وتوصّل منها الى اللكنة .

هذا في الباب الأول ؛ ثم عقد باباً للبيان ، وذكر بلغاء وخطباء وأنبيـــاء وفقهاء وأمراء . ثم تكلم عن البلاغة واللسان والصمت ، وأسماء كهّان قحطان وعلمائهم وأمرائهم الخ .

أما الجزء الثاني ، ففيه يقول : انه ردّ على الشعوبية . ولكنه روى الاحاديث والخطب والالغاز والحكم ، وتكلم عن اللحن والحمقى والمجانـــين ، وكتب وصايا ونوادر لبعض الاعراب . حتى اذا أتمّ الجزء الثاني جـــاء الجزء الثالث ، وأوله

كتاب العصا في الردّ على الشعوبية . ثم كتاب في الزهد ، تكلم فيه عن النساك وكلامهم واخلاقهم ومواعظهم . ثم باب في دعاء السلف الصالحين والمتقدمين ، ودعاء الاعراب ، ثم مقطعات في نوادر الأعراب وأشعارهم .

الحيوان : كتاب الجاحظ الشهير ، ألّفه لبيان الحجج على حكمة اللهالسامية وقدرته العجيبة الخ ... ومما قاله : ان أهمية الحيوانات جعلت سُوراً من القرآن الكريم مسماة باسمها ، كسورة البقرة ، وغيرها . وهذا الكتاب مزيج ايضاً من جدّ وهزل وحكمة وتاريخ وعلم ، الى لذع واحماض ومجون مكشوف .

ويخبر الجاحظ انه في هذا الانتقال العجيب ، يصادف عناءً ما كان يصادفه لو كتب في موضوع واحد .

أما مصادر هذا الكتاب فكثيرة . القرآن ، التوراة ، الانجيل ، حديث ، أخبار ، أشعار ، أمثال مضروبة . كتب قرأها في فنون شتى ، محادثة أطباء وتجّار وذوي حرَف ، وتجارب جربها بنفسه في الحيوان والنبات ، وسفر وسماع لمن مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى وسلك الاودية .

وفي كل ما حدث لم يقبل عقله خرافة ، بل يهزأ بمن يقبلها . وهو يشكّ ، حتى يجرب وتثبت النظرية . وهو يلاحظ في اجاثه ملاحظات كأنه فيها من علماء هذا الزمان .

إن الثقافات التي وصفنا الجاحظ بها تظهر في كتابه هذا أكثر منها في كتابه الأول .

فمن أهم العناصر التي اعتمد عليها في كتاب الحيوان ، ما كتبه ارسطو في هذا الموضوع ، فنقله ابن البطريق الى العربية ، كما يقول ابن النديم في فهرسته صفحة ٢٥١ .

قد ذكر الجاحظ ارسطو في كتابه باسم صاحب المنطق ، وصرح باسمه أيضاً . إن موقف الجاحظ منه كان موقف العالم الجريء ، فلم يصب امامه بشلل الفكر — كما أصيب ابن سينا وغيره من الفلاسفة في الشرق والغرب ، فلم

يقدموا على مناقشته ـ بل كان يضع أرسطو في مخبره يمتحنه ويجربه ، ويخطئه أحياناً ، ثم يقارن بين قوله وقول شاعر جاهلي أو اسلامي ، ويفاضل بينهما ، فيكون طوراً مع ارسطو وحيناً عليه .

واليك برهاناً هذه الحكاية . قال الجاحظ : زعم صاحب المنطق ان قد ظهرت حية لها رأسان . فسألت اعرابياً عن ذلك ، فزعم ان ذلك حق . فقلت له : فمن أي جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعضّ ؟ فقال : اما السعي ، فلا تسعى ، ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب ، كما يتقلب الصبيان على الرمل ؛ واما الأكل ، فانها تتعشّى بفم وتتغدى بفم ؛ وأما العضّ ، فانها تعض برأسيها معاً . وختم القصة بقوله عن الاعرابي : « فاذا به أكذب البرية » .

فلا يظنن أحد ان كتاب الحيوان لا يتناول إلّا الحيوان فقط ، فالجاحظ فيه كثير التنقل من موضوع إلى آخر ، ففيه شيء من علم الفراسة عن اقليمون ، ومن الطب عن جالينوس ، وكلام عن الفرس واديانهم ، وعن اليهودية والمسيحية ، واشياء لا تخطر ببال .

وقصارى القول، ان كتاب الحيوان معرض لكل الثقافات : عربية ويونانية وفارسية وهندية ، ومعرض أيضاً لثقافات دينية : مانوية وزردشتية ودهرية ويهودية ونصرانية واسلامية .

وقد أثـّر اسلوب الجاحظ هذا فيمن كتب بعده ، فجاءت كل كتب الأدب تقريباً غير مبوبة ، يكثر فيها الاستطراد .

كتاب البخلاء : لم يكتب كاتب في مواضيع مختلفة كما كتب الجاحظ . وقد اعرب في كل موضوع عن مقدرة لا يضارعه فيها احد . فهو في كل موضوع من موضوعاته يعرب عن شخصية جديدة ، وانه في بخلائه غيره في الحيوان والبيان والتبيين . ولعله اول من عني بالاسلوب العلمي في كتاب الحيوان ، وان كان يستطرد إلى حكايات تنفي الملل عن القارىء . وهو اول من عني بالالفاظ الوضعية التي تؤدي الفكرة على حقها ، بالفاظها الوضعية ، وقد صارت هذه الالفاظ أداة للاسلوب الذي ابتدعه .

يخال للقارىء ان كتاب البخلاء حكايات ونوادر مضحكة ، مع انها اعمق

دراسة للنفس البشرية ، تحلل الاعمال وبواعثها واغراضها . فالجاحظ هنا عالم نفساني قبل ان وجد هذا العلم ، ويقارن بلباقة لا توصف بين النظرية والتطبيق، فيجلو لنا الاشخاص ايما جلاء .

كتاب البخلاء تناول ناحية واحدة من النفس ، هي البخل ، فقلبهـا على جميع وجوهها ونظر اليها من كل جانب . ولو عني في جميع مناحي النفس لجاء عمله تاماً ، ولكنه وضع اساساً لهذا العلم وشقّ طريقه للناس ، فلو طلبنا اليوم إلى اكبر علماء النفس ان يحلل نفسية البخيل ، ما استطاع ان يكتب مثل كتاب البخلاء ، لا من حيث التحليل الدقيق ، ولا من حيث الفن الرائع . واذا ضاهاه احد في فن القص قصر عنه في الفكاهـة والسخر العميق .

ولئن كتب موليير واصفاً بخيلاً واحداً ، فالجاحظ لم يدع بخيلاً يفلت منه ، وكل ذلك بروح مرحة ونفسية فكهة ساخرة . مزج الجـد بالهزل ، والفلسفة بالفن ، والتفكير بالاطلاع الواسع .

استطاع ان يكون مصوراً يحسن رسم الشخوص ومزج الالوان . يروح ويجيء بخفة الطير . هو قصصي ماهر يجيد سوق قصته إلى غرضه . واني لأخال الجاحظ قد عرف هؤلاء الاشخاص الذين تحـدث عنهم وعايشهم ، فأحسن تصويرهم ولم يدع منهم خطـاً واحداً .

لست اظن ان احداً يستطيع ان يكتب بمثل هذا التفصيل قصة بخيل كالكندي ، صاحب بيوت الكراء في البصرة . ان الجاحظ مطبوع على الجدل ، ولهذا نرى في بخلائه هذه الصفة بارزة جداً .

خذ مثلاً لذلك عبد الرحمن آكل الرؤوس ، لترى كيف يغوص الجاحظ في الاعماق ، فينتقد ويجادل حتى يشبع نفسه المتعطشة إلى مثل هذا الكلام .

من عادة القصصي ان يعرّفك بمن يتحدث عنه بوصفه لك ظاهرياً ، أمـا الجاحظ فما عمل شيئاً من هذا ، ولكنه رسمه لك نفسياً فتتخيل انت ظاهره .

ان كتاب البخلاء اثر فني فيه روح القصص وحكمة الفيلسوف النـاقد الاجتماعي .

خلاصة : الجاحظ اقدر الناس حجة ، يستهزىء بكل أمر ، حاضر النكتة .
شخصيته بارزة في كل شيء . ففي حياته شخصية بارزة لا تمتزج بغيرها من الشخصيات ، وفي آرائه متكلم شخصي ، وفي انشائه اديب شخصي . هوالرجل الذي يكوّن نفسه ويطبعها على غرار خاص . وكلمة « نسيج وحده » كأنما كتبت لتقال في الجاحظ .

واذا كان الأدب هو الالمام بكل فن ، فالجاحظ هو الأديب ، هو الكاتب الفريد الذي يأسر قارئه ، وان حدثه عن اتفه الأشياء .

الترتيب : لا ترتيب ولا نظام عنده ولا تبويب فيما يكتب ، فاسلوبه هو انه لا اسلوب له ، ان طريقته منبثقة من شخصيته . هو أشبه بديكارت القائل لخادمه : لا تخربط عدم نظام مكتبي .

الجاحظ في الشرق ، كفولتير في الغرب . هو مزيج من كل ما عرفه العرب من ثقافات .

عود الى ابن قتيبة : صاحب عيون الأخبار هذا ، هو بالجاحظ اشبه من حيث امتزاج الثقافات ، وقد الف مثله ، إنما كان أكثر ترتيباً . عاصر الجاحظ وانتقده بأنه يعبث بالدين وبكل شيء .

فهذا رجل جدّ ودين من رؤساء أهل السنة ، مطلع كل الاطلاع على التوراة والانجيل ، وقد أكثر النقل عنها . وبكلمة مختصرة ، نقول : ان ثقافته واسعة دينياً ومدنياً ، ولكن ليس في اسلوبه طلاوة الجاحظ .

تطور اللغة

في العصر الاموي ، كانت الدولة عربية في كل شيء ، خليفة وجنوداً وقواداً وعمالا . كانت العصبية شديدة للعرب ، وسيادتهم على الشعوب قوية . احتقار وامتهان لكل ما هو غير عربي .

لم يحدث تغير جوهري في اللغة ، فما فتئت تجري مجراها وترتقي رقيهـــا

الطبيعي ، حسب العمران الجديد ، دون ان تنتقص او تزيد في افكارهـــا ومعانيها .

في ذلك الوقت تعربت الشعوب الخاضعة لسلطة العرب : فـدانت بدينهم وتكلمت بلغتهم ، وان كان بلحن . ثم تحركت الشعوب المغلوبة ، وانتشر روح الشعوبية بينهم ، وازدادوا يقظة للنهوض عندما رأوا ان الفاتحين الذين غلبوهم لا يفوقونهم بشيء .

وكان الفرس في مقدمة الشعوب الثائرة على العرب . أوجدوا دولة جديدة ، عربية برئيسها وأجنبية بدولتها ،أي برجال الحكومة الذين كانوا من غير العرب، الفرس والموالي . فضعفت العصبية العربية ، وتمكنت الشعوبيـــة ، وتكونت دولة جديدة ، قوامها الفرس وأركانها السريان والترك والبربر ، الخ ... فأخذ كل واحد من هؤلاء الشعوب يخرج من خزائن آدابه ذخائر علومـــه التي طابت للخلفاء ، وما امتازت به امته ، فحصلت ثروة عظيمة للغة ، فزادت ألفاظهـا الوضعية من ترجمة اللغة الاجنبية ، أو بنقلها إلى اللغة العربية بلفظها الأصـلي ، أو بتعريبها . فلطفت العبارة بما أدخل فيهـــا من التجمل والتلطف ، حسب عادات الشعوب المتمدنة .

اما في العصر العباسي الثاني ، فتلاشت تلك العصبية العربيـــة ، وضعفت الخلافة ، واشتدت الدولة الاعجميـــة وقويت . استعان المتوكل بالاتراك لا بالعرب لضرب الفرس ، لان العرب ضعفت ثقتهم بالخليفـــة ، وقلت قيمتهم . فقاوم الاتراك الفرس ، واضطهدوا الخليفة ، واتفقوا مع الفرس بمناضلة العرب . فتسرب الضعف إلى اللغة العربية ، فاصبح بعض الأمراء يدفعون الكتبة ليؤلفوا بلغة أجدادهم ، ويقصوا أخبار قومهم كالدقيقي والفردوسي .

العصر العباسي الثالث

ضعف الخلفاء : في أيام القاهر كان مبدأ دولة بني بويه وذلك سنة ٣٢٠ . أدى إلى ذلك استبداد الاتراك بالسلطة ، فاختل نظام الملك ، وكثرت الفتن والثورات ، فاستقل كل حاكم بالبلاد التي يحكمها .

وفي سنة ٣٢٣ اضطر الراضي ان يقلد محمد بن رائق الوزارة وامارة الجند ، ولقبه أمير الأمراء . وخطب لابن رائق في البلاد على المنابر ،وفوّض اليه الخراج في جميع البلاد . ومن ثم أصبحت الخلافة رسماً دينياً صورياً ، وأصبح الخليفة وليس بيده من سياسة الملك شيء ، بل الأمر كله بيد أمير الأمراء ، وليس للخليفة الا الخطبة والسكّة ، بل يشركه في الخطبة أمير الأمراء .

فانقسمت المملكة هكذا : لم يبقَ للخليفة غير الخلافة وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق . اما باقي الاطراف فكانت :البصرة بيد ابن رائق ،وخوزستان بيد أبي علي محمد بن الياس ، والري وأصفهان والجبل في يد ابن بويه ركن الدولة ، وهو وشمكير بن زيار يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد الأخشيد محمد بن طفج — وأخشيد لقب ملوك فرغانة ومعناه ملك الملوك — والمغرب وافريقيا في يد القائم العلوي ، والاندلس في يد الناصر الأموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر الساماني ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين وعمان في يد ابي طاهر القرمطي .

اما الراضي ، فمات سنة ٣٢٩ وهو آخر خليفة انفرد بتدبير الخلافة ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة كانت نفقته وخدمه وحجابه وكل شؤونه على قواعد الخلفاء المتقدمين . أما امارة بني بويه ، فأعلنها المستكفي ولقب صاحبها معز الدولة ، ولقّب أخاه حسناً ركن الدولة، ولقّب أخاه علياً عماد الدولة ، وضرب أسماءهم على النقود . ولما عزم المستكفي على الفتك بابن بويه ، شعر ابن بويه بذلك فخلع الخليفة سنة ٣٣٤ وسجنه حتى مات ٣٣٨ .

وسلب بنو بويه كل سلطة الخلافة ولم يبقَ للخليفة إلا كاتب يدير أملاكه . واستعاد معز الدولة بن بويه مدناً كثيرة حتى بلغ ما لم يبلغه قبله إلا الخلفاء .

أما دولة الفاطميين ، فظهرت سنة ٣٥٨ على يد جوهر القائد ، فبايع الناس الفاطميين وانقطعت الخطبة عن بني العباس ، وبنى جوهر القاهرة لاسكان الجند فيها . وأول خليفة دخلها هو المعز سنة ٣٦٢ ، ثم ملك دمشق وغيرها .

وفي أواخر هذا العصر ، ضعفت الدولة الأموية في الأندلس حتى انقرضت سنة ٤٠٧ ، بعد ان دامت ٢٦٨ عاماً . وقسّمت فامتلك كل عامل المنطقة التي كان يحكمها ، كما جرى في الدولة العباسية . وظلت تنتقل في أيدي ملوك الطوائف إلى أن خرجت من المسلمين تماماً في أيام بني الأحمر سنة ٨٩٧ .

اللغة في هذا الطور : رأيت فيما تقدم تجزؤ الدولة . وفي كل هذا لم يستغن الأمراء عن اتخاذ اللغة الفصحى العربية لغة رسمية في التعبّد والتعليم والسياسة . إلا ان هذه اللغة اصطبغت بصبغة قومية في بعض أحوالها .

فارس والعراق : فالفرس في العراق وفارس وخراسان حاولوا انشاء آداب جديدة بلغتهم الفارسية الحديثة . فأفلحوا في الادب ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يجعلوها لغة العلم والاشتراع والتعليم والسياسة ، لخلوها من الاصطلاحات الحديثة . فظلت اللغة العربية صاحبة النفوذ والسيادة في جميع الممالك الشرقية التي اشتقت من الدولة العباسية ، يبذل كل ملك جهده في ترغيب العلماء والأدباء

والكتاب والشعراء والاطباء والمهندسين في الاقامة عنده ، تأييداً لملكه وزينة لدولته .

فبقيت سوق الأدب رائجة أكثر من قرنين ، ثم اضمحلت بالتدريج بتغلب النزعات القومية ، وانقراض العلماء والأدباء المطبوعين بطابع الدولة العباسية ، حتى خرج التتر في أواسط القرن السابع ، وخربوا تلك الممالك وقتلوا علماءها وبددوا كتبها . فجمدت اللغة العربية في أواسط آسيا جموداً لم تنتعش بعده .

الشعر : عاش شعراء كثيرون في هذه الممالك الشرقية يكتبون في دواوينها، ويمدحون وينادمون ويعلمون في مدارسها . ومنهم من كان يتنقل من مملكة إلى أخرى . ولم يجاروا شعراء الشام ومصر والجزيرة والأندلس لأنهم في بيئة أعجمية . ومع ذلك سلكوا مسلك الشعراء المتقدمين في اغراضهم من مديح وغزل ورثاء ووصف وفخر ، بضعف قليل في البلاغة واختراع المعاني .

إنما حدث **الشعر التهكمي المضحك على لسان ابن سكرة وابن حجاج في بغداد** ، ثم انتشر هذا النوع ، وهو بمنزلة جرائدنا الهزلية اليوم .

وظهر نوع آخر ، وهو شعر فلسفي يشرح بعض الحقائق الفلسفية وحركة الاجرام السماوية ، كشعر ابن سينا والرازي وابن التلميذ الطبيب ، وشعر آخر صوفي رمزي نشأ في العراق ثم انتقل الى الشام ومصر ، كما في شعر الحلاج والشبلي والقشيري .

وهجر الشعراء استعمال الغريب من اللفظ والعويص من الاسلوب، واستعملوا الفاظاً أعجمية واصطلاحات فنية ومحسنات بديعية وألفاظ مجون وسخف .

اما المعاني المخترعة فكانت في شعر البغداديين ، لانهم فاتحو باب الهزل ، وهو الفن الجديد . ولكن بين شعرائهم الهزليين شعراء ألمّوا بالمعاني الشريفة والاخيلة الرائعة وتنزهوا عن الأسلوب الخليع ،كالشريف الرضي ومهيار الديلمي .

وقد كان شعر أهل العراق عامة أرق اسلوباً وأفصح لفظاً من شعر أهل فارس وخراسان .

مصر والشام : انتشر العرب في مصر والشام ، بعد الفتح الاسلامي ،

لخصبها وقربها من الجزيرة ، فغلبت لغتهم وآدابهم ودينهم على لغة الروم والقبط . ولما ضعفت بغداد ، وقعت مصر في ايدي الطولونيين فالاخشيديين فالفاطميين غنيمة باردة . فكانت مصر اخيراً عاصمة لخلافة عربية علوية ضخمة ذات حضارة عالية ، وعاشت هذه الدولة ٢٧٠ سنة ، فصبغت مصر والشام بصبغتها في بعض الاعتقاد ، وأكثر العادات والاعياد ، وكانت حضارتها في الصناعات اساساً للفنّ العربي الاسلامي ، إلى وقتنا هذا .

أحبّ وزراء هذه الدولة وامراؤها وخلفاؤها العلم والأدب والشعر أقصى محبة . فهاجر الأدباء إلى مصر من كل فجّ ، فجلس الخلفاء للشعراء في الأعياد يستعرضون بضاعتهم وأجازوهم أسنى الجوائز . ولم يخمد هذه الشعلة المدنية الا نشوب الحرب الصليبية ومنازعة مواليهم لهم ، كما أصاب الدولة العباسية ، فأباد صلاح الدين الايوبي خلافتهم الفاطمية ، وأسّس دولة كردية في النسب مستعربة في اللسان والنزعة ، على انقاضها . انتفعت الدولة الايوبية بحضارة الفاطميين ، واحلّت محل مذهبهم الشيعي الباطني ، مذهب أهل السنّة . اما المملكة الايوبية فقوّضها مماليكها التركمان .

الشعر : كانت دار الخلافة معرضاً للأدباء والعلماء والشعراء والكتاب ، يهاجرون اليها من مصر والشام اللتين لم تكونا في شباب الدولة العباسية الا ولايتين مرجعها بغداد ، فكان الشاعر المشهور لا يطير صيته الا اذا هاجر إلى بغداد كما حصل للبحتري وابي تمام.اما الاديب والشاعر والعالم الذين لا يقوون على المهاجرة والاسفار فيظل ذكرهم خاملاً .

ولهذا لم تكن الفسطاط والاسكندرية ودمشق بيئة صالحة في ذلك الوقت لاقامة الشعراء ، ولكن لما ضعفت بغداد قاسمتها مصر والشام العناية بالادب والشعر والفنون ، فعاش فيها شعراؤها ولم يرحلوا إلى غيرها الا قليلاً . والمثل دويلة سيف الدولة الصغيرة في شمالي الشام ، فقد التفّ فيها حول اميرها جمهرة من الشعراء والادباء والفلاسفة والنحاة الخ . من الشام ومختلف الاقطار ، مما لم يرَ مثله في باب خليفة . بل ان شاعر سيف الدولة لم يبالِ بخليفة بغداد

ووزيرها المهلبي عند مروره بها قاصداً عضد الدولة .

فالشعر زمن الايوبيين والفاطميين لم يطـّرد تقدمه، لطول هذا العصر وتقاصر همم الملوك في أواخره عن معاضدة اهله . فانصرف الشعراء اخيراً إلى الخدمة في الدواوين ، وظلوا ينظمون الشعر اما تكمّلاً وتظرّفاً أو تملقاً للرؤساء وتقرباً منهم .

لذلك كان مبدأ هذا العصر بمصر والشام نهاية ما وصل اليه الشعر العربي من الارتقاء ، كما في شعر المتنبي وابي فراس والمعري ، لقرب عهدهم بالعصر العباسي السابق وتأدبهم بأدبه .

واخذ الشعر يتحول رويداً رويداً إلى صورة وطنية قومية ، بسبب ما نشأ في مصر والشام في قرنين من حضارة خاصة ومذاهب مختلفة شيعية وباطنية وصوفية وسنّية ، وكلها ذات تقاليد ورسوم حديثة ، وبسبب ما دهم البلاد من الحروب الصليبية التي غيّرت مجرى الحكم ونظمه وطرق الكسب والمعيشة ، وشغلت الناس عن الاستزادة من العلم والادب .

صفات الشعر بقيت فنون الشعر واغراضه كما كانت قديماً مستعملة في الشام ومصر . ثم استدعت حوادث العصر السياسية وشؤون التربية الخلقية والادبية والثقافة العلمية خصوصاً ، بعض توسع في اغراض الشعر القديمة ، او تنويعها او زيادة عليها ، فكان ما يأتي :

أن توسعَ شعراء الشام في وصف الطبيعة قبل ان تجتاح بلادهم الحروب الصليبية ، ولذلك سببان :

الاول : اتساع مجال الخيال الجميل عندهم ، ووفرته لديهم بجمال بيئتهم وكثرة مناظرها الرائعة ، كالجبال الشاهقة المكللة بالغيوم والثلوج ، وما اليها من المروج ، والجداول ، والحدائق ، إلى صحة الهواء واعتدال الفصول وتميز بعضها من بعض .

الثاني : قرب الشام من العراق ، منشأ الحضارة الاسلامية ومنبت علماء اللغة والشريعة والحكمة ، وقربها من الجزيرة مهد الفصاحة الأوّلي ، وكان

عند أهلها في ذلك العهد بقية منها . واتصالهم بالشام يسّر لهم الاتصال بمصر ، ولذلك نرى سكان شرقي الشام حتى وقتنا هذا من أهـــل البدو أو المتطبعين بطباعهم .

ولقرب الشام من العراق ظلت فيهم ، في مطلع هذا العصر ، ملكة التكمل بالمعرفة والعلم ، والتزود من العلوم الاسلامية ، والفلسفة المنقولة عن الأوائل ، التي رسخت في أذهان نشء هذا الزمان بالعراق والجزيرة وشمالي الشام .

كل هذا من الأسباب التي تنمّي مادة الخيال ، وتجمل صوره وتشكلها بما لا يحصى ، وبما يجوّد اللفظ . ولذلك نجـــد أشهر الوصافين من الشاميين ، مثل كشاجم والصنوبري والوأوأ . فكشاجم فلسطيني من الرمـــلة ، والصنوبري حلبي من شعراء سيف الدولة ، والوأوأ دمشقي ، وهو القائل :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد

وتوسع شعراء الشام في وصف المعارك الحربية ، لكثرة وقوعهـا بين دول الجزيرة والشام ومصر من جهـــة ، والروم والبيزنطيين والافرنج الصليبيين ، بعدئذ ، من جهة أخرى .

فشعراء سيف الدولة ، كالمتنبي وأبي فراس والنامي والببغاء ، وشعراء نور الدين بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، ممن يجيدون وصف المعارك الحربية .

(العماد الاصبهاني والجواني ممن مدحوا صلاح الدين) .

وتوسع شعراء الشام في الحكم والأمثال ، كما فعـــل المتنبي ، ونقد العادات وشرح الفلسفة واحسان معاملة الحيوان كما فعل المعري .

وتنوعت التهاني ، وخصوصاً في مصر ، بسبب الاعياد التي كان يقيمهـــا الفاطميون ، كوفاء النيل ، وفتح الخليج ، ومولد النبي ، والنيروز المصري ، وقافلة الحج .

وتنوع الشعر الصوفي بتنوع الكنايات والرموز عن اسراره بالغزل والخمريات ووصف السير والسرى . ثم خرج عن طريقة الرموز والكناية الى تقرير حقائق التصوف وتقسيم مقاماته وأحواله .

ديباجة الشعر : كان في هـــذا العصر لا يزال رصيناً جزلاً ممزوجاً ببعض الغريب ، ولا سيما لدى شعراء الشام لغلبة البداوة على أهليه ، كما في شعر المتنبي وأبي فراس والمعري .

ولما تغلبت الدولة الفاطمية وغلبت حضارتها وعلومها وفلسفتها ورخاؤها ، مال الأدباء فيها إلى الظرف والتملح في كل شيء . فاستدعى ذلك رقة اللفظ ، ولطافة المبنى ، والميل الى المحسنات اللفظية . فاشتهرت هذه الطريقة في أواخر العصر الفاطمي بين المصريين من أمثال القاضي الفاضل ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه ، وابن مطروح . ثم انتهت بالبهاء زهير ، فتبسط فيها حتى قربت من درجة لفظ العامة ، وسرى هذا الروح الى شعراء الشام .

الشعراء

المتنبي

نسبه : يرجع لابيه المعروف بعبدان السقّاء الذي كان يستقي في الكوفة على جمله لاهل محلة فيها ، اسمها كندة .

ذاكرته : يروون عن قوة ذاكرته انه كان عند ورّاق ، فعرض كتـــاب للاصمعي فيه أكثر من عشرين ورقة ، فاطال أبو الطيب النظر فيه ، فاذا به قد حفظه ، (القصة) .

تحصيله : تنقل به والده عندما رأى نبوغه ، فجاء به الى بـلاد الشام ، فجالس الكثيرين من علماء زمانه ، كالزجاج وابن السراج والاخفش وابن دريد ، وغيرهم .

في اللغة : حصل كثيراً ، حتى سأله مرة ابو علي الفارسي : كم لنا من الجموع على وزن ، فِعلى ؟ فأجابه بلا تردد : حجلى وظربى. قـــال ابو علي : وفتشت كثيراً فلم أجد لهما ثالثاً .

حبه السيادة : دفعه الى طلب السلطة والمجد ، فدعا بعض شبان الكوفـة الى بيعته فبايعوه ، فسجن. فاستعطف الوالي بقصيدة منها :

تعجلت فيّ وجوب الحـــدود وحدّي قبيل وجوب السجود

طموحه : لم يستفد من هذا الدرس ، بل فكر بطمح أعلى ، وهو ادعـاء النبوّة في بادية السماوة . فأخذ يتلو على الاعراب كلاماً منمقاً روى بعضه علي بن

حامد وهو : « والفلكِ الدوار ، والليل والنهار ، ان الكافر لفي اخطـار ، امض على سننك ، واقفِ اثر من قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله » .

فتبعه بعض القوم من بني كلب وكلاب وعبس ، فسجنه لؤلؤ أمير حمص ، ثم استتابه وأخلى سبيله . المعري يكذب الرواية ، أما المتنبي فقد قال عندما سئل عن ذلك : هذا شيء كان في الحداثة .

طمعه بولاية : انصرف المتنبي عن هـذه الافكار الى الأدب ، فكان الشاعر الخالد . ولكنه ظل يحنّ الى السيادة والولاية ، كما يتضح مما قاله لكافور :

وغير كثير ان يزورك راجـل   فيرجع مَلْكاً للعراقـين واليا
اذا لم تنـط بي ضيعة أو ولاية   فجودك يكسوني وكفك تسلبُ

فمن حسنات الدهر الى الادب العربي ان المتنبي لم يوفق في مطالبه الاولى .

سيف الدولة : كان ملك حلب ، محباً للادب يعرف جيّد الشعر ويجيده في بعض اوقاته . أغدق عطاياه على الشعراء منافساً بذلك الخلفاء حتى قال المؤرخون : لم يجتمع بباب أحد من الملوك ، بعد الخلفاء الكبار ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر .

اتصاله به : رآه سيف الدولة في انطاكية عند أبي العشائر الحمداني الذي قدمه الى سيف الدولة وأثنى على مكانته الأدبية .

لزومه له : لزم سيف الدولة فمدحه بما لم يمدح به أحد ، ويكاد ان يكون نصف شعره في سيف الدولة ، فخلد له ذكراً ابدياً .

حساده : وهذا أكثرَ حسّاده والواشين به ، فجرى له مـع سيف الدولة ومع الشعراء حوادث جمة لم يسلم بها شرفه من الاذى ، واهمها ضرب ابن خالويه له بمفتاح فشجّ رأسه .

فترك سيف الدولة ، وسافر إلى دمشق ، ومنها إلى الرملة في فلسطين فمصر .

مع كافور : حل المتنبي دمشق لانها لم تكن في حكم سيف الدولة ، وتعرف يهودياً يعرف بابن ملـّك . فسأله اليهودي ان يمدحه ، فأبى ذلك انفة . وكان

كافور يطلب المتنبي من اليهودي ، فأجابه المتنبي : انا لا اقصد العبد ، وان دخلت مصر فما قصدي الا ابن سيده . فكتب اليهودي لـكافور بذلك .

في الرملة : وملّ المتنبي الاقامة في دمشق ، فسار إلى الرملة ، فخلع عليه اميرها الحسن بن طغج ، وحمله على فرس كريم بموكب ثقيل ، وقلده سيفاً مرصعاً . وعلم كافور بذلك ، فطلبه من امير الرملة .

فذهب المتنبي اليه ، فأخلى له داراً وخلع عليه . فمدحه بقصائد رائعة انتقاماً من سيف الدولة عدو كافور الألد . واليك هذا التعريض :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

ومدح ايضاً سيد كافور ابن الاخشيد ، فاكرمه جداً ، حتى صار يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفّان وفي وسطه سيف ومنطقة والى جانبيه حاجبان من مماليكه وكل منهما بسيف ومنطقة .

طمعه بكافور : مدح كافوراً طمعاً بالامارة ، علّله بها كافور ، ولكنه لم يصدق ، فيئس المتنبي ، وعوتب كافور على اخلافه الوعد ، فقال :

يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد الا يدعي الملك مع كافور فحسبكم .

كافور : عبد اسود مخصيّ ، مثقوب الشفة السفلى ، عظيم البطن ، مشقق القدمين ، ثقيل البدن . كان عبداً لابي بكر محمد بن طغج ، صاحب مصر ، فتوفي عن ولد صغير فانفرد كافور لخدمته واستبد بالملك دونه . ومع كل تلك البشاعة كان داهية ألمعياً .

انفته : لما قنط من كافور خرج حانقاً هارباً من عنده ، ونظم فيه قصائد هجو مرة ومقطعات اليمة . فجدّ كافور في طلبه فلم يدركه ، اما المتنبي فلم يعد إلى حلب بل ذهب إلى بغداد على عهد الخليفة المطيع لله العباسي .

رغب وزيره المهلبي ان يمدحه ، فأبى مترفعاً عن مدح غير الملوك . فاغتاظ الوزير وحرّش به شعراء بغداد فتناوشوه ، فلم يجبهم ابداً . فسئل في ذلك فقال : لقد فرغت من اجابتهم من زمان ، بقولي :

افي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

مع ابن العميد: وقد راسله ابن العميد من أرّجان ، وهو وزير ركن الدولة فمدحه واقام عنده مدة ، وله معه مساجلات عدة .

وقد انتقد ابن العميد قصيدته : بادٍ هواك صبرت ام لم تصبر الخ ..

فاجابه المتنبي بقصيدة يعتذر عن ضعف تلك ، ومطلعها : جـــاء نيروزنا وانت مراده .

واصبح يدقق جداً فيما يقول في ابن العميد النقادة .

مع الصاحب بن عباد : راسله الصاحب بن عباد ولم يكن استوزر فلم يجبه ، فغاظه ذلك منه وتجند لانتقاده واظهار معايبه ، وهذا سبب عدائه للمتنبي .

عضد الدولة : ترك ابن العميد وذهب الى عضد الدولة فحظي عنده وفاز بأمانيه . ولم يطل اقامته عنده بل رجع الى بغداد وودعه بقصيدة كانت آخر ما نظم .

مقتله : خرج من شيراز ميمماً بغداد ومعــه كثير من الأموال والتحف ، فاعترضه فاتك بن جهل الأسدي مع عدة من اصحابه فاقتتلا ، فقتل المتنبي وابنه محمد وغلامه مفلح .

السبب : هجوه ضبة ابن اخت فاتك هذا. حذر المتنبي من المكيدة ابو نصر الحلبي ، فاجابه المتنبي ابنَجو الطير تخوفني ومن عبيد العصا تخاف علي ، والله لو ان مخصرتي هذه ملقاة على شاطىء الفرات ، وبنو اسد عطاش خمس ، وقــد نظروا الماء كبطون الحيات، ما جسر لهم خف أو ظلف أن يرده . معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين .

فقال له أبو نصر: قل ان شاء الله.فقال : هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب آتياً .

دفاعه : قاتل المتنبي حتى احسّ بالضعف، فعمد الى الفرار . فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وانت القائل :

الخيل والليل والبيـــداء تعرفني   السيف والرمح والقرطاس والقلم

فأجابه أبو الطيب : قتلتني ، قتلك الله . وحمل على الاعداء فقتل .

رثاؤه : رثاه معظم شعراء زمانه .

كبرياؤه : ادت به الى المبايعة والنبوة والموت .

كان يرى نفسه مساوياً للملوك والامراء بل اعظم كثيراً منهم. وكان يشترط على ممدوحيه الا ينشدهم الا جالساً، وألّا يقبّل الارض بين ايديهم . ولما سئل ان يعيد انشاد قصيدته واقفاً ليسمعها كل الجمع ، قال : لكل امرىء من دهره ما تعودا . . . وهو مطلع القصيدة المذكورة، وأعاد انشادها جالساً . وقد قال فيه من رثاه :

كان من نفسه الكبيرة في جيش ، ومن كبرياه في سلطان .

بخله : يروي مبغضوه عنه قصصاً كثيرة في البخل ، لا محل لذكرها هنا .

ديوانه : لم يعن بديوان شاعر كما عني بديوانه ، فقد شرحـــه كثيرون ، وكثيرون كتبوا كتباً بشأنه .

سير شعره : لم يتناقل شعر شاعر تناقل شعر المتنبي ، فما كان ينظم قصيدة حتى تتناقلها الالسن وتجوب البلاد . وقد أراد ابن العميد قبل ان يتصل به ان يمحو ذكره فلم يفلح .

شهرته : لم يحز شاعر شهرة المتنبي . أما اسبابها فهي :

١ — مقدرته ونبوغه . ٢— كثرة حساده . ٣— تحامل العلماء والنقدة عليه . ٤ — كان عصره عصر منافسة بين الملوك والامراء . ٥ — اقلاله ، فكل شعره — ٥٤٩٤ بيتاً — ٦ — كان جريئاً في اسلوبه ، يحاول ان يوجد لنفسه اسلوباً خاصاً ، وهذا هو الشاعر .

قيمة شعره : عاديٌّ ومسفٌّ في الشعر الذي لا يلائم فطرته ، ولا يجاريه شاعر في تصوير ما تتألم منه نفسه ، فيرمي الى الابداع والى اتيان ما يتفرد به . فهو شاعر قويٌّ في مبادئه ، قويٌّ في خياله وتصوره ، قويٌّ في فلسفته . شاعر

بما في نفسه من قوة ونبوغ ، يراها فوق كل شيء حتى فوق نفسها .

مدحه : نراه قد بالغ كثيراً في مدحه ، وهذا ناتج عن إعمال قريحة لتروي ظمأ الملوك المتنافسين في ذلك الزمان . ومن لاحظ مدح المتنبي يرى انه كان يعود اليه من مدحه الملوك جزء من المدح يختصّ به نفسه . وهــذا يتفهمه من طالع قصائده المدحية بإمعان .

فخره : قد كان يفخر في كل ما ينظم . يفخر في المدح ، يفخر في الرثاء ، يفخر في الحكمة ، والقوة تتجلى في كل ما يقــول وينظم . حتى كان يؤدّي افتخاره إلى احتقار الملوك . ويفتخر حتى على الفخر كقوله :

وليفخر الفخر انني غـدوت به ... مرتدياً خيره ومنتعــله

حكمته : ترمي إلى القوة والطموح والمطامع الكبــيرة والتفاني والجرأة . ويرى الظلم من طبيعة الناس ، ومن لا يظلم ، فلأنه عاجــز . يحب الوفــاء والصدق ، ويكره كل تصنع .

معتقده : في بعض اشعاره نراه مشككاً ، وفي غيرها نرى له رأياً كرأي الدهريين والعدميين :

تبخــل ايدينا بارواحنا ... على زمان هنّ من كسبه

فهذه الارواح من جــوه ... وهــذه الاجسام من تربه

تدينه : لم يكن متديناً ، بل كان رجلا مادياً يحب المال ، يعتقد انه سبب كل عظمة وشرف وفرح في الحياة . ويظهر عدم تدينه من عدم احترامه للانبياء ، وذكرهم كأحد افراد الناس .

افكاره : عزي اليه سرقات كثيرة من حيث الافــكار . فمنهم من قال ان افــكاره الفلسفية مأخوذة عن ارسطو ، وفي كتاب الوساطة شيء كثير ، يدل فيه مؤلفه على المواطن التي يتفق فيها المتنبي مع الشعراء الذين تقدموه .

التعقيد : اعتماده على المعاني جعل في شعره كثيراً من التعقيد ، وارتكب جوازات كثيرة ، ومخالفات كثيرة لما ألفه العرب قبله . واستعماله الثقيــل

والضعيف أكثر السفاسف في شعره . قد اكـــثر استعمال التصغير للتحقير والازدراء .

الخلاصة : كان المتنبي في شعره كمن يلقي درساً على الانسانية جمعاء . وكان يرى ان كلامه القول الفصل ، يقطع في كل ما يقول ، كأن لا خلاف عليه ، ولا يعبأ برأي سواه .

وهذا جعله مبتدعاً لا متبعاً .

ابن هانیء الاندلسي

نسبه : هو ابو القاسم محمد بن هانيء الازديّ الاندلسي ، ولد باشبيلية سنة ٣٢٦ ، اتصل بعامل اشبيلية زمن المستنصر الأموي ، فمدحه بقصائد غراء .

اتهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة ، وظهر ذلك الأثر في شعره لوصفه الممدوح بصفات المعبود. فنقم عليه اهل اشبيلية فنصحه عاملها بالهجرة، فهاجر الى المغرب ومدح ولاته من قبل المُعزّ الفاطمي . فاتصل خبره بالمعز ودخل في دعوة الفاطميين فاتخذه المعز شاعراً لدولته .

ولما فتحت مصر على يد جوهر وبنى القاهرة ورحل المعزّ اليها ، أراد ابن هاني اللحاق به ، فتجهز وتبعه ، ولما وصل الى برقة نزل على أحد أهلها ، فاقام عنده في مجلس انس . ويقال انهم عربدوا عليه وقتلوه . وكان عمره ٣٦ سنة ، ويقال ايضاً انه وجد مشنوقاً بتكة سراويله . روي انه عندما بلغ المعزّ خبر موته قال : هذا شاعر كنا نرجو ان نفاخر به الشرق .

اخلاقه : كان غير ديّن ، خالعاً كافراً .

لقبه : متنبي الغرب .

صراحته : كان صريح القول والفعل ، لا يبالي باحد ولا بعواقب الصراحة، ومبالغته بها قتلته . وهذه المبالغة في الصراحة ادت الى تطرفه في الافكار والمديح حتى قال لمدوحه :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار   فاحكم فانت الواحد القهار

وقوله :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

شعره — قيل فيه :

ان تكن فارساً فكن كعليّ او تكن شاعراً فكن كابن هاني

هو كبير شعراء الاندلس ، غير مدافع ، سليم التفكير ، سلس التعبير . عالج كثيراً من مشاكل الحياة واحوال الاجتماع .

تأثره بالمتنبي : اطلع على شعر المتنبي وهو معاصره ، فنسج نسجه في الحكمة والفلسفة والامثال ، وفاقه في المبالغة التي لم نسمع بمثلها في الشعر العربي .

وصفه : يجيد وصف ما يراه اجادة نادرة ، ولذلك سموه متنبي الغرب ، تشبيهاً له بابي الطيب ، انما بين الاثنين فرق : المتنبي مبتدع ،وابن هانىء متبع . شعره يقرقع ، كما قال المعري .

واشهر قصائده :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدّكم فَلَق الصباح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الاخضر

وقال في مدح جوهر اذ فتح مصر :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع وقد راعني يوم من الحشر اروع
غداةَ كأنّ الأفق سُدّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

خلاصة : شعره جزل اللفظ ، فخم العبارة ، أشبه بشعر الاعشى في الرنة ، وشعر بشار وابي تمام في الديباجة . يجيد الاستعارة والتشبيه ، وقد أكثر منهما جداً . يطيل القصائد ويبالغ أشد المبالغة . واظن ان موقفه مع الفاطميين كان يستدعي ذلك ، وقد يكون معتقدهم مهد لهذه الطريقة .

من شعره المتداول : « فتكات لحظك ام سيوف ابيك الخ ... »

ابو فراس

نسبه : هو ابو فراس الحرث بن ابي العـلاء سعيد بن حمدان ، ابن عم سيف الدولة الحمداني ، امير حلب . رافق سيف الدولة في غزوات عديدة ببلادالروم.

أُسر أبو فراس مرتين . في المرة الاولى لم يتعدّ به العدو قلعة خرشنّة ، اما في المرة الثانية فحمل إلى القسطنطينية ، واقـــام في الأسر أربع سنوات . له في هذا الأسرقصائد عدة تعرف بالروميات وهي رقيقة جداً . فيها عتاب شديد لسيف الدولة لانه لم يسرع إلى المفاداة .

شخصيته : كان ابياً ، كبير النفس ، فارساً مقداماً ، شجاعاً عظيم الشأن . مدح ابن عمه سيف الدولة انما بإباء الملوك وعزة الامراء . حرّ الخصال ، صادق اللهجة ، ملء برديه الاريحية العربية .

كان المتنبي يتجنبه ولا ينبري لمباراته ولا يجاريه ، لنفوذه .

عاطفته : ظهرت رقته وحنانه وبره ولطف شعوره في منفاه ، إذ قـــال ذلك الشعر الرقيق في رومياته .

فوا عجباً من هذا الفارس الشجاع الذي يفلق الهام ، كيف تحول إلى شخص فاقت عواطفه عاطفة الامهات . فاسمع شعره في روميات تحس فيها عاطفـــة تتدفق كالبحر الزاخر .

موته : لم ينعم ابو فراس بالانفـكاك من الأسر حتى داهمته المنية . أراد بعد موت ابن عمه سيف الدولة ان يستقلّ بامارة حمص ، فاعترضه ابو المعالي بن سيف الدولة ، وجرت حرب بينهما قتل فيها ابو فراس ، سنـة ٣٥٧ ، وهو لم

يتجاوز السابعة والثلاثين .

شعره : فخم المعنى ، جزل اللفظ ، خال من العيوب التي تراكمت في شعر المتنبي . يجمع بين الحسن والجودة ، والعذوبة والفخامة ، والسهولة والمتانة . وهو مرآة عواطفه الشريفة ، تلمس في شعره رواء الطبع واباء الشريف . يمشي على آثار السلف ، فجاء شعره صورة لشعرهم ، ولولا العاطفة لما عاش ذلك الشعر .

اما ما قاله صاحب اليتيمة عن ان المتنبي لم يمدحه مع انه مدح من امراء آل حمدان من هم دونه ، وعدّ ذلك من المتنبي تهيباً لمقام أبي فراس واجـــلالاً لا اغفالاً واخلالاً ، فهذا حكم في غير موضعه . فكيف يمدحـــه أبو الطيب وهو يعلم ان أبا فراس مناظر له ، وكان يتعقب سقطاته وينسب اليه الأخـــذ عن هذا وذاك ؟

الخلاصة : ان شعر أبي فراس على نمط واحد ليس فيه ما في شعر ابي الطيب من رديء ، ولكن الجو الذي حوّم فيه ابو الطيب لم يحوّم شاعر فيه ، وقد يكون هواؤه لا يلائم صدورهم فقصّروا عن التحويم فيه .

الشريف الرضي

حياته : ولد في بغداد ، وتلقى العلوم فيها . اعتقل والده وحبس وصودرت أملاكه . ثم أفرج عنه فعادت إلى الشريف غبطته .

اتصل بالخليفة الطائع ومدحه باخلاص كما مدح القادر ، ثم مـــال إلى بعض الوزراء والملوك طمعاً بالخلافة التي كان يؤمله فيها ابو اسحق الصابي . وتوفي ولمّا يبلغ منها أرباً .

آثاره : ديوان شعر فخم ، وجمعه نهج البلاغة للامام علي .

شعره : موضوعه التغني بحبه وآلامه وآماله ، وافتخاره بنفسه وبأصـله . قـــال الغزل بعزة نفس وفخر . قوله فيه مبتكر احياناً ، وأسلوبه نقي الديباجة فخم .

قال الرثاء صادقاً مخلصاً ، وخصوصاً في رثاء الحسين ، وقال المـــدح بعزة النبلاء . وأرسل الفخر رصينا بلا تبجح . كان فخره باصله ومـــكارم اجداده بخلاف المتنبي . عبارته تقليدية بخلاف عبارة المتنبي ، وقد وصف موكب الحج ، والشيب والطبيعة .

كان اسلوبه مزيجاً من البداوة والحضارة ، سامي الخيال حافـــلاً بالصور الرائعة والعبارة المتماسكة .

ابو العلاء المعري

حياته : ولد في معرة النعمان ، ومرض صغيراً بالجدري فانطفأت عيناه ، وهو يقول انه يذكر اللون الاحمر .

أخذ عن والده مبادىء العلم ، ثم قصد حلب وتحدث إلى علمائها وزار مكتباتها ، ثم ذهب إلى انطاكية واللاذقية وعاد إلى طرابلس . واخيراً قصد بغداد وجالس علماءها في مجالس العلم والأدب . ولما بلغه نعي امه رجع إلى المعرة وحبس نفسه في بيته وسمّي رهين المحبسين اي العمى والبيت . ترك هو الدنيا فجاءت الدنيا إلى بيته الذي اصبح مزاراً لكبار العلماء والادباء وطلاب العلم .

شخصيته :زاهد في حطام الدنيا ، كبير النفس ، متوقد الذكاء ،تروى عن ذاكرته اخبار كالاساطير . وهو من نوابغ العميان العالميين .

ابو العلاء الشاعر : هو شاعر في ديوانيه : « سقط الزند » و « ضوء السقط » . وأغراض هذين الديوانين : فخر ورثاء ووصف ومدح .

ابو العلاء الفيلسوف : في ديوان اللزوميات ، طرق المعري جميع القضايا التي تشغل العقل الانساني . واللزوميات مجموعة آراء المعري في المشاكل العقلية . يؤلّه العقل . عاش نباتياً وتحدث عما وراء القبر ، وقبّح الزواج واساء الظن بالمرأة .

ابو العلاء الناقد : في رسالة الغفران، يتولى ابو العلاء النقد اللغوي والنحوي لانه كان من العلماء ، فنقد الأدب واللغة والتاريخ والمجتمع والدين . وكان في هذه الرسالة ساخراً من الطراز الاول ، يهزل وتحسبه جاداً ، وما هو الا هازىء

بأقدس عقائد الناس .

قيمته الفنية : لا يبالي في لزومياتـه بخلق الصور البيانية ، بل يريد ان يفضّ مشاكل فكرية . ومع ذلك ظهرت في اسلوبه خاصـة الهزء والظرف والفكاهة . وفي الجملة : ابو العلاء والمتنبي هما الشخصيتان العربيتان اللتـان لا نظير لهما في قول الحكمة .

آراؤه ومعتقداته : ان هذا التضارب والتناقض يظلان يواجهاننا مع المعري حتى نعلم انه فاطمي المعتقد . كان معاصراً للحاكم بامر الله ومشايعـاً له . ومن يتتبع تطوراته الفكرية يظن انه مضطرب التفكير ، في حين انه ذو عقيدة ، مهما كان شأنها ، تظل عقيدة . وقد اثبتت الأيام صحة ما تخيل هذا الأعمى الذي رأى ما لم يره المبصرون .

ألا تقوى ان تقول ان ابا العلاء كان على حق بعدما رأيت هذا الفتح المبين في عالم الفضاء ؟ أما قلّبَ هذا الاكتشاف الفضائي المعتقدات رأساً على عقب ؟

قال المعري :

ولو طـار جبريلُ بقيـة عمره … من الدهر ما استطاع الخروج من الدهرّ

فالى اين أيها العلماء ؟

وفيما يعتقد البشر ، يقول المعرّي المشكّك :

في اللاذقيـة ضجـةٌ … ما بين احمـد والمسيحْ
قسٌ يعالـج دلبـةً … والشيخ من حنـق يصيح
كل يصحّـح دينـهُ … يا ليت شعري ما الصحيح

ثم يوجه مدفعه الرشاش نحو جميع المذاهب فيقول :

عجبت لكسرى واشياعـه … وغسل الوجـوه ببول البقر
وقول النصارى إلهٌ يُضـام … ويُظلَـم حيـاً ولا ينتصر
وقول اليهود إلـهٌ يحبّ … رشاش الدمـاء وريح القتر

وقوم أتوا من اقاصي البـــلاد   لرمي الجمـــار ولثم الحجر
فواعجبـــاً من مقـــالاتهم   أيعمى عن الحق كل البشر ؟

واذا سألناه ما هو الحق ، أتراه يسكت ام يجيب ، كما سكت السيد امام بيلاطس ؟ ! ولكنه يومىء من بعيد قائلاً :

أمور تستخف بهـــا حلوم   ولا يدري الفتى لمن الثبور
كتاب محمدٍ وكتاب موسى   وانجيـل ابن مريمَ والزبور

وها هو قد بدأ يوضح :

اذا رجع الحصيف إلى حجاهُ   تهاون بالمذاهب وازدراها
وهتْ اديانهم من كل وجـهٍ   فهل « عقل » تشدُّ به عراها

انتظر قليلاً لتصدق أكثر ما قال فيلسوفنا :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت   ويهود حـــارتْ والمجوس مضلّله
اثنان اهل الارض ذو عقل بـــلا   دينٍ وآخر ديّنٌ لا عقـــل له

واخيراً يدعونا إلى عبادة العقل فيقول :

ايها الغرّ ان حبيت بعقـلٍ   فاعبدنـه فكل عقل نبيُّ

واخيراً يحلّ مشكلة المشاكل كما يرى هو ، فيقول هازئاً :

أأترك شربها صهباء صرفاً   لما وعدوه من عَسلٍ وخمر
حياة ثم مـــوت ثم حشر   حديث خرافة يا أم عمرو

وآخراً يبوح بما عنده ، واذا شئته كاملاً فارجع إلى كتابي « زوبعة الدهور » قال موضحاً رأيه في نهاية النهاية :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً   وحقّ لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطّمنا الايام حـــتى كأننا   زجاج ولكن لا يعادله سبك

وفي موضع آخر يعترف بخلود النفس ، ويرى الجسد كباقول حـــبر فرغ

مما فيه . فطرح بين سقط المتاع ، ثم يضحك هازئاً كعادته :

فيا ليتني هـــامد لا اقوم اذا نهضوا ينفضون اللِمَمْ

وليس ابو العلاء بمخترع مذهب التقمص ، فقد قال به فريق من فلاسفـــة اليونان ومن عندنا كان جبران على هذا المذهب .

وآخراً نقول ان ابا العلاء عالج جميع القضايا الفكرية وجمعها في «لزومياته» و « فصوله وغاياته » ، فكأنه نظر بعين بصيرته فرأى ما لا يرى قبل حدوثه . وهكذا يكون العبقري حقاً .

الطغرائي

هذا لقب عرف به واشتهر ، وهو من المتفوقين في عصره في صناعتي المنظوم والمنثور . واشهر ما قاله شعراً هو قصيدته التي تعرف بلامية العجم تقابل لامية العرب . وكلا الشاعرين ، الشنفرى والطغرائي يصور لنا في لاميته أروع صورة لحياته وعصره .

وكما تمتاز لامية العرب بالوعورة ، تمتاز لامية العجم بالسهولة التي سار الشعر اليها . وكما يفتخر الشنفرى باسلوب حياته الوعر ، جـــاء الطغرائي يتغنى بالحكمة تغنياً ، ويندب زمناً كان فيه سيداً ، وظل كذلك حتى قتل .

حكمة الطغرائي بنت الاختبار ، ومعانيه مستمدة من تجاريبه . كل هذا يبدو لك جلياً لأول نظرة في لاميته المشهورة . وكان بيت بشار الذي قاله في وصف شعره ينطبق عليها :

وشعر كنَوْر الروض لاءمت بينه   بقول اذا ما انجد الشعر أسهلا

ابن الفارض

شاعر مشهور لم تفارقه السهولة رغم ثقله وتصيده انواع البديـع ، وقـــد شرح ديوانه الصغير وطبـع في باريس . شرحه النابلسي الذي كان صوفياً من طراز ابن الفارض .

وأشهر شعره قصيدته الطائرة الشهرة :

شربنا على ذكر الحبيب مدامـــة   سكرنا بها من قبل ان يُخلقَ الكرم

وقد تفنن الجماعة في تفسيرها حتى يعتقـد القارىء ان ناظمها عاشق إلهي ، حتى هزىء احد الشعراء ،اذ قال يخاطب الصوفيين :

اقال الله حـــين عشقتموه   كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

النثر الفني

مميزاته : كتابة الترسل والانشاء .

لما كان هذا النوع من النثر من الرسائل والمقامات والاخبار والقصص والسيَر مثاراً للخيال ومظهراً لحركات الوجدان والشعور واظهار التفوق في براعة القول والحذق في الصناعة اللفظية ، اصطبغ العصر وما بعده من العصور بصبغة يغلب فيها تفضيل جانب اللفظ على جانب المعنى . فالتزم فيها السجع القصير الفقرات غالباً ، واستعملت الأساليب الشعرية في الشرح والاستدلال بالاكثار من الاخيلة والتشبيهات والاستعارات البديعة . وقلّت المعاني المخترعة ، فاضطر الكاتب الى حل كثير من ابيات الشعر ذوات المعاني الجميلة ، والى الاقتباس من القرآن والحديث ، حتى سمّى الأدباء هذا النوع : الشعر المنثور .

وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد وزير آل بويه ، وقلّده كثير ممن عاصروه وجاؤوا بعده . واعظم نموذج لها مقامات الحريري . كان ابن العميد رأس كتاب الشرق ، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور ، لم تنحط كتابته في البلاغة كما انحطت كتابة تابعيه في طريقته من المتأخرين ، حتى قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

وتخرج على يده الصاحب بن عباد الذي اولع بالسجع والجناس . ومن أئمة هذه الطريقة بديع الزمان ، وأبو بكر الخوارزمي ، والصابيء ، والحريري .

وظلت هذه القيود في الأدب حتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . كانوا يقلدون المقامات والرسائل ، حتى جاء احمد فارس الشدياق وثار عليها في كتابه الفارياق .

ابن العميد

اصحاب الاساليب خمسة : عبد الحميد ، ابن المقفع ، الجاحظ ، ابن العميد ، القاضي الفاضل .

ابن العميد : هو الاستاذ الرئيس الوزير ابو الفضل محمد بن الحسين العميد ، كاتب الشرق وعماد ملك آل بويه ورئيس وزرائهم .

فارسي الاصل من اهل مدينة قمّ . كان ابوه كاتباً بليغاً من كبار كتاب الدولة السامانية ، فنشأ ابنه مولعاً بالعلوم العقلية واللسانية ، فبرع في علم الحكمة والنجوم ، ونبغ في الأدب والكتابة . رحل عن أبيه الى آل بويه ، وتقلد الاعمال الكبيرة في دولتهم حتى تولى وزارة ركن الدولة (ابو عضد الدولة الشهير) ، فساس الملك احسن سياسة ،وقلد البرامكة ففتح بابه للشعراء والعلماء والفلاسفة ، يشاركهم في كل علم الا الفقه . وظل كذلك حتى مات سنة ٣٦٠ .

شخصيته : كان ذا منزلة عالية لعلمه ومقامه السياسي ،حتى اطلق عليه اسم الجاحظ الثاني . ومن طالع قصائد المتنبي في مدحه يرى ان المتنبي لم يتواضع لأحد تواضعه له .

اسلوبه : من الانشاء الكثير التنميق ،فهو أول من فتح باب الولوع بالرسائل البديعية ، متوخياً فيها السجع القصير الفقرات ، مقتبساً الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة ، مشيراً الى الحوادث التاريخية المشهورة ، ناثراً الابيات الحكمية مؤثراً الحلية البديعية ، كالجناس والمطابقة ، مضمناً الأمثال السائرة . وقد حاكاه فحول عصره وأخذوا عنه وقلدوه ،إلا انه أقلّ سجعاً منهم وأقرب الى الطبع .

شعره : له شعر رائق إلا ان صبغة النثر والعلم تظهران فيه .

مرضه : كان قليل الحظ من العافيــة ، مصاباً بالقولنج والنقرس وتشنج الأعضاء ، سأل الصاحب بعد ان عاد من بغـداد قائلاً : كيف رأيت بغـداد ؟ فأجابه : بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد .

آثاره : له مجموع رسائل في الفلسفة والنصح والعتاب .

ملاحظة : كانَ ابن العميد مولعاً باستعمال حروف الجرّ ، واليــك المثل : كتابي اليك وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منـــك واقبال عليك واعراض عنك . إلى أن يقول : ولا جرم ان وقفت بين ميل اليك وميل عليك ، أقـدم رجلاً لصدمك وأخرى عن قصدك ، وابسط يــداً لاصطدامك واجتياحك . ومنها : كيف وجدت ما زلت منه ، وكيف تجد ما صرت اليه ؟

الصاحب بن عباد

نشأته : هو كافي الكفاة ابو القاسم اسمعيل الصاحب بن عباد وزير آل بويه ، وكاتبهم .

ولد سنة ٣٢٦ بطالقان من قزوين . كان أبوه كاتبــاً من خيرة كتّاب آل بويه . تعلم العلم والأدب من أبيه ، ثم اتصل بابن العميد فلزم صحبته وتولى كتابة خاصته ، ثم وزر لمؤيد الدولة من آل بويه ، ثم لأخيه فخر الدولة ، حتى اصبح له في ملكهما اليد النافذة المطلقة ، وظل كذلك حتى مات سنة ٣٨٥ .

صفاته : كريم الاخلاق ، سليم الذوق ، أريحي جواد يحب العلم والعلماء ، مولع بجميع الكتب القيّمة النفيسة . كان مجلسه حلبة علم وأدب ، يساجل فيها العلماء والشعراء ، سيال القريحة ، سريع العارض ، حاد النكتة ، كان أكثر كرماً من ابن العميد ، نقادة صادق النظر في الشعر والنثر ، تعقب شعر المتنبي وأكثر من نقده .

أسلوبه : هو اسلوب ابن العميــد ، ولم يسمّ بالصاحب الا لأنــه صحب ابن

العميد وأخذ عنه . إلا أنه أولع بالجناس والسجع جداً حتى قيل فيه : انه لا يترك سجعة ولو انحلّت باستعمالها عروة الملك . يعد ثاني ابن العميد بين الكتّاب .

شعره : له شعر رائق ، متأثر بالنثر أيضاً كابن العميد ، الا انه أقرب إلى الشاعرية من استاذه ، فهو يتعمد المعاني العلمية والشرعية والفلسفية وغيرها من المعاني تزييناً لشعره . ولا أرى حملته على المتنبي إلا حسداً وتشفياً لأنه لم يجبه على مراسلته له كما سبق .

آثاره : المحيط في اللغة (سبعة مجلدات) مجموعة رسائل ، كتاب الوزراء ، الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . وله توقيعات بديعة جداً ، ونكات لطيفة فيها التلاعب بالألفاظ الذي كان مولعاً به .

من شعره :

أترى القاضي أعمى ... أم تراه يتعامى
سرق العيد كأن ... العيد أموال اليتامى

المقامات

معناها اللغوي محل الاقامة، وهي قصة قصيرة يرويها واحد دائماً كما ان بطلها واحد، وهذا البطل شحاذ كثير الحيل، تارة يتعامى، وطوراً يلبس جبة الواعظ وحلة العالم. والعقدة فيها من طراز واحد، اي ان الراوية يعرف ان البطل محتال كذاب فيما يدعي.

مبدع المقامة هو بديع الزمان الهمذاني، والذين جاؤوا بعده له تبّع، ولم يجاره الا الحريري وهو اصح لغة من البديع.

اما الغاية من المقامة فهي اظهار البراعة في الانشاء أو جمع الالفاظ اللغوية لا القصة. ولكن بديع الزمان وفق في بعض مقاماته فجاءت كأقاصيص اليوم.

أما المغزى فيفيدنا كيف كانت الكذبة والتكالب على جمع المال. وقد كثر المحتالون في ذلك العصر فصورهم البديع متأثراً بالجاحظ.

والذي يعجبني من بديع الزمان خلقه في ذلك الزمان بطلاً سماه بشر بن عوانة، فظل العلماء والادباء يعتبرونه شخصاً حقيقياً، وعدوا قصيدته التي اولها: « افاطم لو شهدت ببطن خبت »، من روائع الشعر. وهذا ما اطلقتُ عليه اسم طلسم الشهيرة.

وبقي السر مغطى بقشرة بصلة، كما يقول مثلنا، حتى قام الاستاذ بطرس البستاني ففتش عن آثار اقدام ابن عوانة عبر مجاهل تاريخ الأدب العربي، فلم يظفر بشيء، فبيّن للناس ان ابن الأثير وقع في الفخّ حين قابل بين ابن عوانة والبحتري والمتنبي، ففضل ابن عوانة على البحتري لانه اعتقد انه السابق الى

صوره ومعانيه في وصف القتال مع الاسد .

لقد مرّ على ابن عوانة الف سنة وهو ينعم بجلال التاريخ الى ان هتك ستره، فبلغ بذلك بديع الزمان قمة الفنّ حين كذب على الشعراء والمؤرخين ، وجازت عليهم كذبته عشرة قرون .

بديع الزمان الهمذاني

حياته : ابو الفضل احمد بن حسين . نشأ بهمذان ، ودرس العربية والادب ونبغ فيهما ، ثم ضرب في الارض يتكسب بأدبه . أقام بنيسابور مدة املى بها ٤٠٠ مقامة بلفظ رشيق وسجع رقيق، طبع على غرارها الحريري ، حينما جادل الخوارزمي وتغلب عليه ، فاشتهر وخلا له الجوّ بموت الخوارزمي . فوفد على الملوك والأمراء ، حتى صاهر اعيان هراة التي استوطنها ، فحسنت حاله ، الا انه مات في الاربعين من عمره سنة ٣٩٨ .

المقامة : اطلقت المقامة في ذلك العصر على قصة خيالية انشئت بعبارة مسجوعة غالباً ، محلاة بأنواع البيان والبديع ، مشتملة على كثير من الغريب .

بدأ بهذا النوع من الادب بديع الزمان وحذا حذوه الحريري وغيره . ولا عيب في هذه القصص الصغيرة ، الا انها ترمي غالباً الى الاحتيال وطلب الرزق عن طريق النصب . هي مفيدة باسلوبها وحفظها الفاظاً كثيرة ، الا انها غير شريفة المبادىء ، لا تعلّم عزة النفس .

شخصيته: كان بديع الزمان حاد الذكاء قوي الذاكرة ، كاتباً مترسلاً مجيداً ، وشاعراً مبدعاً ، سريع البديهة ، مرّ الهجاء .

اسلوبه : ليّن العبارة سهلها ، قصير السجع . كل هذا يدل على أنه غير متعمل في الصنعة ، وانه غزير المادة .

آثاره : المقامات ، التي لم يصل الينا منهـــا إلا ٥٣ مقامة ، ديوان رسائل ومقالات ومناظرات ، وديوان شعر .

كان كصاحبيه ، ابن العميد والصاحب ، مولعاً بالجناس والطباق وغيرهمـــا من انواع البديـع ، وقد زاد عليها المقامات التي أبدعها وتفوق فيها ، فلم يبلغ أحد بعده ما بلغ .

راجت المقامات رواجاً عظيماً حتى نسج على منوالهـــا كثير من الأدباء . وظلت متبعة حتى آخر القرن التاسع عشر ، فتحولت مع ناصيف اليازجي إلى صناعة لفظية ، إذ كان يتبع آثار الحريري لا البديـع والبهلوانيات . ثم أصبحت ركاكة وسجعاً بارداً مـــع نقولا الترك وغيره ، حتى كان بعض الأدباء المقلدين يتراسلون بشكل مقامات .

القصص

لم يهتم العرب لهذا النوع في بدء نهضتهم . ترجموا كل شيء الا القصص ، فلم يترجموا لا الالياذة ولا غيرها من قصص اليونان والرومان . وأول كتاب قصصي رأيناه في الأدب العربي هو كليلة ودمنة وغيره من الكتب المترجمة عن الفارسية والهندية .

أما القصص التي نراها بين أيدينا اليوم فهي من تأليف هذا العصر ، منها ما هو مترجم ومنها ما هو من وضع العرب .

كانت القصص في اول عهدها كأخبار تُروى عن أيام العرب وحوادثهم تشجيعاً للجنود وتحميساً لهم ، الى أن صارت تنمو بتناقل الرواة . ثم نمت وكبرت وجمعت ولم يذكر اسم واضعيها ، كما جرى في أكثر القصص عند الافرنج . أما القصص الناضجة فلم يصل الينا منها إلا قصة عنترة المشهورة .

قصة عنترة : هي أكبر القصص العربية المملوءة بالحماسة وأخبار الحروب . تمثل أخلاق العرب في جاهليتهم وحروبهم وعاداتهم . معظم اسماء ابطالها حقيقية ، انما فيها مبالغة ككل رواية من نوعها .

وضعت في آخر هذا العصر ، ألّفها يوسف بن اسمعيل في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي . حدثت ريبة في بيت هذا الخليفة فأصبحت حديث الناس في مجالسهم ، فأشار على المؤلف بوضع هذه القصة ليشغل الناس بها عنه ، وهكذا كان . من المعقول انها لم توضع كما هي اليوم ، انما أخذت تضخم تدريجياً ، ككل الأخبار من هذا النوع .

هي أحسن القصص العربية مغزى . إذ انها ترمي الى الإباء والعفة والسمو ، بخلاف كتاب الف ليلة وليلة ، وقصص اليوم التي تعلّم الفساد الاخلاقي .

قصص أخر : وقد وضع العرب قصصاً أخر ، منها قصة البُراق ، وقصة بكر وتغلب ،وقصة شيبان وكسرى انوشروان . ووضعوا ايضاً قصصاً غرامية بعضها ضاع وبعضها أدخلوه في كتاب الف ليلة وليلة .

الف ليلة وليلة : هي مجموعة قصص متسلسلة ، ينبثق بعضهـــا من بعض كأساطير كليلة ودمنة . اختلف الناس في تاريخها ، فمن قائـــل أنها معربة ومن قائل انها مترجمة ، وهي على ما نظن ككتاب كليلة ودمنة ، مترجمة في الاصل وقد زاد عليها العرب أشياء كثيرة من حوادثهم وأخبارهم .

موضوعها : تمثل الآداب الاجتماعية في القرون الاسلامية ، ومـــا قرأناه وكتبناه في هذا الدرس عن حياة العرب في هذه العصور ، وانغماسهم في اللهو والترف .

وفيها ايضاً اخبار جنّ وعفاريت ، وقصص غريبة عجيبة تصوّرها العقل البشري في ذلك الزمان وقد تحقق بعضها اليوم . وليست الخرافات بضاعـــة جديدة عند العرب في كتابهم هذا، بل هي مألوفة في ذلك العصر وفي كل عصر .

النحو واللغة

كثر النحاة في هـــذا العصر ولكنهم لم يأتونا بشيء جديد ، فلم يؤلفوا من عند انفسهم بل كانت كل اعمالهم في الشرح والتعليق والإعراب . أشهرهم :

ابن خالويه : همذاني الأصل ، جاء بغداد ثم رحل إلى الشام واتصل بسيف الدولة فقدمه . له محاضرات ومناقشات ، وكان من اعداء أبي الطيب المتنبي .

وله رسالة في إعراب ثلاثين سورة ، وكتاب الشجر . وأشهر كتبه كتاب في كلام العرب موضوعه الشواذ العربية ، طبع في مصر .

وقد قرأت له شعراً أشبه بشعر الصاحب المتكلف ، كله صنعة وطباق .

الزبيدي : من علماء النحو في الاندلس ، واسمه ابو بكر محمد ، من اشبيلية . تولى القضاء وكان شاعراً . له كتاب طبقــات اللغويين في المشرق والاندلس ، وكتاب الواضح في النحو ، وكتاب الاستدراك على سيبويه .

ابن جنّي : موصلي الأصل ، قرأ على ابي علي الفارسي . أشهر نحاة هـــذا العصر ، وله شعر جيد ، انما غلب عليه النحو ، وله فلسفة ونقد . امــا أشهر كتبه فهي :

« الخصائص في اللغة » ، يبحث في أصول النحو ، واشتقاق اللغة . « سر الصناعة في النحو » يبحث في الحروف ومخارجها والحركات وما يناسب تقاربه منها في اللفظ . « شرح شعر المتنبي » .

اللغة : نضجت في هذا العصر علوم اللغة ونشأت المعاجم اللغوية ، فدونوها على حروف المعجم او على المعاني . وأشهر هؤلاء :

القالي : ابو علي ، من بغداد ، من حفّاظ اللغة والشعر ونحـــو البصريين . تنقل بين بغداد والموصل ونفي في قرطبة . من آثاره كتـــاب الأمالي ، وهو ككتاب المبرّد . وله كتاب النوادر .

المعاجم اللغوية

وضع نواتها الخليل في كتاب العين ، الا انها لم تتمّ إلا في هذا العصر . امـا مصادرها فما نقل عن الرواة المتقدمين كحمّاد والاصمعي وابي عبيـدة . دونت أولاً في كتب مستقلة كل موضوع على حدة ، ككتب الإبل واسماء الوحوش ، والخيل والشاء ، والنبات والشجر الخ ...

وكذلك كتب النوادر ، أي ما ندر استعماله في اللغة ، ككتب الكسائي والشيباني والقالي الخ .

وكتب الغريب في اللغة وشروح الشعر ، وكلما كتب في اللغة واشتقاقها ، من اضداد واشباه ونظائر .

فهذه المؤلفات وأمثالها كانت مصدراً لاصحاب المعاجم . بيـد ان مؤلفي المعاجم لم يعتمدوا عليها وحدها بل رجعوا ايضاً إلى التحقيق من ألسنة العرب .

اقدم المعاجم : كتاب العين للخليل ، مرتب على الحروف الابجديـة ، ثم جمهرة ابن دريد ، ثم البارع للقالي ، ثم كتاب التهذيب للأزهري وهو ابن الأزهر من هراة . رتبه على مخارج الحروف ككتاب العين . ثم كتاب المحيط للصاحب ابن عباد ، مرتب على الحروف الأبجدية كما هي اليوم ، أكثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد . والمجمل لابن فارس ، اقتصر فيه على الألفاظ العامة المستعملة معتمداً على السماع .

ومن كتبه المتداولة ، كتاب الصاحبي ألّفه للصاحب بن عباد ، موضوعه فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، بحث فيه في أصل اللغة وخصائصها واختلاف

لغاتها بحسب القبائل .

الصحاح للجوهري : أصله من فاراب ببلاد الترك . كان هذا عالماً كبيراً في اللغة . سافر إلى الجزيرة وغيرها وخالط ربيعة ومضر ، فاتقن اللغة وعاد يعلم ويؤلف في نيسابور ، وهناك الّف كتابه الصحاح فأسماه تاج اللغة وصحاح العربية ، رتبه على حروف الهجاء ، مرتباً الكلمات على آخر حرف منها .

ابن سيده : اندلسي من مرسية . كان ضريراً وأبوه ضرير ، وهو من علماء اللغة ، فأخذ عنه كتابه المحكم ورتبه على ترتيب كتاب العين . وهو محكم الضبط دقيق ، عول عليه صاحب القاموس في تأليف كتابه . وله المخصص ايضاً وهو كتاب مرتب المواد حسب المعاني .

الفهرست: أول من كتب في هذا العلم ابن النديم الورّاق البغدادي، ولولا هذا الكتاب لضاع كثير من آداب العرب . اما كتابه الموسوم بالفهرست ، فهو يتضمن وصف لغات الامم من عرب وعجم وخطوط وصور امثلة منها . ثم كتب الشرائع المنزلة ، ثم العلوم فذكر النحاة واللغويين وتاريخهم واسماء كتبهم واصحاب الأخبار والسيّر والشعر والشعراء والكلام والمتكلمين والفقهاء والحديث والمحدثين والفلسفة والعلوم القديمة والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة والمذاهب والمعتقدات والكيمياء واصحابها ، وفي كل باب تفاصيل في سيرة كل مؤلف واسماء كتبه .

وهذا الكتاب نفيس جداً بل هو مرجع لكل أديب .

العلوم الطبيعية

نبغ في هذا العصر علماء لا يشقّ لهم غبار . وقد أقبل النـــاس على الطب كثيراً حتى قيل : ان الذين امتحنوا لنيل الاذن بالتطبيب في عهد المقتـدر بالله أول القرن الرابع ، بلغ عددهم ٨١٠ ، وبلغ عدد اطباء النصارى في خدمـــة المتوكل ٥٦ طبيباً ، وكان يجلس مع سيف الدولة على المائدة ٢٤ طبيباً ، وكان اطباء للخلفاء واطباء للجيش . وكان الامتحان يجري على الاطباء والصيـــادلة بالتدقيق ، وأشهر أطباء هذا العصر ابن سينا .

ابن سينا : الشيخ الرئيس الفيلسوف الطبيب ، ارسطو العرب وابقراطهم اسمه ابو علي الحسين بن عبدالله ، ابوه من بلخ سكن مملكة بخارى . نشأ ابن سينا في بخارى ، حفظ القرآن وتعلم الفقه . وما بلغ السادسة حتى تعلم المنطق والهندسة والطبيعة والطب والفلسفة .

الـّف في الحادية والعشرين من عمره ، وتقلد بعض مناصب دولة بني سامان. كان قوي القوى عقلاً وجسداً ، ولكنه كان شهوانياً . مات في همذان في الثامنة والخمسين من عمره .

تأثيره : الـّف في كل فنّ من العلم والادب ، وكان لمؤلفاته تأثير كبـــير في نهضة اوروبا الاخيرة ، لانهم نقلوا أهم كتبه إلى اللاتينية ، لغة العلم .

تآليفه : القانون ، ١٤ جزءاً في الطب والعقاقير والتشريح، الشفاء ١٨جزءاً. من كتبه الفلسفية : الاشارات والنجاة ، وله في التوحيد كتاب المبـــدأ والمعاد ، الإلهيات ، القصيدة العينية التي مطلعها : « هبطت اليك من المحـــل الأرفع . »

الصيدلة والكيمياء والنبات

تحقق الفرنج ان العرب هم أول من اشتغل في استحضار الادوية والعقاقير ، واستنبطوا كثيراً منها . فأول اقرابذين ألّفه سابور بن سهل سنة ٢٥٥ ، ثم اقرابذين بن التلميذ سنة ٥٦٠ .

وتبع تقدمهم في الصيدلة تقدمهم في الكيمياء وعلم النبات . وهم مؤسسو الكيمياء الحديثة بتجاربهم واستحضاراتهم . راجع ما كتبناه عن جابر بن حيّان والكندي والرازي .

ويرجح انهم هم أول من ركّب البارود . وأشار ابن الاثير إلى ان العرب استعملوا مادة في واقعة سنة ٢٦٩ طلوا بها الخشب فامتنع احتراقه ؛ ويعقوب أول من الف في ابطال الكيمياء القديمة . اما علم النبات فلهم فيه السبق . اخذوا هذا العلم عن جالينوس وديسقوريدوس وعن الهنود .

نقلت هذه الكتب في ايام المتوكل ، ترجمها اسطفان بن باسيل من اليونانية . ولما نبغ ابن البيطار ، سافر إلى بلاد اليونان وبلاد الروم وشاهد كل نبات في مواضعه ، وكذلك في بلاد المغرب ، ودرس نبات الشام ، ثم ذهب إلى الديار المصرية ، وجعله الملك الكامل الايوبي رئيساً على العشّابين ، وقد ألّف كتباً في النبات اعتمد عليها الأوروبيون في نهضتهم الأخيرة .

وله كتاب المغني في الأدوية المفردة ، وكتاب جامع مفردات الأدوية والاغذية ، وكتاب ميزان الطبيب .

الصوري : ومن أيمة علماء النبات رشيد بن منصور الصوري . هذا العالم هو صاحب كتاب الأدوية المفردة . درس نبات الشام في سوريا ولبنان ، وصوره بالالوان كما يفعل علماء اليوم .

الفلسفة

اشتغل بالفلسفة من اهتموا بعلوم القدماء ، وخصوصاً الاطباء، وفي طليعتهم ابن سينا . وكان الفلاسفة متهمين في دينهم ، حتى أصبح اسم الفيلسوف مرادفاً لاسم كافر . ونقم العرب على المأمون لأنه سعى بنقل الفلسفة إلى لغة العرب ، فتستر اصحابها وألّفوا الجمعيات السرية ، وأشهرها **جمعية اخوان الصفا** التي تألفت في بغداد في أواسط القرن الرابع .

اشتغل أعضاء هذه الجمعية في الفلسفة حتى صار لهم فيهـا مذهب خاص مستنتج من فلسفة اليونان والفرس والهند ، معدّل على ما يقتضيه الاسلام .

وأساس مذهبهم ان الشريعة تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، وانه لا يغسلها إلّا الفلسفة ، وانه إذا امتزجت الفلسفة اليونانية والشريعة العربيـة حصل الكمال .

رسائلهم : تعرف **برسائل اخوان الصفا** ، عددهـا ٥٠ رسالة . تنظر في مبادىء الكائنات واصولها وماهية الأرض والسماء ووجه الأرض وتغيراته ، والكون والفساد والآثار العلوية ، وتكوين المعادن وعـلم النبات وأوصاف الحيوانات ، ومسقط النطفة وارتباط الناس بهـا ، وتركيب الجسد والحاسّ والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والصنائع العلمية والعملية ، والعدد وخواصه ، والهندسة والموسيقى ، والمنطق وفروعه ، واختلاف الاخلاق ، وان الإنسان عالم صغير ، والعالم انسان كبير ، وماهية العشق ، والبعث والنشور ، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم . وبكلمة ، لقد ضمّنوا هـذه

الرسائل كل علم طبيعي ورياضي وفلسفي وإلهي وعقلي .

وفيها بحث من قبيل النشوء والارتقاء ، تناقلها العلماء وخصوصاً المعتزليين منهم ، ونقلت على يد الحكم بن عبد الرحمن الكرماني ، وهو قرطبي زار المشرق على عادة الاندلسيين للتبحر في العلوم ، فانتشرت هناك ودرسوها وتدبروها .

النجوم : قال العرب : ان صناعة التنجيم خرافة . ومالوا إلى الحقائق العلمية فعنوا بعلمها ، فرصدوا الافلاك والفوا الأزياج التي قاسوا بها العروض ، وراقبوا السيارات . واشهرهم في هذا العصر :

البيروني : أبو الريحان ، نسبة إلى بيرون بلد في السند ، اطلع على علوم الهنود واشتغل في النجوم والرياضيات والتاريخ ، واشهر كتبه الآثار الباقية في القرون الخالية ، التفهيم لصناعة التنجيم ، رسالة في الاسطرلاب ، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر .

الرياضيات : كان للعرب شأن كبير في الجبر والهندسة والحساب . ومما أحدثه العرب في الهندسة انهم طبقوها على المنطق . وقد فعل ذلك ابن الهيثم المصري في فجر القرن الخامس ، وأدخل هذا في الجبر قواعد جديدة، وأساليب في استخراج المسائل الحسابية .

واشتغل العرب في أعوص المسائل الهندسية ، كقسمة الدائرة الى سبعة أقسام .

واخترع عباس بن فرناس الآلة المعروفة بالمنقال ، يعرف بها الأوقات على غير رسم ومثال. حاول هذا المفكّر ان يطير فنسي الذنب فسقط على ازمكه.

أما الموسيقى ، فبرعوا فيها وان لم يؤلفوا فيها . واخترعوا آلات موسيقية ، وحسّنوا أخرى . وفي كتاب الأغاني قواعد كثيرة لهذا الفنّ مبعثرة هنا وهناك .

التاريخ : تطور التاريخ في هذا العصر ، فألفت التواريخ الخاصة للمدن والأمم والاشخاص . وسبب هذا التجزؤ الذي حصل في الدولة . اما تواريخ

الأشخاص فكان بايجاز منهم .

وتولد نوع جديد من التاريخ سموه علم الأوائل ، بحثوا فيه أوائل الوقائع والحوادث بحسب الموطن . وأول من ألّف به ابو هلال العسكري .

اما التاريخ العام ،فاصطبغ بصبغة الرحلات ، مع وصف الأماكن الجغرافية . وأكثر من أفاض في هذا ، المسعودي وهو من أهل الأسفار . اما النقد التاريخي فلم يكن في هذا العصر ، لان التواريخ كتبت تحت سيطرة الملوك والاعيان .

المسعودي

حياته : هو علي بن الحسين المسعودي ، نسبة إلى عبدالله بن مسعود الصحابي . ولد ببغداد وبها نشأ ، ولما شب وأربت سنه على العشرين ، استهوته الاسفار ، فضرب في البلاد شرقاً وغرباً ، وكانت رحلته لا تقل عن رحلات المختصين في هذا العصر . وقد سهل ذلك اتساع رقعة المملكة الاسلامية ، فاخذ يجمع أخبار الأمم والشعوب ، وتعرف احوال بلاد فارس والهند وسيلان ومدغشقر . وما عاد إلى بلاده عن طريق عمان ، حتى استأنف سفره إلى شواطيء بحر قزوين وبلاد الروم وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر والسودان ، وانقطع في آخر مطافه إلى التنقل بين مصر والشام ، ولزم التأليف وأخذ يدوّن ما رأى وسمع .

وهو ، لو محّص ولم يقبل كل حكاية ورواية ، لكان واحد عصره .

شخصيته : حلو المحضر ، لطيف المعاشرة ، كثير النكات ، يحب الفكاهة وقد عرف من الاخبار ما لم تضمه صدور الكتب .

تآليفه : أشهرها مروج الذهب ، وهو يحتوي أخبار الأمم التي عرفت في عصره قديمها وحديثها . وفي كلامه عن دولة العرب روى الوقائع وغرائب الاحاديث ، تمثل أحوال المدنية الاسلامية وحياة اهلها بنوع جلي واضح تلذّ

مطالعته ويجذب قارئه . وله كتاب كبير في الرحلات سماه أخبار الزمان ، ثم اختصره وسمى المختصر الكتاب الاوسط ، ثم أراد إجمال مـــا بسطه ، فوضع مروج الذهب ، وهو الذي بقي . ويقال ان له كتباً أخرى قد فقدت .

اسلوبه : عبارته قوية واضحة جلية ، فيها جمال أدبي ، وليست بغريبة عن الفنّ ، ولا تخلو من النقد والتدقيق .

وله آراء خاصة ، وان لم تخلُ من خرافات وأوهام كأكـــثر ما كتب في التاريخ والجغرافيا وأساطير الأولين. أراد ان يفكّه ، فضلّ في تحقيقه التاريخي والجغرافي والادبي ، فكان غير الجاحظ الذي وضع كل شيء على محكّ العقل .

وله ايضاً كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وهو تاريـــخ اكبر من مروج الذهب مفقود .

وهناك مؤرخون عديدون كحمزة الأصفهاني ومسكويه والمرعشي وصاعد الاندلسي .

الجغرافية : بنى علماء الجغرافية علمهم في هذا العصر على الرحلات ، لان هذا العلم لم ينضج ، ومع ذلك وصفوا اماكن لم يصفها احد قبلهم ، لانهم عرفوا اصقاعاً عديدة لم يعرفها احد . وقد رسم العرب خرائط عدة ، بدأوا بذلك في صدر الدولة العباسية . وأول من رسم الخرائط محمد بن موسى الخوارزمي في زمن المأمون ، فعيّن مواقع المدن والبحور بالدرجات الجغرافيـــة المبنية على علم الفلك .

اما الذين كتبوا في الجغرافية والّفوا فيها فهم : ابو زيـــد البلخي صاحب كتاب صور الاقاليم ، والاصطخري صاحب كتاب الاقاليم ، وابن حوقل صاحب كتاب المسالك والممالك (وهو غير كتاب خرداذبة) ، والمقدسي صاحب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، وهو افضل الجغرافيات العامة في ذلك العصر .

الادب

نضج العقل العربي في هذا العصر ، فبحثوا في كل فنّ ومطلب وأفردوا لكل فنّ باباً . فبعد ان كان كل شيء يروى على علأته ، مال العرب في هذا العصر الى التدقيق والبحث ، فمن شك في رواية ، الى معارضة شعر بشعر .

نبغ في هذا نقاد للشعر ، كقدامة بن جعفر وابن رشيق الاصبهاني والثعالبي. فمنهم من انتقد الرواية ، ومنهم من انتقد الشعر ، وكل هذا نشأ فيهم من اطلاعهم على العلوم الجديدة والفلسفة والمنطق . فنمت فيهم هـــذه الملكة وأصبحوا لا يقبلون شيئاً على علاته ، فأخذوا ينتقدون ويمحّصون ويعارضون شاعراً بشاعر ، ويدلون على اسبقية بعضهم على بعض ، ويفضحون سرقات المعاني والافكار ، ويحكمون بالاسبقية لمن أجاد اخراج الصور . كان جلّ اعتمادهم على الصناعة اللفظية ونقدها ، وقلما تعرضوا للافكار الا في بعض أماكن . كان همهم ان يدلوا على مخالفات الفصاحة والقواعد والركاكة المخالفة لعلم البلاغة .

أهم من قام بهـــذا العمل ، اربعة : الاصبهاني ، الثعالبي ، ابن رشيق ، العسكري .

الاصبهاني

المبرّد وابو عبيدة والاصمعي والجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه والقالي،ومن سبق ذكرهم ، كل هؤلاء أدباء عنوا بالأدب جد العناية ، ولكنهم لم يجمعوا كلهم على طريقة واحدة.فالجاحظ وغيره كتبوا مزيجاً في الأدب وغيره،أما الأصبهاني الذي ندرسه فلم يكتب الا الأدب وما تبعه من مقدمات ونتائج .

حياته : عربي أموي ، ولد في اصبهان، يتصل نسبه بمروان بن الحكم، شيعي وان كان اموياً ، اسمه علي بن الحسين وكنيته ابو الفرج .

نشأ في بغداد وكان من أفراد مصنفيها الأفذاذ ، قوي الحافظة عالم بالانساب صادق الرواية ، عارف بفنون كثيرة ، وهو شاعر ايضاً .

له كتب عديدة ، اشهرها كتاب الأغـاني الخالد الذي حفظ كنوزاً ادبيـة جليلة كانت فقدت لولا عنايته واجتهاده .

شخصيته : أديب ظريف ، سليـط اللسان ، مخشيّ البادرة ، ملمّ بعلوم كثيرة ، عالم بالانسـاب ، عارف بالمثالب ، ولذلك هابه الناس حتى الأمراء منهم، فقبلوه في مجالسهم وتوددوا له لظرفه وحسن حديثه ، مع انه كان قذر الثياب قلما يغسلها ويبدلها . حسن النقد لما يسمع ، كان كاتباً اكثر منه شاعراً ، يحسن التأليف والتصنيف. وكفى بكتاب الاغاني دليلاً يمثل لنا الأدب الواقعي اصدق تمثيل . اسلوبه قصصي ، يحسن القصّ الى ابعد مدى ، لا يكف عن موضوعه حتى يخرجه كاملاً محيطاً كافياً .

الاغاني : ألـّفه في خمسين سنة ، بناه على المئة الصوت التي اختيرت للرشيد

وزاد عليها ، وذكر سير اصحابها وتعرض إلى ما تعلق بها من حوادث ، فجاء الكتاب تاريخ اشخاص ووقائع ومغـــاز وايام وحوادث حب وحرب وشعر وفـكاهة . هذا الكتاب هو بحق ديوان العرب ، رفعه إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه الف دينار واعتذر اليه . ويقولون ان الصاحب بن عباد استغنى به عن مكتبته الضخمة . طبـع الكتاب في ٢١ جزءاً ، ووضع له فهرستاً العلامـــة جويدي الطلياني فجاء في ٤ اجزاء .

تأثر الأصبهاني بطريقة الجاحظ فـكاد يدنو منه ، ولكن اختلاف الشخصية لم يمكنه من ذلك ، فظل بينهما فارق .

الثعالبي

حياته : ابو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري الثعـــالبي نسبة إلى الثعالب ، لانه كان فرّاء .

خاتمة ادباء هذا العصر في الترسل ، وأكثرهم آثاراً واوسعهم مـــادة . وهو الذي جمع اخبارهم وأقوالهم ،فجاء عمله هذا جزءاً متمما لما فعله صاحب الاغاني، فكان زعيم المؤلفين والمصنفين . قال الشعر واجاده ، فهو ناثر مبدع وشاعر مجيد.

تعمد السجع فيما دوّن وكتب . اما صاحب الاغاني فارسل الكـــلام على السليقة كما يتلفظ به العربي في بداوته ، بدون سجع ولا تنميق .

وقد نظر في الشعر الذي رواه وانتقاه نظرة مدقق خبير ، ففاضل وقارن واحسن الانتقاء والاختيار . وكان يميل إلى شعراء الشام في حكمه ، فحكم لهم في السبق في حلبة الشعر ، وأيد ما قاله ببراهين وادلة . الحق يقال ان لواء الشعر في عصره كان معقوداً للشآميين .

اليتيمة : لولا اليتيمة امحى ذكر شعراء كثيرين . فهذا الكتاب يحتـــوي أخبار شعراء المئة الرابعة الهجرية ، وهو اربعة مجلدات فيها عدة ابواب . باب

لشعراء الشام ، وخصوصاً المتنبي وأبا فراس وغيرهما ، وباب لشعراء المغرب ومصر ، وباب لشعراء الموصل ، وباب لآل بويه وشعرائهم وكتّابهم ، وباب عن شعراء البصرة وبغداد والعراق كافة ، وبابان خاصان بابن العميد الصاحب ، وشعراء أصبهان ، والقادمين على الصاحب ، وشعراء الجبل وفارس والاهواز وجرجان ، ودولة بني سامان ، ففضلاء خوارزم ، وفصول عن ابي بكر الخوارزمي والهمذاني والبستي والميكالي ، وشعراء خراسان والطارئين على نيسابور ، الخ ...

ولا عيب في كتابه الا انه مال الى السجع كما قلنا ، في حين ان هذا الانشاء ليس بالاسلوب التاريخي .

وله غير هذا الكتاب كتب كثيرة ، بعضها مطبوع والآخر محفوظ في المكاتب الكبرى في اقطار مختلفة ، وقد احصاها جرجي زيدان في كتابه فبلغت ٣٦ مؤلفاً .

ابن رشيق

حياته : هو من اهل القيروان واسمه ابو العباس الحسن بن رشيق من اهل القيروان . كان صائغاً كأبيه ، ثم تحول الى الادب، ورحل الى القيروان وامتدح صاحبها واتصل به . وظلّ في القيروان حتى خربها العرب وقتلوا صاحبها ، فانتقل الى صقلية واقام بمازر حتى مات .

تآليفه — العمدة : كتاب يبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه . قسمه مؤلفه ابن رشيق الى ابواب : في فضل الشعر واشعار الخلفاء والفقهاء ومن رفعه ووضعه الشعر ، واحتفاء القبائل بشعرائها، الخ. واوزان الشعر وحدوده، والبلاغة والايجاز والاستعارة الخ . وانواع الفصاحة والاوزان وجوازاتها .

يتخلل كل ابحاثه طائفة منتقاة من جيد الشعر ، وبحث تحليلي في الشعر

ومعانيه على طريق الانتقاد . وقد قال ابن خلدون في هذا الكتاب : ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله .

العسكري

أبو هلال ، صاحب كتاب الصناعتين : النظم والنثر . كتب في هذا الباب على نسق من تقدموه ، وقد بين معايب الشعر ومحاسنه ، وبحث علم البلاغة بحثاً دقيقاً ، ونقـد الشعر على طراز من سبقه ، وكتابه هذا جزيل الفائـدة ، وهو مطبوع .

الادب في الاندلس

فتح المسلمون الاندلس وجلا اليها العرب والبربر من شمالي افريقية ، ولحق بهم كثيرون من جميع قبائل العرب من مصر والشام ، فتكوّن منهم بعد قليل جمهرة عظيمة مختلطة بطوائف من البربر ، حتى توصلوا بفتوحهم الى نهر اللوار في فرنسا .

هؤلاء الطارئون والفاتحون اصبحوا بعدئذ اصحاب السيادة في البلاد على القوط والاسبان واليهود وغيرهم من أهل البلاد . ثم امتزجوا بهم بالمصاهرة لإسلام جمهرة منهم ، فنشأ من كل هذا الخليط شعب مؤلف من عدة عناصر ، ذو صفات ومزايا جديدة ، شاركه في بعضها من بقي في دينه من بقايا الاسبان واليهود .

ثم تنوعت هذه الصفات بتنوع العصور المختلفة ، بما وقع فيها من الحوادث السياسية والاجتماعية والدينية التي تبقي أثراً بيّناً في اللغة وأدبها ، يمكننا أن نقسمه إلى أربعة أطوار :

الأول : عصر الولاة الأولين الذين كان يوفدهم الخلفاء الأمويون ، وهو طور نصفه فتح ، ونصفه فتن داخلية انتهت بعصبية مقولية ، ختمت باستيلاء عبد الرحمن الداخل ، وتأسيسه دولة عربية ثانية في الغرب ضارعت الدولة العباسية ، وعدد ولاتها عشرون .

الثاني : عصر رقيّ اللغة وآدابها ، وهو عصر الدولة الأموية الغربية وملوك الطوائف ، الذين استبد كل منهم بناحية واستقل فيها . يمتد تاريخ هذه

الحقبة من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٨٤ هـ .

الثالث : عصر جمود اللغة وتقهقرها ، وهو عصر دولتي البربر من المرابطين والموحدين وهم الذين استولوا على ممالك الطوائف ، وجعلوا الاندلس ولاية تابعة لسلاطينهم بمراكش وفاس ، ومدته من ٤٨٤ إلى ٦٣٠ هـ .

الرابع : طور يقظة الموت ، وهو عصر الدولة العربية الثانية ، من ابن هود بن الاحمر ، ومدته من ٦٣٠ إلى ٧٩٧ هـ . وقد استطاع أرباب هذه الدولة المحافظة على جنوبي البلاد أكثر من قرنين ، ثم اجلاهم الاسبان عنها .

أما أرقى عصور هذه الدولة حضارة وأدباً فهو عصر بني امية وملوك الطوائف .

اللغة في العهدين

كانت حالة اللغة في عصر الولاة ، بين العرب ومستعربي البربر ، كما كانت في عهد الامويين في الشرق .

وفي زمن الدولة الأموية الأندلسية كانت تنهج نهج الدولة العباسية وتحاكيها وتنافسها في كل شيء ، وفاقتها في البناء ، وبلغت حضارتها ورقيها في العلوم والآداب غاية المجد زمن الخليفتين الناصر والمستنصر ابنه ، وزمن الحاجب المنصور الذي استبد بأمر الدولة بعدهما .

ولما انتشرت الفتن في آخر عهد الامويين انقسمت البلاد إلى عدة ممالك مستقلة ، مدة نصف قرن ، فقام في كل صقع منبر وأمير ، حتى قال فيها الشاعر :

مما يزهّدني في أرض اندلس ... ألقاب معتمد فيها ومعتضدِ
القاب مملكة في غير موضعها ... كالهرّ يحكي انتفاخاً صورة الاسد

وقال شاعر آخر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة ... منها أمير المؤمنين ومنبر

لم تكن حال الحضارة والعلم والأدب فيها أقل منها زمن الدولة الأموية ، إلا انها تقهقرت عندما صارت الاندلس ولاية تابعة للملوك البربر في مراكش من المرابطين والموحدين ، وانتعشت قليلاً في زمن بني الأحمر ، آخر دولة اسلامية في الاندلس .

الشعر : نقل العرب إلى الأندلس اخلاقهم وعاداتهم وأدبهم وشعرهم ، فاستخدموا الشعر فيما كانوا يستخدمونه في عصر بني أمية بالمشرق ، من أنواع الحماسة والحضّ على الجهاد والدعوة إلى العصبية وإثارة الفتن . ولما خمدت الفتن وقرّ الملك في بيت عبد الرحمن ، هبّ الشعراء ينحون مناحي الشعر التي فشت في الاسلام ، فصار الشعر صناعة فئة من المتأدبين يتكسّبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والانقطاع اليهم . وشجعهم هؤلاء أمويّهم وعلويّهم وبربرهم ببذل العطاء لهم وتقريب منازلهم منهم . فاتخذوهم بطانة وندماء ، واعواناً ووزراء ، إذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعظماء الناس هناك ، بل كانت حلية كل متعلم ، فقلما عجز عن قول الشعر انسان منهم ، بل نظمه كثيرون منهم حتى الأميّون ، ولم يأنف من نظمه الخلفاء والوزراء والأمراء والفقهاء ، فأولع به كل الطبقات حتى النساء ، ومنهن من بارين الرجال فيه .

ولا نسمع بفقيه أو فيلسوف أو طبيب أو رياضي أو مؤرخ إلا نراه شاعراً بليغاً له مطولات ومقطّعات شعرية ، في أغراض مختلفة ، وذلك لجمال ارضهم وبيئتهم وطيب عيشهم وميلهم الفطري إلى الشعر ، لأن اكثرهم من عناصر عربيـة .

وإذا لم يشتهر فيهم أمثال بشار وابي نواس والمتنبي وابي تمام والبحتري ، فذاك لبعدهم عن المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام فيها .

لقد نظم شعراء الاندلس في جميع الانواع الشعرية والاغراض حتى الخمريات والمجون والموشحات والازجال ، ولكنهم فاقوا العباسيين في وصف مناظر الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة . وأشهر هؤلاء أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس . ثم نظموا قواعد العلم شعراً ، وبعض الحوادث التاريخية ، وقصروا عن المشاركة في الحِكَم التي تسير سير الأمثال .

كان شعرهم في الغزل غاية في الرقة ، والخيال الشعري الجميل مـــادة معانيهم ، وقلما أتوا في شعرهم بقضايا عقلية واحكام فلسفية .

الموشحات : وزادوا على شعراء المشرق في أوزان الشعر وقوافيــه (فن الموشح) .

وهو يتركب من طوائف من أبيات أو شطور تتغير فيها القوافي . واشهر اصحاب الموشحات لسان الدين الخطيب وغيره .

وقد روى لابن المعتز من المشارقة موشح يمتاز بتماسك ديباجتـــه ولا يقل رنّة عن موشحات الاندلسيين .

ونظموا الموشح باللغة العامية فلقب بالزجل ، ثم شاع هذان النوعـــان في المشرق فحاكى المشارقة فيها الاندلسيين حتى وقتنا هذا .

ونبغ في الاندلس شعراء وشاعرات عديدون لايحصون ، أشهر مشهوريهم : ابن هاني وقد سبق ذكره ، وابن عبد ربه ، وابن خفاجة ، وابن حمــديس ، وولادة ، وابن زيدون الخ . واخيراً ظهر الزجـــل الذي يُتّبع عندنا اليوم ، وقد صار عامياً صرفاً في لهجته . وقد خصصنا هذا الفن بكتاب يظهر ان شاء الله . (١)

النثر : كانت مناصب الكتابة في عصر الولاة وأول عصر بني أميـــة كما كانت عليه في المشرق يتولاهـــا الأمير مملياً على كاتبه ، أو الكاتب برأي الامــير . وإذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سمّي حاجباً ، وهو أشرف ألقاب الدولة . أما اسم الوزارة فكان يطلق على كل من يجـالس الملوك ويختص بهم . ثم صار لقب الوزير للذي ينوب عن الملك في سياسة الدولة ويلقب بذي الوزارتين ، يكون غالباً من رجال الأدب .

وكذلك كانت حالة الكتابة من جزالة اللفظ وفخامة المعنى وخلوهـــا من السجع ، إلا نادراً .

ثم حاكوا المشارقة في نظـــام الدواوين ورسوم الكتابات من تمييز اقسامها

---

(١) صدر هذا الكتاب حديثاً ، وعنوانه : « الشعر العامي » .

وتنويع بدئها وختامها ، وتسجيع عباراتها ، كطريقة ابن العميد في السجع القصير ، واستمداد المعاني من الخيال ، وحلّ المنظوم ، ومن القرآن والحديث ، وتضمين الأمثال ، والتلميح إلى حوادث التاريخ .

وكتبوا في كل الاغراض التي طرقها كتّاب المشرق ، ولكن بلاغتهم لم تنحط في آخر امرهم كما انحطت في مصر والشام ، في العصور التركية ، لقلة طروء العناصر الاعجمية عليهم ولتأصّل عادة الاشتغال بالعلم فيهم .

كتّابهم : ابن شهيد ابلغ كتّابهم ، له في الوصف والمداعبات رسائل بديعة ، وابن زيدون ، والفتح بن خاقان .

التدوين والتصنيف : ابتدأ التدوين والتصنيف في أواخر عصر الأمويين وصدر العباسيين ، أما الأندلس في ذلك الزمان فكانت مضطربة . فلما وطد عبد الرحمن أركان ملكه ومهّد طريق الحضارة والرخاء والأمن لأهلها ، هبّوا يرحلون إلى الشرق لاداء فريضة الحجّ واقتباس العلوم . فتابعوا رحلاتهم إلى الشرق برّاً وبحراً ، ونقلوا إلى بلادهم علوم اللسان والدين ، لان الاندلسيين كانوا اشدّ أهل الأرض حباً للعلم ، وتفانياً في تحصيله وتوقيراً لأهله . وساعدهم على ذلك بنو امية وخلفاؤهم ببذل الأموال العظيمة في جمع الكتب ومكافأة العلماء . وأحلّوهم ارفع منزلة ، وسمعوا أمرهم وخضعوا لنهيهم ، وأخصهم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (الحكم) . وقد جمع الحكَم هذا في مكتبته بقصر قرطبة مئات الالوف من الكتب .

وكذلك كان أكثر خلفاء بني امية ، واعيان قرطبة ، فما انقضى القرن الرابع حتى نبغ ألوف من العلماء ، فضارعت الأندلس المشرق وفاقته في بعض العلوم .

ولم يقصر ملوك الطوائف عن الأمويين فآزروا العلم وقربوا العلماء ، وكان من ملوكهم الأدباء أيضاً مثل المظفر أحمد بني الافطس صاحب بطليوس ، وواضع التاريخ المظفري في ٥٠ مجلداً .

وفي عصر المرابطين هدأت حركة العلم قليلاً لأنهم اضطهدوا أصحاب الآراء والنِحَل المذهبية ، حتى تساهل الموحّدون في أمر مطاردة الفلسفة وعلومها ،

فنبغ من الحكماء والاطباء والكيائيين جاعة اشهرهم : ابن رشد ، والباجي ، وابن زهر .

ثم قل الاختصاص في العلوم ، وكانت الحركة العلمية تنتعش أحياناً ثم ترقد، حتى أباد الاسبان العرب وعفّوا آثارهم وأحرقوا كتبهم ، فلم يسلم منها إلا ما نقل قبل الجلاء أو جهل مكانه .

تاثير الأندلس : للأندلس أكبر أثر عربي في الغرب ، فكلية قرطبة كانت تضمّ بين جدرانها اثني عشر الفاً من الطلاب ، عرب وغير عرب .

الفنّ العربي في البناء تجلـّى بأبهى مظاهره في الأندلس من قصر الحمراء إلى جامع قرطبة .

جعلوا للغة العرب سيادة هائلة في الغرب فاندحرت أمامها جميـــع اللغات، حتى طلب رؤساء الدين المسيحيون من البابا ان يترجموا كتب الطقوس الدينية إلى العربية .

أدخـــلوا في لغات الغرب القافية في الشعر التي لم يعرفها الغربيون قبل العرب ، ثم طوّروا شعرهم إلى نوع الموشحات .

واخـــذ الطرب عن العرب من الموسيقى الكمنجة (الرّباب) والفليت (الشبّابة) عدا الالفاظ التي ملأت لغات الاوروبيين . أما العلوم وفروعهـا فحدّث عنها ولا حرج ، فقد ظلت كتب العرب مصدراً لها ، ولا يزال حـــتى اليوم المستشرقون يخرجونها كل عام .

شعراء الاندلس

شعراء الأندلس فئتان : فئة ظلت محافظة في شعرهـــا على النمط الشرقي فلم تخرج على التقليد ، فقالت قصيدتها على الطراز الذي ألفه الشعراء المشارقـة في التفكير والتصوير ، فلم تكن افكارهم غير شرقية . وعندما قـال الصاحب ابن عباد كلمته — حين اطلع على العقد الفريد ولم يجد فيه ما كان ينتظر من ادبنا عبر البحار — : هذه بضاعتنا ردّت الينا ، جاءت تلك الكلمة في محلها . ولكن الفئة الثانية خرجت على العروضيّ .

فالعرب الاندلسيون في فجر هجرتهـم كانوا مقلدين للمشرق في كل شيء ، حتى الالقاب التي كان يتخذها ملوكهم . ولما طال الزمـــان وتأثروا بمحيطهم الجديد خططوا قصائدهم على النظام المعماري الغربي ، فصارت قصائدهم غير ذات زوايا اربـع كبيوتنا الشرقية .

ولما كان هذا الكتاب معمولاً ، كما قلنا في التوطئة ، ليكون دليلاً للقارىء في دنيا ثقافتنا الواسعة ، اكتفينا بما قلنا حتى لا نخرج عن تخطيطنا . ولهـــذا نقول ان شعراء الاندلس ليسوا كلهم ممن وشحوا قصائدهم فنوعوا قوانينهـــا ووحدوا موضوعها ، ولعل أول المحافظين كان ابن عبد ربه الذي لقب بمليـــح الاندلس .

ابن عبد ربه

هو مليح حقاً ، وقد كان المتنبي محقاً حين سمع شعره وأثنى عليه . فلهذا الأديب شعر متماسك خال من تلك الميوعة الـتي نجدها في شعر المتوسطين من شعر ذلك الشطر من الامبراطورية العربية . فليس في شعر الانـدلسيين الذين قالوا الموشحات شعر يماشي شعر المشارقة غير موشح لسان الدين الخطيب : « جادك الغيث » . والموشح الآخر المنسوب لابن المعتز .

فابن عبد ربه ، وهـو الشاعر الجيد الذي لم يتخلّ عن شرقيته ، له شعر ذو خط كبير من الخيال واعتماده على الاستعارة والتشبيه ، والذي رأيته هو ان خياله أقوى من عاطفته .

ولد هذا الشاعر بقرطبة ، وانكب على المطالعة ، ثم لما اشتدّ ساعـده الّف كتابه « العقد الفريد » الذي زيّن به جيد حسناء يعرب .

ابن زيدون وولادة

لا تغرّك هـذه الواو والنون ، فالعرب قالوا هكذا ، وابن زيدون من مواليد قرطبة وهو عربي اصيل من بني مخزوم ، وُهب ملكة شعرية رائعة فقال الشعر بقطر رواءً وماويّة . قال أشهر قصائده كما أوحاها إليه قلبـه ، فدارت على الالسن وظلت حتى يومنا هـذا في دورانها . قالها حين حيل بينه وبين حبيبته ولّادة بنت المستكفي ، وهي شاعرة من طرازه ، وقد كانت

سافرة في ذلك الزمان ، رغم انها بنت الخليفة المستكفي .

اراد ابن عبدوس ان يشاركه في حبها ولكنها لم تمل إليه ، ولما كان هـذا من المقربين من اوليـــاء الأمر دسّ الدسائس ، فنجحت وشايته ، فسجن ابن زيدون . ولمـا عجز عن استرضاء ابن جَهْور صاحب العرش ، فرّ من سجنـه ولجأ إلى المعتمد بن عباد .

واشتهر ابن زيدون بالرسالة التهكمية التي وجهها إلى ابن عبدوس ، وهي من طراز رسالة التربيع والتدوير التي كتبها الجـــاحظ . والرسالة تشبه اليوم مـــا عرف بـ « طبق الأصل » ، إذ كتبها عن لسان ولادة ، صاحبة الندوة الأدبية ، التي تقول في وصف نفسها :

انا والله اصلـــح للمعـالي ... وامشي مشيتي وأتيه تيهـا

امكن عاشقي من صحن خدي ... وامنح قبلتي من يشتهيهـــا

وقد كانت تكره ابن عبدوس ولا تخشى ان تتندر عليه . فمرت عليـه مرة وهو جالس أمام بركته الآسنة ، فقالت له متمثلة :

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحـــر

وقد كانت ولادة شاعرة حرة التفكير ، كأنها من نساء اليوم المتطرفات . وإذا لم تنظم الروائع فحسبها ان حبها أوحى إلى ابن زيدون قصيدته الباقية : « اضحى التنائي بديلاً من تدانينا » .

ابن عمار

ولد في بيت خامل . تأدب في قرطبة مدينة الأدب والعلم ، ثم صار معلماً للمعتمد بن عبّاد ونجيّه وسميره ووزيره . وابن عمّار يجاري ابن زيدون ، واغلب قصائده في مدح المعتضد وابن المعتمد .

شعره : يمتاز شعر ابن عمّار بصوره كما امتاز شعر ابن زيدون بعاطفته الحامية الوطيس . ومن قول ابن عمار في مدح سيده :

اثمرت رمحك في رؤوس ملوكهم   لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت رمحك من دماء كماتهم   لما علمت الحسن يلبس احمرا

أما نهاية ابن عمار فكانت بشعة . تآمر على مولاه المعتمد وعصاه ، فسجنه المعتمد ولم يعفُ عنه رغم القصائد التي قالها في طلب العفو ، بل قتله بيده في سجنه وأمر بدفنه .

ابن حمديس الصقلي

شاعر مبدع في الصور والتخيل ، تعمق في وصف الطبيعة والعمران . وجد خياله مجالاً واسعاً ، وكان له في محيطه مرعى خصيب : جنائن وارفة الظلال وانهار تغني للغصون فترقص ، بدائع وطرائف راح يصورها بقلمه ، فجاءت لوحات طريفة نادرة .

وقد مشى على خطى البحتري في وصف القصور والبرك ، وسعى وراء التشابيه والاستعارات يتصيدها حتى ظهرت الصنعة وكثرت .

ولم يهمل شعر المدح فأغرق فيه ، وعاش ميسوراً .

ابن خفاجة

ولد بجزيرة شقر ، وهو كابن حمديس في اغراضه الشعرية ، حاكاه في صوره واحساسه . وآفة الشعراء سيرهم خلف بعضهم كالقوافل على الطرق المعبدة . لكن ابن خفاجة لم يتكسّب بشعره إلا نادراً ، فقاله في الموضوعات الاخرى .

ابن سعيد

شاعر اندلسي ، هاجر إلى مصر فأصابه داء الحنين إلى وطنه ، فقال شعراً جيداً في ذلك ، متذكراً غرناطة التي ولد فيها .

لسان الدين الخطيب

ولد بلُوشة ،وتضلع من جميع علوم زمانه حتى صار فيها حجة . ولما اجتمع اشدّه خلف اباه ووزّر لبني الاحمر . وظل ينعم في ظل العزّ الوارف ، حتى خلع مولاه فاعتقل وعذب ، واتهم بالالحاد والزندقة عملاً بالكلمة المشهورة : من تمنطق فقد تزندق . ثم كانت الفتوى واباحة دمه ، فهاجموا السجن فخنقوه وطرحوا جثته فدفن ، ثم اخرج من لحده وأحرق .

كان لسان الدين شاعراً وكاتباً وخطيباً وفيلسوفاً مشاركاً في جميع علوم

زمانه . وله مؤلفات ، منها : كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة ، وكتاب الاشارة إلى آداب الوزارة ، وبستان الدول .

تآليفه : وقد أوصل المقرّي تآليف لسان الدين الخطيب إلى الستين . واشهر موشح اتبع حتى قلده المشارقة والمغاربة ، وهو موشح لسان الدين الذي مطلعه :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالاندلس

وله غيره موشحات كثيرة وشعر وافر .

المعتمد بن عباد

سيرته – حياته : ابوه المعتضد العبادي ملك اشبيلية ، مات أخوه الذي كان صاحب الحقّ في ميراث العرش ، فانتهى الأمر إليه . اتخذ الشاعر ابن عمار وزيراً لدولته ، ثم قتله بيده كما مرّ .

استولى على قرطبة ، وبلغ مرسية . ولما اتسعت رقعة ملكه وخاف عليه من ملك قشتالة الفونس ، استنجد بابن تاشفين ملك مراكش فلبّاه ثم انقلب عليه واشعل نار الفتن ، فاستولى على قرطبة واشبيلية وأسر المعتمد ونفاه واهله إلى اغمات ، وهناك مات بعد عذاب شديد وفقر ليس فوقه فقر .

هذا الملك هو أحد الذين صورهم أحد شعراء عصرهم حين قال :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة   منها امير المؤمنين ومنبر

انه شاعر وقد وصف لنا سوء مصيره في شعره الذي هو ابلغ معبّر عن آلامه ونكبته الفظيعة . قال يصف موقفه من العيد في اغمات :

فيا مضى كنت بالأعياد مسروراً   فجاءك العيد في اغمات مأمورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة   يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة   ابصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والاقدام حافية   كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
افطرت في العيد لا عادت اساءته   وكان فطرك للأكباد تفطيرا

من بات بعدك في ملك يسر به فانمـــا بات بالاحلام مغرورا

وخوفاً من ان تتساءل كما تساءل العقـّاد عن التين والعنب في قصيدة ابي تمام البائية فتقول منتقداً: متى كان المسك والكافور للموطىء ؟ فاننا نقول لك كما قلنا لذاك العلاّمة في غير هذا الكتاب :

حكاية المسك : زعموا ان زوجة المعتمد اعجبها مشهد النسوة الفقـــيرات يحملن جرارهن ويخضن في الوحل ، فتمنت ان تفعـــل مثلهن ، فأبى المعتمد ، ولكنه حباً بتلك الملكة عمل لها وحلة من مسك ، فحملت جرتها مثلهن وفعلت هي وبناتها كما فعلن .

ويقال انها حينما جاءت زائرة زوجها الملك في زندانه ، تذمرت وقـــالت : انها لم تشاهد يوماً ابيض في حياتها معه .

فأجابها المعتمد : ولا يوم الطين ؟..

من بات بعدك في ملك يسر به فانمـــا بات بالاحلام مغرورا

وفي قصيدة ثانية وصف صورته في الاسر ، فقال يخـــاطب قيده ويستطرد إلى وصف حالة صغاره :

قيدي امـــا تعلمني مسلما ابيت ان تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد هشمته ، لا تهشم الاعظما
يبصرني فيـك ابو هـــاشم فينثني والقلب قـــد هُشّما
ارحم طفـَيلاً طائشاً لبـــه لم يخشَ أن يأتيك مسترحما
وارحم أُخيـّاتٍ له مثـــله جرعتهن السمّ والعلقـــما
منهن من يفهم شيئاً فقـــد خفنا عليه البـــكاء والعمى
والغـــير لا يفهم شيئاً ، فما يفتح إلا لرضاعٍ فـــما

كم كنت اتمنى لو كان نابغتنا جبران قد صوّر المعتمد مستلهماً قصيدتيه هاتين بدلاً من ذلك الشكل الملكي الذي صور ابن عباد فيه .

ان الرجل في مصيبته أروع منه وهو على عرشه وفي أبهة ملكه .

المعتمد وابو فراس : المعتمد ابو عيلة ، ولذلك جاء تفجعه مؤلمـــاً . أما ابو

فراس فكان براً بأمه فما ذكر غيرها حين قال :

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنيه

فبعد هذا الذي نقلناه لك من شعر المعتمد ، اقول : تعطلت لغة الكلام فقابل انت بين الشاعرين ، فكلاهما منكوب ، وقد صحّ فيه قول من قال :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والموت واحد

فلو تذكّر المعتمد في سجنه بأية صورة وحشية قتل شاعره ووزيره ابن عمار ، لهانت عليه مصيبته . وعندما تقرأ رثاء ابي البقاء الرندي للاندلس ، ستهون جميع المصائب . وهذه هي :

رثاء الاندلس

لابي البقاء الرندي

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرّ بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان
يمزّقُ الدهرُ حتماً كل سابغةٍ إذا نبَتْ مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو كان ابن ذي يَزَنٍ والغِمْدُ غمدانُ
اين الملوكُ ذوو التيجان من يمنٍ واين منهم اكاليل وتيجان
واين ما شاده شدّاد في إرَمٍ واين ما ساسه في الفرس ساسان
واين ما حازه قارون من ذهب واين عادٌ وشداد وقحطان
اتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملَكٍ كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله وامَّ كسرى فما آواهُ ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب يوماً ولم يملك الدنيا سليمان
فجائع الدهرِ أنواع منوعة وللزمان مسرات واحزان
وللحوادث سلوانٌ يسهّلُها وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة امر لا عزاءَ له هوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثهلان
اصابها العين في الاسلام فارتزأت حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بَلَنْسِيَةَ ما شأن مُرْسِيَةٍ واين شاطبة ام اين جيّان

وأين قُرطبة دار العلوم فكم … من عـالم قد سما فيها له شان

وأين حمصٌ وما تحويه من نزه … ونهرها العذب فيـاض وملآن

قواعـد كنَّ اركان البلاد فما … عسى البقاء إذا لم تبق اركان

تبكي الحنيفيّة البيضاءُ من اسف … كما بكى لفراق الإلفِ هـيمان

على ديار من الاسلام خـاليةٍ … قد اقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما … فيهن إلا نواقيس وصلبـان

حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدة … حتى المنابر ترثي وهي عيدان

يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ … ان كنت في سنةٍ فالدهرُ يقظان

وماشياً مرحـاً يلهيه موطنه … أبَعْدَ حمصٍ تغرُّ المرءَ اوطان!

تلك المصيبة انست ما تقدمهـا … وما لها مع طول الدهر نسيان

يا راكبين عتاق الخيل ضـامرةً … كأنها في مجـال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفةً … كأنهـا في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعـة … لهم باوطـانهم عز وسلطان

اعندكم نبأ من اهـل اندلس … فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث صناديد الرجال وهم … قتلى واسرى فما يهـتز انسان

ماذا التقاطع في الاسلام بينكم … وانـتم يا عباد الله اخـوان

الا نفوس أبيّات لهـا همم … أما على الخير انصار واعوان

يا من لِذلّةِ قومٍ بعد عزهم … احـال حالهم جور وطغيان

بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم … واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم … عليهم من ثيـاب الذل ألوان

ولو رأيت بـكاهم عند بيعهم … لهالـك الامر واستهوتك احزان

يا ربَّ أمٍ وطفلٍ حِيلَ بينهما … كما تُفرّق ارواح وأبـدان

وطِفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت … كأنما هي ياقوتٌ ومرجان

يقودُها العلجُ عند السبيِ مكرهةً … والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيران

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمَدٍ … ان كان في القلبِ اسلام وايمان

شذرات من موشحات الاندلس

لشمس الدين الدمان

بأبي غصن بانة حملا　　بدر دجى بالجمال قد كملا　　اهيف

. . . .

فريد حسن ما مال او سفرا　　الا اغار القضيب والقمرا
يبدي لنا بابتسامة دررا
وشهده لذ طعمه وحلا　　كأن انفاسه نسيم طلا　　قرقف

. . . .

مورد الخد فاتر المقل　　يفوق ظبي الكناس بالحول
وينثني كالقضيب بالميل
من حمل ردف مثل الكثيب علا　　نيط بخصر كاضلعي نحلا　　مخطف

. . . .

ظبي من الترك يقنص الاسدا　　مقرطق اذابني كمدا
حاز جميع الكمال وانفردا
واهاً له لو جار او عدلا　　لمستهام بصبه بخلا　　مدنف

لشهاب الدين الموصلي

الهوى ضرب من العبث　　وبه العشاق قد عبثوا

. . . .

لي مليـــح وصله امـــلي — يزدهي كالشمس في الحمـــل
جـــائر يسطو بمعتـــدل — ينثني كالشارب الثمـــل
خنث ناهيـــك من خنث — فهـــو روح والورى جثث

• • • •

غُصُنٌ يصبي بمـــائله — فشمـــولي من شمائله
وغليـــلي من غـــلائله — وخمـــولي من خمائـــله
لذّ لي في ريّـــه شغثي — برح العذال او مكثـــوا

لشهاب الدين العزازي

يا ليلة الوصل وكاس العقار – دون استتار – علمتماني كيف خلع العذار
فاغتنم اللذات قبل الذهاب — وجر اذيال الصبـــا والشباب
على خدود تنبت الجلنار – ذات احمرار – طرزها الحسن بكاس العذار
الراح لا شك حياة النفوس — فحل منها عاطلات النفوس
وافتضها بين الندامى عروس
تجلى على خطابها في ازار – من النضـــار – حبابها قام مقام النثار

لاحمد اللخمي الغرناطي

حياك بالافراح ، داعي الصباح ، قم لاصطباح ، فالنوم في شرع الهوى لا يباح
والصبح قد جرد منه حسام — باد القسام
تضحي وجوه الزهر منه وسام — ذات ابتسام
وخافق البرق بدا بالنياح ، سامي الليـــاح ، وادمع المزن به في انسباح
والروض في ذاك الهتون البليل — ظل ظليل
يغدو نسيم الزهر منه عليـــل — يشفي الغليل
وساجل البلبـــل يبدي اليل — على خليل
لما رأى تلك الغياض الفساح ، غنى وصاح ، وكاد يزري بالطيور الفساح

لابن غزله

يا من حكى خده الشقائق   وما له بالبها من شقيق
تركتني بالدمـــع شارق   لما بـــدا خدك الشريق

. . .

سللت من ناظريك صارم   للفتك ياشادن الصريم
وسرت يوم الفراق سالم   وقد تركت الحشا سليم
متى اراك الغـــداة قادم   يا من حديثي بـــه قديم
شيبت من اجلك المفـــارق   وسرت مع جملة الفريق
ما بين حاد حـــدا وسائق   قلبي بمن ساقـه وسيق
بالله يا سفاك   اغمد ظباك

اغمض ظبا الجفنِ — عن عاشق مضنى — يا غاية الحسن
صل مغرماً بهواك ،   ودع جفاك
اضرمت بالسقم — ناراً على جسمي — تالله مـــا جرمي
يافتنة النساك   الا اهواك
يا ظالمي حقا — يكفيك مـا القى — افتنتني عشقا
بمرهفي عيناك   اما كفـاك
يا شمس يا بـــدر ، يا شهد يا خمر ، يا مسك يا عطر
المسك من ريّاك   ومن لمـاك
لولاك يا اغيد ، مـــا بت مسهد ، اراقب الفرقد

لعبد الله بن زمرك

بالله يا قامـــة القضيب   ومخجـــل الشمس واالقمر
من ملك الحسن في القلوب   وايد اللحظ بالحـــور

. . . .

من لم يكن طبعه رقيقـــا — لم يدر ما لذة الصبـــا
فرب حر غـــدا رقيقا — تملكـــه نفحة الصبا
نشوان لم يشرب الرحيقـا — لكن الى الحسن قد صبـــا
فعـــذب القلب بالوجيب — ونعم العين بالنظـــير
وبات والدمع في صبيب — يقـــدح من قلبه الشرر

• • • •

كم شادن قاد لي الحتوفا — بمربـــع القلب قد سكن
يسل من لحظه سيوفا — فالقلب بالروع ما سكن
خلقت من عادتي الوفـــا — احن لـلالف والسكن
غرناطة منزل الحبيب — وقربهـــا السؤال والوطر
تبهـــر بالمنظر العجيب — فلا عـــدا ربعها المطر

لعز الدين هبة الله

صرف كاس جلناره — وهـــو بالمزج بهـــاره
فأدرهـــا واسقنيهـــا — في هوى من ريق فيها
من شراب الكاس احلا — ولهذا صار اغـــلى

• • • •

بثنـــايا كالاقـــاح — فضحت نشر المدامه
وقنـــاع كالصبـــاح — غلبـــت الف عمامـــه
فتنحوا باللواحي — واسألوا الله السلامه
ربعها دار الاماره — ثغرها عقد الوزاره
فكذا تصد تيهـــا — حين لا ترى شبيها
اي حسن ما اجـــلا — ونوال ما اقـــلا

لآخر

ما للغمام ، يبكي بماء المزن ، من غير حزن

دمــع السحــاب ينحل من أفق
قــولي صــواب يا معشر الخلق
حــب الشراب فاملأ لنا واسق
وبالمدام ، نجني الذي نجني ، في ليل دجن
يــوم عجيب ، يلذ لي لقيـــاه
غاب الرقيب لا رده الله
وجـه الحبيب بالقلب ما احلاه
بـــدر التمام ، يميل كالغصن ، بكل حسن

لابي بكر بن زهير

ما للموله ، من سكره لا يفيق ، يا له سكران
من غير خمر ،
ما للكئيب المشوق ، يندب الاوطان

. . . .

هل تستعاد ، أيامنـــا بالخليج ، ولياليـنا
او يستفاد ، من النسيم الأريج ، مسك دارينا
أو هل يكاد ، حسن المكان البهيج ، ان يحيينا
روض اظله ، دوح عليه أنيق ، مورق الافنان
والماء يجري ، وعائم غريق ، من جف الريحان

. . . .

لغيره

قسماً بصورة ياسين ، لقد استفز الهوى ديني ، على ايد
ما جنت علي سوى عيني ، أي نظرة جلبت حيني
ورمت فؤادي بسهمين
مذ نظرت في الحور العين ، نظرة تقيدت في حين ، بلا قيد

اطوار العمر

لصالح بن شريف الاندلسي

ابن عشرٍ من السنينَ غلامُ   فترهُ زولٌ ثغره بسّام
عَتِلٌ غافلٌ سريع حراك   دأبه الغيظ والرضى والخصامُ
وابن عشرين للصبا والتصابي   ليس يثنيه عن هواه ملام
حُبّب الأكل والشراب اليه   وصنوف اللذات وهي حرام
يتمنى المنى ويطلب جدا   فهو مقدامٌ في الوغى وهمام
والثلاثون قرة وشباب   وهيام ولوعة وغرام
فاذا زاد بعد ذلك عشراً   فكمال وشدة وتمام
وابن خمسين مرّ عنه صباه   فيراه كأنه احلام
وابن ستين صيرته الليالي   هدفاً للمنون وهي سهام
وله الفضل والفخار وشاح   وسكون وهيبة واحترام
وابن سبعين لا تسلني عنه   فابن سبعينَ ما عليه كلام
لا يبالي على اخترام الليالي   وهو عنها لاهٍ به استصامُ
خرِقٌ ساهم حريص على المال   كثير الاهتار وغد عبّامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشراً   بلغ الغاية التي لا ترام
وابن تسعين عاش ما قد كفاه   واعترته وساوسٌ وسقام
فاذا زادَ بعد ذلك عشراً   فهو حيٌّ كميّتٍ والسلام

العصر العباسي الرابع

سنة ٤٢٢ تولّى القادر ،فظهرت في ايامه الدولة السلجوقية وانقرض بنو بويه ، فساد السلجوقيون في الدولة العباسية زمناً . وفي ايام المستظهر ٤٩٠ ، ظهرت دولة بيت خوارزم وبدأت الحروب الصليبية ، التي ظلت زهاء قرنين . وسنة ٥١٢ ، تولى المسترشد فطمح الى استرجاع حقوق الخلافة واتخذ عسكراً ، وجرت حرب بينه وبين السلطان محمود ثم تصالحا . وفي ايامه ظهر عماد الدين زنكي وحارب الخليفة ثم تصالحا ، وأسر الخليفة في حرب مع السلطان مسعود ثم قتل عام ٥٢٩ . وفي ايام المقتفي ظهر نور الدين زنكي وملك البلاد الشامية ثم مصر .

وفي أيام الناصر ، اشتدت الحروب الصليبية وحدثت الحروب التترية ، وانقرضت الدولة السلجوقية ، وزحف جنكيزخان الى البلاد الاسلامية ، وفعل فيها الفظائع ، فقاومه ملوك الاسلام دون جدوى .

وفي ايام المستنصر المتوفي سنة ٦٤١ ، تمكنت التتر من أكثر البلاد. وفي ولاية المستعصم ظهرت دولة المماليك الجراكسة في مصر ، وزحف التتر على بغداد فقتلوا اعيانها وفي جملتهم الخليفة واولاده ، وارتكبوا الفظائع طوال اربعين يوماً . وبموت هذا الخليفة انقرضت الدولة العباسية من بغداد سنة ٦٥٥ ، وعدد خلفائها ٣٧ خليفة ومدة ملكهم ٥٢٤ سنة .

وانقطعت الخلافة ثلاث سنوات ونصف ، حتى جددها المستنصر في مصر وحارب التتر ، الى ان تولى بعده الحاكم الذي ظهرت في أيامه الدولة العثمانية .

وظلت الخلافة العباسية في مصر ٢٥٥ سنة حتى انتقلت من آخر خليفة منهم الى بني عثمان سنة ٩٢٢ هـ.

الشعر : ان ما حلّ بخلفاء الدولة من المصائب ، ومـا اصاب المملكة الاسلامية العربية من التضعضع بسبب الحروب والفتن التي توالت كما رأيت ، قد أقلّ الذين يهتمون للشعر والشعراء ، ويأخذون بناصر الأدباء والعلمـاء . واذا كان المتنبي شكا وقال : « وما تفلح عرب ملوكهم عجم ». فماذا يقول شعراء هذا العصر الذين أصبح ملوكهم لا يفهمون لغتهم ؟ فلهذا انصرف الشعراء إلى الفقـه والتصوّف ، وغير ذلك من الاغراض .

الا أنهم ظلوا يتحدّون أسلافهم الشعراء وينسجون على منوالهم . نظموا في الفخر تقليداً لمن تقدموهم ، والفرق بين الفريقين ان المتقدمين فخروا باشيـاء اندفعوا إلى الافتخار بها ، اما هؤلاء فافتخروا ليقال انهم افتخروا ، وبمـاذا يفخرون ، وقد صاروا إلى الانقراض ؟

وقس على ذلك المدح ، فالأولون مدحوا ملوكا هابهم زمانهم ، امـا هؤلاء فالميدان امامهم ضيّق . واما لغة الشعر فضعفت عما قبـل لبعد العهد بالعرب وفصاحتهم . وتسربت الركاكة الى الصناعة اللفظية كما فعل المنشئون ، فامتلأت أشعارهم بانواع البديـع . وإمام هذه الطبقة الصناعية ابن الفارض الذي بلـغ حدّ الإعجاز .

بهاء الدين زهير

حياته : ولد بوادي نخلة على مقربة من مكة ، ونقل إلى مصر حيث نشأ وتأدب . اتصل بالملك الصالح بن الملك الكامل من دولة بني ايوب ، ورافقه إلى الشام والجزيرة . ولما غلب هذا الملك ابن عمه الناصر وأسره ، أقام البهاء بنابلس ، حتى عاد سيده إلى الملك واسترد الديار المصرية ، فصار البهاء وزيره . وظلّ كذلك حتى مات الملك الصالح ، فانزوى البهاء اذ ذاك وظل كذلك حتى مات بالوباء سنة سقوط بغداد في ايدي التتر .

شعره : كان البهاء دمث الاخلاق ، رقيق الطبع ، ليّن الجانب ، عذب الكلام . فأثر ذلك في شعره ، فكان من السهل الممتنع . شعره صورة محيطه وصورة اخلاقه وطبعه . لم يقلد احداً فيه ، ولم يلتجىء إلى غير شعوره لاخراج صُوَره الشعرية .

عبّر بلغة عصره واساليبها، فخلا من كل تعقيد وغرابة . يفهمه كل قارىء . واننا لنستطيع ان نقول فيه : انه حلقة الاتصال بين العامية واللغة الفصحى العالية الاسلوب .

أجاد في الغزل والرثاء لأنه لغة العاطفة وألحق بهما العتاب الذي هو ضرب من الغزل . ترجم ديوانه المستشرق بلر الانكليزي في مجلدين ، وعلّق عليه الحواشي .

كان يعول على الاوزان الخفيفة شأن شعراء بغداد الماجنين . مدح ولكنه لم يبرز في المدح ، ولم يكن شأنه فيه شأنه في الغزل .

اغلب نظمه في وقائع معلومة بينه وبين احبابه . وقد كان نزّاعاً إلى الخروج على المألوف في اللغة كقوله :

بروحي من أسمّيها بستّي   فينظرني النحاة بعين مقت

عمد إلى الصناعة اللفظية ، ولكنه لم يكثر منها الّا في مناسبة ، بل لا يعتمدها .

النثر

ميزته : تمكنت السيادة للاعاجم ، فأصبح العرب وغيرهم من رجال القلم مضطرين للتملـّق . فنمـّقوا العبـــارة وبالغوا في الاطراء والمديح ، فتأنقوا في انشائهم ، وزينوا عبارتهم بأنواع البديع والسجع . فتخطوا الحدود التي رسمها من تقدمهم ، حتى تعمـّد هذاالسجع كل الكتـّاب من مؤرخين وغيرهم ؛ فأصبحت كتبهم أحجية لا تدرك إلا بالجهد العظيم .

ومن أيمة انشاء هذا العصر القاضي الفاضل مقلد بن العميد .

القاضي الفاضل

هو فلسطيني ، ورد مصر وكتب أولاً في ديوان الظافر ، ثم استوزره صلاح الدين أيوب ، فساس ملكه ، ووزّر من بعده لابنه ثم لأخيه حتى ُتوفي .

اسلوبه : مزيج من أسلوب الكتـّاب قبله، كالصاحب وخصوصاً ابن العميد. انما امتازت كتابته في الاغراق في التورية والجناس ، فأكثر السجع جداً، وظل مذهبه شائعاً حتى عهد ابن خلدون .

الحريري

ابو محمد القاسم بن علي بن عثمان الحريري البصري ، اشتهر بمقاماته المشتملة على أكثر كلام العرب وأمثالها ولغاتها . كان في أول أمره يبيع الحرير ، ثم تحول الى الأدب فطارت شهرته ، وقرّبه الامراء وقصده المتأدبون للاستفادة من علمه.

اخلاقه : كان دميماً ، قصير القامة ، بخيلاً قذراً ، ان تسمع به خير من ان تراه ، كما قال هو عن نفسه ، لذلك الذي قصده ثم استبشع منظره .

نثره وشعره : مكثر في النثر ، مقلّ في الشعر ، متبع بديع الزمان ، ممهد للاسلوب الفاضلي . قلّل من البديع وبالغ في الصنعة ، فقلّت معانيه وكثرت الفاظه. وشعره كنثره تنميقاً وصنعة .

مقاماته : وضعها على طريقة بديع الزمان . ويقول ان سبب وضعها انه كان في مسجد بني حرام ، فدخل شيخ عليـــه طمران ، فسأله الحاضرون ، فقال : من سروج . فسألوه عن كنيته ، فقال : أبو زيـــد . وجعل الراوي الحارث بن(همام اي الحريري نفسه) ، ثم زاد المقامات حتى بلغت الخمسين بناء على طلب الملك الأشرف .

طبعت هذه المقامات وترجمت مرات عديدة .

تآليفه : وللحريري غير المقامات، كتاب درّة الغوّاص في أوهام الخوّاص ، بيّن فيه اغلاط الكتّاب الكبار . وكتاب ملحمة الاعراب في النحو ، وهو أرجوزة . والرسالة السينيّة ، أي ان اول كل كلمة فيها سين . ورسالة أخرى في الفرق بين الضاد والظاء .

وظلت المقامات متبعة حتى آخر القرن التاسع عشر ، وقد يكتب فيهـا بعض كتّاب اليوم ولا يلتزمون السجع .

علوم النحو واللغة

وكثر في هذا العصر علماء النحو واللغة ، وقام منهم في كل قطر رجال عديدون كالجرجاني .

الجرجاني : مؤسس علم البيان ، وأشهر تآليفه اسرار البلاغة . وضع هذا العلم على قواعد راسخة ، وهو يقول انه اندفع إلى كتابة هذا التأليف عندما رأى الكتّاب انصرفوا عن المعاني إلى الالفاظ . وعلى منواله نسج المؤلفون فتوسعوا في هذا العلم . ثم جاء بعده **السكاكي والميداني** وهما من علماء اللغة ايضاً ، ثم **الزمخشري** ، واشهر كتبه المفصّل في النحو ، وكتاب أساس البلاغة ، وهو نسيج وحده يبحث في استعمال الالفاظ ومواضعها من الجمل .

وله اطواق الذهب ، وهو كتاب وعظ وادب على طريقة المقامات ، انما لا قصة فيه . وله كتاب المستقصى في الأمثال ، مرتب على حروف الهجاء .

ابن الحاجب : ولمع في هذا العصر ابن الحاجب . كان والده حاجباً للامير عز الدين الصلاحي بمصر . تأدب في مصر ، وانتقل إلى دمشق وعلّم في جامعها ، ثم انتقل إلى الاسكندرية ومات فيها .

تآليفه : الكافية في النحو . الشافية في النحو ايضاً ، وهو مختصر الأمالي النحوية .

التاريخ الطبيعي

لم يكن هذا العلم مرتباً ودقيقاً كما هو اليوم ، ولكن العرب كتبوا في هـذا كتباً درسوا فيها الحيوان والنبات وما يتبع ذلك من المـواد التي تعرف اليوم بالتاريخ الطبيعي . فقد علمنا ان الجاحظ كتب في الحيوان كتاباً جليلاً درسناه في محله ، اما في هذا العصر فقد كتب في الحيوان ، كمال الدين الأميري .

الدميري : كتب « كتاب حياة الحيوان الكبرى » وهو معجم مرتب على اسماء الحيوانات ، وصف فيه كل حيوان وأصل اسمه ، وما جـاء من الحديث والامثال بشأنه ، مع خصائصه الطبية وتفسيره في الاحلام . وفي الكتاب ايضاً ، على عادة ذاك الزمان ، ترجمة من يأتي على ذكرهم من المشاهير والأعيان والخلفاء والشعراء والادباء الخ ...

الرياضيات : من المؤلفين في هذا العلم ، في هـذا العصر ، **الشيرازي** . له كتاب نهاية الادراك في دراية الافلاك . **ابن البناء** المراكشي وله كتاب تلخيص اعمال الحساب .

الفلسفة – القزويني : له كتاب الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية . وله كتب غيره .

التاريخ والجغرافية والاسفار

نضجت في هذا العصر مواد التاريخ ، وعرف الناس كيف يكتبون فيه ، وتعددت الملوك في كل الاقطار ، وكل ملك يرغب في تاريخ عهده . فكثر الذين كتبوا فيه ، فمنهم من كتبوا التاريخ العام ، ومنهم من كتبوا التاريخ الخاص ، فتعددت كتب التاريخ في هذا العصر من سيَر الى تواريخ دول الى تراجم مشاهير وتواريخ مدن الخ . . .

وكذلك جرى في كتب الجغرافية والرحلات والاسفار ، فبتعدد العواصم والديار كثرت الاسفار ، فدوّن الكتّاب ما رأوا وشاهدوا .

الادريسي : ابو عبدالله محمد بن ادريس الصقلي . تثقف في قرطبة ، الّف كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، لصاحب صقلية روجر الثاني. بدأ في كتابه بصورة الارض التي رسمها ، وأخذ في وصف اشكال الأرض وطبيعتها واستدارتها واطوالها . كانت جغرافية الادريسي هذه عمدة هذا العلم في اوروبا لتقويم البلدان اجيالاً ، فرسموا خرائطها وترجموها للغاتهم .

يظهر ان الادريسي كان عارفاً في منابع النيل فصورها بحيرات عند خط الاستواء كما يقول عنها علماء هذا الزمان. وفي هذا الكتاب خرائط ورسوم قيّمة.

ابن جبير : هو ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الأندلسي . رحل رحلات عديدة الى مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية ، فوصف كل هذه الاقطار وما فيها من الغرائب والآثار .

ياقوت الحموي : هو روميّ الجنس ، حمويّ المولد ، بغدادي الدار . أشهر

جغرافيي العرب واغزرهم مادة وأجلهم نفعاً. أسر صغيراً فابتاعه تاجر بغدادي اسمه عسكر الحموي ، وعلمه لينتفع به في ضبط تجارته . أشغله مولاه في اسفاره التجارية ، فاستفاد بالمطالعة. جاء دمشق وكان متعصباً لعليّ ، فثار عليه الناس ففرّ وتنقل في بلاد كثيرة حتى ألقى عصا الرحيل في خوارزم . وفيما هو هناك خرج جنكيزخان على البلاد الاسلامية ففرّ ياقوت وظلّ هارباً حتى استقر بظاهر وهناك مات .

ميزته : مؤلف محقق ، حسن الترتيب والتبويب ، كما يظهر من كتبه .

كتبه : معجم البلدان: معجم جغرافي كبير، حافل باسماء مدن وقرى البلاد حتى اسماء الجبال الخ .

وفي هذا الكتاب ، فوق الجغرافية ، أدب كثير . فهو يروي شعرا كثيراً ، وتاريخ كل من انجبته البلدان التي كتب عنها . من شعراء وعلماء وفقهاء وأدباء وخلفاء ، الخ .

معجم الأدباء : وهذا كتاب آخر وهو معجم تاريخي ادبي ، أوسع من كتابه الآنف الذكر . ذكر فيه سير النحويين واللغويين والمؤرخين والكتاب ، وكل من الّف في الادب .

المقريزي : بعلبكي الاصل عرف بهذ الاسم نسبة لحارة المقارزة . كان جده من كبار المحدثين فيبعلبك،تحول والده الى القاهرة فولد له تقي الدين المقريزي. تعلم فنوناً كثيرة ونظم ونثر ، وتولى النيابة في الحكم ، وكتابة التوقيع والحسبة والخطابة بجامع عمرو ، واتصل ببرقوق الملك ، الى ان انصرف الى العلم واشتغل بالتاريخ ، وكتب فيه كتباً قيمة هي مرجع الناس في شؤون مصر تاريخياً واجتماعياً وسياسياً .

خطط المقريزي : فيه جميع أخبار الديار المصرية وأحوال سكانها وآثارها من باق وبائد .وعند الكلام عن اثر ما في تاريخه يسرد ما توالى عليه من الحوادث والنكبات .

وله غير هذا الكتاب كتاب تاريخ مصر « السلوك لمعرفة دول الملوك » .

وله أيضاً تاريخ الدولة الفاطمية . وهنـــاك كتب عديدة لا نستطيع عدها في هذا الموجز .

المقّري : ولد في تلمسان وسمي المقري نسبة إلى قرية نسب إليهـا آباؤه . تعلم في فاس ومراكش ، ثم نزل القاهرة وزار القدس وحجّ خمس مرات ، واقام في المدينة وأملى الحديث ، وعاد إلى القاهرة ومات فيها فجأة .

تآليفه : نفح الطيب في غصن الانـدلس الرطيب ، يحتوي تاريـخ الأندلس وفتح المسلمين لها ومن حكمها من امراء وخلفاء.وترجم لمئات من ادبائهاوشعرائها، من اشعارهم ، خصوصاً لسان الدين بن الخطيب الذي اسهب جداً في وصفـــه ورواية أدبه . وخلاصة الكلام، ان كتابه هذا يصوّر الأندلس من كل مناحيها.

النقد الادبي

أول من تصدّى للنقد كان الجاحظ ، وهو ابو الأدب العربي ، وجاء بعده ابن قتيبة في كتابه ادب الكاتب . ثم عالج هذا الموضوع كثيرون ، كالخوارزمي والثعالبي وابي هلال العسكري ، بيد ان انتقادهم لم يكن المقصود من كتبهم . اما انتقاد الالفاظ وغلط العوام فتصدّى له كثيرون ، وهذا دفع اليه امتزاج العرب بالعجم . ولكن نقد الانشاء من حيث هو فنّ مستقل بنفسه ، فكتب فيه الجرجاني الذي تقدم ذكره ، واضع علم البلاغة .

واستحسن المنشئون هذا العلم فتوسعوا فيه وزادوا عليه ، فكان من أيمته ابن الأثير صاحب المثل السائر ، فاستوفاه وأشبعه بحثاً وقتله درساً .

ابن الاثير

هو ضياء الدين ابو الفتح نصرالله الجزري ، المعروف بابن الاثير . ولد في جزيرة ابن عمر . انتقل مع والده إلى الموصل وهناك حصل العلوم وحفظ من شعر العرب شيئاً كثيراً أعانه على الابداع في النظم والنثر . اتصل بصلاح الدين ثم بابنه الملك الأفضل نور الدين . ولما توفي صلاح الدين واستقل ابنه بمملكة دمشق ، استقل ابن الأثير بالوزارة وردت أمور الناس اليه ، فأساء معاملتهم فكرهوه . ولما تقلّص ظل وليّه ، همّ الناس بقتله ، فأخرجه الحاجب محاسن بن عجم في صندوق مقفل عليه ، فلحق بمولاه وصحبه

إلى مصر . وفي مصر أساء معاملة الناس ايضاً ، ولو لم يهرب لـكانوا قتـلوه .
وظل يسيء معاملة الناس ويتنقل من مكان إلى آخر حتى ادركته الوفاة .

اخلاقه : متكبر ، مدّعٍ ، شرس الاخلاق ، مطبوع على حبّ الاستبداد .

كتابه : « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » . مؤلف نفيس ، وافر المادة ، محكم الوضع ، جمع أصول علم الانشاء وفروعه ، لم يترك مسألة الا شرحها ، ولا فائدة الا سجّلها ، ولا بحثاً إلا جال فيه ، مبيّناً محاسنه ، كاشفاً عن معايبه. فجاء كتابه هذا جامعاً لكل فنون الكتابة مبوباً مرتباً بكل دقة ، يشهـد لصاحبه برسوخ القدم في هذا الفنّ ، وغزارة علمه في هذا الفرع . الّا انـه ، سامحه الله ، بدأ بالادعاء المشين من مقدمته إلى خاتمته ، فـلا تمرّ صفحة الا نرى فيها الفات نظر إلى ما استنبط ابن الأثير ، أو إلى ما نظم ، أو إلى ما أدرك ، وهلمّ جرّا ، حتى يخيل إلى القارىء انه وضع هذا الكتاب ليبين لنا اقتـداره وتقصير كل من تقدموه .

موضوع الكتاب : صناعة الانشاء لفظية ومعنويـة ، وفي آخره فصل في النقد دلّ فيه على سرقات الشعراء ، وقسم السرقة إلى ثلاثة أقسام : نسخ وسلخ ومسخ ، وقسم كل نوع إلى ابواب .

لقد أجاد في كل ما كتب في هذا السفر الذي لا عيب فيه الا ادّعاء صاحبه.

عصر الانحطاط

المغول

سقوط بغداد: زحف جنكيزخان بجيشه فاكتسح خراسان ففارس، وأعمل سيفه في كل بلد نزل فيه ، فما كان يترك مملكة الا قفراً يباباً . وبعد ثلاثين عاماً ونيف ، زحف ابنه هولاكو فعبر نهر جيحون ، قاصداً بغداد ، فاستولى على قلعة « ألمُوت » وذبح من فيها من الجنود .

وفي سنة ٦٥٥ ، نشب خلاف بين الشيعة والسنّة كان أشبه بحرب داخلية قتل فيها عدد من الشيعة ، فغضب لذلك الوزير ابن العلقمي فشجّع التتر على غزو العراق والاستيلاء على بغداد ، فملكوها وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وأعملوا السيف في بغداد ٣٤ يوماً ، فما نجا الا من قدّرت له النجاة .

فدالت دولة العرب ولم يبق لهم من صورة الملك الا دويلات لا شأن لها ولا قيمة .

رجال العلم : وقف رجال العلم تجاه هذا الحدث الخطير وقفة حائر . نظروا إلى بغداد ملجأ العلماء فاذا نار الإرهاب والفتك مضطرمة بها . رأوا كل شيء عربي معرضاً للفناء ، فعلمهم وادبهم يقذف به إلى نهر دجلة . ففكروا إلى اين يهربون ويلجأون ؟ فلم يروا أمامهم الا مصر والشام .

مصر المماليك : كان المماليك رجال حرب وفتك لا يميلون الى الترف واللهو، بعضهم متمسك بالدين ، انما الدين الذي تصوّره له فطرته وتلوّنه بيئته ونشأته.

فكانوا يمزجون الدين بالسياسة ، اذا اضطروا اليه لجذب قلوب الناس ، ولهذا انشأوا الجوامع والمدارس والملاجيء والمصحّات وحبس المال على عمل البر ، وتقريب العلماء وتشجيعهم على نشر العلم بالمدارس والتأليف . وقد يكون الدين عندهم لإذكاء نار الحرب كما وقع لهم اذ رأوا أنفسهم حماة الإسلام ، وملجأ الأمم العربية المهزومة . فالملك الظاهر بيبرس حمى خلافـــة بني العباس وتقبل ولاية الحكم من المستنصر بالله العباسي الذي فرّ من وجه التتر إلى مصر .

هجرة العلماء : أخذت القاهرة مكان بغداد فأصبحت دار العلم لما فيها من مدارس ومجالس ، فشرعوا يؤلفون ويكتبون وينثرون وينظمون . ثم فرّ علماء الأندلس أيضاً إلى مصر ، لأن ما حلّ بالعباسيين حلّ ما يشبهه بالاندلسيين .

ولكن هجرة العلماء الى مصر والشام لم تترك أثراً بيّناً في الحياة في هذين القطرين ، بل لم تتعد غيرهما من بلاد المشرق . ولم تُحدثْ أي حدث اجتماعي لأنها كانت علمية أدبية دينية ليس غير . **فمقدمة ابن خلدون** ، نزيل مصر أيام السلطان ، لم تحدث أقلّ تأثير مع انهـــا تتضمن كثيراً من الآراء الاجتماعية الناضجة ، وتحتوي على آراء سديدة في سياسة الممالك وإنهاض الشعوب . ومـا السبب إلا جمود الناس وتمسكهم بالقديم ، وخمول الشعب وجهله .

ضعف النثر : ضعف النثر لشغف الكتّاب بتزيين اللفظ وتجميله بالسجع ، وتحليته بالبديع ، وانصرافهم عن المعاني والأفكار . فإذا قرأت لكاتب مقالة في هذا العصر رأيت انهـــا لا تشتمل على معنى باهر أو فكرة قيّمة ، لأن الكتّاب كانوا يفكرون في الألفاظ قبل المعاني ، وفي هــــذا مقاومة للعقل ، فجاء الانشاء متكلفاً خائراً .

وبدت بوادر هذا الضعف قبل سقوط الدولة العباسية بزمن غير يسير . غير ان الكتّاب في هـــــذا الزمان نسجوا على منوال القاضي الفاضل ، فالتزموا السجع والتورية وغالوا في ذلك جداً ، حتى أتوا بما ينافي الذوق .

ضعف الشعر : وبدت على الشعر آثار الضعف والتقهقر لأنـــه لم يرسل مع الطبع والسليقة ، كما كان شأنه في العصر العباسي الأول . ضعفت الملكة الشعرية

والخيال والابتكار والتوليد ، وأحسّ الشعراء ذلك فلجأوا الى العناية بالألفاظ ، فجملوها براقة خلابة ، ولكنها لا تخلو من براعة ، وكادت تكون جميلة لولا خلوها من الأفكار التي يهتز لها الفكر الإنساني أكثر من اهتزازه بالكلام . لقد كانوا كاللاعب على الحبل يدهشك بلباقته ، ويؤسفك ان يضيع وقته بأمور تافهة كهذه .

وقد ظلّ الشعر أرقى بكثير من النثر لأن تقيده بالوزن والقافية لم يفسح للمحسّنات اللفظية لتلجه بسهولة وكثرة ، كما كان شأنها في النثر .

ولا تنس جهل أكثر هؤلاء السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية . فلو كانوا يتذوقون الأدب والشعر لانصبّ الشعراء على عملهم الفني وأتقنوا نظمهم وجوّدوه . فلهذا لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون الا في « حماه » حيث بقيت هذه العادة ردحاً من الزمن ، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة لفظية .

ومما يدل على انحطاط الشعر تصدّي معظم الفقهاء والعلماء والكتّاب لنظمه من غير هيبة ولا خشية . واليك مثالاً من ذلك الشعر ، قاله أحدهم في السلطان برقوق :

سلطان مصر دام فضل علائه قد عمّنا بالفضل والاحسان
لم أنس يوم السبت حسن مهمّه قد كان يوماً جاء بالسلطان

الحلي

هو صفي الدين ابو البركات عبد العزيز بن سرايا الحلّي . ولد ونشأ في الحلّة ، ايام كان العراق يعج بالبلايا وتنهلّ عليه الدواهي . هجر الشاعر مسقط رأسه وأمّ الملوك الاكراد آل ارتق اصحاب ماردين ، فأحسنوا وفادته وأجزلوا صلته ، وصانوا مهجته من الاعتداء . فرتع في ظلّهم ، فقال فيهم شعره الجيد ويعرف بالارتقيات ، منها ٢٩ قصيدة كل منها ٢٩ بيتاً على حرف من حروف المعجم يبدأ به البيت ويختم به من الهمزة إلى الياء . ووسم هذا المجموع بدرر النحور في مدح الملك المنصور . وورد الحلّي مصر ومدح ملكها الناصر بقصيدة غراء ليس فيها هذه الصنعة . ثم عاد إلى ماردين ، وحنّ إلى وطنه ، فعاد اليه وهناك مات .

شعره — أغراضه : لم يدع الحلّي باباً من أغراض الشعر الا ولجه ، وقد بنى ديوانه على احد عشر باباً ولجها كلها وغالى في **المجون والاحماض** .

اوزانه وضروبه : نظم القصائد مطولات ، ومقطعات ، ومخمسات ، ومشطرات ، ومواليا ، وزجلاً ، وقوماً ، وكان وكان ، الخ ...

قيمته : ان هذا الشاعر يعد اماماً للصناعة اللفظية في الشعر ، فنسج على منواله كثيرون ممن جاؤوا بعده ، فصرفوا عنايتهم إلى الجناس والتطبيق والتنسيق ، فأصبح الشعر صورة جامدة لا تجري فيه ماويّة الحياة والعاطفة . ثم تدرّج شيئاً فشيئاً حتى صار لا تشتهي ان تسمعه ، واذا رأيت صاحبه فلا تستحي ان تصفعه ...

بيد ان له صورة اخرى لا تقلّ رواء عن الشعراء المجيدين ، وذلك حيث لا يتعمّد التكلف ، كما في قصيدته البائية التي مدح فيها ملك مصر السلطان الناصر ، وكقصيدته الرائية التي حرّض فيها الملك الصالح على الاحتراز من المغول ومنافرتهم عند اقبالهم ، ومطلعها : « لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا » الخ . وكقصيدته الفخرية في الحماسة : « سلي الرماح العوالي عن معالينا » .

الخلاصة : ان الحلّي هذا زعيم شعراء عصر الانحطاط . وشعره متفاوت في الجودة ، فآونة يسفّ دون الشعراء ، وحيناً يسمو إلى ما فوق أفقهم . وعلى كل فلا تزال في شعره رائحة الشعر البليغ من فصاحة لفظ ورشاقة أسلوب .

وشعره في جلته سهل الألفاظ حسن المعاني ، الا ما تكلفه منه للتشاوف واظهار الحذق والمقدرة اللغوية والفنية ، فانه جاء رديء النسج ، ثقيلاً على السمع ، ومن هذا في ديوانه شيء كثير . وهو أول من نظم في المدائح النبوية .

ابن الوردي

حياته : هو زين الدين عمر ، ولد في معرة النعمان ومات بحلب . برع في الادب والنحو واللغة والتاريخ والفقه . له مؤلفات تاريخية : تتمة المختصر في أخبار البشر . وله في النحو : اللباب في الاعراب ، وشرح ألفية ابن مالك . وترك في الأدب ديوان شعر ، ومقامات كالحريري ، وقصيدته الحكمية المعروفة بلامية ابن الوردي . وقد طبع أحمد فارس الشدياق هذا الكتاب في مطبعته بالاستانة .

شعره : بسيط الاسلوب ، وسط في جودته ، كان يحسّنه بالانواع البديعية متبعاً عصره في ذلك . هذا الشاعر الذي ينهى عن قول الغزل ويأمر بمجانبته ، نرى في ديوانه مقاطع غزلية لها قيمة وقدر .

ابن نباتة : ومن شعراء هذا الزمان ابن نباتة . في شعره رقة وسهولة وايراد

ونكتة مستملحة . ولا غرو فهو مصري المولد والمنشأ .

الشاب الظريف : وهو شاعر مصري ايضاً ، رقيق الكلام منسجم العبارة.

ومن الشعراء ايضاً ، **التلعفري** ، **والبوصيري**،وهذا شاعر اشتهر بقصيدته : « البردة » في مدح النبي ، يعرفها عدد لا يحصى من البشر ، وطبعت طبعات مختلفة .

وله ايضاً قصيدة نبوية همزية ، لا تقل عن البردة الميمية رونقاً وجلالا ، أما شعره في غير هذا الغرض فليس بالشعر العالي .

التأليف والمؤلفون

في هذا العصر كثر التأليف في كل الفنون والعلوم. ولعلّ من أقوى الأسباب كثرة المدارس ، وميل ملوك القاهرة الى اقتناء الكتب النادرة،وانشاء الخزانات لأنواع عديدة من المؤلفات .

ولكن التأليف في هذا خلوٌ من الابتكار، وما هو الا جمع من آثار المتقدمين. هذا اذا استثنينا تاريخ ابن خلكان وخطط المقريزي .

علوم اللغة والتاريخ : من أيمة علم النحو في هذا العصر **ابن مالك الطائي** ، دمشقي المولد ، اشتهر في تسهيل الفوائد في النحو . والألفيّة ، وهي النحو ، يعرفها الكثيرون بابن عقيل لأنه شرّحها.واشتهر ايضاً بكتاب الكافية ، ولامية الأفعال ، وهاتان ايضاً منظومتان في النحو كالألفية .

ابن منظور : صاحب لسان العرب ، وهو أكبر معجم عربي يقسم في ٢٠ مجلداً ، مرتب على أواخر الكلم،ويعدّ دائرة معارف في اللغة والأدب والتفسير.

ابن هشام : صاحب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، وهو كتاب درس فيه النحو درساً عميقاً وخصوصاً معاني الحروف .

ابن خلكان : كان قاضياً مدرّساً . أشهر تآليفه كتاب وفيات الأعيان ،

وهو معجم تاريخي يدلّ على ابتكار وتدقيق،ومرجع في التاريخ واللغةوالأدب.

ابن خلدون : تونسي المولد ، تنقل بين المغرب والأندلس كاتباً ومشيراً لأمرائها ، ثم رحل الى مصر واتصل **بالسلطان برقوق** ، فولّاه قضاء المالكية ، ومات في مصر .

مقدمته : اشهر كتاب يحقّ للعرب الافتخار به لأنه بحث جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ . بحث كل ذلك في اسلوب سهل شائق لم يشب بصناعة ، واستنباط منطقي صحيح .

القلقشندي : نبغ في الإنشاء وله كتاب : **صبح الأعشى في صناعة الانشاء** اشتهر به ، وهو يضم الى صناعة الانشاء تقويم البلدان .

الصفدي : هو صلاح الدين ابو الصفاء بن ايبك الصفدي ، ولد في صفد ، وتلقى العلم عن ابن نباتة في دمشق . تولى ديوان الانشاء في صفد وحلب والقاهرة .

قيمته : من أعاظم كتّاب العصر المغولي وأوسعهم علماً واكثرهم عملاً . ألف في مواضيع شتى . حسن الاسلوب ، وأغلب كتاباته في التراجم التاريخية .

تآليفه : الوافي في الوفيات ، وهو معجم في التراجم . وله نصرة الثائر على المثل السائر ، وهو نقد لكتاب ابن الأثير ، انتقد عليه اعجابه بنفسه ، واستدرك عليه أشياء فاتته . وله كتب عديدة غير هذه الكتب لا مجال لعدّها هنا وأكثرها محفوظ في مكاتب الغرب .

ابو الفداء: هو الملك المؤيد عماد الدين ابو الفداء اسمعيل ابن الملك الأفضل نور الدين علي الايوبي . ولد بدمشق التي لجأ ابوه اليها عند اكتساح المغول حماة قاعدة ملكه . تأدب أبو الفداء على علماء عصره فبرع في العلوم اللسانية والدينية والفقه والتاريخ والطب والأدب والشعر وعلم الهيأة . كان فارساً شجاعاً ، حضر مع أبيه حصار قلعة مرقب وحصار طرابلس وعكاء .

تقرّب من الناصر بن قلاوون فسرّ به وولاه نيابة حماه ، ثم جعله ملكاً عليها ، فكان الملك المحبوب المحمود الأثر .

آثاره : لأبي الفداء نظم ونثر وتصانيف ، منها : « المختصر في أخبار البشر » اختصره عمن تقدمه كالطبري وابن الاثير المؤرخ لأصحاب المثل السائر ، وتممه إلى سنة ٧٣٠ هـ . وقد نقله الافرنج إلى لغاتهم . وله في الجغرافية كتاب تقويم البلدان ، جمع فيه كل مفيد . ويمتاز بضبط الاسماء وتحقيق العروض والاطوال ، مع ذكر ما تجب معرفته من الاراضي والبحار والأقاليم العرفية والحقيقية على مذهب القدماء ، فكان لكتابه هذا شأن عند الفرنج للوقوف على الجغرافية العربية .

ابن العبري : هو ابو الفرج غريغوريوس بن اهرون الملطي . درس الطب على ابيه ، ثم على غيره من المشاهير ، وتضلع ايضاً من سائر العلوم والفنون . كان يحسن العربية والسريانية واليونانية .

ولما انقضّ المغول على هذه الديار هرب مع والده إلى انطاكية ، وانقطع عن العالم معتبراً بمصائب الأمم ونكبات الدول ، فلجأ إلى كهف يتعبد فيه ، فاهتدى رئيسه البطريرك اليه ، وعرف تقواه وسامه اسقفاً في العشرين من سنيه ، واوفده إلى طرابلس ، ثم ولاه رئاسة اساقفة حلب . واعتبره هولاكو ملك المغول لفضيلته وعلمه ، فأطلق يده ، فاستخدم هذه الحرية التي كان يتمتع بها ، في خدمة القريب والعلم .

آثاره : له مؤلفات كثيرة في السريانية ، تشهد له بالتعمق وبُعد الغور في الفنون .

مختصر الدول : وضعه تلبية لاحد أفاضل العرب ، وهو تعريب تاريخه السرياني ملخصاً ، ولكنه أضاف اليه ما يتعلق بدولتي المسلمين والمغول وقسماً لاخبار الاطباء والرياضيين .

القزويني : مؤرخ شهير اسمه زكريا بن محمد ، يتصل نسبه بمالك بن انس . كان إماماً فاضلاً وعالماً فقيهاً ، أتقن فنون الأدب وتفقه في الدين . عينه المعتصم قاضياً على واسط والحلة ، وفي دمشق تعرف على ابن العربي الصوفي الشهير .

أشهر كتبه كتاب عجائب المخلوقات في وصف الكون ، وله في هذا الكتاب

آراء جليلة وأخبار طريفة . وله كتاب آخر عنوانه « آثار البلاد » ، وهو مثل كتابه الأول .

ابن بطوطة : هو الرحالة الشهير شمس الدين ابو عبـــدالله الطنجي . ولد بطنجة ونشأ وتأدب فيها ، ولمـــا بلغ الثانية والعشرين من عمره قصد مكة ثم جاب العراق ومصر والشام واليمن والهند ، ودخل مدينة دلهي عاصمة البلاد ، وولاه ملكها خطة القضاء المالكية ، ثم ساح في الأقطار الصينية وأسر وتملص من أسره ، فدخل بلاد التتر ، وتوغل في القارة الافريقية الى تمبكتو ، وطاف في بلاد الأندلس ، ثم عاد الى المشرق .

تحفة النظار : في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، وتُعرف برحلة ابن بطوطة ، كتاب ضمنه المؤلف أخبـــار كل ما رآه وشاهده . طبعت في باريس ومصر .

اهتمّ الافرنج لهذه الرحلة كثيراً ، عندمـــا اهتموا بالشرق والسفر اليه ، عولوا عليها وانتقدوها وعلقوا عليهـــا ونقلوا بعضها إلى اللاتينية ونشروه ، وترجمت للغات عديدة .

السيوطي : هو جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن الكمال السيوطي ، إمام أيمة المسلمين ، وزعيم العلماء الأعـــلام . ولد بأسيوط ، ونشأ يتيماً بمصر وحفظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات .

أتقن في قليل من الزمن فنون عصره ، وتبحّر في التفسير والحديث والفقه والنحو والبيان والبديع على طريقة العرب .

ساح في بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور حيث كان في كل مكان يتذاكر مع العلماء ويباحثهم . وتولى تدريس الفقــه في المدرستين الشيخونية والبيبرسية ، فطار صيته وانتهت اليـــه رئاسة العلوم الدينية في عصره .

اخلاقه : كان حـــاداً نزقاً ، ثقيل الوطـأة على الكتّاب الذين يعتقد انهم اقتبسوا من مؤلفاته ، فيشهّرهم. أما هو فكان يعبث بتأليف المتقدمين فينتحل

وينسخ . كان سريع الخاطر غزير المادة سيال القلم . له ٣٠٠ مؤلف بين بسيط ووسيط ووجيز .

قيمته : أفاد كثيراً بإبرازه طائفة من المؤلفات كانت امحت آثارها لولاه .

ولو لم يكن له الا كتاب الإتقان في علوم القرآن ، والمزهر في أصول اللغة ، والأشباه والنظائر في دقائق النحو وأصوله ، والهمع على الجمع ، في فروع النحو والصرف وأصولها ، لكفى .

الادب

الابشيهي : هو محمد بن احمد الخطيب الابشيهي ، صاحب كتاب المستطرف في كل فنّ مستظرف ، وهو من الموسوعات الأدبية يشتمل على ٨٤ باباً في مباني الاسلام ، والعقل والذكاء ، والحمق ، والقرآن وفضله ، والعلم والادب الخ ...

وبحث في الملك والسلطان وطاعة وليّ الأمر ، الخ . وفي العمل والكسب وأخبار العرب الخ . وفي الدواب والحشرات ، مرتبة على أحرف الهجاء ، وفي البحار وعجائبها والانهار الخ ... وهو يتضمن أيضاً فوائد تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية الخ ...

ترجمه الافرنج الى الفرنساوية ، وطبع في باريس وترجم الى التركية .

ومن علماء اللغة الذين لم نذكرهم : الفيروزابادي ، اشتهر بقاموسه «المحيط» ، مرتب على أواخر الكلم .

المدارس : ذكرنا ان المغول تغلغلوا في العراق واستولوا على ما جاورها ، ففرّ العرب العلماء من تلك الديار الى الشام والقاهرة حيث كانت دولة عربية اللسان .

فدولة المماليك كانت تسير على خطى الأمراء والملوك العرب بتقريب العلماء والشعراء ورغبوا في اقتناء الكتب فنشأت في عهدم .

وأول من اهتم بالتدريس على نفقته من السلاطين هو المعزّ الفاطمي . عمل ذلك في الأزهر ثم عمل مجلساً في جامع عمرو بن العاص . ثم بنى الحاكم بأمر الله دار العلم في القاهرة . ولما انقضت الدولة الفاطمية بنى صلاح الدين لكل طائفة مدرسة .

وفي هذا العصر كثرت المدارس وكثر المدرسون والطلاب ، فتنافس الملوك والأمراء وسراة المصريين والسوريين في إنشاء المدارس ، يتقربون بذلك الى الله لنشر علوم الدين اولاً ، ثم غير ذلك من العلوم .

وتكاثر الطلاب من أقطار مختلفة ، فكانوا ينامون في تلك المدارس وينفقون من مال المحسنين. وكان في هذه المدارس خزانات علم كبيرة تضمّ عشرات الالوف من المجلدات .

واشهر هذه كانت في القطر المصري وهي : المدرسة الفاضلية ، والمدرسة الصاحبية البهائية ، أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين سنة ٦٥٤.

والمدرسة الظاهرية بناها بيبرس (الظاهر) سنة ٦٦٢ ، كان بها خزانة كتب تشتمل على أمهات العلوم .

العصر العثماني

نشأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، في أثناء العصر المغولي. ولما رسخت قدم الترك في تلك المنطقة ، قطعوا البحر الى اوروبا ففتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ. ونشروا لواء الاسلام في شرقي اوروبا ، ثم تحولوا الى المشرق فافتتحوا مصر والشام ، على عهـــد السلطان سليم الثاني ، فأصبحتا ولايتين عثمانيتين سنة ٩٢٣ هـ.

وأصبح الشرق الاسلامي في يد ثلاث أمم : الفرس في ايران وخراسان ، والمغول من افغانستان الى اقصى الهنـــد ، والأتراك في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر .

العثمانيون أتراك خلفوا المماليك وهم اتراك ايضاً . ولكن العالم العربي لم يشعر في عهد المماليك بما شعر به في العهد العثماني للاسباب الآتية :

١ — المماليك كانت عاصمتهم مصر وهي قلب العالم العربي .

٢ — كانت العربية لغة دولة المماليك **وكانوا يحبون العلماء** ، الخ .

٣ — بُعد عاصمة العثمانيين عن البلاد جعلهم يخافون على ولاياتهم العربيـــة ، ففرقوا الناس واستبدوا واختلسوا أموال الرعية وأرهقوا النفوس .

انحطاط اللغة : لم تنحطّ اللغة الا في آخر العصر المغولي ، لان ما ظهر في اوائله كان من نتاج الاعصر السابقة . أما في هذا العصر ففسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح ، ولم نعد نرى من التآليف غير الشروح والحواشي ، وكـــثر

التأليف بلا نظام كالكشكول ، وانحطّ الاسلوب الانشائي حتى كاد يكون عامياً .

وانحطت الاخلاق باستعمال المخدرات والانعكاف على المسكرات . وكثر السفه في المجون ، وتأليف الكتب المملوءة بالفحشاء والخلاعة .

السلطان سليم : كان هذا السلطان مدمراً هدّاماً ، أغـــار على خزائن دور العلم فنهبها ، واختلس كثيراً من آثار البلاد وخصوصاً مصر ، حتى انه انتهب مال الاوقاف ، فكسدت سوق العلم وأصبحت التركية اللغة الرسمية ، وظلت اللغة العربية لغة الدين ، وصارت لغة التخاطب ، في مصر خصوصاً ، مزيجاً من العربية والتركية . اما في هذه الديار الشامية فبقيت اسلم لبعدهـــا عن الاتراك ولاختلاط اهلها بالقبائل العربية المنتشرة فيها .

النثر الفني : بلغ النثر الفني في هذا العصر اقصى الركاكة ، وفسدت اللغة اسلوباً واعراباً . عجز كتاب هذا العصر عن مجاراة من تقدموهم حتى في الصناعة اللفظية التي قبّحناها .

الشعر : اما الشعر فلم ينجُ من هذه البلية ففسدت نواحيه ولم ينجُ منها الا القليل . ومن اشهر شعراء هذا العصر البعيد عن التكلف وفي شعره انسجـــام ولطف وخلو من التعمد :

ابن النحاس الحلبي ، مات بالمدينة .

وعبدالله بن شرف الدين الشبراوي من اساتذة الازهر ، رقيق الشعر سهله ، مات سنة ١١٧٢ .

ومن هؤلاء المجيدين **ابن معتوق الموسوي** .

وظهر شعراء غير هؤلاء تغلبت الركاكة على شعرهم . ولولا ان العربية لغــة الدين ، لسادت الركاكة وكانت البلية أعم . ولم نرَ كلمة تمتّ إلى اللغة الفصحى بنسب .

اشهر علماء اللغة في هذا العصر اثنان : الخفاجي والصبّـــان . وابرز المؤرخين :

محمد بن طولون : تعلم في القاهرة وعلم في المدرسة الصالحية بالشام والّف كتباً نفيسة .

عبد الغني النابلسي : زعيم المتصوفين وإمامهم في هـــذا العصر ، ولد في دمشق سنة ١٦٤٠ ، له تآليف عديدة ، منها شرح ديوان ابن الفـارض قطب صوفية زمانه . توفي سنة ١٧٣١ ، ويقال ان اول كتاب طبـع في دمشق هو كتابه « الأوراد » .

محمد بن عبد الوهاب : توفي سنة ١٧٨٧ ، وهو رأس الوهابيين وإمامهم ، نجدي ، حنبلي المذهب ، ترمي تعاليمه إلى التوحيد فقط ، وترك كل شيء مـا عداه . عنّف مسلمي زمانه واتهمهم بالكفر فهمّوا بقتله ، فانتصر له الامـير ابن سعود .

عصر النهضة

النهضة اللبنانية

١

الجذور : ان شجرة الأدب اعمق الأشجار جذوراً لأنها مغروسة على مجاري ذات الانسان العظمى منذ الازل ، وسيبقى ظلها متنقلاً من حال الى حال حتى يقع الجنس البشري تحت ضربة نووية من ضربات بعض المجانين من بني البشر . عند ذاك ينتقل الأدب الى نوع آخر يبدعه كرّ ملايين السنين،وتكوّنه النواميس الأزلية على هواها الهدام البنّاء ، وهو لا يفنى .

الأدب زرع عقلي جرثومته في دماغ كل منا ينبت ويستوي على ساقـــه ، ويتغذى من تلافيف ادمغتنا إلى ان يصير صالحاً غـــذاء لغيره . والحركات الفكرية تتبع ناموساً لا محيص لها عنه ، فبينا ترى العلم يزدهر في منطقة مـا ، اذا به يذبل وينتقل وينمو في منطقة أخرى لم تكن تخطر على بال .

الرها : فالرها التي كانت عاصمة دنيا العلم تشع منارتها وتضيء المسكونة اذا بالانسان هذا الخالق العجيب الغريب يتهافت عليها من فج عميق . فثقافتنـــا الرهاوية الاصل لساناً وعلماً وفلسفة تغيرت وتبدلت وتحولت في اعراقنـــا كما تتحوّل المواد الغذائية وتجري في الاجساد لتعمل واجبها في خدمة الحياة التي لا تحول ولا تزول ، وان تبدلت الاشكال تظل هي اياها في الجوهر .

عندما كان يأتينا السرياني قبل الحرب العظمى مشرداً طالباً القوت كنا لا نأبه له بل نزدريه ، لا نعلم انه حفيد مدينة الرها عاصمة العلم ومنبت المفكرين

حيث كان يعلم اشهر فيلسوف شاعر : مار افرام السرياني .

فالرها هي ذات الحظ الاوفر من ثقافتنا العربية ، نصارى ومسلمين ، وقد ظلت قروناً على كرسي مجدها الثقافي تصنع المدنية وتزرع المعرفة باخراج شباب الدنيا إلى عالم الضياء ، وقد مرت بك في اول هذا الكتاب الفتوى التي تقول : يحل لنا ان نعلم ابناء المسلمين العلوم العالية .

فتيوفيل بن توما الرهاوي المازوني هو تلميذ الرها ، جامعة ذلك الزمان العظمى ، وقد أهلّه علمه إلى رئاسة ديوان المنجمين في عهد المهدي .

والرها التي انتسب اليها تيوفيل هذا كانت مدينة العلم في تلك القرون المظلمة . فتحها العرب سنة ٦٣٩ ودخلها البيزنطيون سنة ٩٤٢ ثم الصليبيون سنة ١٠٩٨ ثم ملك الموصل عماد الدين ، فالاتراك عام ١٦٣٧ .

وتلك ايام كان لها شأنها بين الناس ، وعلى هذا الناموس يسيّر البشرية من يدبّر الأمور ويفصّل الآيات . انا لا اجزع اذا رأيت شر النكبات يستفحل لاني اعلم ان ذاك الشر يحمل في منقاره بزوراً خيّرة ، يأخذ هو القشرة واللب وتبقى النواة لتصير فيما بعد شجرة عملاقة تعشش النسور والعقبان في اغصانها .

فالذي نقل فتياننا من مغارة قنوبين وكهف دير قزحيا إلى الفاتيكان وقصور عواصم اوروبا ، ودور مكاتبها التي بنتها يد الفن لا يد الجن الذين بنوا تدمر بالصفاح والعمد ، هو الذي قضى بهذه النقلة وليس لقضائه مرد .

الصليبيون : نكب الصليبيون وغيرهم مدرسة الرها ، مدينة الثقافة في ذلك الزمان ، وتوالى عليها غزاة فاتحون آخرون فطارت نسور الثقافة من أوكارها إلى لبنان مزودة بما تستطيع حمله من زاد العلم ، وفي العش اللبناني المنسّع استقرت طيور العلم على مفرق الشرق والغرب . وبقيت الحملات الصليبية تتوالى على الشرق منذ سنة ١٠٩٦ حتى كانت الحملة الثامنة سنة ١٢٧٠ . وفي سنة ١٢٩١ تقلص ظل آخر صليبي غريب عن البلاد .

نعم جاؤوا باسم الدين وذهبوا اخيراً مكسورين بعد نضال قرنين إلا خمس سنوات ، ولكن تلك الحملات العصبية تركت في لبنان آثاراً حضارية افاد منها

جميع سكان المشرق ، وخصوصاً لبنان الذي امتزج بهم باسم الدين ولاجله . وقد وصف شوقي هذا الموقف بقصيدة دالية سنقرئك بعضها حيث نتحدث عن هذا الشاعر العظيم .

وقبل ان نفارق هذا الموقف يجب ان نعطيك موقتاً هذه الحبّة المسكّنة استعداداً لتناول الجرعات الكبرى . قال شوقي بعدما وصف عرَضاً الحملات الصليبية :

لولا ضلال سابــق لم يقم   من أجلك الخلـق ولم يقعدِ

لقد احدثت تلك الحروب الدينية خراباً وهيجت بعض الناس على بعض ، ولكن الحروب كدلاء الناعورة يفرغ واحد ليمتلىء الآخر . خربت الرهـا فملأت ديورة لبنان ثم خزائن اوروبا كتباً .

كان لبنانيو شمالي هذا الجبل يعرفون السريانية لساناً وكتابة وترتيلاً فاطلعوا على ثقافة جديدة . واللبناني منذ كان ، لا بد له من لغتـين ، فشكراً للمغول ، فلولا بغيهم لم نتعلم اللغة العربية . فلما اطلّ القرن الخامس عشر حتى عرفنـا العربية ثم حملنا بزورها فيما بعد إلى جميع اقطار المسكونة ، واليك قصة الثقافة عندنا من أولها .

جاء الصليبيون وفي نيتهم ان ينجدوا المسيح فاذا بهم يعرّفون أخوته ، وهم جميع الناس ، على بعضهم ، ثم يخدمون الثقافة والعلم حتى زالت اشارة الصليب اليوم الا من الاماكن الخاصة بالعبادة . فاللبناني ، وان كان متديناً ، يهمه العلم والثقافة ، ولذلك دفع اخوانه في الوطن إلى اقتباس المعرفة .

ان نهضتنا في بدئها كانت ثقافية لا لغوية بيانية . عرفنا الغرباء الذين نزلوا في ربوعنا فأخذنا منهم واعطيناهم وكانت هذه المعرفة لخير الانسانية جمعاء ، وفي مقدمتهم ابناء عمنا العرب الذين كانوا في حالة حرب مع الحملات الصليبية فنبنا نحن عنهم في الاقتباس ، وكان ذلك خيراً لنا ولهم . وقد بانت النتيجة بعـد ذهاب الصليبيين الذين تأثروا بنا ، وتعلموا منا وعلمونا ، مَغَرّبونا ومشرقناهم . ثم تابعنا هذه الرسالة في جميع أقطار الدنيا ، ولذلك قال حافـظ ابراهيم في

اللبنانيين ونهضتهم الباسلة :

سعوا إلى الكسب «محموداً» وما فتئت أم اللغات بـذاك السعي تكتسب
فحيث كان « الشآميون » كان لها عيش « جديد » وفضل ليس يحتجب

كان ظل الصليبيين في تقلص حين جاء عهد التتر الذي اجتاح ملك العرب ، فقتل وهدم وخرب فلم تجد طريدة هولاكو جحراً تلجأ اليه آمن من ديورة جبل لبنان ، وما تلك الديورة غير مغاور وكهوف لم تكن تؤخذ في زمن الخوف والفزع .

فتحت تلك الاطناف التي تحرسها شماريخ الجبال ، وفي جوار الوجوه التي عرفتها في الرها من أصحاب الفنابيز والزنانير الذين جعل لهم النبي محمد حرمة بقوله للأنصار : تجدون رجالاً حبسوا انفسهم في الصوامع فلا تسوهم . وهكذا تركوهم بجوار قناديل المعرفة مكبين على كتبهم يؤلفون وينقلون الى العربية كنوزاً خالدة .

افزع هولاكو وجنكيزخان لغة الله ، ولكنها أمنت واستراحت حقبة في جوار اولئك المشايخ فكانوا لها مؤنسين ومشجعين ، ولما اطمأنوا واطمأنت راحوا يبحثون ليروا ما ترك لهم الصليبيون في الرها لما احتلوها .

جاء الصليبيون من أوروبا وأقاموا في لبنان قرنين كما ذكرنا ، ثم ذهبوا وبقيت قلاعهم وحصونهم وقصورهم وكاتدرائياتهم زينة لأرضنا ، وكان من نتائج حملاتهم الغواشم التعارف والتفاهم بين الشعوب ، ونشر المدنية بمقدار ما كانت تسيغ العقول . وأحكموا بمقدار ايضاً الصلات التجارية والعمرانية بين المشرق والمغرب . اما أشهر صفحات تاريخهم التي لم تندثر حتى اليوم فهي تلك البنايات الشاهقة القائمة على رؤوس روابي لبنان وربى جبال العلويين وجميع البلدان التي اخذوها .

وهناك صناعات تعلمناها منهم وهذا كله معين على انتشار الثقافة . فالثقافة لها شوط في كل ميدان ، والفن المعماري والصناعي يلهم المثقفين . اما المهم فهو العلم ، وهذا ما نسعى اليه قبل غيرنا . قال علامتنا الدويهي المؤرخ الصادق : يهم اللبناني ان ينسخ كتاباً ، ويكتسب علماً ، ثم يبني ديراً في جواره مدرسة .

٢

قبل نابليون بقرنين : خلفاء الرهاويين واحفـــادهم ، كانوا خميرة العجنة الثقافية في لبنان ، فرفعوا اسم لبنان علماً فوق العلم الاشم . فأشبهوا السمكتين والخمس خبزات .

قالوا : عرق الاصل نزّاز ، فكل هؤلاء الطلائع الذين سنذكرهم ، كان العلم في دمهم ، يجري في عروقهم ، فطعّموا العربية ولم تثبط هممهم الكلمة المأثورة : أبت العربية أن تتنصرا .

لم تعد عقلية ناس هذا العصر مثل عقلية ذلك الزمان ، فالثقافة لا تدين بدين حتى نقول عرفناها قبل غيرنا ، فهي كما جـــاء في الآية الكريمة : **« زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار »** .

هذا مثل العقلية اللبنانية التي افتتحت مغالق الدنيا مفتشة عن الكلمة أمّ المعرفة . تعلمتْ العربية في القرن الخامس عشر عن طريق النسخ ، ثم تقدمت . زحفت أولاً كالطفل كما ترى في صقر لبنان ، ثم دبّت على يديهـــا ورجليها ، واخيراً عدّت وما زالت تعدو . كان عقلها بوراً فأكبت عليه تحرثه حتى خالطت اكابر المفكرين وصارت منهم . حسب لها الغرب والشرق حساباً وما يزال ، فهي لها في كل ميدان فرسان .

فهذه الثمار جناها جدودنا وقدموها على طبق من ذهب هدية لأم اللغات التي حدبنا عليها في طور ضعفها ، وظللنا نداويها ونداريها حتى رأينا رجوع الشيخ الى صباه . فلولا مساعدة بابا رومية والملك الشمس لم يكن شيء مما كان من هذا التجديد . فقد علّمونا وعلّمناهم . علمناهم لغة القرآن الشريف وثقّفونا باللغات والعلوم الاوروبية . تعلمنا في مدارسهم وعلمنـــاهم علومنا الشرقية بما نسخناه وترجمناه ولقنّاهم اياه من كنوز علمية وأدبية ، ولم يطل بنا الأمر حتى جلسنا

على كراسي جامعاتهم أساتذة نثقف ونعلّم .

وتولينا تموين خزانات كتبهم فنسقناها وكنا من حراس الثقافة ، ولولا ما فعلنا لذهب الكثير من كنوز المعارف . وسنفصّل ما أجملنا ، ونذكر الأهم من المآثر الجبارة التي دوّنت على ضوء الشمعة الراجف ونور السراج الشحيح . لقد دفعوا ثمن ذكرهم وشهرتهم هذه أضواء عيونهم .

فيا أيها الجنود المجهولون ، انني اعتذر لأرواحكم اذا أغفلت ذكر أحد منكم ، فقد اكون جاهلاً له لا مهملاً .

والى اخواننا في اللسان نقول : كل فتاة بأبيها معجبة ، فلا يؤاخذنا أحد من بني عمنا العرب اذا تغنينا بأمجاد أجدادنا الأولين . فقد تغنينا بأمجاد العرب حتى شبعنا . ومن قرأ شعرنا ونثرنا يعرف ذلك . والعربية حين لاذت بنا لم ترَ زياً غريباً ولا وجهاً عجيباً . فقد ألفت معاشرة علمائنا وألفت أزياءهم في قصور الخلفاء الاوائل حين كانوا يترجمون لهم ويطببونهم . فاللبناني كما قال الحجاج : مهاجر ليس باعرابي .

إن نهضتنا ثقافية ، علمية فلسفية ، لا لغوية بيانية كما قلنا . رأى جدودنا ان الجنينة أمست بوراً فحرثوها وطعّموها . أطلّوا من دياميسهم ومغاورهم ذات الهواء الرطب فانتعشت أجسامهم اليابسة وجرى الدم في عروقهم حين ضربتها الشمس . ولولا شدة حرارة شمس لبنان لما استطاع هؤلاء المجاهدون الحياة طويلاً في دير قنوبين ، وقزحيا ، ومار سركيس ، والقطين ، والمغاور الأخرى .

ألهم الله السلطان العثماني سليمان الثاني فأصدر ارادته الشاهانية بحمايتهم واطلاق الحرية لهم في ممارسة شعائر دينهم . كان ذلك في سنة ٩٥٧ هـ. في عهد البطريرك موسى العكاري فانطلق عندليب « الطلائع » — المطران فرحات — بعد حين يغني ويرتل ، لا يخشى غدر صياد .

نعترف انه كان قبلنا أناس أصح منا لغة عربية وأفصح تركيباً وأجمل تعبيراً . ان أعمق الأشجار جذوراً هي شجرة الأدب ، وإذا تعمقت

في نبش تاريخ الديورة والهياكل رأيت جذوراً عميقـــة للثقافة متشابكة في تربة الفكر اللبناني ، فمن قبل الفينيقيين الى حدود المسألة الشرقية ترى على درب الحياة آثار اقدام الثقافة . فهذه البقعة مرت بها جميع شعوب الارض . تقاتلت ثم ذهبت وتركت عندنا مخلفات ثقافية كما يترك الجيش شيئاً من عتاده ، ومن هذه الأشياء كلها تكونت عقليتنا ، فليس في الدنيا أمة مثلنا تشابك أفكار .

انظر ترَ في لبنان ديورة وهياكل وقلاعاً وحصوناً ، كنائس وكاتدرائيات وجوامع ومدرّجات وملاعب . فعلى كل قمة دير ، وعلى كل تلة هيكل أو قلعة ، وفي كل واد ملجأ حصين تعجز عن أخذه غارات طائرات هذا الزمان . فقـد نحتت الطبيعة لجدودنا الجبال بيوتاً فاستعمروها وسكنوهـا . فحولَ الينابيع قامت المدن والدساكر ، فلو بنينا حول لبنان سوراً لكان متحفاً للعاديات .

ان الطبيعة هي المهندس الاعظم لهذا الجبل ، وهي في كل يوم تتفتح لنا عن عجائب . الانسان قبل ان يصير صاحب مخازن عظمى كان اولاً مستخدماً أو سمساراً ، ثم تدرج هذا اللبنان ، ومشت ثقافته 'قدُماً ، فمن مغارة قنوبين الى قباب الفاتيكان وبرج ايفل وقصور كمبردج والكرملين . كان اعلامنا نقلة كتب نسخاً وترجمة ، ثم صاروا مؤلفين وعلماء اعلام ، كما سنرى . وأميرا الجبل فخر الدين وبشير — كان احدهما عمرانياً فقضت عليه الحال ان يرحل (موقتاً) الى توسكانا ، فدرس مخطط العمران هناك ولما عاد سهّل للاجانب طرق الحيـاة ، وكانت هذه من بشائر النهضة العمرانية .

كان الحاقلاني ، وهو من مشاهير الطلائع ، مدّبره وهمزة وصل بينه وبـين أمراء الغرب فبشرت مساعيه بخير جزيل . ففخر الدين كمحمد علي بالنسبة الى زمان كل واحد منهما ، كلاهما مفضل وكلاهما عمراني .

والأمير بشير الشهابي : كان عنده لكل شيء شيء ، كان في الحرب قيدوم الجيش وأمير السرج ورب السيف والرمح ، وفي السلم رب السرير تتألف حوله حلقة الشعراء ، يطارحهم ويقترح عليهم الموضوعات ويجيز المحسن ، ويناقش المناقشة الصارمة ويقول الشعر وان كان الشعر بالامراء يزري .

ان المدنية أمواج ، فتارة يكون البحر عجاجاً ، وطورا تنظر اليه فتحسبه مفروشاً سطحه بالدمقس . والعلم كالنور ينتشر على ابعد الابعـــاد ويطلب في اطراف المعمور . أمـــا جاء في الحديث الشريف ، اطلب العلم ولو في الصين ؟ وهكذا صار عندنا ، فمن ضفاف ما بين النهرين الى وادي قاديشا وظلال الارز ، ومن نهر التيبر الى نهر السين الى الهدسون الى شلالات دفنه ونياغرا ، سار اللبناني ومعه في حقيبته ثوب وكتاب ورغيف خبز .

لقد تناوب ابناء الخيام وابناء المغاور على حمل أعباء أوسع اللغات وأمرنها وأبعدها تمدداً . قد لا يعجب كلامي الصريح من يحبون المبخرة ، ولكن الحكم على الادب والآثار القلمية لا يكون منصفاً الا بعد جيل على الاقل ،فهو والتاريخ في هذا سواء بسواء .

أمّا سبقنا الى تلقي حضارة الغرب وثقافته فله سببان :

١ً — جغرافي و٢ً — ديني . فكما تعلم ان موقعنا كان ممراً يوم لم تكن هذه الاختراعات ، وديننا يقربنا من الجماعة . والذي يقول غير ذلك فاقول له : اذا تعددت الاحزاب اليوم في البيت الواحد صار اشبه ببرج بابـــل . قرّبتنا من الصليبيين وغـــيرهم من الزوار الفرنج الرابطة الدينية ، فأفدنا حضارة جديدة اضفناها الى ثقافتنا السريانية . كنا ندرس كتب العلم القديمة والجديدة ، كنـا نتعلم عن طريق نسخ الكتب يوم لم تكن المطبعة ،ولما ظهرت كنا اسبق الشرقيين اليها ، وكانت أول مطبعة في الشرق بالقلم السرياني ، والكرشوني ، ثم العربي في القرن الخامس عشر أي قبل ظهور نابليون على شط الاسكندرية بقرنين .

وكيّفنا عبارتنا على هوى حديثنا ففصلنا الثوب على القد ، فسمونا مجددين وقد ضل من وصفنا بالشعوبية ، وكيف يكون ذلك وزعيمنا مار مارون نشأ على ضفة نهر العاصي ، وجاء لبنان من هناك ؟

أظن ان عقلية الصليبيين في ذلـــك العهد لم تكن أرقى من عقلية غيرهم ، ولولا ذاك لـما جاؤوا بصلبانهم وايقوناتهم الى ساحـة حرب شرقية ، وما أبعد الشرق عن الغرب في ذلك الزمان .

وأصاب العرب بتنكرهم للعلوم الجديدة ، ما أصابهم حين تنكروا للفلسفة والمنطق ، وقـــالوا : من تمنطق فقد تزندق ، فغلبهم الزنادقة حتى قام الغزالي يقول :

غزلت لهم غزلاً دقيقاً ولم أجد لغزلي نساجاً فكسّرت مغزلي

وهنا نختم هذا الفصل بالقول : فليصدق رائد أهله .

اللهم اشهد اننا صدقنا .

الطلائع

١٥٨٤

قبل محمد علي بقرنين ونصف القرن
وقبل مراسيم السلطان سليمان الثاني بقرن
وقبل ميلاد فخر الدين المعني

كانت الثقافة عندنا . ورثنا الرها وجندي سابور ونصيبين ، وأهدينا ذلك الميراث ، بعدما أغنيناه ، إلى الغرب والشرق فانعشناهما بعد الذبول . لم يجد اميرنا فخر الدين من يدير شؤون امارته وعلاقاته مع الغرب غير كاهن لبناني هو الحاقلاني .

ولم يجد من ترجم له كتاب هندسة الابراج غير الكاهن مخائيل بن عميرا الاهدني . وهـذا الكاهن الذي ارتقى الى السدة البطريركية قد صنّف غراماطيقاً مطولاً برهن فيه ان لغتنا اقدم لغة ، فعينت له رومية معاشاً سنوياً طول حياته .

أما فخر الدين المحسن الينا فقد أمّن لنا الحياة فعدنا الى كسروان والجنوب واشتغلنا لانماء الثقافة . كان فخر الدين رجل عمران أكثر منه رجل ثقافة ، يقدر العلم ورجاله ، فأبدينا نشاطاً علمياً احتجنا الى سيفه ليحمينا واحتاج الى علمنا فنفعناه به .

إن الثقافة احتمت بجبال لبنان ، ومن يصدق ان البطرك موسى العكاري

لم يعدم بين اكليروسه مطراناً يعرف العربية والتركية والسريانية وهو المطران انطون فرحات الحصروني ، فأرسله الى حلب ليؤدي واجب الخضوع لجلالة السلطان سليمان الثاني حين قدم الى حلب ، فأصدر السلطان مراسيمه التاريخية الخمسة فانعشتنا وألقي عنا نير الاضطهاد .

مدرسة الموارنة في رومية : عام ١٥٨٤ . ليس يعني كلامنا هذا ان اللبنانيين الموارنة لم يعرفوا الغرب وثقافته قبل ان انشأ لهم البابا غريغوريوس الثالث عشر هذه المدرسة . بلى وهاك التفصيل .

في عهد البطرك مخايل الرزّي رفعت شكوى إلى بابا رومية على ان هذا البطرك يعقوبي المذهب ، فاوفد الحبر الاعظم قاصدين هما الاب جوان باطيستا اليان ، والاب توما راديوس ، وامرهما بالتدقيق في الفحص عن اعتقاد الموارنة . اما رئيس البعثة جوان باطيستا فدعي إلى رومية واطلع البابا على الحقيقة وسأله ان ينشيء للموارنة مدرسة فانشأها وجعلها برعاية البابا وخلفائه . وكان الكردينال كرافا مساعداً له في هذا المشروع الديني الانساني . ولم يقف الكردينال كرافا عند هذا الحد بل وقف جميع تركته عليها .

ومن هذه الخلية خرج عسل وشهد كثيران، كما قال في وصفها العلامة المطران يوسف الدبس . ثم توفي الكردينال كرافا ، وكيل الموارنة ، وظلت المدرسة قائمة ، ونبغ من تلامذتها علماء اعلام « طبق ذكرهم الخافقين فاناروا المغرب بتواريخ المشرق ، وكانت كتبهم وما برحت كمرقاة للعلوم ومشكاة يستنار بنورها في امور المشرق » .

لويس الرابع عشر : ثم انبرى هذا العاهل الاكبر إلى نصرة العلم والثقافة واذاعتها فخصّ هؤلاء الطلائع بمدرسة في مدينة النور ، باريس ، وتسهيلاً للمهمة اصدر خطاً ملوكياً مؤيداً ببراءة رغب فيها إلى ممثل دولته لدى الباب العالي « ان يبذل لهم الحماية لدى اعتاب صديقنا الاكمل السلطان الاعظم وان يسيروا في المراكب الفرنسية أو غيرها، اما لدرس العلوم، واما لغير ذلك ، ولا يكلفوهم الا ما يمكنهم دفعه . اعطي هذا الخط في سان جرمان بمدينة لاي في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩ وهي السادسة لملكنا » .

الطلائع

ابن القلاعي

حياته: ولد في لحفد، وهي قرية قديمة مشهورة في بلاد جبيل تبعد عن قريتنا عين كفاع نحو ساعتين، ولحياته حكاية.

عرف بابن القلاعي نسبة إلى محلة من ضيعته ولد فيها وعاش حتى بلغ ورشد. فخطبت له امه التي كان اسمها غورية فتاة جميلة من ذوي قرباه. وبعد الخطبة اصابه مرض نفرت منه عيناه واسترخت اهدابه فصار شكله بشعـاً ففسخت الخطبة. وهاجر جبريل إلى القدس ودخل دير رهبان مار فرنسيس، واضاف إلى تعلمه السريانية والعربية اصول اللغة اللاتينية ومهر في العلوم الإلهية والطبيعية لانه سافر إلى رومية سنة ١٤٧٠.

وعاد جبرائيل إلى وطنه راهباً، وتجند لخدمة طائفته في النقاش والجدال والدفاع عن العقيدة المارونية، ثم رقي إلى درجة الاسقفية وقضى حياته مجاهداً مناضلاً حتى لقي وجه ربه سنة ١٥١٦.

فابن القلاعي، لقب خلعوه عليه، والقلاعي في لغتنا العامية معناها الصخور الضخمة، وعندما كنت شاباً زرت ذاك المكان الذي نسب اليه هذا العلامـة، فهو مزين بصخور ثابتة حيث وجدت إلى اليوم، وفي لحف رابية تستريـح على قمتها كنيسة مار اسطفان لحفد.

ابن القلاعي الزجال: كان هؤلاء الطلائع ضعاف اللسان العربي، وما قولك

بسرياني مستعرب حديثاً ؟ ومع ذلك فان لم تعجبنا عبارته فحسبنا فكرته . فابن القلاعي ذو ثقافات متعددة وهو متعمق فيها كلها .

لم تطغ الناحية الغربية فيه على الناحية الشرقية ، فاذا قلنا ان أزجاله وثائق تاريخية لا نعدو الحق لانه لم يقل غير الحق ، واذا قلنا ان ازجاله مجتمعة هي ملحمة بلدية ففيها عناصر وصفية موضوعية ترضي الذين يحافظون على تقاليد هوميروس ، كنا صادقين . ففي بعض زجلياته يصور المعارك تصويراً كاملاً ، تشفع بركاكة عبارتها مراعاة القوانين الأخرى الملحمية ،واذا رأينا الروح السائدة فيها دينية كاثوليكية فلا نتنكر لها ، أليست أغنية رولان كذلك ؟

بطرس المطوشي : أحد تلاميذ مدرسة رومية ، وبعد ان انجز علومه فيها صار راهباً يسوعياً وقد عهد اليه البابا بسفارات دينية كبرى ، وقال فيه دي لاروك : انه لاهوتي مبرز ، له غراماطيق سرياني لاتيني وكتيّب في اللاهوت الأدبي محفوظ في مكتبة مدرسة الموارنة برومية ، وقد وقف مع الكردينال بلرمينوس على فحص كتاب الفرض الكبير (الشحيم).

نصر الله شلق : وهو من العاقورة ، درس العلوم برومية وصار كاهناً . أقام باوروبا زمناً . أما مؤلفاته فهي : تاريخ الكنيسة ، وترجمة سفر ايوب من السريانية الى اللاتينية وفصولا أخرى .

جمع ثروة أوصى أن تنشأ بها مدرسة خيرية في مدينة رافانا بايطاليا ، فكان افتتاحها سنة ١٦٣٩ واقفلت ابوابها ونقلت تلامذتها الى مدرسة الموارنة سنة ١٦٦٤ .

انطونيوس الصهيوني : عشق اللبنانيون الكتب ، فمن لم يكن مترجماً أو مؤلفاً كان ناسخاً ، فهذا الراهب رئيس الكهنة نسخ الاقسام الاول والثاني والثالث والرابع من فلسفة السريان التي ترجمها حنين بن اسحق ونسخ ايضاً مقالة في الحساب والجبر بالعربية لابي عبدالله احمد شهاب الدين الذي عاش في اواخر القرن الرابع عشر . ونقل مقالة في الخطوط الهندسية لاحمد بن علي .

القس جبرائيل الصهيوني

هذا العلامة العظيم ماروني لبناني من اهدن . عرف بهذا الاسم قبل مولد الصهيونية اليهودية . تعلم في مدرسة الموارنة برومية وحاز بعد الامتحان لقب « ملفان » في اللاهوت ، واقيم استاذاً للغتين العربية والسريانية في مدرسة السابيانس– الحكمة – الشهيرة، واشتهر حتى دعاه لويس الثالث عشر سنة ١٦١٤ ليكون معلماً في المدرسة الملكية بباريس ، ثم حمله لقب ترجمان ملكي . ولما اعتمدوا على نشر الاسفار المقدسة بعدة لغات عهد اليه بتعريب النسخة العربية ، وتنقيح النسخة السريانية ، ومعارضتها بنسخ عديدة ، ثم ترجمة النسخة العربية والسريانية ، وعهد معه بهذه المهمة الاخيرة الى ابراهيم الحاقلاني .

آثاره : قال والتن الذي عني بطبع البوليكلوتا : « ان هذا الرجل العظيم ، أي الصهيوني ، قد بذل تعباً شاقاً وكثير الفائدة لكل من يرغبون في التضلع من اللغات الشرقية والاسفار المقدسة . ومن لا يقر له بالفضل يكون ناكر الجميل والاحسان . ونرى انه واجب على الجميع ان يؤدوا له الشكر الذي لا نهاية له».

وآثار الصهيوني كثيرة ، منها ترجمة كتاب الزبور من العربية الى اللاتينية، طبعت في رومية سنة ١٦٨٤ وكتاب في نحو اللغة العربية طبع بباريس سنة ١٦١٦.

وترجمة جغرافية ابي عبدالله محمد الادريسي من العربية الى اللاتينية ، طبع ايضاً بباريس سنة ١٦١٩ .

وكتاب في بعض مدن المشرق ودين اهلها وعاداتهم وخصالهم .

وله ايضاً ترجمة الزبور ثانية عن الترجمة المعروفة بالبسيطة الى اللاتينية وطبعه بباريس سنة ١٦٢٥ الخ. الخ.

وقد ذكر دي لاروك خبر وفاته بباريس سنة ١٦٤٨ وذلك في كتاب رحلته الى سورية ولبنان .

ابراهيم الحاقلاني

حياته : ولد في حاقل (جبيل) وتعلم بمدرسة رومية ، ثم علم السريانيـــة والعربية برومية واشترك مع الصهيوني والحصروني في طبع التوراة .

مؤلفاته : كان من مشاهير علماء زمانه . ومؤلفاته ترجمة كتاب ابن الراهب المصري القبطي في التاريخ الشرقي، واتبعه بترجمة مقالات طويلة في تاريخ العرب وانسابهم ، وقد طبعه بباريس سنة ١٦٥١ .

وله ترجمة قصيدة عبد يشوع الصرباوي في المؤلفين البيعيين إلى اللاتينية مع شرح لها وحواش عليها . طبعت برومية سنة ١٦٢٨ .

وله ايضاً ترجمة الكتب الخامس والسادس والسابع من تأليف ابولينوس في الهندسة من العربية إلى اللاتينية ، بناء على طلب دوق توسكانا .

وله مختصر الفلسفة الشرقية ، طبع بباريس سنة ١٦٤١ .

وترجم إلى اللاتينية كتاب الحيوان للسيوطي .

وترجم من العربية إلى اللاتينية مواعظ القديس انطونيوس واجوبته .

وللحاقلاني كتاب الانتصار لسعيد بن البطريق .

وله ايضاً ترجمة قوانين المجمع النيقاوي المعروفة بالقوانين العربية ، وقـــد عارضها على ست نسخ عربية ثم ترجمها إلى اللاتينية .

ورقد الحاقلي برومية في ١٥ تموز سنة ١٦٦٤ . ونقلت كتبه إلى المكتبـة الفاتيكانية بعد وفاته .

مرهج بن نيرون الباني : ولد في احدى قرى جبة بشري ، ويسميه علماء

الغرب فاوسطوس . اخذه خاله ابراهيم الحاقلاني إلى رومية فبرز ، واقامـــه الكرسي الرسولي استاذ اللغة السريانية في كلية السابيانسا خلفاً لخاله العلامة .

له كتب محترمة في التاريخ .

نقّح الاناجيل واسفار العهد الجديد وطبعت بالسريانية بمعاونة القس يوسف الباني . توفي مرهج سنة ١٧١١ .

يوسف بن جرجس الباني : تلميذ رومية ، وهو كثير الانتـــاج ، عرّب كتبه وصحّح لغتها العربية المطران جرمانوس فرحات . يعـــد من المجلّين في التأليف والتصنيف .

مؤلفاته : اتقن معرفة اللغات العديدة وتضلع بالفلسفة واللاهوت وأكب على العمل فاخرج كتابه النفيس : « ميزان الزمان وقسطاس ابدية الانسان » ، وقد طبع مرات . ثم اتبعه بترجمة كتاب الكمال المسيحي في ثلاثـــة اجزاء . وكتاب علم الذمة وغير ذلك من التأملات العقلية . وأشهر تآليفـه تفسير سفر رؤيا يوحنا العويص .

وللباني ايضاً ترجمة تفسير العهد الجديد إلى العربية ، وقد توفي سنة ١٧٢١ .

بطرس فروماج

١٦٧٨ — ١٧٤٠

كاهن يسوعي جليل ، كان أشبه بسفير بابوي يمثل رومية في لبنان . عالم حضر المجمع اللبناني كمستشار لاهوتي يرد ذكره كثيراً في تاريخ هذه الحقبة الثقافية ، ترجم كتباً روحية أشهرها الكمال المسيحي ، وكتاب السنكسار ، أي سيَر القديسين التي عرّبها جرمانوس فرحات .

ان هذا الأب لم يسيء إلى الموارنة ،بخلاف سواه من القصّاد المرسلين، كما أشار إلى ذلك الأب انديني المنتدب الرسولي فقال : ان ما اتهم به قصاد البابوات الموارنة هو تجنّ عليهم ...

وقد ورد هذا القول في كتابه « بعثة إلى لبنان » .

الاب بطرس مبارك

ولد في غوسطا عام ١٦٦٠ . اتقن سبع لغات: العربية والسريانية واللاتينية واليونانية والعبرانية والطليانية والفرنسية ، وبعد رجوعه من رومية سنة١٦٨٥، رسمه كاهناً البطريرك الدويهي واعاده إلى رومية برتبة وكيل عنه ، وزوده ببعض كتب ليترجمها وينشرها ، فترجم إلى اللاتينية كتاب نسبة الموارنة ، وكتاب رد التهم عنهم وسلسلة بطاركتهم .

استدعاه أمير توسكانا وأوقفه على طبع الكتب الشرقية ، ثم اقـــيم مدرساً للعلوم المقدسة فأثرى ، ووقف ثروته على الخير الثقافي ، فاحـــدث مدرسة عينطورة وموّلها بعقار يقوم ريعه بتعليم ١٢ تلميذاً ، وعهد بتدبيرهـا إلى الآباء اليسوعيين بشروط قبلها الأب تارنز رئيس الرهبانية اليسوعية . وانصرف هو إلى تأليف الكتب النافعة وترجمتها .

مؤلفاته : ترجمة مجلدين من تأليف مار افرام السرياني مع مقدمات دالة على اتساع علمه .

وترجم قسماً من المجلد الثالث ، ثم أتمّه المطران اسطفان عواد السمعاني .

وله كتب أخرى مفيدة ومقالات نافعة .

يقول الدبس : ان اليسوعيين يعدون الأب بطرس مبارك من اكابر علمائهم .

البطريرك اسطفان الدويهي

حياته : رجل فضيلة وعلم وجهاد ، صان في كتبه التي ألّفها اشياء كثيرة من امجاد لبنان . فهو المجاهد الذي اقرّ بفضله التاريخ الوسيط .

ولد في اهدن سنة ١٦٣٠ وتعلم السريانية صغيراً ، وعندما بلغ الثانية عشرة ارسله البطرك جرجس بن عميرا إلى مدرسة رومية ، فانهى دروسه من فلسفة ولاهوت وعلوم ولغات وعاد إلى الشرق . وبعد ان علم الاولاد ست سنوات رقي إلى رتبة المطرانية ، ثم انتخب بطريركاً فلقي اضطهادات ومشقات فطفر إلى بلاد كسروان والشوف،وكان بين هذه المشاكل يرتب ويصحح وينقح الكتب العديدة ويرتب السجلات وينسخ الوثائق . واخـــيراً دعاه والي طرابلس إلى العودة إلى كرسيه آمناً . فعاد في ١٩ نيسان ومات في ٣ ايار سنة ١٧٠٤ .

اشهر كتبه :

١ – فنارة الاقداس .

٢ – رد التهم .

٣ – تاريخ الازمنة ، فيه تاريخ لبنان وسوريا .

٤ – كتاب المنائر العشر .

٥ – سلسلة بطاركة الموارنة .

هذه نقطة من بحر علم الدويهي الذي كانوا يدعونه في عصره قبـــة الحكمة ومعلم الشرق .

ان المعلم رشيد الشرتوني من المجددين في التأليف والتصنيف ، واننـا نذكره هنا معجبين بتحقيقه وتدقيقه وبروحه العلمية ونزاهة قلمـه ، فهو الذي اخرج كتب الدويهي من الدياميس المارونية ، فقد اودعوها فيها ليحفظوهـا للذرية ، ولولا ذلك لذهبت آثارها وانطوت صفحات مجيدة من التاريخ العام والخاص .

وقد كان المعلم الشرتوني مولعاً بحفظ المخطوطات ، فرتّب ما وجده منها في اثناء انزوائه في دير مار شليطا مقبس .

بطرس التولاوي

١٦٥٥ – ١٧٤٥

حياته : هذا اسمه الكهنوتي ، اما اسمه العلماني فـكان عبدالله بن بطرس بن اسحق التولاوي .

دخل مدرسة رومية سنة ١٦٦٨ وهو في الحادية عشرة . قـــال الدبس : وتخرج بهذه المدرسة بالعلوم والفنون ورجع إلى لبنان ملفاناً فسامه الدويهي

كاهناً وأرسله إلى حلب واعظاً ، فاشتهر بعلومه حتى كان شيوخ العلماء يستفتونه لأنه درس الفقه وكان فيه من المبرزين .

فيلسوف ، كانت أكثر آرائه مبنية على أساس علمي لأنـــه كان استاذاً في العلوم الطبيعية .

انشأ مدرسة تضاهي مدارس حلب المشهورة في ذلـــك العصر ، وتتلمذ له كثيرون فنبغوا وعدّوا من مشاهير العلماء كالمطران فرحات ، والمطران عبدالله قره علي ،والشماس عبدالله زاخر ، والخوري نيقولاوس الصائغ. وكان الى جانب كل هذا يؤلّف ويعظ ويرشد .

من تآليفه : كتابه المنطق الذي عرف باسمه ، وكتاب غراماطيق اللغـــة السريانية ، وكتاب مجموع المجـــامع المارونية ، وكتاب ترجمة القديس توما الكمبيسي ، وأخبار المجمع التريدنتيني ، وكتاب مواعظ في مجلدين ، وكتاب في علم ما وراء الطبيعة ، وكتاب في الفيزياء ، وكتاب منطق، وكتاب في اللاهوت ٥ أجزاء ، وكتاب مرآة النفوس ، ومذكرات، وتأملات روحية ، ورسائل ، وفتاوى في الفقه الكنسي والعالمي .

وهناك كتب أخرى لم نذكرها لئلا يطول هذا الموجز .

مات هـــذا العلامة الكبير بعدما شيّخ وبلغ التسعين ، ويحق نسميه استاذ الطلائع .

السمعاني الكبير

السماعنة ، أسرة علم وذكاء ، مشاهيرها كثر ، منهم المطران يوسف شمعون وهو عم السمعاني الكبير ، له كتاب علم الذمـة . والبطرك يعقوب عواد وسمعان عواد .

فالسمعاني الكبير أي يوسف سمعان ولد في ٢٧ تمـوز سنة ١٦٨٧ ودخل مدرسة رومية وعمره ثماني سنوات . ولما أتم علومه وعزم على العودة إلى لبنان عهد اليه البابا اكليمنضوس الحادي عشر ان يعمل فهرستاً لاتينياً للكتب الشرقية ويلخص فيه فحاويها ، ففعل وعلق على الكتب حواشي نفيسة بينت للبـابا ان يوسف سمعان السمعاني اهل لأن يكون مترجـاً للكتب العربية والسريانية والكلدانية التي في المكتبة الفاتيكانية .

وفي السنة ١٧١٠ نال درجة الملفنة وعين مستشاراً في لجنـة اصلاح الأسفار المقدسة التي يستعملها أبناء الشرق . وفي السنة ١٧١٥ أوفده البابا للبحث عن الكتب المخطوطة في الاقطار فأحضر منها إلى رومية كتباً وافرة العـدد من جميع نواحي المشرق ، فكانت مـادة لكتابه الشهير : « المكتبة الشرقية الفاتيكانية » .

وفي سنة ١٧٣٠ سماه البابا حافظاً لهذه المكتبة العظمى ، ثم صار رئيسها .

ساعده على هذا العمل الجليل حـذقه بضع عشرة لغة فاخرج خلاصات الكتب الشرقية الى اللاتينية .

بعض تآليفه :

١ — المكتبة الشرقية (٤ مجلدات) .
٢ — التاريخ الشرقي ، وقد ترجمه العلامة الحاقلاني .
٣ — مؤلفات القديس افرام السرياني (٣ مجلدات) .
٤ — غراماطيق اللغة اليونانية (طبع في جزئين) .
٥ — تأبين الفريدريك اغوسطوس الثاني ملك بولونيا .
٦ — تأبين القاه في كنيسة الفاتيكان في جناز البابا بناديكتوس الثالث عشر .
٧ — محاضرة في انتخاب البابا القاها على الكرادلة في كنيسة الفاتيكان .
٨ — براءة رسولية فيها نظام تدبير المكتبة الفاتيكانية .
٩ — قوانين الرهبان الموارنة بالعربية واللاتينية وتاريخ نشأة الرهبانية .
١٠ — تاريخ مملكتي نابولي وصقلية ، طبع برومية في أربعة مجلدات سنة ١٧٥١ — ٥٣ .
١١ — مكتبة القاموس الشرقي الكنسي والمدني (خمسة مجلدات) .
١٢ — المجلد الخامس من المكتبة الشرقية ، وترجمة الأسفار المقدسة .
١٣ — المجلد السادس من كتب السريان البيعية .
١٤ — المجلد السابع من مجموعات المجامع السريانية .
١٥ — المجلد الثامن من مجموعة المجامع العربية .
١٦ — المجلد التاسع من ترجمات كتب المؤلفين اليونانيين الى السريانية والعربية .
١٧ — المجلد العاشر من المؤلفين العرب النصارى .
المجلدات ١٨ و ١٩ و ١١ و ١٢ — من المؤلفين المسلمين .
كلندريات عديدة لجميع الطوائف تقريباً .
٢٠ — في صور القديسين الفسيفسية .

٢١ – مجامع الكنيسة الشرقية (ستة مجلدات) .

٢٢ – تسعة كتب في التاريخ الشرقي : الموارنة، والروم الملكية، والدروز، والنصيرية ، والمسلمين ، والقبط ، واليعاقبة ، والاحباش النساطرة، والأرمن .

٢٣ – تسعة كتب في تاريخ سورية القديمة والحديثة .

٢٤ – غراماطيق سرياني مطول .

٢٥ – كتاب منطق بالعربية .

٢٦ – كتاب في ما وراء الطبيعة بالعربية .

٢٧ – كتاب لاهوت بالعربية .

٢٨ – كتاب تفسير الآيات الغامضة في العهدين .

وهناك كتب عديدة لم تدوّن في السجل الفاتيكاني .

ليت المجال يتسع لنشر فقرات من رسالة البابا الى معلم البلاط الرسولي يوسف سمعان السمعاني للدلالة على ما حازه هذا الشرقي اللبناني من اجلال لدى اعظم شخصية عالمية : بابا رومية . ولكننا نكتفي بما قلناه ، ومن شاء الزيادة فليرجع الى المطولات .

بولس عواد : ومنهم المطران بولس عواد (١٨٥٥ – ١٩٤٠) اقدم هذا المطران كأسلافه السباعنة فترجم الخلاصة اللاهوتية لتوما الاكويني ، وطبع منها أربعة أجزاء ضخمة ، كما لخص شرح بديعية الحموي المعروفة بخزانة الادب.

نعمة الله ابو كرم: ويحصى مع هؤلاء المطران نعمة الله ابو كرم فهو مترجم الفلسفة النظرية والجامعة ضد الامم لتوما الاكويني .

المطران اسطفان عواد السمعاني

هو ابن اخت السمعاني الكبير ، تلميذ مدرسة رومية . من مؤلفاته : كتاب شرح اعمال الشهداء الغربيين والشرقيين في مجلدين . وفهرست الكتب المخطوطة في المكتبة المادشية وهو يحتوي على ذكر خمسماية وسبعة وثلاثين كتاباً مع خلاصتها .

وله كتاب فهرست الكتب التي بمكتبة كيجي في رومية ، وله فهرست للكتب التي في المكتبة الفاتيكانية ألّفه مع خاله السمعاني في ثلاثة مجلدات .

وله ترجمة تاريخ ابن العبري الى اللاتينية ، وتكملة ترجمة المجلد الثالث من كتاب مار افرام إلى اللاتينية .

مات سنة ١٧٨٢ ، بعد ان ملأ صيته الفاتيكان وغيره من المراكز العلمية .

يوسف لويس السمعاني

هو ابن اخي السمعاني الكبير ،تلميذ مدرسة رومية . عينه البابا بناديكتوس الرابع عشر معلماً للغات الشرقية في الكلية الرومانية (السابيانسا) .

آثاره : له كتاب الرتب والطقوس الدينية ، ويخبرنا العلامة الدبس انه غالي السعر وانه اشترى نسخة منه بست وعشرين ليرة ذهبيةً .

وله ترجمة الشحيم اي كتاب فروض السريان في اربعة مجلدات ، وترجمة قداس الكلدان إلى اللاتينية .

القس شمعون السمعاني

هو ابن اخي يوسف لويس ، ولد بحصرون ودرس في مدرسة الموارنـــة برومية .

آثاره : فهرست للكتب الخطية الشرقية في مكتبة بادوا الثانية .

وله ايضاً كتاب تاريخ العرب قبل ظهور الاسلام ، وكتـــاب في الكرة الفلكية ، وجميـع هذه الكتب باللغة اللاتينية .

الغزيـري

هو ميخائيل الغزيري تلميذ رومية وقد حضر المجمع اللبناني ووُصف بأنـه استاذ الفلسفة واللاهوت .

من تآليفه : كتاب في مجلدين وصفه الدبس بانه جزيل الفائدة وهو فهرست للكتب العربية التي في مكتبة الاسكوريال باسبانيا .

وقد أوفد هذا العلامة مع الخوري الياس سعد البجاني للاعتراض على بعض رسوم المجمع اللبناني والطعن بالعلامة الكبير السمعاني الاكبر فعادا مخذولـين . وهذا بعض ما جاء في رسالة البابا جواباً على تلك الشكوى :

« وقد أيدناه كل التأييد (أي المجمع اللبناني الذي انتزع فيه السمعاني أكثر

حقوق البطرك الماروني) وأثبتناه بسلطاننا الرسولي، ورأينا من الصواب والانصاف ان نمحو كل وصمة التحقت باسمكم ، وان ننزل التأديب بمؤلفيها . وأن نعلن انها تستحق الحرق بالنار » .

ونحن نقول اننا فشلنا بسبب المجمع اللبناني مرتين ، الأولى عنـــد مولده والاحتجاج عليه، والثانية عند اعلان موته يوم مات عريضة آخر بطرك ماروني منتخب عام ١٩٥٥ .

وهكذا تكون قد استبدّت رومية بنا مرة واحدة ، جزاء تعلقنا بهـــا والعوض ببقاء السادة احبار طائفتنا ...

اصحاب الكتاب والكتابين

عبدالله قراعلي : ولد بحلب وتتلمذ للشيخ سليمان النحوي. له مختصر الشريعة ومواعظ ومذكرات .

جبرائيل حوشب : ولد في حلب وصار مطراناً. له كتاب الرموز ومفاتيح الكنوز .

يوحنا حوشي : اول تلاميذ مدرسة رومية نقل الى العربيـــة مؤلفات لاهوتية . مات في رومية سنة ١٦٣٢ .

سركيس القمري : (١٦٩١ — ١٧٤٥) من اهدن ، تلميذ مدرسة رومية ، له كتاب هدى الخطأة ، تعريب مواعـــظ سنتيري . مختصر علم الذمة ، ظهور الايمان ، غراماطيق لدرس اللاتينية .

سركيس سمراني : وهو راهب كان في دير قزحيا نسخ عدة كتب ونظم زجليات منها واحدة تصف فتح الاسطول التركي جزيرة قبرص سنة ١٥٧٠ .

ابو المواهب يعقوب الدبسي : من مواليد حلب ، طرابلسي ماروني، ترجم الانجيل الى العربية الفصحى وهو عالم لغوي ونحوي ذكره المطران فرحات في بحث المطالب ورجح رأيه .

المطران جرمانوس فرحات

١٦٧٠ — ١٧٣٢

حياته : هو جبريل بن فرحات مطر ، ولد في حلب سنة ١٦٧٠ ، وتلقى اولاً مبادىء اللغتين العربية والسريانية ، وتاق الى التعمق والتوسع في فنون اللغة العربية فلزم إماماً عالماً هو الشيخ سليمان النحوي فقرأ العربية عليه ، وانصرف الى الحفظ فحفظ شيئاً كثيراً ، واتقن السريانية ايضاً كالعربية ثم الطليانية التي كانت تعلمها مدارس الموارنة ، فاتقنها وترجم منها كتباً عديدة. ثم درس الفلسفة واللاهوت والمنطق والتاريخ المدني والكنسي ، ثم هاجر من حلب وجاء لبنان حيث أسس رهبانية ، ثم صار قسيساً فرئيساً عليها ، وسافر الى رومة ، فحدا به ميله الى لغة العرب الى مشاهدة الاندلس فزارها ومتع نظره بآثار العرب .

وفي سنة ١٧٢٥ سيم اسقفاً على حلب فكان مثال الراعي الصالح للرعية وتوفي سنة ١٧٣٢ وقد فهمت من سيره في الحياة صفاته الشخصية .

تآليفه : بين كتبه نحو اربعين كتاباً في علم اللسان والدين ، امــا معرباته ومختصراته ومصححاته فتربو على المئة ، والمشهور منها هو « بحث المطالب» أول كتاب في النحو الفـــه نصراني على الطريقة الحديثة . وله « الإعراب عن لغة الأعراب » وهو معجم اختصره عن الفيروزابادي وزاد عليه من عنده الفاظــاً وفوائد . وله كتاب فصل الخطاب في صناعة الوعظ ، والمثلثات الدرية .

المكتبة : وقد وقفت بنفسي على جهود السيد فرحات اذ اطلعت على المكتبة الأثرية المحفوظة بمدينة حلب في المطرانية المارونية فهي لسان يخبر بجهود هذا

العلامة المجاهد في سبيل اضاءة نبراس العلم في عصر الظلمة والانحطاط ومن يطلع عليها يطلع على تاريخ الحقبة ، ففيها قرآن كريم مكتوب على رق غزال ، وفيها انجيل حاول المطران ان ينحو فيه نحو القرآن فعجز عن مضاهاته حتى صحت فيه الآية : وأتوا بسورة من مثله .

استاذ الفصحى : لم يذهب المطران الى رومية طالباً بل زائراً ، وشاء الله الا يتلقى علومه في الغرب فقويت ملكة لسانه العربية فصحت عبارته. واتقانه العلوم اللسانية وانصرافه الى الشيخ سليمان، استاذ العربية في ذلك العهد، وانصبابه على مطالعة آثار العرب الأدبية جعل منه فارس حلبة العروبة وقائد الطلائع ومدربها . وهكذا تم تبادل الثقافة حـــين انشأ الفيلسوف التولاوي ، استاذ فرحات ، مدرسة خاصة في ذلك العهد بحلب يدرس فيها الطليانية واللاتينية والفلسفة والعلوم واللاهوت.

مجمع علمي:بعد رجعة فرحات من الغرب وزيارته للاندلس خطر له مشروع علمي فأنشأ الى جانب المكتبة دائرة علمية كان من اعضائها التولاوي والبـــاني وغيرهما . كانوا يؤلفون ويـــترجمون والمطران يصحح عبارتهم ، **وهكذا كان التطعيم الذي عاد على لغتنا بالخير . وهكذا كان التعايش العلمي** ، فلله در هؤلاء جميعاً ما اجزل فضلهم واكثر خيرهم . كانت الشهباء في عهدهم مدينة العلم ومنها انتشرت النهضة العربية الجبارة التي طار قبسها فأنار المسكونة .

ان المطران فرحات جدير باضخم دراسة وادق الابحاث ، لأنــه هو الذي عربنا واخرج لغتنا الكنسية من ركاكتها . فهو الذي قدم العربية في الهيكـل واجلسها عن يمين مذبح البخور كما قلنا في كتابنا صقر لبنان . لقد صحح الكتب جميعها ، وترجم ما تجوز ترجمته بلغة صحيحة اعراباً ولغة .

فرحات الشاعر الاول : ان اولية جرمانوس فرحات ليست في شعره المتين وعبارته الجاهلية ، فقد كان في عصره شعراء مسلمون ابلغ منــه قولاً ، ولكن أوليته هي في كونه أول شاعر فصيح من مستعربي لبنان الذين لم يقولوا الشعر الا زجلاً سرياني اللحن (راجع صقر لبنان اذا شئت) .

شعره : اكثره في الزهد ووصف المناسك ، وكما قال الأب توتل في المنجد الأدبي عنه : انه أعاد الحياة النسكية الى لبنان . واقول أنا : « فامتلأت اوديته وكهوفه ترانيم وتسابيح » . ومن قوله في الزهد :

اني بليت باربــع لم يخلقــوا الا لشدة بـلوتي وعنــائي
ابليس،والدنيا، ونفسي، والهوى كيف الخلاص وكلهم اعــدائي

وكأن هذه الأفكار كانت تتراكم عليه في وادي قاديشا فيقول :

احاول في عمري من الدهر راحــة وهل تطلبنّ العقل والظرف من زنجي
فاصبح دهري عاجزاً عن سعادتي كأني حرف الحلق والدهر افرنجي

وصار رئيس اساقفة حلب ولكنه ظل ناسكا زاهداً لا يجد سعــادة الا في انعاش ابناء ابرشيته ، واذا تبرم أو ضاق صدره طرد التجربة بالالتجاء الى أمه مريم العذراء ، وهتف :

لو كان للافلاك نطق أو فم لترنمتْ بمديحــكِ يا مريم

ويمعن في الصوفية حتى يهتف :

الله الله انت السمــع والبصر في العاشقين وانت الفوز والوطر
عشقتكم والهوى مني على صغر يا حبذا والهٌ قد زانــه الصِغَر

جزاه الله خيراً ونفعنا به .

الخوري نيقولاوس الصايغ

حياته : هو نيقولاوس بن نعمة الله الصائغ ولد ايضاً بحلب . تلقى دروسه الابتدائية على استاذ كغيره ، في ذلك الزمان ، ثم انصرف يشتغل في مهنة أبيه — الصياغة — مطالعاً كلما سنحت له الفرصة .

ثم درس الفلسفة واللاهوت والرياضيات استعداداً للكهنوت ، وصادف اذ ذاك رجوع السيد فرحات من رومية فتتلمذ له . ثم هاجر الى لبنان وترهب في دير القديس يوحنا الصايغ بالشوير . وبعد ان صار كاهناً ترقى الى منصب الرئاسة العامة فساس الرهبانية احسن سياسة .

قيمته : اخلاق فاضلة وتدبير بحزم ونشاط، وتقوى وفضيلة ممزوجان بالعلم . شاعر حسن التصور ، لطيف الطبع ، ينزع في شعره إلى الاصلاح الديني . له ديوان شعر يعرف باسمه ، وبديعية طريفة بالنسبة لعصره .

ان ما قيل في شعر المطران يصح ان يقال في ديوان الخوري ، فكلاهما ترهب وانقطع عن دنياه ، وان مدح الصائغ وهناً . وتعجبني منه جرأته الرسولية حين يقول :

كثر العثار بعثرة الرؤساء　　　وغوى الصغار بغرة الكبراء
فاذا رأيت الرأس وهو مهشم　　　ايقنت منه تهشم الاعضاء

عفواً لم اذكر الرثاء ، فلهذا الخوري الفاضل شعر في رثاء معلمه المطران فرحات هاك فقرة منه :

امامي وذخري بل غنائي ومغنمي　　　غنمت بـه غنماً تجل غنائمـه
حلبت به وسع الاناء معارفـاً　　　يلازمني جنح الدجى وألازمـه

اما الذين نظموا البديعيات بعد الحموي فقلما وفق واحد منهم .

البطرك يوسف اسطفان

١٧٢٩ — ١٧٩٣

هو من انبغ تلاميذ مدرسة رومية المارونية ، توفي سنة ١٧٩٣ بعد مرور اربع سنوات على تأسيسه مدرسة عين ورقة الشهيرة . وكأن إحداثها كان موحى به لتسد مسد مدرسة رومية التي صادرتها حكومة الجمهورية الفرنسية وباعتها من احد الناس ، وفي هذا الحدث يقول العلامة المؤرخ الشهير المطران يوسف الدبس : يظهر ان العناية الربانية تداركت الطائفة المارونية باعداد خليفة لمدرسة رومة فالهمت البطرك يوسف اسطفان ان يحول دير عيلته المعروف بعين ورقة إلى مدرسة عامة للطائفة ، يستغنى بها عن الغرب .

ان هذا البطريرك الجبار الاستقلالي النزعة صارع الفاتيكان سنوات وشغل دوائره زمناً حتى تدخل الامير يوسف بواسطة الشيخ سعد الخوري واعيد إلى البطرك المكفوفة يده سلطانه الرسولي وعاد من جبل الكرمل بأبهة وجلال بعد ان ألانت الامراض من عوده الصلب ، فدخل عرينه وهو يرتل النشيد السرياني الذي ألفه هو لهذه المناسبة ومطلعه : « افتح يا لبنان ابوابك » .

هندية : ان قصة الراهبة حنة عجيمي المعروفة في لبنان بهندية كانت في الظاهر هي السبب الذي عكر صفاء عيش البطريرك ، اما الحقيقة فهي ان رومية لا ترضى عن الاستقلال الطائفي فهي تريد الكنيسة كما جاء في قانون الايمان : كنيسة جامعة رسولية ، او كما جاء في الانجيل : ان تكون الرعية لراع واحد .

والاسئلة التي اجاب عنها البطرك يوسف اسطفان ، قبل ان اعيد اليه اعتباره ، تلقي ضوءاً على ما اقول . ومن شاء التوسع في هذا الموضوع فليقرأ كتاب « بصائر الزمان » للاب الملفان بولس عبود الغوسطاوي مواطن هذا البطريرك العملاق .

عين ورقة : اذا كانت مدرسة رومية طائفية مختصة بالموارنة وحدهم ، فعين ورقة لم تكن كذلك ، كان منهاجها التعليمي على غرار مدرسة رومية ، تعلم ست لغات والعلوم والفلسفة ، وقد اعطت لبنان نوابغ علمانيين مثل الشدياق والبستاني وغيرهما حتى سميناها سوربون الشرق . وهذا ما حملنا على حشر هذا البطريرك الجسور في هذا المقام فهو يحق له ان يكون في طليعة الطلائع وان جاء متأخراً عنهم في تاريخ وجوده وفي مؤلفاته العربية . ان لهذا الحبر الجبار العنيد مواقف تشرف تاريخنا ، فهو في حقل العلم مثله في الصفات الاخرى التي يجب ان يتجمل بها الراعي ، فلا يتراخى في صون الميراث الذي عهد اليه بالمحافظة عليه .

تآليفه : كثيرة ، اغلبها في اللغة السريانية التي كان عارفاً اسرارها وشاعراً فيها . وقد وضع كتاباً في تربية الاولاد كتبه لسكان ابرشية بيروت حين كان مطراناً عليها . وله ميامر وافراميات وبواعيث عديدة . ترتل في الاعياد الكنسية .

رحم الله يوسف اسطفان ومنّ على الموارنة المطبوعين على الاستقلال ببطريرك غيور مثله يحرم عينيه النوم لاجل المحافظة على الامانة ، والمناضلة في سبيل استقلال كنيسته الشرقية .

انتهى حديث رجال نهضتنا الأولى

النهضة المصرية

١٧٩٨

الثورة الافرنسية : غيرت وجه العالم، ولا حاجة الى سرد تاريخها في هـذا الملخص ، فهذا ما يعلمنا اياه التاريخ ، فالذي يهمنا من اخبارها هو ان نذكر كلمة عن اتصال الشرق بها عندما دخل المشرق بطل اوروبا الجبار الذي استغل تلك الثورة ، وهو الامبراطور نابليون بونابرت .

القطر المصري : ان الحروب التي أوقدت نارها الثورة الافرنسية طارت شرارتها الى الشرق باغارة الفرنسيس على البلاد المصرية ، فتوغـلوا في البلاد شرقاً وغرباً ، وتخطت جيوشهم الى مـا وراء القطر المصري فدخلوا سوريا وفتحوا عدة مدن منها ، فهب الشرقيون فجـأة من سباتهم العميق على دويّ المدافع وصلصلة السيوف ، فكافحوا مدة من الدهر ، فكانت معارك هـائلة ، وكان احتكاك بالأقوام كما سترى . ثم اضطرت الاحوال السياسية الاجانب الى الجـلاء ، فتقهقروا عائدين من حيث أتـوا ، تاركين في النفوس أثراً هو موضوعنا .

الاحتكاك : كانت مصر في هذا العهد منقطعة عن الغرب اعني به ذلـك الانقطاع الذي يدعو الى اقتباس شيء من حضارة الغرب وعلومه . أما التعليم العالي فكاد يكون محصوراً بالأزهر وهو يتنـاول علوم الدين من لغة وأصول وتفسير وحديث ونحو وبلاغة الخ... وعلوم النظر من توحيد ومنطق ومناظرة وفلسفة قديمة ، وحساب وهيئة وعلوم أُخرى .

إلا ان التعليم الأزهري، وخصوصاً في اللغة العربية ، استحال الى ضرب من الفلسفة اللفظية ومناقشات جدلية ، ألفت فيها الكتب والحواشي ، أما لباب العلم، كما نفهمه اليوم، فكان حظه قليلاً جداً . إلا ان فضل الأزهر العظيم — وهو حفظ اللغة العربية وعلومها — في تلك الحقبة العظيمة لا ينكره أحد . ومن تلاميذه لا من سواهم كانت البعثة التي أرسلها محمد علي الى أوروبا ، فعادوا عارفين بمبادىء علوم ذاك العصر وكانوا أية الاصلاح كما سترى .

نابليون : في سنة ١٧٩٨ فتح نابليون بأسطوله الاسكندرية عنوة ، ثم ضرب في مصر حتى بلغ الجيزة ، وبعد موقعة مع المماليك، لم يثبتوا فيها بوجهه ، اجتاز النيل واحتل القاهرة قاعدة البلاد .

تمّ لنابليون هذا الفتح بسهولة وحكم البلاد إلا بعض مماليك كانوا مستقلين بالصعيد في اطراف البلاد ، فهؤلاء كانوا يشنون الغارة على الفاتحين حيناً بعد حين ، وكان سكان القاهرة أيضاً يخرجون الى الجيش بعصيّهم ونبابيتهم فتصليهم مدافعه وبنادقه ناراً حامية .

العلم : جاء بونابرت بطائفة من العلماء والصناع لدراسة الحياة المصرية من جميع نواحيها ، وتشييد المعامل والمصانع ، وانشأ مدرستين لتعليم ابناء الافرنسيين ، وأقام مكتبة جامعة . ودعا الافرنسيون اعيان المصريين الى الدار التي اعدوا فيها وسائلهم للعلوم والفنون وأروهم الأدوات والآلات لدرس الطبيعة والكيمياء والارصاد الفلكية وغير ذلك فظنوها ضرباً من السحر ولكنها السحر الحلال ، سحر العلم . فأحس المصريون الحياة الجديدة التي لا يألفونها ، والعلم الذي لم يعرفوه .

الجلاء : وفي سنة ١٨٠١ اجلى الفرنسيون عن الديار المصرية ، فعاد اليهم حكم العثمانيين والمماليك ، فأخذت البلاد تعاني من ضروب العناء والظلم ما لا يطاق ، حتى سنة ١٨٠٥ اذ نودي بمحمد علي باشا والياً على مصر .

محمد علي : قدم مصر ضابطاً في الحملة التركية التي وجهتها السلطنة لاخراج الفرنسيين من مصر . وكان شعلة ذكاء ، واسع الحيلة ، طموحاً ، شجاعاً إلى حد

التفوق ، فوثب في رتب الجيش وثباً . خالط المصريين وكبار علمائهم فاستمالهم واعانوه عند الحكومة حتى عينته والياً على مصر وتركيا تكره ذلك .

كان اول اعماله ان فتك بالماليك واراح البلاد من ظلمهم ، فاوقع بجمهرتهم في القلعة سنة ١٨١١ .

الجندية : ثم انشأ جيشاً على الطراز الحديث في ذلك الزمان فعلم جنوده ودربهم على اساتذة افرنج . وفي سنة ١٨٢٥ انشأ في قصر العيني مدرسة حربية اعدادية . اما اللغة فكانت التركية والى جانبها تدرّس العربية وغيرها. وارسل طائفة من الماليك لدراسة فنون الجندية في اوروبا ، ثم أنشأ مدرسة اركان حرب في ضواحي القاهرة ودعا اليها اساتذة افرنسيين .

الطب : كانوا يدعون الحلاقين ليضمدوا الجروح في ساحة القتال ، وكان المصريون يلجأون إلى الدجالين ليتطببوا، فانشأ محمد علي مدرسة طب ومستشفى كبيراً اشرف عليها اساتذة افرنسيون وغيرهم ، واستدعى ايضاً مترجمين من شاميين ومغاربة وارمن يترجمون للتلاميذ ما يلقيه عليهم اساتذتهم الفرنجة ، لان معظم التلاميذ كانوا من طلاب الازهر لا يعرفون لغة اجنبية .

جيش واسطول : وضم محمد علي إلى عنايته بالعلم، عناية بكل ما تحتاج اليه دولة ، فبنى اسطولاً ونظم جيشاً ، وعني بالمسائل العمرانية كالريّ وغيره ، فاستعانت به الدولة في حروبها مع الدول الاخرى . وفتح السودان ثم اقتطع شطراً من تركيا وكاد يظفر بالعاصمة لولا تألّب الدول الاوروبية عليه.

الخلاصة : في كل ما تقدم وصل محمد علي مصر بالغرب . وظلت الحال سائرة في اطراد حتى العام ١٨٤٩ الذي مات فيه محمد علي ، فتولى بعده ابنه عباس فخبت نار تلك النهضة فاغلقت المدارس والمصانع . وظلت كذلك في عهد سعيد بن محمد حتى صارت الولاية إلى اسمعيل فاقتفى أثر جده محمد علي ، ففتح المدارس وارسل البعثات العديدة إلى اوروبا واستقدم خير الاساتذة ، ووجه همة عظيمة إلى الزراعة فبنى القناطر وشق الترع ، الخ ...

الترجمة والتأليف : كان بدؤهما في مصر في عهد محمد علي : ثم استؤنف في

عهد اسمعيل ، واول ما ترجم كان كتباً طبية وقد قام بذلك الاطباء الجـدد . ان التأليف والترجمة كانا ضئيلين في زمن محمد علي وحفيده اسمعيل شأن كل شيء في اول عهده .

المدارس : اقامها محمد علي على اختلاف ضروبها ، وعلى خطته مشى اسمعيل أيضاً ، اما المدرسة العالية التي انشأها اسمعيل فمدرسة دار العلوم وهذه كان لها اليد الطولى في بث صحيح اللغة العربية . امـا الازهر فادخل فيـه تعديل وسار على المنهاج الجديد بعد معارضة من رجاله .

المطابع : جاءت اول مطبعة إلى مصر مع الحملة الافرنسية مزودة بالحروف اللاتينية والحروف العربية ليطبع عليها ما تريد الحملة اذاعتـــه على الاهلين ثم تركها الفرنسيون فيما تركوا بعد الجلاء ، فكانت نواة لمحمد علي فأسس مطبعة عظيمة دعيت المطبعة الاهلية ، ثم سميت مطبعـــة بولاق . وفي ايام سعيد باشا انشأ القبط مطبعة أخرى ، وفي هذه المطابع طبعت كتب ادبية قديمة .

الصحافة: أول جريدتين صدرتا في الشرق هما بريد مصر والعاشور المصري أصدرهما الفرنسيون في القاهرة . ولما آلت الولاية الى محمد علي أصدر الوقـائع المصرية سنة ١٨٢٨ حتى ظهرت سنة ١٨٦٧ جريدة وادي النيل ، وبعدهـــا ظهرت الاهرام في الاسكندرية أولاً ، ثم نقلت الى القـــاهرة ، وقبل هاتين الجريدتين ظهرت جريدة اليعسوب سنة ١٨٦٦ .

ثم قامت بجوار الصحف مجلات علمية أدبية الخ .

تأثير الصحافة : أحدثت الصحافة تأثيراً في اللغة تعبيراً واسلوباً ، فقاربت بين اساليب الكتاب المختلفة ، وهي التي قضت على الأسلوب القـــديم ، ذلك السجع المضنك ، وهي التي سهلت سبل التجدد فقصرت مسافـة البعد بين لغـة الكتاب ولغة الأمة ، وهي التي نفت تلك الكلمات التي تنبو الآذان عن سماعها ، والفضل الأكبر في هذا الاحياء لاحمـــد فارس الشدياق حين عهد اليه في تقويم لسان جريدة الوقائع فابعد عبارتها عن العجمة والرطانة ، ولما ظهرت جوائبه في الاستانة ، بعد تونس ، تمّ العمل الأكبر .

التمثيل : لم يكن له دار قبل ان بنى الخديو اسمعيل الاوبرا بمناسبة افتتاح ترعة السويس ، فدعا اليها جوقة افرنسية مثلت رواية عائدة باللغة الفرنسية .

اما التمثيل في اللغة العربية فكان اسبق الناس اليه شاعر كاتب من لبنان ، فمارون النقاش هو أول من ألـّف فيه ، ثم حوّل بيته مرسحاً مثل عليه هو وجماعته اولى مسرحياته ، وبعد حين تألف من هؤلاء اجواق ، وكانت أولى الفرق التي ذهبت الى مصر فرقة الشيخ خليل القباني ثم سليمان القرداحي . أما المصريون فلم يمارسوا التمثيل المسرحي إلا حين ظهر الشيخ سلامه حجازي . ثم تقدموا حتى برزوا فيه ، وتخلف الشاميون ولا يزالون ، فكان للبنان فضل البادىء .

في القطر الشامي

أما في الشام ، وخصوصاً في لبنان ، فكانت الحالة على غير ما هي عليه في مصر ، اذ كان اللبنانيون اكثر امتزاجاً واختلاطاً بالغرب ، لارتباط فريق منهم دينياً برومة وغيرها . ومن لوازم الدين العلم ، فكان في هذه البلاد فريق يعرف الآداب الاجنبية ولغات الاجانب من طليانية ولاتينية وفرنسية ويونانية وانكليزية لارتباط هذه اللغات بالدين ، ولهذا قلنا آنفاً ان محمد علي باشا اعتمد على الشاميين في الترجمة عندما انشأ مدارسه الحديثة في مصر .

وللدين يد كبرى في نشر الثقافة ، كما سبق في كلامنا عن الحركة في مصر . فالأزهر كان هناك حمى اللغة ، وهنا كانت المدارس التي أشادها رجال الدين ايضاً منبتاً لرجال العلم والأدب الذين كانوا ، في هذه الديار وفي مصر ، رجال النهضة وحماة الفصحى .

المدارس : كانت المدارس قبل هذا القرن في الجوامع والزوايا كمدرسة الجامع الأموي في الشام ، وغيرها في دمشق وحمص وحلب وحماة وكان المرجع الأعلى الأزهر في مصر .

اما المدارس النصرانية فأقدمها في لبنان للطائفة المارونية فقد كانوا ينشئون عند كل دير مدرسة للصغار يتعلمون فيها القراءة والكتابة ، تحت سنديانة الدير وبين جدرانه ، ومن مدارسهم المشهورة مدرسة أسسها غريغوريوس البابا سنة ١٥٨٤ وكان أساتذة هذه المدرسة وغيرها من الكهنة والرهبان ، لأنه لم يكن يحسن القراءة والكتابة إلا الكاهن والإمام وأبناء

الاعيان . ولهم مدارس أخرى في المدن الكبرى ملحقة بالدير مثل مدرسة زحلة ١٧٦٩ ، ودير القمر ١٧٨٢ ، وعجلتون ١٧٥١ الخ .

واشهر المدارس المارونية التي اخرجت البستاني والشدياق والدبس وغيرهم من رجال النهضة هي مدرسة عين ورقة التي اسسها البطريرك يوسف اسطفان سنة ١٧٨٩ على مثال مدرسة رومية .

وبعد ٤٠ عاماً قامت مدرسة مار عبدا هرهريا سنة ١٨٣٠ ، ومدرسة مار يوحنا كفرحي سنة ١٨٣٢ ، ومدرسة ريفون الخ ...

وكان للروم الكاثوليك مدارس صغرى في عين القش وعين تراز ، وللروم الارثوذكس ايضاً مدارس صغيرة ايضاً في جوار الكنائس والديورة .

الامير بشير : وكان الجزار في عكا من خصوم الامير بشير الشهابي فدفعت هذه الخصومة الامير بشير الى الهجرة الى مصر ، فصادف اكراماً من أميرها محمد علي . وتوافقت المشارب بين الرجلين فحين خرج محمد علي وولده ابراهيم على الدولة كان مما احتلوه من بلادها سوريا ، فقرّب هذا بين الاميرين ، ومن ثمرات تلك الصداقة التي جناها لبنان تلك البعثات العلمية التي اوفدها الأمير بشير من شبيبة بلاده الى القاهرة حيث تلقت الطب في مدرسة قصر العيني المعروفة في هذه البلاد ببولاق . فليس الامير الشهابي رب سيف وبطل ميدان وحسب ، بل له في معركة الثقافة يدان تدلان على عرق اسرته القرشيّ الاصيل .

نشأة الطباعة : أول مطبعة عربية أنشئت في ايطاليا ببلدة « فانو » بأمر البابا يوليوس الثاني ، ودشنها لاوون العاشر سنة ١٥١٤ . كان أول مطبوعاتها كتاب الزبور ، وسنة ١٥٣٠ طبع القرآن الكريم في البندقية . اما الاستانة فقد بدأت فيها الطباعة العربية أوائل القرن الثامن عشر .

في حلب : ظهرت المطبعة الاولى فيغرة القرن الثامن عشر ،وقد صنع امهات الحروف العربية الشماس عبدالله زاخر الذي يقول فيه معلمه جرمانوس فرحات: « كن يا ابن زاخر في الآنام فريداً » . ومطبعة الشوير ومؤسسها عبدالله زاخر ، ثم مطبعة القديس جاورجيوس في بيروت ١٧٥٣ .

المستشرقون

أول من اهتم باللغات الشرقية ، البابوية الرومانية . فهي التي عنيت بالمطبعة العربية لطبع الكتب الدينية والتبشير ، فجمعت كتباً كثيرة من الشرق بواسطة السمعاني . ثم حذت حذوها في اوروبا فرنسة اولاً لغاية علمية لا دينية ، فانشأ الفرنسيون مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس سنة ١٧٩٥ ، ومنها تخرج المستشرقون من المان وطليان واسوجيين وروس ، وانتشرت هذه المدارس في الاقطار الاوروبية كافة .

الجمعيات الآسيوية : ثم انشئت جمعية اسيوية في باريس سنة ١٨٢٢ ، وفي انكلترا سنة ١٨٢٣ ، ثم في المانيا سنة ١٨٤٤ ، ولكل جمعية من هذه الجمعيات مجلة علمية تبحث شؤون الشرق . فكان لهؤلاء يد على آداب اللغة العربية واحياء معالمها الدارسة .

اعلامهم : من اعلام المستشرقين ، واقدمهم بوكوك الانكليزي الذي مات سنة ١٦٩١ ، ومن آثاره تاريخ ابن العبري ، طبعه في اللغة العربية مع ترجمته اللاتينية ، ورسالة حي بن يقظان ، وغيرهما .

دربلو : مستشرق ظهر في اواخر القرن السابع عشر . من آثاره معجم في تاريخ الشرق وادبه سماه المكتبة الشرقية ، وهو اشبه بدائرة معارف تبحث في علوم الشرقيين وما اليها .

ثم ظهر ريسكي فطبع تاريخ ابي الفداء ، والحريري ، ثم كاريزي الايطالي ، صاحب كتاب كدائرة المعارف في العربية والاسبانية . ثم كارليل الانكليزي ،

وهو صاحب كتاب آداب العرب ، واشهر هؤلاء العلماء في اللغة الانكليزية ، واستاذ الآداب العربية في كمبردج ، مات سنة ١٨٠٤ . وسوزا البرتغالي صاحب كتاب الالفاظ البرتغالية المشتقة من العربية .

ولم يدخل القرن التاسع عشر حتى كان الاقبال على التمشرق عظيماً ، وتقدم المستشرقون في فنهم ووجهوا معظم عنايتهم في درس لغات الشرق إلى اللغة العربية وآدابها ، فاقبلوا على النشر والترجمة والتأليف في الآداب العربية بلغاتهم .

مستشرقو النصف الاول من القرن التاسع عشر : اول من عني باللغات الشرقية الفرنسيون واتبعهم غيرهم من الاوروبيين واشهرهم الآتي ذكرهم :

دي ساسي : توفي سنة ١٨٣٨ . تخصص بالعربية والفارسية وكان امهر اهل زمانه فيها . صرف حياته في خدمة الآداب الشرقية وخصوصاً العربية تأليفاً ونشراً وتعليماً . له كتاب في النحو العربي كتب خصيصاً للافرنج ، وكتاب قراءة سماه « الانيس المفيد للطالب المستفيد » . وله ايضاً تاريخ العرب في الجاهلية . وكتب مقالات قيمة في المجلة الآسيوية ، ونشر كتاب كليلة ودمنة والفية ابن مالك . وهو مؤسس الجمعية الآسيوية ، بالاشتراك مع تلاميذه ومريديه ، وقد انشأ معهم المجلة الآسيوية .

تلاميذه : عمونيل سديلوا وابنه لويس ، وقد خدما اللغة العربية ، فلويس الّف كتاب تاريخ العرب وآدابهم طبع في باريس ، وكتاب المقابلة بين جغرافيي العرب واليونان ، وله عدة مقالات في الازياج العربية ، نشرت كلها .

دي برسفال : توفي سنة ١٨٣٤ . علم اللغة العربية وكان امين المخطوطات العربية في مكتبة باريس الاهلية ، وله كتب عديدة في آداب العربية وتاريخها .

وكان ابنه مستشرقاً ايضاً ، وله كتاب العرب قبل الاسلام يقع في ثلاثة مجلدات باللغة الافرنسية .

جربير . فرنساوي نقل جغرافية الادريسي ، وله عدة مقالات .

فريستل : توفي سنة ١٨٥٢ ، له مقالات هامة في عرب الجاهلية .

دي فيرجه : له كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام .

رينو : خلف استاذه دي ساسي ، في امانة المخطوطات الشرقية ،وتدريس اللغة العربية ايضاً في مدرسة اللغات الشرقية التي صار رئيساً لها .

نشر كتاب تقويم البلدان لابي الفداء ، مع ترجمة افرنسية ، وكتاب في فتوح العرب بفرنسا .

كاترمير : من تلاميذ دي ساسي ، وقد حاز شهرته وحل محله في إمامة الآداب الشرقية . صار عضواً في الاكاديمية الافرنسية ، وتولى تدريس اللغات الشرقية ، فأدهش الناس بابحاثه القيمة وتآليفه الكثيرة . ترجم تاريخ المماليك للمقريزي ، ونشر مقدمة ابن خلدون وامثال الميداني الخ .

وهناك مستشرقون المان مثل روديغر ، وبولد ، وكوسغارين ، وكلنيتر ، اصدروا المجلة الشرقية الألمانية ، ولهم تآليف وكتب لا يتسع المجال لإيراد ذكرها .

في القرن التاسع عشر

قلنا ان أول مطبعة في مصر هي مطبعة بونابرت ، واول مطبعة في لبنان هي مطبعة قزحيا للرهبان الموارنة ، انشئت في أول القرن السابع عشر ، وهي اول مطبعة في الشرق ، كانت تطبع الكتب العربية بالحرف الكرشوني ، وهو السرياني .

عبدالله زاخر : وظلت كذلك حتى صب الحرف العربي الشماس عبدالله زاخر . وقد احتفلت الجمهورية اللبنانية بتمجيد ذكرى المئتين لهذه المطبعة عام ١٩٤٢ فاحييت ذكر مبدعها الشماس عبدالله زاخر ، وكان للبنان شرف السبق في الشرق باخراج الحرف العربي الى عالم الثقافة ، فرأى النور في الشوير من لبنان .

مطابع كبرى : ثم في هذا القرن انشأ الانكليز مطبعة عربية الاحرف في مالطة سنة ١٨٢٢ ، ونقلت الى بيروت سنة ١٨٣٤ وهي التي تعرف بالمطبعة الاميركية .

وسنة ١٨٤٨ انشأ الآباء اليسوعيون المطبعة الكاثوليكية . كانت تطبع في أول نشأتها على الحجر ، ثم صارت تطبع على الحروف . وهي أكبر مطابع هذه الديار وأغناها . وفي مطبعتي الاميركان والجزويت طبعت كتب كثيرة قيمة ذات شأن ، ولا تزالان تصدران أنفس الكتب حتى اليوم .

وسنة ١٨٥٧ انشئت المطبعة السورية لخليل بك الخوري صاحب جريدة حديقة الاخبار ، ثم مطبعة المعارف للبستاني سنة ١٨٦٧ ، وهي التي صدرت عنها الجنان والجنة والجنينة ومحيط المحيط ، الخ .

وانشأ داود باشا، أول متصرف على جبل لبنان (١٨٦١ – ١٨٦٨)، مطبعة لبنان الحكومية فكانت تطبع على الحجر . ومن مطبوعاتها المعلقات وشرحها. وتلتها مطبعة جريدة ثمرات الفنون ، والمطبعة الأدبية لخليل سركيس سنة ١٨٧٤ ، ومنها يصدر لسان الحال . وبعد هذه المطابع ظهرت مطابع عديدة حتى عمت البلاد في هذا العصر .

المؤلفات المدرسية : اخرجت هذه المطابع كتباً مدرسية لا تحصى، ولكن هذه التآليف كلها كانت كما وضعها الاقدمون ، وظلت معاهد القرن التاسع‌عشر تعلمها كما وضعت (شعرية ونثرية) حتى فكر بعض المتأثرين بأدب الغرب وطرقه التعليمية بتعديل الاساليب القديمة فحادوا عن تلك الطرق العقيمة . ولا يعني كلامنا ان تطور كتب التعليم كان عظيماً ، فهي لا تزال الى اليوم تحمل تحديد القدماء وتعريفهم وكثيراً من امثلتهم التي وضعها العرب في فجر حضارتهم .

المعاهد الاجنبية : للمدارس الاجنبية فضل على البلاد في نشر الثقافة الاجنبية فيها على يد مدارسهم التي انشئت لنشر البشارة أولاً .واليك تاريخ نشأة هذه المدارس .

مدرسة عين طوره ، وقد مرّ خبر تأسيسها ، ثم صارت ، سنة ١٨٣٤ ، للآباء اللعازاريين . ومدرسة اليسوعيين في غزير ، ثم كليتهم في بيروت التي تعلم كل العلوم بفروعها حتى الطب والحقوق والهندسة .

الجامعة الاميركية : أنشئت سنة ١٨٣٥ وأقفلت سنة ١٨٤٠ ، ثم أعيد انشاؤها في عبيه سنة ١٨٤٧ ، ثم في بيروت . وهي اليوم جامعة بيروت الاميركية تعلم كل العلوم بفروعها والطب . والمنافسة بين البروتستان واليسوعيين ملأت البلاد مدارس فشكراً لها .

وبعد سنة ١٨٦٠ نشأت في البلاد معاهد كثيرة للصبيان والبنات، للراهبات والسيدات البروتستان .

ولا تزال قائمة إلى اليوم تهذب وتعلم ، ومثلها فعلت مدارس الفرير في بيروت ومدن لبنان الكبرى .

المدارس الوطنية : زهرة الاحسان للروم الارثوذكس للبنات ، المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني ، وهي اقدم مدرسة وطنية ، انشأها سنة ١٨٦٣ واقفلت سنة ١٨٧٦ ، بعد ان اخرجت للبلاد عدداً من رجال العلم .

ومدرسة الحكمة انشأها المطران يوسف الدبس سنة ١٨٦٥ . المدرسة الداودية انشأها داود باشا في عبيه وعرفت باسمه ، والمدرسة البطريركية سنة ١٨٦٥ ، مدرسة الثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس سنة ١٨٦٦ ، ومدرسة اليهود سنة ١٨٧٤ ، والمدرسة الرشيدية اقدم مدارس المسلمين الحديثة ، ومدرسة الكلية الاسلامية انشأها الشيخ احمد عباس الازهري سنة ١٩٠٠ .

المدارس المجانية : ظلت الرهبانيات وحدها تعلم بالمجان حتى جاء رستم باشا ثالث متصرف في لبنان وانشأ ٧٢ مدرسة حكومية في امهات القرى اللبنانية فكانت الحجر الاول في صرح علمنة المدارس.

الصحافة — الجرائد اولاً : ذكرنا الصحف التي عرفتها البلاد اول عهدها بالصحافة ، والآن نقول : ان اول صحيفة أهلية هي حديقة الاخبار لخليل بك الخوري عام ١٨٥٨ ، ثم الرائد التونسي سنة ١٨٦٠ في تونس ، والجوانب لاحمد فارس في الأستانة ، والبرجيس في باريس لسليمان الحرائري ١٨٦٥ ، وجريدة سورية في دمشق ، والفرات في حلب ، وهما جريدتان حكوميتان رسميتان ، سنة ١٨٦٥ ، والنشرة الاسبوعية للمرسلين الاميركان سنة ١٨٧٠ ، والبشير لليسوعيين سنة ١٨٧٠ ، وقد دعوها اولاً المجمع الفاتيكاني .

المجلات : وظهرت على اثر الجرائد الاخبارية المجلات العلمية ، أولاها مجلة الجنان لبطرس البستاني ١٨٧٠ . ثم شفعها بجريدة سياسية اسماها الجنة ، وبعد الجنان بسبع سنوات ظهرت المقتطف لصروف ونمر في بيروت اولاً ، ثم نقلت إلى مصر بعد ان صدر منها عشرة مجلدات ، وبعد نقلها اصدر صاحباها جريدة المقطم معها . ثم ظهرت مجلة البيان لليازجي ابراهيم وزلزل ، والهلال لجرجي زيدان ، والمشرق للآباء اليسوعيين ، والضياء لابراهيم اليازجي بعد ما احتجبت البيان . واخذت الجرائد والمجلات تنتشر ولا تزال الى يومنا هذا في نمو مستمر .

الجمعيات العلمية : أسست أول جمعية علمية بمساعي الاميركان سنة ١٨٧٤ ، وكان من اعضائها فانديك ، والبستاني ، وناصيف اليازجي ، وورتبات ، ومخائيل مشاقه . عنيت بالخطب ، والمباحثات ، وجمع الكتب ، ونشر العلم .

٢ ـ الجمعية العلمية السورية ، من اعضائها الأمير محمد ارسلان، وسليم البستاني، والمركيز موسى فريج ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وجمعيـــة شمس البر ، ١٨٦٩ ، وجمعية زهرة الآداب سنة ١٨٧٣ ، وجمعية الحكمة التي اسسها الدبس في مدرسة الحكمة سنة ١٨٨١ .

المجامع العلمية : انشىء في لبنان مجمع لم يطل عمره . أما اقدم المجامع العلمية العربية والذي لا يزال يعمل بنشاط فهو المجمع الدمشقي . تأسس عـام ١٩٢١ وهو يصدر مجلته الفصلية طافحة بالدراسات والابحاث المفيدة .

كرد علي : كان رئيسه الدائم العلامة الاستاذ محمد كرد علي ، وظـــل على رئاسته حتى مات سنة ١٩٥٣ ومن اشهر مؤلفات هذا الكاتب العامل : خطط الشام ، وتاريخ احمد بن طولون، وفلاسفة الاسلام، وكنوز الاجداد ، ومذكرات في أربعة اجزاء كبيرة وغيرها .

ولما مات انتخب الأديب الشاعر خليل مردم بك رئيساً للمجمع . ولم يطل عمره ، رحمه الله ، فحلّ محله الامير مصطفى الشهابي وهو علّامة مدقق .

وفي القاهرة انشىء مجمع ما زال ملتئماً ، وقد بذل جهوداً في سبيل هدفـه وهو المحافظة على صحة اللغة العربية وجعلها تماشي تقدم العلوم والفنون .

وفي بغداد انشىء مجمـــع ثالث له كأخويه المصري والسوري جولات في خدمة الفصحى .

المكاتب العربية في أوروبا : مكتبة برلين الملوكية عدد مجلداتها ١،٤٥٠،٠٠٠ بينها مخطوطات عربية كثيرة . مكتبة الاسكوريال في اسبانيا ، فيها ١٦٨٦ كتاباً عربياً ، مكتبة لندن ، مكتبة اكسفورد وهي اغنى المكتبات باللغـــة العربية ، ومكتبـــة باريس ، ومكتبة فيينا ، ومكتبة الفاتيكان الحافلة بالآثار الأدبية .

وفي الاستانة مكتبات عديدة حافلة بالكتب العربية ، وفي مصر المكتبة الخديوية ، والمكتبة الازهرية ، ومكتبة الجامعة المصرية ، والخزانة التيمورية. وفي دمشق المكتبة الظاهرية . وفي حلب المكتبة الأحمدية ، والمكتبة المارونية التي انشأها جرمانوس فرحات ، فيها ٧٠٠ مخطوطة .

وفي بيروت المكتبة الشرقية ، وهي غنية بالمخطوطات التي لا تقل مجلداتها عن ٥٠ الفاً . مكتبة الكلية الأميركية فيها آلاف المجلدات . وفي العراق مكتبة السيد حسن صدر الدين ، وفيها مخطوطات فريدة .

المعاجم : وكثرت في هذا الطور التآليف على اختلاف انواعها ، ففي مصر والشام كتب طبية وعلمية وزراعية ، وخصوصاً معاجم . فبعد معجم فرحات الذي طبع في باريس ظهر محيط المحيط وقطر المحيط لبطرس البستاني ، ودائرة المعارف التي الف منها المعلم بطرس ستة مجلدات .

ثم قام بعده ابنه وانسباؤه كسليمان البستاني فألفوا منها اجزاء حتى وصلوا الى المجلد الحادي عشر ، وظهر ايضاً اقرب الموارد للشيخ سعيد الشرتوني ، والبستان للشيخ عبدالله البستاني ، ومعجم الشيخ عبدالله العلايلي الطريف ، والمنجد للاب لويس معلوف ، واخيراً أتمه الأب توتل بمعجم اعلام شامل فجاء من انفع الكتب .

القرن التاسع عشر

الادب عامة

لم يبزغ نجم هذا العصر الا والادب قد جف وذبلت نضارته وحالت بهجته ، وانقطعت الصلة بين الاقلام والادب القديم ، فالنثر ركيك عقيم ، حافل بالصنعة الشنيعة التي لا يقبلها ذوق ، والمواضيع بليدة ، والافكار تافهة ، والصور مكروهة ممقوتة ، يلوح فيها تعبير كبار الكتاب كرقعة جديدة في ثوب بال . أما الشعر فدارت مطالبه في اضيق الدوائر: غزل خاثر ظاهر التكلف، ووصف بليد لا تتمثل فيه شيئاً ، وهجاء بارد ، ومديح لا تشتهي ان تسمعه ، فلا الديباجة تحببه اليك، ولا البلاغة تستر عيوب المبالغة ، ولا همّ للكتاب والشعراء الا الصنعة واقتناص الالفاظ .

اما علوم البلاغة فضبطت في قواعد جافة ، منها شعرية ومنها نثرية ، وكلها تافهة لا تدني الطالب من مناهل البيان والفصاحة ، ولا تقرب ما يتعلمه الى فهمه ، وقد زاد الشرّاح كتب البلاغة تعقيداً اذ خرجوا بها الى التفلسف والتعليل فأعلّوا القلوب والافهام .

ولم يكن يحرص اكثر الكتّاب على قواعد الاعراب وصحة اللغة ، ولذلك جاءت ترجمة الكتب العلمية التي احتيج اليها اقرب الى العامية منها الى الفصحى ، الى ان كانت النهضة الحديثة التي لم تعدم اللغة العربية فيها انصارها مثل فرحات وكرامه والعطار والدرويش والطهطاوي .

فبدأ الناس يبحثون الأدب القديم ويحتـــذونه اذا كتبوا أو خطبوا حتى اقتربوا منه رويداً رويداً ، مع تأثرهم بالأدب الغربي ، لأن حضارة هـذا العصر مبنية على أساس الحضارة الغربية الاوروبية ، ففنونها وعلومها ولغاتها وآدابها قد خالطت نفوسنا لاطلاعنا عليها وتأثرنا بها ، ولهذا نرى الادب الحديث متأثراً كل التأثر بالأدب الغربي ، في الأغراض والمنازع .

النثر : كان الناس في هـذا العصر يحذون حذو كاتبين ، بل ينسجون على طراز كتابين : مقامـات الحريري ومقدمة ابن خلدون ، الاول يمثل الاسلوب الصناعي الأجوف المموه، والثاني يمثل الاسلوب المحكم. فقصر المعقول عن البحث حمل فريقاً على اتباع خطى الحريري ، اما المفكرون – وما كان اقلهم في هذه الفترة – فكانوا يؤثرون ابن خلدون لجريانه مع الطبع وملاءمته لروح العصر ، وظلّ الصراع مستمراً حتى انكسر قلم القاضي الفاضل والحريري في آخر صفحة من كتاب عيسى بن هشام للمويلحي ، ومجمع البحرين لليازجي ، وليالي سطيح لحافظ ابراهيم .

الأساليب : ان الاقلام التي تحررت من رق المقامات لم تتبع كلها ابن خلدون بل راح فريق منها يقلد الجاحظ وابن المقفع والإمام علي ، بيد ان تأثر الكتّاب باساليب الفرنجة ولّد فيهم الميل الى الاساليب الدقيقـــة السهلة وترك السجع ومقته ، ثم تعددت الأساليب في هذا العصر فكان لكل طبقة اسلوب، كالمحامين والصحفيين والمؤرخين والنقاد والقصصيين والمترجمين الخ ...

أثر الادب الغربي :

١ – ادخل على العربية تعابير جديدة لم تؤلّف من قبل ، وصيغاً جديـدة ايضاً لتأثر الكتاب بالأدب الافرنجي وخصوصاً غير المطبوعين منهم على أساليب العربية ، وقلة البضاعة من فقه اللغة .

٢ – جعل المقام الاول للمعنى لا للفظ .

٣ – الاقتصار على ما يؤدّي المعنى ويصيب الغرض .

٤ – تناول الموضوعات والأشخاص بالوان من التحليل لم تكن معروفة من قبل .

٥ – تطور النقد الأدبي واتساع دائرته ، على اسلوب الفرنجة ، بعد ان كان العرب لا يتناولون المعاني والصور بالنقد صار يشمل كل شيء حتى الافكار وايرادها .

نثر الصحف : خدم اللغة اجل خدمة وهو الذي مهد طريق الخروج على الأساليب القديمة وهجرها ، ومن شروطه تعمد السهولة في اللفظ وعدم التعمق في المعاني لأن الصحف تخاطب الجماعة ، ولذلك نرى نثر المجلات العلمية والأدبية أعلى طبقة من نثر الجرائد ، وأرصن وأوفى لأنها كتبت للمتعلمين خصوصاً،وهذا النوع من النثر بدأ اولا ركيكا ضعيفاً ثم أخذ في التحسن حتى بلغ ما بلغه اليوم من الرقي ، فالصحافة اجل خدمة في بعث الأدب ورقيّه .

النثر الفني : هو اقدم انواع النثر على الاطلاق لان عهد العرب بالصحف جديد ، كما انهم لم يعالجوا البحوث الاجتماعية الا في العصور المتأخرة .

والنثر الفني يحتاج الى تضلع من بلاغة المتقدمين والفاظهم التي تؤدي المعنى بتمامه ، ومنها سعة الخيال والتفطن الى تفهم الكلام على حقه والتقاط النكتة مع مجانبة الاستكراه ، وادراك جمال العلم والفن . وقد كان هذا النثر ضعيفاً في بدء عهده كما كانت اغراضه مقصورة على كتب المودات ورسائل التهنئات والتعزيات وشيء من الوصف ، ثم اخذ يرقى ويتقدم حتى وصل الى ما تراه اليوم .

جمهرة الكتاب · ومن هؤلاء النثّار المرصفي ، والليثي ، وفكري ، واحمد فارس الشدياق ، وعبده ، والمويلحي ، واليازجي (ابراهيم)،واسحق،والحداد، والبستاني (سليمان) ، والمنفلوطي ، وجبران ، والريحاني ، ويكن ، وعمر فاخوري .

الاقاصيص والروايات : قد ذكرنا سابقاً عن حظ العرب من هذا الفن ، فالقصة الصغيرة ، كما هي في المقامات،قد اخذت بحظ وافر من الفن لولا مغزاها. اما القصة الجديدة فأول من حاول كتابتها ابناء هذا القطر لانهم اسبق الى مخالطة

الفرنج . أول من كتب فيها ، فرنسيس مراش، وسليم البستاني ، وفرح انطون، وجرجي زيدان ، وليس هنا مجال البحث عن مقدار توفيقهم .

اما القصة الصغيرة كالمقامات فآخر من كتبها نقولا الترك، وناصيف اليازجي في لبنان ، والمويلحي ، وحافظ ابراهيم في مصر ، إلا ان المصريين احتفظا بالاسلوب واسهبا في الموضوع فجاء عملها بين القصة والمقامة .

الخطابة : ظلت الخطابة في أول هذا العصر كما كانت في آخر العصر العباسي لا تتعدى الجوامع والبيع ، ، حتى كانت الثورة العربية في مصر والحياة النيابية والدعاية الوطنية . أما الشام فظلت متأخرة عن مصر في الحياة السياسية لبقائها تحت النير التركي ، وقد كانت وطأة المراقب ثقيلة على الالسنة والاقلام ، بيد ان الجمعيات الأدبية التي تقدم ذكرها ساعدت جداً على تقوية ملكة الخطابة ، ولما انطلقت الالسنة تناولت الخطابة السياسة والاجتماع ، وكان من مشاهير الخطباء عبدالله نديم ، ومحمد عبده ، واسحق ، والمطران الدبس ، ومصطفى كامل ، وزغلول، والافغاني وفي المتأخرين امين الريحاني، والدكتور فياض، وفليكس فارس ، ومجاعص .

الشعر

كان الشعر خامداً ميتاً فلم نسمع شاعراً يتغنى قبل هذا العصر إلا المطران جرمانوس فرحات والخوري الصائغ ، وبعدهما ظهر الشعر أيضاً على لسان بطرس كرامه ونقولا الترك ، وفي مصر قاله السيد علي أبي النصر والشيخ علي الليثي على عهد اسمعيل ، كما قـــاله الشاعران اللبنانيان في ظل البشير الشهابي الذي كان يعطف على الأدباء ويجيزهم كأمراء العصور العباسية ، فكان له فضل كبير على نهضة الأدب والشعر خاصة .

إلا ان هـــذا الشعر كان ركيكاً بارداً ، كله تقليد وصنعة ، ينحو نحو الاقدمين في الاغراض ويقصر عنهم في الديباجة والرشاقة والافكار، وبالاختصار يقصر في كل شيء .

محمود سامي البارودي : الا ان الشعر طفر طفرة عظيمة تستقبل بالدهشة حين قاله محمود سامي البارودي المصري ، فهذا أعاد للشعر العربي رواءه ، فقد ضاهى الشريف الرضي في الجزالة والمتانة والقوة ، ولم يختلف عن المتقدمين في شيء من مطالب الشعر ، قاله مثلهم وعلى نحوهم ، وزاد عليهم شيئاً من مظاهر الحضارة الجديدة ، ووصف مخترعات العصر الحديث .

صبري : ثم ظهر اسمعيل صبري الذي قال الشعر المحكك ، وهكذا كان صبري والبارودي سابقين لظهور شوقي شاعر النهضة .

أما في لبنان فخطا بالشعر الشيخ ناصيف اليازجي فكان فوق الذين تقدموه ولكنه دون البارودي شدة اسر ، وتركيباً وصفاء ديباجـــة ، بيد انه يمتاز

بالسهولة وهو في شعره من اضراب البهاء وأبي العتاهية في السهولة ، أما اليوم فالشعر خطا خطوات واسعة حتى دنا من فصاحة الأقدمين ولهجتهم العربية ، مع ترك زخرف اللفظ والاهتمام بالمعنى وتصوير المشاهد ووصفها وصفاً دقيقاً ، وترك الاساليب القديمة والأغراض العتيقة كالمدح والهجاء ، إلا نفراً قليلاً لا تزال عقولهم بخواتم ربها ، يصفون ماء وجرة وعندهم الأنهار المتدفقة والينابيع المغردة ، يرون ما يرون حولهم ولا يشعرون ، يتغزلون حتى في المذكر كما تغزل ابو نواس . ذاك تغزل ارضاء لعاطفته ، أما هم فلا أدري لماذا .

ان لشعر الغرب أثراً بليغاً في الشعر العربي خصوصاً في شعراء هذه الفترة ، فانهم يختارون اغراضاً بالأجنبية اشبه . وقصارى الكلام ان نهضتنا الحاضرة اذا ظلت مطردة فالأمل كبير ، ولا يبعد ان نرى عصراً زاهياً يكون ذا شأن في تاريخ الأدب ويترك لمن يأتي بعدنا مجالاً للبحث والدرس .

الشعراء والكتاب

الترك

هو نقولا الترك ولد في دير القمر من اسرة قديمة فيها ، يدل اسمه ، كما يقول التقليد،انهم من عائلة تركية توطنت دير القمر، احب العلم من صغره وأكب عليه واكثر المطالعة فأمسي منشئاً شاعراً ، ولما جلس الأمير على كرسي أمارة لبنان في بيت الدين اتصل به نقولا وخدمهومدحه في قصائد كثيرة، وزاد علىالشعراء انه كتب في التاريخ .

ومن مميزات نقولا المزاح في الشعر . وشعراء زمانه كانوا ينظمون في اغراض المتقدمين كلها وزادوا عليها باباً جديداً يعرف بالتاريخ ، وهو تضمين الأحرف الابجدية للسنة التي قيل فيها الشعر ، بعد كلمة تاريخ أو أرخ أو أرخت أو ارخنا الخ . وقد تفرد في هذا الباب الشيخ ناصيف اليازجي الذي ضمن بيتاً عشرات التواريخ (راجع كتابنا : روّاد النهضة الحديثة) .

الترك المنشىء : ولنقولا الترك مقامات قلد بها الحريري ، عددها عشر ، محدثها الحازم وبطلها ابو النوادر يرمي بها الى مدح الأمير وقد طلب فيها داراً يسكنها فمنحه ذلك الأمير بشير، وقد كان يفعل ذلك في الشعر فيطلب الكسوة وغيرها من الأمير .

وللترك تاريخان : الاول تاريخ نابليون ، والثاني تاريخ احمد باشا الجزار ، والكتابان يدلان على فكرة وروية وتأمل وتبصر ، والركاكة في نثر الترك اقل منها في شعره .

كرامه

هو بطرس بن ابراهيم كرامه الحمصي ، ولد ونشأ وتأدب بحمص . قال الشعر في حداثته ، ومدح أعيان بلده ثم هاجر ووالده الى بلاد عكار واتصل بحاكمها ومدحه ، ثم اتصل بالامير بشير فكان له شاعراً ومدبراً ، وتولى رئاسة ديوانه وامانة سره لمعرفته التركية ، وكان معلماً لولده الأمير أمين ، ففاضت عليه النعمى فأصبح أميراً .

ولما نفي الأمير الى مالطة بعد انهزام ابراهيم باشا المصري ، رافقه بطرس في منفاه ، وظل في خدمته حتى مات الأمير في الاستانة . وعيّن بطرس كاتباً في المابين الهمايوني وظل في وظيفته تلك حتى مات .

شاعريته : شاعر مطبوع فياض القريحة قوي العارضة متصرف في المعاني وهو اعلى شعراء عصره كعباً ، وارسخهم قدماً ، مدح غير الامير من كبار حكام ذلك الزمان اخصهم داود باشا حاكم العراق وركن النهضة الادبية فيه . قال فيه قصيدته الخالية المشهورة التي احدثت ضجة أدبية كبرى ودارت حولها مناقشة حامية كان بطلها التميمي الشاعر العراقي . (راجع كتابنا : رواد النهضة) في باب شعراء الأمير .

اليازجي

هو ناصيف بن عبدالله اليازجي ، ولد بكفرشيما ، تلقى مبادىء العلوم على احد القسوس ثم علمه والده الطب على الطريقة القديمة وهي مهنة الاب ، فوعى الطب ونظم فيه ارجوزة . حفظ ناصيف كثيراً ووعى أكثر مأثورات العرب . ثم قصد الأمير بشير فقربه اليه وجعله من كتاب ديوانـــه ، وبعد سقوط عرش الأمير عـاد ناصيف الى بيروت ينظم ويكتب ويراسل ادباء عصره ، ويعـلم في المدارس العالية .

تآليفه : لم يترك باباً مما طرقه الأقدمون إلّا طرقه ، ففي مجمع البحرين نحا نحو الحريري ، وفي الارجوزة نحا نحو ابن مالك ، وفي ديوان المتنبي نحا نحو ابن جنّي ، وفي كتب النحو والصرف والبيان نحا نحو الجماعة ، وفي شعره أيضـاً نحا نحو الشعراء الأقدمين . وله ديوان فاكهة الندماء ، ونفحة الريحان ، وثالث القمرين .

شعره : متأثر بما حفظ ، رقيق الديباجة ، مطبوع اللهجة ، سريع البديهة ، ناصع اللفظ . قلد الحريري فوفق ، والمتنبي فأخفق . قـــال الحِكَم فلم يأتِ بجديد ، وكل تآليفه تدل على سعة اطلاع واتقان لعلوم اللسان . وقد برز في نظم التاريخ الذي تقدم ذكره ، والتفصيل في رواد النهضة أيضاً .

حكمته : بدائية زهدية لا ابداع فيها ، ومدحه على غرار السابقين ، وغزله ناعم رقيق ككل شعره .

النثر

ركاكة وغموض ومحسنات لفظية إلى ضعف تركيب وقلق ، أي ان يؤتى باللفظة عمداً لتوضع في الجملة مرغمة الخ .

الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، نسبة الى جبرت وهي مدينـة في الحبش ، ولد سنة ١٧٥٤ ، ومات سنة ١٨٢٢ ، تخرج في الأزهر واتقن علوم زمانه واتصل بالفرنسيين عندما فتحوا مصر وعيّن كاتبـاً في الديوان . وبعد ذهابهم انصرف الى التأليف ، فكتب تاريخـه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » وهو يحتوي حوادث القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، جمعه على حوادث الأيام يوماً فيوماً ولا سيما ايام نابليون وفجر حكم محمد علي ، وفيه تراجم كثيرة لمن كانوا يموتون من مشاهير العلماء والأعيان الخ . .

انشاؤه جاف، بيد ان روايته صحيحة، ومع ذلك هو في طليعة منشئي هذا العصر .

البستاني

هو بطرس بن بولس البستاني ، ولد بالدّبية – لبنان (١٨١٩ – ١٨٨٢) ، تلقى علومه في مدرسة عين ورقـة المارونية واحسن اللغات السريانية والعربية واللاتينية والايطالية ، ودرس الفلسفة واللاهـوت ، والحق القانوني والجغرافية والتاريخ والحساب ، على نية أن يصير من خدام المذبـح ولكنه حوّل نفسه إلى خدمة العلم .

واتصل بالبروتستانت وتعلم اللغة الانكليزية والعبرانية واليونانية ، وتمذهب بمذهبهم وترأس مدرسة الاحد عندهم بعبيه سنتين ألّف في خلالها كتابه : « كشف الحجاب في علم الحساب » ، ثم ساعدهم في ترجمة التوراة .

وبعدئذ انشأ مدرسته الوطنية ، واصدر مجلاته الجنان والجنة ، وتفرغ في آخر حياته للتأليف فألّف كتابه محيط المحيط ، أخذه عن الفيروزبادي وزاد عليه كثيراً من الالفاظ الحديثة للمصطلحات العلمية والمنطقية وغيرها ، ودل على أصول الكلمات الدخيلة .

ثم انصرف لتأليف كتابه الجامع دائرة المعارف فأصدر منـه ستة اجزاء ، فأتم السابع ابنه سليم والحقه بالثامن ، ثم تابع الورثة اصدار ثلاثة اجزاء فبلغت الاجزاء ١١ .

قيمته : ركن النهضة ومنارة علم وأدب في عصره ، عمل بنفسه ما تعجز عنه

الجماعات ، رجل عمل وثبات ، تعلمنا آثاره ان الكد المقرون بالذكاء يأتي بكل عجيبة .

اما كتابته فكانت سهلة لا تعمّل فيها ولا تكلف ترسل على السليقة ،من اتباع ابن خلدون، وان قصر عنه في صحة التعبير ، يهتم للمعاني اكثر من الالفاظ، فهو يمثل النقلة السريان في عهد الخلفاء العباسيين .

ابراهيم اليازجي

ولد في بيروت ونشأ فيها ، وأخذ العربية وعلومها عن ابيه ، وبعد ان قال قصائد رائعة ودبج مقالات شائقة ، اتصل بالآباء اليسوعيين فوقف على ترجمتهم للتوراة منقحاً عبارتها العربية فجاءت افصح الترجمات. ثم عـــلـّم في المدرسة البطريركية ، وانشأ مجلة الطبيب مع زلزل وسعاده ، ثم انتقل الى مصر فاصدر البيان اولاً ، ثم اصدر مجلة الضياء بدلاً عنها وماتت بموته .

اخلاقه : ابي النفس عصبي المزاج ، انوف مترفع عن كل خساسة ، وقد دفع ثمن هذه الخصال غالياً شأن كل أديب شريف أبيّ لا يبيع وجدانه.

قيمته : تبحر في فقه اللغة على وجه خاص ، شاعر متين ، كاتب رصــين ، وهو أول من عالجوا النقد اللغوي في البيان والضياء ، فرد الكتاب إلى العربي الصحيح فكان أثره بعيداً في حمل الادباء على تحرّي صحة الألفـــاظ وتأليف الكلام على قوانين العربية الخالصة ، والخلاصة انه كان حجة جيــله ، اذا قضى يقال : قطعت جهينة قول كل خطيب .

في العلم والفن : وله ايضاً فضل آخر وهو ايجــــاد الفاظ كثيرة لمصطلحات علمية ،وله يد كبرى على الطباعة فهو صانع امهات الحروف العربية الاسلامبولية ، وله في علم الهيئة جولات حتى انه اكتشف نجمة فعد بين علماء الفلك المكتشفين .

ابراهيم الاحدب

ولد في طرابلس سنة ١٨٢٦ ومات سنة ١٨٩٠ واخذ العلم عن شيوخها ورحل الى الاستانة وعرج على مصر وتعرف الى شيخ الأزهر وعلمائه ثم راسلهم بعدئذ . اشتهر بالفقه الحنفي ، فكانت محاكم لبنان تعتمد على فتاويه . ثم تولى القضاء في بيروت ووظف في المعارف ، وتولى تحرير ثمرات الفنون . قال الشعر وله منه الجيد واشتهر بنظم الأمثال الشعرية ، والحكم .

تآليفه : عديدة . منها : مقامات ، فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق ، وهو مئة مقالة كاطواق الذهب نظماً ونثراً ، وله فرائد اللآل في مجمع الأمثال،مؤلف نفيس في مجلدين نظم فيه امثال الميداني . وله كتب أخر غيرها، وقد اشتهر في الاكثار من النظم حتى بلغ ما نظمه ثمانين الف بيت .

يوسف الأسير : ولد في صيدا عام ١٨١٤ ولم يتبع التجارة كأبيه فانصرف الى العلم . تلقى علومه الابتدائية في صيدا ثم خرج الى دمشق فالأزهر حيث فاز بشهادته العالية وعاد الى صيدا ثم انتقل الى بيروت ، وتقلب في مناصب عديدة شرعية ثم ذهب الى الاستانة حيث وظف في وزارة المعارف ، ثم عاد الى بيروت فكان مرجع رجال اللغة والفقه الشافعي ، وقد قال الشعر ولكن لم يجدد فيه .

تآليفه : ارشاد الورى ، رائض الفرائض ، شرح كتاب أطواق الذهب ، وديوان فيه الشعر الجيد .

الكونت رشيد الدحداح : ولد في عرمون كسروان ، لبنان . درس في عين ورقة ، ثم صار كاتباً لامراء زمانه . ولكنه ابى هذه الحياة المقيدة فرحل

الى باريس واشتغل بالتجارة ثم انصرف الى العلم ، فانشأ جريدته برجيس باريس واتصل بباي تونس ومدحه فقربه وجعله ترجمانه الخاص ، وبعد مدة عاد الى فرنسا فابتنى قصراً وعاش عيشة العظماء وانصرف الى التأليف كالمستشرقين .

تآليفه : قطرة طوامير ، مقالات ادبية وفوائد لغوية . سيار المشرق في بوار المشرق (تاريخ) وقد طبع معجم المطران فرحات .

الآلوسي : محمود شهاب الدين الآلوسي من اشراف العراق السادة الحسينيين، نسب لآلوس جزيرة في وسط الفرات،كان قطب علماء العراق وتولى افتاء السادة الاحناف . له تلامذة كثر ، رحل الى الاستانة وحظي بمقابلة السلطان عبدالحميد الذي اجزل عطاءه ادبياً ومادياً فعاد الى العراق غانماً .

تآليفه : نزهة الالباب ، وهو كتاب رحلة جامعة لتراجم العظام وابحاث جرت بينه وبين شيخ الاسلام، روح المعاني في تفسير القرآن ، رحلة اسلامبول، شرح درة الغواص ، كتاب المقامات الخيالية ، وله غير هذه كتب كثيرة لم يطبع منها الا ١٧ كتاباً .

الطهطاوي : من رجال بعثة محمد علي الكبرى الى باريس ، تولى الترجمة في العلوم المختلفة، ثم ولي نظارة مدرسة الالسن التي انشأها محمد عليللترجمة وعلمها.

وقد عانى كثيراً من الاتعاب لان اللغة العربية كانت في ذلك الزمن منقطعة عن لغات الغرب فجاهد كثيراً في اخراج المصطلحات لاداء المعاني الفنية . وله كتب عديدة في فنون مختلفة منها .

تآليفه : تاريخ مصر ، رحلته الى فرنسا ، تعريب تلماك ، هندسة ساسير ، وغيرها .

الحرائري : هو تونسي الأصل واسمه سليمان الحرائري ، عاون الدحداح في برجيس باريس ، وكان قبلاً رئيس كتّاب الباي التونسي وله كتاب عرض البضائع العام في وصف معرض باريس .

الدبس : هو المطران يوسف الدبس ، ولد بكفرزبنا وتعلم في عين ورقة العلوم واللغات والفلسفة واللاهوت وكل علوم الدين ، وبعد ان سيم كاهناً علّم

في مدرسة مار يوحنا مارون ، ثم سيم أسقفاً لأبرشية بيروت المـــارونية . له تآليف عديدة واولها مربي الصغار ومرقي الكبار ، ثم مواعظ الدبس ، وكتاب سفر الأخبار ، وروح الردود ، وأعظمها تاريـــخ سوريا الضخم وهو عشرة مجلدات ضخمة ، وله غيره كتب عديدة أهمها الجامع المفصل الذي عوّلنا عليه في كتابة تراجم طلائع النهضة اللبنانية .

وهو منشيء مدرسة الحكمة ومؤسس الجمعية الأدبية فيها . والخلاصة ان حياة هذا الأسقف كانت حياة جد وعمل . توفي سنة ١٩٠٧ .

قيمته : خطيب مفوّه ، فصيح بليغ ، انشاؤه من نوع انشاء عصره ، مرسل لا كلفة فيه ولا بلاغة .

الاب لويس شيخو

ولد في ماردين ثم اتصل بالآباء اليسوعيين فتعلم في مدرستهم بغزير ، وسافر إلى اوروبا وعاد ليدرس الآداب العربية في كليتهم . ثم انقطع الى التأليف فخدم الآداب العربية بما ألّفه من الكتب القيمة ، التي له الفضل في إخراجها بأحسن ترتيب وتبويب وطبع متقن عرفت به مطبعة الآباء اليسوعيين .

وقد كانت مجلة المشرق ميدان الأب لويس اليسوعي ينشر فيها كل ما يعن له نشره ، وقد عني بنشر الآداب العربية ، وكان جل همه موجهاً للبحث في النصرانية وشعرائها قبل الإسلام وبعده .

مؤلفاته : كتاب علم البيان والخطابة جزآن ، وله جزآن آخران هما مقالات تشرح الكتابين وتفيض في البحث ، وميزة كتابه انه نهج في علم البلاغة العربية منهج أدباء الفرنج .

مجاني الأدب ٦ أجزاء وله ثلاثة أجزاء شرح وهو مختارات من خير أقوال العرب وهو الأول من نوعه في وفرة الأغراض وحسن التبويب .

شعراء النصرانية كتاب ضخم في ستة مجلدات يزعم فيه الأب شيخو ان معظم شعراء الجاهلية نصارى ، وفي هذا الزعم من المغالاة ما فيه ، بيد ان للكتاب قيمة أدبية كبيرة .

آداب النصرانية بين عرب الجاهلية ، ذكر فيه كلمات وعبارات وامثالاً أدخلتها النصرانية في ادب الجاهلية .

تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر . أحيا شيخو في هذا الكتاب ذكر كثيرين من الأدباء والشعراء في كل الأقطار .

وله أيضاً يد كبرى على المكتبة الشرقية ، بما جمع من الكتب ، وقد جعل لها فهرستاً كفهرست أمهات المكاتب العالمية .

القصص

كان حظ العرب من القصص والشعر القصصي قليـــلا ، بيد ان هذا الفن اقتبس عن الاجانب ، فهم الذين جعلوا **شأناً عظيماً للقصة** ، اقتبسه العرب عنهم بقواعدها ومناهجها حتى موضوعاتها، وكان الاسبقون الى هذا الشاميون لمخالطتهم الاوروبيين ، والأخذ عنهم ، ومن هؤلاء : **فرنسيس مراش الحلـــبي ، وسليم البستاني ، وجرجي زيدان ، وفرح انطون** . بيد ان قصص هؤلاء لا تنطبق على الفن القصصي الحديث تمام الانطباق، فهمّ القصصيين اليوم تحليل الشخصيات وتصوير المشاهد بكل دقة ، في حين ان قصصنا تعنى بسرد الحوادث كواقعة حال ، وكان يهمهم المفاجآت ، والاتيان بالغريب منها الذي يدهش له القارىء .

سليم البستاني : هو ابن المعلم بطرس البستاني ولد سنة ١٨٤٧ — ومات عام ١٨٨٤ . نشأ في حجر ابيه وأخذ عنه العربية وعن اليازجي الأب. كان مساعداً لأبيه في أعماله الأدبية والعلمية والّف بعد وفاة ابيـــه الجزء السابع من دائرة المعارف ، ولم يطل عمره فلحق بابيه بعد سنة من وفاته. كان يحرر الجنة والجنان ويضع الروايات التمثيلية والقصصية .

أهم رواياته : قيس وليلى ، ورواية الاسكندر ، والهيـــام في جنائن الشام وزنوبيا ، وغيرها . هو أول من الّف في هذا الفن ، اما لغته الكتابية فأصح من لغة أبيه ، ومقالاته وافرة التخيل .

زيدان

جرجي زيدان منشىء الهلال، وصاحب الروايات التاريخية، ومؤلف كتاب الادب العربي الحديث مرتباً حسب العصور . ولد ببيروت وتعلم اولاً في مدرسة كمدارس القرى البسيطة ، واضطر الى العمل مع ابيه الفقير ، وحاول ان يتعلم اللغة الانكليزية في مدرسة ليلية ففعل ، ومال الى تعلم الطب في كلية بيروت الاميركية فمكث فيها سنة واحدة ، وخرج وذهب الى مصر ليتم علمه هناك فلم يستطع لضيق ذات يده ، فغادر المعهد الطبي وكتب في جريدة الزمان ، ثم رافق الحملة النيلية سنة ، وعاد الى بيروت حيث طالع العبرانية والسريانية ووضع كتابه « الفلسفة اللغوية » ، ثم عاد الى مصر حيث ساعد في تحرير المقتطف . وتركها والّف كتابه تاريخ مصر الحديث، ودرس في المدرسة العبيدية الى ان اصدر مجلة الهلال .

قيمته : دمث الاخلاق ، ليّن المعاشرة ، لطيف الحديث ، متوقد الذكاء ، صادق العزيمة صبور ، لم يكن يتعمد في كتابته اسلوباً خاصاً ، بل كان يرسل عبارته على السليقة بلا تكلف ولا تصنع ، فاذا صح ان يكون لبطرس البستاني اسلوب فهو هذا ، فكلاهما طبعا على غرار واحد ، ورميا الى هدف واحد وهو تعليم الجمهور .

آثاره : اما آثاره فهي : مجلة الهلال ، تاريخ مصر الحديث ، تاريخ التمدن الاسلامي ، تاريخ الادب العربي ، العرب قبل الاسلام ، مشاهير الشرق، اثنتان وعشرون رواية تاريخية ، وقد كان ملماً بعلوم شتى للمطالعة الكثيرة والابحاث التي كانت تتطلبها منه مجلته . اما هلاله فصبغته تاريخية كما ان صبغة المقتطف علمية تطورية . والضياء لغوية ، والمشرق اثرية ادبية دينية جدلية ، والجامعة مجلة فرح انطون اجتماعية فلسفية حرة الفكر .

الصحافيون

تقدم الكلام عن تاريخ الصحافة في بابه ، والكلام عن الانشاء الصحافي في كلامنا عن النثر . فالاسلوب الصحافي كان خالياً من الفن في أول عهده بل كان الانشاء بسيطاً ركيكاً لا يعلو عن اللغة العامية إلا انه معرب ، ولكن الصحافة أخذت ترتقي وتنمو وتتحسن لهجتها وتبعد عن العامية حتى بلغت ما بلغته اليوم من علو اللهجة ومتانة التركيب وفصاحته . ونعيد القول ان الاسلوب العربي الحاضر مدين للصحافة ، فهي التي نفّرت الناس من السجع الذي ثار عليه أحمد فارس الشدياق .

احمد فارس الشدياق

هو فارس بن يوسف الشدياق قبل ان اعتنق الاسلام ، ولد في عشقوت كسروان لبنان (١٨٠٤ — ١٨٨٧) ، وتلقى علومه في مدرسة عين ورقة الشهيرة . نشأ نبيهاً ذكياً أولع منذ الصغر بمطالعة تآليف البلغاء وأشعار العرب الأقدمين فأدرك اسرار اللغة ، ثم رحل إلى القطر المصري فأتمّ دروسه وحرّر في الوقائع المصرية ، واشتهر بين علماء عصره وشعرائه .

ودعاه المرسلون الاميركيون إلى مالطة فتولى ادارة مطبعتهم وتصحيح مطبوعاتها . ثم سافر إلى اوروبا فزار باريس ولندن وغيرهما . وفي باريس تعرّف الى باي تونس ونظم فيه قصيدة عارض بها لامية كعب بن زهير « بانت

سعاد » وبعث بها اليه بعد عودته الى تونس ، فارسل يدعوه اليـــه على سفينة حربية خاصة ، واكرم وفادته جداً ، وقـــلده المناصب الرفيعة وكان يكتب المقالات الطنانة في الرائد التونسي .

وطلبته الصدارة العظمى من الباي فقدم الاستانة وانشأ الجوائب ، جريدته الشهيرة ، فملأ صيته الاسماع ، فكان ذاك الكاتب البليغ والسياسي المحنـــك والمنشىء الاخـــلاقي الاجتماعي ، وكان لرأيه السياسي تقدير وشأن في أندية أوروبا السياسية .

تأليفه : الواسطة في أحوال مالطـــة ، كشف المخبا عن احوال أوروبا ، الجاسوس على القاموس ، سر الليال في القلب والابـــدال ، منتهى العجب في خصائص لغة العرب ، اللفيف في كل معنى طريف ، الساق على الساق في ما هو الفارياق ، وهذا الأخير كتاب طريف وهو مذكرات وسيرة حياة . وله مجموعة مما نشر في جريدته الجوائب في مقالات وهو أربعة أجزاء الخ .

قيمته : متضلع من فنون الأدب ، بصير بمذاهب البيان ، متفنن في الانشاء ، غني بالمفردات اللغوية الى حد غريب . شاعر ناثر ، اسلوبه منسجم التراكيب ، متساوق المعاني كثير الاطناب والاستطراد ، يبالغ فيما يكتب ، مقلد في شعره ، مجدد في نثره ، وقد أجاد في الصناعتين وكان رائد النهضة الأدبية والسياسية . (طالع كتابنا « صقر لبنان » لتعرف قصته) .

اديب اسحق

ولد بدمشق ١٨٥٦ ومات في لبنان ١٨٨٥ تعلم في مدرسة الآباء اللعازاريين العربية والافرنسية ، غادر المدرسة صغيراً واستخدم في الجمرك فتعلم اثناء ذلك اللغة التركية ، وقدم بيروت فخالط الادباء والشعراء واهل العلم ، فكان طلق اللسان بارعاً في النظم والنثر فاعجبوا به . فانقطع اذ ذاك الى الكتابة واحترف الصحافة ، فعرب بعض الروايات الافرنسية ، والّف بعضها ، وكانت رائحة الحرية الثائرة تنبعث من خلال سطوره ، فضاقت به الديار الشامية ، فرحل الى مصر وانشأ هناك جريدة مصر ، ثم جريدة التجارة ، فاطلق فيها العنان لقلمه السيال الجريء فخرجت مقالاته يملأ صداها وادي النيل ، فاعجب الناس بلغته الصحافية البليغة الخالية من كل ركاكة وتعقيد وغموض ، فراجت كتابته حتى عدت الحكومة جريدته خطراً فصدر الأمر باقفالها ، وقد سجن في ثورة عرابي باشا لتطرفه وحريته ، وكان فوق كل ذلك يلقي الخطب المهيجة الطافحة بالروح القومية والوطنية .

ثم رحل الى باريس وداخل جماعة من كتاب الفرنسيس والاتراك ، واختلف الى مجلس الامة الافرنسي فاعجب ببلغاء خطبائه ،وظل يعالج السياسة والكتابة حتى اعياه داء الصدر فعاد الى وطنه لبنان وظل يكتب حتى قضى في التاسعة والعشرين من عمره .

قيمته : منشىء بليغ ، وخطيب مفوه ، فصيح اللهجة ، سريع البديهة ، يرتجل المقالة والخطبة ارتجالاً . اسلوبه شديد الاسر متراص التركيب ، مليح

الاستشهاد الذي اكثر منه . تارة يسجع وطوراً لا ، فهو أشبه بالطائر ، يسجع متى طاب له. في كتابته حياة قوية يشعر بها القارىء فيندفع مع كاتبها. ويغلب على مقالاته اسلوب الخطابة وهذه مجموعة مقالاته تشهد على ما اقول . وبكلمة نستطيع ان نقول ان اديب اسحق خرج بالصحافة الى طور جديد من حيث الاسلوب والروح . (طالع رواد النهضة) .

محمد عبده

ولد بمحلة نصر من اقليم البحيرة بمصر ١٨٤٩–١٩٠٥ نشأ نشأة الاوساط من القرويين فاستظهر القرآن في كتّاب القرية ثم ارسل الى الجامع الاحمدي فجامع الازهر ، ثم تتلمذ لجمال الدين الافغاني وهو اكبر تلاميذه . عالج الكتابة في الصحف عندما كان طالباً في الازهر ، فكان على عادة اهل زمانه يلتزم السجع ، والتمهيد بين يدي الموضوع بالمقدمات الفلسفية ، ثم ما برح قلمه يرقى ويعلو بتثقيف استاذه وبازدياد حظه من العلم حتى بلغ ما بلغ ، وقد تأثر بنهج البلاغة الذي شرحه فجرى قلمه على اسلوبه وشبه فصاحته .

آثاره : العروة الوثقى اصدرها مع استاذه الافغاني ، شرح نهج البلاغة ، الاسلام والنصرانية ، رد على هانوتو ، وقد دار نقاش بينه وبين فرح انطون صاحب مجلة الجامعة حول ابن رشد وفلسفته. (طالع كتابنا : جدد وقدماء).

اخلاقه : حاد البصر بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، ذكي القلب ، شديد العارضة ، قوي الحافظة ، كبير النفس ، عالي الهمة ، نزّاع إلى الاصلاح ، وقد عانى في سبيله ما عانى .

أثره الديني : فسّر القرآن بلسان العلم والعقل ، قرّب العقائد من الافهام ، وكشف ظلال الابهام .

اسلوبه : يسجع احياناً كإبن العميد فيتكلف الصنعة ، وينحو نحو الجاحظ احياناً في التأليف فتتراصف فقره وتتساوق أغراضه ، يلبس المعاني لبوسها من الألفاظ الملائمة لها ، وقد كان علماء الأزهر المتمسكون بالقديم غير راضين عن آرائه ، ولذلك قال قبل ان يحتضر :

ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العمائم

المسرح

لقد ذكرنا عن المسرح في بدء الكلام عن هذا العصر وقلنا ان لبنان كان أسبق العرب إلى فن التمثيل ، وهـا نحن نذكر ثلاثة من المؤلفين المسرحيين وأولهم ، بل أول من مارس هذا الفن في الشرق : مارون النقاش .

مارون النقاش : ولد في صيدا ١٧١٧ — ١٨٥٥ ونشأ في بيروت ، كان تاجراً ولكنه ميال الى الموسيقى ، اتقن العربية والافرنسية والايطالية ، سافر إلى مصر وايطاليا فأعجب بالتمثيل . فلما رجع إلى بيروت ألّف فرقة تمثيلية ووضع رواية البخيل ، وهي أول درامة عربية ، مثّلها في منزله ودعا لحضورها قناصل الدول وأعيان بيروت فصادف قبولاً . ثم ألّف رواية هرون الرشيد ودعا اليها والي بيروت وبعض الوزراء ورجال الدولة ، ثم انشأ مسرحاً بجانب بيته تحوّل بعد موته الى كنيسة .

وله أيضاً رواية الحسود وغيرها ، وقد احتفلت مصر بالذكرى المئوية لنشأة المسرح ودعت لبنان إلى الاحتفاء معها بهذه الذكرى ذكرى ابنه النابغ .

نجيب الحداد

ولد في لبنان ١٨٦٧ — ١٨٩٩ وقـال الشعر صغيراً ، ثم ذهب إلى مصر حيث زاول الصحافة فتولى رئاسة تحرير جريدة لسان العرب ، وكان يحرر في

غيرها ويترجم الروايات التمثيلية ، وقد مات بداء الصدر الذي فتـــك بزميله اسحق .

شعره : كان شاعراً مطبوعاً كجده الشيخ ناصيف اليازجي، سهل الديباجة مهلهلها ، من غرر قصائده وصف القيار ووصف القمر ، وهذه الاخيرة متأثرة بمقالة خاله الشيخ ابراهيم ، وله وصف حريــق سوق الشفقة في باريس ووصف القطار وغيرها من الشعر الجيد .

نثره : نثره كشعره رقة واناقة ديباجة يكثر من التشابيه والاستعارات ، بحث كثيراً من المواضيع التي تلابس الحياة الاجتماعية .

مسرحياته : صلاح الدين ، السيد ، المهدي ، حمدان ، روميو وجوليت ، الرجاء بعد اليأس ، الفرسان الثلاثة ، ثارات العرب ، غصن البان ، البخيل .وله عدا هذه المسرحيات مجموعة مقالات ، وديوان شعر .

النقد الادبي

تاريخ الادب العربي كما هو اليوم على الطريقة المدرسية حديث العهد في معاهدنا، فقد كان على المتأدب ان يعمد الى الاغاني ومعجم الادباء ووفيات الاعيان ويتيمة الثعالبي وغيرها من الكتب التي جمعها المصنفون العرب من الرواة وغيرهم ، وقد قال ابن خلدون ان عمدة الادباء اربعة كتب : البيان والتبيين ، وأدب الكاتب، والنوادر لابي علي القالي ، والكامل للمبرد .

وفي هذه شيء من النقد لا يتجاوز الالفاظ والمعاني والسرقــات الشعرية ، وكان النقد لا يتعدى قولهم ان فلاناً اجاد اكثر من فلان ، وفلان سبق الى هذا المعنى ، ثم تطور النقد عندما ظهر كتاب ابن رشيق « العمدة » والمثل السائر لابن الاثير ، بيد انه ظل على نسق القدماء ولم يخرج عنه الا بمقدار قليل .

تاريخ الادب

اول من اهتم بكتابة تاريخ الأدب العربي على الطريقة الحديثة هو جرجي زيدان ، وله فضل تأريخ الذين لم يترجم لهم القدماء من ادباء وشعراء متأخرين ومستشرقين .

ولما قامت الجامعة المصرية والمعارف المصرية على الطريقة الحديثة الفوا في هذا الموضوع كتباً مدرسية على نمط جديد يماشين الطريقة الاوروبية الحديثة بتحفظ تام .

اما النقد على الطريقة الاوروبية الحديثة فقام به عصبة من الادباء المتأثرين بادباء الغرب المستشرقين وبنقدهم الحديث ، فخطوا خطوهم وحذوا حذوهم في النقد . وانني أرى أثر النهضة في النقد اظهر منه في تأليف تاريخ الأدب .

وللبكالوريا اللبنانية فضل على طبع ملكة النقد في الطلاب ، بهذا النص الذي ادخلته في منهاجها ، وهو اوروبي بحت ، كما يفعل الذين يكتبون تاريخ الادب ، انما ما نواخذ عليه المؤلفين في تاريخ الادب هو اقلالهم حتى الندرة من كتابة تحليل ونقد نصوص تكون نماذج للطلاب .

المستشرقون

الفرنسيون

برون : له بحث في الآداب الجاهلية قبل الاسلام واخلاقهم ، وكتاب نساء العرب قبل الاسلام ، وترجم بعض اشعار جاهلية وبعض كتب قديمة .

دي سلان : ترجم مقدمة ابن خلدون ، وترجم تاريخه للبربر أيضاً .

دي مينار : ترجم مروج الذهب ، وكتاباً في الشعر الفارسي .

كليان هيار : له تاريخ بغداد الحديث ، وتاريخ آداب اللغة العربية ، وتاريخ العرب ، وترجم كتاب الخليقة للبلخي ، وانيس العشاق لشريف الدين الرومي ، وله مقالات عديدة في المجلة الاسيوية وانتقادات وابحاث ، ثم صار استاذ اللغة العربية في باريس .

الالمانيون

المستشرقون الالمان في النصف الاخير من القرن التاسع عشر اكثر المستشرقين انتاجاً ، وهؤلاء اهمهم :

فرايتاغ : تلميذ دي ساسي ، له كتاب في اللغة العربية في الجاهلية والاسلام ، ونشر حماسة ابي تمام باللغة اللاتينية والعربية ، وامثال الميداني مع ترجمتها اللاتينية .

كوسغارتن : تلميذ دي ساسي أيضاً ، نشر كثيراً من مخطوطـــات مكتبة باريس ، ولخص كتاب الجبر والمقابلة للفخري .

فلايشر : استاذ مدرسة ليبسك ، الف كثيراً وله مقالات في لهجـات اللغة العربية ، ونشر تفسير البيضاوي في ثلاثة مجلدات ، وبعض كتاب الف ليـــلة وليلة ، وشيئاً من تاريخ ابي الفداء .

ديتريصي : له يتيمة الدهر فـــيما يتعلق بسيف الدولة والمتنبي ، ورسائل اخوان الصفا ، وديوان المتنبي وآلهيات ارسطو ، وفلسفة الفارابي .

وايل : له تاريخ الخلفاء خمسة مجلدات، وسيرة ابن هشام ترجمها إلى الالمانية .

وستفيلد : نشر كثيراً من الكتب العربية . ويزيد عدد منشوراته ومؤلفاته على مئتين منهـــا سيرة ابن هشام ، ووفيات الاعيـــان ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، وعجائب المخلوقات للقزويني .

النمسويون

بورجشتال : اشهرهم ، له تاريخ الآداب العربية في سبعة مجـــلدات ، ودائرة معـــارف شرقية تشتمل على آداب الشرق ، ترجم « أيهـــا الولد » للغزالي ، وديوان المتنبي .

الهولنديون

جون بول : له من المتنبي ومعـــاصريه ما قالوه في سيف الدولة ، ومختصر معجم البلدان ، وكتاب الخراج لابن آدم .

دوزي : كتب كثيراً عن الاندلس ، له كتاب تاريـــخ الدول الاسلامية في اللغة الفرنسوية ، وكتاب آخر في آداب الاندلسيين ، وله معجم عربي ذكر فيه الالفاظ العربية التي لم ترد في معاجمنا ، وله غير هذه كتب أخرى .

دي غويه : له كتب كثيرة وقف على طبعها وضبطها ،منها : فتوح البلدان، ديوان مسلم بن الوليد ، ديوان الطبري ١٥ مجلداً ، والّف مـذكرات في التاريخ والجغرافية الشرقيين .

الانكليز

كورتن : انصرف للغة السريانية ، ونشر كتاب الملل والنحل ، وكتاب عقيدة أهل السنّة للنسفي ، ومنتخبات من طرقات الادباء .

ادوار لين : ترجم الف ليلة وليلة ، ومنتخبات من القرآن ، وله مقـالات وكتب بالانـكليزية عن الآداب الاسلامية .

بالمر : من اساتذة كمبريدج ، نشر ديوان البهاء زهير مع ترجمته للانكليزية ، وترجم القرآن .

رايط : نشر الكامل للمبرد ، ورحلة ابن جبير ، ومنتخبات شعراء الجاهلية ، وقسماً من نفح الطيب ، أي القسم التاريخي منه .

مرجليوث : مستشرق معروف عند العرب ، نشر كتباً عربيـة منهـا : معجم ياقوت ، ورسائـل ابي العلاء مترجمة إلى الانكليزية ، وله كتاب في السيرة النبوية .

براون : انصرف إلى الفرس وآدابهم .

نولدكي : الماني وهو إمام المستشرقين المعاصرين ، صرف همـه للتأليف ، له تاريـخ القرآن بالالمانية ، وتاريخ عروة بن الورد ، وتاريخ الفرس والعرب ، وتاريخ الغسانيين ، والمعلقات الخمس .

هوتمن : الماني له كتاب في العرب،وفي الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية، وديوان الحطيئة ، وكتاب في الاسلام ، وغـير هـذا كتب كثيرة تبحث في الشرع والحديث .

جويدي : ايطالي ، عيّن استاذاً في الجامعة المصرية ، كان يلقي فيها محاضرات قيمة باللغة العربية ، نشر كتاب الأفعال لابن القوطية ، والاستدراك على سيبويه .

فضلهم : للمستشرقين فضل النشر والتدقيق ، فقد بعثوا آثاراً كثيرة من مدافنها ، فهم الذين دلوا ادباء العرب الجدد على البحث والتنقيب وحببوا آدابنا الينا ، وارشدونا الى مجدنا الضائع ، وتراثنا المقسم ، وهم الذين عرّفوا الأمم الأجنبية إلى أمتنا العربية ، واظهروا ما في خزائنها من الكنوز النفيسة المجهولة منا .

هنري لامنس اليسوعي

علاّمة بلجيكي من اعلام المستشرقين المشهورين في الشرق والغرب ، عاش في لبنان وأحب تاريخه وجغرافيته فعرّفنا على آثار بلادنا وتاريخها تعريفاً دقيقاً في كتابه « تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار » .

وله ايضاً شهرة بعيدة في بحوثه عن عرب الجاهلية ، والعصر الأموي .

تآليفه : الإسلام ، والجزيرة العربية الغربية قبل الهجرة ، وخلافة يزيد الأول .

ويظهر ان هنري لامنس اديب قبل ان يكون عالماً أثرياً حتى كتب روايته حبيس بحيرة قدّس التي ترجمها لمجلة المشرق العلاّمة رشيد الشرتوني ونشرت في سنتها الخامسة .

وكتب ايضاً رواية « خريدة لبنان » التي نقلها الأديب نجيب حبيقه ونشرت في السنة الأولى من المجلة عينها .

ان لامنس لم يحرم بلدنا من دراسة عميقة لجميع مرافقه .

كراتشكوفسكي وجب

من كبار مستشرقي الروس. للأول كتب لا تحصى، وهو مختص بآثار ادبائنا المعاصرين وخصوصاً الرواية التاريخية في الأدب العربي المعاصر. وهذا اللون الأدبي، اي القصة المعاصرة، قد انفرد بدرسه البروفسور جب فخص النهضة الحاضرة بدروس عميقة دلّت على قدرته فيما انفرد له.

مؤرخو لبنان

الأمير حيدر الشهابي : صاحب التاريخ الذي عرف باسمه . تحـــدث فيه سارداً الحوادث الكبار تبعاً لتواريخها سنة فسنة . وقد خص أمير لبنان الكبير بشيراً الشهابي بالجزء الأخير من هذا المجلد الضخم ، فجاء هـذا الكتاب جامعـاً اخبار الدهور من مولد النبي واعماله وغزواته الى الخلفاء واحداً واحداً ، حتى نهاية عمر الأمير بشير .

والذي ترك لنا هذا التاريخ يجب علينا ان نؤرخ حياته ولو تأريخاً موسوعياً فنقول انه ولد في دير القمر (١٧٦١ — ١٨٣٥) ، وتوفي في دير القرقفة ، وقد قضى حياته ، كما اخبرنا احمـــد فارس الشدياق ، يدوّن الحوادث المعاصرة له أول بأول ، وكان الأمير بشير يعتمد عليه .

وإذا قرأت الفارياق،وتساءلت اين ذكر احمد فارس المير حيدر، نقول لك: اقرأ كتابنا صقر لبنان ففيه النقد الكافي لتاريخ المير حيدر ولتاريخ اعيان لبنان الذي ألّفه طنوس الشدياق شقيق احمد فارس .

نشر تاريخ الأمير حيـــدر الاستاذ نعوم مغبغب في القاهرة سنة ١٩٠٠ ثم اقتطع منه الدكتوران أسد رستم وفؤاد البستاني الجزئين الثاني والثالث لاعادة الطبـع .

تاريخ اعيان لبنان : وهذا تاريخ آخر وقف عليه قبل ظهوره المعلم بطرس البستاني كما صرح مؤلفه الشيخ طنوس يوسف الشدياق بما ذيل بـه الكتاب عند نهاية طبعه سنة ١٨٥٩ .

ان تاريخ اعيان لبنان معروف من اسمه انه لبناني محض ، وان تاريخ المير حيدر اوسع مدى ، اما النسق والتفكير فواحد تقريباً . وقد نقد احمد فارس تاريخ اخيه طنوس بدقة شديدة وعنّفه بل وبّخه لأنه ماشى السلطة الروحية واتهم أخاه الشهيد اسعد بالوسوسة . (عُد ، اذا شئت ، الى : صقر لبنان).

لبنان لاسمعيل حقي بك : متصرف لبنان سنة ١٩١٥ . ومع انه لم يثبت على كرسيه إلا أقل من سنة فقد سعى لاخراج كتاب عن لبنان من الوزن الثقيل . يقول فيه صاحب منجد الاعلام : انه كتاب عزيز الوجود . اما أنا فلم احصل عليه في حينه لأننا كنا في تلك الأيام السوداء نفتش عن رغيف خبز ولو من شعير لنفكّ ريقنا .

القرن العشرون

سليمان البستاني

١٨٥٦ — ١٩٢٥

سيرته : سليمان بن خطار سلوم البستاني . ولد في بكشتين لبنان عام١٨٥٦ . لقّنه عمه المطران عبدالله البستاني العربية والسريانية فشغف باللغات ، ودخل المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني فأتم دراسة العربيـــة والسريانية واتقن الانـكلـيزية والفرنسية ، وكان من معلّميه الشيخ يوسف الأسير والشيخ ناصيف اليازجي .

كان قوي الذاكرة فتمكن من معرفة خمس عشرة لغة مع جميع علوم زمانه .

ثم علّم في المدرسة الوطنية وساهم في تحرير الجنان والجنة . وما عرف حتى صار ترجماناً لقنصلية اميركا ، ورأسَ جمعية زهرة الآداب مرتين .

وحنت نفسه إلى الاسفار فأم العراق وطاف في جزيرة العرب . واستدعاه الزعيم قاسم باشا لانشاء مدرسة وجريدة . فأدار تلك المدرسة سنة ، ثم عيّن مديراً للشركة الخديوية ، ومديراً أيضاً لمعمل حديد انشأه مدحت باشا . واتصاله بمدحت باشا مكّنه من التنقل في نواحي البلاد العربية جميعها،وهناك تعرّف الى الأماكن الوارد ذكرها في الشعر العربي .

وكانت عودة البستاني من الجزيرة عامَ ١٨٨٥ لينصرف الى اتمـــام دائرة المعارف التي ألّف منها اجزاء المعلم بطرس ثم سافر الى مصر عام ١٨٨٧ .

وخطر له ان يترجم الالياذة شعراً الى العربية . فاطلع على الملاحم المختلفة ، ولما كانت يونانيته ضعيفة راح يدرسها على أحد الآباء اليسوعيين . وبعد ذلك ترك القاهرة عام ١٨٨٨ قاصداً العراق فالهند فاطراف العجم حيث درس عـــادات الفرس وآدابهم لتكون له المواد اللازمة لمقدمة الالياذة وشرحها ، فصقلت تلك الرحلات ذوقه الفني الادبي. وعاد الى بغداد حيث تزوج . وأقام في بغداد سنتين تابع فيها التعريب و كتابة مؤلف عنوانه « في تاريخ العرب » .

ثم ذهب الى اسطمبول حيث أقام سبع سنوات وانتدب لتولي ادارة القسم التركي في معرض شيكاغو فغادر الاستانة اليها حيث انشأ جريدة تركية لم تعش غير عام . ثم عرف مواطن حوادث الالياذة وكنوز امثالها واجواء قصصهـــا ووقف على آراء أدباء اليونان فيها .

وعاد الى قريته بعد اربعين عاماً ثم هجرها الى مصر حيث اشترك مع انسبائه في تأليف الجزئين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف . وفي عام ١٩٠٤ اتم تعريب الالياذة وطبعها واقيمت له حفلة تكريم في فنـــدق شبرد . وتناولت الصحف والمجلات عمله الجبار .

سقوط عبد الحميد : وبعد اربعة اعوام بعث الدستور العثماني من قبره عام ١٩٠٨ فنشر سليمان كتاب « عبرة وذكرى » وهو كتاب يدعو الى نبذ التعصب والاتحاد ، وفيه ذكريات وعبر ترمي الى الاصلاح. وعلى اثر صدور هذا الكتاب انتخب عضواً لمجلس المبعوثان .

وهناك ظهرت مواهبه السياسية ، فحضر الجمعية العموميــة سنة ١٩٠٩ ، واشترك في تقرير خلع السلطان عبد الحميد ، فافلتت الشعراء والخطباء كالنمور من اقفاصها . ثم انتخب البستاني نائباً لرئيس مجلس المبعوثان ، فرأس عدة وفود الى عواصم اوروبا حيث كان يخطب فيهم بلسانهم ، وفي حضرة ملوكهم كادوار السابع وغيره . واوفدته السلطة الى لبنان بمهمة رسمية ، ولما عـاد سنة ١٩١١ عيّن سفيراً فوق العادة في اكبر عواصم اوروبا كروما وبرلين ولندن وباريس .

وفي عام ١٩١٣ عيّن وزيراً للتجارة والصناعة والزراعة والغابات والمعادن

فاصلح كثيراً ، وهو الذي تولى عقد الصلح بين تركيا وبلغاريا . وظل في منصبه حتى كانت حرب ١٩١٤ . وساءت صحته فاستقال وذهب الى سويسرة حيث قاسى آلاماً شديدة جداً ووصف بشعر رائع رقيق طرق معالجته وآلامه متذكراً وطنه حاناً اليه . ولكنه شفي بعد ذاك العـذاب ونقله اخوه سليم الى مصر . وذهب الى الولايات المتحدة حيث عمي ، ثم مات في اول حزيران عام ١٩٢٥ في نيويورك . وما اجمل ما قاله ايليا ابو ماضي شاعر المهجر في رثائه :

فتح الموت حين اغمض جفنيه   عيون الورى على حسناتـــه
فهو مـــاضٍ له جـلالة آت   من فتوحـــاته ومن غزواته
والفتى العبقـــري يولد اذ   يولد في مهده ويوم وفاتـــه

وفي الخامس عشر من آب وصل جثمانــه الى بيروت ونقل الى مسقط رأسه ليعرض في الغرفة التي اتم فيها شرح الالياذة العربية .

مقدمة الالياذة

تقع في مئتي صفحة من طبعة الالياذة ذات الحجم الكبير ، وهي مؤلفة من أربعة فصول وخاتمة . يتكلم في الفصل الاول عن نشأة هوميروس الذي أنكر بعضهم وجوده . ومعنى اسمه ابن النهر . ثم بحث نظم الالياذة وصحة نسبتها الى هوميروس فأثبت انها له مخالفاً رأي العالم الالماني ولف الذي أنكر ذلك . موافقاً في ذلك عالماً المانياً آخر اسمه ميلر ، وقد يكون هذا الرأي له . اما حجته فهي وحدة الالياذة وصفات أبطالها ، ثم اوصاف أماكنها الواحدة فلا اضطراب في تسلسل حوادثها ولا معانيها .

وروى بعد ذلك حكاية تعريبه الالياذة وكيف خرج على القصيدة القديمة فنوّع القوافي والاوزان ، واهتم بالملاءمة بين الوزن والموضوع حتى خص الأبحر بما يوافقها من مواضيع ، وكان نصيب بحر الخفيف انه وزن يصلح للقصص .

ثم تحدث عن موضوع الالياذة فأرّخ الشعر العربي تأريخاً مجملاً وقابل بين جاهليتنا وجاهلية اليونان في التفكير والتعبير . ثم بيّن ان الشعر العربي خالٍ من ملحمة كبرى كالالياذة وغيرها من ملاحم الأمم .

موضوع الالياذة : حرب قامت بين الطرواديين واليونان الأقدمين اثناء حصار طروادة ، وطروادة مدينة محصنة مسورة من مدن آسيا ، قدّر الباحثون موضعها في جنوبي مضيق هللاس (الدردنيل) وزمنها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

زار بارس بن بريام ملك طروادة ملك مدينة اسبارطة اليونانية فأكرم

الملك ضيفه ، وفتن بارس بهيلانة امرأة الملك وخطفها فاراً بها الى طروادة .

وسمع اليونان بالخبر ، فقاموا إلى السلاح . واحتشدت الأبطال تحت أمرة أغا ممنون شقيق الملك ، وزحفوا بحراً على طروادة وطوقوها محاصرين . وكان أعظم هؤلاء الأبطال : فطرقل وعولص وآخيل ، صديق فطرقل .

وطال الحصار ، وسطا اليونان على قرية سبوا منها فتاتين جميلتين . فكانت أحداهما لأغا ممنون والثانية لآخيل .

كانت فتاة أغا ممنون بنت كاهن ابولون ، فطلب اعادتهـــا فلم يعدها له اغا ممنون ، فصلـّى الى ابولون إلهه ، فسمع الإله صـــلاته من الاولمب فدارت الدائرة على اليونان وفشا فيهم الوباء ورماهم الإله ابولون بسهامه .

فأوحت هيرا امرأة زفس الى آخيل فقـــال لقادة اليونان : فلنبحث عن سبب غضب ابولون .

فقال أحد الحكماء : على أغا ممنون ان يعيد البنت إلى أبيها وإلّا هلكنا .

فامتعض اغا ممنون ، وطلب حصة من الغنائم بدل البنت . فقال له آخيل : ومن أين ؟ أعد الفتاة ومتى فتحنا طروادة نعطيك ثلاث حصص .

فأبى اغا ممنون وقال لآخيل : إذا أعدتها لا أقبل بها بديلاً غير فتاتك .

فأنـّبه آخيل : ايتها الوقاحة المجلببة بجلباب الملوك تتهدّدني بأن تسلبني ما منحني الجيش ؟ أنا أقوم بأكبر قسط من القتال ونصيبي من الغنائم دائماً دون نصيبك . سأعود إلى بيتي .

فقال اغا ممنون : انصرف ، لن استعطفك لكي تبقى .

فاستعرت نار غضب آخيل وهمّ بأغا ممنون ليقتله ولكن الآلهة نهته .

فاكتفى بالقول لأغا ممنون : أيهـــا السكير الأحمر العينين كعيني الكلبة . اسمع هذه اليمين : سيأتي يوم تطلب فيه الأمة آخيل ولا تجده ، ستعجز انت عن درء الخطر عنها ويتساقط ابناؤها امام هكتور الظامىء الى الدم .

وكان ذلك ، فاعتزل آخيل الحرب وهكذا بـــدأ البستاني معرباً مطلع الالياذة :

ربة الشعر عن اخيل بن فيلا انشدينا واروي احتداماً طويلا

وكان ان صال هكتور بطل الطروادين على اليونان ، وقتـــل الكثير من ابطالهم فالتجأوا مضطرين الى آخيل يسترضونه ، فلم يقتنع ولكنه اذن لصديقه فطرقل ان يلبس درعه ويذهب لمقاتـلة هيكتور . بيد ان هيكتور صرعه ، فحمي غضب اخيل ونزل بريـــده ، فقتله وربط جثته بعربة وطاف بها حول اسوار طرواده .

وحزن الشيخ بريام على ابنه هيكتور ، وحمل الهدايا الى آخيل ملتمساًتسليمه جثة ابنه ، فسلمه اياها واقاموا له مأتماً انشدت فيه المراثي .

وتنتهي الالياذة ، ولا تستسلم طروادة ، ثم تمر عشر سنوات ويموت آخيل ولا تستسلم : حتى كان سقوطها اخيراً بحيلة ابتدعها عولص .

بنى حصاناً خشبياً واقعد في جوفه جماعة من اليونان ، وتوارى اليونانيون عن الانظار ، فاقبل عليه الطروادين ظانين ان فيه غنيمة . ففتحوا باب المدينة وجروا الحصان اليها ، فدخل المحاربون الذين كانوا في جوفـه وقتلوا الحراس ، وتبعهم المحاربون ، وهكذا استولوا على المدينة واحرقوها .

شرح الالياذة : لم يكتف سليمان بالتعريب بل عمد الى شرح الالياذةوتحليلها وجلاء غوامضها . وقابل بين المعاني اليونانية والعربية كما قابل بـــين الشعرين والاوزان . ثم وصف العتاد الحربي وما اليه ، ونبه الى المقابلة بين قصة عنترة وحرده،وحرد آخيل.ولم يحرم الفلسفة واللاهوت من درس العقائد والعادات ومنها ان الرجل الجاهلي كان يحلف برأس زوجته . ومنهم من يحلف برأس شيخه أو زعيمه ولكنه اذا كذب يقتل حالاً ، اما اذا حلف بالله فما عليه بأس الآن ، بل يؤجل ويوضع في كتاب فيدخر ، كما قال العم زهير .

وقد دل البستاني على الاثر الفينيقي في الالياذة وعلق عليـــه . وفسر كلمة قدموس بأن مادتهـــا في العربية كمادتها في الفينيقية أي القدم . ثم فسر الرموز الفينيقية فسهل الفهم . وأشار الى ذكر ارز لبنان .

شاعرية البستاني : شعره من الطراز العباسي ، وهو هنا يترجم فلا يستطاع

الحكم على بُعد مدى خياله ، ولا مجال للحكم على ديباجته وتفاوتها في الاليـاذة لانه لا يستطيع ان يحذف ما يشاء من اسماء اعلام تشوّه الشعر. وهو في كل حال لم يقصر ، وان كان شعره الوجداني الذي نظمـه ابان مرضه في سويسرا انقى ديباجة واقوى عاطفة . وكذلك جاء في مواقف الالياذة الوجدانية التي تلائم شعرنا العربي .

انشاء البستاني : يتصف انشاؤه بالرصانة ، تغلب عليه الصبغة العلمية ، ولا يسجع ولا يتأنق ولا يتخيل . يهمه ان يفصح لنا عما في فكره بتدقيق في اللفظ وبعد عن الحشو والزيادة . البستاني وان كانت موضوعاته بعيدة عن التجميـل والتحسين فقد كان في اسلوبه طلاوة ادبية تخفي تحتها شيئاً من جفاف العلم، وان لم يكن كله فجله . أما البستاني الناقد فكان احرى ان يسمى البستاني الباحث لانه في المقدمة بحاثة اكثر منه ناقداً .

فرح انطون

بزغ نجمه الادبي مع هلال القرن العشرين،وانطفأ ذاك الشهاب الثاقب بعد ان عد ثالث اثنين : المقتطف للعلم والهلال للتاريخ ، وجامعة فرح للثقافة الحديثة ، فكان رائد النهضة الفكرية ، وداعي دعاة الفلسفة الحديثة .

حمل على القديم حملات كان لها ما بعدها، وظل يناضل في الشرق والغرب حتى قضى قبل نهاية الربع الاول من هذا القرن .

يصح فيه قول خليل مطران : وفـّيت قسطك (للنهى) فنم ِ .

اسلوبه : لم يكن فرح من اصحاب التعابير الجوفاء . اسلوبه سهل هيّن ، تعنيه من الفصاحة الابانة والظهور ، وهو مؤلف ومترجم ، وفي كلا الحقلـين يفتش عن غرض سام هو اثارة الاذهان في تلك الظلمات التي رافقت عصره .

آثاره : ٢٤ كتاباً منها : اورشليم الجديدة ، ومريم قبل التوبة ، والدين والعلم والمال ، والوحش الوحش الوحش ، وترجمة حياة يسوع لرينان ، وابن رشد وفلسفته .

في جامعته : لم يترك اثراً خطيراً الا تصدى له ، وهو أول من عرّف الشرق بنيتشه وغوركي ، وترجم للاول : « هكذا تكلم زاراتوسترا » ، وللثاني رواية مشهورة ، ولكن يا للاسف ، فانه كا لم يتم رواية الجدلية قبل التوبة ، كذلك لم يتم ترجمة كتابَي نيتشه وغوركي .

كان الرجل يفتش عن معاشه فانصرف الى تأليف المسرحيات فأطعمته خبزاً ولكن دون الشبع وراحة الفكر .

هذه كلمة وجيزة عن رائد القصة والادب الحديث ، اما دراسة فرح فتجدها مفصلة في كتابنا « جدد وقدماء » .

جبران

١٨٨٣ — ١٩٣١

حياته : ولد في بشري وهاجر مع امه إلى بوسطن ، ثم رجع إلى بيروت ، ودرس العربية في مدرسة الحكمة .

وقصد بعد ذلك باريس وتعلّم هناك التصوير فتفوّق فيه وعرف اشهر الرسامين وخصوصاً رودان .

تآليفه : عدة كتب بالعربية : الأرواح المتمردة ، وعرائس المروج ، والأجنحة المتكسرة ، ودمعة وابتسامة ، والعواصف ، والبدائع والطرائف . والمواكب قصيدة شعر منظوم .

وكتب بالانكليزية : النبي ، والجنون ، ورمل وزبد ، والسابق ، ويسوع ابن الانسان ، وآلهة الأرض .

كان متصوفاً ولكن صوفيته مادية ، والحب عنده قطب الوجود ، والشوق خالق الكائنات .

اسلوبه : انشاء جبران منمق حافل بالألوان ، يندغم بالطبيعة إلى اعمق أعماقها ، ولعله ان يكون شاعرنا العالمي في القرن العشرين اذا اعتبرنا النثر شعراً غير موزون . وجبران مصور فيما يكتب فكأنه يفكر بالصور والألوان ثم يعبّر بالكتابة عما يتخيل . أما آراؤه الاجتماعية فقائمة على المحبة كما نرى في كتابه النبي الذي هو قمة ألفكرة الجبرانية ، او خلاصة آراء جبران . وضعه على نمط كتاب نيتشه ، ولكنه بناه على الحب ، بعكس نيتشه الذي يقوم كتابه على بغض

الإنسان وتمنيه له الانقراض ، لعله يخلق بعده إنسان اسمى من الإنسان الحاضر .

اكتسب جبران بنبوغه شهرة عالمية لم يدركها كاتب عربي قبلـه ، فهو والريحاني صنوان .

فلسفته : وإذا تعمقنا ، رأينا ان عصارة الفلسفة الشرقية موجودة في كتب جبران . إن ادباءنا المهجريين عاشوا غرباء عن محيطهم الجديد ، لم يفكروا بغير الشرق ، وجبران خصوصاً كان اشدهم حباً للبنان . والحياة اللبنانية أوحت اليه بفكرته الثورية ، لأنه قضى صباه في محيط ذي اقطاعيتين: اكليريكية وعلمانية. وهذا ما يصوره لنا في قصة خليل الكافر وغيرها كمضجع العروس ، ويوحنا المجنون .

إن العرق اللبناني الفينيقي الوثني يتمثل في كتابات جبران ، وقد كتبت كثيراً عن الريحاني وجبران، فليراجع ذلك في كتبي، فالمقام هنا اضيق من ان يسع.

تأثيره: كان لجبران اعظم تأثير في جيله، وقد اتبع اسلوبه واسلوب الريحاني زمناً ولا يزال ، وان ضعف تقليده ، وهـذا الشعر الجديد غير الموزون خلقه الريحاني وجبران متأثرين بأسلوب انبياء التوراة ، والشاعر الانكليزي وتمان .

صاحب مدرسة : جبران إمام متبوع والامريكتان مدينتان له بعروبتها . فهو ذاك الشرقي الطائر الصيت الذي تقرأ كتبه الانكليزية بلذة وشوق .

الرابطة القلمية : عميدها ومؤسسها جبران ، ولكنها لم تعمر طويلاً فماتت بموتـه ، وأجهزت عليهـا عودة نخائيـل نعيمه إلى لبنان . اننا نأسف لتواريها، لانها أدّت اجلّ الخدمات للأدب والفكر، ولا يزال أثرها ماثلاً للعيان في أساليب كتّاب القرن الحاضر .

امين الريحاني

١٨٧٦ – ١٩٤٠

ولد بالفريكه من لبنان وتعلم مبادىء العربية والفرنسية في الفريكه بمدرسة انشأها نعوم المكرزل ثم في مدرسة قرنة شهوان .

هاجر إلى امريكا وهناك درس مبادىء الانكليزية ثم اتقنها ، وانخرط في جوقة للتمثيل ، وانصرف الى دراسة الحقوق . ثم اقتطع عنها ، وتحول أخيراً إلى الأدب فتفوق فيه .

نقل لزوميات المعري الى الانكليزية فطارت شهرته نظراً لشاعريته وصفاء لغته . ثم كتب في الرحلات عدة كتب اشهرها: ملوك العرب ، وهو اخلد آثاره لأنه سبق فيه غيره . وقد ترجمه للانكليزية .

ترك كتباً كثيرة بالعربية والانكليزية منهـــا تاريخ نجد الحديث ، وقلب لبنان ، وسياحة إلى المغرب . وله روايات قصصية وتمثيلية . عدا الريحانيات ، وهو مجموعة خطب ومقالات وشعر منثور ادخله الريحاني إلى الآداب العربية . وله مجموعة رسائل نشرها حديثاً أخوه ألبرت وهي عنـــدي في مقدمة تركته الأدبية .

كان الريحاني نزاعاً إلى الاصلاح ، فحمل على الاستبداد ونفخ في بوق الحرية ، وقاوم الانتداب فنُـفي مرة .

كان خطيباً مفوهاً بل أمير المنابر ، تحب سماعه ولو كان يحمل عليك . دعا الشرق الى النهوض والاتحاد، وعرّف العرب بعضهم ببعض ، وهو أول من فكر بالجامعة العربية قبل ان تكون . فاجتمع بملوك العرب وامرائهم داعيـــاً إلى الوحدة .

إن كتب رحلات امين خالدة، بما فيها من حقائق وجمال حديث، وبها عرف العربي بأخيه العربي، بعد ان كاد بعضهم يجهل بعضاً .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ — ١٩٢١

ولد في الاستانة من ام جركسية واب تركي،ثم عاد به والده الى مصر وطنه. تعلم في مدرسة الانجال المختصة بتعليم اولاد الامراء ، فتعلم العربية والتركية والانكليزية ، ثم درس الافرنسية والمّ باليونانية وتزوج من امرأة يونانية .

انصرف في اول عهده بالكتابة الى تحبير المقالات السياسية ، وكان اهله لا يرغبون فيما يرغب فيه . سافر الى الأستانة في عهد السلطان عبد الحميد ، فأقام فيها سنة وعاد الى مصر فاصدر جريدة الاستقامة وكان يناهض فيها رجال السياسة في الأستانة ، فاقفلت جريدته واخذ ينشر افكاره الحرة في الجرائد الأخرى ، ثم أعاد الكرة على اسلامبول فذهب اليها ، وعيّن عضواً في ديوان المعارف ، وكانت الجواسيس تحدق به لأنه وضع في لائحة الاحرار ، فحبس ونفي الى سيواس، حيث بقي ست سنوات، حتى اعلن الدستور. فعاد الىمصر، وصار سنة ١٩١٤ سكرتيراً عربياً في ديوان الامناء ، وما ارتاح في حياته حتى عاجله الداء فقضى في حلوان سنة ١٩٢١ .

اخلاقه : حر الفكر جريء ، ميال الى الاصلاح ، انوف ابي ، مات فقيراً .

آثاره : الصحائف السود ، التجاريب ، ديوان شعر ، المعلوم والمجهول ، خواطر نيازي .

اسلوبه : شديد العبارة ، قوي التركيب ، حاد اللهجة ، لا يتقيد باسلوب ، قوي الخيال ، ثائر العاطفة .

المنفلوطي

١٨٧٦ — ١٩٢٤

هو مصطفى لطفي، ولد في منفلوط من اعمال مديرية اسيوط، واليها نسب. أسرته وجيهة .

التصق بالازهر بعد ان تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، فحصل صدراً من العلوم وكان به شغف شديد بالادب ، فعكف على كتب البلغـــاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ، ولازم من فتائه رجال الأدب وأعيان كتّاب الصحف ، فكانت له فيه ملكة وطبيعة ،فنظم الشعر سهلاً جزلاً رصين القافية ،وارسل النثر حلواً سلساً محبوكاً ، وقد شغله هذا بقدر ما عزف عن الكدح في مطالعة كتب الازهر ومعاناة دروسه ، على انه واظب على حضور دروس الشيخ محمد عبـده الى غايتها .

وفي اثناء طلبه في الازهر نسب اليه انه هجا الخديو عباس حلمي بقصيـدة نشرها في احدى الصحف الاسبوعية فحكم عليه بالحبس . فقضى في السجن مدة العقوبة ، ثم عفا الخديو عن جرمه بشفاعة من لهم عنده كريم منزلة . فلما صارت نظارة المعارف الى زغلول باشا عيّنه محرراً عربياً لها،ولما تحول زغلول الىنظارة الحقانية حوله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب ، حتى اذا قام البرلمان عيّن في سكيرتاريته ، على ان الموت عاجله في العقد الخامس، فمات سنة ١٩٢٤ .

والمنفلوطي ، رحمه الله ، كان دقيق الحس ، رقيق العاطفة ، رحيم القلب ، يغمره الشعور بالاسى من كل ما يحل في هذا العالم من ضروب الويـل والشقاء ،

ولهذا ترى قلمه اجود ما يكون في صفة مدنف عانٍ ، او يتيم محروم ، او متهم مظلوم ، ونحو هذا من مآسي الحياة .

آثاره : وهو بعد رشيق القلم ، سهل البيان ، حـــلو العبـارة ، متين نظم الكلام ، اذا أتته السجعة فذاك ، وإلا فلا يتكلف طلبها بتعمّل . وكان شديد التذوق لبلاغات العرب ، يحتفل للجمل البارعة ، وللصيغة الرائعة ، فيفسح لها في خلال نثره مكاناً، وقد جمع قدراً عظيماً من مقالاته في كتاب دعاه النظرات، وأخرى في كتاب آخر سماه العبرات ، وله منتخبات بديعة من أشعار المتقدمين ومقالاتهم دعاها مختارات المنفلوطي ، وهي تدل على حسن ذوقه ودقة اختياره. ترجم له بعض اصدقائه عن الافرنسية رواية مجدولين فجوّد في العربية صياغتها وصقلها صقلاً جميلاً ، وكذلك فعل في رواية بولس وفرجيني التي أخذهـــا عن ترجمة فرح انطون .

لقد عالج المنفلوطي الشعر اولاً،ثم انصرف عنه إلى النثر،فكان شأنه في هذا شأن كثيرين من كتاب اوروبا المشهورين ، فأكثرهم عـــالجوا النظم أولاً ، ثم انصرفوا الى النثر، ما عدا الشعراء الكبار الذين استطاعوا ان يبرزوا. أما كتابة المنفلوطي من حيث الموضوع فتعوّل على الحقيقة اكثر منها على الخيال. واختراعه في التعبير لا في الفكر، يعوّل كثيراً على التشبيه والاستعارة وكل ضروب المجاز، ويكثر من المترادفات .

يعقوب صروف

١٨٥٢ — ١٩٢٧

حياته : من مواليد قرية حدث بيروت بلبنان سنة ١٨٥٢ . تلقى علومه اولاً في مدرسة الاميركان بعبيه ، ثم انتقل إلى الجامعة الاميركية حيث لم يتم دروسه ، وأخرج منها بعد ثورة طلابها تأييداً لاستاذهم فان ديك .

وفي سنة ١٨٧٦ انشأ مجلة المقتطف فظهر منها عشرة مجلدات ، ثم نقلها من بيروت الى مصر وظل يديرها ويشرف عليها ويكتب فيها إلى آخر حيـــاته ، فكانت دائرة معارف ثقافية ومدرسة علمية تدخل كل بيت يتكلم العربية ، فسلّح العقل العربي بالعلوم الحديثة في كل فن ومطلب ، فكان كل ناطق بالضاد تلميذاً لصروف الكاتب والفيلسوف المؤمن بالعلم وحـــده ، وقد أيّد مذهب دارون في النشوء والارتقاء بكل قواه العقليـــة ، مسانداً رفيقه الدكتور شبلي الشميّل .

آثاره : أهمها المقتطف في ٥٢ مجلداً ، وكانت اكثر مقالاته العلمية والفلسفية والفنية حافلة بكل جديد ، فجارى تطور العلم في جميع مراحله ، وقد عرّف الشرق بنوابغ العرب والانكليز ، إذ ترجم لهم وقابل بينهم . وقد عرّب كتباً كثيرة وألّف كتباً كثيرة وجال جولات موفقة في دنيا القصة ، فكتب « اميرة لبنان » و « فتاة مصر » وغيرهما .

وكان صروف من اركان مدرسة النهضة الحديثة ، فراح يدبج مقالاته ،

حتى العلمية منها، باسلوب بياني رشيق ، رصين، من طراز كتّاب الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وزاد عليهم تعريب الالفاظ للاغراض العلمية والفلسفية.

وأعار صروف الرياضيات اهتماماً كبيراً وكتب في علم الفلك كتاب «بسائط علم الفلك» فاحتوى احدث الانباء عن النظام الشمسي، والسيّارات، والثوابت، والبقع الشمسية، والنجوم المذنّبة ، حتى بلغ مقام العلماء الكبار، وكان في ذلك بعيد المرام ، ناصع البيان ، واضح المأخذ .

وفي الطبيعيات والكيمياء والفلسفة كان صلة الوصل بين الشرق ورجالها في الغرب ، اذ بسط آراء العلماء تبسيطاً اوضح غامضها .

وله في التاريخ وعلم الآثار غرر الفصول والكتب ، وقد اسعفه الحظ انه نشأ في بلد تاريخي اثري. ثم انتقل الى بلد حافل باعظم الآثار ، فطاف بين اطلال قصوره يتحدث عنها معتمداً على احدث الآراء .

وديع البستاني

الشاعر المجيد وديع فارس البستاني سليل بيت علم في عصر النهضة يحق لافراده النابغين ان يرددوا : اذا مات منا سيّد قام سيد ، ويحق لشاعريه سليمان ووديع ان يقولا : نحن فرسان الملاحم .

فالاستاذ وديع هو اول من شق طريق العروبة الى بيت الشاعر الفيلسوف عمر الخيام ، فعرب رباعياته تعريباً لم يوفق أحد من معربي الخيام الى شعر انقى ديباجة من نظمه ، وقد يكون جارى الخيام وتحداه .

مؤلفاته : معنى الحياة، السعادة والسلام، مسرات الحياة ، محاسن الطبيعة ، رباعيات الخيام ، رباعيات الحرب، البستاني لطاغور ، خمسون عاماً في فلسطين، وكلها معرّبة الا ديوان الفلسطينيات.

شاعر المهبراته : ولد في الدبّيه ومات فيها ١٨٨٨ — ١٩٥٤ . قضى حياته يطوّف في الآفاق فسميناه السندباد الادبي ، وناضل لأجل فلسطين مكافحاً الصهيونية ، وما كان امرّ خيبته حين قال عن نفسه :

غنّى العروبة عمراً وعاش حتى رثاها

فهو ممن أُخرجوا من ديارهم بعد عناد ضارٍ ، ولكن المقدر كائن .

ان المهبراته هي اعظم اثر ادبي عالمي ، صرف شاعرنا المجاهد على نظمها اربعين عاماً حتى اخرجها بهذه الاناقة الفنية ، ولكن اسماء الاعلام لا تروّض ترويضاً تاماً وتوضع في قفص الخليل .

جزاه الله خيراً ، وافسح في اجلنا لندرس هذا الأثر الذي قال فيه البنديت نهرو حينما اطلعه عليه الاستاذ اميل البستاني ابن شقيق الشاعر : ان هذه الملحمة المعربة هي خير ما يستطيع العرب اهداءه للهند .

احمد شوقي

١٨٦٨ — ١٩٣٢

نشأته : ولد بالقاهرة سنة ١٨٦٨ ، جده كردي مغربي ، جاء مصر يحمل وصاة إلى محمد علي باشا والي مصر فأدخله في معيّته ، ثم صار أميناً للجمارك المصرية ، فجد شوقي لأبيه جمع ثروة بدّدها ابنه أبو احمد شوقي .

أما جده لوالدته فاسمه احمد حليم بك يعرف بـ « النجده لي » نسبة لنجدة احدى قرى الأناضول ، وفد على مصر فتيــاً فاستخدمه ابراهيم باشا وزوجه بمعتوقة جلبت من الموره اسيرة حرب لا شراء ، وهذه الجـدة كانت كالمربية والأم لشوقي ، وقد ذكرهـا في شعره ، وهي التي جاءت به إلى قصر اسمعيل طفلاً يحبو ، وكان نظره لا ينزل من السماء — كما روى — فطرح له اسمعيـل على البساط بدرة دنانير هوى اليها بصره الخ ...

تعلم في الكتّاب اولاً ، ثم أوفده توفيق باشا إلى فرنسا فدرس الحقوق في مونبليه ، وخالط الاوروبيين وعرف أخلاقهم وعاداتهم وآدابهم الخ .

مثّـل مصر في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٦ ونظم قصيدته المشهورة : « همت الفلك واحتواها الماء » .

شاعر الامير : لزم قصر الأمير عباس حلمي وكان شاعره وقد قال :

شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب

وفي الحرب العظمى اعتقل ونفي إلى اسبانيا التي اختارها ، وسبب اعتقاله

سقوط عباس حلمي ولي نعمته وقيام حكومة السلطان حسين كامل .

عيّن عضواً في مجلس الشيوخ سنة ١٩٢٤ .

اربعة اصول : قال شوقي عن نفسه ان أربعة أصول اجتمعت فيه ، فهو عربي تركي يوناني شركسي بجده لأبيه ، اذن هذا شاعر جديد من الموالي يعيد به التاريخ نفسه فيبز شعراء العرب الاقحاح في عصرنا هذا كما بزّهم الكثيرون من الموالي في عصور مختلفة .

ظل الملوك منابت الشعراء : نشأ شوقي بنعمة ، وعاش بنعمة ، ومـات بنعمة ، لم يتمتع بها شاعر عربي في كل العصور .

نشأ مقرباً من العائلة المالكة ، فجاء شعره مصقولاً ،بعيداً عن التغني بالسيف والرمح ، كما فعل البارودي ، ولم يذكر التعاسة والشقاء كحافظ .

شوقي ومولاه : كان سريع الخاطر واسع الاطلاع شديد الاخلاص للبيت العلوي المصري ، وقد قال :

أأخون اسمعيل في ابنائه ... ولقد ولدت بباب اسمعيلا

سرعة خاطر : وكان أشد اخلاصاً لعباس حلمي الذي اسماه وأغنـاه . ويروى ان شوقي كان راكباً حماراً فلمح الخديوي مطلاً من شرفة قصره فترجل ، فطلبه الخديو وتظاهر بتوبيخه قائلاً له : ألا يحق لي ان أطلّ من شرفة قصري بملء الحرية ؟

فأجابه شوقي : وهكذا أدّبنا السلف : واذا المطيّ بنا بلغن محمدا .

وبعد ان أنال خديو مصر شوقي لقب شاعر الأمير ،جافاه مرة،فأنشد شوقي:

أليس من العز المؤثل ان يرى ... أمير القوافي في فنائك جاثيا

فلولا هوى العرش الذي أنت ربه ... لما أنزلتني حالة من مكانيا

وكان شوقي واقفاً في حفلة وحرارة الشمس شديدة ، فناوله مولاه عبـاس مظلته فارتجل :

مولاي عباس اهداني مظلتـه ... يظلل الله عباساً ويرعـاه

ما لي وللشمس اخشاها وارهبها ... من كان في ظله فالشمس تخشاه

هكذا ترعرع شوقي، وهكذا نشأ في قصور الامراء، فاصبح أميراً ثانياً في قصر كرمة ابن هانيء، يلجأ اليه ذوو الحاجات مهما سموا، ثم جلس على عرش الأدب الخالد، بينا عرش مولاه عباس تزعزع، وصار أميره شريداً طريداً.

اخلاقه: كان شوقي حيياً جداً، حتى انه لم يجرؤ على صعود منبر لفرط حيائه، فكان ينشد قصائده سواه، وكنت تكاد لا تسمع حديثه اذا تكلم.

وكان جواداً بفنه لم يكلف بنظم قصيدة لجمعية او معهد ورفض.

كان عفّ اللسان لم يهج ولم يذم، ومع شدة خوفه من النقد وبغضه لناقديه، كان يلاطفهم اذا اجتمع بهم، ويقول بعضهم انه كان يحرّش النـــاس بهم ويقيم القيامة عليهم. وتمثلوا على ذلك بقول شوقي:

« ان الاراقم لا يطاق لقاؤها   وتنال من خلفٍ باطراف اليد

كان يوصي ولده دائماً ان يكون لطيفاً مع الجميع ويحسن ما قدر.

قوميته: لم يقم في شعراء العصر الحاضر شاعر قومي مثل شوقي، بل لم يشبهه شاعر في رثاء المجد الضائع الا ابا البقاء الرندي باكي مجد الاندلس.

سياسته: لم تكن له وجهة سياسية خاصة، وسياسة شوقي تتجلى بقوله:

اذا الفتنة اضطرمت في البلاد   ورُمت النجاة فكن إمّعـه

فاسمعه يمدح الانكليز:

أو ما ترون الارض خرّب نصفها   وديار مصر لا تزال جنـــانا
يرعى كرامتها ويمنع حوضها   جيش يعـــاف البغي والعدوانا

واسمعه يذمهم:

اليوم اخلفت العهود حكومة   كنا نظن عهودها الانجيـــلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه   مصرا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها ودكت ركنهـا   واضـاعت استقلالهـــا المأمولا

وقوله :

أمن سرق الخليفة وهي حي   يعف عن الملوك مكفّنينا

ارستقراطيته : كان شوقي شاعر الأمير ، لا يتكلم الا بالمناسبات الرسمية وغيرها من المواقف الرسمية السياسية ، وكان يهتم لما يقول وخصوصاً في الشؤون السياسية المصرية والاسلامية فيعتبرونه معبراً عن فكر أميره ، وهذا الموقف « الرسمي» اسر شاعرية شوقي وابعده عن الشعب ، ولولا سقوط العرش، وبعده عن القصر ، لما قال ما قال من الشعر الخالد ، فشوقي مدين لعباس بأمرين : مدين لعرشه ومدين لسقوطه . وقد أصاب شوقياً وحافظاً ما أصاب جريراً والفرزدق فانهما ماتا بعام واحد .

اطواره : كان لا ينظم الا أهم أبيات القصيدة بعد نصف الليل ، ثم يتمها في الغد أو ما يليه ، وكان مولعاً بالسينما يشهدها دائماً ، وهو كابن المعتز في حب الطيوب ، وكان يكره ان يتصور . كان محباً للموسيقيين ، فاتصل أول عهده بعبد الحي حلمي وعبده الحمدلي ثم بعبد الوهاب في آخر حياته ، وهو الذي أدناه من الملوك والأمراء ، كما ان عبد الوهاب كان بوقاً صارخاً يسمع الاقطار العربية صوت شوقي ، وكان عبد الوهاب منه كمعبد والغريض من ابن أبي ربيعه .

شأنه : كانت اشارة شوقي حكماً في عهد عباس ، وطاعته عند اكثر الحكام من بعض المغانم ، وعظم شأنه حتى في الاستانة، فكان في كل صيف يسافر اليها فيلقى فيها اجلالاً وتكرمة . وقد نزل في ضيافة عبد الحميد صيف إحدى السنين، فانعم السلطان عليه بالرتبة الاولى وأوسمة عديدة ، وكانت حفلة تكريمه سنة ١٩٢٧ برعاية الملك فؤاد . وحفلة تأبينه كانت ملكية ايضاً قامت بها وزارة المعارف .

ولهذا ترى الترف شائعاً في شعر شوقي ، فهو في هذا كابن المعتز ، وصاحبه حافظ كابن الرومي .

شاعريته : خلق شوقي شاعراً فقال الشعر صبياً واطلقته قريحته الخصبة

سامي المعاني ، فخم الالفاظ ، متلاحم الديباجة مصقولها ، منتقى الالفاظ ، وله في التعبير جولات بعيدة .

كان الشعر في الفترة الأخيرة ضعيفاً ركيكا مسفاً لا أثر للعاطفة فيه ، يقال في اغراض الاقدمين ، فكأن الشاعر يتكلم بلسان غير لسانه .

وكان من حسن حظ شوقي ان تقدمه شاعران هما : البارودي واسمعيل صبري. فهذان رفعا مستوى الشعر ونهجا به نهجاً جديداً فحذا ، شوقي حذوهما ونهج نهجهما في تجديد الشعر لفظاً ومعنى وصياغة وغرضاً ، وبعداً عن الصناعة اللفظية (البديع) ، حتى كان في بادىء امره يعرض كل قصيدة على اسمعيل صبري ، كما كان يفعل الشعراء في العصور القديمة .

وكان شوقي مكباً على المطالعة بوجه عام ، يقرأ كتب الأدب بوجه خاص ، ودواوين الشعراء على وجه اخص ، نخص منهم : ابا نواس -الذي اسمى بيته باسمه - وابا تمام والبحتري والمتنبي ، فظهر أثر هؤلاء الاربعة في شعره ، ففيه حلاوة أبي نواس ودقة وصفه وغزله ، ووصف الخمر ومجالس اللهو الا العبث ، وفيه عناية ابي تمام بالمعاني الرفيعة وتعمدها مها كلفه الأمر ، وفيه طلاوة البحتري واحكام نسجه وبراعة نظمه . اما أثر المتنبي ففيما ترى من حكمة ومعان ومثل . وبكلمة ، ان المتنبي كان هدف شوقي الذي يرمي اليه في شاعريته ويقلده في كل شيء ، خلقاً ونظماً وانفة وادعاء وطعناً في الحساد .

ولا يعني هذا ان شوقي شاعر لا شخصية له ، بل نعني انه متأثر بمن ذكرنا من الشعراء كل التأثر ، وقد تكوّن من كل هذه العناصر شاعر هو شوقي كما يتولد من عدة عناصر كيائية عنصر آخر ليس هو تلك العناصر وان نشأ عنها . والدليل على ذلك اننا اذا عرضنا على خبير باساليب الكلام شعراً لشوقي لا يتردد في ان ينسبه اليه .

ومن العناصر التي عملت عملها في شعر شوقي حذقه اللغة الافرنسية ، فقد اخذ منها معاني كثيرة ، ولكنه ابرزها بصورة عربية خالصة فتنكرت كل التنكر .

وللسياسة أثرها الظاهر في شعره ، فقد حذقها في قصر الامير وبرز فيها كما برز الاخطل في زمانه .

وللسياحات في الاقطار الغربية والشرقية عمل عظيم في فنــه واخصاب لقريحته ، فمثل هذه السياحات تذكي الالهام وتعين الشاعر وتمد قريحته ابدا مدد . ان الشاعر مصور للطبيعة ، وفي تغيّر مناظرها الهام جديد وتشويق واغراء .

فشوقي يعد بحق من اعظم شعراء العالم العربي كله . لقــد تصرف في كل فن وجال في كل غرض ومطلب ، وعارض متقدمي الشعراء ومتأخريهم ، وسنتكلم عن هذا في بابه . قال الشعر نصف جيل ، كان في أول عهــده اقليمياً ، ثم صار لسان كل الاقطار العربية ، يشاركها في كل ما تشعر به ، كما سيأتي ايضاً .

ومن خصائص شوقي انك تراه يمدح ويرثي أو يقول في غير هذين الفنين ، بيد أنه ينحرف دائماً الى سرد حكمة أو ضرب مثل ، وتلــك سجية الشاعر الاكبر المتنبي .

وشوقي طويل النفس كابن الرومي ،حتى ليبلغ بالقصيدة المئة ، او يزيد ،دون اسفاف ، وهذا يدل على انه كان كثير التهذيب ولا ينظم بفترة واحدة .

وقصيدته « همت الفلك » ٢٩٠ بيتاً ، وكلها من جيّد الشعر ، وله قصيدة على الباء في حرب الترك واليونان طويلة كهذه .

له مقطوعات شعرية يتغنى بها ، وله أبيات كثيرة سائرة يستشهد كثير من الكتّاب بها حتى فتنت هذه الظاهرة شاعرنا ، على فتونه ، فقال :

رواة قصائدي فاعجب لشعر   بكل محــلة يرويه خلق

تآليفه : ديوانه يقع في أربعة اجزاء ، طبع منه اثنان ، وله غيره في الشعر « عظماء الاسلام » ، وقصائد سهلة للاطفال ، وله في النثر كتاب اسواق الذهب قلد فيه الزمخشري .

رواياته : علي بك الكبير ، وكليوبترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة ، كلها شعرية .

وله روايات نثرية ، منها : لادياس ، ورقة الآس ، مذكرات بنتاؤر ، اميرة

الأندلس . من هذا تعلم خصب الرجل وجده ، رحمه الله .

اثرته : كان لمولده ونشأته اليد الطولى في اخلاقه ، فنشأ عزيزاً محباً للنفس مترفاً منعماً ، حتى كان يخيل اليه ان كل شيء مسخر له ، وانه خلق لينعم في الحياة ، والمحيط الذي تعلّم فيه – فرنسا – زاد في هذا الخلق ، ولم يعلمه شيئاً من ديمقراطية الفرنسيس ، فهو منذ نشأ ترافقه النعم ، فقد كان ينعم حتى في المدرسة ، ولم يفكر في الغد ، ولمَ التفكير والمنصب واللقب والثروة والشرف في انتظاره ؟

التجديد : حاول شوقي في مطلع فنه ان يكون مبتكراً مجدداً ، وصرح بذلك وتمدّح به ، بيد انه لم يأت بشيء من هذا ، بل بالعكس ، فانه إبّان نضجه كان مثله الاعلى تقليد الأقدمين او معارضتهم – سم ذلك ما شئت – .

إن شاعراً كشوقي تيسر له ما لم يتيسر لسواه ، كان في استطاعته ان يكون رسول التجديد والتطور في الأدب العربي ، ولكن الأحوال السائدة التي كان خاضعاً لها سدت عليه الطريق ، فقد كان يجدد بتحفظ ويثور بمداورة ، فهو لا يريد ان يغضب احداً ، وذاك كان شأنه مع الاحزاب المصرية . ولا غرابة في ذلك ، فمن عاش في قصور الامراء ، هكذا يجب ان يكون ليحفظ نفسه .

التقليد : حاول شوقي ان يجدد ، كما قلنا ، فلم يفلح ، وظل في طريقه تلك حتى اذا كانت الفترة الاخيرة من عمره كانت كل قصائده مطبوعة على غرار القدماء بلا تحفظ ، فلا تكاد تقرأ قصيدته حتى تتراءى لك القصيدة التي احتذاها أو عارضها .

فشوقي اشبه بطائر يستطيع محاكاة كل الطيور ، وهو يقول عن نفسه :

وتر في اللهاة ما للمغني من يد في صفائه او ليانه

ويرى طه حسين ان شوقي لو قرأ الالياذة والاوديسا وفهمها حق فهم ، وتحرر من قيوده لانشأ شعراً عربياً قصصياً ، وكذلك لو قرأ تمثيل اليونان والمحدثين في الغرب في شبابه ، لاعطى اللغة العربية فناً تمثيلياً له قيمته الصحيحة ، وكذلك قل عن الشعر العصري الاوروبي .

ويقول أيضاً ان معارفه بهذه الآداب العليا كانت ضئيلة على نحو مـــا يتعلم الذين يكتفون بدوائر المعارف أو ما يكتب للتلامذة في الكتب المدرسية .

المدح : من يقرأ ديوان شوقي القديم ، يرى في مقدمته ان شوقي يكره المديح وينكره على المتقدمين ، وتمنى لو خـــلا الادب العربي منه ولو لم يكن غرض الشعراء في الازمنة الخاليــة . ولكن سرعان ما رأينـا شعره يعج بالمديح ، كيف لا وهو يريـــد ان يكون شاعر الامير تشبهاً بالمتنبي واميره ، وقــد رأيناه بعد ذلك يترسم خطى الشاعر العظيم خطوة خطوة حتى في الفخر في موقف الرثاء ، الا انه يظهر لي انه كان راغباً عن شعر المناسبات ، فلا يشير اليها بقصائده الا بابيات ، أمـا ما بقي من القصيدة فينزع فيه الى شؤون خاصة اهمها الحكمة التي كانت وجهته .

التأثير الاجنبي : كان يحسن التركية ويتقن الافرنسية ، وقد طالع كثيراً وهضم ما طالعه وتمثله ، من ادب افرنسي وتركي وعربي ، عرف اخلاق العرب من انكبابه على ادبهم وتاريخهم . فكان ذا ثروة أدبية وافرة . عاشر الاتراك في حياته واشتد اتصاله بهم فقوي العنصر التركي فيه .

أما الأدب الافرنسي فكان متصلاً بشعرائه وأدبائه مطالعة ، ولكن بالذين يعرفهم كل المتأدبين مثل لامرتين وهوغو ولافونتين وجيل سيمون . واما الذين اتوا بعدهم فلم نرَ لهم اي أثر في شعره ينم عن تعرفه اليهم . ولهذا كان تجديده بقدر ما كان عند اساتذته هؤلاء من تجديد؛ مع ان جديدهم كان قد صار قديماً في بلادهم . لا أظن ان شوقي كان يجهل ذلك الجديد ولكن انصرافــه الى السياسة كيفه ووضع التخوم لحدود تجديده ، فما تجاوزها في زمن استطاع فيه التجدد ، اما عندما اطلقت السياسة سراحه فلم يكن وقت تجديد .

الاسر والحرية : لا نعني المنفى ، بل شيئاً غير هذا ، صرف شوقي زهــاء ربـع قرن من عمره كان فيه شاعر مناسبات، ليس مناسبات طليقة بل مناسبات ذات برنامج لا يمكن الرجل ان يتعداه ، طائر غريد سجين في قفص مذهب ، يقول ما يجب ان يقال لا ما يجب ان يقول ، حتى سقط عرش مولاه ، فافلت

الطائر وانطلق في الافق البعيد يطرب ويشجي ويغرد وينوح .

وكان لأدبه من نفيه الى الاندلس حظ كبير ، فبكى المجد العربي الدارس الخالد بقصائد كان لها صدى في العالم العربي ، كلها شوق وحنين ونـدب وبكاء للمجد المفقود ، وكيف لا يبكي شاعر مفجوع بعرش اميره ؟

ثم عاد الى الوطن ،بعد الحرب العظمى فاذا مصر وطنه غيرها ،واذا العالم كله قد تبدل : نفوس تنزع الى الحرية المطلقة ، وألسن تتغنى بالاستقلال ، وشعب يُقتل في سبيل كل هذا ، وشاعر افلت من قيود السياسة الرسمية أرخى لقريحته العنان ، فشعر بما لم يشعر به من قبل ، شعر بنبضات قلب الشعب الذي كان يريده ألا ينبض عندما كان في ظل العرش ، فهاج شاعريته هذا الاحساس ،فكان لسان العرب والوطن يترجم عن أماني الامة المصرية والاقطار العربية كلها . لم تلم بالامة ملمة الا اهتزت لها عاطفة شوقي ، فكان ترجمانها شعراً رائقـاً مؤثراً يشكو ويشكر ، وفي هذا يقول : « كان شعري الغناء في فرح الشرق » .

رجلان : قال هيكل في مقدمته لديوان شوقي : تشعر حين مراجعتك اجزاء ديوانه كأنك أمام رجلين مختلفين لا صلة بين احدهما والآخر ، فان كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر الى أعلى سمواته ، وان كليهما مصري يبلغ حبه مصراً حد التقديس والعبادة ، أما فيما سوى هذا فاحد الرجلين غير الرجل الآخر ، احدهما مؤمن عامر الايمان ، مسلم يقدّس اخوّة المسلمين ويجعل من دولة الخلافة حرماً يفيض منه الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة قوام الحياة ، محافظ يرى العربية تسع كل صورة ومعنى وخيال . والآخر رجل دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها غاية الحياة ، متسامح تسع نفسه الدنيا ، ساخر من الناس وأمانيهم ، مجـدد في اللغة لفظاً ومعنى ، وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي في شبابه واليوم ، وان كان لتأثره بالقديم الغلبة اليوم .

وترى في شعر شوقي صورتين من صور الحياة ، تستقل كل واحدة منهما عن الأخرى كأنما صاحبها غيره ، فأذا قرأت : « رمضان ولى هاتهـــا يا ساقي » ، تشعر انك بحضرة شاعر مغرم بالحياة ، ولذاتها .

وإذا قرأت : « ريم على القاع بين البان والعلم » ، و « ولد الهدى فالكائنات ضياء » ، تشعر انك في حضرة شيخ متهجد حتى الوسوسة يفيض قلبه ايماناً ويقيناً ، والغريب انه في الحالتين غير متكلف ولا متصنع .

فالحالة الاولى وليدة الشباب ، وما يتقد فيه من عواطف أذكتها الحضارة الاوروبية بمشوقاتها ومهيجاتها ، والصورة الثانية اردها الى النشأة والتربية الاوليين ، فان اختفى اثرهما وتغلبت عليها عاطفة الشباب ، فلا بدّ ان تظهرا في الكهولة ، وفي شوقي روح قومية تجعله يقدس كل ما يرى فيه جامعة لتلك القومية .

فشوقي يمثل مصر فالمسلمين فالعرب فالشرق ، فاذا تصفحت شعره تراه يفيض بهذه الروح فيضاً ، ويؤثر مصر في كل شيء ما خلا الدين ، فبينا نسمعه يتغنى بمجد الفراعنة وعظمة دولتهم تراه يخاطب الفرعون الاكبر قائلاً :

فؤاد اجل بالدستور دنيا   واشرف منك بالاسلام دينا

اسلاميته : الى جانب عاطفة شوقي الوطنية ، عاطفة اشد اتقاداً تلك هي العاطفة الإسلامية ، فلهذه العاطفة قبلتان ، الاولى صوب مكة حيث نشأ السلف الصالح ، والثانية صوب الاستانة ، وهكذا كان شوقي يستمد وحياً كثيراً من العرب ومكة والقرآن والإسلام والرسول والارث المفقود . وفي كل ما قاله من الشعر في هذه الاغراض يتجلى الايمان الحي ، بيد ان شعوره كان أشد وأقوى عندما يتكلم عن الترك والخليفة ، ولعل في ذلك قوة دم الجنس ، أو لان تأثير الترك في سياسة القصر كان أشد ، وشوقي ولوع بها الى حد بعيد ، وهو لسان اميره .

الحكمة : أحب شوقي الحكمة في شعره ، ولا غرو ، فأبو الطيب كان مثله الاعلى ، فهو يميل الى الحكمة العامة أشد ميل ، فقلما ترى عنوان قصيدة إلا وتجد قليلاً منها يدخل في العنوان ، وما بقي فحكمة وغزل ووصف ، وفي هذا ترى شوقي شرقياً عربياً غير متأثر بالحياة الغربية إلّا قليلاً .

لغته : ترى شوقي يغلو في شرقيته وعربيته ، فيتعمد ذلك في لفظه ومعناه ،

وقد مال إلى احياء الفاظ قديمة ، ففعل وأحيا كثيراً منها وبعثها من مراقدها ، فكأنه يرى ذلك شيئاً من التجديد ، وقد تابعه في استعمالها كثيرون من شعراء عصره ، وله تعابير خاصة به احسن استعمالها ووضعها ، فصاهر بين ألفاظ عديدة وحسن اقترانها ، فزادت شعره رونقاً وروعة .

وغلو شوقي في عربيته وشرقيته اوضح في جانب اللغة منه في جانب المعاني ، فمعانيه فيها من أدب الغرب كل ما يسيغه الطبع الشرقي والحضارة الشرقية ، ودليلنا على ذلك الالفاظ التي نفخ فيها روحاً جديدة فأحياها ، فوصل بها المدنية الدارسة بالمدنية المنبعثة الحديثة . ومن اقدس واجبات الخلف المحافظة على ميراث السلف ، وهذا أشد ما تحتاج اليه اللغة العربية ، فعسى ان يقوم فينا كثيرون مثل هذا الشاعر ، وما أشبه هذا بعمل الأثري الذي يحيي ميت الفن بعد عشرات الأجيال ، ويدل على مواضع الحسن فيه بعد ان ينفض عنه غبار الدهور ويحببه الى الناس الذين قد يمرون به ولا يشعرون بما فيه من روعة وحسن .

تطوره : قال الرافعي يصف تطور شوقي: « يكبر شعره كلما كبر الزمن، فلم يتخلف عن دهره ولم يقع دون ابعد غاياته، وكأنه مع الدهر على سياق واحد وكأن شعره تاريخاً من الكلام يتطور اطواره من النمو ، فلم يجمد ولم يرتكس ، وبقي خيال صاحبه الى آخر عمره في تدبير السماء كمرّاض الغمامة ، سحابه كثير البرق ، ممتلىء ممطر ، ينصب من ناحية ويمتلىء من ناحية .

«الناس يكتب عليهم الشباب فالكهولة فالهرم،ولكن الاديب الحق يكتب عليه شباب فكهولة فشباب ، اذ كانت في قلبه الغايات الحية الشاعرة ما تنفك يلد بعضها بعضاً الى ما لا انقطاع له ، فانها ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبه ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب » .

شعره السياسي : باحمد شوقي آلت زعامة الشعر لمصر في هذا العصر ، ولم تكن فيما سلف من العصور ذات شأن نابه — اذا استثنينا عصر البهاء زهير الذي لا يعد من امراء الكلام .

اما شعر شوقي فانساق مع الزمن والحوادث – واعظم العصور انقـــلابات كان هو عصر شوقي – فمن خلافة تركية اسلامية ، إلى وطنيــــة مصرية ، إلى نزعة فرعونية ، إلى جامعة اسلامية ، فكان هذا مادة خياله وغذاء نبوغـــه وسبب مجده الشعري، اعانه على ذلك انصرافه للشعر ٤٤ سنة متصلة غير منقطعة لا يشوبها بلبال ، رزق وجاه ، يحل ويرتحل ، اين شاء ومتى شاء .

المبالغة : في شعر شوقي كثير من المبالغة اكتسبها من عنصره التركي الفارسي – ان صح النسب .

الاضافات : لشوقي اضافات غريبة املاها عليه عنصره التركي ايضاً ، مثـل قوله : عيسى الشمور ، عمرو الامور .

الاعلام : يكرر كثيراً من الاسماء المقدسة والاعلام التاريخية مثـل عيسى وموسى ويوشع وخالد وبدر وسينا وجبريل وحاتم وكعب الخ . تراها مقحمة إقحاماً .

التكرار : اكثر من تكرار بعض المعاني ، مثل بيته في الاخلاق ، فقد ورد ذكره بمعناه اكثر من عشر مرات ، وكذلك غيره من المعاني ، كما يراها المدقق في شعره .

الوصف : اقوى ناحية في شعره، ولكنه لشدة تأثره بالمتقدمين يصف حرب اليوم وجنودها بما كان يصفهم به شعراء العرب دون مراعاة للزمان والمكان والعتاد والاختراعات الحديثة .

الاجتماع : لم يتعرض شوقي في شدة لمسألة اجتماعية مختلف عليها ، فهو يساير القديم ويلاطف الجديد دون ان يتعرض لما بينهما من خلاف – وهـــذا خلقه السياسي كما تقدم – فما رأيناه بحث تقليداً او قضية اشتد الخلاف حولها وحاول المجددون هدمها ، فكأنه لم يحس ما قام حوله من الثورات الاجتماعية ، والنزاع بين القديم والجديد في مصر ، الا انه قال شيئاً في موضوع المرأة لكن دون ان يجرح الحجابيين اذ عمد لسرد واقعة تاريخية لا يستطيع انكارها المحافظون ، كما انه لم يتعرض للحجاب ، قال :

هــذا رسول الله لم ينقص حقوق الامهات
العلم كان شريعة لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسياسة والشؤون الاخريات

ديباجته : بحترية اندلسية ، الفاظ منتقاة لا تنافر بينها ، رنة موسيقية تطرب لها ، فكأن الجيد من شعره موقع ايقاعاً ، فاز كثيراً بالمعنى الجيد وأداه في اللفظ الرشيق .

خياله : غني بصوره الرائعة ، له في قصائده المشهورة جولات يحلق بها تحليقاً ثم يعود إلى مستواه ولا يسف . ان هذه الوثبات تميز الشاعر عن الشاعر ، فالعادي يقوله كل انسان .

شاعر جامع : نظم شوقي في كل اغراض الشعر وأجاد فيها ، ولا نخطىء اذا قلنا انه تعمد بعضها تعمداً ليقول فيها ، وزاد على من تقدموه الشعر التمثيلي . لا نعني ان الشعر التمثيلي لم يكن قبل شوقي او كان معدوماً ، بل نعني ان شوقي زاد فيه ورفعه الى مستوى عالٍ قرب به من الفن الروائي وان لم يدركه تماماً .

وكأنه كان يباري الشعراء الاقدمين فعارض مشاهيرهم ، ونظر إلى شعراء الغرب العظام فشاء ان يكون له ما لهم . ففي حكاياته الصغيرة اقتفى خطوات لافونتين ، وفي ديوانه الخاص : « عظماء الاسلام » نحا نحو هوغو في ديوانه اساطير الدهور ، وفي تفلته من قيود القافية نحا نحو هوغو أيضاً في « هرنني » ولكن بتحفظ وحذر ، فلم يغضب الناس كما أغضبهم هوغو .

وحيث يتعذر على شوقي المعنى الفريد النادر يلجأ الى تعبير جديد يغنيك به عنه . استغل التاريخ الاسلامي وحوادثه الخطيرة ، فكان كالبستاني الحاذق في استثمار الأرض الخصبة .

أما تمثيلياته فقد لخصنا رأينا فيها في كتابنا « الرؤوس » .

شعره التمثيلي: أراد شوقي أن يكون له شعر تمثيلي ككبار شعراء الغرب، فعمد إلى مواضيع تاريخية أراد أن يمثلها ، فجاء شعره غنائياً اكثر منه تمثيلياً ،

وهذا لا بد ان يكون ، فلغة التمثيل غير لغة الشعر ، واذا كان النثر العالي لا يؤدي المحاورة على حقها ، فكيف بالشعر وهو مقيد بوزن وقافية .

أراد ان يكون له ما كان لهوغو من روايات شعرية تمثيلية ، فجاء بهذه الروايات ، فغنى وأطرب وأثّر في النفوس اي تأثير ، أما إذا عرضنا لهذه الروايات فنياً ومحّصناها رأينا انه ينقصها شيء كثير من الفن الروائي .

لا نستطيع ان ندرس رواياته واحدة واحدة ، ولكننا نتكلم عنها جملة ، فغاية شوقي الشعر العالي في مواضيع مختلفة ، يتوسل اليه بالفن الروائي ، ولو عمد إلى هذا الفن ، كما يقول طه حسين ، في شبابه لجاء بشيء كثير .

ولسنا نرى شوقي في رواياته يتتبع الحوادث التاريخية بدقة ، أو يراعي وحدة الزمان والمكان ، كما هي في المسرح الفرنسي . بل نرى رواياته مجموعة حوادث ، وقد يستعير حادثة من التاريخ وينسبها لشخص آخر ، كما فعل في رواية مجنون ليلى ، إذ يجعل ابن عوف يمثّل دور الحسين ، في الشفاعة بعاشق ، ويستعير أيضاً عواطف هذا لذاك ويبالغ في تصوير العواطف وتكبير الفكر .

إن رواياته المسرحية تشبه بعضها بعضاً حوادث وافكاراً ، غنائية في جوهرها اكثر منها تمثيلية ، ينظر الى الشعر قبل الفن ، وهذه آفة الشعراء في الفن الروائي ، وهذا ما أصاب هوغو في رواياته . فشخصية الشاعر ظاهرة في كل مكان بلا انقطاع .

أفكار ونظريات تتفتق ، ونظريات وشخصيات تظهر على التعاقب ثم تختفي ، وشخص أو شخصان او ثلاثة تستقل بالرواية ، وبقية الاشخاص لحمة ليس أكثر .

صور بيانية تصح ان تكون بلسان من قالوها أو لا تصح ، فجاءت الروايات أشبه بسرد وقائع . فالروح الغنائية سائدة ، كأنما شوقي كان يؤلفها وهو يتخيل الأجواق تنشدها ، فيها قوة الاستنباط الكلامية ومقدرة فائقة في الالفاظ والتعبير ، وخيال شائق ومعانٍ رائعة .

المحادثة والمناجاة تطول كثيراً حتى تكاد توقف سير الرواية ، ولكن

بلاغتها تجعلها غير مملولة،فتسمع بطيبة خاطر كقطع منفصلة أو مختارات للحفظ ذات تأثير .

ان روايات شوقي ، على حداثة هذا الفن في الادب العربي ، ينظر اليها بعين الارتياح ، اما اذا قيست بالفن الغربي التمثيلي فينقصها من الفن شيء كثير ، فصاحبها لم يمثل لنا الا عصراً بعيداً عنا وعادات واخلاق تحتاج إلى درس ، وقد انطق اشخاص الامس بلغة اليوم ، وهذا بعيد عن الفن الروائي والتمثيلي .

ولكن الصناعة الشعرية تشفع بما فيها من العيوب وتكفل لها الحياة زمناً ، حتى يقوم عندنا من يبزّ شوقي ويفوقه .

شوقي والمتنبي : رثى شوقي امه بقصيدة عارض بها المتنبي في رثاء جدته .

شوقي :

وقرت سيوف الهند وارتكز القنا   واقلعت الكبرى واقشعت الغمى . .

المتنبي :

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى   يعود كما ابدى ويكرى كما اصمى

شوقي :

الى حيث آباء الفتى يذهب الفتى   سبيل يدين العالمون به قدما

شوقي :

لك الله من مطعونة بقنا النوى   شهيدة حرب لم تفارق لها اثما

المتنبي :

ولم يسلها الا المنايا وانما   اشد من السقم الذي اذهب السقما

شوقي :

است جرحها الانباء غير رفيقة   وكم نازعت سهماً فكان هو السهما

المتنبي :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد   لكان اباك الضخم كونك لي اما

شوقي :

لئن فات ما املته من مواكب   فدونك هذا الحشد والموكب الضخما

رأيت بـــه ذات التقى ونظمته   لعنصره الاذكى وجوهره الاسمى
اتيت به لم ينظم الشعر مثـــله   وجئت لاخلاق الرجال به نظما
ولو نهضت عنه السماء وخفضت   به الارض كان المزن والتبر والكرما

. . .

شوقي في وصف خيل الترك :

والصبر فيها وفي فرسانها خُلُقٌ   توارثوه أبا في الروح بعـــد أب
كما ولدتم على اعرافهـــا ولدت   في ساحة الحرب لا في ساحة الرحب

المتنبي :

اقبَلْتَهُا غرر الجيادِ كأنمـــا   ايدي بني عمران في جبهاتهـــا
الثابتـين فروسة كجلودهـــا   في ظهرها والطعن في لباتهـــا
فكأنها نتجت قياما تحتهـــم   وكانهم وُلدوا على صهواتهـــا

شوقي :

اذا هب حاميها على السفنِ   انثنتْ وغاتها الناجي فكيف الخيب

المتنبي :

اغر اعـــداؤه اذا سلموا   بالهرب استكبروا الذي فعلوا

شوقي :

خدعوهـــا بقولهم حسنـــاء   والغواني يغـــرهن الثنـــاء
مـــا تراها تناست اسمي لمـــا   كثرت في غرامهـــا الاسمـــاء
ان راتني تميـــل عـــني كأن لم   يـــك بيني وبينها اشيـــاء
نظرة فابتسامـــة فسلام   فكـــلامٌ فموعـــدٌ فلقـــاء

لبعضهم :

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا   فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

. . . .

شوقي :

لك نصفي وما عليك جدالي   آفة النصح ان يكون جدالا
آفة النصح ان يكون جـدالا   وأذى النصح ان يكون جهـارا

ابن الرومي :

وفي النصح خير من نصيح موادع   ولا خير فيه من نصيح مواثب

شوقي :

حوت الجمال فلو ذهبت تزيدها   في الوهم حسنا ما استطعت مزيدا

لبعضهم :

ذات حسن لو استزادت من   الحسن اليها لما اصابت مزيدا

شوقي :

يا دميـــة لا يستزاد جمالهــا   زيـــديه حسن المحسن المتبرع

ابن الرومي :

يا حسن الوجه لقد شنته   فاضمم الى حسنك احسانا

شوقي :

انا انطونيو وانطونيو انا   انا من مات ومن مات انا

لبعضهم :

انا من اهوى ومن أهوى انـــا   نحن روحـــان حللنا بدنا

منتخبات شوقي

لشوقي في رثاء ابيه وقد نحا فيه منحى شعراء الصوفية :

ليت شعري هل لنا ان نلتقي   مرة ام ذا افـتراق الملوين
انا من مات ومن مات انا   لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة في بدن   ثم صرنا مهجة في بـدنين
ثم عدنا مهجة في بدن   ثم نلقى جثة في كفنين
ثم نحيـا في عليّ بعدنا   وبها نبعث اولى البعثتين
ما ابي الا اخ فارقته   وده الصدق وود الناس مين
طالما قمنا الى مائدة   كانت الكسرة فيها كسرتين
وشربنا من اناء واحـد   وغسلنا بعد ذا فيه اليدين
وتمشينا يدي في يـده   من رآنا قال عنـا اخوين

المراجعة :

لم تصب بالخداع نجحا ولكن   خدعوهـا بقولهم حسناء
قوة الله ان تولت ضعيفا   تعبت في مراسه الاقوياء
كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم   ويذهب عنهم امرهم حين تذهب
وما السلاح لقـوم كل عدتهم   حتى يكونوا من الاخلاق في اهب
وليس بعامر البنيان قوم   اذا اخـلاقهم كانت خرابا
بنيت لهم من الاخلاق ركنا   فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
ولقديقام من السيوف وليس من   عثرات اخلاق الشعوب قيام

وانما الامم الاخلاق ما بقيت   وان همُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

الافتخار :

ان عصراً مولاي فيه المرجى   انا فيه القريض والشعراء
واني لطير النيل لا طير غيره   وما النيل الامن رياضك يحسب
اذاقلت شعرا فالقوافي جواضر   وبغداد بغداد ويثرب يثرب
ولو اني خطبت على جماد   فجرت به الينابيع العذابا
ملكت امير المؤمنين ابن هانيء   بفضل له الالباب ممتلكات
ومازلتُ حسّان المقام ولم تزل   تليني وتسري منك لي النفحات
ومن كان مثلي احمد الوقت لم تجُز   عليه ولو من مثلك الصدقات
اني انا المصباح لست بضائع   حتى اكون فراشة المصباح
لا ترومي غير شعري مركبا   ان شعري درجات الخالدين
كل حمـد لم أصِفه زائل   خالد الحمد بما صغت رهين

الدفاع عن المسلمين :

ظلموا شريعتك التي نلنا بها   ما لم ينل من رومة الفقهاء
هكـذا المسلمون والعرب   الخالون لا ما يقوله الاعداء
من سب دين محمد فمحمد   متمكن عند الاله رسولا
ولا ازيدك بالاسلام معرفة   كل المروءة في الاسلام والحسب

التعابير :

وتغشى (ابيّات المعاقل) والذرا   بين (الرفارف) والمشارف
فقلت (اشراط القيامة) ما ارى   تهزات دهرا (بديك الصباح)فنقر
راى (الفتنة الكبرى) فوالى انهاله   تجدوهم (كهف الحقوق) كهولا
اعدت (الراحة الكبرى) لمن تعبا   اخنى الحمام على (ابن همة نفسه)
اهين فيها(ضيوف الله)واضطهدوا،   وبـدا محياك الذي قسماته
هذا فضاء تلم الريح خاشعة   به ويمشي على الدهر محتشما

وبنو الوادي (رجالات) الحمى ، وصفا لي (ملاوة) من شباب
ولو اني دعيت لكنت ديني عليه اقابل (الختم الجمابا)

الرياضة :

هل من نداك على المدارس انها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا

قصائد عامة :

يا فاتح القدس خل السيف ناحية ليس الصليب حديداً كان بل خشبا
اذا نظرت الى أين انتهت يده وكيف جاوز في سلطانه الحقبا
علمت ان وراء الضعف مقدرة وان للحق لا للقوة الغلبا

في العمال :

قد دعاكم ذنب الهيئة داع فاصابا
هي طاووس وهل احسنه الا الذنابى

استغفار وادعاء :

ولا بت إلّا كابن مريم مشفقا على حسدي مستغفراً لعداتي
ولا حملت نفس هوى لبلادها كنفسي وفي فعلي وفي نفثاتي
واني ولا من عليـك بطاعة اجل واغلى في الفروض زكاتي
أبالغ فيها وهي عدل ورحمة ويتركها النساك في الخلوات
وانت ولي العفو فامح بناصع من الصفح ما سودت من صفحاتي

في الخلافة :

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بـين معالم الافراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الاصباح
يا للرجـال لحرة موؤودة قتلت بغير جريرة وجناح
ان الذين استجراحك حربهم قتلتك سلمهم بغير جراح

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتَى خزعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد براح
استغفر الاخلاق لست بجاحد من كنت ادفع دونه وألاحي
هو ركن مملكة وحائط دولة وقريع شهباء وكبش نطاح
أأقول من احيا الجماعة ملحد وأقول من رد الحقوق اباحي
أدوا الى الغازي النصيحة ينتصح ان الجواد يثوب بعد جماح
تركته كالشبح المؤله امة لم تسل بعد عبادة الأشباح
هم اطلقوا يده كقيصر فيهم حتى تناول كل غير مباح

. . . .

فلتسمعن بكل ارض داعيا يدعو الى الكذاب او لسجاح
ولتشهدن بكل ارض فتنة فيها يباع الدين بيع سماح
يفتى على ذهب المعز وسيفه وهوى النفوس وحقدها الملحاح

. . .

للورد كرومر :

ايامكم ام عهد اسماعيلا ام انت فرعون يسوس النيلا
ام حاكم في ارض مصر بأمره لا سائلاً ابداً ولا مسؤولا

. . . .

في ملعب للمضحكات مشيد مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن اصوله وتصدر الاعمى به تطفيلا
جبن اقل وحط من قدريهما والمرء ان يجبن يعش مرذولا
قد مد اسماعيل قبلك للورى ظل الحضارة في البلاد ظليلا
ان قيس في جود وفي سرف الى ما تنفقون اليوم عد بخيلا
او كان قد صرع المفتش مرة فلكم صرعت بدنشواي قتيلا

لا تذكر الكرباج في ايامه   من بعد ما انبت فيـــه ذيولا

. . . .

في المعلم :

قم للمعلم وفـــهِ التبجيلا   كاد المعلم ان يكون رسولا
اعلمت اشرف او اجل من الذي   يبني وينشىء انفساً وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم   علمت بالقلم القرون الاولى

. . . .

واذا اصيب القوم في اخلاقهم   فأقم عليهم مأتما وعويلا
وجد المساعدَ غيركم وحرمتم   في مصر عون الامهات جليلا
ليس اليتيم من انتهى ابواه من   هم الحياة وخلفاه ذليلا
ان اليتيم هو الذي تلقى له   امّا تخلت أو أبا مشغولا

. . . .

رثاء مكدونيا :

يا اخت اندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والاسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها   طويت فعم العالمين ظلام
ازرى به وأزاله عن اوجه   قدر يحط البدر وهو تمـــام
خلت القرون كليلة وتصرمت   دول الفتوح كانها احلام
مقدونيا والمسلمون عشيرة   كيف الخؤولة فيك والاعمام

. . . .

واليوم حكم الله في مقدونيا   لا نقض فيه لنا ولا ابرام
كانت من الغرب البقية فانقضت   فعلى بني عثمان فيه سلام
ومسيطرون على الممالك سخّرت   لهم الشعوب كانها أنعام

من كل جزار يروم الصدر في نادي الملوك وجدُّه غنام
سكّينه وحزامه ويمينه والصولجان جميعها آثام

. . . .

عيسى سبيلك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ هان الضعاف عليه والايتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام
انت الذي جعل العباد جميعهم رحما وباسمك تقطع الارحام
اتت القيامة في ولاية يوسف واليوم باسمك مرتين تقام
واليوم يهتف بالصليب عصائب هم للاله وروحه ظلام
خلطوا صليبك بالخناجر والمدى كلٌّ اداة للاذى وحمام

. . . .

لام عباس حلمي :

ارفعي الستر وحيي بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفي الهودج فينا ساعة نقتبس من نور ام المحسنين
بريء الرفق من السيف الذي منع الأم ملاقاة البنين
اقبلي في بحرك الطامي اذا عبث السيف بموج المحتفين
حرق الدهر يديه وانجلت محنة التبر عن العرق المتين
آب من قيمتك الدهر كما رجع النقد من الشمر الرصين

. . . .

توتنخامون :

قفي يا اخت يوشع خبرينا احاديث القرون الاولينا
وقصّي من مصارعهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا
نرى لك في السماء خضيب قرن ولا نحصي على الارض الطعينا
مشيت على الشباب شواظ نار ودرت على المشيب رحى طحونا

تعينـــين الموالد والمنايا وتبنين الحياة وتهدمينـــا
فيالـك هرة أكلت بنيها ومـا ولدوا وتنتظر الجنينا

. . . .

ولست بقائل ظلموا وجاروا على الاجراء أو جلدوا القطينا
فإنا لم نوق النقص حتى نطالب بالكمال الاولينا
وما البستيل الا بنت امس وكم أكل الحديد بها سجينا
وربة بيعة عزت وطالت بناها الناس امس مسخرينا

. . . .

الى اللورد كرنافون :

سكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا
يقول الناس في سر وجهر ومالك حيلة في المرجفينا
امن سرق الخليفة وهو حي يعف عن الملوك مكفنينا

في آجيا صوفيا

نموذج وعدنا به بمناسبة كلامنا عن الحروب الصليبية .

كنيسة صارت الى مسجد ... هديــــة السيد للسيد
كانت لعيسى حرما فانتهت ... بنصرة الروح إلى احمــــد
كانت بهـــا العذراء من فضة ... وكان روح الله من عسجد
عيسى من الام لدى هالة ... والام من عيسى لدى فرقـد
فمن ملاك في الدجى رائـح ... الى ملاك في الدجى مغتـــد
ومن نبات عاش كالببغـــا ... وهو على الحائط غض ندي

• • • •

وناب عما كان من زخرف ... جـــلالة المعبود في المعبد
فيا لثار بيننا بعـــده ... اقام لم يقرب ولم يبعـــد
باق كثأر القدس من قبله ... لا ننتهي منـــه ولا يبتدي
فلا يغرنك سكوت المـــلا ... فالشر حول الصارم المغمد
لن يـــترك الروم عباداتهم ... او ينزل الترك عن السؤدد
فان يعادوا في مفاتيحـــه ... فيا ليـــوم في الورى اسود
يشيب منه الطفل في مهـــده ... ويزعج الميت في المرقـــد
فكن لنـــا اللهم في امسنا ... وكن لنا اليوم وكن في الغد
لولا ضـــلال سابق لم يقم ... من اجلك الخلق ولم يقعـــد

الاندلسية :

اختلاف النهار والليل ينسي ... فاذكرا لي الصبا وايام انسي

وسلا مصر هل سلا القلب عنها ... او اسا جرحه الزمان المؤسي

كلما مرت الليالي عنـــه ... رق والعهد في الليالي تقسي

راهب في الضلوع للسفن فطن ... كلمـــا ثرن شاعهن بنقس

يا ابنة اليم مـــا ابوك بخيل ... ما له مولعـــاً بمنع وحبس

احرام على بلابـــله الدوح ... حـــلال للطير من كل جنس

وطني لو شغلت بالخلد عنـــه ... نازعتني اليه بالخـــلد نفسي

شهد الله لم يغب عن جفوني ... شخصه ساعة ولم يخل حسي

يا فؤادي لكل امرٍ قرار ... فيه يبدو وينجلي بعد لبس

ومواقيت للامور اذا مـــا ... بلغتها الامور صارت لعكس

دول كالرجـــال مرتهنات ... بقيام من الجـــدود ونحس

. . . .

وعظ البحتري ايوانُ كسرى ... وشفتني القصور من عبد شمس

فتجلت لي القصور ومن فيها ... من العز في منـــازل قعس

واذا الدار ما بها من انيس ... واذا القوم ما لهم من محس

ورقيـــق من البيوت عتيق ... جاوز الالف غير مذموم حرس

مرمر تسبح النواظر فيـــه ... ويطول المدى عليها فترسي

وسوار كانهـــا في استواء ... الفات الوزير في عرض طرس

ويحهـــا كم تزينت لعلـــيم ... واحد الدهر واستعدت لخمس

وكأن الرفيف في مسرح العين ... مـــلأ مدنرات الدمقس

وكأن الايات في جـــانبيه ... يتنزلن من معـــارج قدس

ومكان الكتاب يغريك ريا ... وَردِهِ غائبـــاً فتدنو للمس

من لحمراء جُلّلت بغبار الدهر ... كالجرح بـــين برءٍ ونكس

وقبـــاب من لازورد وتـــبر ... كالربى الشم بين ظل وشمس

وترى مجلس السباع خــلاء   مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جواري الثريا   يتنزلن فيــه اقمار انس
مرمر قامت الاسود عليـه   كله الظفر لينــات المجس
تنثر المـاء في الحياض جمانا   يتــنزى على ترائب ملس

• • • •

في اسوان :

ايهـا المنتحي باسوان دارا   كالثريا تريد ان تنقضا
قف بتلك القصور في اليم غرقى   ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى اخفين في الماء بضا   سابحات به وابدين بضـا
شاب من حولها الزمان وشابت   وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كانما نفض الصانـع   منه اليـدين بالامس نفضـا
ودهان كلامع الزيت مرّت   اعصر بالسراج والزيت وضّا
وضحايا تـكاد تمشي وترعى   لو اصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتهـا   عزمات من عزمة الجن امضى

الثورة السورية :

سلام من صبا بردى ارق   ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعــة والقوافي   جلال الرزء عن وصف يدق
دخلتك والاصيل له ائتلاق   ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جنانك الانهار تجري   وملء رباك اوراق وورق
وحولي فتيـة غر صبـاح   لهم في الفضل غايات وسبق
غمزت اباءهم حـتى تلظت   انوف الاسد واضطرم المدق
وضـج من الشكيمة كل حر   ابي من اميــة فيه عتق

• • • •

وقيل معالم التاريخ دكت   وقيل اصابها تلف وحرق

ألست دمشق للاسلام ظئراً ومرضعة الابوة لا تُعق
سماؤك من حلى الماضي كتاب وارضك من حلى التاريخ رّق
بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام اعلام وعرس بشائره باندلس تدق

. . . .

بليل للقذائف والمنايا وراء سمائه خطف وصعق
اذا عصف الحديد احمرّ افق على جنباته واسودّ افق
سلي من راع غيدك بعد وهن ابين فؤاده والصخر فرق
وللمستعمرين وان ألانوا قلوب كالحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورمى فرنسا اخو حرب به صلف وحمق
اذا ما جاءه طلاب حق يقول عصابة خرجوا وشقوا
دم الثوار تعرفه فرنسا وتعلم انه نور وحق

. . . .

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق
وقفتم بين موت أو حياة فان رمتم نعيم الأرض فاشقوا
وللاوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرّجة تدق

. . . .

وما كان الدروز قبيل شر وان اخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل اشم له شعاب موارد في السحاب الجون بلق
كأن من السموأل فيه شيئاً فكل جهاته شرف وخلق

دمشق :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا   مشت على الرسم احداث واحزان
هذا الأديم كتاب لا كفاء له   رث الصحائف باق منه عنوان

• • • •

بالأمس قمت على الزهراء اندبهم   واليوم دمعي على الفيحاء هتان
لولا دمشق لما كانت طليطلة   ولا زهت ببني العباس بغدان
مررت بالمسجد المحزون أسأله   هل في المصلى ام المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت   على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته   إذا تعالى ولا الآذان آذان

لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم   يرسم بأزين منهما ملكوته
ملك الهضاب الشم سلطانُ الربى   هامُ السحاب عروشه وتخوتهُ
سيناء شاطره الجلال فلا يرى   الا له سبحاته ومروته
جبل على آذار يزري صيفه   وشتاؤه ينسد القرى جبروته
وكأن أيام الشباب ربوعه   وكأن احلام الكعاب بيوته
وكأن اثداء النواهد تينه   وكأن اقراط الولائد توته
وكأن همس القاع في اذن الصفا   صوت العتاب ظهوره وخفوته

زحله :

شيعت احلامي بطرف باك   ولمت من طرق الملاح شباكي
ورجعت ادراج الشباب ووردة   امشي مكانهما على الاشواك
وبجانبي واهٍ كأن خفوقه   لما تلفت جهشة المتباكي
قد راعه اني طويت حبائلي   من بعد طول تناول وفكاك
لم تبق منا يا فؤاد بقية   لفتوة او فضلة لعراك
كنا اذا صفّقت نستبق الهوى   ونشدّ شدّ العصبة الفتاك

واليوم تبعث في حين تهزني ما يبعث الناقوس في النساك

يا جارة الوادي الخ ...

قسما لو انتمت الجداول والربى لتهلل الفردوس ثم نماك

تلك الكروم بقية من بابل هيهات ينسى البابليُ جناك

لم انس من هبة الزمان عشية سلفت بظلك وانقضت بذراك

كنت العروس على منصة جنحها لبنان في الوشي الكريم جلاك

ضمت ذراعيها الطبيعة رقـة صنين والحرمون فاحتضناك

ان تكرمي يا زحل شعري انني انكرت كل قصيدة إلاك

انت البيان بديعه وغريبـه الله صاغك والزمان رواك

قبر العظمة :

ساذكر ما حييت جدار قبر بظاهر جلق ركب الرمالا

سراج الحق في تيج الصحارى تهاب العاصفات له ذبالا

إذا مرت الاجيـال تترى سمعت لها ازيزا وابتهالا

تعلق في ضمـائرهم صليبا وحلق في سرائرهم هلالا

الحرية الحمراء :

في مهرجان الحق او يوم الدم مهج من الشهداء لم تتكلم

يبدو على هاتورَ نورُ دمائها كدم الحسين على هلال محرم

لا بـد للحرية الحمراء من سلوى ترقـد جرحها كالبلسم

وتبسم يعلو اسرّتها كما يعلو فم الثكلى وثغر الأيّم

يوم البطولة لو شهدتَ نهاره لنظمت للأجيال ما لم ينظم

لولا عوادي النفي أو عقباته والنفي حال من عذاب جهنم

لجمعت ألوان الحوادث صورة مثّلت فيها صورة المستلم

صورة :

رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم عن جيرانه

بعثتني معزيـــاً بمآقي وطني أو مهنئــاً بلسانه
كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله ان يؤلفنا الجرح وان نلتقي على اشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جرح جنبه في معانه
وعلينــا كما عليـكم حديـد تتنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء كلنـا مشفق على أوطـانه
وتر في اللهات ما للمغني من يد في صفائه أو ليانه

حنين :

والنيل يقبل كالدنيا اذا احتفلت لو كان فيها وفاء للمصافينا
اعداه من يمنه التابوت وارتسمت على جوانبـه الانوار من سينـا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيـد التشتيت غالينـا
ولا يحولُ لنا صبغ ولا خلق إذا تـلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تؤلّه على حافاتـه ورأت عليه أبناءهـا الغرّ الميامينا

تحليل النص ونقده

ماذا يجب علينا ان نفعل ؟

اولاً : الاشارة إلى المكان الذي اخذت منه القطعة — اذا امكن — وبعد قراءة العنوان يشار باختصار إلى المقام الذي تشغله القطعة من الكتاب .

ان التلميذ لا يستطيع دائماً هذا التعيين ولا يجب دائماً ان يسأل عنه الا حيث يمكنه ذلك ، كتعيين مشهد من رواية او قطعة مشهورة ، فالمهم تعويده هذا النهج . وهذه المسألة مسألة تدريب عقلي ليس إلا . فليُنَمِّ الاستاذ في تلميذه محبة الجد في طلب القطعة ، ليبذل التلميذ جهده حتى يعرف مكانها ، وليطرح عليه استاذه السؤالات مستعيناً باختباراته الشخصية ليضطره إلى الرجوع إلى كتاب آداب اللغة ومعاجمها ، بل إلى الكتاب كاملاً اذا كان لديه هذا الكتاب .

ليس على التلميذ ان يعرف الكاتب فقط وكتاباته ، بل عليه ايضاً معرفة المحيط الذي نشأ فيه حتى كتب ما كتب . وتفسيره هذا هو :

١ً — هل اوحى اليه الموضوع داعٍ من دواعي حياته الخاصة او السياسية ؟

٢ً — هل اوحاه حادث تاريخي قبله او معاصر له ؟

٣ً — هل دفعته إلى الكتابة مطالعته التي اثرت به ؟ وهل وهل ؟ الخ ...

وهكذا تنمو في الطالب معرفة المقابلة والتاريخ . ويجب تجنب ايقاعه في الاعجاب المفرط بشيء من القطع ظاهرها أدبي ، فيتوغل في انتقادها كثيراً ويحسبها شيئاً مهماً في حين انها تتضاءل فجأة عندما ترجع لتاريخ او حدث .

اننا لا نريد ان نجعل من تلاميذنا متصنعين ومدعين ، ولكن نريد ان نجعل فيهم عقولاً صحيحة . علينا ان نقنعهم ان الانتقاد الصحيح يرتكز على قاعـدة كالقاعدة الحسابية التي لا يختلف فيها اثنان .

ثانياً : قراءة القطعة – قد يقرأ تلميذ واحد القطعة المعدة للشرح واحياناً توزع على الطلبة . فاذا كان التلميذ قد استعد عليها كتابة ، فعلى المعلم ان يتطلب منه قراءة تقرب من الكمال . نعني بهذا قراءة تتلون وتتنوع مع المعنى كأنها نوع من البحث الانتقادي . ولكننا لا نسلـّم بدفع التلامذة إلى الالقاء ، انمـــا يكفينا منهم اللفظ الصحيح المحكم جيداً ، واظهار نبرات الكلمات المهمة . فالصف غير مسرح التمثيل .

ثالثاً : الرسم – (مصور القطعة . خريطتها) يظهر لنا ان هذه النقطة هي اهم اجزاء التحليل ، فيجب ان نحمل التلاميذ على ان يسألوا انفسهم متى قرأوا شعراً او قطعة خيالية او قصة او رسالة الخ ... عن سياق الافكار والبراهين والاسباب وغير ذلك .

فكل كاتب له سياق خاص ورسم خاص . وما الانشاء الا نظـام افكار الكاتب وحركتها ، وعن هذا النظـام يجب ان نفتش لنجده . ان التحليل والتركيب ينمي الذكاء جداً . واننا بهدم صفحة واحدة من الشعر او من النثر وبنائها ندرك فائدة لا تقدر ، فبهذا التحليل نكون كمن يحل خيوط قطعـة منسوجة نسجاً محكماً فيفهم خصائص كل خيط منها . فعملنا هذا يؤدي بنا إلى فهم آلة دماغ او قلب ما كنا لنفهم اسرارها لولا تفكيكها قطعة قطعة .

ان هذا التمرين نافع جداً لتلونه ، فليس هناك نظرية واحدة تطبق على كل الكتـّاب ، فكل كاتب يريك شيئاً جديداً بل صعوبة جديدة في تحليله . فرسم الجاحظ او نظامه يظهر كالفوضى اذا قابلته بغيره من الكتاب ، ومـع ذلك فعدم نظامه هذا هو نظام خاص له .

ولو بحثنا كاتباً خيالياً يظهر لنـا انه لا يهتم للنظام والترتيب في سياق افكاره ، ثم نجد بعد البحث ان له نظاماً خاصاً ، اي نظام تأثراته وشواعره .

والقصد من ذلك تسلسل الافكار مجتمعة. والمناقشة وحدها في موضوع الترتيب تؤلف احياناً بحثاً كافياً .

رابعاً : البحث – بعد التمييز التاريخي ، والقراءة ، ودرس الرسم ، تراجع القطعة جملة جملة للبحث فيها . وهنا اختلاف الطرق في النوع والنظام والنسبة ، وكلها نقط تظهر لنا ذوق الاستاذ ، اي الذوق الشخصي ، ونوع الدراسة الذي ينم عن اخلاقه . فالمعلم الفلاني يهتم كثيراً للنحو ، والآخر بالبيان ، وغيره يتعمق بالعواطف والافكار والنظريات ، وغيره في درس الانشاء والفن، ولهذا نرى من المناسب ان يدرّس الصف الواحد عدة اساتذة ، ولتكن دروسهم كل سنة ذات صلة بدروسهم السابقة .

يختلف البحث باختلاف الاذواق، ولكن هناك اشياء لا بد من مراعاتها وهي:

١ – المنع المطلق لمراجعة المترادفات ، أي ان نفسر الجملة بجملة ركيكة أو ان نبدل لفظة بلفظة على حـــد قول الشاعر العربي : وفسّر الماء بعد الجهد بالماء .

فاذا أطلق للتلميذ العنان في تهيئة مترادفين أو ثلاثة تحل محل بعض كلمات القطعة فانه يعطيك نثراً كريهاً بدلاً مما يقرأه ، وهذا كل الشرح في عرفه . فمن المهم ملافاة هذا العيب منذ الابتداء ، وابسط الطرق لملافاته هي ان يسأل المعلم بنفسه السؤالات ، ويوقف التلميذ على الكلمات المحتاجة الى التفسير. فيسأل مثلاً: لماذا استعمل الشاعر أو الكاتب تلك الكلمة المجازية بدلا من الكلمة الحقيقية، في حين أنه كان في وسعه استعمالها ؟ الى غير ذلك من الاسئلة التي يراها مناسبة حتى يتعود التلميذ ان يتساءل ويفسر تفسيراً منتجاً ويشرح عوضاً من ان يعيد الكلمات عينها أو يأتي بما يكره سماعه من الانشاء .

٢ – هذه القاعدة تشتق من التي سبقتهـا . واننا نؤكد ان الأساس المهم للشرح هو البحث والمناقشة في تأدية التعبير للمعنى المقصود ، ويحسن ان نفسح للتلميذ في مجال البحث ، ولو بالغ فيه ، بشرط ان لا يتجاوز الحد . فبهذا نجعل التلميذ يزن قيمة الاسماء والنعوت والافعال والظروف ويقدرها حق قدرهـا

ونساعده على ايجاد القوة الاشتقاقية . وليبحث في نوع كتابة الكاتب وطبيعة القراء في عصره،وميول معاصريهالتي اضطرت الكاتب لارضائهم باتباع ما اتبع من الاساليب والافكار.وعلينا ان ندفع التلميذ ايضاً الى التمييز بين معاني الكلمات في العصر الذي استعملت فيه ومعانيها في العصر الحاضر .

٣ً – من جهة قواعد اللغة لا يجوز إلا بحث ما خرج عن الاستعمال المألوف ، هذا اذا لم تكن القطعة منتقاة خصيصاً للتمرين على قواعد اللغة .

٤ – في الإنشاء – يجب ان نهتم خصوصاً بتحليل الصور وبحثها ، ولا يجوز ان نعلم التلامذة لائحة (ليستة) بصور الافكار وصور الكلمات لنقيدهم بافكارنا ونظرياتنا ، بل ينبغي ان نحملهم على التفكير وخلق الصور التي يرونها بانفسهم عند الكاتب .

وعلى الاستاذ ان يعوّد التلاميذ ، وقت الشرح والتفسير ، على الانتباه الى الحركات المختلفة ، كالنداء والاستفهام العادي والانكاري ، وتكرار الالفاظ ، والتعجب ، والصور البيانية ، والصور الكثيرة الاستعمال من البديع الخ.. اننا لا نستطيع درس الشعراء وتذوّق ما يكتبونه الا اذا اعتمدنا هذه الطريقة في تدريسهم .

٥ً – استخراج النتائج – بعد تحليل القطعة ونقدها يبقى علينا استخراج النتائج الادبية والفلسفية والادبية.هنا يجب اتقاء خطر فاضح وهو كثرة الكلام الفارغ (الحشو واللغو) . علينا ان نستخرج الملاحظات والنتائج من القطعة نفسها ، اي من منطوقها لا من نظرياتنا الخاصة، اذ يجب ان تكون القطعة الحد الاقصى لبحثنا ، فلا نتعداها الى آرائنا الخصوصية . ولنحتم على تلميذنا ألا يخرج كذلك عن القطعة التي اعطيها للبحث – كتابة أو شفوياً – بل فليحصر بحثه في القطعة ويبدي الملاحظات التي رآها فيها ليس إلا .

إن ما نتساءل عنه هو : لماذا نشرح ونفسر ونبحث ؟ الجواب طبعاً : لكي نفهم . إذن ، ليست الغاية الاولى من الشرح والتحليل فهم الصور البيانية لأنها بيانية لذيذة ، بل لنتوصل بواسطتها الى الفهم ، إلى ما يرمي اليه الكاتب تماماً .

وقصارى الكلام إن الغاية من الشرح والتحليل والبحث هي فهم الفكر والشعور فهماً دقيقاً كأننا نحن ذاك الكاتب نفسه .

تطبيق

١ً – مصدر النص . ٢ً – صفاته العامة : خيالي ، تأمل ، رؤيا ، وصف ، هجر ، قصف ، الخ . ٣ً – المدخل أي سبب الكتابة . ٤ً – الرسم وتتفرع منه الفكرة العامة ووحدة الموضوع . ٥ً – تبيين المحاسن والعيوب وبيان الصور البديعة والمستهجنة . ٦ً – اللغة وما يتبعها كما اذا كان هناك مخالفة لغوية او نحوية او بيانية . ٧ً – نوع الانشاء ، اهو من الانشاء العالي او المنمّق او البسيط . ٨ً – النتائج الادبية والفلسفية وما يرمي اليه الكاتب او الشاعر .

تنبيه : في الشعر المنمق يُلتجأ إلى رده إلى النثر ، واذ ذاك يعرف مبلغ الافكار ، أي اذا كان الكاتب ممن يعنون بالالفاظ والتعابير اكثر من المعاني والافكار .

شعر رنّان: كلمة نسمعها كثيراً، فللاهتداء إلى هذا السر انظر الى الاهتزازات التي يحدثها استعمال بعض الفاظ موسيقية في اللغة وانتبه الى استعمال الافعال والاسماء والكلمات المشددة وبعض الحروف التي لها تأثيرها .

ملاحظة هامة : سر هكذا في ترتيب نقدك :

١ً – كلمة مختصرة عن الموضوع كمدخل له او تمهيد .

٢ً – قسّم نقدك هكذا :

١ً – **الايجاد** : وينقسم إلى ثلاثة اقسام : أ – عمل الحس . وهو ما احس به الشاعر او الكاتب حتى كتب ما كتب ، وهذا ما يعبرون عنه اليوم بالتجربة . ب – عمل الخيال ، وينتج عن الحس ، اي ان الشاعر يحس اولاً ثم يتخيل .

جـ – وبعد الحس والخيال يأتي عمل الذهن فهو الخزينة الواعية .

٢ – التنسيق : وظيفة الذهن ترتيب المعاني التي تجتمع بالايجاد ، والذهن ايضاً يقرر النسبة والوحدة بين اجزاء القصيدة ، وهذا ما نسميه التنسيق ، وهو يقسم إلى ثلاثة اقسام : أ – الوحدة : وهي تكون بوحدة العاطفة والفكر وما يرمي اليه الكاتب من غرض . ب – الرسم : وهو ما تتألف منه القطعة من اجزاء رئيسية . جـ – تنسيق التفاصيل : وهو تفصيل ما تألفت منه الاجزاء الرئيسية وحسن ترتيبها وتنسيقها .

٣ – البيان : وهو ثلاثة اقسام ايضاً : أ – اتساق الابيات او الانشاء ، أي جلاؤها ووضوحها . ب – صفات الانشاء العمومية : يبين فيه كل شيء من محاسن وعيوب . جـ – الاشكال البديعية والمجازات : تذكر منها المستحسن والقبيح وما يلفت نظرك من جمال فني .

هذه آراء معلّمي النقد الأجانب وقد لخصناها لك تتميماً للفائدة .

فهرست

٦٨/٧/

القسم الثاني

الرُّؤوسُ

الأوائل

حبٌّ وشربٌ وحربٌ

حدّد لنا طرفة ، قاصداً أو غير قاصد ، غايةَ الحياة العربية البدوية بقـوله :

ولولا ثلاث هنّ من لذة الفـتى ، وجدّك لم احفل متى قام عوّدي

فمنهنّ سبقي العـاذلاتِ بشربة كميتٍ متى مـا تُعلَ بالماء تزبد

وكرّي ، إذا نادى المضاف محنّباً ، كسيد الغضا نبّهته المتورّد [1]

وتقصير يوم الدّجْن والدجن معجِب ببهكنة تحت الخبـاء المعمّد [2]

هذه صورة « السيد» الجاهلي . فهو يرى أن الحياة تنتهي عند باب القبر ، وان الموت نهاية كل حيٍّ :

فإن كنتَ لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بمـا ملكت يدي

يريد العربي أن يأكل خيراته في حياته ، ولا عاش كل بخيل .

وإذا فتشنا عن الملامح العربية الأخرى وجدنا أكثرها عند هذا الشاب . أما مـا ينقصنا من خطوط فهو عند السيد زهير في « من ومن ومن » التي أطراها عمر بن الخطاب ، الإمام العادل والخبير بكلام العرب ...

إذا قلنا الشعر الجاهلي فكأننا قلنا الشعر العربي كله ، من امرىء القيس حتى شوقي ، لأن َعلَم امرىء القيس ، حامل لواء الشعر في النار ، ظـل

---

(١) المحنّب : الذي في يده الحناء . والمراد هنا ، الجواد الذي في يده الحناء ، وتلك علامة جودة فيه . سيد : ذئب .

(٢) الدجن : إلباس الغيم آفاق السماء . البهكنة : المرأة الحسنة الخلق ، السمينة الناعمة .

خفّاقاً في سمـــاء أدبنا العربي بضعة عشر قرناً ، ولم ينزل ، عند بعضهم ، إلا منذ أعوام . لم يُتَّبع رجل في آداب الدنيا كلها كما اتبع هذا الشاعر .

يصعب علينا جداً أن نحلل الدم العربي ، بل أن نجد دماً عربياً خالصاً لم يلقّح بدماء أخرى . قد يستنكف بعضنا من هذا الزعم ، ولو فكر لقبله بغبطة ، لأن العنصر المستعرب في امتنا هو ذو الشأن الأسمى . وحسبنا أن نسـلم – لنقنع ، ولا يتجهم وجـه أنانيتنا للحقيقة الساطعة – أن النبي هو من العرب المستعربة لا العاربة . والعنصر الذي استعرب بعد الاسلام ، كان له أيضاً ابعد اثر في تطوّر الادب العربي وتجديد دمه في النثر والشعر ، خيالاً وتعبيراً ، تفكيراً واغراضاً . فلولا « المستعرب » لم يدخل هواء جديد الى قلعتنا التي حصّناها وسددنا نوافذها في وجه كل غريب . ان هذا « المستعرب » اعطى واخذ ، تأثر الى حد بعيد بالسلف ، وخضع لعقلية العربي وخطته الشعرية كما خضع لسلطانه الديني والمدني ، فقال الشعر عربياً في تفكيره وتعبيره واغراضه . هذا بشّار ، زعيم المجددين ، يفتخر في بائيته كأنه عربي قح . ولولا دلالة تعبيره عليه لعزوتُ قصيدته الى شاعر جاهلي او أموي .

ان طبيعة المكان القاسية كيّفت هذا الانسان الذي نسميه عربياً . فانفراده في تلك الصحراء ، الحمراء السمراء ، جعل لونه نحاسياً ، وعزيمته فولاذية ، ودفاعه غريباً عجيباً . ان ذلك المناخ العنيد جعل الرأس العربي رأساً فريداً ، اذ أفنى الضعيف منه ، ولم يُبقِ من هذا الرأس الاسمر الا الصالح للحياة . اما نحن ، احفادهم ، فقد صرنا كما يقول الشاعر :

خطراتُ النسيم تجرح خديه ولمسُ الحرير يُدمي بنانه

اذا قعدنا في مجرى هواء ناعم سعلنا طول الليل ، واذا عرقنا أصبنا بزكام دائم قد يحملنا الى مصح ضهر الباشق .

ان انفراد العربي في صحرائه جعل منه هـــذا الرجل الذي نعرفه . فالشجاعة العربية هي من هبات المحيط وعطاياه السنية . فالذي يعيش في بيت من الوبر فلا بد له من ان يكون شجاعاً ، حاضر البديهة والجنان واليد ، ليقابل عدوّيه : الانسان والحيوان . والإباء العربي يدعو اليه اسلوب العيش . فمن لا يستقر في مكانٍ ما يأبى كل ما يذله ويستعبده . فالعربي البدوي سائح دائم . وعن هذا ايضاً نتجت قلة صبره ، وضعف تعمقه في التفكير ، وارتجاله في كل شيء . فالمبادرة سمة عربية . ان الجد مبتدَر ، كما يقول جرير . ان الاقامة الدائمة في مكانٍ ما تحمل الانسان على اطالة التفكير بما حوله . اما المسافر الدائم ، سليل الشيخ يعرب ، فلا ينظر الا الى مظاهر الاشياء . ولهذا لا يتعمق العربي في موضوعه . لقد شبهته بالنحلة تأخذ حاجتها من الزهرة وتظل الزهرة زهرة ، لا ينقص شيء من عرفها وجمالها وطراوتها ، بينما المفكر « الآري » يضعها في الإنبيق ، ولا يبقي الا خلاصتها ، اما عناصر جمالها فيأكلها اكلا .

ومن خواص العربي الايجاز . وهذا مقتبس من شكل الحياة : فبيته وجيز ، ولباسه وجيز ، وطعامه وجيز . لا تلمه إنْ تغزّل بعباءته :

ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني أحبُّ اليّ من لبس الشفوف

فهي كل شيء . تصلح لكل ما له من مآرب . فهي الجبة والرداء ، والقميص ، واللحاف ، والبرنس ، والمشمّع ، والطرّاحة . وهي خيمته تقيه الهجير متى ركز عصاه في الرمل ونشرها عليها وقعد يتفيأ ليستريح او ينام . اعذره ، ولا تملّ متى قرأت وصفه الناقة ، فهي مستودع البقاء ، هي سيارته الخاصة ، وهي سيارة الشحن ، وهي مطبخه واهراؤه . هي مصدر جميع المواد اللازمة له ، ومن وبرها يكتسي . ولله درها ! فكل ما فيها نافع ، حتى زبلها ، فانه كالفحم الحجري .

اما الكرم فاسلوب الحياة دعا اليه : العربي يسوق ثروته امامه ، وهي معرّضة للهلاك . ولهذا لا يدّخرهـــا . انه وهّاب ، اشتراكي متطرف، يغزو اذا جاع او احتاج ، ويكف يده عن جيرانه ما دام بخير . اما الغزو فهو سنّة اوجدتها الحال . فالكفاح لحفظ البقاء تبرره جميع النظم ، دينية ومدنية . كان الغزو عندهم كحرب اليوم المقيّدة بنظم تجب مراعاتها ، وإلاّ كانت الحرب ظالمة وغير مشروعة . وكذلك الغزو . وقد ضلّ من عدّ الغزو سرقة او كالسرقة .

والعربي متقلب في آرائه ، وقد أكسبه محيطه هذه الخاصة . هو غير عنيد ، غفور رحيم كربّه ، لا يصرّ ولا يثبت ، ككل من يحب الفصاحة واللسن ، الا اذا كان له ثأر ، فانه لا يهنأ له عيش حتى يأخذه .

والعربي يغويه الطريف ، ويعجبه الذكي الظريف . واننا لنظلم الجـاهلي اذا خلطناه بالبرابرة والمتوحشين ، فهـــو ابن مدنيّة ، ووارث حضارة ، شهم أبيّ ذو شمَم ، توحي اليك طلعته كل هذا إذا تأملت . يثرثر العربي حيناً ، ويتكلم صامتاً أحياناً . ذكي نجيب ، لبيب تكفيه الاشارة ليفهم ، حاضر الذهن ، حذر لأنه يواجه الأخطار في كل لحظة من حياته .

اختباراته محدودة ، وتحديده لجميع الشؤون يكاد يكون عاماً لأنه سطحي في كل أعماله . يحب الامتزاج بالناس إلى حد مـا ، ثم يعود إلى عزلته . يعشق العدالة والحرية والمساواة ، وينتصر لجـاره . والجار عندنا قبل الدار ، لأنه عوننا في الملمات . ولهذا نقول : جارك القريب خيرٌ من أخيك البعيد .

إن العزلة العربية خلقت في الرجل العربي كل هذه الخصائص التي يترجم عنها شعره وأدبه .

العربي تيّاه فخور وهذا مـــا يحمله على التبرج والتطوّس والتطيّب

والتجمّل . فهو رجل مظاهر يباهي بكل شيء ، ويغالي جداً بالتبجح بأصله وفصله . من هنا جاء العربَ التقعُّر في حوادث تاريخهم وسردها على عواهنها دون تمحيص ومن هنا جاءنا التشبث بعروبتنا حتى أنكرناها على فريق من البشر فسميناهم « شعوبية » وان حذقوا العربية وجاؤوا بأروع ممـا أنتجه العربي المحض . وحب العربي للقديم وإعجابه به سدّ الطريق على الأدباء أكثر من سبعة عشر قرناً ، فحنّط شعرنا ونثرنا . وانكماش العرب في جزيرتهم جرّهم إلى حب ذاتهم حباً لا هوادة فيه ، فرأوا أنفسهم فوق العالمين أجمعين، وحسبوا دمهم أسمى من دم الآخرين . ومن هـــذه الناحية جاءهم التشدد بالمصاهرة . ثم جرّهم تصنيف أنفسهم وتأصيلها إلى تصنيف خيلهم وتأصيلها .

وكذلك فعلوا ، بعد الفتح ، حين خالطوا الشعوب الاخرى فقسموا نساءهم أربع طبقات : أمَة ، وجارية ، وأم ولد ، وسيدة . فالأمَة للرعي والحلب ؛ والجارية لخدمة الدار ، وإذا شرّفها سيدها بتزوّجها وعلقت منه سميت أم ولد ؛ أما السيدة فلا تكون إلا عربية وتُقصى هذه في قعر البيت ، وراء الستار ، لتظهر على المسرح تلك المسماة « جارية » . ومن هنا جاء قولنا : ابن الست ، وابن الجارية .

وهذا التشبث بالعروبة كان ويلاً على الدولة واللغة ففرّق العناصر الـــتي وحّدها الدين واللسان . فالأجنبي – كما قلتُ غير مرة – إذا أقام خمس سنوات فقط في الولايات المتحدة حقّ له أن يصير أميركياً ، بينما المستعرب – عند بعضنا – لا يصير عربياً حتى يوم القيامة .

والعربي مزواج مطـــلاق . ولذلك أسباب : أولاً لأنه يحب النسل ، وشعاره : إنمـا العزة للكاثر ، فهو مجنون بحب العزة . ثانياً لأنه شهواني ، وهذه الشهوة توقظها طبيعة المحيط الحار . يُكثر العربي من الزوجات ، لأنه مطبوع على التنقل ، حتى في الحب، ناهيك بأن المرأة البدوية هي عضد زوجها

وعونه ، فهو لا يخدمها كما هي الحالة اليوم .

وتحجُّبُ المرأة جاء من الغيرة عليها ، فالحجاب العربي مخالف لما اختطه بنو اسرائيل قبل العرب . فالتوراة تخبرنا أن تامار تغطّت ببرقع ، وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنة ، فحسبها حموها يهوذا زانية ، لأنها كانت قد غطّت وجهها ، فمال اليها على الطريق ، فأعطاها رهناً خاتمه وعصابته ، وعصاه التي في يده (تك ٣٨) .

ومن التقاليد العربية والحجاب ، جاءنا هذا السيل العرم من الغزل . فنحن - وقد يكون غيرنا مثلنا - نفكر دائماً بالمرأة ، والاكثار منها ، ونراها متعة . قد يكون الأمر كذلك عند كل أمة ، ولكن المرأة لم تحتل عند جميع شعرائهم القسم الأوفر من الأدب ، حتى كاد يكون الغزل لأدبنا كالملح للطعام من حيث الوجوب والضرورة ، لا من حيث القلة والكثرة .

وإفراط العربي في المحبة الجنسية حمله على المغالاة في صون المرأة والغيرة منها وعليها ، وهو الذي حمله أيضاً على وأد البنات . ومن أسباب وأد البنات أن كثرة الزوجات تؤدي إلى كثرة النسل . فشاء العربي أن يظل خفيف الظهر ، فلم يُبقِ من بناته إلا اللازم « للتوريد » .

قال ابن كلثوم :

على آثارنا بيضٌ حسان	نحاذر ان تُقسَّم او تهونا
يَقتنَ جيادنا ويقلنَ : لستم	بعولتنا اذا لم تمنعونا

ان للمرأة في الشعر كله ادواراً خطيرة ، وأخطر هذه الادوار في الادب العربي ، وفي الحياة العربية البدوية . وهذه هند وغيرها ، ماذا فعلنَ عندما قاتل المشركون النبي محمداً ؟ وهذه ليلى وغيرها ، كم لهنّ من يد على تفتيق القرائح وخلق الشعر الطيّب !

ومن خصال البدوي الحماسة ، فهو متحمس حتى التهوّر . ولذلك قلّت

الاحلام في شعره فجاء قليل الايحاء ، فاخفق في الفنون المستوحاة ، وبرع ، فيما بعد ، في الفنون اليدوية كالعمارة .

اظهر نبوغاً في الدروس العملية والذهنية ، يحلم بالحسيات لا بالمعنويات ، يؤثر الحياة الجسدية على الروحية ، فالروح امرها لخالقها . يكره التصوّف والزهد . يُقبل على الدنيا اقباله على الصلاة ، ويتمتع ويعمل لدنياه كأنه يعيش ابداً ، كما يعمل لآخرته كأنه يموت غداً . يَسّرَ دينه ولم يعسّر ، فاخذ من دنياه ما استطاع ، وترجّى الآخرة رجاء قوياً .

البدوي لم يُتقنْ عمله ولم يتوخّ الغايات البعيدة ، فهو سطحي في هذا ، كما هو سطحي في شعره . وكذلك هو سطحي في اعماله الاولى . وكل ذلك ناتج عن نشأته الاولى ، عن وحدته وانفراده . فكما لا تتقصى اغنامه مراعيها فتقضم وتخضم ، تأخذ المتيسّر ولا تطالب بالمتعسّر ، كذلك صاحبها في اعماله حتى بعد حضارته . ولو فكر الخلفاء في الغد البعيد لما زال ظلّ الامبراطورية العربية بسرعة . وهذه السطحية في حياتنا هي التي كانت اقوى اسباب جمود شعرنا ووقوفه في عرض الطريق . ان العربي كراكب البحر ، يستعرض ما يمرّ به من مناظر فتّانة خلاّبة اكثر من عنايته عما في البحر من اسرار .

يتخيّل العربي ، انما بوجه عام ، فيحكم على الامور حكماً قاطعاً دون برهان . يعتمد على ذكائه فلا يبالي باكتساب ما عند غيره . وهذا شأن كل معتدّ بنفسه كالعربي ، فهو في العموم أقدر منه على الخصوص .

احلامنا تَزِنُ الجبال رزانةً وتخالنا جنّاً اذا ما نجهل

لم يصدق الفرزدق ، فالعربي يثور لأقل سبب ، ولا يهدأ ان لم يَشفِ نفسه ويثأر .

العربي مغامر اذا دُفع ، والبيان يهيجه اكثر من الموسيقى ، فهو يفكر

بقلبه لا بعقله . يفي اذا صادق ، ان لذتَ به أمنت ، فإما ان يصونك ، واما ان يموت دونك . ان هذا ميراث دهور اصبح دين العرب الامثل وعقيدتهم الغالية . فالعربي لا ينام على ضيم ، يقابل السيف بالسيف ، ويأخذ بثأره بعد اربعين عاماً ... يصبو الى الآداب اكثر من العلم . يعيش بقلبه لا بعقله . وهو مع ذلك يحب العدل . وإباؤه وعزته يبغّضان الرحمة اليه . يرضى البدوي بالحالة الراهنة اذا كان في سعة ، ولم تمسّ حريته ، ولا يضج منها ويطلب غيرها إلاّ في الضيق . يحب حرية القول ، ولكنه لا يكافح دونها مكافحته ضد قيود حريته يؤثر العافية إلاّ اذا أُهين ونيل مما يقدسه.

يتحد اذا واجه خطراً اجنبياً . واذا أمنَ عاد الى التنازع الداخلي . لا يذعن إلاّ للتقاليد ، ولا يغيّرها إلاّ مرغماً ، كما انه لا يطيع إلاّ مكرهاً . وهذا عائد الى اسلوب حياته الاصلية الذي عوّده ذلك . ينشد الاستقلال ابداً ، يؤثر بيتاً تخفق الارياح فيه على قصر منيف يحبس فيه حواسه الخمس ضمن جدران اربعة ولو رفعت من ذهب .

لا يقلّد ، ولا ينزل عن قيافته. يريد ان يكون متبوعاً لا تابعاً ، وسيداً لا مسوداً . يحب الخشونة : واخشوشنوا فان النعم لا تدوم ويفضل اللذات على الثروة . يجمع لينفق ويحسن، لا ليمنع ويثري . قليل التفكير بالعواقب، يؤمن ويصدق ، ولكنه لا يدع معتقداته ولو تبيّن له فسادها . قلما يأخذ بالنظريات « الفلسفية » ، فحسه متسلط على فكره .

كل شيء وجيز ومتعب وصعب في المحيط العربي . فما الصحراء إلاّ بحر يابس جاف . ولو كنتُ مكان عمر حين سأله أحدهم : صف لي البحر ، لقلتُ له : صف لي الصحراء . فالصحراء جافة كهوائها . وكونها على نمط واحد جعل كل شيء عند العربي ، حتى شعره ، على نمط واحد . فهي التي صيرت البدوي فظاً ، غليظ القلب .

إن محيطاً كله جفاف ويبوسة يجعل كل شيء ينشأ فيه يابساً .

فظواهر الجزيرة الجوية قاسية ، وألوان مناظرها وطباع سكانها وبنيتهم جاءت من نوعها. ندر المطر عندهم واشتدت الحرارة فقالوا : برّد الله ضريحه وإذا انهلّ المطر سقط بغزارة فأفسد ، ولهذا قال الشاعر .

وسقى ديارك غيرَ مفسدها صوبُ الغمام وديمة تهمي

وفي الحديث : اللهم حوالينا لا علينا . ووصفُ طوفان امرىء القيس دليلٌ قاطع ، فانظر كيف ابتُدئت نزهته وكيف اختتمت .

إن حالة كهذه تضيّق الصدر . ومع ذلك لم تبلغ بالعربي حد التطرف . فقد رأينا حلماً ، ولكن الحلم ليس أولى خصال العرب ، وان ادّعوه ، فمن لا يظلمِ الناس يُظلمِ

إن قلة الماء تجفف حتى أخلاق الرجال . ومتى جفت الطباع وقست ، تبعها الشعر . فإذا رأيتهم يقتتلون على مساء ويستعيرون الحوض في كلامهم للتعبير عن مقاصدهم ، فاعذرهم . كل مالهم ناطق ، والناطق يقتضي له الماء . ولولا مناخ الصحراء القاسي لما صبرت الناقة على الشرب ، وضربوا أخماساً لأسداس .

لا يؤمن العربي إلا بذاته ، وهذه الذات فنيت في القبيلة . فالقبيلة – قبل الاسلام – كانت الذاتية العربية ، وهي التي جعلت شعرنا كله ذاتياً .

كانت القبيلة الإله المعبود ، ثم صارت بعد الاسلام قبيلة أعظم وأعز فالبدوي لا يبالي كثيراً أو قليلاً بما وراء الكون . وقد حسب الدين عرَضاً يزول بزوال النبي ، وفي هذا قال الحطيئة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا ويلتي ما بالُ دين أبي بكرِ

أيورثها بكراً إذا مات بعده وتلك، لعمر الله ، قاصمة الظهرِ

ولذلك قلّ ذكر الله في الشعر الجاهلي . وأقل من ذلك ذكر الثواب

والعقاب ، فهو في نظر البدوي حديث خرافة يسمعه ويبتسم ابتسامة مرّة

حكى لي أحدهم أن أحد أئمة الدين البيروتيين ، أو الدمشقيين ، ذهب إلى قبائل شرق الاردن واعظاً ، فقعد يحدث بني صخر ، ذات ليلة ، عن الدينونة ، وكيف يكون الحساب عسيراً جداً ، فيُعاقب الانسان على ماجنت يداه . وأطال الشيخ الامام الحديث ، فانبرى له أخيراً احد مشايخ بني صخر فقال له : يا شيخ ، في هذه « الغوشة » سيدنا موسى ما يكون ؟

فأجابه الشيخ : بلى ، يكون .

– وسيدنا عيسى ؟
– وكيف ! يكون .
– والنبي ، صلى الله عليه وسلم ؟
– قبلَهم كلهم .

فضحك البدوي ضحكة ازدراء وصـــاح بالشيخ قم عنّا رعبتنا يا شيخ . هؤلاء ثلاثة أجاويد ، بوجودهم لا يصير شيء .

وإعجاب العربي بنفسه جعله لا يؤثر أدباً على أدبه . وفي هذا تاه أيضاً الجاحظ العظيم حين قال : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب .

ويتخطى من هذا إلى أن يرى في لغته كل شيء ، فسدّ منافذها وصانها . واللغة كالكائنات تأخذ وتعطي لتحيا . ولهذا الاعتداد بالذات اصيبت لغتنا بما اصيبت به من جمود ، مع أنهـا أرحب اللغات صدراً ، وألينهنّ قدّاً ، تتثنى كأن عظامها من خيزران . انها أوفر اللغـــات موسيقى لو أحسنّا استعمالها ، ولكننا غرتنا ذاتيتنا وحسبنا الفن الشعري كله في العروض والقافية . مع أن لغتنا ليّنة مطواع كالذهب ، تُطرّق وتُرقّق وتمدّد كما تشاء . فمهما خشن الحرف فانه يسترخي متى جاوره حرف لين .

إننا نرى ذاتنا في كل شيء ، لأن انفراد العربي جعله لا يعرف غير ذاته ولم يختبر غيرها ، فاخذ يتلهّى بها في ادبه . قال الاولون الجاهليون شعراً أعجبنا لأنه صوّر لنا حياتهم تصويراً صادقاً ، ولكننا حين نقرأ شعر من جاؤوا بعدهم لا نرى شيئاً ، فنستحي من طلاّبنا اذ لا نرى مزيداً او شيئاً نقوله لهم . لقد تلهّى جميع شعرائنا بذواتهم ، وعلى نمط واحـد ، فجاء شعرهم متشابهاً اذا قرأت شعر احد الجاهليين فكأنك قرأت الجاهلي والاموي والعباسي كله ، ما خلا نفراً من الشعراء أحدثوا شيئاً جديداً وهؤلاء هم « الرؤوس » الذين سندرسهم .

ان اعتداد الجاهلي بنفسه واعتزاله غيره من الناس حال دون تطوّر الشعر. جاء خياله سطحياً حسياً ، لأن مروره في صحرائه سطحي ايضاً ، يتبع مواشيه الى المراعي ، يلتقل ويلتفت فيرى كل شيء في محيطه متشابهاً . ومن اين يأتيه الوحي ، وشعره ذاتي غنائي كله ، لأنه لا يدرك غير الساعة التي هو فيها ؟

ما مضى فات والمؤمّل غيبٌ ولك الساعة التي انت فيها

• • •

اذا هبّت رياحك فاغتنمها فان الخافقات لها سكون
وان ولدت نياقك فاحتلبها فلا تدري الفصيل لمن يكون

ولهذا لا يعرف الاقتصاد والادّخار . هو كالحجل لا يبارح محيطه . ومن كان هذا شأنه فمن اين يأتيه الجديد ؟ ولكن هذا لا يعني ان نصمهم بالجهل ونعدّهم من البربر ان العربي خلاصة انسانية ، صهرته شمس الصحراء فلم تُبقِ منه إلاّ عروق الرجولة الحق وخطوطها .

والشاعر الجاهلي صورة صادقة لمحيطه وعصره ولون بلاده . أوحى اليه الحل والترحال شعراً غرامياً وتحرّقاً وتشوّقاً ، فبكى على الطلول . أما نحن

اليوم فنرى الشعر العربي الصادق يموت ؟ وإلاّ فاي فرق بين حلول المصطافين ورحيلهم وبين حالة البدو في جاهليتهم ؟ وما معنى تغزُّلنـــا بالزُّهرة وعشتروت ؟

ولكن العذر واضح ، فالشعر العاطفي لا يخرجه إلاّ الكبت والضغط ، واين هذا في زماننا ؟ فلا تكاد تطلُّ المصطافة من شبّاكها صباحاً حتى يتواعدا ويلتقيا إما في قهوة ، او في دار سينما ، او ، او ... ان الحب الصحيح قد مات

يقول بعضهم لا وحدة في القصيدة العربية او الجاهلية خصوصاً . والحقيقة غير ذلك فما وصف العربي – خذ مثلاً امرأ القيس ، ان صحّ ما زعم لنا من حكاية دارة جلجل – غير حوادث نهاره، فهي موضوعه المستقل.

لست ممن يشكّون بوجود امرىء القيس ولا غيره ، فاذا لم يصف لنا قصور القسطنطينية فلأنه مات ولم يصلنا شعره ، واغلب الظن لأنه كان مشغول البال بالملك الذي ضاع فليعذره منكر وجوده ... ناهيك ان زي وصف القصور لم يكن في تلك الايام .

اما الشك في صحة بعض الشعر الجاهلي فقديم قبل مرغليوث والذي انسحب على ذيله . فهذا الجاحظ يحدثنا عن ذلك في كتاب الحيوان . وهناك غيره كثيرون ممن شكّوا بنسبة شعر الى شاعر وهو ليس له . اما من زعموا انّ سهولة الشعر تدل على عدم جاهليته فنقول لهم : اذن ليست قصيدة : هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ، من عمل الفرزدق ، لأنهـــا ليّنة هيّنة !؟

الخلاصة ان هذا البحث لا يعنيني ، وهو لا يستحق من الاهتمام اكثر مما قلت ، وهذه كلمة افلتت من شق القلم بالرغم مني ، فلنُلمّ إلمامة قصيرة بزعماء الشعر الجاهلي .

الشعر الجاهلي

نظلم العربي الجاهلي إذا عددناه انساناً أولياً همجياً . فالشعب الذي لا نستطيع أن ندخل على لغته ألفاظاً وتراكيب ، واصولاً ، وبياناً ، لا ينبغي أن يُعدّ كما عدّ أسلافنا الجاهليين تعصباً وزوراً . فهذه اللغة الكاملة ليونةً ومرونةً وتبسّطاً ؛ اللغة التي أنزل فيها كتاب كريم كالقرآن ، كتاب عظيم فيه البلاغة العظمى ، وفيه التشريع والتوحيد ، وفيه علاقات الانسان بخالقه ، وعلاقات الانسان بأخيه ، اللغة التي وسعت – كما وصلتنا – ثقافة الفرس وعلوم اليونان وحكمة الهند ولم تضق صدراً بكل ما عرض عليها من اعباء ثقافية وعلمية وفلسفية وكلامية هي لغةٌ لا تصدر عن رجل أوّلي .

لقد حان ان نحلّ الجاهلي محله السامي ما زلنا نتبع آثاره ولا نحيد عن أساليبه قيد شعرة . فالعربي الجاهلي عرف الحضارات التي تقدمته وهضمها عقله فاخرجها في شعره ، يوم كان الشعر لسان حال الشعوب ، وأصدق دليل على مقدار رقيّهم . وإذا نظرنا إلى الشاعر الجاهلي نظرة نزيهة رأينا أنه عبّر أكثر منا عـــن نفسه ، وصوّر لنا حياته كما هي بلا تدجيل ولا مواربة . كان الجاهلي يتكل على باعه وذراعه ، ولا يلقي همه على ربه كما نفعل نحن اليوم : الله يدبر ، على الله ، ان شاء الله ، بلا تقدير على الله . هذا حديثنا نحـــن عرب اليوم . اما الله الجاهلي فبمعزل عن كل هذا . على العربي أن يدافع ، وأن يسهر ، وان يسعى ، وما يجيء من فوق فلا مرد له .

هذا امرؤ القيس يصف لنا في قصيدته خوالج نفسه ، ويعبّر عن مشاكله بصور كلها محسوسة ، لأنه ابن بيئة لا يعنيها شأن من الشؤون التي لا تحسها . انه يتخيل ويحسن التعبير عن تخيّله ، وإذا لم يسمُ خياله إلى ذروة الشعراء العظام فلأنه في محيط لا يوحي أكثر مما أوحى إلى صاحبه ، ولأن مدنيته لم تكن تلهمه أكثر مما ألهمته ، فاستمدّ صوره مما عاين وشاهد . لم يكن في عصر الطائرات والسيارات ، فوصف حصانه وشبهه بما يرى حوله من أوابد :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاءُ سِرحان وتقريب تَتْفُلِ[1]

ورأى صدر حبيبته يبصّ ويلمع ، فقال :

مهفهفة بيضاء غيرُ مفاضة ترائبها مصقولةٌ كالسَّجَنجَلِ[2]

ونظر إلى شعرها ولم تكن ثَمّ « موضة » قص الشعر ، فاعجبه منه ذاك الطول ، فقال فيه :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المُتَعثْكِلِ[3]
غدائرُه مستشزراتٌ إلى العلى ، تضلُّ العقاص في مثنّى ومُرسَلِ[4]

أما نظرتها فظبية من ظباء وجرة ، وجيدها كجيد الريم ، وخصرها نحيل ليّن ، وساقها كانبوب النخل ، وأصابعها كالاساريع – ديدان – أظنها ما نسميه نحن : بو مغيط . وهذا تشبيه لا يشرّف ذوق الشاعر الملك واخيراً يراها :

---

(١) الأيطل : الخاصرة . الارخاء : ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الخيل . السرحان : الذئب . التقريب : وضع الرجلين في موضع اليدين في العدو . التتفل : ولد الثعلب.

(٢) غير مفاضة : غير عظيمة البطن . يعني انها ضامرة . الترائب : موضع القلادة من الصدر . السجنجل : المرآة ، واللفظ رومي معرب .

(٣) الفرع : الشعر التام . الأثيث : الكثير . القنو : عنقود البلح . المتعثكل : الذي فيه العثاكيل وهي الأجزاء من القنو

(٤) الغدائر : خصل الشعر . مستشزرات : مرتفعات . العقاص : الخصل المجموعة من الشعر .

تضيءُ الظلامَ بالعشاءِ كأنها منارةُ مُمسَى راهبٍ مُتبتّلِ[1]

وفي اعتصام المرأة بدموعها ، حين تدعـــو الحاجة ، يقول ويجيد كل الاجادة :

وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في أعشارِ قلب مقتّلِ[2]

إذا لم نفهم كل ما قصد أمير الشعراء ، وسيّد المجددين في الأدب العربي ، والإمام المتبوع سبعة عشر قرناً واكثر ، فاننا نمر به ماطّين الشفتين . أما إذا عرفنا أنه يستغل « الميسر » الجاهلي في شعره ، فندرك اجادته العظيمة في هذا البيت : فالسهمان همـــا عيناها ، وقلب امرئ القيس هو الجزور ؛ والجزور يقسم عندهم عشرة أقسام ، قد يفوز بها كلها سهمان اسمها المعلّى والرقيب . ان هذين السهمين هما عينا عنيزة أو فاطمة ، فهي قــد غنمت حبيبها كله ولم تترك لاخرى شيئاً منه . فهنيئاً لها ما أكبر حظها !

وإذا وصف الليل شبّهه بجمل ضخم يبرك فيملأ الساحة . والليل جمل وأي جمل ، فانه يغطي الجزيرة بل الشرق كله ...

وأي الهام أو وحي يأتي الجاهلية ليشبّه ذلك النجم ، الذي يراه العاشق المنتظر كأنه لا يحول ولا يزول ، بأحسن من قول امرىء القيس :

فيا لك من ليـــلٍ كأن نجومه بكل مُغار الفتل شُدّت بيذبل[3]

ان رائحة الجاهلية تفوح من كل كلمة في عجز هذا البيت . ويخطىء من يروي غير هذه الرواية ، لأنـــه يبعده عن محيطه وزمانه ، ويفقده قوته وروعته . وقد أشرت إلى هذا إذ تكلمت عن كتاب « الأدب العربي في آثار أعلامه » .

إن معلقة الشاعر العظيم ، وإن لم نجد فيها منفعة تربوية لابنائنا ، لهي

(١) الممسى : الامساء . المتبتل : المنقطع الى الله نية وعملا . (٢) مقتل : مذلل .
(٣) مغار الفتل : شديد الجدْل . يذبل : اسم جبل .

تدل على خيال ذي شأن حازه هذا الشاعر ، فولـّد ما استطاع توليده في ذلك الزمان . إذا قرأت وصف حصانه ، عرفت أنك أمام مصوّر ماهر ؛ وإذا انتقلت إلى وصفه الطوفان ، وجدت فيه تصديقاً لزعمي ، وخصوصاً إذا أمعنت النظر في ما بعد هذا الطوفان فقرأت :

كأنّ ذُرى رأس المجَيْمِرِ غُدوةً من السيل والغُثّاء فَلكةُ مِغزل (١)
كأن مَكاكيَّ الجـــواءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلافاً من رحيق مُفلفل (٢)
كأن السبــاعَ فيه غرقى عشيةً بأرجائه القصوى أنابيشُ عُنصُل (٣)

صورٌ تراها تافهة إذا نسينا أن الانسان لا يستطيع أن يتخيل إلا كما يرى، فامرؤ القيس لم يُزعَم عبثاً ، ولكننا نحن لا يؤثر بنا هذا القول كما يؤثّر بابن البادية، لأننا نجهل الأحوال التي لابسها الشاعر فقصيدته هي صور طبق الأصل عن محيطه وحياته ، وهو الذي شق طريق القصص الشعري ، وما عمر بن أبي ربيعة إلا متتبّع خطاه ، وان حاول بعض المماحكين انكاره . ومن قرأ هذه اللامية واللامية الثانية رأى ان الزعيم العظيم لم يدع شيئاً من طرق الشعر الغرامي ، فهو وعمر فرسا رهان في حلبة الفسق والفجور وقلة الحيـــاء .

ان امرأ القيس لا يتخلى عن خياله القوي حـــتى في سرد حوادث حبه الواقعية ، فانظر قوله :

سموتُ اليها بعد ما نام أهلها سموَّ حباب الماء حالاً على حال (٤)

---

(١) الذرى : الأعالي . المجيمر : اسم جبل . الغثاء : ما حمله السيل من الحشيش والشجر والتراب وغير ذلك فلكة المغزل : رأسه المستدير .

(٢) المكاكي : نوع من الطيور . الجواء : جمع الجو . صبحن : سقين في الصباح . السلاف : الخمر التي تنعصر من العنب من غير عصر ، وهي أجود الخمر . الرحيق : الخمر . المفلفل : الذي فيه الفلفل .

(٣) أرجائه : جهاته . الأنابيش : أصول النبت التي ينبش عنها . العنصل : البصل البري .

(٤) حباب الماء : ما يطفو عليه من الفقاقيع .

لا أستطيع الوقوف معك عند امرىء القيس أكثر مما وقفت ، فتـقص أنت خباياه على ضوء الخيال الفني ، والصور الكثيرة ، ولا تحلم بأن تأخذ عنه شيئاً ، فتلك البضاعة لا تنفق في سوقنا اليوم . إن جميع الشعراء بعده قد تحاموه ولم يغزوه كعادة الشعراء ، لأنه أوجد صورة كاملة لا يستطاع فيها أكثر مما استطاع . ولا تظنن أنني سأحدثك عن الشعراء بعده إلا بمقدار ما يختلف بعضهم عن بعض . فطرفة يتبع ، كجميع الشعراء ، خطى امرىء القيس ، فيصوّر الطلل صورة أروع إذ يقول : يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد . وفي بيت واحد يصف خولة فيقول قولاً رائعاً :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءَها   عليه نقيّ اللون لم يتخدّد [1]

ثم ينتقل إلى ناقته ، فيصفها اجمالاً وتفصيلاً ، ولولا الحياء لم يدع شيئاً منها إلا وصفه . ثم ينتقل إلى وصف نفسه فيمعن في تحليل « ذاته الكريمة » ووصفها . ويتعرّض لما وراء القبر فيعبّر عن الفكرة الجاهلية في ما أمام القبر وفي ما وراءه أصدقَ تعبير . ولا ينسى المشاكل الاهلية ، ويعلن انه مظلوم ، ويخشى أن يموت غير مبكي كما يستحق أن يبكى،فيوصي ابنة أخيه «معبد» بذلك ، ويعلمها ما يجب عليها أن تعمل .

ان هذه القصيدة تصوّر أكثر أحوال العربي الجاهلي ومشاكله الاجتماعية حتى الدينية . وإذا صوّر طرفة « الجهّال »، فالعم زهير يصور « الكمّال ». وهل تطلب من ربيب مقعد أن يقول كطرفة :

وآليتُ لا ينفكّ كشحي بطانةً   لِعَضْبٍ رقيقِ الشفرتينِ مُهنّد [2]

أخي ثقةٍ لا ينثني عن ضَريبة   إذا قيل مهلاً قال حاجزه قدِ [3]

(١) لم يتخدد : لم يتشنج ، لم يتغضن

(٢) آليت : أقسمت . الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر . البطانة : خلاف الظهارة ، وأراد بها هنا : ملاصقاً . العضب : السيف القاطع

(٣) لا ينثني : لا يرتد . الضريبة : ما يضرب بالسيف . حاجزه : صاحبه . قد : كفى . يريد أن سيفه موثوق بمضائه يقطع كل ضريبة يقع عليها بضربة واحدة .

ولكنه يمد يده، وهو زعيم الشعر المحكّك ، إلى صورة طرفة ، فيعطيها شيئاً من ألوانه وموسيقاه و « عسله المصفّى » فيقول :

ودارٌ لها بالرقمتين كأنّها مراجيعُ وشمٍ في نواشر معصم[1]

و « يشخّص » تلك الدار التي عرفها بعد عشرين عاماً ، فيسلم عليها سلام الاحباب بعد الغياب ... ثم يصف لنا وصفاً دقيقاً ظعائن الحبيبة ، فتتخال شريطاً سينمائياً ينتشر امامك . وينتقل انتقالاً فجائياً بشماً ليمدح صاحبيه المشهورين . ولكن زهيراً ، وان كان اول المدّاحين ، فهو لا يمدح الرجل الا بما عمل ، فيصف ما له من مبرّات . ثم يحث على السلم ، ويقبّح الحرب ، ويهدد الأعراب باليوم الآخر والحساب العسير . وهذا شيء لا يقيم له الأعراب اقل وزن ، كما أنبأنا الكتاب الكريم .

ان زهيراً مولع بالتجسيد ، ووهب الحياة لما لا حياة فيه ، فيقرّب زعمه الى الناس ، ولا عيب في قصيدته إلا هذا الكر والفر ، والذهاب والاياب . اما حكمة زهير فهي ايضاً صورة للنفس العربية ، وليس الرجل بزاهد في الحياة وان قال :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

فهو في كل بيت من هذه الحِكَم لا يصدر إلا عن ينبوع النفس العربية . والنفس العربية ليست كلها عتوّاً وطغياناً ؛ ومن زعم ذلك فقد ضلّ . ان الشخص الواحد يمر كل يوم في اطوار مختلفة ، فكيف بالامة .

---

(١) الرقمتان : موضعان . الوشم : أثر في بدن الانسان يحدث بغرز الابر فيه وذر مادة خاصة على المغارز . ويعرف عند العامة « بالدق » . مراجيع الوشم : الوشم المكرر المجدد . نواشر : عروق .

اما لبيد القائل :

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطولها　　　وسؤالِ هذا الناس كيفَ لبيدُ

فحذا حذو من سبقوه ، وافترق عنهم فحدثنا عن حمار وأتان وحشيين انقطعا عن العالم مدة ، فكان شهر العسل عندهما ستة اشهر . . اما عمرو بن كلثوم فقصيدتـــه تستحق ان نسميها انشودة الشباب . هناك قبيلة تتكلم لا شاعر ، فذات الشاعر ذابت في قبيلته ، فاصبح كأنه لا يحس مفرداً . بدأ « ملحمته » في وصف الخمرة ، وتأثيرها في الناس . ولا بد لرجل مثله ان يدع الطلول ، ويصف الكأس ففي قرارتها الشجاعة ، وهي من « المقبّلات » العظمى لاقتحام مأدبة كمأدبة عمرو بن هند التي اعدّها للاراقم ، فأكل هو منها حتى تخم . وعلم ابن كلثوم ، وهو نموذج الفتى العربي ، ان لا بد للخمرة من ساقية لتحلو وتطيب ، فذكر صاحبته بخير . ثم اقبل على عمرو بن هند ، فخاطبه بسهولة فائقة وتحدّاه اخيراً بقوله :

حدّيا الناس كلهم جميعاً　　　مقارعة بنيهم عن بنينا

ثم يعود الى البكريين بني عمه فيلومهم على نسيان ما كان ، واخيراً يملأ البرّ خيلاً ، والبحر سفيناً ، وتسجد لطفل قبيلته الجبابرة . وهو بهذا يفتح باب الابتهار [١] على مصراعيه لكل شاعر عربي . وليسمح لي من تعودوا تقديس كل قديم ان اقول كلمتي وامشي : ما اظن صاحب ملحمة « الزير » العامية التي اولها :

يقول الزير بو ليلى المهلهل　　　وقلب الزير قاسي ما يلينا
وان لان الحديد ما لان قلبي　　　وقلبي من حديد القاسينا

(١) الابتهار : المبالغة والادعاء .

إلاّ مستلهماً او معارضاً قصيدة ابن كلثوم .

اما ابن حلّزة فهو ذاك المدْرَه [1] الرصين ، توكأ على المنطق حين رأى ابن عمه فائر العاطفة ، واتخذ الهزء الناعم مجنّاً يتقي بـــه سهام ابن عمه المرتّانة .

اما صاحبنا الاعشى فاعرب في مطلع قصيدته عن اخلاق سكير حقاً . السكير يهمه الحاضر وما هو آتٍ ، ولا يبكي لما فات . فعكف على وصف صاحبته هريرة وصفاً يغري ويهزّ ، حتى أخرج صورة يعرفها المنكوبون في الحب في كل عصر ، فقال :

علّقتهـــا عرضاً وعلّقت رجلاً غيري وعلّق اخرى غيرها الرجل [2]

ويلمّ باعراض شتى حتى الحماسة والقتال ، فيقول :

ان تركبوا فركوب الخيل عادتنا او تنزلون فانّا معشر نزُل

وقد صدق اسلافنا حين لقّبوه صنّاجة العرب ، فقصيدته على بداوته موسيقية لا تبارى جَرْساً ورقة . ولا عجب فالاعشى شاعر الخمرة الدوّار . انه يحسن القصّ ، فاقرأ ابياته لتشريح تعلم انه بالفاظ قصيرة يخرج صورة تامة . وهو من الشعراء المجسدين الكبار ، وقد خاطب ناقته خطاباً طريفاً اخذه بعده الفرزدق ، فأوحى إلى جرير تلك الصورة المخزية فأخرسه .

أما النابغة فهو من السلالة الزهيرية ديباجةً ، وتحكيكاً ، وقفزاً من غرض إلى غرض ، وقد أحسن خطاب دمنة دار نُعْم حين قال :

عوجوا فحيّوا لنعمٍ دمنة الدار ! ماذا تحيّون من نؤي وأحجار ؟ [3]

---

(١) المدره : السيد في القوم والمتكلم عنهم . (٢) علقتها : شغفت بها حباً .

(٣) الدمنة : ما يبقى من أثر الدار الجاهلية كالرماد والبعر . النؤي : الخندق ، النؤي : الحفير حول الخيمة يمنع السيل .

واستعجمت دارٌ نعم مـا تُكلمنا ، والدار لو كلمتنا ذات أخبار [1]

ومن عنده أخبار أكثر من الدار ، وخصوصاً إذا كانت من دور الكراء التي وصفها الجاحظ في البخلاء ، ففيها منافع للناس العاشقين ...

لقد قصّر النابغة عن النابغة في استخبار الدار في داليّته ، ناهيك بان الدالية مفككة الأجزاء مثل قصيدة زهير . وقد أعرب صاحب جمهرة العرب عن ذوقه الفني حين أحصى الرائية في كتابه لا الدالية . والنابغة يقيم الدليل على نبوغه في وثبات رائعة موفقة في الصورة والموسيقى كقوله في استبطاء الليل حتى صارت الليلة النابغية ، بعد بديع الزمان ، مضرب المثل:

كِليـني لهمّ يا أُميمة ناصبِ وليلٍ اقاسيهِ بطيءِ الكواكب [2]
تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ

وقوله في الصورة الثانية التي افتخر بها النابغة في عكاظ على حسان ، ان صدق الرواة :

وانك كالليل الذي هو مدركي وان خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ [3]
نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسـد

ثم في قوله الذي عبّر عنه أسلافنا بالرهبة :

أتيتك عاريـاً خَلَقاً ثيابي على خوفٍ تُظنُّ بيَ الظنون [4]

إن نابغتنا اتبع زهيرا في اخراج الصور فاستجدى بها نعمانه السمح ، وترك هندازها لثالث هؤلاء – الأخطل التغلبي – الذي قال : أشعر الناس ، قبيلةً ، بنو قيس ؛ وأشعر الناس ، بيتاً ، بيت زهير ؛ وأشعر النـاس ، رجلاً ، رجلٌ في قميصي .

---

(١) استعجمت . عجزت عن الكلام . (٢) كليني : اتركيني .
(٣) المنتأى : البعد ، المسافة . (٤) خلقاً ثيابي : ثيابي بالية .

إن المقابلة بين هؤلاء الفحول الثلاثة ميسورة ، فليت من له متسع من الوقت يقابل بينهم ، فبينهم نسب قريب جداً .

قد استحق النابغة أن يحكّم في سوق عكاظ ، فشعره صافٍ نقي . وإذا حاولنا أن نميّز بعض الشعراء الجاهليين من بعض ، فلا نستطيع ذلك لأنهم لم يخرجوا من حظيرتهم ، واتبعوا خطة رُسمت لهم ، فكانت كالطرق المزفّتة في هذه الأيام . وأيّ جديد يجد من يسير في مثل هذه الجادات ؟

بقي – عدا عنترة – شاعر اسمه عبيد بن الابرص . لماذا عدّوه بين هؤلاء الفحول ؟ لست أدري . وأية غرابة وجدوها في قوله حتى ألّفوا أسطورة حول شعره ، فقالوا أنه غضب لأن رجلاً اتهمه بأخته ؟ وابتهل إلى الله ونام ، فأتاه آتٍ في المنام بكبّة من شعر حتى ألقاها في فيه ، ثم قال له : قم ! فقام وهو يرتجز ببني مالك . إن معلقة عبيد لا تستحق أن تكتب ، فكيف بها أن تحصى في الشعر الذي يفتخر به العرب ؟

أما عنترة فأبقيناه إلى الختام ، لأنه جمع في قصيدته الميمية المشهورة مُثُل العرب العليا في الحياة . فالذين وصفناهم من أصحاب القصائد العشر قد يقصّر بعضهم في نواحٍ أو ناحية ، أما هذا العبد الأسود فأرانا أخلاقاً يندر وجودها في الأحرار البيض . فحبه عربي قح ، وخلقه عربي صرف ، وأسلوبه دانٍ كل الدنو من لغتنا اليوم . ولهذا سندرسه أكثر من أصحابه . وفي كل حال لسنا نرسم إلا خطوطاً رئيسية ، وعلى من يتعمق أن يفصّلها .

إن ما يرويه الرواة عن عنترة وقعوده عن النجدة ، حرداً وغضباً يقرب كثيراً من حكاية إلياذة هوميروس. ولسنا نعني بهذا أن معلقته ملحمة

إذا آمنّا بما يقوله علم النفس عن مركّب النقص ، رأينا ان عنترة هالته بشاعته التي لا تغري عبلة ، فجمل وكده في قصيدته محاولاً أن يستميلها برجولته ، وللرجولة شأن عظيم في عيني المرأة . فكان جلّ همّ عنترة ان

يصوّر لحبيبته عبلة بطولته وما تضمه من اخلاق عربية نبيلة ، فقال قصيدته وما موضوعها إلا عنترة ذاته .

كأني بعنترة قد أدرك ان السير على نمط واحد في الشعر يملّ ويكره ، فقال : هل غادر الشعراء من متردم . خلنا انه سيقول غير ما قالوا ، ولكنه أطلّ من الباب وعاد حالاً الى الحظيرة ، فقال : ام هل عرفت الدار بعد توهّم ... ثم راح يصبّـــح ويسلـّم . وهو لولا يظـل في تمرده لشجع الشعراء على الخروج من حظيرة التقليد ، ولم يخشوا ذئاب النقاد الذين حبسوهم هناك الى الابد . اني ارى عنترة يصور في قصيدته نموذجاً عربياً . ولأجل هذه الصورة اكاد اصدّق ما رواه المحدثون عن النبي الكريم .

في القصيدة اضطراب ، وفيها كغيرها ضعف سياق ؛ وفيهــا مثل تلك مخالفات لغوية ونحوية ؛ وفيها الى جانب كل هذا صور طريفة كتشبيهه ناقته واقفة في طلول عبلة بالقصر ؛ وفيها لوعـة حبيّة حقيقية لا تتعدى التقاليد العربية في الحب والعشق. قد يتحابّ عاشقان تحت غبار الحرب بين قبيلتيهما. ان عنترة حائر كيف يدرك عبلة وهو بالغيلم ، وهي قد حلـّت بارض الزائرين فأصبح طلابها عسراً عليه . اما عبلة فصفتها كصفة غيرها من بنات العرب ، حلوة معطير ، حتى شبّه عنترة فمها بالروضة واستطرد فوصف الذباب ذلك الوصف الذي اعجب الرواة فاشادوا بذكر عنترة . وتوارث هـذا الاعجاب اليوم اساتذة الادب العربي كابراً عن كابر ...ويصف عنترة حيـاة السيدة العربية وحياة الفارس مثله فهي :

تمسي وتصبح فوق ظهر حشيّةٍ ،
وأبيت فوق سَرَاةِ أدْهَمَ مُلْجَمِ [1]

ويستطرد عنترة الى وصف ناقته ، كما فعل طرفة ، فيصفها مثله بعد ان

---

(١) السراة : أعلى كل شيء ، أراد صهوة جواده . الحشية : الفراش المحشو

يتمنى ان تبلغه دار عبلة ، ويناجي عبلة بقوله : ان القناع المسدول دونه لا يمنعه من اخذها ، لأنه طبّ بأخذ الفارس اللابس اللأمة والدرع . وهو وان كان في هذه البطولة فسهل القياد اذا لم يُظلم .

مسكين ! يقول هذا ليهوّن عليها ما يلقي منظره من رعب في نفسها. ثم يخفف من اهوال تلك الشخصية بما يصف به نفسه من كرم. فهو يحب كما يحب كبراء العرب ، ويحارب خيراً منهم ، ويشرب مثلهم ايضـاً . لا يشرب الا بالدينار الذي اجتلى بـه الاخطل عذراء ذاك العلج المكثار ... واذا شرب عنترة فهو كريم يبيد المال . وفي تلك الثورة يبقى محافظاً على عرضه . واذا صحا فهو فارس ميدان . ويحدث عنترة عبلة عن كل هذا حديثاً يستفاد منه ان القضية معلومة منها،لا تحتاج الى برهان،ولكنه يقول ما يقول للتذكير .

وبعد الحب والشرب ينتقل عنترة الى الحرب ، ولا يزال وسواس عاهته عالقاً بذهنه ، فيخبر عبلة عن جبروته ، فيصف لها كيف يترك حليل الحسناء الغانية مجدّلاً بضربة عاجلة . ولها أن تسأل الخيل إن كانت جاهلة ، بما لم تعلم فيخبرها بذلك من شهد معاركه

ان عنترة كبعض الفنانين – الفن للفن – يحب الحرب للحرب . ولذلك يقتل للحفاظ لا للسلب والغنيمة . واذا عجز القوم عن البطل العنيد الكريم الذي لا يتزحزح من الساحة فهو يجود له بطعنة ويريح البرية من شره

واخيراً يصف لها بطلاً ثالثاً فيصوره أعلى مثال من كرام العرب : قيدوم الجماعة ، وبطل السرج ، واسد المجلس . ومع ذلك فعنترة طعنه بالرمح ، ثم علاه فحزّ رأسه بسيفه .

كل هذا ليحوّل بصر عبلة عن الجمال ويستميلها الى الرجولة الرائعة. ولهذا يخبرها كيف لبى نداء مُرّةَ حين ايقن أنّ سيكونُ ضرب يطير عن الفراخ الجُثّم ، وقد كنّى صاحبنا بالفراخ الجُثّم ، عن الجماجم فاجاد .

ثم يشخّص حصانه في هذه المعركة الفاصلة ، حتى كاد يكلمه شاكياً ، ولكن عنترة لا يرحم نفسه في الجلى ، فكيف يرحم حصانه .

لقد حشر عنترة في قصيدته هذه مكارم الاخلاق العربية كلها ، فاصبح هذا العبد خير نموذج للاحرار . فما كان ألطفه في التعبير ، وما كان اسلم ذوقه، وهو البدوي الجاهل ، حين قال :

واغضُّ طرفي إنْ بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وما اسمج ذوق المتنبي ، وما ابشع تعبيره ،حين قال في هذا المعنى ايضاً:

إني على شغفي بما في خُمْرِها لأعفُّ عما في سرابيلاتها

إن هذا عبد، وهذاك حر إله ذاته ، فتأمل! لقد أحسن عنترة الاستالة، وتسامى إلى أسمى التسامي ، واستغلّ «عبديته» في فنه الشعري ، فقال :

أنا العبد الذي خُبّرت عنه وقد عايلتني فدع السماعا

وقال أيضاً :

إن كنتُ في عدد العبيد فهمتي فوق الثريا والسماك الأعزل

أما سواده فأوحى اليه صوراً رائعة رددها في شعره الآخر ، منها قوله :

يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

ولا يزال « السواد » حتى اليوم .. وآخر من استغله محمد إمام العبد ، كما أشرنا إلى هذا في موضع آخر .

ان عنترة أول شاعر يدرس الفتى العربي ، بعد أبي الطيب المتنبي . لقد تسامى هذا العبد فرفع نفسه ورفع الناس معه .

خصائص الشعر الجاهلي

كان الشاعر الجاهلي ، مثل « القوّال » اليوم ، يقول الشعر بلغته ولهجته ، فيستحلى ويستملح ، لأن سامعيه كانوا يتذوقونه تذوقاً غير منقوص ، يحسون الاجواء ، ويدركون الشخوص ، ويعرفون الأمكنة . وفي هذا ما فيه من الايحاء. أما نحن فبُعدنا عن كل هذا ينقص تذوقنا ويجعلنا دون العربي القح إحساساً لهذا الشعر . إن الفاظ الشعر الجاهلي لا تحمّل أكثر مما حمّلها أصحابها ،وإذا استعجمناها نحن فلأنها لا تدور على ألسنتنا فيصقلها الاستعمال ، ناهيك بأن لمعرفة المكان أعمق أثر في نفس القارىء . ولهذا وجدتني أشد رغبة في الشعر الجاهلي بعدما قرأت « ملوك العرب » للريحاني .

كان الشعراء ألسنَ القبائل يعبّرون عن أغراضهم ومآربهم بلسان تلك القبائل وأساليبهم وطرق تعبيرهم وتفكيرهم ؛ وإذا خلوا إلى نفوسهم عبّروا عما يجيش فيها من خوالج نفسانية . كان عندهم لكل غرض الفاظ ، فاشتد قريضهم ولان حسب مقتضى الحال . وهكذا تتنوّع الموسيقى في القصيدة الواحدة . وهذا ما ضلل أحد الباحثين حين ظنّ ان الأبيات إذا كانت هيّنة ليّنة في قصيدة جاهلية فهي دليل واضح على انها منحولة . ان هذا لضلال وقلة بصر بوجوه الشعر . فالشاعر يرقّ ويشتد في قصيدة واحدة ، تبعاً لأغراضه ، فكيف به في ديوانه .

قال الجاحظ في كتابه « البخلاء » : كان الأصمعي يقول : قد كان للعرب كلام على معانٍ ، فإذا تبدلت تلك المعاني لم تتكلم بذلك الكلام

وإذا لاحظنا ان الشاعر العربي ذاتي ، يعنيه « الانا » قبل كل شيء ،

أدركنا السبب في اتخاذه اللهجة الخطابية ، فكأن كل قصيدة معدّة لتلقى على الجماعة وهي كذلك .

ليس في الشعر الجاهلي تكلف ولا تقعّر ، فهو كالزجل اليوم . كان يقال عفو الطبع ، يعتمد على التشابيه ، والاستعارات ، والصور ، والعاطفة على ضروبها وانواعها ، ولم يصبح فناً أو عملاً إلا مع زهير . ونما نموّه الملوم مع راويته الحطيئة حتى سمي عبد الشعر ، ثم مع النابغة ، فالاخطل . وهـذا التمحل لم يبعد الشاعر الجاهلي عن الصدق، فهو صادق ما استطاع في تشابيهه. خذ قول امرىء القيس في وصف الطوفان :

وتيماءَ لم يترك بها جذع نخلة ولا أطماً إلا مشيداً بجندل[1]

ومع كل ما في هذا الشعر من صدق لم تبقَ لنا حاجة ماسة اليـه . فهو منبع لغوي فقط . أما عناصر الفن والتاريخ والاخلاق فضعيفة فيه . ومع ذلك اراثا ندرس هؤلاء الشعراء بشكل يقرب من التقديس . فعنترة كأحد آلهة اليونان ، وزهير فرخ نبي. ندرسهم اليوم كما قرأنا عنهم في كتاب الأغاني وغيره من المجموعات الأدبية، فلا نجرؤ ان نقابل هذا الشعر باقل نقد، فكأنه وحي . وهب أن استاذاً « تمردّ » وخرج على التقاليد الأدبية وشايعه تلميذه كان الرسوب في الامتحان جزاءه .. إذن ، على المدارس التي تهيء تلامذتها للمنهاج أن تعمل بقول غوستاف لبون ، فتضع فونغرافاً على كرامي الاساتذة فيؤدي مهمتهم المنهجية .

وعلى الطالب أن يسمع من معلمه : امرؤ القيس اول من وقف واستوقف، واستبكى ، وقيّد الاوابد .

وأن يقول ، مثلاً ، اذا سئل من أشعر العرب : امرؤ القيس اذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب .

---

(١) الاطم ، هنا البناء المرتفع . مشيد : مبني . جندل : صخر .

وعليه ان ينعت اللغة العربية كلما جرى ذكرها بقوله : لغتنا الشريفة ، واشرف اللغات .

وعليه ألّا ينتقد شاعراً من شعراء المنهاج ، وأن فعل فمصيره الخذلان والخيبة. ليس له ولا لأستاذه أن يفكرا إلا وفقاً للمنهاج، وان فعلا فالخسارة عليهما .

إن قصيدة واحدة من القصائد العشر لتغني عن الشعر الجاهلي كله . ماذا يعنينا اليوم من حياة لا نعيشها ؟ فلنفتش عما ينفع ابناءنا تربوياً . فلو كان في أقوال هؤلاء الشعراء خير لما قال عنهم الكتاب الكريم ما قال وسفّههم .

إن الاسلامَ منذ أربعة عشر قرناً غيّر المثل الأعلى الجاهلي، ونحن في القرن العشرين نحسبه ركناً تعليمياً .

بَعْدَ الإسلام

عصر العصبيّة العربيّة

وركدت ثورة الجاهلية حين ظهر الاسلام، وكان للقرآن الكريم أعظم وقع في النفوس فحسبوه شعراً ، وقالوا عن صاحبه شاعر مجنون . وكان للاسلام ، كما يكون لكل دعوة جديدة ، أعداء وأنصار ، فانشق الشعراء شطرين : فريق يدعو لمحمد وحزبه ، وفريق ينفّر الناس منه ، ويؤلّبهم عليه . على رأس أولئك حسّان بن ثابت ، وعلى رأس هؤلاء أمية ابن أبي الصلت .

كان أميّة ألد خصوم الرسالة الجديدة ، ولم يكن بالخصم الهيّن ، وان كان شعره غريب الوجه واللسان . قال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف وان أشعر ثقيف أمية ابن أبي الصلت . وقال فيه الكميت : أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال .

وقال الزبير عن عمه مصعب ، عن مصعب بن عثمان : كان أمية قد نظر في الكتب وقرأها ، ولبس المسوح تعبّداً ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرّم الخمر ، وشك في الأوثان ، وكان محققاً ، والتمس الدين، وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يُبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكون هو . فلما بعث النبي — صلعم — قيل له : هذا الذي كنت تستريث [1] وتقول فيه ، فحسده عدو الله : وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه .

(١) تستريث : تستبطيء .

فأنزل الله فيه عزّ وجل: واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها .
قال وهو الذي يقول :

كل دين يومَ القيامةِ عند الله إلا دينَ الحنيفةِ زورُ

حنق أميّة لهذه الخيبة ، وشرع يحرّض قريشاً بعد وقعة بدر ، حتى نهى رسول الله عن رواية احدى قصائده . وقد قال الحجاج على المنبر : ذهب قومٌ يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندرس الكلام .

وامية قدم على أهل مكة « باسمك اللهمّ » ، فجعلوها مكان بسم الله الرحمن الرحيم في أول كتبهم . وقد وضعت أساطير حول امية ، منها انه خرج في سفر ، فنزلوا منزلاً ، فأمّ امية وجهاً وصعد في كثيب ، فرفعت له كنيسة فانتهى اليها ، فاذا شيخ جالس ، فقال لأمية حين رآه : انك لمتبوع، فمن أين يأتيك صاحبك ؟

قال : من شقّي الأيسر. قال : فأي الثياب أحب إليك أن يلقاك فيها ؟ قال : السواد . قال : كدتَ تكون نبي العرب ولست به . هذا خاطر من الجن وليس بملك . وان نبي العرب صاحب هذا الأمر يأتيه صاحبه من شقّه الأيمن ، وأحب الثياب اليه أن يلقاه فيها البياض ...

وهناك أساطير عديدة أغربها انشقاق السقف وظهور طائرين ، وقع احدهما على صدره فشقّ قلبه . وكان بين الطائرين وبين امية حديث . ولم يبخل عليها امية بكلام يشبه الشعر .

الخلاصة ، ان ظهور الإسلام حوّل الشعر مدة عن مجراه ، فصار نضالياً حيناً ، ثم سكنت ريحه، فترةً ، في صدر الإسلام على عهد الخلفاء الراشدين ، ثم عاد سيرته الاولى ، ينحو نحو الأقدمين في أغراضه واساليبه .

ودبت اليه عناصر السياسة فكان فريق من الشعراء يؤيد علياً ، وفريق يناصر معاوية . ولما سكنت الأمصار بين يدي الأمويين ساسوها على أساس

العصبية العربية ، ولم يقدّموا غير عربي ، فأوغروا الصدور وكان لهم خصوم من العرب فحاربوهم حتى أخضعوهم ، ولكن الضمائر ظلت في غليان . فانضم هؤلاء إلى الأعـــاجم المغلوبين على أمرهم ، فقاوموا جميعاً « العصبية العربية » وهذا الاتحاد العربي الفارسي جعل الدولة العباسية في اضطراب دائم ، وأخيراً أدى ذلك إلى اضمحلالها واندثار الملك العربي .

ان العصر الأموي خلق للشعراء سوق عكاظ جديدة : المربد . وفي هذا العصر أيضاً استقلّ الهجاء والغزل ، فهو العصر الذهبي للشعر العربي القديم .

عصر الهجاء

هو العصر الاموي . واذا تحدثنا عن العصر الأموي فما نعني غير ذلك الثالوث الأنجس : الأخطل ، وجرير ، والفرزدق . لقد مزّق هؤلاء الثلاثة الأعراض ، ونبشوا القبور ، وصلبوا الموتى ، وأكلوا لحوم اخوانهم احياء وأمواتاً. واذا تحدثنا عن هؤلاء الشعراء فكأننا نتحدث عن شعراء الجاهلية ، فالطور الذي أوحى الى الجاهلي هو الطور الذي استوحاه الأموي واستلهمه العباسي . لقد سدّ شعراؤنا نوافذهم لئلا يبصروا العالم الخارجي ، حتى قال اعمق العرب ثقافة واثقبهم عقـــلاً واغزرهم معرفة ، أي الجاحظ : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب .

لا نلوم شعراءنا الاولين ان خاضوا بحر التقليد خوضاً،فهم أطفال بالقياس الينا . والطفل أشد تقليداً من البالغ . وانسان القبيلة والجماعات يدور على نفسه في حلقة محكمة، بخلاف المفكر « الوحيد » الذي يرى الناس من علُ، ويحكم عليهم . ناهيك بأن التقليد ناموس طبيعي يسيّرنا في كل زمان . قال أحد دارسي الأدب الغربي إذ بحث التقليد في شعر أمته : نستطيع أن نضع خلف كل شاعر جديد شاعراً قديماً .

لم يفت ذلك اسلافنا فقال أبو عمرو ابن العلاء : الأخطل كالنابغـــة ، والفرزدق كزهير ، وجرير كالأعشى . أصاب ابن العلاء بؤرة الهدف إذ شبّه الاخطل بالنابغة فكأنهما واحد.أما جرير والأعشى فيجتمعان في الرنة الشعرية ويختلفان في تماسك الديباجة . فليس في شعر صنّاجة العرب هلهلة شعر ابي حزرة ، وقد طاش سهم ابن العلاء في تشبيه الفرزدق بزهـير . والذي يبدو

لي هو أن خيال هؤلاء ، ما خلا الأخطل، اضعف من خيال شعراء الجاهلية، فالفرزدق خاصة ينقصه الخيال والعاطفة وهما ملاك الشعر وقوامه .

الاخطل كحليفه الفرزدق حامض الوجه . كلاهما جافّ، بيد ان الاخطل يبتسم أحياناً نصف ابتسامة ، وله نزوات محبوبة حين يحدثنا عن الاخرين . وله وثبات في النضال تدل على ان هناك نفساً طرية ، ولكن خمرة ابي نسطوس يبّستها ، فصارت كتلك الافاعي المنقوعة في الكحول تبدو لامعة ولا حياة فيها .

لست أميز هؤلاء الشيوخ من مشايخ الجاهلية ، فالجاهليون يؤلهون المادة ولا يهمهم ما وراء القبر :

فذرني أروّي هامتي في حياتها ستعلم ان متنا غداً أيّنا الصدي[1]

وهؤلاء مؤمنون ، ولكن أي أيمان ؟ فمسيحية الأخطل مسيحية شمطاء ناصلة : « السكّيرون والزناة لا يدخلون ملكوت الله » . والاخطل كان يصحو ولا يفيق . اسمعه يتهدد زوجته :

أعاذلَ ، إلا تقصِري عن ملامتي أدَعْكِ، وأعمدْ للتي كنت أفعلُ[2]
وأهجرْكِ هجراناً جميلاً ، وينتحي لنا من ليالينا العوارم أوّلُ[3]

ويا ليته اكتفى بهجرها هجراً جميلاً ولكنه طلقها الثلاث طلاقاً قبيحاً . . اما الفرزدق فاقوال الرواة وابن عمه تسفّهه . هو فرد غير تائم ، يرقى الى جاراته بالسلالم ، يتدلى من ثمانين قامة ليزني ، ويقصر عن باع العلى والمكارم. اما جرير فبذيء اللسان، كشّاف عورات . اني حين أرى الجيف الطافية على

(١) أروي : أسقي حتى تروى. هامتي : رأسي. والمراد هنا : نفسي . الصدي : العطشان.
(٢) أعاذل ، أراد : أعاذلة : يا لائمي ، يقصد زوجته التي تلومه على شربه الخمر . اعمد للتي كنت أفعل : يعني : أعاود شرب الخمر .
(٣) ينتحي : يجدّ . ليالينا العوارم : ليالينا التي خرجنا بها عن الحد ، شرباً وعربدة .

بحور شعره أحار أين اجد العفة التي وصفوه بها فالجاهليون وهؤلاء ، متساوون في التدين والاخلاق ، لا بل اني أرى زهيراً الجاهلي أفضل من ذاك النصراني وذلك المسلم .

اما الخلافة ، وهي أقوى الروابط الاسلامية ، فما قرّبت الشاعرين المسلمين من الامام ، فكان شاعره نصرانياً . مدحه جرير مستميحاً ، وادلّ به على تغلب شعرياً فقط حين قال :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة   لو شئت ساقكم اليّ قطينا [1]

ولكن ابن مروان لا يصغي الى ترثرته ، فهو يسامر الأخطل تاركاً الفرزدق أيضاً يتغنى بنار غالب . ان حمية الجاهلية التي اخمد الاسلام نارها قد دبّ لها هؤلاء بالحطب ، فكانت جهنم أرضية ، وقودها الناس واعراضهم . ففي هذا العصر بلغت العصبية القبلية منتهاها ، فصار ذو الصليب شاعر الخليفة . هب ان الأخطل كان كما قال لسائله : أشعر الناس ، قبيلةً ، بنو قيس ؛ وأشعر الناس ، بيتاً ، بيتُ أبي سلمى ؛ وأشعر الناس ، رجلاً ، رجل في قميصي ، ثم كان وقومه في غير حلف عبد الملك ، أكانت تطأ رجلاه بساط هذا الخليفة ؟

إذا فتشنا عن أثر ديني في شعر الأخطل فلا نقع إلا على هذا البيت :

لما رأونا والصليب طالعاً   ومار سَرْجِيْسَ وُسمّاً ناقعا [2]

ولكننا نجد إلى جانب هذا الابن الوحيد جاهلية عارمة كلياليه التي تهددَ بها زوجته ، واليك بعض ما قال :

اني حلفتُ بربِ الراقصات وما   أضحى بمكة من حجُبٍ وأستار [3]

---

(١) القطين : الخدم والأتباع .   (٢) الناقع : السم القاتل .

(٣) الراقصات ، أراد بها : النياق .

وبالهديّ إذا احمرّت مدارعها   وما بيثرب من عون وابـــكار [1]

وقد رووا انه كان يحلف باللاتِ والعزّى . صدق الله العظيم : قالت الأعراب آمنّا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولمـا يدخل الإيمان في قلوبـكم

وكيف يؤمنون وفي قلوبهم الحمية (حمية الجاهلية) وهي التي أنطقتهم بهذا الهجو القذر . ان شعارهم جميعاً كما قال طرفة : ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتى ... أي الشرب ، والحب ، والحرب .

لا يهم الاخطل إلا دواء يرد الشيب ليرجع شرخاً [2] ويملأ بطنه من خمور قطار [3] فلسطين ، ويأكل صفيف الشواء والقدير [4] المرعبل [5] ، ويتمتع بما يلي ذلك ... اما جرير والفرزدق فلم يحسبا للملكين حساباً ، فقال جرير لصاحبه :

ولو متنا لشدّ عليك قـــبري   بمسموم مضاربه ، حسام [6]

عاشوا جميعاً ليأكلوا ويشربوا،فخلا شعرهم من الصوفية والنسمات الروحية التي تنعش الشعر وتحييه ، ومن المحبة التي ترقّقه ، فشعرهم ثلاثتهم مادي لا يستطاب ولا يبقى . وما قول الاخطل :

وإذا افتقرت الى الذخائر لم تجد   ذخراً يكون كصالح الأعمالِ [7]

---

(١) الهديّ ، هنا : الحمام الذي يرسل بالكتب ويعود بأجوبتها . المدارع ، جمع المدرعة ، أي : الجبة . أراد بها غطاء الحمام من ريش . يثرب : المدينة . العون : النساء في منتصف العمر وقد تزوجن . الابكار : النساء الصغيرات سناً ولم يتزوجن .

(٢) شرخاً : في أول الشباب .   (٣) القطار ، هنا : القافلة .

(٤) القدير : اللحم المطبوخ في القدر .

(٥) المرعبل ، هنا : اللحم المقطع شرائح لينضجه الطبخ .

(٦) المضارب ، أراد بها هنا : مضارب السيف أي حده .

(٧) الذخائر : هنا : الحسنات التي يعدها المرء في حياته لآخرته .

إلا كقول الدهري : خلق الله السماوات والارض ، لأن توبة صاحبنـــا مريضة بدليل قوله :

ولقـد اكون لهنّ صاحب لذة حتى تغيّر حالهن وحـالي
لما رأت بدل الشباب بكت له والشيب أرذل هذه الأبدال (١)

لم يفكر هؤلاء بغير صيغ والفاظ وصور متشابهة ، فجاء شعرهم متشابهاً متماثلا تغنيك مطالعة احدهم عنهم جميعاً. ساروا وراء من تقدموهم ولم يفكروا بتغيير شيء من اساليب حياتهم ، فظل الشعر بدوياً خشناً ، لم يتأثر بشيء من لين القرآن وحنانه . جفاف ويبوسة كطباع الفرزدق والاخطل . فهذان الشاعران لم ينزلا عن عرش ارستقراطية لغة الشعراء، بل غرقا في لجج الخشونة والغرابة وخصوصاً الفرزدق . ولا تعجب اذا قلنا ان الاخطـل اصح لغةً وأسلوباً من الجاهليين ، فهو صديق عبد الملك الخليفة النقّادة . وعبد الملك وعامله الحجاج ما لحَنَا (٢) قط لا في جدٍ ولا في هزل .

أما جرير فقد لان شعره . واننا نسميه بحق شاعر عصره الشعبي. ان هذا لم يفت القدماء ، فقد سأل جرير رجلا من بني طهيّة : أيّنا اشعر ، أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : انت عند العامة ، والفرزدق عند العلماء . فصاح جرير: أنا ابو حزرة ، غلبته ، ورب الكعبة . والله ما في كل مائة رجل عالم واحد.

أما الأخطل والفرزدق فما عبّرا تعبيراً شعبياً ، بل فتشا بالفتيلة والسراج عن الصيَغ الجاهلية وحشراها في منظومها . ان الشعب لا يتذوق إلا مـا ألفه من تعابير ، فصيغه المألوفة تؤدي له المعنى كاملاً غير منقوص . ولهذا استطاب شعر جرير واستساغه ورواه ، ولم يطرب لشعر الأخطلـين ولم يروه .

---

(١) البدل : العوض . وبدل الشباب : الشيب .

(٢) لحن في كلامه أو قراءته : أخطأ في الاعراب وخالف وجه الصواب .

وإذا سمينا هذا العصر عصر الهجاء فما نعدو الحق، لأن الهجاء سيطر فيه على جميع أغراض الشعر حتى الرثاء.لم يحفزهم إلى ذلك غير الاحداثالسياسية وانشقاق العرب حولَ الخلافة . ما افتخر الفرزدق ليتعالى على جرير وحده، بل ليتعالى ، من حيث لا يشعر ، على الجالسين على السرير ، فيذكرهم بمجد آبائه وأجداده . ان السياسة في ذلك العصر هي التي أركبت الشعر ذلك المركب الوعر فطبعته بطابع الهجاء ، وكثيراً مـا تُطوّر السياسةُ أساليبَ التفكير . كان الشاعر في عصره وزير دعوة ونشر ، فلا نعجب ان رأينا السلطان لا يُسكت هؤلاء الثلاثـة . فالتيار قد جرف الخلفاء أنفسهم ، فأداروا دفّة السفينة وهم لا يعلمون أنهم ربابنتها .

لقد ابعد التناطح الشعري هؤلاء الفحول الثلاثة عن منطقة الفن وحسبك أن تقرأ مناظرة جرير والفرزدق عنـد بشر بن مروان لترى مقدار حظ شعرهم منه.. انها لأشبه بمناظرة قوّالي الزجل والعتابا عندنا . لا شك أنهم في شعرهم الآخر أكثر فناً منهم في هذا البراز الشعري ، ولكنهم أسفّوا [1] في كل حال، فابتعدوا عنالشعر إذ جعلوا أغراض شعرهم أغراضقبائلهم. حسبنا نقيضة [2] الفرزدق اللامية شاهـداً على ما نزعم ، ففيها جيش عرمرم من الأعلام لم تقذف بمثله روسيا الحمراء . وهكذا استحال الشعر الهجائي المعروف بالنقائض [3] فهرساً شاملاً لمثالب [4] العرب ، ويا ليته لم يكن .

---

(١) أسفوا : تدنوا وانحطوا .

(٢) النقيضة : قصيدة الهجاء التي يردّ بها شاعر على آخر هجاءه . وربما التزمت النقيضة وزن القصيدة التي تنقضها وقافيتها .

(٣) النقائض : جمع النقيضة . (٤) المثالب : المعايب .

حلو الكلام ومرّه لجرير

قوام شخصية جرير شِرّة وحميّة . يستفزه الغضب فيشرئب ، ويتهيأ للنطاح والمساورة ذياداً عن حياض شعره . يستجيب لكل دعوة ، ويصول يمين وشمـــال ، وخلف وقدام ، وفوق وتحت . ينبش القبور ولا زياد [1] يدفنه فيها حياً . نموذج اعرابي أصيل ، من طبعه الهرج والمرج ، تدلنا على خواصه جميعها كلمة الحجاج : قاتله الله اعرابياً ، انه لجرو هراش . وهــل هجاء هؤلاء الفحول ثلاثتهم غير عرارة ونبوح ؟

وإذا قرأنا تلك الأسطورة التي رواها أبو الفرج عن أبي عبيدة ، اتضحت لنا شكامة خلق جرير . قــال : رأت أم جرير ، وهي حامل به ، كأنهــا ولدت حبلاً من شعر أسود ، فلما سقط منها جعــل ينزو ، فيقع في عنق هذا فيخنقه ، حتى فعل ذلك برجال كثيرة . فانتبهت مذعورة ، فأوّلت الرؤيا ، فقيل لها تلدين غلاماً شاعراً ذا شرة ، وشدة شكيمة ، وبلاء على الناس . فلما ولدته سمته جريراً باسم الحبل الذي رأت أنه خرج منها قال : والجرير الحبل .

لا يعنينا أكاذبة هذه الرواية أم صادقة مـــا دامت تنم عن طبع جرير الذي أخرج من رأسه ذلك الكلام الحلو المر . وفي حكاية جرير مـــع راعي الإبل وابنه جندل دليلٌ آخر على شرّة جرير وحميته . قالوا انه لم ينم ليـلة طُرِحَت قلنسوته تلك الطرحة المشؤومة . شرب باطية نبيذ ، وحبـــا على فراشه عرياناً لما هو فيه . ومــــا زال كذلك حتى كان السحر ، فكبَّر ، ثم قال : أخزيته ورب الكعبة .

---

(١) أراد زياد ابن أبيه الوالي الأموي والخطيب المعروف .

تلك حكايتهم حول قصيدته المسماة «الدامغة» التي قالها ثمانين بيتاً في هجو بني نمير ، وهي تثبت لنا أن الحمية ـ الهيجان في علم النفس ـ هي منبع الشعر الجريري . فهو إذا اهتاج أصبح كالبركان يقذف الحمم ولا يدرك ما يقول ، فيزجّ في شعره الفاظاً وصوراً لا يتلفّظ بها الرعاع . وحسبك أن تعلم كيف تصوّر عنفقة [1] الفرزدق حين شاب ... ان غضب جرير واستقتاله في الدفاع عن شعره يذكرني بشعر هيغو الهجائي ، فكلاهما واحد يجري لغاية واحدة في هذا المضمار . حدة تشبه ثورة المجانين في رؤوس الأهلّة ، ولا فرق بينهما إلا أن لشاعر الغرب خيالاً عظيماً جداً ، وشاعرنا بعيد عن الخيال ؛ هذاك يفكر بالصور التي يخلقها ، وشاعرنا يعدّد المثالب ويعيّر ، فيكشف العورات ، ويمزّق الاعراض ، وركده الملحة والنكتة .

ان شعر جرير بخلاف شعر صاحبيه . شعر خفيف تغلب فيه لباقة التعبير على قوة التفكير . قريحة لدنة ليّنة يثيرها أقل تهويش . ولا مانع ان نضم إلى السجعات الأربع المشهورة سجعة خامسة فنقول: وجرير إذا غضب. لم يحاول جرير السموّ إلى لغة الشعراء المتقدمين ، فدار شعره على كل لسان . وقد أدرك ذلك الأخطل فقال : قلت أنا بيتاً ما أعلم ان احداً قال أهجى منه :

قومٌ إذا استنبح الضيفانُ كلبَهم قالوا لأمّهم : بُولي على النار ! [2]

فلم يروه إلا حكماء الشعر . وقال :

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرى حكّ استه وتمثّل الأمثالا [3]

فلم تبق سقاة [4] ولا أمثالها إلا رووه .

---

(١) العنفقة : شعيرات في الشفة السفلى والذقن . (٢) استنبح الكلب : جعله ينبح .

(٣) الاست : القفا ، تمثل الأمثال : ضربها ، كأن يقول : حفزاً لنفسه على البذل في اكرام الضيف : أنفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب .

(٤) السقاة : جمع الساقي ، وأراد هنا : الذين ينقلون للناس ماء الشرب .

أما السبب عندي فهو أن الأخطل تعمّل وتخيّل - وهو أقوام خيالاً - فأخرج صورة غير مألوفة ، فركد بيته وجاء كحمّى الدق . أما بيت جرير فيشبه حمّى تنفض الأجسام نفضاً ، فهبّت ريحه ، وركد بيت خصمه .

في شعر جرير نشاط ومرح ، فهو أشبه بخبب المسوّمة العِراب ، بينا شعر الأخطل يمشي ويهدر كالجمل الأورق .

خطى متزنة رصينة ترضي أهل السمت[1] . أما جرير فاتبع في الهجاء خطة بوالو ، استاذ الشعر الفرنجي ، فجاء شعره كما قال : تأتي كلماتي بلا عناء لتحل محلها . انه لا يتمكز في اخراج صوره على علم البلاغة . انظر إلى بيته الذي مرّ ، وقفْ عنده قليلاً . ليتك رسّام أو مثّال لتخرج لنا لوحة رائعة أو تمثالاً لتغلبي جرير المتنحنح للقرى . أليس هذا التخيّل البسيط المركّب صورة تضحك وتطرب معاً ؟ ان جريراً يحسن الهزل والتهكم والسخر ، فلستحلي هزله وسخره وتهكمه وان كان مبنياً على جُرف هار[2] .

ان ضربة جرير خاطفة كأنها سيف طرفة ، وهي غالباً كمبضع النطاسي . كان أقدر من صاحبه على نقض الكلام . ولو كان أبو حزرة من علماء الكلام لأتى ببراهين ذات حدّين . خاطب الفرزدق ناقته أجمل خطاب ، وخلص إلى ممدوحه بلباقة ، وسأله بكياسة انستنا سماجته إذ تحدث مع زوجته الطيبة ، على الفراش ، ذلك الحديث الثقيل ليخلص إلى ابن ليلى - عمر بن عبد العزيز - قال الفرزدق يخاطب ناقته :

إلامَ تلفّتين وانت تحتي ... وخيرُ الناس كلّهم أمامي
متى تَرِدي الرُّصافة تستريحي ... من التهجير والدّبَرِ الدوامي[3]

---

(١) السمت ، أصلاً : الطريقة والهيئة ، والمراد هنا : الوقار .
(٢) الجرف : الجانب الذي أكله الماء من حاشية النهر ، والهاري : الضعيف الساقط .
(٣) التهجير : السير في الهاجرة ، وهي من النهار وقت اشتداد القيظ . الدبر : جمع الدبَرة وهي قرحة الدابة تحدث من الرَّحْل ونحوه .

فانتفض جرير انتفاضة الصقر ، فإذا بصورة الفرزدق تسقط كأسوار أريحا حين سمعت صوت أبواق يشوع ...

تَلَفَّتَ أنها تحتَ ابن قَيْنٍ حليفِ الكير والفأس الكهام [1]
متى تردِ الرصافة تخزَ فيها كخزيك في المواسم كلَّ عام [2]

هذا هو الكلام الحلو المر الذي لم يخرج مثله إلا على رأس أبي نواس ، ولكن كلام ابن هاني اكثر فنا ، وأقل إيلاماً ، وأشد إضحاكاً .

ليس لجرير خيال الأخطل ، ولا ثروة الفرزدق اللغوية . ولست أجد تحديداً لشعر جرير أصدق من قول الجاحظ لصاحبه المربّع المدور : يحب المعنى حياً يلوح ، وظاهراً يصيح .

إن هذه الخاصة أبرز ما تكون في هجاء جرير . أما غزله الذي قال فيه الفرزدق : ولو تركوه لأبكى العجوز على صباها ، فلست أرى فيه ما رأوا، وليس ابداع جرير الأسمى هناك . لا شك أن هناك نوعاً لطيفاً من الغزل ، ولكن جريراً لم يفق سواه فيه ، بل بذّ أقرانه بتلك السهولة وذاك الظرف الذي لا يدعه في أرصن الساعات ، أي حين يمدح الخلفاء .

لا يموت جرير في سبيل النعم ، ولا يتحرق تحرق الأخطل ، ويخرج صوراً جافية مثل هذه :

اعرضن لما حنى قوسي موتّرها وابيضّ بعد سواد اللمة الشَّعَرُ [3]

---

(١) أن في « أنها » سببية . القين : الحداد ، وكان جرير يعيّر الفرزدق بذلك . الفأس الكهام : هي الكليلة غير الحادة .

(٢) تخزى : وقع في خزي ، وهو الهوان والعيب . المواسم : جمع الموسم وهو مجتمع الناس ، وأكثروا استعماله للدلالة على الحج والأعياد والأسواق الكبيرة .

(٣) الموتر : اسم فاعل من وتر القوس : شدها . وقوله : لما حنى قوسي موترها ، كناية عن تحدبه لكبر سنه . اللمة : الشعر المجاور شحمة الاذن .

ان هذه الخشونة تقلب الإعراض فزعاً فيهربن منه . وهو لو كان ألين وأرق لارعوين لحاجته ، ورأى أن عندهن لذي الشيبة بعض الوطر ... أما جرير فأجمل منه مخاطبة لهن فينادي صاحبته :

يا ام عمرو ، جزاك الله مكرمةً ، ردّي علي فؤادي مثلما كانا

لا شك انها وقفت وسارت الهوينا مصغيةً إلى تلك الموسيقى ، كما أنها تنفر نفور البقرة الجافلة حين تسمع الأخطل يندب وينوح :

بانت سعاد ففي العينين تسهيد واستحقبت لبّه فالقلب معمود[1]

انها تنفر وتمضي بتلك الحقيبة ولا ترد عليه ... عجباً لغياث[2] ! ألم يجد مستودعاً لقلبه أنعم من ذلك الخرْجِ ، وآمن من ذلك الموقع ؟ ... قد عرف الأخطل فعل الكلام فقال : والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر . أفما علم أيضاً أنه يلين القلوب القاسية ؟ انه الطبع ، فكلام صاحبنا ، على بلاغته وصحته ومتانته ، خشن كعَباء[3] الموصل .

لا نظلم جريراً إذا قلنا أن شعره الهجائي هرير وعواء ، ولكن في هذا الهرير والعواء ايقاعاً يستلذه السمع والذوق ، فتُنسى بذاءته . أما ماذا وبماذا يهجو فأعداء جرير كأعداء هيغو أيضاً : عبيد وتيوس وخنازير وكلاب ، وعقيدهم الفرزدق "قرَيْد" أصلع وقين ، ماعونه[4] علاب[5] وكير وعلاة[6] وقدوم ومبرد وكلبتان وَعِدْل من الحمم[7] الأسود . وكذلك آباؤهم وأمهاتهم جميعاً .

فرقّع لجدّك اكياره وأصلح متاعك لا تفسد

---

(١) استحقبت لبه : حملت معها عقله . معمود : مضنى موجع .
(٢) اسم الأخطل . (٣) العباء والعباءة : بمعنى واحد .
(٤) الماعون : كل ما ينتفع به من عدة وآلة . (٥) العلاب : جمع العلبة .
(٦) العلاة : السندان . (٧) الحمم : السواد ، أراد بها الفحم .

وإذا طفح الكيل زجّ في شعره هناتٍ وأشياء يستهجنها أشد الناس حباً للاحماض . فكل ما هجا به الأخطل والفرزدق ينحصر في بضع كلمات ، ولكن براعة سردها تنسيك قبح تكرارها ، فلا تحتج ولا تعترض .

كان لجرير الكيماوي مرتع خصيب في تلك الفرزدقة ، وهو أدرى الناس بفحص الدمن وتحليلها ، واكتشاف مضامينها ، ووصف ما بها من غرائب وعجائب ، كما أن دين صاحبه الآخر – أي الأخطل – أوحى اليه كلاماً مستطاباً :

قال الاخيطل إذ رأى راياتهم   يا مار سرجس لا أريد قتالاً

فهذا الكلام ، على بساطته ، استهوى الناس في الأمس ، ويستهوينا اليوم ، فنقول مع الفرزدق : قاتله الله ! فما أحسن ناحيته ، وأشرد قافيته .

أجل ، هو شاعر طلي محبوب ، ذو قريحة فيّاضة ، حاضر البديهة لرد الجواب ، يعينه على ترسيخ كلامه في الأذهان أسلوب رائق ان شرّة جرير لا تنطفيء ، لا رحمة عنده ولا غفران ، يضرب بالم وحقد وضغن ، فلا هوادة ولا هدنة :

ولو متنا لشد عليك قبري   بسمومٍ مضاربُه حسامِ

أما كلمتي المجملة في هؤلاء الثلاثة فهي : الأخطل أوفرهم فناً وأسماهم خيالاً ؛ وجرير أشدهم فتنة وأقلهم صنعاً للمنتوجات البيانية ، فكلامه طوعي اختياري لا فن فيه ؛ والفرزدق لا فتنة عنده ولا فن إلا متى وصف نار غالب ، وقدور دارم [1] وصفوف المعتفين حولها في السنة الحمراء .

---

(١) دارم : قبيلة الفرزدق .

عصر الغزل

كان عبد الملك بن مروان أبصرَ اهل عصره بوجوه الكلام ، وأدرى جيله بالشعر الجيد ، وأبلغهم كلمةً ، وأملحهم نكتةً مُمضّة .واذا كان الناس على دين ملوكهم فعصر عبد الملك نهضة استقل فيها الهجاء والغزل،وكانت الخطابة وبلغ الشعر الخمري الأوج . فابو نواس صهر صور الاخطل والأعشى والوليد وغيرهم ممن تقدموه في بوتقة فنه ، فخرجت أبهج وأملح ، وأنبثقت له صور خمرية طريفة أعانه على اخراجها دينه الذي حرَّم الخمرة ، وظرفه ، وخفة روحه ، ولسانه ، وبهولة بيانه .

فاذا راعينا مدنية العرب والفرنسيس كان شعراء عصر عبد الملك كشعراء عصر الملك الشمس. فالمدح والغزل والهجاء اجتمع اشدها فيعصر ابن مروان، عصر نهضة الشعر الرصين ، والكلام العربي المبين.فالغزَلان الاباحي والعذري استقلا في هذا العصر حتى اذا ما انقضى ، امسى الغزل كالمقبِّلات التي تتقدم المآدب . فعمر وجميل هما شاعرا الغزل ؛ أما بقية الشعراء فبَدَدٌ .واحسبك توافقني على كنية جديدة نطلقها على ابن ابي ربيعة . قد وسخ عمر كنية ابي الخطاب في غاراته التي شنها على الحريم ، فأبو جوان تليق به ، وتدنيه من زميله دونجوان الاوروبي . ان دونجوان شخص اسطوري ، أما أبو جوان فكنية حقيقية ، لأن جوان بن عمر كان رجلا صالحاً كما روى الاصبهاني .

فليهنىء العرب دونجوانهم ، وماذا كان ينقصنا بعد ؟

قال الجاحظ في حجج النبوة : والنـــاس أشبه بازمانهم منهم بآبائهم والحجاز كانتَ في زمن عمر مترفة : ثروة يضخمها الفيء الذي ينصبُّ فيهـا انصباب وفود الماء في بركة المتوكل . وماذا يعمل شاب قرشي سدّ عليه

الأمويون وعلى اضرابه مطلع السياسة ، وأغرقوهم في الاعطيات لئلا يتطاولوا على الخلافة ؟

أحسّ عمر انه شاعر ، وهبّت في صدره الاهواء فغنّى لها ، فحملته على أجنحتها إلى عبقر . قد يكون ركب رأسه بعد موت أبيه ، ففتنته مجالس الغناء والشراب والجواري والقيان ، والمواسم التي تتجدد كل عام عندهم . فمكة مشتى الأكابر ، ومصيفهم الطائف ، وعمر منهم . يسيل العقيق فتسيل معه عواطفهم ، ناهيك بالقصور والجنات التي قامت على آثار الطلول كما أنبأنا عمر بقوله :

هيّج القلبَ مغانٍ وصيَرْ دراساتٌ قد علاهنَّ الشجر (١)

وكما قال جرير يخاطب هشام بن عبد الملك :

شققتَ من الفراتِ مباركاتٍ جواريَ ، قد بلغن كما تريدُ (٢)
وسخّرت الجبال وكنَّ خُرْساً يقطّع في مناكبها الحديد (٣)
بها الزيتونُ في غُلل ، ومالت عنـاقيد الكروم فهنّ سود (٤)
يعضّون الأنامل ان رأوهـا بساتيناً ، يؤزرهـا الحصيد (٥)

في مثل هـذا المحيط الفتان نشأ أبو جوان . لست أحدثك عنه وعـن عصره ومحيطه وحياته ، فقد كفانا ذلك الأستاذ الكبير جبرائيل جبور . فإن شئت أن تختص فدونك الكتاب النفيس الذي ألفه . انه كتاب جامع

(١) المغاني : المنازل . الصير : الحظائر للغنم والبقر وما أشبه . الدارسات : المنازل التي ذهب أثرها .

(٢) مباركات : صفة لموصوف محذوف ، أراد به الأقنية ؛

(٣) وكن خرساً يقطع مناكبها الحديد : أراد تصوير وعورتها وصلابة أرضها وصخورها .

(٤) الغلل : ما تواريت فيه . أراد ، أنها نامية موفورة الورق .

(٥) يؤزرها : يغطيها ، يكسوها . الحصيد : ما يحصد من الزرع .

رصين ، فيه أناقة عمر في شبابه ، وترتيب هندامه في زمانه . فشاعرنا أبو جوان كبير الحظ ، حياً وميتاً ، وحسبه أن يُكتب عنه هذا الكتاب الغني شكلاً ومادة .

كان عمر غنياً جداً فاستغنى عن الخلفاء ، وَمَدَحَ النساء : ولم يجد له نداً بين شعراء عصره فيهاجيه ، فاختص بالغزل . وهل في الدنيا اختصاصٌ أجمل من أن يوكَّل رجلٌ بالجمال فيتبعه اين وجده؟ لم ينبغ عمر في الشعر متنذطلع ، ولكنه مرَّ في ثلاثة أطوار تتمثل في أقوال زملائه المعاصرين . قَرْزَمَ [1] عمر، فقال جرير إذ سمع قوله : شعر حجازي لو انجد في تموز لوجد البرد فيه. ولما دانت له القوافي قال فيه : مازال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . ولما شقَّ طريقه إلى خدور النساء ومشى اليها مشية الحباب ، فوصف حديثهن في خلواتهن ، قال الفرزدق : هذا الذي أراده الشعراء فأخطأوه وبكوا على الطلول .

ظلَّ عمر ينحت ويعمل . استوحى عاطفته ومحيطه ، وانقاد للهوى فلم يخرج من تلك الدائرة . ومن يستطيع الخروج من دائرة الهوى ، فهو عند علماء النفس : حصر الحياة السيكولوجية في نطاق واحد ، واتجاه القوى الفاعلة نحو النهاية المشتهاة ، وتكييف كل وجودنا كما يقتضي ميلنا . وهذا ما وجَّه عمر في فنه هذا التوجيه .وقف عمر على الاطلال كما وقف المتقدمون، فقال وقصر عنهم :

ألم تسألِ الاطـــلال فالمتربّعا ببطن حليّاتٍ دوارس بَلْقَعَا [2]

وليس هو أول من وصف لنا حالته عند الحبيبة وما أتى من ضروب الشهامة . فقد سبقه الى ذلك امرؤ القيس ، ويكاد يقع الحافر على الحافر إذ

(١) قرزم الشاعر : قال شعراً لم يشكل أصول الجودة، ويكون ذلك في مبدأ أمر الشاعر .

(٢) البلقع : الأرض القفر .

دخل هذا دار نعم ، وذاك خدر عنيزة ... ويتشابهان ايضاً في قصيدة ذات البعل الذي يغط غطيط البكر شُدّ خناقه ... ويتفق ايضاً مع الفرزدق واللتين دلتاه من ثمانين قامة ... ولكنه كان اقرب الى الواقع منها لأنه أترف وأخنث وأشبّ . وفي الغزل الذي جاءه من اليمن – كما قالوا – لم يفق عمر سواه ، ولم يبتدع شيئاً ، فاين ابداعه اذن ؟

ان ابداع ابي جوان في « ليت هنداً » ، وفي « هيّج القلبَ » ؟ وقصائد اخرى من طرازهما ، ولكنها دونها روعة وفناً . جعل عمر نفسه المحبوب ، وروى لنا احاديثهنّ في خلواتهن ، فأرانا انهن مثلنا من لحم ودم .. هذا الذي سبق فيه عمر . كان شعره متصلاً بنفسه كل الاتصال ، بل هو صورة حياته اليومية ، أخرجها قلمٌ أوتي براعة القصص ، ففتن الناس . لم يتكلم بلغة امرىء القيس وتلاميذه ، بل باللغة التي تفهمها المرأة كل الفهم . وكان شعره غير مهتاج ، ولا مضطرم ، ولا متألم ، لأنه محظوظ ، يشكو اليسر لا العسر ، ففتح قلبه نصف فتحة . لا يترك شعره الغزلي اثراً عميقاً في انفسنا ، لأنه لم يتألم ولم يحرم .

لا يعبّر عن خوالج النفس إلاّ الكبت . وعمر متنقل من زهرة الى زهرة كالفراشة ، فهو كما يقول المثل عندنا : « شمّـام هوا ، قطّـاف ورد » . مهنته الحب ، وآلاتها : الشباب والشعر والمال والفراغ ، متيسرة له . خيول مطهمة ، وخدم وحشم ، وعبيد وجوارٍ ، واصدقاء يعاونونه على حاجاته ، يبثهم هنا وهنالك ككلاب الصيد . وهل يصيد الظباء غير الكلاب ، كما قال ابن الرومي ؟

كان يجب ان يكون لعمر مكتب استخبارات ، وسفارة لا تنقضي شؤونها وشجونها ، فهو دائماً يتصل بهذه ، وتلك ، وهاتيك . رسل تروح وتجيء . جنّاد وزير دفاع ، وعتيق ذو الوزارتين : الخارجية والداخلية .

وعبدالله بن جعفر وزير مواصلات . وابن سريج والغريض وزيرا الدعوة والنشر . جوارٍ سود وبيض تقضي حاجات رجل لم تشغل باله السياسة ، فمهام دولة الحب تكفيه . اللهمّ غفرانك !

نستلذ شعر عمر كحكاية حال لا كعاطفة حادة نشاركه فيها ، ففي اشد تحرّقه احسّ قشعريرة ذلك البرد الذي عناه جرير. ليس هناك حب صحيح، انما هنا تمثيل فصول ملذات وشهوات بطلها ابو جوان – كلاه [1] بحفظ ربه المتكبر . فأبو جوان في قصصه ممثل اكثر منه شاعراً محبوباً . لا يغلي ولا يثور ، بل يمثل مشاهده على حقها ، وهي تكاد تكون واحدة . يتلهى بالمرأة تلهي الطفلة بدميتها ، ويقول في ذلك شعراً ، فيجيء قصة صغيرة سهلة ذات اهتزازات اشبه بالتي تحدثها قصة غرامية ، أو احدى حكايات الف ليلة وليلة. ليس هذا لأن نفس عمر في ذلك الشعر ، بل لأنه يمثل لك مشهداً يوقظ فيك ناراً كامنة

ليس في ذاك الديوان ابتسامة ، ولا ما يبتسم له المرء ، بل هناك وصف حالات نفسانية سطحية . كلام بسيط سهل تفهمه النساء ويتمنين ان يقال مثله فيهن . لا الوان ولا صور إلاّ تلك الأحوال التي تحدث ، ويأتي الشاعر على وصفها ، وتكاد تكون هي اياها دائماً . شعر مرسل عفو الخاطر ، وهو – احياناً – لولا القافية يشبه الرسائل المنثورة . لا يتورع من ان يفتتحها باسم الاله ، ويضمنها معاني من قوله تعالى ، ومن حديث رسوله ، ويحوّلها عن القصد . نَفَسٌ قصير ، وعمل فيه بعض العناية . لا ينظر إلاّ لما يقول ، ولا يهمه كيف أدّاه . يعمل ويصف ما عمل ولا حاجة الى كد الخيال وإعمال الرويّة .

لم يمر عمر في أزمة لنرى ما يخرج من رأسه ، فلم يقل إلاّ اشياء سطحية

---

(١) كلاه : كلأه ، حرسه .

يعرفها اقل الناس اختباراً ، ولكنه اجاد وصف هذه المظاهر اجادة فنية كاملة . فاذا امكننا تقسيم علم النفس الى داخلي وخارجي ، كان شاعرنا من وصّافي الخارج ، أدقّ وصفٍ ، بذلك الحوار الذي لا يفوته منه شيء ، وكأني به يصغي بأذنيّ فرس لينقل الحديث كما هو ، ويمعن النظر ليصوّر الحركات الخارجية :

فقالت،وعضّت بالبنان: فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسرُ

ليس في قصصه عمل فني ، ولكن شخوصها حيّة تتحرك ، والحوار لا غبار عليه ، إذ ليس هناك لفظة يُستحى منها كما سنرى .

عُمر والمرأة

لسنا نحاول درس نفسية المرأة في عهد عمر ، فالمرأة في عهد عمر وعهدنا كما كانت في عهد آدم .. وأبو جوان لم يعنه منها الا هذه الناحية . انه مرزوق ، لايموت من الغمّ ، كالبحتري ، اذا افلت منه طيف ..

قال أحد مؤرخي عصر عمر : هذا عصر انتهى فيه رِممنُ العرب وفاضت الدنيا عليهم ، فلا بدع ، اذاً ، ان رأينا حبيبات عمر مترفات ، غنيّات ، شريفات ، قارئات ، كاتبات . لم يعرّفنا عمر على شخوصهن معرفة لا تخلط بين واحدة وأخرى ، فكلهن دُمى الرهبان ، وعِين[1] البقر، غزالات عليهن ذهب . مسك وعنبر ، مـــا فيهن تَفِلات[2] . العطر يفوح من ابرادهن وخيامهن ، كما قال في نعم :

فدلّ عليهـــا القلبَ ريّا عرفتها لها،وهوى القلب الذي كاد يظهر[3]

فلا ترى في شعره اذ يصفهن الا العطر والزعفران ، والزبرجد والجمان ، والمرجان والياقوت ، والقرنفل واليلنجوج ، والزند والكافور والزنجبيل . فطعم كل واحدة كالراح ، وريقها راح ، وسلافة الراح والتفاح ، والعذق[4] الرطب والعسل :

ولو تَفَلت في البحر، والبحر مالح ، لأصبح مـــاءُ البحر من ريقها عذبا

أما الملامح فعينا جؤذر[5] وجيد ريم[6] ، وحسن كالهلال والدينار في

---

(١) العين : اسم لبقر الوحش سميت به لسعة عيونها .

(٢) التفلات : اللواتي ساءت رائحتهن .

(٣) الريا : الرائحة الطيبة . (٤) العذق من النخل : كالعنقود من عنب الكرمة .

(٥) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه .

(٦) الريم : الظبي الخالص البياض .

ثياب العصب [١] . كل اسنانهن وأنيابهن - لا أدري لماذا أنفر من كلمه أنياب - مفلّجة [٢] مؤشّرة [٣] ، وهي تشبه البَرَد والأقحوان ، أو كسنا البرق . وهذا الجمال يزينه خز وقزّ ، ووشيٌ ودرٌ حليٍّ ، وسوار وبريم وخلخال . أما الجلود فطريئة ناعمة :

لو دب ذرٌ فوق ضاحي جلدها   لأبانَ في آثارهنّ حدور [٤]

أفلا تظن أن الذرّ يعمل أيضاً في جلدي وجلدك الناعمين مثلما عمل في جلدها ؟ وأغرب من هذا كله أن إحدى صاحباته تراءت له كالشمس ، أما كيف فاسمع :

هي الشمس تسري على بغلة   وما خلتُ شمساً بليل تسير

أليست هذه الشمس على البغلة مضحكة جداً ؟ ولا غرو أن تتداعى الأفكار عند ذكر البغلة ، فتحضر إلى ذهن عمر صورة البيطار ، فيقول في سمساره ابن ابي عتيق :

ودعاني ما قال فيها عتيق   فهو بالحسن عالم بيطارُ

ان عمر قَرِمٌ دائماً إلى اللحم . انه يريد لحماً كثيراً ، حتى يسأل القضاة أن يجيزوا شهادة العجزاء ، أي التي لها ألية كالخروف :

يا قضاة العباد ان عليكم   في تقى ربكم وعدل القضاءِ
أن تجيزوا أو تشهدوا للنساءِ   وتردوا شهادةً للنساء
فانظروا كل ذات بوصٍ رداح   فأجيزوا شهادة العجزاء [٥]
وارفضوا الرُسح في الشهادة رفضاً   لا تجيزوا شهادة الرسحاء [٦]

---

(١) العصب : ضرب من القماش . (٢) مفلجة : لم تتراكب .

(٣) مؤشرة : فيها آثار تحزيز . (٤) الذر : النمل :

(٥) البوص : العجيزة .

(٦) الرسح : جمع الرسحاء ، وهي المرأة التي قل لحم عجيزتها وفخذيها .

ثم يكشف صدره وينبش شعره ليدعو على الرسح دعاء ارملة مقطوعة فيسأل الله قصف اعمارهن :

عجّل الله قطّهن وأبقى كل خود خريدة قبّاء [1]
تعقد المرط فوق دعص من الرمل عريض قد حفّ بالانقاء [2]

ألا ترى ان لو تجمعت رملية بيروت وكانت كفلاً لاحداهن لوجد فيها عمر اقصى امانيه كقوله :

مرتجّة الردفين بهكنة رؤد الشباب كأنها قصرُ [3]

يا بارك الله ! انها تذكرنا بناقة عنترة .

بهذه العين ينظر اليهن ابو جوان وينقيهن كالقصّاب من بين القطيع ، واعجب من هذا انه يشبههن بالاحاف .

ويرى عمر الحسن مخلوطاً بالطيب فلا يصبر عنه. وكيف يصطبر من ينصح فتيين في المسجد تلك النصيحة الثمينة ؟. أما الخلق الكريم فما ذكره عمر إلا مرة ، واظنه اضطر اليه فقال :

سيفانة أوتيت مع حسن صورتها عقلاً وخلقاً كريماً كاملاً عجبا [4]

بل هو بالعكس يصفهن بما يسفّلهن فيجعلهن كريات حتى على ابن السبيل :

غريب أتى ربعنا زائراً وأكرهُ رجعته خائبا

أما صلاته بهن فاشبه بصلات كل محترف هذه الحرفة . يترصد هنا وهناك

---

(١) الخود : المرأة الشابة . الخريدة : الفتاة البكر والحيية الطويلة السكوت. القباء : المرأة الضامرة البطن الدقيقة الخصر .

(٢) المرط : كل ثوب غير مخيط . الأنقاء : جمع النقا ، وهو قطعة الرمل المحدودبة .

(٣) المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة . الرؤد : الشابة الحسنة .

(٤) السيفانة : الطويلة الممشوقة .

ترصد الهر للعصافير . كان موسم الحج لعمر كالاعياد عندنا اليوم ، وكما يفعل كثيرٌ من شباننا كان يفعل ، وكما يلقون في آذان المارات كان يلقي . فمن شاء ان يتخيل صورة عمر كاملة فليتأمل احد هؤلاء عند ابواب المعابد والمنتديات ساعة الانصراف . كان عمر فويسقاً عيّاراً فاسداً مفسداً :

قالت لِتربٍ لها مُلاطِفَةً : لتفسدنَّ الطوافَ في عمر[1]

فالحج عند أبي جوان معرض جمال ينهال فيه عليه الرزق فيرزح تحت أعباء الواجبات المتراكمة ... وهو ملحف ملحاح ، ووسائل الاغراء عنده كثيرة ، فكثيراً ما كان يتوسل اليهن بالعمومة والخؤولة ووحدة الحال ولا يتورع عن أن يتخذ من الدين أسباباً يمدها بينه وبين حبيباته ، فيقول : لا يحل لك قتل مسلم ، وهلم جراً وبهمة ونشاط تلك « المنظمة » التي كانت حواليه ، فلما افلتت منه حمامة... ولا تنس الغناء. كان عمر يجعل مجالسه على مفرق الطرق والمعابر ، ومغنيه ابن سريج والغريض ، وكثيراً ما كان يوفدهما ليغنيا بشعره عند من تعصى عليه فتلين وتحنُّ ...

ان أمثال عمر كثيرون في الحياة،فصاحب مدام بوفاري انتظر«الكوميس» Comices فاصطادها . أما نساء ذلك العصر فما فاتهن ان أبا جوان شركة مساهمة كما يتضح من قوله :

هذا الذي منح النساء فؤاده فشركنه في مخّه والأعظم[2]

وهو مشهور عندهن بالخداع ، وقد اعترف بذلك بلسان احداهن :

غُرَّ غيري فقد عرفتُ لغيري عهدكَ الخائنَ القليلَ الثبات[3]

كما يقول في مكان آخر : ما سمّي القلب إلاّ من تقلّبه ...

وأبو جوان يملأ شعره بالإيمان المغلظة . والقَسَم من مظاهر الأدب العربي

---

(١) ترب الفتى او الفتاة : مساويها في العمر . الطواف : السعي حول الكعبة . وحرف الجر « في » هنا قد يكون بمعنى السبب أو بمعنى « على » .

(٢) المخ : المادة التي تكون في داخل العظم وتسمى النقي أيضاً . (٣) غر : أخدع .

عموماً، ولا سيما القديم منه، بل من مظاهر حديثنا. ولذلك اجاز النحاة الفصل بالقسم في كل موضع حتى بين قد والفعل الماضي. أما الميزة العجائزية التي أراها في شعر عمر فهي انه يدعو مثلهن، ويحب مثلهن عَدَدَ الرمل والتراب والنجوم والحصى وورق الشجر. ومن يكن كذلك فلا بــــد من أن يقتحم البيوت ويغامر، ولكن ليس في شرف مروم ...

بالله، ربّ محمــــد، خبرنني حقاً أما تَـعْـجَبَنَّ من هذا الفتى ؟
الداخل البيت الشديد حجابه من غير ميعادٍ، أما يخشى الردى ؟ [1]

وهو تبع إلى أقصى حد حتى قالت فيه احداهن :

خذنَ عني الظلّ لا يتبعني ومضت تسعى إلى قبتهــا

ولعمر ثانية تدل على هــذا الخلق الكريم، أذكر لك منها شيئاً أعجبني وفيه الدليل الأعظم على انه كذّاب لا عهد له :

من كلام تهـــدّه وبحلف فلعمري فربمــا قد حلفتا [2]
ثم لم توفِ إذ حلفت بعهـد بئس ذو موضع الامانة أنتا
قلتُ: مهلاً عفواً جميلاً، فقالت: لا وعيشي، ولو رأيتك متّا !

ويعبّر عن هذا الغدر في موضع آخر حيث يقول :

ثم قالت لأختهــا ولأخرى جزعاً : ليته تزوج عشرا !

كان عمر بلاءً على الحواجّ وعلى أهلهن، وقد أعيا العمّال والخلفاء وذوي النساء كما حدّثونا عن عبد الملك وأبي الاسود، ولكن النساء كن راغبات فيه، وله معهن قصص تشبه حــكايات الف ليلة وليلة كنّ يُردنَ شعره ويطلبنه حتى ان إحداهن سألت عمن يخلفه حين بلغها خبر موته. ما شبهت عمر مع النساء إلا بولد مدلل يظل يطلب أصناف الأكل، تارة بالتمرد، وطــوراً

---

(١) الحجاب، هنا : الصون والحماية .
(٢) تهده : تسرده .

بالملاطفة والمداهنة ، وحيناً بالشكوى ، فيزعج أهل البيت ، فيرضى بالتافه ستراً على أهله .

ان الحياة البوهيمية التي عاشها ابو جوان قد استحال معها الهوى عادة ، وكان الخير فاضلاً عنه ، فهو لاحقٌ بهذه إلى العراق ، وبتلك إلى الشام . يصور لنا حيلهن لتصيُّده ، فتلك تنصح له أن يأتي على بغلة لا على بعير يسدُّ الفضاء :

فإن جئتَ فأتِ على بغلةٍ فليس يُواتي الخفاء البعير [1]

ولا على مهر أيضاً فالمهر يفضح :

ولَبَّاتٍ إن جاء على بغلة إني أخاف المهر أن يصهلا

اخبرتك ان ابا جوان كان عند احداهن ثقيل الظل ، أما عند الثريا فهو يجعل نفسه كيوسف من امرأة العزيز :

فالتقينا ، فرحبت ، ثم قالت : عمرك الله ، إئتنا في المقيل [2]
في خـــلاءٍ كيا يرينك عندي فيُصَدِّقْنني ، فِـــداك قبيلي
لم يرُعهن عنـــد ذاك وقـــد جئت لميعادهن إلا دخولي [3]
قلن : هذا الذي نلومك فيه ، لا تُحَجّي من قولنا بفتيل [4]
فصليه فلستِ فيــه دتلامي ، فهو أهــل الصفاء والتنويل [5]

هذا عمر والمرأة، فلننتقل إلى شعره الذي كاد يكون وقفاً عليها ، كما قال لابن عمه عبد الملك : أنا لا أمدح إلا النسـاء .

(١) يواتي : يوافق ، يناسب .
(٢) المقيل : موضع القيلولة أي النوم والاستراحة في الظهيرة .
(٣) لم يرعهن : لم يعجبهن ، لم يدهشهن .
(٤) لا تحجي من قولنا بفتيل : حجتنا في لومك ضعيفة فلا تهتمي لها .
(٥) أهل ، هنا : مستحق . التنويل : الانالة ، والمراد مسايرته على الحب .

شعر عمر وشاعريته

لقد شبع شعراؤنا تقديساً فلنشبعهم نقداً .

اذا صنفنا الشعراء كالنبات – على مذهب برينتيير – وجدنا أبا جوان وأبا حزرة من صنف واحد . كلا الشعرين من النوع الخفيف ، وبينهما فنياً أقرب النسب ، ولا فرق بين الشاعرين إلا في الاستيحاء فقط . فعمر يستوحي الجمال والحب ويقول فيه أحسن ما عنده ؛ وجرير يستوحي البغض والقبح والمعايب فيأتي بالبدع . ان عمر حبيب قلب الشباب ومعلمهم ، غنّى الجمال غناء حلواً عذباً إذ استشعر الحسن . قد كان في الامكان ابـدع مما كان ، ولكن عمر لم يحس إلا الظواهر ، فكان تأثيره عابراً وليس فيه عمق اتكأ على القدماء في معظم صوره ، وشنّ الغارة على أكابرهم ،فأخذ صوراً وتعابير من امرىء القيس والأعشى والاخطل وعنترة ، فأدخلها في شعره ، حيث دعت الحاجة اليها ، فكادت تكون من نوع النسخ

نخرج مع عمر من قيود القدماء قليلاً ، فهو لا يحطمهـا كل التحطيم ، ولا يغلّ [1] نفسه بها غلاً هو صوت جديد نسمعه فنصغي اليه مرغمين . لأنه لا يحدثنا إلا عن الحب حديث الأبد ، لا نشم في شعره رائحة القطران والقار ، فناقته لا تحضر مجالسنا ، يتركها في العراء لطارق ليل او لمن جاء «معوّر» [2] كان عمر اقرأ شعراء زمانه للقرآن الكريم ، وادراهم بالحديث الشريف، فتأثر بذلك . لا نعني اللهجة الخاصة ، فهذه مكتسبة من المحيط ، ولا الاسلوب فهو حجازي مكي قرشي . ولكننا نعني أن في شعره عبارات بعينها أخـذت من الكتاب العزيز . فأبو جوان عارف لدينه يستثمره – كما قلنا – حين يضطر ، وقد يتفقّه « لمن » اذا اقتضى الصيد فقهاً ..

(١) يغل : يقيد . (٢) الكلام بين الأهلة ، عجز بيت لعمر . المعور : ما لا حافظ له .

ولا غرو ان كان فصيحاً لسناً، فهو أحد ابناء العصر الذي وصفه الجاحظ بقوله : كان اغلب الأمور عليهم ، وأحسنها عندهم ، واجلّها في صدورهم ، حسنُ البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به . أن أبا جوان رابع ثلاثة شعراء أفسدهم اليتم : طرفة ، والأخطـل وابي نواس ، فسار كل منهم في الطريق التي وجهه اليها طبعه ومحيطه . كان الغزل محبوباً في الحجاز ومن طبيعة أهله ، فانفرد به عمر واختص ، ومن احرى بذلك من عمر :

إن الشبابَ والفراغ والجده مفسدة للمرء ايُّ مفسده[1]

كل هذا طوع يد عمر،فصار الحب والشعر مهنته وعمله . تفرّد الحجازيون فيعهد بني أمية باللهو،وأورثوه العباسيين،فاستحال معهم مجوناً وعبثاً وتهتكاً. كانت له مدرسة بشار ، فأنمى تلك المدرسة الاباحيـة التي أخرجت أبا نواس وغيره من النبهاء، فكلهم يمتّون بنسب فنّي الى جدهم الأعلى امرىء القيس.

ليس لعمر حساسية بشار الفنية،ولا َنفَسُ ابي نواس المرحة،ولا موسيقى جرير . هو وسط الخيال ، وسط الحساسية، منفرد في سهولة الشعر، لا يحسن إلا بث شكواه وتحرفه احياناً . كل ديوانه تكرار ممل للحوادث والتعابير ، يكاد ، لولا القليل ، أن يكون موضوعه واحداً . لم يصف تلك المجالس ولا ما كان في الحجاز على عهده ، ولم يذكر العقيق إلا كما ذكره جرير . فهو في الشعراء من أصحاب « الفكرة الثابتة » إن جاز لي هذا التعبير ، لا يعنيه إلا جسد المرأة . افتخر مرة ، وما هجا قط . رثى قتلى صفين بأبيات بليدة ، ورثى امرأة قتلها مصعب بثلاثة بيوت،وهي لو كانت حيّةً لتبعها الى حجرتها فاذا كان لسجع الحمام شبيه فهو شعر عمر .وليس عمر مفكراً فيعنيه ما وراء القبر ، وان ذكر ذلك مرة فلكي يقول :

وليت سليمى في المات ضجيعتي هنالك أو في جنـــة او جهنم

وليس متفنناً فيبالي بالصور ، بل يهمه ان تفهم عنه من يوجسه اليها رسالة

---

(١) الجده : المال ، الثروة . والبيت لأبي العتاهية .

شعرية، وأن تعجب تلك الرسالة غيرها من النساء فتتمنى مثلها وان طلبت احداهن شعراً قرزم لها. كان عمر َفبْرَكةَ شعر مثل فبارك اميركا في اخراج المنتوج الحربي . وأكثر هـذا الشعر يصدره المعمل كيفما اتفق له : قصص ، ووصف حيل . وصف سهرات حتى الصبح، والصبح ، دائماً ، مفتوق أشقر ، كأن صبح الجزيرة لا يتغير كصبح لبنان . مواعيد فلتقى ، وكلهـا على نمط واحـد . ناشد ينشد ، وعمر يتلصص ليهجم . رسائل ومعاتبات ، والعتاب صابون القلوب . لا يحسن دعابة ولا هزلاً ، ولا يذكر بعد الاجتماع إلا مـا ذاق وشمّ... يستغفر الله على الشبع، ويوصي بالكظة بخلاف أبي عبد الرحمن . كلي الفلسفة يحس ما يراه : والشوق يحدثه للعاشق النظر، كما يقول . لا يفكر إلا بعينيه ولسانه . حساسية تقليدية ، فـإذا حضرت الحبيبة قال لها : بل قادني الشوق والهوى . لا يتعدى في شعره العامّ منطقة الاقليم المعتدل . لم يبدع في الغزل ، بل في وصف الواقع . بذّ الشعراء أجمعـين في بضع قصائد قصصية . ومن هذه الروائع أتته الشهرة التي استحقها .

يكرر عمر ليقرر ويثبت ، فكأنه درس علم الايحاء على فرويد . يقول : ربّ لا صبر لي على هجر هند. ربّ ، ربّ ، ربّ ، كأنه من رجال حلقات الذكر . رأيت عمر يتضاءل أمـام هذه « الهند » ، بينا هو يرى نفسه عند غيرها فوق الجميع كما يقول :

ما وافق النفس من شيء تُسرُّ به وأعجب العـين إلا فوقه عمرُ

كان عمر من المبتهرين ، ومثله كثـير بيننا . ففي كل عصر أناس كثيرون يقولون كما قال ، ويكونون قد استقبلوا بالنعال .

يكثر عمر من الجمل الدعائية بلسانهن ، فنخالهن ذائبات . قد ألهت عمرَ المرأةُ عن فنه، فهو لو فكر أكثرَ ، كما كان يفعل بشّار ، لجاء بما هو اعجب. ولكنه قليل الصبر إذا أدّى الفكرة نظماً عدّ ما قاله شعراً . لا يتسع المجال فأدلك على الكثير ، ولكن واحدة تريك تلك الخصلة فيه :

يا ربةَ البغلة الشهباء هل « لكمُ » أن ترحمي عمراً، لا تُرهقي حَرِجَا[1]

فكيف رأيت « لكم » في هذا الموضع ؟ ان اخواتها كثيرات في ديوانه . فما أكثر ما انسَ لا انسَ ، وبينا ، وبينما ، وملأشياء[2] واضرابهـا مثل : ملحب ، وملكاشحين ، ملسماحة ، حتى ملغميم ... وما أكثر التليين الكريه كقوله : أو تدابان حقبة مثل دابي ، ومثل : عند قراتك القرآنا ، أو مثل : اقول لواش سالني وهو شامت .

ويدهشني قول أبي عمرو أبي العلاء : ان عمر حجة في اللغة العربية ، وما تعلق عليه إلا بحرف واحد هو قوله :

ثم قــالوا تحبها قلت بهراً عدد الرمل والحصى والتراب

وكان ينبغي أن يقول : أتحبها ، لأنه استفهام . وله وجه ان كان أراد الخبر ولم يرد الاستفهام .

قلت : وأي وجه يجده لنا أبو عمرو في قول صاحبه عمر . فهلا تسألي افناء سعد ؛ وكقوله : ما انس لا انس غداة لقيتها ؛ وكقوله : من ذا يلومني ان بكيت صبابة ؛ وقوله : من طيب نشر التي تامتك إذ طرقت ؛ وقوله : إذا أنا لم ألقاكِ سوف أدمر ؛ وقوله : وفيم بلا ذنب اتيتيهِ اهجر ؛ وقوله : رأين الغواني الشيب لاح بعارضي ؛ وقوله :

ما أحسن الود والصفاء ، وما أقبح منها الهجران والعذرُ

بضم العذر والهجران ، والقافية مبنية على النصب وكقوله : آه بل ليتني بخدك خالا ؛ وقوله : لكلفتني قلبي اتابعك انني ؛ وقوله :

رجعنا ولم ينشر علينا حديثنا عدو ولم تنطق بــه شفتانُ

بضم المثنّى ، لأن قصيدته مضمومة ؛ وكقوله : فصليه فلست فيه تلامي .

وإلى جانب هــذا الاهمال مصنوعات فنية رائعة جاء فيها فدلّت على أن

(١) الحرج : الذي اقترف ذنباً . « لا ترهقي حرجا » : لا تحملي مذنباً قصاصاً لا يطيقه .

(٢) ملأشياء : من الأشياء . حذف نون حرف الجر « من » وهذا معروف منذ الجاهلية .

هناك شاعرية لم يتعهدها صاحبها . ولا عجب فالهوى يحتل ساحة الشعور ، ويطرد منها كل شيء ، ويبقى وحده . ومع هذا تجد لعمر تعابير فنية جميلة جداً أدركها المتقدمون ، وأفاض في سردها صاحب الأغاني .

وفي هذا الشعر المدني تلمح شيئاً من البداوة كقوله :

فلمـــا توافقنا عرفت الذي بها   كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

لا نطالب الحجاج بقوله لأهل الشام: أنتم العدة والحذاء، ولكننا ننعى على عمر قوله : حذوك النعل بالنعل ، وهو من عرفنا .

ولا يغفل عمر عن بعض الخرافات ايضاً فيذكرها مثل : خدر الرجل ، واختلاج العين . ونحن ما زلنا في هذا العصر نجرُّ خلفنا امثال هذه ، ونقطر الى القافلة أبعرة جديدة .

لا يلين شعر عمر ويواتيه الكلام إلا عندما يحسُّ حقاً كقوله ، ومـا كان اقدره على الاسترضاء

أليس كثيراً ان نكون ببلدة   كلانا بهـــا ثاوٍ ولا نتكلم

بمثل هذا ، وبمثل هذين البيتين فتن عمر العقول :

أومت بعينيها من الهودج   لولاك في ذا العام لم احجج

انت الى مكة اخرجتني   ولو تركتَ الحج لم اخرج

البيتان جميلان ، ويصيران اجمل منهما متى أرسلها ابن سريج والغريض في البطحاء . فقد كانا من شعر عمر كما كان عبد الوهاب من شعر شوقي. أما نحن الآن فبعيدون عن الطلسم الغريضي والسريجي، نرى الشعر كما هو، وكما يوحي الينا. أن عمر لم يتفوق فنياً الا في قصصه، وفي أربع قصائد لا غير . ولأجلها قال الفرزدق : هذا الذي اراده الشعراء فأخطأوه وبكوا على الاطلال .

وسننظر في ثلاث منهن ، خاتمين كلامنا على ابي جوان الذي شغل رجال عصره حتى العلماء . أنه ليستحق . جلّ من لا عيب فيه وعلا .

خوالد عُمَر

إن أسلوب عمر بسيط وحلاوته في بساطته تلك، فالنثر العربي يكني عن الهيفاء بقوله : غرثى [1] الوشاح ، فيقول عمر شعراً :

انها كالمهاة مشبعة الخلخالِ صفر الحشا،تجيــع الوشاحا

وقد دنا عمر من لغة دهره في قصصه كل الدنو، فأجاد الحوار اجادة قصر عنها شعراؤنا جميعاً.لم يدن منه إلا ابو نواس فيوصف مجالس الخمرة والندامى.

أن قصص ابي جوان كثيرة ، بل في أكثر شعره قصص : في الطواف قصص ، وفي الحج قصص ، وفي المضارب والخيــام قصص ، وفي الغرف وفي الجبّانات قصص قذرة .. الرجل اباحي تيّاه ، معجب بنفسه ، لا سرّ عنده تارة يبوح به ابتياراً [2] ، وطوراً ابتهاراً اذا درسنا كل قصيدة فيها حكاية حال أبتذل كلامنا، كما ابتذل شعر عمر لهذا السبب . فخير قصائده القصصية ثلاث : أمن آل نعم ، وهيّج القلب ، وليت هنداً . وتدنو منها قصيدتان اخريانْ هما على الراء ايضاً،ولكنهما ليستا من الشعر في السطح كما عبّر الجاحظ عن مقام معاوية من قريش .

ليس لشخوص خالدات عمر علامة فارقة، فبطلاته ، في نظر الفنان،نساء ليس غير . فنعم وهند والثريا وزينب وكلثم وفلانة وفلانة كلهنّ مثال واحد، كأنهنّ عمل فبركة لا صنع يد . فلست تميز أحداهن من الأخرى. كلهنّ بياض واحمرار ، وشحم ولحم ، وحسن وجمال . أما كيف اتصورهنّ فهكذا : لو جمعن في مجلس استطيع ان اضع الاسم الذي اشاء على كل واحدة منهن ولا حرج عليّ .

---

(١) غرثى : جائعة . (٢) ابتياراً : اختبار وتجربة .

قد قرأت ديوان عمر الجامع بيتاً بيتاً. اقول « الجامع » لأني وجدت اسمي فيه حيث يقول :

سحرتني الزرقاء من مارون   انما السحر عند زرق العيون

فهل من يدريني ما هذه أو هذا المارون وله الأجر؟ قرأته كله فما وجدت علامة فارقة إلا مرة واحدة حيث قال :

ربعةٌ أو فويق ذاك قليلا   ونؤوم الضحى وُحقٌ كسول [1]

فهذه الشخوص مجهولة، كما ترى ، ناهيك بأن القصص كلها على نمط واحد . اذكر الذيب وهيء القضيب :

بينما يـــذكرنني أبصرنني   دون قِيد الميل يعدو بي الأغرّ [2]
بينا كذلك إذ عجاجة موكبٍ   رفعوا ذميــل العيس بالصحراء [3]
قالت لجارتها انظري، فمن الألى ؟   وتأملي مَنْ راكب الوجنــاء ؟ [4]
قالت: أبو الخطّاب ، أعرف زيّه   ولباسه لا شك غـــير خفاء

ويغلب التثليث على بطلاته ، فبطلات « أمن آل نعم » ثلاث ، وبطلات « هيّج القلب » ثلاث . وهكذا دواليك . فهل قال هذه القصائد في موضوع واحد ؟ لمْ يصف عمر في شعره إلا اللون الأزلي، فهذه المهازل بل المآسي التي يمثلها تصلح لكل مكان وكل زمان. فشعره المقول في هند ونعم وغيرهما يصح قوله في كل انثى . فعبثاً نفتش فيه عن اللون المحلي . فليلة ذي دوران أشبه بمسرح متنقل ينصب حيث تشاء ، وتمثل عليه كل رواية. لا زينة مختصة بكل مشهد ، فكأنه ذلك المسرح الذي حطّمه دون كيشوت . بلى ، عمل عمر

---

(١) نؤوم الضحى ، كناية منقولة عن امرىء القيس ، تعني المرأة المترفة التي لا يحوجها عمل بيتهــا الى الافاقة في الصباح الباكر لكثرة خدمها . الحق : قد يكون أراد بهـا المرأة ، أو الأرض المطمئنة شبه بها صاحبته .

(٢) القيد : القدْر . الأغر ، أراد بها جواده الذي في جبهته بياض .

(٣) عجاجة : غبار . الذميل : سير الابل سيراً ليّناً . العيس : الابل .

(٤) الوجناء : الناقة الشديدة .

إطاراً واحداً لقصة واحدة وهي :

هيّج القلب معانٍ وصِيَر دارساتٌ قد علاهنّ الشجر (١)

ففي هذا البيت أصاب عمر عصفورين بحجر واحد . بكى على الطلول كالقدماء ، وذكر لنا العمران العربي الحديث ، وسأل المنزل هل فيه خبر ، ولكنه سؤال يعقبه الفرج لا يأس الجاهلية ، ناهيك إن اطلال عمر ليس فيها آرام وبعر وأثافي (٢) ، بل استحالت « فيلّا » كما نعبّر اليوم ثم يتجاوز عمر هذا النطاق الضيق فيوضح المكان والزمان بعض الشيء فيقول :

إذ تمشّين بجوٍ مونق نيّر النبت تغشّاه الزهر

بدمــاث سهلة زيّنها يوم غيم لم يخالطه قتر (٣)

ثم يفلت الخيط الفني لينتقل إلى بطلات قصته ، فلا تعرف إلا انهن من الجنس اللطيف الناعم المدلل ، يتمشين في ذلك الجو الذي هيأه لهن ، حرصاً على وجوههن من الحر ، وعلى اقدامهن من الكلالة . وما اكتفى عمر بالوصف الخارجي الذي أعده لتحريك النفس ، فقال يصف بعض ما انطوت عليه نفوسهن :

قد خــلونا فتمنّين بنا إذ خلونا اليوم نبدي ما نُسرّ (٤)

فعرفن الشوق في مقلتهـا وحباب الشوق يبديه النظر (٥)

قلن يسترضينهـا : منيتُنا لو أتانا اليوم في سرٍّ عمر

تلك هي اللحظة الشعرية التي ابتدعها أبو جوان وسبق اليها ، فلم يعالجها أحد قبله ، ولا بعده . ثم ينتقل إلى شيء يؤيده علم النفس الحديث والواقع فيقول :

بيــنما يذكرنني أبصرنــني دون قيد الميـل يعدو بي الأغر

(١) الصير جمع الصيرة وهي الحظيرة .

(٢) الأثافي : جمع الأثفية ، وهي واحد أحجار ثلاثة تبنى بها الموقدة .

(٣) الدماث : الأمكنة اللينة ذات الرمل . القتر : الغبرة .

(٤) نسر : تختفي في سرائرنا . (٥) الحباب : ما يعلو الماء أو الخمر من فقاقيع . وأراد هنا ما تحدثه شدة الشوق من نداوة في العين .

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟ قالت الوسطى : نعم هذا عمر !
قالت الصغرى وقد تيَّمتُها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟ [1]

لا شك انك قد لاحظت مثلي ان عمر اختصَّ الصغيرة بحبه . ولا بد من « وهل يخفى القمر » ، فعمر تارة هو المشهَّر ، وحيناً ميسور أمره أعسر ، كما تقرأ في « أمن آل نعم » . هو يعلم انه جرس على بغل .

وهناك صغرى ثانية هي احدى الخالدات لا تقلُّ فناً عن هذه ، ومطلعها طائر الصيت :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدَّت مرّةً واحدة انما العاجز من لا يستبد [2]

يقول البعض ان هذين البيتين قتلا البرامكة ، وأقول انهما قتلا محصنات كثيرات . وعمر يستأهل على قصائده هذه جَلْدَ القاذف [3] الحرة . ولكن ما لنا ولهذا ، فما يعنينا إلا فن عمر . ففي هذه القصيدة يدخل عمر قدس أقداس المرأة فيسمعنا حديثها مع ضرّاتها إذ تقول لهن ، حين تمرّت تبترد :

أكما ينعتني تبصرنني ، عمركن الله ، أم لا يقتصد [4]

أما هنّ :

فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود
حسد حُمّلنه من أجلها وقديماً كان في الناس الحسد

ان كل حرف من هذا البيت يقطر حسداً أمرّ من الحنظل الذي نقفه امرؤ القيس . فهذا التضاحك ، وهذا القول المر المبطن : حسن في كل عين من تود ، يصوّر لنا الحسد فاضلاً عن الكمال . بيد أن صاحبنا يسفُّ حين يصف

---

(١) تيمه الحب : تمكن منه وذلله .

(٢) يعني أن الاستبداد طبيعي ، والعاجز وحده هو الذي لا يستبد ، فحبذا لو تتصف هند بالاستبداد مرة واحدة ولا تكاثر منه . (٣) القاذف : الشاتم .

(٤) يتئد : يتمهل . وروي في موضعها : يقتصد .

أشنب[1] هند ، وعينيها ، وجيدها ، وبرودتها ، وسخونتها . ثم لا يلبث الفن أن يستيقظ فيسألها : من انت ؟ فتجيب :

نحن أهل الخيف من آل منى ما لمقتول قتلناه قوَد[2]
قلت : أهلاً ، أنتم بُغيتنا فتسمّين ؟ فقالت : أنا هند

فأجابها السيد عمر جواب استاذ في هذا الفن :

انما اهلك جيرانٌ لنا انما نحن وهم شيءٌ أحد

أرأيت هذا الحديث الطلق ، وكيف تلقى الشباك بخفة دونها خفة ادهش المشعوفين ؟ ولكن سلّة عمر عادت فارغة كما انبأنا في ختام القصيدة ، وهو خير ختام عمله لأنه لم يحسن ختاماً قط . فهذه الآدمية خيّبته بظرف وكياسة وهزء ، ولم تقع في فخه ، واليك البيت :

كلما قلت : متى ميعادنا ؟ ضحكت هند وقالت: بعد غد

ألا تذكر تهكمنا إذ نقول « بعد بكره » ؟ انها هي .

قد رأيت ان شعر عمر مادي خفيف ، وأشدُّ قصائده أمراً هي « أمن آل نعم»،وهي التي أحلّته أسمى مقام في الشعر العربي حتى حفظها ابن عباس التقي الزمّيت[3] . فماذا أحدثك عنها وسياق قصص عمر واحد ، وشخوصه من هن ؟ أراد عمر في هـذه القصيدة أن يقول كل شيء ، فاضطرب حبل الفن . وصف حبه لنعم ، وما يعترضه من عقبات ، وذكر الجهاد الذي غيّر لونه ، فأمسى قليلاً على ظهر المطية ظله ، ثم تخلص إلى القصة التي ابتدأت في موضع اسمه ذو دوران . لا نعرف إلا أنه « ذو دوران »، وان عمر يتلصص هناك يراقب الناس ، ويفكر أين خباء نعم. فهو نهب مقسم . يفكر بالخروج بعد الدخول ، وماذا يعمل بناقته. وأخيراً سقط القمر ، فانساب كالثعبان وابتدأت المعركة :

---

(1) الأشنب : أراد الثغر البارد الأبيض الأسنان .
(2) الخيف ومنى موضعان بمكة القود : القصاص وقتل القاتل بدل القتيل
(3) الزميت : المتمسك بالوقار .

فحيّيتُ اذ فاجأتهـــا فتولّهت وكادت بمخفوض التحيـــة تجهر
وقالت وعضت بالبنان: فضحتني وانت امرؤ ميسور أمرك أعسر[1]

أرأيت ما أبرع هذا الوصف وما أسرعه؟ فأبو جوان لا يقصر–في محاورة النساء فقط – عن لافونتين . وأحب أن تقدّر معي هذا الوصف الموفّق إذ جعل نعم تسأل بدهاء ولباقة عجيبين :

فوالله ما أدري أتعجيل حاجـة سرت بك،أم قدنام من كنت تحذر؟

فأجابها اللعين وهو داهية الفاسقين :

فقلت لها:بل قادني الشوق والهوى اليك ، وما عينٌ من الناس تنظر

فاطمأنت، وارتاح بالها فجارت بالدعاء الذي يبذره عمر بسخاء كلما تحدث عن مقامه عندهنّ ... ثم عقب ذلك الدعـــاء سلام واطمئنان حتى مطلع الفجر ...

فلـــا رأت من قد تنبّه منهم .وأيقاظهم قالت:أشر كيف تأمر

وكانت حيرة عقبتها بطولة دونكيشوتية :

فقلت : اباديهم فإمــا أفوتهم وإما ينال السيف ثأراً فيثأر[2]

وأخيراً انجلت الغمرة وكان مؤتمر ثلاثي أسفر عن استحـــالة عمر امرأة تمشي بين ثلاث ، بعد أن شاء أن يكون مكرماً لا بطلاً :

ولما أجزنا ساحة الحي قلن لي : أما تستحي أو ترعوي أو تفكر؟

وفي الختام كان هذا الدرس الخبيث :

إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

---

(١) ميسور أمرك أعسر : الأمر الميسور يصبح عندك أعسر معقداً

(٢) معنى البيت : فقلت أخرج اليهم فاما أن أفوتهم وأنجو واما ان يبلغ السيف ثأراً ، والمرجح أن المراد سيف الذين سيخرج اليهم . يريد أنه لا يهمه الموت .

أما ما يجيء بعد هذا البيت فنثرة . غفر الله لعمر كل زلة فنية من أجل خالداته هذه ، فقد جعلته في الذروة حتى الساعة .

وهناك اخت رابعة للخالدات الثلاث قلما ذكروها بخير ، هي على الراء أيضاً ، ومطلعها : قل للمليحة قد ابلتني الذِكرُ .

عرف عمر هذه الفتاة بالمرْوَتين ، وسمعها تقول لفتاة :

... ... أرائح ممسياً أم باكر عمر

الله جارٌ له إمّا اقــام بنا ، وفي الرحيل إذا ما ضمّه السفر

لقد هزّت هذه الكلمات قلب عمر ، فانتظر الليل وجاء راجلاً كما يعترف :

فجئت أمشي ولم يُغفِ الألى سمروا وصـــاحبي هندوانيٌّ بـه أثر [1]
فلم يرعها وقد نضّت مجاسدها إلا سوادٌ وراء البيت يستتر [2]
فلطّمت وجهها واستنبهت معها بيضاءَ آنسةً من شأنهـا الخفر [3]
ما باله حين يأتي، اختِ، منزلنا وقد رأى كثرة الأعداء إذ حضروا
لشقوة من شقائي، اختِ ، غفلتُنا وشؤمُ جَدّي، وحَينٌ ساقه القدر [4]
قالت: أردتَ بذا عمداً فضيحتنا وصرم حبلي وتحقيق الذي ذكروا
هلا دسست رسولاً منك يُعلمني ولم تعجّــل إلى أن يسقط القمر
فقلت : داعٍ دعـا قلبي فأرّقه ولا يتابعني فيــكم فينزجر [5]

وهنـا يفيض عتيق الخمر والشهـــد والمسك الخالص والعنبر والكافور والقرنفل ، ويظل عمر سادراً حتى يقال : قوما بعيشكما قد نوّر السحر ..

---

(١) الهندواني : السيف المنسوب الى الهند . والأثر : جوهر السيف .
(٢) نضت : خلعت .
(٣) الخفر : الحياء .
(٤) جدي : حظي . الحين ، هنا : المحنة .
(٥) ينزجر : يرتدع .

وبعد ، فلا تظنن،أيها القارىء العزيز، ان عمر لم يسلك الجادة التي عبّدها الزعيم امرؤ القيس ، فقد وقف في قصائد على الديار فقال كما قالوا :

قف بالديار عفـا من أهلها الأثر   عفّى معالمهـا الأرواح والمطر [1]
بالعرصتين فمجرى السيـل بينهما   إلى القرين إلى مـا دونه البُسُر [2]
منازل الحي أقوت بعد ساكنها   أمست ترود بهـا الغزلان والبقر

وهو هنا لا يتعفف عن السرقة الشعرية فيقول :

وقفت فيهـا طويلاً كي اسائلها   والدار ليس لهـا علم ولا خبر

ثم يصف صاحبة تلك الدار فيغير على القدماء إذ يقول :

هيفاء لفّاء مصقول عوارضهـا   تـكاد من ثِقَـلِ الأرداف تنبتر [3]

ويقول أيضاً :

لمن دمن بخيف مِنىً قفور   كأن عراص مغناها الزّبور [4]

وفي شعره من هذا غير هذا ، فارجع إلى ديوانه كاملاً إذا شئت ، وإلى الأغاني أيضاً إذا شئت معرفة رأي القدماء فيه ، أما انا فحسبي ما قلت .

---

(١) عفا : مُحي . عفى : محا .
(٢) البسر : النخيل .
(٣) الهيفاء : الرقيقة الخصر . اللفّاء : المجدولة . العوارض ، جمع العارض وهو صفحة الخد . تنبتر : تنقطع .
(٤) الدمن : آثار الدار . القفور : جمع القفر .

العَبَّاسِيّون

عصر الترف

العصر العباسي عصر ترف، فالحب ظلّ حباً وزاد. ملأت الجواري أسواق بغداد فكانت تباع بالمزاد . وهذا الرشيد يردُّ جارية على الموصلي ، بعد أن جرّبها ... ويقول له : هذه ليست من بابتنا .

وإلى جانب الجواري غلمانٌ وولدان . ومن يستطع فليفتتنِ ما شاء .

أما الشرب فاحتالوا له مجتهدين ، ففرّقوا بين الخمر والنبيذ ، وبين بنت النخل وابنة العنب ، وبين المطبوخة على النار والمعمولة في الشمس . وكان بين الايمة خلاف فقال في هذا ابن الرومي :

أحلّ العراقيُّ النبيذ وشربه　　وقال الحرامانِ المُدامة والسكرُ
وقال الحجازيُّ :الشرابانِ واحدٌ　　فحلّت لنا بين اختلافهما الخمر

قصور ودور وحانات وخمارات لم يرها العرب في باديتهم فتأثروا بها ، وكان لها في شعر الموالي ، ورّثةِ هذه المدنيات ، أثرٌ بيّن ، فتطوّر الشعر بمقدار . كان منه لونان : لون حضري ولون بدوي . فالحضري من عمل الموالي ، أما البدويُّ فيقوله الوافدون على الخلفاء ، فينفق عندهم .

والغناء بعد ان كان رجزاً وحُداءً أصبح فارسيّاً موقّعاً ، وأقبل عليه حتى أبناء ملوك العرب . أما الحرب فظلت حرباً ولكنها سمّيت جهاداً . وهكذا في كل زمان تتغير الأسماء وتبقى الجواهر .

أما العلوم والآداب فازدهرت في هذا العصر . كان المنصور ممعوداً [1] فتُرجمتْ له كتب الطب ؛ وكان الرشيد أديباً شاعراً فكثر الشعر في زمانه

(١) الممعود : المصاب في معدته .

واعتز الشعراء ؛ وكان المأمون ابن فارسيّة فكانت الفلسفة في زمانـــه ، وانتشرت حرية القول والفكر ، فقـال دعبل الخزاعي فيه وفي خلفـاء بني العباس هجاءً لو قيل في أحد السوقة لما صبر ، ومع ذلك سلم دعبل وظـلّ حاملاً خشبته أربعين سنة ولم يجد من يصلبه عليها كما قال .

فتح عصر المأمون للعرب باب التفكير الحر فورثت بغداد آثينا. لقد فاز العرب في اللغة والدين،ولكنهم تقهقروا في السياسة.وآفة ذلك تلك العناصر الاجنبية التي صهرها الاسلام ليجعل منها امة واحدة،ولكنها لم تتحدْ، وظل السوس كامناً في الجذع ، فما انفك ينخره حتى هوى .

لم يكن يجسر شاعر أو غير شاعر من الموالي ، في العصر الأموي ، أن يتطاول الى مقام عربي،أو أن يحلم بالمساواة. أما في هذا العصر فيرتفع صوت بشّار وابي نواس هازئين بالعرب، وبكل ما عند العرب إلا الدين، وما ردهما عن الدين الا خوفهما على رأسيهما .

وقصارى الكلام كان العصر الأموي عصر عصبية عربية وشعر وجـاء العصر العباسي فكان عصر فلسفة، وعلم، وجوارٍ ، وشعر، وخمر. هو العصر الذي خلق شهرزاد واخوان الصفاء. واذا شئنا كلمة شاملة قلنا : الأمويون جمّعوا ، والعباسيون بدّدوا .

بشارة عبد الخلعاء

فانك ماءُ الورد ان ذهب الورد.. ما أصدق هذا القول على الأدب، فالأدب خلاصة عقل الأمة يدلُّ الأواخر على السبل التي اختطتها أوائلهم ، وما مروا به من شباب . يبدو الهرم ويستولي الفناء على آثار الأمة وبقاياها مـــا خلا الأصيل من أدبها ، فهو لا تفارقه نضارة الشباب لأنه ابن الحياة الحي .

أن هذه الثورات التي تضطرم في كل حقبة لدليلٌ على ان الأدب كائن حي فهو ابداً في تفاعل كعناصر الحياة الاخرى. اذا ولدته الانواء برعمت عصونه الهاجعة ، وازهرت ، واثمرت ما يموت وما يعيش : سنّة الحياة الخالدة التي تحارب أبناءها ، فلا يثبت في جبهة النضال إلا الأشد الأشد .

يتأثر الأدب بالحياة لأنه وليدها ، ويصعب الاختراع فيه لأنه صورة عنها وهي لا تتغيّر إلا بمقدار . ولهذا تقلُّ الاكتشافات فيه ، ويظل قديمه متصلاً بحديثه ، يتمشى تمشّي السلالات والانواع ، وينمو نمواً حسابيـاً لا هندسياً . فالأديب الحق هو المصوّر الحاذق تلتقط ريشته المشاهد الرائعة فتمسي في محبس الفن لتتمتع بجمالها الحواس دائماً وابداً . فانك ماء الورد ان ذهب الورد ..

مضى ذكرُ الملوك بكل عصر   وذكر السوقة العلماء باق

هكذا قال شاعرنا . وان آثرنا الصدق ولم نذهب مع الشعراء في كل واد قلنا : أخلدُ الملوك وأسيرهم ذكراً من نفقت عنده بضاعة الادب . وليست الدول العظمى احرص على ذكر ملوكها منها على ذكر ادبائها، فهم سجل مجدها الباقي ومؤئلو ملكها ، فحيث تلقى بذورُ آداب امة ينبت النفوذ والسيطرة . فما تأثرُ بعض الأمم ببعضها عقلياً باقل منه تجارياً وصناعياً . ففي الحيـاة

مجارٍ خفية كالمناجاة لا يلتقطها الا ذهن الأديب لأنه اشد احساساً من زجاجة المصوِّر الشمسي

تقع الثورة في الأدب فتظنها طوفاناً عرمرماً ، وتحسب أن الساعة قد دنت ، حتى إذا لفظت العاصفة آخر أنفاسها وطلعت الشمس ضاحكة ، بدا لك غير ما كنت تتوهم أنه كائن . فهذا الثبات يدلك على خلود الأدب فلا تأخذ منه الثورات إلا كما تأخذ السيول من الجبال الصلعاء . فالأدب الرفيع ، وهو نزر جداً ، هو آخر صفحة تمحوها العوادي من تواريخ الأمم والشعوب؛ وهي أشدّ آثارها الاخرى صبراً عليها .

قد يقول القارىء : هنيئاً له ما أفضى باله ، يحدثنا عن الأدب وثوراته في هذه المعامع . الدنيا قائمة قاعدة وهو غارق في هذره وسخفه . فليحدثنا عن المفاجآت الحربية ، عن الخبز والملح ، عن الرزّ والسكر ...

أما الجواب فهو اني لا أصلح لهذه ولا لتلك ، ولا يعنيني غير الثورات الأدبية ، فأصحابها هم الذين وضعوا المثل العليا التي تناضل عنها الدنيا قاطبة، وتقوم الحروب في كل عصر تحت ألويتها .

كل أديب ثائر ، والاديب الهادىء لا يهدم ولا يبني ، بل هو من الذين تجرفهم شبكة الصياد فتخرجهم من بحر الحياة العجاج إلى المقلى أو إلى الفرن ليتغذّى بهم الحيتان الصالحون للبقاء .

إن أول ثورة أدبية عربية أوقد نارها أديبٌ أعمى مستعرب. وكأنه نظر بعين الغيب إلى أثره في الأدب فقال بيته الذي نتمثل به الآن :

أعمى يقود بصيراً ، لا أبا لكم ، قد ضلّ من كانت العميان تهديه

لا يا بشار ، ما ضلّ من يقوده أعمى مثلك . وكم من أعمى قبلك وبعدَك رأى ما لم تره نحن البصراء ، فانعم بالاً .

أسمع الكثيرين يقولون : لماذا زعّم القدماء بشاراً ، وماذا رأوا فيه حتى

أقرّوا له بزعامة لا خلاف فيها ؟ فالذين لا يدركون ماغمض ودقّ يقولون : كان لبشار لسان كالسوط فألقى الرعب في نفوس العلماء والرواة – والرواة هم نقّاد ذاك العصر – فاعترفوا له بالسبق خوفاً ورهبة . وكما يصير الباطل حقاً ويصبح الكذب صدقاً ، في رأس قائله ، متى تقادم عهده ، هكذا ثبتت زعامة بشار كما ثبتت زعامة الحريري بعده .

ان هنالك لشيئاً غير ذلك . ان هنالك لفناً ليس رمية من غير رام . فبشار زعيم أدبي رغماً عن وطأته الثقيلة . ففي ذلك الجسم الجاموسي نفسٌ فنية ما رأى الأدب العربي مثلها ، نفسٌ أدركت عفواً أن الأدب ابن البيئة ، فتحسست بيئتها تحسساً ، فكان لها من كل اصبع الف عين . رأى بشار بأنفه وأذنيه ولسانه ما لم تره ملايين الناس بأعينهم ، وهو من المباقرة الذين سبقوا دهرهم دهوراً .

أراد بشار أن يكون لعصره أدبٌ غير أدب الجاهليين والأمويين فتعمّد ذلك ووضع معالم فنه صامتاً . لم تكن له نفس أبي نواس المرحة ، ولا حريته الواسعة . ضيّق عليه عماه فانطوى على نفسه متأملاً ، فأخرج فناً شايعه عليه ابو نواس وغيره ، فكان أدب المولدين . وهذه الحكاية تؤيد ما نزعم .

قال الأصمعي : كنت أشهد خلف ابن ابي عمرو بن العلاء وخلفاً الأحمر يأتيان بشاراً ويسلمان عليه بغاية التعظيم ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما . ويسألانه ويكتبان عنه . فأتياه يوماً فقالا له : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلّم بن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما . قالا : بلغنا انك أكثرت فيها من الغريب . قال : نعم ، بلغني أن سَلْماً يتباصر بالغريب ، فأحببت ان أورد عليه ما لا يعرفه . ثم أنشدهما القصيدة ومطلعها :

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير ان ذاك النجاح في التبكير

فقال له خلف الأحمر : لو قلت ، يا أبا معاذ ، مكان: « ان ذاك النجاح » « بكّرا فالنجاح » ، كان أحسن .

فقال بشار : اني بنيتهـا اعرابية وحشية فقلت : « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون . ولو قلت : « بكـّرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولـّدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة .

فقام خلف وقبّله بـين عينيه . وشاء خلف الآخر ابن أبي عمرو بن العلاء ممازحة بشار فقال له: لو كان علاثة والدك يا أبا معاذ - أي لو كان عربياً - لفعلت كما فعل أخي ، ولكنك مولى. فمدّ بشار يده ، فضرب بها فخذ خلف ابن ابي عمرو العلاء وقال :

ارفق بعمرو اذا حرّكت نسبته ... فانـــه عـــربيٌ من قوارير
ما زال في كـبر حدّاد يردّده ... حتى بدا عربيـــاً مظـلم النور
إن جاز آباؤه الأنذال في مضر ... جازت فلوس بُخارى في الدنانير

أرأيت مثلي أنّ بشاراً كان في فنه متعمداً وأنه زعيم مدرسة حقاً ؟ إنه لا ينظر أبداً إلى موادّ الجاهليين في هجوم ، فكل مواده مأخوذة من بيئته ومما تتناوله يده من محيطه . انظر كيف تناول صوره من زمـانه وأخرج منها هجاء مراً . فلبشار مدرسة زاهرة لا بأس علينا ان سميناها « مدرسة الخلعاء » ، فللأدب العربي كغيره من الآداب الأخرى شعراء ملعونون ، وقد ذكرهم أبو الأدب العربي فقال :

كان والبة بن الحباب ، ومطيـع بن اياس ، وابن المقفع ، وحمّاد عجرد ، وبشار المرعّث [1] ، وابان اللاحقي ، الخ ... ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر لا يكادون يفترقون ، يهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمـداً ، وكلهم متّهم في دينه .

فهؤلاء ، أضف اليهم أبا نواس وأترابه ، هم رجال الثورة الأولى في الأدب العربي . أما موقد نارها فبشار . وسنريك في قابلٍ أنْ بشار وزعامته فيها ، ثم كيف خمدت نارها قروناً حتى اتقدت في هذا العصر .

(١) المرعث : قد يكون معناها ، صاحب الرعثة ، وهي القرط الملبوس في الأذن . وقد يكون معناها : صاحب اللحية التي تشبه عثنون الديك .

أخلاق بشار

لا متسع لدرس عصر بشار ومحيطه اللذين يعرفهما كل متأدّب ، ناهيك بأن بشاراً ابن الغريزة العمياء الموروثة ، فما رأينا له ضريباً إلا نفراً تتلمذوا له فأعداهم . ليست الأوبئة النفسانية بأقل عدوى من الأمراض السارية ، وليس بشار أول المتهتكين ولا آخرهم ،ولكنه تفوّق على من تقدموه بثورته الشاملة كلّ ما تواضع الناس على تقديسه ؛ فكان يزدري تقليدهم ، وعرفهم ، وعاداتهم ونواميسهم ، ولولا فنه الأصيل لأحصي مع السفلة الرعاع . ولكن فن هـذا الأعمى الوقح ونظراته البعيدة المدى تستهويني ، فأغلو في تقديره . يدهشني قوله : عدم النظر يقوّي ذكاء القلب ، ويقطع عنه الشغل بمـا ينظر اليه من الاشياء ، فيتوفّر حسه وتذكو قريحته . وأزداد دهشة اذ أقابل قوله هـذا بقول فاليري زعيم الشعر المحكّك في فرنسا. ففاليري يدعو الشاعر والكاتب الى الخلوة في الغرفة السوداء لتأمّل ما تصوّر وكتب .

أما بشار فكان في غرفة أبدية الظلام ، لم يعشُ قط الى ضوء النار التي قدّسها وقدّمها على الطين .. فقضى عمره بين نارين : شهواته وفنه . فلننظر، اذاً في سجاياه قبل فنه ، لأن هذا ابن تلك ، وان كانت جميعها لا ترضي . فما رأيت فناناً خلا من كريمة مثل الشيخ بشار .

كان بشار خائفاً على شعره فقال : أزرى بشعري الأذان . فجاء الجاحظ بعد قليل وقال:ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولّدين منهم بشار الأعمى، وكان شاعراً راجزاً سجّاعاً خطيبـاً صاحب منثور ومزدوج ، وله رسائل معروفة ، وهو اطبع شعراء زمانه كلهم . ثم جاء ابو الفرج فاقتفى اثر يوحنا الأنجيلي فيتدوين سلسلة نسب بشار فبلغ به الى ادريوس بن يشتاسب بن يهراسب

الملك . وقال آخرون بشار مولى وأبوه طيّان.وسواء عندي أكان ابن طيان أم صنو كسرى انو شروان ، فقد كان «هوارس» ابن مولى، و « فرجيل» ابن حطّاب .

لا يعنينا مما ذكره أبو الفرج إلا هذه الكلمة التي ختم بها الملك تلك السلسلة الملكية :« ويكنّى بشار أبا معاذ،ومحله في الشعر وتقدمه في طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك » .

فكيف أتته الرئاسة منقادة ، وما هي الخصال التي جعلت منه زعيا لا خلاف فيه ؟ قال « تين » : الشاعر ابن العرق والزمان والبيئة . وبشار هو حقاً ابن عرقه وزمانه ومحيطه . قد نظلم عصر بشار إذا جعلنا هذا الفاجر الفاسق مثالاً له . قد كان في ذلك الزمان أناس فضلاء يقولون : أما لهذا الأعمى من يبعج بطنه !

وقد نكون – إذا اتخذنا بشاراً وعصابته نموذجاً لعصره – كمن يزور مواخير بيروت وملاهيها ، ولا يلمّ بكنائسها ، ومساجدها ، مدارسها ، وجامعتها ، وديورتها ، ونواديها الأدبية ، ثم يقول : بيروت مدينة لهو ودعارة. لسنا نطهر ذاك المحيط ، فخطبة زياد تكذّبنا . وهذه النواة – اي بشار – لو لم تصادف تربة ذات حرارة ورطوبة ملائمتين لاحتضانها لما انفلقت وجنّت جنوناً ، ورأينا لها اخوات .

لا يعنينا أن يكون بشار خفيف الظل أو ثقيله ، وسواء عندنا أحبّه الناس أم أبغضوه ، ولا يهمنا صدقه أو كذبه ، فالفن كذب كله . ولست أتطلب ديواناً ضخماً لأحكم على فنّ بشار ، فحسبي ما وصلني من شعره . وربّ كتاب صغير يضمّ بين دفتيه نفساً كاملة، تامة الخطوط،صادقة الألوان .

يرينا شعر بشار شيئين في وقت معاً : اباحية بشار والمحطاطه ، وسمو قريحته وفنه.فبشار بن برد أناني من الطراز الأول كأنه إنسان «لاروشفو كو»

الذي لا يهدأ أبداً ، فلا يقف عند الآخرين إلا كما يقف النحل على الزهر ليمتص منه ما هو بحاجة اليه . فبشار معجب بنفسه معتدٌ بها، وحسبك بابن طيّان نِداً لكسرى انو شروان فيقول وهو من عرفنا :

نبّئت بالع عرضه يغتـابني عند الأمير،وهل عليّ أميرُ ؟ [1]
ناري محرّقة وبيتي واسـع للمعتقـين ، ومجلسي معمورُ [2]

أدعر فاسق ، شموس حرون ، غضوب جسر كذاقة عنترة . لا تردعه النصيحة ولا يتأثر بأحد . عدو الجميع ، ثائر على النظم جميعها تمهيداً لشهواته المتأججة . فاتك جسور ، لا يثنيه عن غيّه لجام ، ولا تكبحه الخزامة :

أمامةُ قد وصفت لنا بحسن وانّـا لا نراك فألمسينا

فكان من أمرها معه ما كان . وإذا شئت الخبر كاملاً غير منقوص فارجع إلى كتاب الأغاني .

ولكن بشاراً خليٌ من حساسات الحياء ، والحياء بالنظر . يبتهر بالمعائب وكره الناس. ما أحبّ إلا بنيه . متقلبٌ كأبي براقش . يخفر ذمة بني عقيل كما يزدري الدين والمعتقد . يهجو الخليفة كما يهجو الحيّاط والقصّار . يذرّي كيفما طابت له الريح . ولا كبير عنده إلا الجمل . هو على حدّ قول «رابله»: يبكي كالبقرة ، ويضحك كالعجل. يبذل كل شيء حتى فنّه ارضاءً لربابة ربّة البيت ، وطمعاً بأكل البيض طازجاً . فلسفته دُرْ مع الزمان كيفما دار :

وما أنا إلا كالزمـان إذا صحا صحوتُ ،وإن ماق الزمان أموق

ماديٌ ممتلىءٌ شبقاً ، زنديقٌ إذا خاف، ملحدٌ حتى الهذيان إذا اطمأن . ليس الدين عنده شيئاً ولا الفروض ولا الصلاة ، وقد أجاب حين لاموه على تركها : من يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة . الحياة عنده في اللحم والعظم ولا يردعه عن الفجور إلا الخوف على جلده :

---

(١) يغتابني : يذكرني بالسوء في غيابي . (٢) للمعتفين : للزوار الطالبين المعروف .

أنا والله اشتهي سحر عينيك وأخشى مصـارع العشاق

شاب وما تاب . ظلـّت نفسه خضراء في السبعين . أذّن في الضحى وهو سـكران ، فكأنّ المتنبي يعنيه بقوله :

شيخٌ يرى الصلوات الخمس نافلةً ويستحلُّ دم الحجاج في الحرَمِ [1]

الحياة عنده هوى عاصف ، وشهوات كالتـّنور المسجور . وهكذا كان له مدرستان : واحدة علـّمت الجسارة والفتك ، واخرى علمت الفن . لم يحثّ إلا على مكرمة واحدة وهي رعاية الصديق ، لكنها كقول الدهري : خلق الله السموات والأرض ، لأنه لم يكن له صديق ، ولم يرع عهداً لأحد .

يصوّب مدفع فنه إلى حصنين : المرأة والصندوق :

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا
تعطي الغزيرة درّها فإذا أبت كانت ملامتها على الحلاب

هو لا يمدح ريحانة قبل شم ، هائج كالبركان . الحياة عنده مأدبة يجب أن تتنوع ألوانها لتقوّي شهوة النهم . وقد قال لبعضهم : لا تصيـّروا مجلسنا هذا شعراً كله ، ولا حديثاً كله ، ولا غناءً كله ، فان العيش فرص . ولكن غنـّوا وتحدثوا وتناشدوا ، وتعالوا نتناهب العيش نهبـاً . قوي الميل حتى الغضب والبهيمية :

ألصقَ بي لحية خشنت ذات سواد كأنه الإبَرُ

يتبـع هذه الغريزة كما يتبع الملاّح نجمة القطب ، شعاره الوقاحة والفتك :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيـّبات الفاتكُ اللهِجُ

وإذا كان الانسان اضغاث ميول كما يعلـّم علم النفس فميول بشار نطـّاحة .

(١) النافلة : ما ليس بفرض .

يقولون ان الميل قوة عظمى إذا وجّهته الإرادة، وأداره العقل، ولكنّ ميل بشار عنيف خلق منه لصّ أعراض ومجرماً خطراً على المجتمع ، ناهيك ان ميل بشار لم يعرف الشيخوخة فكان في السبعين ، طور السأم والهرم ، كأنه ابن عشرين . كل شيء عنده محلّل ، وصاحبنا جوعان دائماً ، ينطح الزاد كلما رآه : زوّدينا يا عبدَ قبل الفراق... وقد عرف بشار اعوجاجه هذا فاعتصم « بالجبريّة » [1] فقال مبرئاً نفسه :

طبعت على ما فيّ غير مخيّر هواي ولو خُيّرت كنت المهذبا

لم يقعد ولم يتوانَ عن طلب المال ، فلم يحل عماه دون الأسفار والزيارات المثمرة :

يسقط الطير حيث ينتثر الحبُّ وتُغشى منازل الكرماء

وقد اعترف بهذا إذ قال: دخلت على الهيثم بن معاوية، وهو أمير البصرة ، فأنشدته :

ان السلام أيها الأميرُ عليك والرحمة والسرورُ

فسمعته يقول : إن هذا الأعمى لا يدعنا أو يأخذ من دراهمنا شيئاً . فطمعت فيه ، فما برحت حتى انصرفت بجائزة .

إن حيّة بشار تعمل دائماً لاتمام رغائبه ، فما هجا إلا ليستدرّ ، وما نظم شعراً لنائحة أو مغنية إلا ليفوز منها بشيء ، وما تغزل إلا ليستهوي ويغوي ، وما مدح إلا ليجاز . كان فنه أحبولة صيد ، والفن مكّار . قد تكون للتقاليد والعرق يدٌ عظمى في توجيهه ، فما عصمه إسلام ، ولا حجبه شرعٌ أو حدٌ . أما أجاب جواري المهديّ : ونحن على دين كسرى ، حين قلن له : أنت ابونا ؟ ...

---

(١) الجبرية : مذهب القائلين بأن الانسان مسيّر ، لا مخير .

إن بشار عبد اللحم والعظم . ولقد كان مصاباً بحمّى الحياة ، ولم يفارقه الدور حتى ضربه المهدي ضرب التلف ، وألقي في البطيحة .

وقد يدلنا خـَلقه على خـُلقه ان كان كما وصفه حمّاد عجرد :

وأعمى يشبه القـردَ   إذا مـا عمي القردُ

أو كما قال فيه آخر :

ان بشار بن بردٍ   تيسٌ اعمى في سفينه

أما فنه فموعده قريب .

الطاقة البشارية

روى الاصفهاني عن بشار ، قال : لما دخلت على المهدي قال لي : فيمن تعتدّ يا بشار ؟ فقلت أما اللسان والزيّ فعربيان ، وأما الأصل فعجميّ كما قلتُ يا أمير المؤمنين :

نمت في الكرام بني عامر   فروعي وأصلي قريشُ العجم
واني لأغني مقام الفتى   وأُصبي الفتاة فلا تعتصم [1]

وكان ابو دلامة حاضراً فقال : كلا ، لوجهك اقبح من ذلك ووجهي مع وجهك. فقلت : والله ، ما رأيت رجلا اصدق على نفسه واكذب على جليسه منك . والله ، اني لطويل القامة عظيم الهامة ، تامّ الألواح اسجح[2] الخدين . ولرب مسترخي المزرورين ، للعين فيه مراد ، قد جلس من الفتاة حجزةً[3] وجلستُ منها حيث اريد . فانت مثلي يا مرقعان[4] ؟

لم يكذب ابو دلامة ، وقد رحم الله بشاراً فاعماه لئلا يفجعه برؤية قبحه.

وان قيل : من كان هذا شكله وتلك سجاياه فاي فن سامٍ يخرج منه ؟ قلت : الوردة والتفاحة والبيضة من بُليّات المزابل . ومن هذه الدمنة التي سميت بشاراً بسقت فروع مخضلة ، فلنبحث عن الطاقة Energie البشّارية .

لا يفرق علم النفس بين جهد وجهد . فسيان عنده جريح يتجلد في سبيل المجد والوطن ، ولص يصبر على جرحه خوفاً من الفضيحة والسجن . فأنّى

---

(١) أصبي الفتاة : أثير الصبوة أي الشوق . فلا تعتصم : فلا تمتنع مني بل تنقاد لي .
(٢) أسجح الخدين : لين الخدين .
(٣) حجزة ، هنا : مقصي مبعداً .   (٤) المرقعان : الكثير الحركات ، الاحمق .

توجهت ركائب طاقة بشار فهي طاقة ولها الأولية بين خصاله . فلولا جهده العنيف المستمر لظل لعبة الصبيان وكرة يتلقفهـا من لا يرحمون ذا عاهة بل يقولون : اضرب الاعمى واكسر عصاه ، ما انت خير من ربه الذي اعماه .
إن هذه الطاقة المتقدة قد سيرت بشاراً نحو الابداع المستمر ، والدليل قوله: لم ازل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيهه شيئين بشيئين حيث يقول :

كأن قلوبَ الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي[1]

حتى قلت :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنَا ليلٌ تهاوى كواكبه

لا يعني هذا انه سرق امرأ القيس كما ظن احدهم ، فالتخيّل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور الى بعض ، فيحلل ويركب ويصغّر ويكبّر كما عمل بشار . ان ارادة بشار مُسلّحة بقريحةٍ عجيبة وقوة بادرة ، وشدةٍ عارضة يخفرها العقل الذي الزمه عمود الفكر فيما نظم . اضف الى هذا كله ذوقاً مرهفاً مكّنه من نقد شعره ادقّ نقد ، فجاء كلامه نقيّاً كأنه الفضة المسبوكة ، فقصرت قصائده ولم تتشعب اغراضها ، وقد قال بشار في هذا : « لم اقبل كل ما تورده عليّ قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري . نظرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت اليهـا بفهم جيد وغريزة قوية ، فأحكمت سبرها وانتقيت حُرّها ، واحترزت من مُتكلّفها » .

لا بد للشاعر الكبير من مخيلة قوية ، ومخيلة بشار اشبه بطائر عجيب يطير بجناحي الحساسة Sensibilité والانتباه وان قيل ماذا يدرك الأعمى المسكين

---

(١) يصف امرؤ القيس العقاب فيقول انها لكثرة ما تصيد وتحمل الى وكرها تكاثر حول وكرها قلوب الطير ، فما كان صيداً جديداً بقي قلبه رطباً يشبه العناب ، وما كان صيداً قديماً يبس قلبه فأشبه الحشف اي التمر اليابس العتيق .

اجبنا مع علماء النفس ان الانسان مدرك بغير عينيه. وقد دلنا بشار على هذا، قبل علم النفس الحديث، فقال :

ان سليمى ، والله يكلأهـــا كالسكّر تزداده على السكّر
بلغتُ عنها شكلا فأعجبني والسمعُ يكفيك غَيبةَ البَصَر

ثم قوله لعبده :

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحُب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان الا من القلب

أفلا يؤكد هذا القول كل ما جاء في علم النفس عن الهوى والهيجان والتخيل والاحساس وغير ذلك من فصول ؟ ومـا علينا لو أقحمنا شيخنا المعظم بين جيمس وريبو وبرغسن وغيرهم ، فقد خلق بذكائه وانتباهه الشديدين ما لم يخلقه الملايين من البصراء

الانتباه خاصيّة اولى في العميـان ، يدلك عليها تقلّص عضلات جباههم وارتفاع حواجبهم والأخاديد الافقية. ولكن ليس كل أعمى قويّ المخيلة فيّاض الذهن والقريحـة كبشار ليخلق مثله . وما يضر فقد البصر ، فللسمع والشم والذوق وغيرها من الحواس الأخرى صور تالية[1] Images consécutives كما للنظر . والصور التالية بنت الاحساس الذي هو من أصدق صفات بشار التي أنمت مخيلته . روى أبو الفرج قـال : مرّ ابن أخ لبشار ببشار ومعه قوم ، فقال بشار لرجل معه : من هـــذا ؟ قال : هذا ابن أخيك . فقال بشار : أشهد أن أصحابه سفلة . قال : وكيف علمت ؟ قال : ليس عليهم نعال .

ليس هنا موضع القاء درس في الانتباه وأثره في الفن، ولكننا نقول ما لا لا بد منه لموضوعنا، أي انه يجمع ملكات العقل حول نقطة واحدة . والانتباه

(١) المراد : يتلو بعضها بعضاً

بشار تجمّع كله حول مخيلته فصحّ فيه ما زعموه عن العبقرية ، أي انها القدرة على جمع الفكر حول موضوع واحد مدة طويلة .

ومن مميزات بشار الحس البديعي [1] Sentiment esthétique ، فالهيكل البشّاري « دينمو » احساسات مختلفة تخلق طاقته قوى وأنواراً مدهشة . وهذا الحس البديعي الذي تتعب في مراده الأجسام حمل بشاراً فسمّى بعض غرف بيته « الرقيق » و « البردان » ، وكلّف المصور رسم طير في جامه . وهو الذي وجّهه صوب السخر اللاذع واستطابة النوادر وإبداعها .

هذه عناصر بشار الغريزية ، أما عناصره الاكتسابية فهي ثقافته الشاملة ، ان صحّ التعبير ، وإلا قلنا اطلاعه الواسع على معارف عصره ومقدرته الجدلية ، فقد كان شيخنا من أبطال هذا العراك ، وله فيه حجج وبراهين شعراً ونثراً . أما الأدب فعرف منه الغالي والرخيص ونقده نقداً عجيباً .

قال مروان ابن أبي حفصة : قدمت البصرة فأنشدت بشاراً قصيدة لي واستنصحته فيها ، فقال لي : تقدم بغداد فتعطى عليها عشرة آلاف درهم . فجزعت من ذلك وقلت : قتلتني . فقال : هو ما أقول لك . ثم قدمت عليه فأنشدته : « طرقتك زائرةٌ فحيّ خيالها » ، فقال : تعطى عليها مئة الف درهم . ثم عدت إلى البصرة فأخبرته بحالي في المرتين وقلت له : ما رأيت أعجب من حديثك . فقال : يا بني ، أما علمت انه لم يبق أحد أعلم من عمك ؟

أما بصره بالغريب فأمكنه من فهم سر كل لفظة فحمّلها ما تستطيع تأديته ، وأحلّها محلها بين اخواتها لتؤدّي فكرته التي بدت كالبحر الهادىء ، تُبصر قعره بعينيك وهو عنك بعيد .

فان كان لمركّب النقص عمل في الانسان كما زعموا فعمى بشار وقبح منظره حملاه على التسامي Sublimation في فنه ، فشأنه في قبح منظره وعماه

---

(١) هنا ، بمعنى الحس الجمالي .

شأن عنترة. هذاك استغل سواده فنياً، وهذا اندفع ليبذّ الكاملين. أما تهالكه على الملذات فقد أذكاه الكبت Refoulement فملذات بشار بقيت منقوصة، ولم يُروِ غلّته كل ما ارتكب من الموبقات. لقد بقيت طاقته فتيّة في الهرم فهجا الخليفة وسب الوزير. كان سلاح هذا الرجل لسانه في كل أطواره، وبه ردّ الثقلاء عنه وانفتحت له أبواب القصور.

خبرونا انه كان يعطي أبا الشمقمق مئتي درهم في كل سنة. وبلغ أبا الشمقمق أن بشاراً أعطي عشرة آلاف درهم، فوافاه، فقال له: يا أبا معاذ، اني مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون:

هاالينه ، هاالينه طعن قثّاةٍ لتينه
إن بشار بن برد تيسٌ اعمى في سفينه

فأخرج اليه بشار مئتي درهم وقال: خذ هذه، ولا تكن راوية الصبيان يا أبا الشمقمق...

لا نعجب ان رأينا الشاعر الكبير الموهوب يخاف هرّاجاً كهذا، فمن يسقط من علٍ في صغره لا يجرؤ فيما بعد على تسور حائط عالٍ وشاعرنا ذاق طعم عبث الصبيان صغيراً فآثر ارضاء من يهوّشهم.

وإذا صح قول ابيقور في ان السعادة في الجمود وفقدان الشهوات، فبشار لم يسعد يوماً في حياته، ولا شك أن تنفسه لم ينقص عن سبع عشرة مرة في الدقيقة، ولم يكن نبضه قط عادياً. فهو رجل ملاذ ومسرات. ظل من فنه في جهد جهيد ينفق من طاقة لا تنضب. فكان كالدجاجة المرّخة [1] لا تبرد ولو طمرتها بالثلج، بل تنتفض وتعود الى بيضها تحضنه.

---

(١) رخم الدجاجة: ألزمها البيض، تحضنه.

فنّ بشّار

عاش الشعراء الجاهليون على الأنعام [1] فاحتلت صورها ساحة مخيلتهم واستأثرت بشعورهم. فكأنّ الله لم يخلق الفرات ليسقي الفردوس الارضي كما جاء في كتابه المقدس، بل ليشبّه به النابغة ابا قابوسه، ربيع الناس، والأخطلُ سيدَه عبد الملك، خليفة الله الذي يستسقى به المطر. لم يهمس بردى في اذن التغلبي حرفاً، ولم تومىء اليه «الغوطة» بأصبع فلولا ذلك «الخبر» [2] الذي اتى ابن مروان ما ذكر اسمها شاعر «خفةّ القطين». فالزهور عند قدمائنا مخمل وارجوان، والشقيق اعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد، والورد والتفاح خدّ لوناً وطعماً ورائحة، وقطرُ الندى لآلىء، والنجوم درر منثورة على بساط ازرق، والاعشاب بساط زمردي، وبعض الثمار كُرات ذهبيـــة والبعض الآخر كهرمان، والحليب كوثر، والمياه فضة سائلة الى آخر ما هنالك من صُوَرٍ جافة. ولا عجب في هذا، فخيال الجاهلي خيال طفل كبير.

لم يعجب هذا النحو بشار بن برد فثار عليه وقال مستهزئاً بزعيمهم امرىء القيس: لم يطل ليلي ولكن لم انم. ثم انحى بسوطه على قفا زهير، مخوّف الاعراب بيوم الحساب، فقال:

كيف يبكي لمحبسٍ في طلولٍ ... من سيقضي لحبس يومٍ طويلِ
ان في البعث والحساب لشغلاً ... عن وقوفٍ برسم دار محيـــل

فلا يظنّن من ظنّ من دارسي بشار أن بشاراً مؤمن هنـــا، فبشار شيخ

(١) الانعام: الابل وتطلق على الغنم. (٢) اشارة الى قول الاخطل لعبد الملك بن مروان:

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا ... لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

يريد خبر مقتل عمير بن الحباب القيسي أحد المارقين لبني أمية.

الزنادقة وفاتح باب السخرية بالاقدمين راز بشّار شعرَ القدماء فاستخفه وجرؤ عليه ، وقعد يخلق صوراً جديدة من عمل وطن الف ليلة وليلة ، فهزّ نفوس الرواة والسامعين بشعر ينطق بصور حياتهم المتحركة ، فأعجب به الأصمعي وفضّله على ابن حفصة المحبوس في قفص التقليد البايزيديّ [١] .

جارى بشار الاقدمين وسأل الطلل مثلهم ، ولكنه حدّثه بروح بشّارية ولغة مولدة فقال :

أبى طلل بالجزع ان يتكلما   وماذا عليه لو أجاب متيّما

فهو لا يدع أبداً اسلوبه ومنطقه ، يطعّم شجرة الجاهلية بالبراعم العباسية المشرئبة ، ويلقّح ذلك الهيكل الهرم بدم جديد ، يقوده في ذلك المعارك الفني ذوق نقدي مرهف يحسن بـه الانتقاء والاختيار ، فلا يضع حجراً في بنيانه ما لم يقلّبه على جميع وجوهه عارضاً اياه على بركاره وزاويته . أنشد بشار مروان ابن ابي حفصة هذا البيت :

واذا قلت لها : جودي لنا،   خرجت بالصمت عن لا ونعم

فقال مروان : جعلني الله فداك،يا أبا معاذ ، هلّاقلت : خرست بالصمت. فأجابـه بشار : إذن أنا في عقلك ، فضّ الله فاك . أأتطيّر على من أحبّ بالخرس ؟ انظر إلى اي افق من آفاق الفن يذهب ببشار ذوقه ونقده .

شعر بشار مديح وهجو وغزل . أما مديحه فنصائح ، وحض على الجود، وايماء الى الجائزة ، وتهديد ان أبطأ الممدوح . وأما الهجو فيمد الالهام فيه فن بشار أيّما مدد ، ويغلي مرجل سخطه ، وتبلغ حساسته حد الفوران اذا حُرِم . واما غزله فشوّق ُمغرٍ بالفسق والفجور ، أقضّ على العلماء الصالحين مضاجعهم فحملوا الخليفة على نهي بشار عنه ففعل .

ادرك بشار الجمال بعين الغريزة العمياء ، فتخيل المرأة مادة استهلاكية لا

(١) البايزيدي نسبة الى بايزيد ، السلطان العثماني الذي أسره تيمورلنك وجعله في قفص .

غنى عن استهلاكها ، كالسكر والرز مثلاً ، فقال مستعطفاً عبدة :

نفّسي يا عبد عني واعلمي   انني يا عبد من لحم ودمْ

صورة رائعة نادرة خلقتها مخيلة بشار من اتفه المواد واخسها . رأى نفسه محقونة في زق الجسد ، وخشي ان ينشقّ ذاك الزق البشّاري ان لم ينفس عنه ، فأنطق كل حرف من بيته باستعطاف صارخ بلغ به ذروة الفن الرفيع تعالى عن العوامّ وظل بينهم ، وهذا سرٌّ فنه وموضوع التعجب منه . فعلاوة فن بشار هي في استعارة هذه الصور التي لم يحلم بها القدماء ، وكسوتها بألفاظ مألوفة وضعت في مكانها الملائم ، يحوطها الشاعر بهالة فنية شفافة فتبدو كوجه الحسناء من خلال البرقع . وهكذا يجمع شعره صفاء مع قوة ، وموسيقى مع شدة ، فيغذي الذوق والعاطفة معاً . انظر الى هذه الصورة التي اخرجها في مدحه خالد ابن برمك :

لَعمري لقد أجدى عليّ ابنُ برمكٍ ،	وما كلُّ من كان الغنى عنده يجدي [1]
حلبت بشعري راحتيه ، فدرّتا	سماحاً ، كما درّ السحابُ مع الرعدِ [2]
اذا جئتَه للحمدِ أشرق وجهُه	إليك ، واعطاك الكرامةَ بالحمدِ
له نعَمٌ في القوم ، لا يستثيبُها	جزاءً ، وكيل التاجر المُد بالمُدّ [3]
مفيدٌ ومتلافٌ ، سبيل تراثه ،	اذا ما غدا او راح ، كالجزر والمدّ
لمستُ بكفّي كفّه ابتغي الغنى ،	ولم أدرِ ان الجود من كفّه يُعدي
فلا انا منه ما أفاد ذوو الغنى	أفدتُ ، وأعداني فاتلفت ما عندي

وكقوله الآخر :

أورق بخير ترجّى للنوال ، فما   تُرجى الثمار اذا لم يورق العود [4]

فهذه الصور وهذا الأسلوب يغلبان على شعر بشار الذي خاطب الناس

---

(١) أجدى علي : أفادني عطاء . (٢) حلبت بشعري راحتيه : جعلت كفيه تدران علي العطاء بمدحي له . (٣) لا يطلب على سبيل الجزاء مكافأة في مقابل نعمة . فهو ليس كالتاجر الذي يطلب مداً بمد . (٤) النوال : العطاء .

بلغتهم ففتنهم ، وأراناً انه اقدر الشعراء على تأليف الكلام حقيقة ومجازاً .
والقرآن الذي جعله العرب ملاك الشعر تتناوله يد بشار متى شاء . تأمّل كيف
اخرج هذه الفكرة بأسلوبه الحي الناصع :

خذي من يدي ما قلّ ، ان زماننا شموسٌ ، ومعروفُ الرجالِ رقيق [1]

ففي كل مجال يمدّه هذا النَفَسُ الفني فيبعد شعره عن اليبوسة والجمود اذ
يحفل بالكلمات التي تهيج أعمق لجج الشعور . قال بشار يهجو باهلة :

قـــد هجاني معشر كُلُّهُمُ حُمُقٌ ، دام لهم ذاك الحمقْ
ليس من شيء ، ولكن غاظهم شرفي « العارضُ » قدسدّ الأُفقْ

فانظر كم حمّل كلمة « العارض » من أثقال ، ثم دعمها بـ « قد سد الأفق »
فنهضت بفكرته نهوضاً عجيباً مروّعاً قولَ الاصمعي : ويلي على هذا العبد
القِن ابن القن . لا شك أن بشاراً قنّ ابن قنّ ، ولكنه في فنه أبو الأحرار ،
وشرفه الفني قد طبّق الآفاق .

فهذه الثورة الفنية الجامحة تلهب نفس بشار في كل غرض من أغراض شعره
وخصوصاً متى هجا ، وأين لا يهجو بشار ؟ فهو يتفلسف هاجياً ، ويتمنطق
هاجياً ، ويتمذهب هاجياً ، ويأكل ويشرب هاجياً . لا يطيب له عيش إلا
إذا سبّ وأخرج شعره مفزعاً . ان رقة بشار في ألفاظه تلك ، لا في صوره
التي يضخّمهـا ، ففي مخزنه مصنوعات لدنة شفافة ، وأخرى قاسية جـافة
كقوله : « والشمس في خِدْرِ أمّها » ، و « بنو الموت » ، و « أم المنايا » ،
و « قناديل أبواب السموات تَزهر » . ولكل منها موضع ؛ وأبرعها وأشدها
يأتيه مـــتى اهتاج . وإذا رأيته ، وهو الأعمى ، يتحدث عن النور ويشبّه
بالسراج ، ويشقّ العمى بالسيوف ، فاذكر انه مجوسي النبعة ، وعرق الاصل نزّاز .

قال لامرتين حـين قرأ مجموعة هيغو « العقاب » : ثلاثة آلاف بيت في

---

(١) شموس : حرون ممتنع .

البغض ، هذا شيء كثير ! فما تراه كان يقول لو سمع ابن برد يذكر أن له اثني عشر الف قصيدة ، ابتدأها بهجو آدم، وختمها بهجو الخليفة الذي يلعب بالدبّوق والصولجان وأشياء اخرى

ولشعر بشار خواصّ اخرى منها حرارة متقدة تنتشر في كل مقطع ، وسرعة كأنها البرق اقرأ ارجوزته العجيبة التي مطلعها :

يا طلل الحيّ بذات الصمْدِ	بالله خبّر كيف صرت بعدي
أوحشت من دعد وتِرْبِ دعد	سقياً لأسماء ابنة الأشـدّ
قامت تراءى إذا رأتني وحدي	كالشمس تحتِ الزّبرجِ المنقدّ (١)
صدّت بخدّ وجلت عن خدّ	ثم انثنت كالنّفَسِ المرتدّ
إسلم وحُييت أبا المِلَدّ	مفتاحَ باب الحدثِ المنسدّ
كل امرىء رَهْنٌ بما يؤدي	وربّ ذي تاجٍ كريم الجد
كآل كسرى وكآل بردِ	فصلته عن ماله والوُلْدِ

فتخال أن صخوراً تتدهور ، ورعوداً تقصف ، ومدافع رشاشة تنصبّ قذائفها على الهدف . فشعره يجري كأنهار لبنان،فيه جمال وموسيقى يخرجها الشاعر من تزاوج الفاظ ذات مخارج ملائمة ، وحروف شديدة غير متنافرة . وفي كل غرض تحس هذه السرعة . اقرأ قصيدته : قد لامني في خليلتي عمر ، ترَ انه لا يقتفي أثر امرىء القيس كابن ابي ربيعة،بل ترى على قصيدته الطابع البشّاري الذي لا يُقلّد. وحسب بشار تعبيره الناصع واتّباع قصيدته خطة مثلى لا دوران فيها ولا لفّ كعنترة وزهير ، ولا تلهّي بالألفاظ كالبحتري ، ولا يقلق قارئه بشروحه الباردة كابن الرومي، ولا يستغيث مثله بالله ورسوله من مهجوّه بل يضربه ضربةً تقرض اللحم وتكسر العظم. له في هذه الوغى سلاحان:إما تصوير مضحك كما في قصيدة الشاة، واما نكتة موجعة كقوله :

---

(١) الزبرج : الزينة ، أراد بها هنا : الثوب المزين المنقوش

كيف لا تحمل الأمانةَ أرضٌ حَمَلَتْ فوقها أبا سفيانِ

يعضده في هذا العمل الشاق دقة تفكير ، وحدّة شعور ، وحسن اداء ، كما يطلب بيفون . زد على ذلك ذكاء عجيباً ، وبديهة وثابة ، وارادة نهّاضة لا تقنع بما دون التمام .

غارات بشّار الفنيّة

لبشّار غارات فنية تصدّق قول الأخطل : الشعراء أسرق من الصاغة . فرغم كل دفاع سلبي ، تصيب قنابل بشار ، اهدافها ، ويعود ، كالشنفرى ، والليل أليَلُ . انظر ما فعلت يده ببيت النابغة المشهور :

ولست بمستبقٍ اخاً لا تلمّه على شَعَثٍ أيّ الرجال المهذّبُ ؟[1]

فقد طرّق هذا الصائغ الحاذق تلك السبيكة الذهبية ومدّدها وصيّرها اشكالاً وأنماطاً طريقة تقرّ له بالاستاذية ، قال :

اذا كنتَ في كلّ الامورِ معاتباً صديقَك لا تلقى الذي لا تعاتبهُ
فعش واحداً ، او صِلْ اخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ تارةً ومجانبه[2]
وان انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأيُّ الناس تصفو مشاربه ؟
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلّها ؟ كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه !

لسنا نستدل بهذين النمطين الادبيين على عقلية شاعرين كبيرين بل على عقلية أمّتين مختلفتين. فعروبة بشار لم تجرّده من آريته فيفكر تفكيراً عربياً خالصاً. العربي يوجز ، اما بشار فابن عرق منطيقي مطبوع على التبسط والاسهاب . ولكنّ منطق بشار منطق مجنح ، يفر في المأزق فلا يعرقل سير الفن ، ولا يسفّ اسفاف ابن الرومي في بسط الصور وعرضها . والغريب العجيب أن الكلام المنتقى يركّ حين يرصفه ابن الرومي ، واللفظة المبتذلة تزهو وتسمو في شعر بشار . فكم من عبارة تلوكها الالسن كل ساعة ادخلها بشار في شعره الرصين فما نبَتْ ولا اشتكت غربة . فهو يقول : « دار البلى » ، « ومن لحم

---

(١) شعث : تفرق . (٢) مقارف الذنب : مدانيه ، أي مرتكبه .

ودم » ! « ومحسن ومجمل » وكم نسمع حتى الساعة من يقول : يا محسن يا مجمل. فكأن لدى هذا الرجل إكسيراً فنياً عجيباً يلامس الحجر فيجعله كالذهب الابريز انظر كيف أمسى بيت الفرزدق الأعجر ليّناً ناضراً كالغصن الرطيب:

وكنا اذا الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه[1]

أنها سرقة صيّرها ذوق بشار الرفيع حلالاً زلالاً . اما من يأخذون عن بشار فيقصرون عنه تقصيراً فاضحاً . قال بشار في جارية اسمها رحمة الله :

يا أطيبَ الناس ريقاً، غيرَ مختبرٍ الا شهادةَ اطرافِ المساويكِ[2]

قد زرتنا مرةً في العمر واحدةً، ثنّي ولا تجعليها بيضة الديكِ

يا رحمة الله حلي في منازلنـا ، حسبي برائحة الفردوس من فيكِ

يأخذ البيت ابو نواس ليقول في رحمة بن نجاح :

يا رحمة الله حلّي في منازلنا وجاورينا، فدتكَ النفسُ من جار

فشتان والف شتان بين «رائحة الفردوس» وبين « جاورينا » في ملاءمتها لرحمة الله. ناهيك ان « فدتك النفس من جار » من سقط المتاع. ولست محتاجاً بعد الى دلّك على استدراك بشار الدقيق بقوله : غير مختبر، ولا على « بيضة الديك»، وهي بضاعة بشارية ذات « ماركة مسجلة » . ولا تعجب ان رأيت بشاراً مولعاً بالرائحة ، فسلاحه من الحواس سمع ولمس وذوق وشم .

فالحديث العذب عنده « ثمر الجنان » أو « قطع الرياض كُسينَ زهراً » وهو يرى بأذنيه واصابعه كقوله مخاطباً سهيلاً :

تمرُكم يا سهيل درٌ ، وهل يُطـْمعُ بالدرّ من يدَي متعتٌ[3]

فاحبُني يا سهيلُ من ذلك التمرِ نواةً تكون قرطاً لبنتي

فراده سهيل تمرا على أن لا يزيده بشار هجاء .

(١) صعر خده : أماله عن النظر الى الناس استهانة بهم وتكبراً عليهم .

(٢) المساويك جمع المسواك وهو العود الذي تنظف به الاسنان .

(٣) المتعق : العاصي الذي لا ينقاد . والمراد هنا العصيان في باب الكرم والسخاء .

وبشار فنان في كل موقف حتى الحديث . وله في هذا الباب آيات تثير الضحك وتستدعي التفكير . وكأن غريزة بشار الفنية ، واطلاعه الواسع ، وبصره باللغة أوحت اليه فأقلّ من التشابيه ولم يُخرج الصور في قوالبها المعهودة فاستغنى عن « كأن » و « الكاف » وما اشبهها . والشيخ بشار من كبار علماء الكلام ، يظهر ذلك من اخذه بيت لبيد القائل :

وما المال والاهلون الا ودائع ، ولا بدّ يوماً ان تُردّ الودائع

فطبعه على غراره المعهود مخاطباً خالد بن برمك :

أخالد ، انّ الحمدَ يبقى لاهله جمالاً ، ولا تبقى الكنوزُ على الكَدّ
فأطعِمْ وكُلْ من عارةٍ مستردّةٍ ولا تُبقِها ، ان العواريَ للرَدّ

لم يقل وديعة لعلمه ان الودائع لا تمس شرعاً بل تعاد عيناً ، اما العارية فلها دواء اذا هلكت ... وزاد بشار « اطعم وكل » موافقةً لفنه المولّد ، وتحريضاً على الجائزة التي يحلم بها دائماً ، ويدور معها كعُبّادِ الشمس . تُنبئنا عن ذلك صورُه التي اصطفاها وآثرها في مديحه :

يعقوبُ ، قد ورد العفاةُ عشيةً متعرضين لسيبِك المنتابِ (١)
فسقيتَهم وحسبتَني كمّونةً نبتت لزارعها بغير شرابِ (٢)
تعطي الغزيرةُ دَرّها واذا أبتْ كانت ملامتُها على الحلاّبِ (٣)

وكقوله :

دعاني الى عُمَرٍ جودُه وقول العشيرة : بَحرٌ خِضَمّ
ولولا الذي ذكَروا لم أكن لِأمدحَ ريحانةً قبلَ شَمّ

---

(١) العفاة : طلاب العطاء . السيب ، هنا : العطاء ، الجود . المنتاب ، هنا : الذي تصل نوبته الى الشخص فيصيب منه حظاً .

(٢) الكمون : نوع من النبات يضرب به المثل أنه يكتفي بوعد البستاني ان يسقيه .

(٣) الغزيرة : الناقة الحلوب في غزارة .

واخيراً :

كأنما جئتــه أبَشِّرُه ولم أجيء راغباً ومُحْتَلِبا [1]

وهذا البيت الاخير من غنائم بشار في احدى غاراته على زهير ، وكلمة « محتلبا » هي الطابع البشاري الذي لا يقلد . ولم يسلم الاخطل من غزوات ابي مُعاذ ، ولكنه لم يوفق ، فأسفّ في خمريته التي مطلعها : يا ابن موسى ماذا يقول الامامُ ... ثم قصر عن التغلبي في تشبيه الزقّ يُسحب على الارض. فما ابعد قول بشار : وكأن الزقّ زنجيّ سُرِق ، من قول شاعر تغلب :

اناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنها رجالٌ من السودان لم يتسربلوا [2]

واذا طلبنا لبشار مثلاً بين شعراء الفرنجة فما نجد غير بودلير . الشاعران يتفقان في الصناعة الفنية ، والاخلاق الصاخبة المعربدة ، والزعامة الادبية ، وفي الثورة على ما يقدسه الناس ، وصداقة ابليس ، وحب العبدة السوداء ، واسخاط الرأي العام ، واغضاب الحكومة والمجتمع .

واذا كان لا بد من خلاصة لكل بحث فأقول ما يأتي :

١ - يقوم فن بشار على خلق صورٍ حضرية لا صلة لها بالجاهلية ، يخيط لها من فصيح المولدين ثياباً مغرية ، مفصلة على قدّها .

٢ - على السرعة والموسيقى المطردة ، يتوسل الى ذلك بانتقاء الالفاظ الملائمة وتجنب التقديم والتأخير والجمل الاعتراضية ، وتقسيم اجزاء شعره تقسيماً دقيقاً كما ترى في هذا البيت :

وجيشٍ كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطيّ حُمْرٌ ثعالبه [3]

(١) المحتلب ، هنا : المستدر العطاء .

(٢) الشاصيات صفة لأزقاق الخمر تصنع من جلود المعزى وتملأ خمراً فتشخص قوائمها . لم يتسربلوا : لم يلبسوا ثياباً فهم عراة .

(٣) جنح الليل: قطعة منه، شبه بها الجيش في اسوداده لما يغطيه من حديد السلاح . الحصى، هنا : العدد الكثير . الشوك كناية عن السلاح الحاد . الخطي ، نسبة الى الخط ، وهو مرفأ قديم في البحرين اشتهر ببيع الرماح . الثعالب ، جمع الثعلب وهو ، هنا : طرف الرمح الداخل في السنان .

فالبلاغة العربية لا تعتمد على الحروف الصوتية كما توهم المتمشرق بلاشير ، بل لها موسيقى تجدها في الحروف الساكنة ، والفنان الاصيل يأخذ منها غير متعمد ما يلائم غرضه ، كما فعل بشار في البيت السابق . فللغرض الواحـد احرف متعددة في لغتنا ، تتفاوت ضخامة وصوتاً كالطاء والتاء ، والصاد والسين والثاء وهلم جراً .

٣ – يضخم شعر بشار ويشتد حين يحاكي المتقدمين ، ويظل سهلاً لانه يجتلب ألفاظهم الوحشية وطرق تعبيرهم .

٤ – لم يخطىء الجاحظ حين أحصى ابن برد بين مشاهير خطباء عصره ، فشعره كله مصوغ صياغة خطابية ، وقصائده مهيأة تهيئة منطقية لا تطفىء من حدة العاطفة ولا تمحو شيئاً من سمات الفن .

وبعد ، فثورة بشار التي افضنا في الحديث عنها لم تتناول كل ما نطلبه نحن اليوم ، ولكنه فكّ اغلالاً ، وحطم قيوداً تحلّى بها بعده البحتري وابو تمام ، فعاد الشعر العربي سيرته الاولى .

اما ابو نواس ، وله من يفضله ، لما اراه الا تلميذ بشار النجيب ، وحسبي البرهان على زعمي قول الجاحظ : بشار وابو نواس معناهما واحد ، والعدّة اثنان . قد يكون ابو نواس اخف ظلاً ، واظرف نكتة وارشق ، اما بشار ففنان لا يضاهى ، والكلمة العامية «شيخ كار» لا تنطبق الاّ على الشيخ بشار .

شعراء الخمرة

لا نستطيع أن نعدّد شعراء الخمرة ، فهُواتها كثيرون . وكأني بها كانت من مقومات السيادة العربية فادّعوها جميعاً حتى صعاليك العرب وأغربتُهم[1]، فافتخر عنترةأنه شربها بالمشوف[2] المعلم[3] . ليس وكدنا كل من شرب كأس خمر ببعلبك أو دمشق وقاصرين ، فلا يهمنا في هذا الباب إلا الاختصاصيون، والاخصائيون في الخمرة من شعراء العرب ثلاثة: الأعشى والأخطل وابو نواس.

كان أول عمل أتاه ابن آدم،بعد خروجه من سفينة نوح،زراعة الكرمة... وعلماء الزراعة يؤكدون أن أقدم خمرة عرفت هي خمرة هـذا القطر . وإذا أحصينا ورود ذكر الخمر في الكتاب المقدس وجدنا انه نحو مئة وثلاث مرات، كما اننا نرى الكتاب المقدس يختص خمرة لبنان ، وحدها ، بالثناء العاطر ، فيقول هوشع : ويكون ذكرهم كخمر لبنان .

الأعشى أول شعراء الخمرة،ويقال انها حالت دون اسلامه لأنه لا يستطيع هجرانها . وصف الأعشى الخمرة وأجاد ، ثم جاء الأخطل فأتى على جميع ما قاله الأعشى وزاد عليه، فوصف لنا منشأ هذه الأسرة الكريمة التي أهدت إلى الآداب العالمية عروساً فريدة قال فيها بيرانجه الشاعر الفرنسي : ان خمرة قبرس خلقت جميع الآلهة . قال الأخطل يصف مسقط رأسها :

ربت وربا في حُجْرِها ابنُ مدينةٍ ‍ ‍ ‍ يظلُّ على مِسحَاتِه يَتَرَكّلُ[4]

---

(١) الاغربة جمع الغراب، لقب لقّب به عدد من شعراء العرب ذوي اللون الاسود واشهرهم عنترة . (٢) المشوف: المجلو، المصقول، يعني الدينار . (٣) المعلم : الذي به علامة اي نقش.

(٤) ابن مدينة : أراد به هنا من كان غير بدوي أي مستقراً في أرض يفلحها. المسحاة اداة شبه بالجرفة .

إذا حـــاف من نجم عليها ظلماءة أدبّ اليهـــا جدولاً يتسلسل

ثم ذكر عتقها، والعناية بها في خدرها ، وكيف هي ملثّمة ، وعليها اردية شق من نسيج العنكبوت ، ومن ليف ، ومن قار ، وكيف كلّفَ لون هذه العروس لطول مكثها في الخباء ، وظلت هناك محبوسة محجوبة حتى اجتلاها عِباديّ (١) بدينار – الأخطل .

ثم يصف تقلّب صاحبهـا ، رغماً عن فقره ، فكأنه ممن عرفوا السوق السوداء :

إذا أقـــولُ تَراضيْنا على ثمنٍ ضَنَّتْ بها نفسُ خَبٍّ البيعِ مَكّارِ

وأخيراً تمت الصفقة وفاح المسك مما تضوّع من ناجودها (٢) الجاري .

وانتقل الأخطل إلى وصف السكران فأجاد وأبدع. جسّد الخمرة ووهبها الحياة ، ولما جاء دور شاربها أماته موتاً موقتاً فهو :

صريعُ مُدامٍ يرفعُ الشَّرْبُ رأسَه ليحيا ، وقد ماتت عِظامٌ ومَفصِلُ

وحين اقرأ هذه القصيدة الرائعة أخالني اشاهد الأخطل ملاقياً القافـــلة الفلسطينية ، واقفاً على الطريق ينتظر حتى أطل عليه الموكب العظيم :

عليه من المعزى مُسُوكٌ رَوِيّةٌ مُمَلأةٌ ، يُعلى بهـا وَتُعدّلُ (٣)
فقلت اصبَحوني ، لا أبا لأبيكمُ ، وما وضعوا الأثقالَ الا لِيَفعَلوا
أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنهـا رجالٌ من السُّودانِ لم يتسربلوا
تمرّ بها الأيدي سَنيحاً وبَارحاً، وتوضعُ باللهُمّ حَيّ، وتُحمَلُ (٤)

ثم يصف فعلها فيقول :

تَدِبُّ دبيباً في العظـامِ كأنه دبيبُ نِمالٍ في نَقاً يَتهَيّلُ (٥)

(١) العبادي نسبة الى العباد وهو اسم في الجاهلية جامع لنصارى الحيرة .
(٢) الناجود : اناء الخمر .
(٣) المسوك : الجلود التي تمسك الخمر ، اي الازقاق .
(٤) السنيح : الذي يأتي من جانب اليسار . البارح الذي يأتي من جانب اليمين :
(٥) النقا: القطعة من الرمل المحدودبة . يتهيل: ينهال بشدة .

ثم يعود إلى تجسيدها ، وان سبقه إلى مثله حسان بن ثابت قبل اسلامه ، فيقول :

فقُلتُ اقتلوها عنكمُ بمزاجها فحُبٌّ بها مقتولةً حين تُقتَلُ

وقد أغرب الأخطل في حبّ الخمرة حتى هجا جريراً وقومه وعيّرهم بالسكر القبيح ، فقال :

بئس الصحاةُ وبئس الشّربُ شربُهمُ إذا جرى فيهم المُزّاءُ والسَّكَرُ [1]

وأخيراً يتحدث إلى أمير المؤمنين عبد الملك عن بلاء قومه فيقول :

فأمرنَ خمساً ثم أصبحن غدوةً يخبّرنَ أخباراً ألذّ من الخمرِ

ويظل لواء شعراء الخمرة معقوداً للأخطل حتى يظهر ابو نواس فيستولي على الأمد [2] :

(١) المزاء : الخمرة اللذيذة .

(٢) الأمد : الغاية ومنتهى الشيء ، استولى على الأمد : بلغ الغاية وتفرد بها ، والعبارة مستعارة من النابغة في قوله :

الا لمثلك ، أو من أنت سابقه سبق الجواد اذا استولى على الأمد !

خمرة أبي نواس

كأنها وجدت منذ قبل للدنيا كوني فكانت، فهي أشبه بقول ابن الفارض: فلا قبلها قبلٌ ولا بعدها بعدُ . يخبرنا ابو نواس عن سنّ عجوزه فيقول :

شمطاءُ تذكرُ آدماً مع شيثهِ   وتُخبّرُ الأخبارَ عن حوّاء

صفراء تُمزج فيبدو الزبرجد المتألق ببدائع الاضواء ، أو لؤلؤاتٌ شبيهات بواوات ، أو حصْباءُ درّ على أرض من الذهب . وهي تارة بدر ، وحيناً شمس ، لا تُحتاج ، إذا وجدت ، إلى مصباح . إذا مست الحجر يُسرّ ، ويكاد يصحو من ينظر اليها

أما الساقي الذي يدور بها في مجلس أبي نواس وأصحابه،فهو من سلالة العمّ يافث ، أي ناصع البياض أحور ، قدّه قضيبُ بان فوق كثيب.ان أبا نواس، كابن ابي ربيعة،لا يعجبه الرُشح.ولذلك قال في ذلك الغلام حين قام للصلاة :

ما شئتَ من دنيا ، ولكنه   منافقٌ ليس لــه آخرَهْ

ويتخيل ويتفنن في التخيل فيرى حبَبَ الخمرة حدقاً ترنو إلى الشاربين ، ثم لا يقف عند حد فيسلك أوديةً ما سلكها أحد ، كما قيل فيه ، فيخال ان مازجَها طوّقها بِسلْخ ثعبان أو أفعى . وابو نواس المدمن أصبحت لا تؤثر به الخمرة الخفيفة ، فهو يريدها سميكةً ، من عصير الأرجل لا اليدين ، تلذعُ كأنها مُفلفلة . وخمرته الأثيرة ، وهو شيخٌ كارٍ ، هي المجوسية التي فارقت أهل دينها لبغضها النار . يعني بقوله الخمرة التي قال فيها الأخطل ، زميله : ولم تعذّب بادناه من النار .

وخمرة النوامي « دينمو » رائع :

رقّت عن الماءِ حتى ما يُلائمها لطافةً ، وجفّا عن شكلِها الماءُ
ولو مزجتَ بهـا نوراً لمازجَها حتى تولّدُ أنوارُ وأضـواءُ

فلو كانت هذه الآية النواسية في عصرنا، فكم كانت تغني عن شلالات ومعامل وامتيازات.. بل كانت قريتي «عين كفاع» مدينة النور الدائم والضياء الأبدي.

ليس يعني ابا نواس غيرُ الخمرة وما تؤدي اليه من ملاذ ؛ فاذا حصلتْ فليَمُتْ من شاء ، شرط أن تَسْلَم للشاعر كأسه ، وقد أوضح هذا بقوله :

كذاكَ إني اذا رُزِئتُ أخاً فليْسَ بيني وبينـه نسبُ
قطربُلٌ مَرْبَعي، ولي بقُرى الكرخِ مصيفٌ، وأميَ العنبُ[1]
تُرضعُني دَرَّها وتَلحفُني بظلِّها ، والهجيرُ يلتهبُ[2]

ووصف مشهداً كنسياً وافق ذوقه فقال :

مُلسٌ وأمثالهـا محفّرةٌ صُوِّر فيها القسوسُ والصُلُبُ[3]
يَتلوْنَ إنجيلَهم وفوقَهمُ سماءُ خمرٍ نجومُها الحبَبُ

والخمر عند ابي نواس تكون احسن منها اذا تمت في شربها شروط معلومة :

يا حُسنَها من بَنانِ ذي خَنَثٍ تدعوك أجفانُـه الى الرِيبِ
فاذكر صبَاحَ العُقَار واسمُ به لا بصَباح الحروبِ والعَطَبِ[4]
أحسن من موقفٍ بمعتركٍ ، وركضِ خيلٍ الى «هلا» و«هب»
صيحةُ سَاقٍ بحابسٍ قدَحاً وَصبْرُ مستكرهٍ لمنتحِبِ
حلَّ على وجهه الكمالُ كما حل يزيدٌ معـاليَ الرُتَبِ

وللسقاة من الجنسين منزلة رفيعة عند الشاعر ، يستحيـل طعم الخمرة في

---

(١) قطربل والكرخ : موضعان . (٢) تلحفني بظلها : تغطيني بظلها كأنه اللحاف. الهجير : وقت اشتداد الحر من النهار . (٣) ملس ، أراد بها الكؤوس التي لا حفر فيها . المحفرة : الكؤوس التي حفرت فيها النقوش . (٤) العقار : الخمرة .

ايديهن فيلذ ويطيب ، وخصوصاً حين يمشين في قمُص مزرّرات .

وللندمان احترام وكرامة عند ابي نواس، وللشراب آداب تجب مراعاتها، فلا تحلّ الخمرة لأي كان :

والخمرُ قد يشربها معشرٌ ليسوا اذا عُدّوا بأكفائها(١)

أما آداب ابي نواس التي يراعيها — مع الشارب لا مع الساقي — فوصفها اولاً فقال :

فاذا خلوتَ بشربها في مجلسٍ فاكفُفْ لسانك عن عيوب الناس
في الكأسِ مشغلةٌ وفي لذّاتها ، فاجعل حديثك كلّه في الكاسِ
صفوُ التعاشرِ في مجانبةِ الأذى، وعلى اللبيبِ تخيّرُ الجُلاّسِ

وقال يعظ الثقلاء من الشاربين :

ولستُ بقائلٍ لنديمِ صدقٍ، وقد أخذ الشرابُ بمقلتيهِ
تناولها والا لم اذقها فيأخذَها وقد ثقلت عليهِ
ولكني أدير الكأس عنه وأصرفُها بغمزةِ حاجبيهِ
وان مدّ الوسادَ لنوم سكرٍ دفعتُ وسادتي أيضاً إليهِ
فذلك ما حييتُ له وإني أبَرُّ بمثلهِ من والديهِ

عاش المربي الكبير !. وكأن ابا نواس عرف اخيراً قدره الخمري ، مقامه الاسمى ، وان له في هذا المقام حقّ الاشتراع واصدار المراسيم ، فقال :

حقوقُ الكأسِ والنّدمانِ خمس فأوّلها التزيُّنُ بالوقارِ
وثانيها مسامحةُ النّدامى وكم حمت السماحةُ من ذِمارٍ (٢)
وثالثها، وان كنتَ ابن خيرٍ البريّة محتِداً، تركُ الفخارِ
ورابعها فللنّدمان حقٌّ سوى حقّ القرابة والجوارِ

(١) الأكفاء : هنا المستحقون للشيء .
(٢) الذمار : كل ما يلزمك حفظه والدفاع عنه، فيدخل في معناها الكرامة والعرض والشرف .

اذا حدّثته فاكسُ الحديثَ الذي حدّثته ثوبَ اختصارِ
وخامسُها يدلّ به أخـــوه على كرَم الطبيعة والنجارِ [١]
كلامُ الليل يَنساهُ نهـــاراً فان الذّنبَ فيـــه للعُقّارِ

هذه نصائح « الاستاذ الاعظم » للذرية ، فعلى من لا يقلع عن السكر ان يعمل بها على الاقل ، فتستريح الشرطة ..

ويتأمل ابو نواس حبيبته -الخمرة- حين تمزج بالماء فيراها تتألم وتتوجع.. فيخلق صوراً عديدة ، ويولّد تشابيه كالانوار والاضواء التي ولّدتها خمرته، أكتفي منها بذكر هذا التشبيه الغريب :

تخالُ فيها ألسنَ الحيّـــاتِ او وَقْدَ نيرانٍ على الحافاتِ

ويدفع أبا نواس طيشه فيخلع على الخمرة كثيراً من الصفات الربانية فيقول:
أثنِ على الخمر بآلائِها وسمّها أحسن أسمائها [٢]

فجـــاء بهـــا زيتيّةً ذهبية فلم نستطع دون السجودِ لها صَبرا

وأبو نواس يعلم ان الخمرة محرّمةٌ وان شاربها هالك ، ولكنه يشربها في كل حال ، متّكلا على عفو ربه ، ويجادل في ذلك النظّام [٣] فيقول له :

لا تحظـُر العفوَ إن كنت امرءاً حَرِجاً،
فانّ حَظـْرَكَهُ بالدينِ إزراءُ [٤]

ثم ينظر إلى قضية « العفو » وقد شبّت « الفِرَق » حولها حربَ الكلام فيقول :

---

(١) النجار : الأصل . (٢) الآلاء : النعم والهبات الخيرة .
(٣) النظام ، ابراهيم بن سيار ، أحد رؤساء فرقةالمعتزلة التي كانت تقول بان الله ترك للانسان حريته في افعاله ، فمن اصر على ارتكاب المعاصي فلن يفوز بعفو الله في الآخرة .
(٤) المعنى : ان كنت امرءا متشدداً يا نظّام فلا تنف عن الله امكان مسامحة العاصي لأن قولك هذا يعيب الدين وينال منه .

اترك التقصير في الشرب ، وخذها بنشاط
من كميت كسنا البرق أضاءت في البواطي [1]
لِمْ — وعفوُ الله مبذولٌ لنا عند الصّراط —
خُلِقَ الغفران ؟ ... إلا لامرىء في الناس خاطي؟

ثم يقول في توبته قول مجتهد عالم مخاطباً ربه :

إن كان لا يرجوكَ إلا محسنٌ ، فبمن يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرَّجا وجميلُ عفوك ، ثم إني مسلمُ!

وتارة يهزأ ويسخر فيقول :

بكيتُ وما أبكي على دِمَنٍ قفر ، وما بيَ من عشق فأبكي على الهجر [2]
ولكن حديثاً جاءنا عن نبيِّنا ، فذاك الذي أجرى دموعي على النحر [3]
بتحريم شربِ الخمرِ والنهي جاءنا ، فلمّا نهى عنها بكيتُ على الخمر [4]
سأشربُها صِرْفاً وأعلمُ أنني أعزّرُ فيها بالثمانينَ في ظهري [5]

ثم يعطف على الخليفة فيلذعه هذا اللذع المؤلم فيقول :

أأرفضُها ؟ والله لم يرفض اسمَها ، وهذا أميرُ المؤمنين صديقُها !

ويرى ان لذته تكون منقوصةً إذا ظلت وراء الستار فيقول :

ألا فاسقني خمراً ، وقل لي : «هي الخمر !» ولا تسقني سراً إذا أمكنَ الجهرُ
ولا خيرَ في فتكٍ بدونِ مجانةٍ ، ولا في مجونٍ ليس يتبعُهُ كفرُ !

---

(١) الكميت : اللون الأحمر الضارب الى السواد ، وهو هنا كناية عن الخمر . البواطي : الأوعية ، توضع فيها الخمر .

(٢) وما ابكي على دمن قفر : ما اقف بالاطلال والديار الدارسة ابكيها .

(٣) نصب حديثا بفعل محذوف تقديره : سمعت .

(٤) يلحظ ان ابانواس رد تحريم شرب الخمر الى حديث عن النبي، مع ان الخمر حرمت في القرآن.

(٥) اعزر : اهان ، يشير هنا الى الحد وهو عقوبة السكران بثمانين جلدة .

وينادي صديقه أحمد ليستفيق ويعصيا معاً جبّار السموات . ويهيب باللاحي [1] هاتفاً :

قلْ لمن يبغي صلاحي : « بعتُ رشدي بصلاحي
أطيبُ اللذاتِ ما كان · جهاراً بافتضاحِ ! »

ويقول لساقيه الغرير :

إسقني واسق يوسفَا ُمزّةَ الطعمِ َقرقَفا
إسقنيها ملأ وَفا لا أريدُ المنصّفا [2]
وضعِ الزقّ جانباً ، ومَعَ الزقّ ُمصحَفا
واحسُ من ذا ثلاثةً ، واتلُ من ذاكَ أحرفا [3]
خيرُ هذا بشرّ ذا ، فإذا اللهُ قد عفا

ويجيء الصوم فيضيق به ابو نواس صدراً فيقول :

منعَ الصومُ المُقارَا وزَوى اللهوَ َفنَارا
غير أنّا َسنَداري فيه من ليس ُيدارى
نشربُ الليلَ إلى الصبحِ صِغاراً وكِبارا
إسقني حتى تراني أحسبُ الدّيكَ حِمارا

وأخيراً يلجأ إلى العلم لعله يجد عنده باب فرج يدخل منه إلى خدر هذه الحبيبة فيقول :

سألتُ أخي أبا عيسى ، وجبريلٌ له عَقلُ
فقلت : « الراحُ تعجبني » ، فقال : « كثيرها َقتلُ »

(1) اللاحي : اللائم بشدة ، يخلط لومه بالمسبّة .
(2) يقول : اسقنيها باقداح مملوءة كلها ، فانا لا أريدها مملوءة حتى انصافها .
(3) احس : اشرب .

«رأيتُ طبائعَ الإنسان أربعةٌ هي الأصــلُ
«فــأربعةٌ لأربعـــةٍ لكلٍّ طبيعة رِطْلُ!»

ثم يعتصم بالاجتهاد، فيتوسل إلى تحليلها بمنطقه المعكوس فيقول:

ما قالَ ربُّكَ: «ويل للألى سكروا» بَل قال ربُّكَ: «ويلٌ للمصلينا»!

ويرى لنفسه رأياً جديداً فيقول:

حــجٌّ مثلي زيارةُ الخمّـارِ، واقتنائي العَقَارَ شربُ العُقارِ[1]
مــا أبالي إذا المُدامـــةُ دامت قولَ ناهٍ ولا شناعـــةَ زارِ

وينتهي به الطواف فيوصي ابن يُقبر فيقول:

خليـــليَّ، بالله لا تحفرا ليَ القــبرَ إلا بقطربّل
خلالَ المعاصر بين الكروم ولا تُدنياني من السُّنبُل[2]
لعليَ أسمـــعُ في حُفرَتي إذا عُصِرت ضجةَ الأرجل[3]

أما وقد أتينا على ذكر القبر فيجدر بنا أن نقسم الميراث، فلأبي نواس تقسيم طريف احب ان تعرفه:

جِنانٌ حصّلت قلبي، فمــا إنْ فيه من باقِ
لها الثُّلثان من قلبي، وثلثا ثلثِـــه الباقي
وثلثا ثلثِ مــا يَبقى وثلثُ الثـلث للسّاقي

ولا يدعنا أبو نواس في حيرة من أمر دينه، فيكشف الغطاء، وما دعاه إلى ذلك غير النكتة التي كان يؤثرها في كل موقف فقال:

عُتِّقت في الدّنّ حــتى هي في رِقّـــةِ ديني

وللكأس حظ كبير من وصف أبي نواس، والأبيات السينية التي أطراها

(١) العقار (بفتح العين): المقتنى من متاع وبناء وأرض. العقار (بضم العين): الخمر.
(٢) يريـــد ان يدفن في الكروم قريباً من معاصر الخمر، لا في الأرض المزروعة حبا فهي مغطاة بالسنبل. (٣) الضمير في عصرت عائدة على مقدر هو الخمر.

الجاحظ في غنى عن الذكر . وأبو نواس مولع، كمنارة ، بالكؤوس الفارسية ذات التصاوير ، وله في ذلك بيتان مشهوران اعجب بهما الرواة القدماء :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكلّلة حافاتهـا بنجـوم
فلو رُدّ في كسرى بن ساسان روحه اذاً لاصطفاني دون كل نديم

ثم يصفها ايضاً فيبدع :

كأنهم ، والخمر من فوقهم ، كتائب في لجـة تغرق

وابو نواس الشرّيب المهذب لم ينس احداً من شركائه في المأدبة حتى قال فيه شيئاً ، فهو لا يهمل الدنّ المسكين :

ما زلت استلّ روح الدّن في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدٍ والدنُّ منطرح جسماً بلا روح

وينظر الى الدنّ فيراه ميتا ، أي فارغاً ، فيكتب الى احد السادة :

قل لأبي مالكٍ فتى مضر مقالَ لا مُفحم ولا حَصر
جئناك في مَيّتٍ نُكفّنه ليس من الجنّ لا ولا البشر
لكن ميْتاً عظامه خزفٌ واللحمُ قارٌ، والروح من عكر
ليس لنا مـا به نكفّنه فكفّن الميت يا أخا مُضر
واعجل فقد مات فاعلمن ضحى ونحن في موته على حذر
يا لك ميْتاً صلاةُ شيعته عزفٌ عليه ، والنقر بالوتر

ويجرّ حب الخمرة ابا نواس الى الهزء بالشعر العربي القديم ، فيحمل على نادبي الطلول حملات غاشمة ، ويدعو عليهم دعاء العجائز :

أيا باكيَ الاطلال غيّرها البلى بكيت بعينٍ لا يَجفُّ لها غربُ [1]

ويقول في قصيدة اخرى :

درِ الالبان يشربها أناسٌ رقيق العيش عندهم غريبُ

---

(١) الغرب ، هنا : الدمع .

بأرضٍ نبتُها عُشَر وطلحٌ وأكثر صيدِها ضبعٌ وذيبُ(١)
اذا رَاب الحليب فبُلْ عليه ولا تُحرَجْ فما في ذاك حُوب(٢)
فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروبُ!(٣)

ثم يقول :

أحسنُ من منزلٍ بذي قارٍ منزلُ خمارةٍ بأنبارِ
وشمُّ ريحانةٍ ونرجسةٍ أحسن من أينقٍ بأكوارِ(٤)
ونقرُ عودٍ إذا ترجّعُه بنانُ رود الشباب معطار
أحسن عندي من أمِّ ناجيةٍ وأمِّ عمرو وأمِّ عمار

ويقول :

لقد جنّ من يبكي على رسم منزل ويندب اطلالاً عفون بحرول(٥)
ولكنني أبكي على الرّاح انها حرام علينا في الكتاب المنزّلِ
سأشربها صرفاً وإن هي حُرّمت فقد طال ما واقعتُ غير محللِ
وبتُّ على أوراك طرفٍ مُحجلٍ سبوحٍ الى خلفٍ بسمي مهرول

ولأبي نواس غزل نسائي يضاهي خمرته جودةً ، وخصوصاً المقطع الذي قاله على الباء :

حاملُ الهوى تعِبُ يستخفُّه الطربُ
إن بكى فحقٌّ لـه ليس ما به لعِبُ
كلما انقضى سببٌ منكِ عادَ لي سببُ
تعجَبينَ من سقَمي صِحتي هي العَجبُ
تضحكينَ لاهيةً والمحبُّ ينتحبُ

---

(١) العشر والطلح : نوعان من الشجر .
(٢) لا تحرج : لا تظن انك مرتكب اثم . الحوب : الاثم .
(٣) الزروب جمع الزرب وهو موضع ايواء الماشية .
(٤) الاينق جمع الناقة . الاكوار جمع الكور وهو للناقة كالسرج للفرس .
(٥) عفون : بكين وعين .

إن هذه الأبيات لتنمّ عن وصف عشق صحيح ، كما يـــنم هذا البيت عن براعة فنية :

خُلـِّيتُ والحسنَ تأخذُه تنتقي منـه وتنتخبُ

وكم في هذا البيت من مطابقة لما يقوله علم النفس الحديث عن « الهوى » :

صار جِدّاً مـا مَزحْتُ به ربَّ جِدٍ جرّه اللـّعِبُ

ولكي يتنصل ابو نواس من التبعات الغرامية قال :

أأنا ابتدعتُ الهوى وحدي،فتظلمني ؟ هذا نبيُّ الهدى داودُ قد عَشِقا !

مقدرة أبي نواس

إن مقدرة أبي نواس التي تميزه من أصحابه لا ترتكز على تشابيهه واستعاراته وإن دلتنا على خياله القويّ ، ولكنها تتجلى في هـذا الخَلق القصصي الذي تشيع فيه روحه، ويحيا بظرفه ، فيكشف عن عبقرية شعرية نادرة ، مسلحة بتعبير سهل تنعشه موسيقى شديـدة ، وجو فني تخلقه لفظة بسيطة انظر كيف يصف قدم الخمرة :

يا شقيق النفس من حَكَمٍ ، نمتَ عن ليـــلي ولم أنم !
فاسقني البِـكرَ التي اختمرت بخمارِ الشيبِ في الرّحِم

فلو كنت مزارعاً مثلي ، تزور الكروم حين تبرعم لرأيت بعينيك هـذا الخمار الأبيض ، وعلمت كيف تتخمر بنت الكرمـــة في الرحم فنحن ، الفلاحين ، نقول في تلك الساعة : قطّن الكرم . وهذا ما عناه أبو نواس . ثم لي في هذا المعنى وجه آخر : إذا رافقنا الخمرة إلى الخابية رأيناها ، وهي مسطار ، حين تغلي ، تلبس خماراً حقاً ، خماراً من نوع «الكريشة» التي كانت تلبسها ستي رحمها الله ، الخ . . ويقول أبو نواس :

ثمّت انصاتَ الشبابُ لها بعدما جازت مَدى الهرمِ [1]
فهي لليــوم الذي بُزلت ، وهي تِربُ الدهر في القِدَمِ [2]

فهذه الخمرة تشبّ كلما تقدمت بهـا السن . واليك التجسد الأخير ، أو المفاجأة المسرحية ، ان صحّت التسمية ، فقد عوّدنا ابو نواس هذا « الزخم » في قصصه :

---

(١) انصات : استوى . (٢) بزلت : ثقب عنها الاناء ، او صفيت ، ويرجـح هنا المعني الثاني صفيت .

عُتّقت حتى لو اتصلت   بلسانٍ ناطقٍ وفمِ
لاحتبت في القوم ماثلةً   ثم قصّت قصة الأممِ

إنني لأتخيل الخمرة عجوزاً دهرية مقرفصة قرب الموقد في ليالي كانون تقص علينا قصة ثمود وعاد .. ولا ينسى ابو نواس « مهنته » فيقول في البيت الذي يلي :

« فرعتها » بالمزاج يد   خلقت للسيف والقلم

قد مرت بك شروط ابي نواس على النديم ، فاسمع وصفه الآن :

في ندامى سادةٍ زُهرٍ   أخذوا اللذاتِ من أممِ
فتمشّت في مفاصلهم   كتمشّي البرء في السقمِ

ان هذا البيت ينظر الى بيت الأخطل : تدب دبيباً في العظام .. ولكن فلنوجز : ان منتوجات الاخطل والاعشى وشعراء الخمرة كلهم تجدها كلّها عند النواسيّ . فلندع هذا اذن ولنشغل بما هو أجدى وانفع .

قلنا انه يقصّ في وصف الخمرة . ولنقل انه يقص أيضاً في المديح ، فاسمع قوله الطريف :

الحمدُ للهِ ليس لي نَشَبُ   فخفّ ظهري وقلّ زوّاري
وأحسنت نفسيَ التعزّيَ عن   شيءٍ تولّى ، ومتّنَ أوطاري
فلست أخشى نفسي على طمعٍ   اخاف منه دريكةَ العارِ [(١)]
من نظرت عينُه اليّ فقد   أحاط علماً بما حوت داري
خيري من البيتِ كامنٌ ، وعلى   مدرجةِ الشانئينَ أسراري [(٢)]
انِ انتجعتُ العبّاسَ ممتدحاً   وسيلتي جودُه وأشعاري

وفي مدح الخصيب قصّ ايضاً . ان قصة اقحام المرأة – الزوج – في القصيدة للتخلص الى الممدوح لغريبة في أدبنا .

---

(١) اخاف منه دريكة العار : أخشى منه ان يدركني ، اي يلحقني ، العار .
(٢) الشانئين : المبغضين .

قال الاخطل ولم يعدُ الواقع :

واني غداةَ استعبرت أمُّ مالكٍ   لراضٍ من السلطان ان يتهدَّدَا

فقال الفرزدق بكل وقاحة :

تقول لما رأتني وهي طيّبة   على الفراش ومنها الدَّلُّ والخفَرُ

وقال جرير :

تعزّت أمُّ حزرةَ ثم قالت   رأيت الواردينَ ذوي امتياحِ

ثم قال بشار :

وقائلةٍ لي حين جدَّ رحيلُنا   وأجفانُ عينيها تجودُ وتسكبُ

وكذلك قال أبو نواس حين قصد الخصيب :

تقول التي عن بيتها خفَّ مركبي   عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ

فقل أنت معي:الشعراء كالغنم .. والمعاني عندهم كلعبة الكرة الصغيرة...
ثم عد لنرى تجسيد أبي نواس في الهجو . انه يجعل لرغيف محمد بن اسمعيل قرطاً وشنفاً وخلخالين،ويجعل رغيف سعيد بن مسلم ولداً مدللاً يقبّل ويلاعب ويداعب ويخاطب . ويقول في هجو الرقاشي وهو احد أبطاله في الهجاء :

رأيتُ الفضلَ مكتئباً   يناغي الخبزَ والسمكا
فأسبلَ دمعه لمّا   رآني قادماً وبكى
فلمّا ان حلفتُ له   بأني صائمٌ ضحكا!

ويقول في قدره :

قدرُ الرقاشيّ مضروبٌ بها المثلُ   في كلّ شيءٍ ، خلا النيرانِ تبتذلُ
تشكو إلى قدرِ جاراتٍ إذا التقتا: أليومَ لي سنةٌ ما مسّني بَللُ

ويقول واصفاً « أيوب » وهو رجل قيلٌ كما روى الجاحظ في كتاب « الحيوان » :

من يَنأ عنه مَصادُه ، لمصادُ أيوبٍ ثيابُه [١]
تكفيهِ فيهــا نظرةٌ فتُمَلُّ من عَلَقٍ حرابُه [٢]
يا رُبَّ محترزٍ يجَنْبِ الرُّدْنِ تكنفُهُ صُؤابُه [٣]
فاشي النكايةِ غير معلومٍ إذا دبَّ انسيابُه
أو طـــامريٍّ واثبٍ لم يُنجِه عنه وثابُه [٤]
أهوى لـه بمزلّقٍ ما بين إصبَعِه نِصابُه
للهِ درُّك من أبي قَنَصٍ أصابعُهُ كِلابُه !

أما في وصف مجالس الشرب فقصصه كثيرة ، حسبي ذكر اثنتين منها وتقصّ أنت الباقي . الأولى مع امرأة اسمها حنّون :

فقلت لها : ما الإسمُ والسعرُ بيّني لنا سعرَها ، كيما نزورُكِ ما عِشنا
فقالت لنا : حَنّونُ إسمي، وسعرُها ثلاثٌ بلسعٍ ، هكذا غيرَكم بعنا
ولمـا تولى الليــلُ أو كادَ أقبلت إلينا بميزانٍ لتنقُدَنا الوزنا [٥]
فقلنا لها : جئنا وفي المـالِ قلةٌ ، فهل لكِ في أن تقبَلي بعضنا رهنا ؟
فقالت لنا : أنتَ الرهينةُ في يدي ، متى لم يَفوا بالمالِ خلدتُكَ السّجنا !

وله قصة كهذه مع خمّار :

فلما حكى الزُّنارُ ان ليس مُسلماً ظننا به خيراً فظنَّ بنا شرًّا [٦]
فقلنا : على دينِ المسيح بن مريمٍ ؟ فأعرضَ مزْوَرّاً وقالَ لنا هُجرا [٧]
فقلتُ له : ما الإسمُ ؟ قال: سموأَلٌ ، ولكنني أُكنى بعَمْروٍ ولا عَمْــرا

(١ يقول من يبعد عنه المكان الذي يجد فيه الصيد فاوب مكان صيده ثيابه ، يريد ان فيها قملا وبراغيث كثيرة يصيدها . (٢) العلق هنا : الدم . الحراب هنا كناية عن الاظافر .
(٣) الصؤاب : بيض القمل . (٤) الطامري : البرغوث .
(٥) يقول : لما ذهب الليل أقبلت صاحبة الخمارة بميزان لتزن الدراهم التي ندفعها لها فقد كانت الدراهم معدنية ، فكانوا يزنونها خوف الغش . (٦) حكى الزنار : دل الزنار . وكان أهل الذمة في المجتمع العباسي ، يحملون على لبس الزنار علامة فارقة .
(٧) الهجر : القبيح من الكلام .

فقلنا له ، عُجْباً بطرفِ لسانِه : أجدْتَ أبا عمروٍ ، فجوِّد لنا الخمرا

وللدلالة على اقتداره في التخيل أذكر هذا ، وان جاء متأخراً ، قال يمدح فأجاد في البيت الأول وأغرب في الثاني :

إنما أنتَ عطايا أبداً لا تستريحُ

بُحَّ صوت المالِ مما منكَ يشكو ويصيح

وله في قصص الخمرة أيضاً شيء لا يجوز تركه ، قال يصف الساقي أولاً والخمرة ثانياً :

فقرّبَ من نحـو الأباريقِ خدَّه وقهقه مسروراً من القرقَفِ الخمـر

فصَبَّ فأبدت ، ثم شجّت فكُتِّبت ثمانٍ من الواواتِ يضحكن في سطر[1]

فقلت لها : يا خمرُ ، كم لكِ حِجةً فقالت : سكنت الدنَّ دهراً من الدهر

فقلت لها : كسرى حواكِ ؟ فعبّست وقالت : لقد قصَّرتَ في قِلة الصبرِ

سمعتُ بذي القرنينِ قبلَ خروجه وأدركتُ موسى قبلَ صاحبه الخِضرِ

ولو أنني خُـلدتُ فيه سكنتُه إلى أن ينادي داعي اللهِ بالحشرِ [2]

وقال ناحياً هذا النحو :

فجاءَ بها قد أنهك العمرُ جسمَها وأوجعها في الصيف حَرُّ الهواجر

فقلت لها لما أضاءَ سناؤها على صَحنِ كأس قد علا الكفَّ زاهر

أبيني لنا يا خمرُ ، كم لكِ حِجةً فقالت : لحاكَ الله ، لستَ بذاكر

شهدتُ ثموداً حين حلَّ بها البلى ، وأدركتُ أياماً لعمرو بن عـامر

فقلنا : أنسقاها على وجهِ أهيفٍ له تِيه معشوقٍ وشخـرةُ شاطر

فما زال هـذا دأبَنا وغِذاءَنا ثلاثـين شهراً مع ليالٍ غوابر

ترى عندنا ما يكره الله كلـه سوى الشِّركِ بالرحمنِ ربِّ المشاعر[3]

---

(١) شجت : مزجت بالماء .

(٢) البيت مكسور ، لا يستقيم وزنه الا بفتح ياء داعي وهي هنا فاعل فلا يجوز تحريكها .

(٣) المشاعر جمع المشعر ، وهو هنا : موضع مناسك الحج .

وينحصر همّ النواسيّ في أربعة أشياء :

أربعةٌ يحيـا بهـا قلبٌ وروحٌ وبدنٌ
المـاءُ والبستان والخمرةُ والوجه الحسن

فما أوردناه يتضح لك أن أبا نواس يعتمد في قصيدته على الاخراج ، كأنه أدرك أن مواضيعه واحدة فلجأ إلى الفن الذي يُقصي عنه الملل. ان أقصى همّ أبي نواس هو أن يختم قصيدته ختاماً جيداً ، فاذا لم يوفق بشيء من عنده عمد إلى بيت قديم يختم به القصيدة كقوله :

فغنـّى وما دارت له الكأس ثالثاً : « تعزّى بصبر بَعدَ فاطمةَ القلبُ »

وهذا « التضمينُ » شائع جداً في ديوانه .

والذي قصـّه ابن أبي ربيعة حـول المرأة عمل مثله أبو نواس في الخمرة وتوابعها ، وكان أروع من عمر ختاماً .

الشاعر الشاذ

أتخيل ابا نواس تائهاً بين قطربل وطيزناباذ ، يتبع آثار المخنثين ، مخموراً ، هازئاً ، ضاحكاً ، يحمّش هذا ، ويغمز بعينيه ذاك . لا يصحو حتى يسأل عن الكأس . يهزأ في كل مكان ، وفي كل شيء ، في المسجد وفي القصر ، في الطريق وفي الخمارة .

له عين لا يفلت منها شيء ، فتقدمه الى مخيّلة قوية تُخرج منه صورة جميلة. حياة بوهيمية ، ابتدأت منذ الصغر نشأ على يد استاذ فاسق فبذّ استاذه في كل ما أخذه عنه وتعلمه منه .. قال الشعر بعد ان حفظ عشرات الالوف من القصائد ، كما يروون ، ثم نسيها كما امره خلف الأحمر الذي الحقه بأقيال اليمن زوراً وبهتاناً .

برز في الشعر ، وأن أغار على القدماء أطاعته اللغة فأوضح عاطفتـــه وفكرته إما بصورة تتجلى فيها شخصيته ، وإما باسلوب قصصي يظهر فيه روحه وشخصيته .

السخر المضحك المبكي دعامة الادب النواسي . اما مصادر وحيه في الخمرة فهي من شعر الذين تقدّموه ، فقد نهبهم ولم يدع لهم شيئـــاً ، ومن حوادث عصره ، فهو يصور حياة الفئة التي لابسها ، ويصف حياة عاشها .

يخطىء من يظن ابا نواس شيئاً من الاشياء او ذا لون اجتماعي او سياسي، فأبو نواس لا يعنيه من الحياة غير لذتين . واذا قال :

اذا رابَ الحليبُ فبُلْ عليه ولا تُحْرِجْ فما في ذاك حُوبُ

فهذا لا يعني انه شعوبي ، فأبو نواس خمري لوطي ، لا يعنيـــه شيء من المذاهب السياسية والاجتماعية ، الا بمقدار ما تتصل بهنئيه . وان قال :

قل لمن يبكي على رسم درس   واقفاً، ما ضرّ لو كان جلس

فهذا ما توحيه اليه شخصيته من هزء بعيش الذين بكوا على الاطلال . أما تجديد الشعر فما خطر له ببال .

لم يكن ابو نواس مولعاً بالمطالعة كالجاحظ ، بل كان مولعاً بالسماع، حاضر الذهن، سريع البديهة، وهب خاطراً مولّداً يكاد ينتفع بكل ما يسمع ويرى، ومهما تأزم المضيق فله منه منفذ ومخرج .

خاصّةُ التصوير قوية في شعره ، وهي تدلنـــا دلالة صارخة على أنه ليس من حاء وليس من حكم . شعره اسهل من شعر بشار ، ولكنه أشد أسراً من شعر عمر، وليس فيه شيء من رائحة بداوة شعر جرير، وان كان فيه من سهولته .

عاش ابو نواس كولد ، وظل كولد حتى انتهى . وفي هذا يتفق مع بشار ولكن شتّان بين مراح الرجلين ، فراح بشار مراح رصين، ومراح ابي نواس مراح هازىء مستهتر ، مراح مخنّث :

يقولون في الشيبِ الوقارُ لأهله،   وشيبي ، بحمد الله غيرُ وقــــارِ

قلنا : والحمد لمن لا يحمد على مكروه سواه ... وهذا التخنث اورثه اياه اليتم ، ونشأته في حجر امه ، ثم التحاقه بوالبة الفاسق .

لم يُربَّ تربية جدية ليقدّر المسؤولية ويقوم بأعبائها. فتى رُئي عند عطار وحمل الى بؤرة فاسدة . كان جميلاً، وسوق الجمال رائجة، وخصوصاً في ذلك العصر ، فآلت اليه زعامة عصابة الخلعاء حين شبّ. تجري الاحداث السياسية الجسام حوله و كأنه غريب عن اورشليم. ولا بدع، فقد لا يكون صحا ليفتكر:

وما الغبنُ الا أن تراني صاحياً،   وما الغُنْم الا ان يُتَعْتِعَني السُّكرُ

ان بين ابي نواس وبين غـيره من شعراء الخمرة فروقـاً ، فالأعشى يشرب

مفتشاً عن رزقه ، والأخطل يشرب ويأكل :

وتوقفُ احياناً ويفصِلُ بيننا غناءُ مغنٍّ او شواءُ مُرَعْبَلُ

وابو نواس يشرب وعيناه على النديم والساقي .

قضى العمر بين الخمّارة والسجن ، وقلما رئي صاحياً ، فهو اما نائم ، واما متمتّع ، فمن أين له الساعة التي يفكر فيها بالعواقب :

وقائل : هل تريدُ الحجّ ، قلت له : نعَمْ ، إذا فنيت لذّاتُ بغـداذِ
أمّا وقطربّلٌ منها بحيثُ أرى فقُنَّةُ الفرك من أكناف كلواذِ
فالصالحية ، فالكرخُ التي جمعت شُذّاذَ بغدادَ ، ما هم لي بشذّاذِ ،
فكيفَ بالحج لي ما دمتُ منغمساً في بيت قوّادةٍ أو بيت نبّاذِ؟! [1]
وهَبْكَ من قصفِ بغدادٍ تخلصُني ، كيف التخلّصُ لي من طيزناباذِ ؟ [2]

ألا تذكرك هذه الأعلام تلك الأسماء التي ذكرها الجاهليون حين وقفوا على الاطلال ؟ هناك تحسرٌ على الخيام وهنا تحسر على الحانات والخمارات،والشاعر يحيا بذكرياته .

والغريب في أبي نواس انه لم يأسف على ما فات لعلمه انه لم يُضع الفرص ولا شك عندي انه اغتنم ما سنحله في سجنه، ولذلك لم يذكر السجن بشرٍّ كما اعتاد أن يذكره المسجونون .

أما الطبيعة فهي عنده كزينة للمأدبة تستثار بها القابلية ، ثم تُنسى عند نشوب المعارك النواسية ، ولا يذكرها إلا لتشويق نديم أو ساقٍ ليتبعه ..

ولا يصوّر ابو نواس غير حالة نفسية شاملة . وهـو يصوّر ولا يوحي . ولوحاته تثير ضحكاً يمازجه الإعجاب .

وإذا كان الفن ، كما عرّفه بعض الفرنسيس ، هو أن يضع الإنسان نفسه كلها فيه ، فأبو نواس اعترف أصدق اعتراف للذرية. لم تهم الحكمة أبا نواس،

---

(١) النباذ ، هنا : بائع النبيذ . (٢) القصف : الحياة في أكل وشرب ولهو .

فحكته كلها في اللذات ليس غير . انه لم يقل شعرا على هامش حياته ، بل صوّرها لنـــا كما هي ، ولم يخف خطاً واحداً من خطوطها ، فكأنه يفتخر بدعارته وشبقه . أدخلنا بيته وأرانا ما في زواياه من خبايا، وما في صناديقه من طُرَف ، ولبراءة الذمة ، قلب أمام أعيننا جيوبه ، ونفض أجربته ... ومع كل هذا « الاخلاص » أرى شعر أبي نواس كجرس ينقطع رنينه عنـد التوقف عن قرعه ، بخلاف الأجراس التي ترسل نغماً او نغم،ورنيناً او رنين فتستوعي سمعك إلى ما لا يُدرك .

أما أوزانه فتجري تبعاً للموضوع ، فإذا كان مديحاً أو قصصاً اختار له البحور الواسعة الرصينة ، وإن كان لهواً آثر الضيّقة السريعة . وفي الحالـين تأتي قافية أبي نواس منقادة طائعة ، كندمانه وغلمانه ... وروح أبي نواس تطفو دائماً فوق بحوره ، فهي تعمل عملها المرح في شعره فيطيب ويحلو .

شعره مرنان ، وألفاظه مختارة ، وعبارته ليّنة سهلة لا تعقيد فيها، تغلب مرونتها على شدتها . موسيقى كمناجاة ينابيع لبنان لا كهدير أنهاره. والخطة مرعية عنده لأنه لم يركب المركب الخشن الذي ركبه شعراؤنا في تعـــدد أغراضهم .

شعر أبي نواس واضح جداً ، وقد يكون هذا الوضوح مقلّلاً من إيحائه ، وحائلاً دون بقائه في النفس . فلذة شعر أبي نواس عابرة كأنها لذة النكتة . انه يحاول أن يُريك لا أن يحملك على أن تحلم .

وأبو نواس يتراءى لي كأنه مركّب من جسد فقط ، جسد بلا نفس أو نفس لا قيمة لها فيا بعد ، فهي آلة في يد اللهو والطرب . لا يذكرها بخير ، فكأنه لا يدرك إلا بحواسه فقط . وان نظم في « التلبية » والزهد فاكراماً لعيني جنان ، ومعارضةً لأبي العتاهية . ان أبا نواس آلة شعر ، يقول لك ما تريد شعراً ، ولا تدري مدى تأثره بما يقول . هو عارف – سطحياً – بعلوم دهره ، وقد ينتفع بها في شعره حين الحاجة .

أقلّ أبو نواس من استعمال التعابير المعَدّة، فلا نجد بعضها في غير طردياته . أما مواضيعه فواحدة تقريباً : خمرةٌ وساقٍ جميل مقرطق، أو ساقية غلامية . يشبه عمر في اعاداته وتكرار موضوعه واجترار معانيه . وإذا لم يدركها ما أدرك شعر عمر من ملل فلأن نفسية أبي نواس وأخلاقه مرحة هازلة . ان عمر كرّر مواضيعه وقصصه متبعاً نسقاً واحداً، أما أبو نواس فسلّح بخيال أقوى، وتعبير فيه كثير من الحلاوة والاغراء .

لقد ساعد تحريم الخمرة الديني قريحـةَ أبي نواس فخلقت كثيراً من الصور والنكت الطريفة ، ولأجل هذا التفرّد نجعله فوق الأخطل في خمرياته . فهو شاعر الخمرة بلا منازع، كما كان عمر شاعر المرأة، وكلاهما قليل الحياء والمروءة.

ان صور أبي نواس لا تحصى، وهي مستمدة من ملاحظاته ومطالعاته ومن نفسه الهازئة كما قلنا . يُضحك إذا هجا ، بضد زعيم المدرسة بشار الذي يؤلم ويُبكي . وابو نواس ، وحده ، هو الشاعر العربي الاسطوري . له وجهان : وجه عامي وإليه تنسب كل نكتة طريفة، ووجه أدبي أحله مقاماً رفيعاً بين الشعراء الكبار .

مُعَاصِرُون

أبو تمام ودعبل

هم أربعة شعراء، ولكنهم صنفان مختلفان : ابو تمام وابن الرومي من مقلع واحد ، ودعبل والبحتري من أرومة تختلف اصولاً وفروعاً . فهذان عربيان لساناً وجناناً ، وصاحباهما ليس لهما من العروبة غير اللسان ، وان كان لأبي تمام ابن تيودوس صبغة اسلامية قلّما تجدها عند الاعراب الاقحاح .

مات ابو نواس فانهارت بموته « مدرسة الخلعاء » ، وبكت الدوالي على شاعرها ، وانطوى بساط المرح ، وتحطمت الكؤوس المسجدية ، وفرّ الشعر من منطقة الحياة وتقلّص وانكمش حتى عـــاد الى ارستقراطيته ورصنه ، فامسى يُقال في مناسبات لا يعني الشاعر منها الا ما تدرّه من مال. كان الشعر حافلاً بالوان عصره وزمانه يصور العاطفة الشاملة ادق تصوير ، فصار آلة كسب واستجداء بل مهنة من المهن الحرة .. كان الشعر في الحقبة التي مضت بعيداً عن الدجل والرياء والنفاق لا ينبثق الا من نفس قائله ، فالشاعر يخالف ولا يبالي ، العرف والتقاليد ، ويتجاوز بلا خجل التخوم التي وضعها الشرع الديني والمدني . فجلُّ ما يعنيه ان يقول شعراً يطرب له السامع ، ويصور له نفسه الأمّارة بالسوء وما فيها من ميول مضطربة، وشهوات متقدة، لا تُكبح بلجام ولا تردّها شكيمة . فالخمرة، وهي رجس من عمل الشيطان ، توقظ الحواس النائمة نومة اهل الكهف .

انها فترة مرت فانقطعت كل صلة بينها وبين الجيل الذي جاء بعدها .فقلما تسمع ضحكة ، بعد تلك القهقهات ، في ديوان العرب . فهذا الشيخ ابو تمـام وهو من « الرؤوس » لم تَبِنْ لنا سنّه قط. فهو ذو عينين ورائيتين تلتفتان الى خلف تبحثان ما خلّفه القدماء ولا يعنيه الا مضاهاتهم في الاغراب ،

والصلابة واقتباس صورهم وأخراجها محسّنة مجمّلة وهو ذو عينين أماميتين تحدّقان إلى ما تقعان عليه فتلتقطانه بدقة وتخرجانه شعراً . فان فاتته الموسيقى فليست تفوته الصور والتعابير الطريفة والقبيحة التي لم يألفها الأدب العربي . فأبو تمام زهيري في مديحه . ترصّن كذاك « المتأله » ، وتوقّر ما استطاع فردّ على الشعر وقاره وأبّهته . لم تفلت من بين شفتيه ابتسامة كأنه ما عرف غير الجد، وليس الهزل من طبعه. فأبو تمام مقلد في مدحه ، ومبدع مجيد في وصف الانتصارات ، صوّر وقعة عمورية واحراق الافشين، وفتح باب الملاحم لشاعر القومية العربية الذي جاء بعده .

إن وصف كتّاب الحرب ، اليوم ، للحرائق التي تشبّها غارات السلاح الجوي يوضح لنا ملحمة أبي تمام ، فنتذكر قول شاعرنا :

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنار يوماً ذليلَ الصّخر والخشب [1]
غادرتَ فيها بهيمَ الليل،وهو ضحىً يشلّه وسطها صبْحٌ من اللهبِ
حتى كأنّ جلابيبَ الدُّجى رَغبت عن لونها ، أو كأنّ الشمسَ لم تغبِ
ضوءٌ منَ النّارِ والظلْماءُ عاكفةٌ ، وظُلمةٌ من دخانٍ في ضحىً شحبِ
سماجةٌ غنيت منّا العيونُ بها عن كلّ حسنٍ بدا أو منظرٍ عجَبِ

أرأيت ما أجلى هذه السماجة في عين المنصور ؟ فكم كنت تقرأ مثل هذا في حرب الطائرات .

ان قصيدة « السيف أصدق أنباء من الكتب » لملحمةٌ خالدة ، وأروع أبياتها :

تسعون ألفاً كآسادِ الشرى نضِجَت جلودُهم قبلَ نضجِ التينِ والعِنبِ

وقد فات تاريخ هذا البيت احد الكتّاب المصريين – العقّاد – فتساءل عن العلاقة القائمة بين نضج التين والعنب وبين هؤلاء التسعين الفاً الذين نضجت جلودهم .

---

(١) يعني أن النار في ذلك اليوم كانت شديدة، ذل لها الصخر كما ذل الخشب فأتت على كل شيء.

وليست هذه أول مرة يبتلى بها أبو تمام ، وقد أجاب على ذلك بقوله لقارئه: لِمَ لا تفهم ما يقال ؟..

وإذا فتش راغب في تفهم أسرار « الرؤوس » عن نبوغ أبي تمـام وجده في وصف المحسوسات وصفاً لا يدع شيئاً .

انه إذا استولى على فكرة أتى على كل ما يقال فيها، تعضده عيناه الأماميتان وتحمي ظهره العينان الخلفيتان بجنود من اللغة التي يستوعب أكثر مفرداتها .

إن لأبي تمام تعابير خَلـقها، وهي ومضات عجيبة في ظلمات تلك العبقرية المدلهمة ، وقد سماها ابن الأثير الكلمات الجامعة ، وضرب مثلاً عليها « وطن النهى » في قول أبي تمام :

سبَق المشيبُ اليه حتى ابتزّه وطنَ النهى من مَفرِقٍ وقَـذالِ [1]

فقال فقوله « وطن النهى » من الكلمات الجـــامعة ، وهي عبارة عن الرأس ، ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسدّ مسدّها .

أما أنا — كما يعبّر ابن الأثير — فرأيت أنّ قوام فن أبي تمام هو في منحه الحياة لما لا حياة فيه ، واسناد الشيء إلى غير ما هو له .

كان أكثر شعرائنا تو كؤاً على المجاز، فتوغل في هذه الغاية حتى بلغ أقصاها . وأثار هذا معاصريه فهاجموه، ولكن حبيباً غير هيابة ولا نكس ، فما بالى بهم ولا بمن جاء بعدهم من عبّاد القديم، وإن جاء حيناً بالقبيح، فمن له الحسنى فقط؟

لا أخال قارئي إلا قائلاً: أعطنا بعض نماذج تؤيد بها زعمك، قلت فاسمع :

نامت همومي عني حين قلتَ لها : هذا أبو دلَـفٍ ، حسبي به وكفى

واليك مثلا آخر من القصيدة عينها ، وأظنه ليس يعجبك لأنه لم يعجبني:

لو لم تُفتْ مُسِنّ المجد مذ زَمنٍ بالجودِ والبأس كانَ المجدُ قد خرفا

فهذا المجد المسنّ كاد يخرف لو لم يمد اليه أبو دلف شبابه ، ففتّاه غـير

(١) القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

محتاج إلى ما احتاج اليه فورونوف. . .وهو يحاول في مكان آخر نفخ الحياة في أضعف الأشياء فيقول في الدمع :

أعنّي أفرّقْ شمــلَ دمعي فإنني أرى الشّملَ منهم ليس بالمتقاربِ

ويقول :

وما صارَ يومَ الدّارِ عذلُكَ كلّهُ عدوّيَ ، حتى صار جهلُكَ صاحبي

أرأيت كيف أحيا العذل فصيّره عدواً كما صيّر الجهل صاحباً ؟

وفي القصيدة عينها يحيي العطايا ايضاً فيقول :

تكاد عطاياه يجنُّ جنونُهــا اذا لم يُعوّذْها بنغمةِ طالبِ

ويصف ممدوحه بالبأس فيتخيل ويخرج صورة ، لك ان تقول فيها مــا شئت ، ولكنها ، كيف كانت ، تؤيد زعمي :

فان المنايا والصوارم والقنــا أقاربكم في الروْعِ دون الأقاربِ

ثم يتصور مكارم ممدوحه فيراها :

مكارمُ لجّت في علوٍّ كأنمــا تحاول ثأراً عند بعض الكواكبِ

هذا بعض ما وجدته في هذه القصيدة التي مدح بها ابا دلف القائل فيه علي بن جبَلة :

إنما الدّنيــا ابو دلفٍ بين مبْداهُ ومحتضرِهْ[1]

فاذا ولّى أبو دلفٍ ولّت الدنيــا على أثرِه

كلُّ من في الأرض من عربٍ بــين باديــه ومحتضرِه

مستعيرٌ منك مكرمةً يكتسيها يوم مفتخرِه

وقد رووا ان هذين البيتين الاخيرين أحفظا المأمون ، وهو اعظم الخلفاء حلماً ؛ فسلّ لسان الشاعر من قفاه .

أما وقد عرفت ابا دلف ، وقرأت الأبيات المقولة فيه، فاخالك ادركت

---

(١) المبدى ، العيش في البادية . المحتضر : العيش في الحضر .

ما حمل ابا تمام على الجد وراء هذه الصور . فلندع شعره في ابي دلف راوين لك بعض امثلة من هنا وهنالك لتسير بالفانوس الذي يجب ان يُدرس ابو تمام على ضوئه .

قال ابو تمام متخيلاً الصيف :

من يزعم الصيفَ لم تذهب بشاشته   فغيرَ ذلك أمسى يزعمُ الجبلُ

فاقترض هذه الصورة البحتري من ابن عمه – وانا اشك جداً بطائية ابي تمام لان تفكيره غير طائي – والبسها الربيع حين قال :

اتاك الربيعُ الطلقُ يختال ضاحكاً   من الحسنِ حتى كاد ان يتكلما

وفي هذه القصيدة يهب ابو تمام الحياة للحاجات والأمل فيقول :

إن يسّر الله أمراً أثمرت معه   من حيثُ أورقتِ الحاجاتُ والأملُ

ولست اذكر لك : مات مضرب سيفه ، ولا الحفاظ المر ، فهذه القصيدة يعرفها كل متأدب ، ولكنني اعطيك مثلاً آخر منه ابياتاً وجهها الى عيّاش ، وعياش هذا كافور ابي تمام ، وان لم يحسن ابو تمام ما احسنه ابو الطيب .

قال ابو تمام يعاتبه على الإبطاء :

الفطرُ والأضحى قد انسلخا ولي   أمــلٌ ببابك صائمٌ لم يفطرِ
عامٌ ولم يَنتُج نداك وإنما   تتوقّع الحبلى لتسعةِ أشهرِ[1]
قصّرْ ببذلك عمرَ مطلك تحولي   حمداً يعمّرْ عمرَ سبعةِ أنسُرِ

اظنك ادركت ما فيها من منتوجات الشاعر التي حدثناك عنها . وابو تمام ثالث اثنين ، هما ابو نواس والمتنبي ، وقد طاشت سهامهم جميعاً في الكنانة ..

واحب اخيراً أن أريك كيف يتصور الشاعر الايام فيقول :

وأيامنا خزْرُ العيونِ عوابسٌ   اذا لم يخضْها الحازمُ المتلبّبُ[2]
اذا اليومُ أمسى وهو غضبان لم يكن   طويلَ مبالاةٍ له حينَ يغضبُ

(١) ينتج : يلد .
(٢) خزر العيون : ضيقة العيون .

أن أبا تمام لجريء على الكلام يتصرف به كما يشاء، ولذلك تراه يأتي بلفظة يستعمل الناس غيرها حيث يستعملها هو ، فيقول :

ترمي بأشباحنا الى مَلِكٍ نأخذُ من ماله ومن أدبه

يفعل هذا ليقول فيه احد شرّاحه : ولكنه يريد ان يكون غير الناس.

وهو في كل ناحية من نواحي الشعر يتوكأ على عصا التشخيص، فاذا تغزل قال لحبيبه :

لهْفَ نفسي عليّ لا بل عليكا ان تجولَ العيونُ في خدّيكا

فكأنه اخذ هذا من قول ابي نواس :

في صَحْنِ خدّ لم يَغِضْ ماؤه، ولم تَخُضْهُ أعينُ الناسِ

واذا خاطب صاحبه « ابا جعفر » جعل الحسن شخصاً يعقل أو ملكاً يغزو فيقول :

يا أبا جعفرٍ أقرّ لك الحسنُ وحلّت جيوشُه في ذَراكا

يا أبا جعفر خُلقتَ بديعاً ، فاق حسنَ الوجوهِ حسنَ قفاكا

رحم الله أبا جعفر هذا وغفر لأبي تمام ... وإذا تحريت الصور التي خلقها أبو تمام وجدتها كثيرة ، وكلها من ملتقطات تلك العين الحادة التي لا يفلت منها شيء ، فيستوعبه جنان يستطيع اخراجه ولو معقداً أحياناً

اقرأ وصفه « الحلة السابرية » التي كساه اياها محمد بن الهيثم ، واقرأ وصفه قلم ابن عبد الملك الزيات الكاتب الوزير ، واقرأ وصف الفرو ، واقرأ رثاءه لابنه وأخيه، ذلك الرثاء الجاف، لتعلم ان أبا تمام شاعر بعينه أكثر منه بقلبه ، فكأنه كان يشهد مرض ابنه ونزع أخيه ليلتقط ويصف .

واقرأ أيضاً وصفه احراق الافشين لتعلم ان شاعرنا كوافد البراجم يحب رائحة القتار [١] ، ويتهلل لرؤية « الشاورمه » .

---

(١) القتار ، هنا : رائحة الشواء .

وإذا شئت أن تعلم ما توحيه الطبيعة لأبي تمـــام فاقرأ وصفه الربيع . فمن كل ما ذكرنا تعلم انه كان السبّاق إلى « التشخيص » لا ابن الرومي كما يزعم بعضهم :

ان الربيع أثَرُ الزمان   لو كان ذا روحٍ وذا جثمانٍ[1]
لكان بسّامـاً من الفتيان

ثم ينظر فيها إلى ما وراء القبر فيقول :

عجبتُ من ذي فِكرةٍ يقظانِ   رأى جفـــونَ زهَرِ الألوانِ
فشكّ أنّ كلّ شيءٍ فانِ

ويُتّهم أبو تمام بشنّ الغارة على معـاني القدماء وسرقتها . فكان يزعم معاصره دعبل أن أبا تمام يتبع معانيه ويسرقها. روى له محمد بن صابر الازدي شعراً لأبي تمام وقال له : كيف تراه يا دعبـل ؟ فأجاب : أحسن من عافية بعد يأس . ولما أخبره انه لأبي تمام أجاب : لعله سرقه !

ان شعراءنا ، وشعراء الامم كلها ، قـد يحومون حول صورة فتتعاورها أقلامهم ، كما سترى صورة « المفتاح » هدفاً لثلاثة أقلام كبار . قال بشار :

اسلمْ وحُيّيتَ أبـا المِلَدّ   مفتاحَ بابِ الحدَث المنسدّ

فتناولها بعده أبو تمام وقال في بائيته والله مفتاحُ باب المعقِل الأشِب[2].

وأخيراً جـــاء الشاعر الضخم فقال ، وكأنّه ينظر من وراء الغيب إلى مفاتيحنا الحديثة :

ومن طَلبَ الفتحَ الجليلَ فانمـــا   مفاتيحهُ البيضُ الخِفافُ الصوارمُ

فكّر قليلاً يدلّك هـذا المفتاح على الكثير من نفسية الشعراء الكبار الثلاثة ، فأعمل فكرتك . وإذا تأملت بعض التأمل ، وكنت من القارئين ،

(١) الأثر (بضم الهمزة) جمع الاثرة ، وهي المكرمة والفعل الحميد .
(٢) المعقل ، هنا : الحصن والقلعة . الأشب : الملتف ، المشتبك .

تساءلت لماذا قال المتنبي الفتح الجليل ولم يقل الفتح المبين مع انها على كل لسان تدور .

ان صاحبنا أبا الطيب كضريبه[1] أبي تمام يحب الخلق ويبتعد عن المألوف . انه يحب الضخامة والجلجلة ، ولهذا آثر لفظة الجليل على المبين. ثم ألا تذكرك المفاتيح البيض الخفاف بمفاتيح اليوم الصغيرة التي تفتح الأبواب جميعاً ؟

ان أبا تمام هو من الشعراء المحككين[2] ، من السلالة الزهيرية المتحدة الجذور والفروع في الأدب العربي ولو لم يقل الشعر في المواضيع الجديدة التي أشرنا اليها لما كان إلا شاعراً مدّاحاً نواحاً كما قال فيه ابن عمه البحتري ، ولم يبق له ما يميزه إلا صناعة المطابقة التي نعدها نحن اليوم تكلفاً وتمحلاً، ولكن كان له حظ فوصف ما وصف ، فظل ذكره حياً وسيبقى إلى مدى .

أما مخيلته فمن الطراز الأول . لا يتكلم إلا بالصور . وإذا فاته الرقص المرح فلم تفته الخطوات الثابتة الجبارة . ففي شعر الطائي رائحة ثقافة لا عهد للشعر العربي بها من قبل. ولا غرو فقد نشأ وشبّ في شرخ صبا الفلسفة العربية .

والكلمة الأخيرة هي ان السيد الشريف الرضي « شخّص » مثل أبي تمام واستعار مثله فصار في نظر أحدنا شيخ الطريقة الرمزية وواضع اسسها قبل بودلير وغيره من شعراء الغرب ...

أما معاصره دعبل الخزاعي وعدوه الألد فكان أكثر عروبة في اللسان والجنان من صاحبه . كان هذا الشاعر خالعاً العذار ولكن على طريقة الخلعاء الذين تقدّم ذكرهم . روى صاحب الأغاني : خرج ابراهيم بن العباس ودعبل ابن علي وأخوه رزين في نظرائهم من أهل الأدب رجّالة إلى بعض البساتين في

---

(١) الضريب هنا : المماثل .

(٢) المحككين ، هنا : الذين ينقحون علمهم تنقيحاً دقيقاً مرة بعد مرة قبل أن يعتبروا أنهم فرغوا منه .

خلافة المأمون ، فلقيهم قوم من أهـــل السواد من اصحاب الشوك فاعطوهم وركبوا تلك الحمير ، فانشأ ابراهيم يقول :

أعيضت بَعْدَ حَملِ الشوْكِ أحمَـــالاً من الحُرف [1]
نشاوى لا من الصَّهْبَاءِ بَـــلْ من شِدَّةِ الضَّعْفِ

فقال رزين :

فلو كُنتم على ذاكَ تؤلّون الى قصْفِ
تساوت حالُكم فيه ولم تبقوا على خسْفِ

فقال دعبل :

وإذ فاتَ الذي فاتَ فكونوا من بني الظُّرفِ
ومرّوا نقصُفِ اليومَ فإنيّ بائـــعٌ خُفيّ

فانصرفوا معه ، فباع خفه وانفق ثمنه عليهم ..

لقد تظرّف دعبل فلم يفلح، فالظرف سجية ليست من طبع أبي علي، بل « الشطارة » طبعه الاصيل،قتل صيرفياً طمعاً بصُرة رآها معه فاذا بها ثلاث رمّانات .. ثم صار شاعراً فغلبت سجية اللؤم على شعره ، فقال فيه صاحب الاغاني:شاعر متقدم مطبوع، خبيث اللسان، لم يسلم عليه احد من الخلفاء ولا من الوزراء ولا اولادهم ، ولا ذو نباهة أحسن اليه أو لم يحسن ، ولا افلت منه كبير احد . ولم يزل مرهوب اللسان وخائفاً من هجائه للخلفـاء ، فهو دهرَه كلّه هارب متوارٍ .

كان يقول : لي خمسون سنة احمل خشبتي على كتفي ادور على من يصلبني عليها فما احد يفعل ذلك . وما سلم الا لأن له حزباً سياسياً يحميه ، فـكان يدافع عن العلويين ويحتمي عند اهل اليمن .

مع هذا الشاعر العربي الخالص بلغ الهجاء الذروة.كان مع الأخطل وجرير

---

(١) الحرف . هنا : الحرمان

والفرزدق هجاء اموات، او هجاء اناس احياء كالاموات ، فصار هنا هجاء ملوك ووزراء كالملوك . صار هجاء سياسياً . فكان دعبل يناضل غضبان على السلطان وحكومته، يريد تقويمه واصلاحه . لقد بدت طلائع هجاء دعبل السيامي مع بشار العقيلي ، ولكنه بلغ حدّه وتجاوز المدى الأبعد مع هذا الشاعر « الشاطر » اما هجاء الوجه فابتدأ مع دعبل وتمّ عند ابن الرومي .
قال دعبل يهجو وجه صالح ابن عطيّة مخاطباً المعتصم :

اضربْ بهِجيشَ العَدُوّ فوجهُه   جَيْشٌ منَ الطاعونِ والبِرسامِ[1]

وقال ابن الرومي :

وجهُكَ يا عمرو فيه طُولُ،   وفي وجوهِ الكلابِ طُولُ

وفي الشاعرين يقول المعري :

لو ينطِقُ الدهرُ هجا نفسه   كأنه الروميُّ أو دِعبِلُ

فجميع الخلفاء العباسيين نعموا بهجاء هذا الشاعر الفذ .. وخير ما نذكره في هذا الكتاب الضيق قوله فيهم جميعاً :

ملوكُ بني العباسِ في الكتْبِ سبعةٌ   ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ كتْبُ
كذلك أهلُ الكهفِ في الكهفِ سبعةٌ   خيارٌ، اذا عدّوا، وثامنُهم كلْبُ
واني لأعلي كلبَهم عنكَ رفعةً   لأنكَ ذو ذنبٍ وليس له ذنْبُ !

كان المأمون رحب الصدر تتسع اخلاقه للطغيان الادبي ، وان سلّ لسان ذاك الشاعر من قفاه كما مرّ بك فلو كان دعبل اليوم في ارقى دولة،واوسعها حرية وهجا ملوكها او رؤساءها كما هجا الخلفاء لما سلم رأسه،ومع ذلك يروون ان المأمون قال لأحدهم حين استأذنه بالمجيء برأس دعبل : لا . هذا رجل فخَرَ علينا فافخرْ عليه ، فأما قتلهُ بلا حُجة فلا .
وعندما جاء ابراهيم بن المهديّ المأمونَ يحرّضه على دعبل، ضحك المأمون وقال : انما تحرّضني عليه لقوله فيك :

---

(١) البرسام : مرض هو التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب.

يا معشرَ الأجنادِ لا تقنطوا ، وارضَوا بما كان، ولا تسخطوا
فسوف تُعطَونَ حُنينيّةً يلتذُّها الأمردُ والأشمطُ (١)
والمعبديّـاتُ لقُوّادِكم لا تدخُل الكيسَ ولا تُربطُ (٢)
وهكـذا يرزق قُوّادَه خليفةٌ مُصحفُه البربطُ (٣)

ولما قرأ المأمون أبياته في ابراهيم هذا :

نفر ابنُ شَكلةَ بالعراقِ وأهلِه فهوى اليه كلُّ أطلسَ مائقِ (٤)
إن كان إبراهيمُ مضطلعاً بها فلتَصلُحَنْ من بعدِه لمخارقِ
ولتصلحن من بعد ذاك لِزلزلٍ، لتصلحن من بعده للمارقِ (٥)
أنى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ يَرثُ الخلافة فاسقٌ عن فاسقِ

ضحك ، وأمّن دعبلا واستدعاه وأحسن اليه. ولكن الشاعر لم يسكت، وشاعت له ، بعد ذلك ، أبيات يهجو بها المأمون . .

والغريب أن يولّى شاعر لص كدعبل كما وليّ ابو تمام، والأغرب أن يموت أبو الطيب وفي نفسه شوق إلى الولاية، وأشدّ من هذا غرابة أن يهجو دعبلٌ، المطلّب الذي ولاّه ، أمرّ الهجاء وأقذعه :

وتُلصِقُ مصرُ بك المخزياتِ ، وتبصُقُ في وجهك الموصلُ
وعاديتَ قوماً فما ضرّهم ، وشرّفت قوماً فلم ينبُلوا
شعارُك عند الحروبِ النجاءُ ، وصاحبُك الأخورُ الأفشلُ
فأنت إذا ما التقوا آخرٌ ، وأنت إذا انهزموا أوّلُ

ومن العجب العجاب أن تكون أخلاق الشاعر كما عرفنا، ويقول قصيدة تفيض عاطفة وبلاغة وقوة، كقصيدته الخالدة التي مطلعها :

---

(١) حنينية ، أراد بها اغنية منسوبة الى المغني حنين .
(٢) المعبديات ، أراد بها : الأغاني المنسوبة الى المعبد .
(٣) البربط : لفظ فارسي في مقابل العود والمزهر من آلات الموسيقى .
(٤) الشكلة (أراد الشكلة بكسر الكاف) : المرأة ذات الغنج والدل . الاطلس ، هنا : الذئب ، أو اللص الأشبه بالذئب . مائق: مشته، مشتاق . (٥) المارق : الخارج على الدين .

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تِلاوةٍ ، ومنزلُ وحيٍ مقفِرُ العرصات [1]

وأن يقول في الغزل مثل قوله :

أين الشبابُ ، وأيّةً سلكا ؟ لا أين يُطلب ، ضلّ بل هلكا !
لا تعجبي يا سلمَ من رَجُلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبكى !
يا ليت شعري ، كيف يومكما يا صاحبيّ ، إذا دمي سُفِكا
لا تأخذوا بظُلامتي أحداً قلبي وعَيني في دمي اشتركا

اني ليعجبني كل طريف وإياه أقصد ، ولهذا تراني أخـــالف غيري ، فأجعل دعبلاً من الرؤوس ، وهو عندي من كبارها ، اللهم في الهجاء الذي جاء فيه بالبُدَع .

إذا قرأت شعر دعبل فلا ترى إلا عريان الكلام ، ومع ذلك تجـد شعره حياً ينبض ، لأن روح قائله الثائرة المتمردة تتردّد فيه .

كان الشاعر عدوّ أبي تمام ، ومع ذلك كان صديقاً حيماً لابن عمه البحتري . وميتة دعبل وأبي تمام كميتة جرير والفرزدق ، وشوقي وحافظ – تاريخياً – فرثاهمـــا البحتري بهـــذه الأبيات الثلاثة التي لا تدلنا على شيء غير التاريخ والجغرافيا .

قد زادَ في كلفي وأوقــد لوعتي مثوى حبيبٍ يومَ ماتَ ودعبلِ
أخويّ لا تزل السماءُ مُخيلةً تغشاكما بسماءِ مُزنٍ مُسبَلِ [2]
جدث على الأهواز يبعدُ دونه مسرى النعيّ ورِمّةٌ بالموصلِ

(١) العرصات ، جمع العرصة وهي ساحة الدار ، سميت بذلك لأن الصبيان يعرصون فيها أي يلعبون ويمرحون . (٢) مخيلة : متهيئة للمطر .

ابن الرّومي

لو راعينا الأنواع الأدبية ،وجب علينا ان نشدّ ابن الرومي وابا تمام في قرن ، ودعبلاً والبحتري في قرن . ولكننا نظرنا إلى الزمان وإلى ما اعتبره غيرنا من القدماء . ناهيك ان تداعي الأفكار يذكّرنا دعبلاً الخزاعي كلما ذكرنا حبيباً الطائي ، ويجرنا إلى تذكر لحية البحتري التي تغنّى بها زميله ومعاصره ابن الرومي حتى كاد يتفرّد هذا الشاعر بصورة « الخلاة » وان لم يكن هو المبدع الاول لهذه الصورة .

اذا رمنا المقابلة بين شاعرين رأينا المقابلة ميسورة جداً بين ابي تمام وابن الرومي ، فكلاهما يحتفل للمعاني ايمــا احتفال ، وكلاهما يحاول اخراج « صورته » كاملة الخطوط،تامة الألوان، وان تنطّس ابن الرومي أكثر . لا ارى ابن الرومي في اخراج صوره إلاّ كاصّ قصب السكّر يظل في عراك مع تلك الألياف حتى يمتصّها أما ابو تمام فلا يُفرط في عمله هذا كل الافراط ، ولا يهمل البلاغة اهمال ابن الرومي ، بل يبالي باللغة والموسيقى مبالاة اخرجه تشدده فيها من زمرة المطبوعين، واحصاه بين الشعراء المحككين،بل الملتّمين، لما عاناه من تصيّد البديع .

لا ريب في أن ابن الرومي شاعر كبير ، ولكن بعض المعاصرين بالغوا في تكبير صورته لان « ثمرهم اشبه باشواكه وحطبه اليابس » . اتخذوا من رفع مقام الشاعر ستراً يغطي عيب شعرهم . ويا ليت لهم معنى واحداً من معاني ابن الرومي فتختفي معايبهم ، ولكنهم فازوا بالبليد من تعبيره. وما حصلوا حتى على الدون من تفكيره . لم تغفل العرب شأن ابن الرومي الا لأسباب : منها ان الشعر عندهم موسيقى اولاً ، والشعر عند كيوركيس استقامة وزن

ومعنى . ولهذا نراه اذا ظفر بمعنى طريف فلا يحصره في بيت واحد ، بل يشرحه بابيات تليه ، ويظل يفعل ذلك حتى يفقده روعته ، ويخسر جماله الفني ، فيبتعد صاحبه في هذا عن العرب الذين لا تروقهم الثرثرة ولا يحبون الا الايجاز .

واليك مثلاً من شعره يبرّفك بالذوق العربي . اكثر العرب لا يروون لابن الرومي الا هذين البيتين في العدّو والصديق :

عدوُّك من صديقِك مستفادٌ فلا تستكثرنّ من الصِّحابِ
فان الداءَ اكثرُ ما تراهُ يحولُ من الطّعامِ او الشّرابِ

وتركوا له الابيات الخمسة التي تليها لانها تعليل وشرح ولا بأس علينا ان اوردنا مثلاً آخر :

وإخالُ الإيوانَ، لو كان يسعى، جاء سَعْياً إليكَ قبل الأذانِ
ولوافاكَ كي تُبهجَ فيـه غير أن ليس ذاك في الإمكانِ

أرأيت الى ركاكة البيت الثاني الذي لم يدلّ الاّ على حماقة صاحبه وحبه الإطالة التي يسميها « اصحابنا » نَفَساً طويلاً ؟ فلو شئت ان انفي ما في طويلاته من مثل هذه الحماقات لما ابقيت الا ربع ديوان ابن الرومي ، ولقلت له في قصائده تلك ما قاله هو لصاحب اللحية : القها عنك يا طويلة .

ولكن اصحابنا قعدوا على طريق الادب يضربون بالرمل ، فعدّوا هذه الاطالة الشنيعة ارثاً يونانياً ، واليونانية بريئة من مثل هذه الثرثرة . ارشدتهم الى هذا الزعم كلمة رومي ، فالصقوا بصاحبهم المنطق ، والعقل ، والخيال ، والتفكير ، ووحدة القصيدة ، حتى كادوا يعدّون ابن الرومي شاعراً يونانياً. قد يكون لاصل ابن الرومي بعض العلاقة بشعره ، وقد يكون تفكير ابي تمام يحملنا على الشك في اصالة عروبته ، ولكن هذا لا يُخرج الشاعرين من نطاق الشعر العربي . لست اعزو الى « الجنس » الا شيئاً قليلاً من هذا ،

فشعراء الامة الواحدة اشكال واجناس ، كما انك تجد – اذا تأملت – لكل شاعر في كل امة مشابهاً في امة اخرى .

لست اعزو وصف ابن الرومي الدقيق الى اصله، فشراهته ونهمه وحرمانه حملته على وصف تلك المأكولات ، فقال في وصف الدجاجة :

وسَميطـةٍ صفراءَ دينـاريّةٍ ثمناً ولوناً زَفّها لك حَزْوَرُ [1]
عظُمت فكادت أن تكون إوَزَّةً ونوَت فكاد إهابُها يتفطّرُ [2]
ظِلنا نقشّر جلدها عـن لحمِهـا وكأنّ تبراً عن لُجَيْنٍ يُقشَرُ

ومدح الموز بقوله :

للموز إحسانٌ بلا ذنوبِ ليس بمعدودٍ ولا محسوبِ
يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلعُ إلى القلوبِ

ووصف العنب فأجاد اجادة يحسد عليها :

ورازقيٍّ مُخطفِ الخصور كأنّه مخـازنُ البلّور
لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحرور إلا ضيـاءً في ظروف نور

وإذا شئت أن تتذوّق مثلي جمال هذه الصورة ، فتعال الى عين كفاع في صدر ايلول الذي يقول فيه ابن الرومي أيضاً :

قُلْ فيه ما شئت من شهْرٍ تمَهّدُهُ في كل يوم يـدٌ لله بيْضـاءُ

وقال صاحبنا في وصف القطائف :

قطائفٌ قـد حُشيت باللوز والسكّر الماذيّ حشْوَ الموز
تسبح في آذيّ دُهن الجوز سُررْتُ لما وقعت في حَوْزي
سرور عبّاسٍ بقرب فوز [3]

---

(١) السميطة ، أراد بها الدجاجة التي نقيت من الريش بالماء الحار وطبخت . الحزور : الغلام اذا اشتد وقوي . (٢) نوت : سمنت . اهابها : جلدها . يتفطر : يتشقق .

(٣) عباس : هو العباس بن الأحنف ، شاعر غزل مشهور في زمن العباسيين . وفوز ، هي الجارية التي تغزل بها .

ولست أذكر لك وصفه قالي الزلابية، ولا وصفه الخباز، ولا قوس قزح، فهي معروفة من كل متأدّب، ولكنني أروي لك أبياتاً تدلّك على ان الحياة هي عند ابن الرومي أكل وشهوات، ثم شعر يصفها، حتى كاد أن يكون من ناظمي كتاب «استاذ الطباخين» شعراً، واليك البرهان من شعره :

يا سائلي عن مجمعِ اللذّاتِ سألتَ عنه أنعتَ النعّاتِ
فهاك ما أنشأته من قصّهْ مسلّماً من شوبةٍ ونقصَهْ
خذ يا مريد المأكلِ اللذيذِ جردقتي خبزٍ من السّميذ [1]
لم تر عينٌ ناظرٍ مثليهما، فقشّر الحرفين عن وجهيهما
حتى إذا ما صارتا طفاطفا أضفْ إلى إحداهما تفاتفا [2]
من لحمِ فرّوجٍ ولحم فرخِ تدور جوذاباهما بالفسخِ [3]
واجعلْ عليها أسطراً من لوزِ معارضاتٍ أسطراً من جوزِ
إعجامُها الجبنُ مع الزيتونِ وشكلُها النعنعُ بالطرخونِ [4]
حتى ترى بينَهما مثلَ اللبنْ مقسومةً كأنها وشيُ اليمنْ
واعمدْ إلى البيضِ السليقِ الأحمرِ فدرّهم الوسطَ به ودنّرِ [5]
وترّبِ الأسطر بالملحِ ولا تكثرْ، ولكن قدَراً معتدلا
وردّد العينينِ فيه لحظا فإن للعينينِ منه حظّا
ومتّعِ العينَ به مليّا وأطبقِ الخبز وكل هنيّا
املأ ثناياكَ وأكدُمْ كدْمَا تسرعُ فيما قد بنيْتَ هدْمَا [6]
لهفي عليها وأنا الزعيمُ بعدةٍ شيطانُها رجيمُ [7]

---

(١) الجردقة : فارسية معربة : الرغيف .

(٢) الطفاطف أراد بها : ما استرخى ولان . التفاتف : هنا بمعنى القطع من اللحم .

(٣) الجوذاب : طعام يتخذ من سكر ولوز وجوز ولحم .

(٤) الاعجام : وضع النقط والحركات في الكتابة . يريد ان الجبن مع الزيتون يكون لاسطر اللوز والجوز كالنقط والحركات . الطرخون : بقلة صالحة للتوابل .

(٥) درهم ودنر : اجعله كالدراهم والدنانير ، أي قطعاً مدورة .

(٦) اكدم : عض بمقدم فمك . (٧) الزعيم : الكافل

ان قوله « كل هنيّا » ذكرني بكلمة « صبّ وقدّمْ » في كتاب استاذ الطباخين . . .

وأحاول أن أعنف ابن الرومي على هذه السخافات فأسمعه يناديني من وراء العصور :

لا تلحَني في المنطقِ السخيفِ فانني في حالةِ اللهيفِ (١)
وأحوجُ الناس إلى الرغيفِ

إن تطيّر ابن الرومي حوّله صوب هذه الأشياء فوصف المأكولات كثيراً، والطبيعة قليلاً ، كما صرفه تشاؤمه إلى هجو أشكال الناس، فصوّرها تصويراً هزلياً ، فقال في ذم اللحية الطويلة :

ان تطلْ لحيةٌ عليكَ وتعرُضْ فالمخالي معروفةٌ للحميرِ
علّق اللهُ في عذاريكَ مخلاةً ولكنّها بدونِ شعيرِ

كما قال في وجه عمرو :

وجهُكَ يا عمرو فيه طولُ وفي وجوهِ الكلابِ طولُ

وقال في صاحب الأنف الطويل :

حملتَ أنفاً يراهُ الناسُ كلُّهم من رأسُ ميلٍ عياناً لا بمقياسِ

وأذكر لك هجوه طبيباً يستحقه الكثير من محترفي الطب :

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبّه وبكحله الأحياءَ والبُصَراءَ
فإذا مررتَ رأيتَ من عميانهِ أمماً على أمواتِه قُرّاءَ

وتطيّر ابن الرومي جعله يتخيل الأشياء أشخاصاً يأمن شرها ، واحب الطبيعة لكرهه بنيها الذين ازدروا شعره لتطويله المملول المسلّح بالايضاحات التي أبعدته عنهم حتى جعل مديحه قصصاً وأحاديث . إذا قرأت قصيدته « البائية » في مدح أحمد بن ثوابة ضجرت كما ضجر أكثر ممدوحيه في ذلك الزمان ، فردوا اليه مديحه فهجاهم لأجل ذلك أمرّ هجاء :

---

(١) لا تلحني : لا تلمني .

رددتَ إليّ مدحي بعد مَطْلٍ وقد دنّستَ ملبَسه الجديدا
وقلت امدحْ به من شئت غيري ومن ذا يقبلُ المدحَ الرديدا (١)
ولاسيما وقد أعقبتَ فيه مخازيك اللواتي لن تَبيدا
وما للحيّ في أكفانِ ميتٍ لبوسٌ بعدما مُلِئَتْ صَديدا (٢)

وأبرز نواحي شعر ابن الرومي وأعظمها تأثيراً في النفس هي تلك الناحية الأبدية الأزلية ، ناحية التلهف على الشباب واستقبال المشيب أسوأ استقبال .
لم أر ضريباً في هذا لابن الرومي إلا عمنا الأخطل ، القائل في النساء :

وإذا دعونك عمّهن فإنه لقبٌ يزيدك عندهن خَبالا

كان ابن الرومي محباً للحياة أشد حب ، وهو في هذا أيضاً يتفق مع التغلبي . كلاهما يتصور نفسه قد مات فيقول في ذلك شعراً ، كما تصوّر ذلك مثلهما شاعر غربي هو سوللي بريدوم فقال قصيدة مشهورة

كان ابن الرومي يتبع المغنيات لأمرين : الجمال ، وحسن الصوت وصف المغنية « وحيد » أصدق وصف وأمكنه ، وفصّل وقوعه في شباك حبها تفصيلاً دقيقاً جداً،فهو أبداً في دائرة هواها لا يخرج منها لحظة،والشقية تلعب بالشاعر لعب الهرة بالفأرة . يحار ابن الرومي في تحليل حب وحيد فيقلبه على جميع وجوهه ، فيقول فيه كل ما يقوله علماء النفس في الهوى،واحتلاله ساحة الشعور احتلالاً انكليزياً ... وله في قصيدة « المهرجان » وصف للمغنيات رائع جداً يدل على خيال هو من القوة في الذروة . ولو سلّح هذا الخيال بموسيقى البحتري لكان صاحبه سيد الشعراء. ولكن شيئاً من هذا لم يكن . قال خير شعره في وحيد التي عشقها ، وبستان التي أحبها ، ومظلومة التي هام بها. وإني أذكر بيتاً قاله، في رثاء بستان، يسوى عشراً من قصائده :

إنّا إلى الله راجعون لقد غالَ الرّدى سيرةً من السِيرِ

ولكنه يغالي في هجو المغنيات الأخَر فيقول في إحداهن :

---

(١) الرديد : المردود . (٢) الصديد : القيح .

فاذا غنّت بـــدا في جيدها　كل عرقٍ مثل بيتِ الأرضَه

ويقول في غناء قينة أخرى :

غنّت فمسّ القلبَ كلُّ كـرْبِ　واستوجبت منا أليمَ الضربِ
لهـــا فمٌ مثل اتساعِ الدّربِ　قد أصْدأت سمعي وغمّت قلبي

ويقول في مغنية اسمها شنطف :

شنطُفُ يا عـُـوذة السّمواتِ　والأرضِ وشمسِ النهارِ والقمرِ
صوّركِ الماردُ اللعين فأعطاك　بـداه مقابـحَ الصّوَرِ
بل أنتِ فوق المنى ، إذا ذُكر　القُبح ، وفُحشُ العيوب والقذر

ويقول في واحدة غيرهن :

لهـــا غناءٌ يثيبُ اللهُ سامعَه　ضعفي ثواب صلاة الليل والصّومِ
ظللتُ أشرب بالأرطالِ لا طرباً　عليه ، بل طلباً للسكرِ والنومِ

ثم يجمع مغنيتين معاً فيقول فيهما :

دُرَيْرَةُ تجلبُ الطربا　وتزهةُ تجلب الكرَبا
تغـني هــــذه فيظلّ　عنك الحزن قـد عزبا
وتعوي هذه فتطيـل　منك الحزنَ والوَصَبا

ومن يولع هذا الولع بربّات الطرب، وسيدات « التخوت » في عصرهن ، ومن يهاجم هجوماً لا هوادة فيه من يجلسن على سرير الغناء ولا يصلحن له ، فلا شك انه يبكي شبابه بتوجع ابن الرومي وتفجّعه ،فهو بحق شاعر الشباب المفقود . انه يخاطب ممدوحه ، طالباً أن تأتيه الجائزة إلى البيت لأنه يخاف البحر ويخشى البر حتى أمسى يخاف كل شيء لما حلّ به من بلايا ومصائب. ولو لم يحل به غير مصيبة فقد الشباب لاستحق العذر من الكرام :

ومن لم يُصَبْ إلا بشرخ شبابهِ　لكان قد استوفى جميعَ المصائبِ.

ولا ريب ان الجائزة قد أبطأت ، كما هي العادة ، فلسمعه يقول :

جُعلتُ فِداكَ لم أسألكَ ذاكَ الثوبَ للكفنِ
سألتُكَهُ لألبسَهُ وروحي بَعْدُ في البدنِ

وهو يطلبه منه ويريده جيلاً متيناً لا كالذي يقول فيه :

طيلسانٌ إذا تنفّستُ فيه صاح يشكو الصَّبا ويشكو الجنوبا
تتغنّى إحدى نواحيهِ صَوْتاً فتشقُّ الأخرى عليهِ الجيوبا
فإذا ما عذلتَه قال : مَهْلاً ، لا يكونُ الكريم إلا طَروبا!

ان ابن الرومي على إملاقه وعُدْمه يحب الحياة، ولا تحدثه نفسه بالرحيل. هو مقيم برغم انف الكوارث والدواهي . ان صرختَه على الشباب لا ينقطع صداها من زوايا نفسي، فهي صادرة من قلب مقروح كقلب، مدام دي نواي :

أأفجعُ بالشباب ولا أعزّى لقد غفل المعزّي عن مُصابي

ومن يبكِ الشباب فلا شك في أنه يذمُّ الشيب ، وهكذا فعل ابن الرومي كما فعل الأخطل قبله ، فقال :

لمـا رأت بَدلَ الشباب بكت له والشيبُ أرذلُ هـذه الأبـدال
هل للشبابِ الذي قد فاتَ مردود أمهل دواءٌ يَردُّ الشَّيبَ موجود؟[1]

ولكن ابن الرومي يبكي شبيبته ويزيد قائلاً :

لا تلحَ من يبكي شبيبتَه الا إذا لم يبكِها بدمِ

ويقول في الشباب والمشيب والخضاب :

عجباً للشبابِ يرمي فيُصمي ، وظباءُ الأنيس عنه رواضِ
والمشيبُ البريء يُعرّضُ عنه أو يُلاقى بجفـوةٍ وانقباضِ
وغَنـاءُ الخضابِ عن صاحبِ الشيب غَناءُ الرّقى عن المِراض[2]

---

(١) يرد ، هنا : يصد ، يمنع .
(٢) الغناء : الفائدة والجدوى . الرقى جمع الرقية : وهي المعالجة بالسحر ونحوه .

مَلبَسٌ فيه فرحــةٌ من غرورٍ وهو باقٍ ، وترحــةٌ وهو ناضٍ[1]
خُدعةٌ ثم فزعةٌ ، ان هــذا لحقيقٌ بكـــثرة الرُّفّاضِ

وظاهر القول يدلُّ على أن الأخطل حين يطلب دواء يرد الشيب فهو لا يطلب الخضاب ، بل القوة التي تذهب بذهاب الشباب والتي من أجلها قال في النساء :

أعرضْنَ لما حنى قوسي مُوَتّرُها ، وابيضَّ بعــد سوادِ اللِمّة الشَّعَرُ
ما يَرْعَوِيْنَ الى داعٍ لحاجتِــه ، ولا لَهُنَّ الى ذي شيبــةٍ وطَرُ

أما ابن الرومي فيرى الشيب حداداً على الشباب :

وإلا فما يَغرو امرؤٌ بخضابــه ؟ أيطمع أن يَخفى شبابٌ مدلّسُ ؟[2]
وكيف بأن يخفى المشيبُ لخاضبٍ ، وكلّ ثــلاث صبحُه يتنفّسُ ؟
وهَبْهُ يواري شيبَهُ ، أين ماؤُه، وأين أديمٌ للشبيبــة أملَسُ ؟

ثم يصرخ صرخة الأخطل ، فتخالها زفرة تصعّدت من صدر واحد :

أأيامَ لهوي ، هل مواضيكِ عُوّدُ ؟ وهل لشبابٍ ضَلَّ بالأمس مُنشِدُ؟

ويسلّم أمره إلى من يعنيه الأمر فيقول :

لو يدومُ الشبابُ مُدّةَ عمري ، لم تــدم لي بشاشةُ الأوطارِ
كلّ شيءٍ له تنــاهٍ وحدٌ ، كـــل شيءٍ يجري الى مِقدَارِ

ثم يتمنى فيقول :

ليت شبابَ الفتى يدوم له ما عاش أو ينقضي معَ الوطرِ
لكنّــه ينقضي وأرْبَتُهُ في القلبِ مثلُ الكتاب في الحَجَرِ[3]

وأخيراً يقعد حسيراً في درب الغانيات ويصيح صياح ابن طيا للسيد: أريد أن أبصر ، فيقول :

---

(١) ناض ، هنا ، بمعنى مخلوع ، منزوع .
(٢) يغرو : يلصق . مدلس : بمعنى مكذوب . (٣) الاربة : العقدة الوثيقة .

بان الشبابُ فلا يدٌ تحوي ولا عينٌ تُشيرُ
ولقد أسرتُ به القلوبَ فقلبيَ اليومَ الأسيرُ !

ثم يستكين فيعذرهنّ على الإعراض قائلاً :

أعِرْ طَرْفَكَ المرآةَ وانظرْ فإنْ نبا بعينيك عنك الشّيب فالبيضُ أعذَرُ (١)
إذا شَنِئَتْ عينُ الفتى وَجْهَ نفسِه فعينُ سواه بالشناءةِ أجْدَرُ (٢)

هذه حرقة الشيخ ذي النفس الخضراء ، فعينه بصيرة ويـــده قصيرة ، والدنيا أدوار .

وشاعرنا منكاح مزواج يتمنى النساء دائمـاً ويغضب ان رآهن في حوزة غيره ،فيلجأ الى فنه يستنجده ليخفّف من عرام حنقه ، فيقول في هذا كلاماً يلبسه خير حلة بعد الابتذال .

شُمّرَطٌ خُوّلوا عقـــائلَ بيضاً لا بأحسابهم بـل الأنســـابِ
فاذا ما تعجّبَ النـاس قالوا : هل يصيدُ الظباءَ غيرُ الكلابِ ؟
لم أكن دُوْنَ مالكي هـــذه الأملاكِ لو أنصفَ الزّمانُ المحابي

لست استقصي تحرّقات ابن الرومي على النساء وما قال فيهن فيخرج بحثي عن حده ، ولكنك متى عرفت انه يتخيل الطبيعة امرأة ، ادركت مدى شهواته .

تَبَرّجت بعد حياء وخَفَرْ تبرُّجَ الأنثى تصدت للذّكَر

وما أرى السّطيرَةَ عنده الا نوعاً من الغيرة والحسد ، ولكنها بصورة اخرى . لم يسبب كرهَ ابن الرومي لمعاصريه الا تقصيرُه عن التهام ما يعرض في اسواق بغداد من هذه البضاعة . فها هو ينظم الشعر لأحدهم مستعيناً على الزفاف ، فاسمعه يقول :

---

(١) البيض ، أراد بهن النساء الحسان .
(٢) شنئت . كرهت ، ابغضت .

يا سميّ الخليـل إياكَ أدعو دعوة يمّمتْ سميعاً مجيبـا
أمَةٌ من إماءِ طوْلِك أجمعتُ على نقلهـــا إليّ قريبـا [1]
ما تزوجتُها على غير تأميـلك فانظر ، أجائزٌ ان أخيّبا؟

عجيب أمر شاعرنا وأي عجيب ! يستجدي الرغيف هاتفاً :
أيلتمسُ الناسُ الغنى فيصيبهم وألتمسُ القوتَ الطفيف فيلتوي؟ [2]

فلا ألومه، ويطلب الثوب فلا اعنّفه، اما أن يطلب تكاليف زفاف وهو جوعان ، فهذا غريب ... لقد كدت أعــذر أناساً جوّعوه وحرموه وأناساً كانوا يعيشون به . لم أرَ مثله رجلاً،فهو كما يقول مَثَلنـا : دجاجة منقارها فولاذ .

هذه امرأة تغتصب داره فيصيح :

أجِرْني وزيرَ الدين والملكِ،إنني اليك بحقـّي هاربٌ كل مَهْرَبِ
فلا تُسلمـنّي للأعادي وقولِهم ألا من رأى صقراً فريسةَ أرنبِ !

ثم يتخطـّى –ولكن مرة واحدة– من التغزل بالحور، إلى التغزّل بالولدان فيقول في واحد قولاً يلمّح فيه إلى داهية العرب :

ليت شعري، أسحرُ عينيك داءُ القلبِ أم نارُ خدك الوهّاجِ
أيها الناسُ ، ويحكم ! هل مغيثٌ لِشَجٍ يستغيثُ من ظلمِ شاجِ
مَن مجيري من أضعفِ الناس ركناً، ولعينيهِ سطوة الحَجّاجِ ؟

ان البيت الأول لا يدلني على كلف ابن الرومي بالألوان كـما دلّ غيري ، والنظر الأدبي قد يختلف. وبعد كل هذا فابن الرومي في نظري شاعر الشباب المفقود ، والمطبخ المنشود ، والمديح المردود .

لقد فصّلنا بحثنا هذا على قدّ كتابنا، وتركنا الاستقصاء ، ثقةً منا بذكاء

---

(١) الطول ، من معانيها الغنى والفضل والعطاء ، وهي هنا تستقيم بأحد هذه المعاني .
(٢) يلتوي هنا بمعنى : يصعب ويتعقد .

من يهمه التعمق في درس ابن الرومي . فالتحسر على الشباب ، وعلى الأكل ، وعلى الجوائز ولّد ما ولّد في مخيلة ابن الرومي العجيبة ، فأطال القول وتبسّط في الإيضاح ، والعرب يكرهون كل ما يأتي على سحر البيان ، . والسحر لمحٌ وخطف وهذا حرموا ابن الرومي وأجازوا البحتري الذي حدثهم بلغتهم ، ونهج نهج شعرائهم ، فثار ابن الرومي على البحتري وعلى غيره انتقاماً لشعره ، وان اعترف ابن الرومي بغثاثة شعره إذ قال فيه ما يغنينا عن كل تحديـد :

قولا لمن عابَ شعرَ مادحه : أما ترى كيف رُكّبَ الشجَرُ
رُكّبَ فيه اللّحاءُ والخشبُ اليا بسُ والشوكُ بينه الثمَرُ

إذا صح هذا في النبات وغيره من الأشياء فلا يصح في الفن . كان على ابن الرومي أن ينحّي الهراء ويبقى من شعره ما طاب ، ولكن الطيّب من شعره ليس فيه أقلُّ شبه من شعر معاصره البحتري . وآفة الشعراء في حياتهم معاصرٌ يماشي رجال زمانه . انه يكسف نورهم ، وإذا طلع لم يبدُ منهم كوكب . أما الغد فقد يرفع من حطّ ويحطُّ من رفع .

خليلٌ اظلّ اذا زارني كأني أنشأ خلقاً جديدا

ان في هذا البيت وثبة رائعة ، وهو ثمرة لذيذة ، أما ما يليها فقشر وخشب يابس وشوك ، واليك ما قال :

اراني وان كثُرَ المؤمنون ما غاب عنّي وحيداً فريدا
بلوت سجاياهُ في النائبـات فلم أبلُ منهنّ إلا حميـدا

البيت الاول فوق السحاب والآخران تحت التراب ، فتأمل !

وعلى ضعف موسيقى ابي تمام بالقياس الى البحتري ، فان البون بعيد بينه وبين ابن الرومي ، واليك ما قالا في غرض واحد . قال ابو تمام :

نقّل فؤادَك حيث شئتَ من الهوى مـــا الحبّ الا للحبيب الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينُه ابـــداً لأوّلِ منزل

فقال ابن الرومي :

وحبّبَ اوطانَ الرجالِ اليهم مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانَهم ذكّرتْهمُ عهودَ الصبا فيها ، فحنّوا لِذلكا

ألا ترى أبا تمام شاعراً – هنا – وابن الرومي منطيقياً ؟ على الشاعر أن يقول وعلى الناس أن يفهموا . أما ابن الرومي فيريد أن يمرقل سيره . انها لحجج فارغة ينتحلها ابن الرومي ليدافع عن شعره . فمها عمل ومهما بذل من جهود فلا يكون غير ما كان . ولكن قد كان في مُكْنَتِه أن يدع للسوقة قول: ولاسيا ، والعامة لا تلفظها مخففة كما فعل.ثم ماله وللمشار اليه في قوله :

يا أبا بكرٍ المشارُ اليه بانقطاعِ القرينِ في الأدواءِ

وما كان أحراه ان لا يكثر – على الأقل – من هذا الاستعمال الكريه : المتذريكم ، حبّيك ، نقديك واقتضائيك ، وهجائيك وبغضيكَ ، ولبسيها . وهذا كثير في شعره . وأخيراً عضّيك في هذا البيت :

وعزيزٌ عليَّ عَضّيكَ باللّومِ ولكن أَصبْتَ صدري بِدَاءِ

وإذا كان لا بد من العض فلماذا لا يعض ابن الرومي «مثل الأوادم» ؟. فلو قال عضّك لما فقد البيت شيئاً من قوته ولا من وزنه .

وفي هذه القصيدة التي أخذنا منها هذه النماذج ، أبيات شائقة تدلّك على مخيلة الشاعر ، واليكها :

لك مكرٌ يدبُّ في القومِ أخفى من دبيبِ الغِذاءِ في الأعضاءِ
أو دبيبِ المَلالِ في مُستهامَينِ إلى غايةٍ من البغضاء
أو مسيرِ القضاءِ في ظُلَمِ الغَيبِ إلى من يريدُه بالتواءِ
أو سُرى الشّيبِ تحت ليلِ شبابٍ مستحيرٍ في لمّةٍ سَمْحاءِ

اقرأ وصف ابن الرومي لقيان المهرجان ، وآلات الطرب في أحضانهن ، لتقدّر هذه المخيلة قدرها ، وان شان ذاك الابداع سوء ظنه بقرائه فعمد إلى

الشرح والتعليق ... لقد وهب ابن الرومي مخيلة عجيبة ، ولكنه لم يوهب « قوة النقد » التي تسيّر تلك المخيلة في الطريق الأمثل .

اسمع كيف يتخيل ليهجو رجلاً ادّعى نسباً :

بيناهُ علجاً على جِبِلَّتِهِ   إذ مسّه الكيمياءُ . فانقلبا
عرّبه جدُّه السعيدُ كما   حوّل زرنيخَ جدِّه ذهبَا
وهكذا هذه الجدودُ لها   إكسيرُ صِدقٍ يُعرّبُ النسبا

يا عربيـــاً آباؤهُ نبطٌ   يا نَبْعةً كان أصلُها غرَبَا [1]
كم لك من والدٍ ووالدةٍ   لو غرَسا الشوكَ أثمر العِنَبا
بل لو يهزّان هزّةً نثرت   من رأس هذي وهذه رُطَبا [2]

لو ذكر غيري هذه الأبيات لعدّها دليلاً عظيماً على ثقافة ابن الرومي الطويلة العريضة العميقة ، ولكنني لست أراها إلا معلومات بسيطة يعرفها أهل عصره كلهم . وحسب الشاعر أن يدرك ما يراه الناس كلهم ويحسّ به غير احساسهم ، كما فعل بشار وأبو تمام . وابن الرومي يعلم كما نعلم ان شعره ينقصه شيء فيدافع عنه بقوله :

إن تكن سهلةَ القوافي فليست   في المعاني بسهلةِ الوجدانِ
أبسط العذرَ في ارتخاص القوافي   واتّباعي سهولةَ الأوزانِ

فابن الرومي عارف انه إذا قصّر في ميدان البلاغة فقد وفّق في التصوير والتخيّل الى أبعد مدى . وقد كفانا ابن الرومي تحليل نفسيته فقال عن نفسه :

شكري عتيدٌ وكذاك حقدي ،   للخيرِ والشرّ بقاءٌ عندي
كالأرض مهما استودِعتْ تُؤدّي   وأين عن طينتِنا نُعدّي
احفظُ للأعداء والأودّ   ما استودعوا من بِغْضَةٍ وودّ
ماذا يقولُ القائلونَ بَعْدِي ؟

(١) النبعة واحدة النبع وهو شجر تتخذ منه القسي لصلابته . الغرب : شجر ضعيف .
(٢) الرطب : التمر .

لا نقول شيئاً إلا أن هذه القريحة لو كان لها منها مهذّب لجاءت بغير ما نقرأ . وابن الرومي يشكو الجَد [1] كغيره من شعراء هذه الحقبة ، ويقول شيئاً من هذا بمناسبة الكلام عن أبي الصقر الذي حوّله زرنيخ جده ذهباً :

ولَعَمْري ما ذاكَ أعجبُ من أنْ كان عِلْجاً فصار من شَيْبانا
ان للجَدِّ كيمياءً اذا ما مسّ كلباً أحالَه إنسانا
يفعلُ اللهُ ما يشاءُ ، كما شاء ، متى شاء ، كائناً ما كانا !

والظاهر أن امثال ابن الرومي كانوا عبئاً ثقيلاً على الصناديق وخصوصاً على صناديق الأثانيين البخلاء اصحاب الجَمْع والمَنْع [2] ، فلا تسمع في ديوان ابن الرومي إلا أنيناً موجعاً ، فهو يناقش ممدوحيه الحساب :

ان أكن أحسنتُ في مَدْحِكم فأخو الإحسان أولى من رُفِدْ
أو أكن قصَّر جهدي عنكُمُ فأثيبوني ثوابَ المجتهِدْ
أو فردّوا المدْحَ مستوراً ولا تُشمِتوا بي أعيناً لحوي تَقِدْ
هو بازٌ صائدٌ أرسلتُه فارجعوه سالماً ان لم يَصِدْ !

وإذا استبطأ واضطر فقد يتحرك إذا لم ير في دربه من يتطيّر منه ، ولكن المسكين لا يفوز بغير برودة الاستقبال فيصيح بأبي القاسم :

لاقيتَني ساعةَ لاقيتني أثقلَ خَلق الله أجفانا
كأنما كنتَ تضمَّنتَ لي ردَّ شبابي كالذي كانا
أو كلَّ ما لم يستطعْ فعله عيسى ولا موسى بن عمْرانا

ولا يُغضب ابن الرومي شيء مثل عيب شعره ، فيثور ويفور كالتنور ، ويسبّ أمّ من يعيب شعره :

عاب أشعاري وفي منزله كلُّ عيبٍ ومخازٍ ورِيَبْ

(١) الجد : الحظ .

(٢) « أصحاب الجمع والمنع » وصف وصف به الجاحظ البخلاء . الجمع : الادخار . المنع : الصيانة والحفظ (للمال) .

أنا لا أشـتمُ الا أمّـهُ   فلـيزدني غضباً فوق غضَبْ
ما لمـن يُغمَزُ في أنسابِه   ويعيبُ الشعر من أهل الأدب ؟!

ولا أخاله هجا أبا سليمان الطنبوري وغيره من مغنين ومغنيات إلا لأنهم لم يتغنوا بشعره . ولهذا السبب أيضاً هجا الأخفش كما هجا بشار سيبويه . قال ابن الرومي في أبي سليمان :

أبو سليمانَ لا ترضي طريقتُـه   لا في غنـاء ولا تعلـيم صبيان
له إذا جاوبَ الطنبورَ محتفـلاً   صوتٌ بمصرَ ، وضربٌ في خراسان
عواءُ كلب على أوتار مِندَفـةٍ   في قبح قرد ، وفي استكبار هامان
وتحسبُ العين فكيّه اذا اختلفا   عند التنغّم فكي بَغْـل طحّان

وقال في مغنّ آخر وقد أجاد :

مجلسُه مأتمُ اللـذاذةِ والقصفِ   وعرْسُ الهمـوم والأحـزانِ

والحسد كان ولم يزل آفة الادباء ، وخصوصاً المتأدبين ، ومن هذا يشتكي ابن الرومي فيقول :

أأقول شعراً لا يعابُ شبيهُـه   فتكون أولَ عائبٍ تشبيبَـه
مـا كلُّ من يعطى نصيبَ بلاغةٍ   ينسيـه من رعي الودادِ نصيبَـه

وأخيراً يلوم الشعراء على المديح ، وهو واحد منهم :

« يقولون ما لا يفعلون » امسبّةٌ   من الله مسبوبٌ بهـا الشعـراء
وما ذاك منهم وحده بل زيادةٌ   يقولون مـا لا يفعـلُ الأمراء

ويحاول ابن الرومي ان يلمّ بأقوال الأخطل في المرأة والشيب فيقصّر عنه ، كما انه ألمّ بفكرة سبق اليها بشار فاستمدها من القرآن الكريم ليقول في رجل اسمه ابو سفيان :

كيف لا تحمِلُ الأمانة أرضٌ   حمَلت فوقَهـا أبا سفيانِ

فقال ابن الرومي في رجل اسمه ابن حُرَيْث :

أين من يشتري حماراً ضَليعاً ليسَ في مَشيِه وَنيةٌ رَيثِ[1]
يحملُ الدِّينَ والأمانةَ والمنّ اضطلاعاً ، ويحملُ ابن حُرَيْثِ

ويأخذ قول ابي تمام :

واذا جفاك الدهرُ وهو أبو الورى طرّاً ، فلا تعتبْ على أولادِه

فيقول قولاً قبيحاً يدل على فساد ذوق :

وما الدهر الا كابنيه فيه بُكْرَةٌ وهاجرةٌ مسمومةُ الجو صَيْخَدُ[2]
تذيقُ الفتى طَورَيّ رخاءٍ وشدةٍ حوادثُه، والحَوْلُ بالحولِ يُطرَدُ

ويصف بيته وخصوصاً ملبسه فيفتّت القلوب :

وليَ الخفُّ ذو الرقاعِ ، ولي النعلُ ، وللعبـــدِ سابحٌ يَعبوب[3]
وهمومي مُحِدّثاتي ، وبستانيَ شوكٌ ثمــارُه الخرّوب
عكست أمري النحوسُ ، فعنزي أبداً حائلٌ ، وتيسي حَلُوبُ
غير أني رأيت نحسي على نفسي ، فعودي لا غــيرُه المنجوبُ[4]
أصحب المرةَ فهو مِنّيَ ممطورٌ ولكنْ واديهِ لي مَجْدُوبُ[5]

رحمك الله يا ابن الرومي فكم في الحياة من امثالك ... ولو كنت حياً لما قلت في شعرك غير ما قلت، وان مثلت بي كما مثلت بالاخفش وغيره من عائبي شعرك. ان القليل من شعرك يعجبني كأسمى الشعر ، اما ما بقي فنثر موزون، ولست ازعم غير هذا ولو اتفق على عكسه الإنس والجنّ .

---

(١) ونية : تراخ وضعف. ريث : بطء . (٢) بكرة: غدوة. صيخد هنا: شديدة الحر.
(٣) اليعبوب ، هنا : الفرس الطويل السريع . (٤) المنجوب : المعرى من قشره .
(٥) المجدوب : ذو الجدب ، اي المحل .

٧ البحتري

اول ما نعلّم طلابنا كلمة قالها ابن الاثير : اراد البحتري ان يشعر فغنّى ، نستدل بذلك على الديباجة البحترية التي نفّقت شعر البحتري وكسدت بضاعة ابن الرومي .

ان نقاد الأدب القديم ودارسيه كالغنم يتبع بعضها بعضاً . شهد الثعالبي ، صاحب يتيمة الدهر ، لشعراء الشام ، بالتبريز قديماً ، وحديثاً ، لقربهم من خطط العرب ، ولا سيما اهل الحجاز ، وبُعْدِهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم ، ولما جمع شعراء عصره من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة . ثم روى ، تأييداً لزعمه ، ان الصاحب بن عبّاد كان يعجب بطريقة الشاميين التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة . انني اؤيد شيخ نيسابور في زعمه هذا ، وان لم اجد في شعر البحتري ناحية جديدة لم يطرقها الشعراء قبله غير وصف القصور ، وقتال ابن خاقان للأسد ، ومقاتلة البحتري والذئب . لم يحد البحتري قيد شعرة عن خطط القدماء . أدرك ذلك خصمه ابن الرومي فقال في هجوه : عبدٌ يُغير على الموتى فيسلبهم حر الكلام ... اي انه صورةٌ مطابقة لهم كل المطابقة

شاء البحتري في بدء اتصاله بالخلفاء ان يكون شاعراً سياسياً ، فشهد بالخلافة لبني العباس ، ولكن شهادته جاءت بعد وقتها فلم يؤبه لها . والتفت الشاعر فرأى قصر الخليفة في زمانه ، كناطحات السحاب في هذا العصر ، فقال فيه شعراً استمال به الخلفاء وأعجبهم ، لأن المرء يحب الثناء على بيته ، ولو كان كوخاً ، فكيف به اذا كان قصراً لا نظير له في عصره ، كالجعفري والكامل ؟ وأعجب

البحتري وصفه القصور العربية. فشاء أن يكون موضوعه بنية فخمة فقصد ايوان كسرى يرافقه اليه ولده ابو الغوث الذي سقاه ولم يصرّد ... فوصف الايوان ومن بنوه وصفاً رائعاً شكّك النقاد في عروبته. لقد فاتهم ان الشاعر عموماً ، والبحتري خصوصاً ، يميل مع الهوى . وحسبك برهاناً على ما أزعم أن تذكر تمنّيه لو كان سيفه في يده ساعة الفتك بالمتوكل ، ثم ما كان بعد ذلك . فالبحتري ليس من أصحاب المبادىء الثابتة . انه ككل بخيل يشمّر للحاق بالقرش في أوعر السبل ، ويغوص عليه في الحمّآت . لا يبالي بكرامته إذا كسب . لست أقول هذا لأدّعي إن البحتري كان له غنم في وصف ايوان كسرى ، لكن لأدلّ على خلق البحتري ، فالبخل رأس مزايا هذا الشاعر . والمال هو الحُكّ الذي تهتدي به سفينة البحتري في خضم الحياة . وهل أدل على بخل هذا الذي يسمونه شاعر الطيف،من تحسره على افلات الطيف منه؟.. البحتري — أخلاقياً — يصحّ به قول مثلنا: يلحس الفرن على ريحة الكبّة ... كان يمدح ثم يهجو ، ويهجو ثم يمدح ، مهتدياً بالجائزة والأمل البرّاق في كيس الممدوح .

كان البحتري بيّاع شعر، وكانوا يعرفون منه ذلك فيعبثون به، ويتنادرون عليه ثم يرضونه . وكل شيء جاهز متى حصلت الجائزة . وهكذا شأن كل بخيل . سبّ اباه وأمه وارنب عنك قرشاً ولو من قروش هذه الأيام ، في الاعتذار اليه، فقد وصل له حقه. هذا ما أصاب البحتري بعد عبث الصيمري به ذاك العبث الشائن .

فتن البحتري معاصريه بسلاسةِ شعره ، ورنته وسهولته . وقال في قصور الخلفاء قولاً جديداً فقرّبوه وأدنوه من الحضرة . وصف بركة المتوكل ، وهذا الوصف شهير يعرفه كل مُطّلع ، ثم وصف « الجعفري » فقال في علوه وشموخه وضخامته :

ملأت جوانبُه الفضاءَ وعانقت شرفاتُه قِطَعَ السحابِ الممطِرِ

ثم ذكر المتوكلية في قصيدة اخرى . قد بلغ البحتري في هذا الوصف قمة الشعر ، لأن احداً لم يساجله في هذا المضمار ، فقال في وصف قصر المعاز :

ذُعِرَ الحمامُ وقد ترنّم فوقه … من مَنظَرٍ خَطِرِ المزلّةِ هائلِ
وكأنّ حيطانَ الزّجاجِ بجوّه … لجَجٌ يَمُجْنَ على جنوبِ سواحل
وكأن تفويفَ الرخامِ إذا التقى … تأليفُه بالمنظرِ المتقابل [1]
حُبُكُ الغمامِ رُصِفْنَ بين مُنَمَّرٍ … ومُسَيَّرٍ ومُقارِبٍ ومُشاكِلِ [2]
لبست من الذّهبِ الصقيلِ سقوفُه … نوراً يُضيءُ على الظّلامِ الحافلِ
فترى العيونَ يَجُلْنَ في ذي رونقٍ … متلهّبِ العالي أنيقِ السّافلِ
أغنته دجلةُ إذ تلاحقَ فيضُها … عن صوبِ مُنسجمِ الربابِ الهاطل
وتَنفّست فيه الصّبا فتعطّفت … أشجارُه من حُوّلٍ وحوامِلِ [3]
مشيَ العَذارى الغِيْدِ رُحْنَ عشيةً … من بين حاليةِ اليدَينِ وعاطلِ [4]

فلولا ما قاله في هـذا القصر المسمّى « بالكامل » ، ولولا صورة اخرى أخذها قلمه عن ايوان كسرى ، لقلت ان البحتري عيال على ابن عمه ، وعلى شعراء العرب القدماء . فانظر كيف يصف الربيع ، وعد إلى قول أبي تمام :

أتاك الربيع الطَلْقُ يختالُ ضاحكاً … من الحُسْنِ حتى كاد أن يتكلما

ومن وصف البحتري لقتال الأسد تدرك مدى خياله متى قابلت قصيدته بقصيدة المتنبي ليس عندي زيادة في هذه المقابلة عما قاله ابن الأثير النقاد الفذ، فعد إلى قوله في محله من « المثل السائر » .

أما وصف قتال الذئب فقد تفوق فيه البحتري على الفرزدق ، جعل هذا

---

(١) تفويف الرخام : ما تكوّن فيه من عُروق (خطوط) بيضاء .

(٢) حبك الغمام : السحاب اذا تجعد وصار طرائق طرائق . منمر ، هنا : له ألوان تشبه الوان النمر . المسير : المخطط . (٣) الحول : جمع الحائلة ، وهي الانثى التي لا تحمل .

(٤) عاطل : بلا حلية .

موضوعاً مستقلاً وان بدأه بالغزل والفخر والعتاب،وختمه بشكوى الزمان .
دع كل هذا وبدأ بقوله :

وليلٍ كأنَّ الصبحَ في أُخْرَيَاتِهِ
حشاشةُ نَصْلٍ ضَمَّ إفرِنْدَهُ غِمْدُ [1]

ثم قف عند قوله :

ونلتُ خسيساً منه ثم تركتُهُ وأقلعتُ عنهُ وهْوَ مُنعفِرٌ فَرْدُ

تجد ان البحتري أحاط بأطراف موضوعه كل الإحاطة ، رسم صورة صغيرة ولكنها ناتئة الخطوط.قد سبقه الفرزدق إلى شيء من هذا وتجاوز الوصف إلى الاخلاقيات . أما البحتري فما عناه غير المشهد ، فكأنَّه في هذا من جماعة « الفن للفن » .

اذكر أن كاتباً قابل بين ذئبي الفرزدق والبحتري وذئب دوفيني فخلص من بحثه إلى أن الشاعر الغربي يرمي إلى غاية، بينما شاعرانا لا غاية وراء ما قالا لقد ضلَّ صاحبنا ، فلكل امة تفكير ومرمى . العربي يعنيه أن يقهر خصمه ويقتله ، وإذا حصل ذلك فهو البطل الذي ادى الرسالة القومية ، بينما الشاعر الفرنجي يريد أن يجعل من ذئبه مثالاً للنضال العنيف والثبات الشريف، ولا يحمله على هذا التفكير غير موقف امته من جارتها المانيا .

وبعد ، فماذا نرى في شعر البحتري من خصائص لم نرها عند من تقدموه ؟ نرى سهولةً وشدةً في وقت معاً . نرى شاعراً لا يقدم كلمة ولا يؤخر كلمة، فنظمه كنظم العقد حقاً قصيدته كالكتيبة مصفوفة جنودها صفاً لا عوج فيه ولا أمت [2] .

نرى كلاماً مقسماً ، فكل بيت تستطيع ، ان تأملت ، أن تراه جملاً

---

(١) حشاشة النصل ، أراد بها : رقة السيف . الافرند : جوهر السيف ووشيه .
(٢) الامت : الفراغ أو الضعف .

متتابعة كأنها موقعة إيقاعاً ، لا زحام ولا تسابق ، تعرف الكلمة دورها فلا تتقدم ولا تتأخر .

نرى شاعراً يكثر من استعمال الأفعال فيتحرك شعره ويهتز ايما اهتزاز . ونرى شاعراً لا تعرقل معانيه سير قصيدته ، فهو يرصف الكلام ، وعلى هذا الكلام أن يؤدي المعنى كيفما اتفق. نرى شاعراً يساير طبعه ولا يخالفه بأمر ، وطبعه يمده بهذه الرنة وإذا كان الشعر رقصاً ، كما حدده أحد الفرنجة ، فشعر البحتري هو « الدبكة » ، الرقصة المعروفة. وما رأيت أبا العلاء المعري قد تجاوز الحد حين سمّى شرح ديوان البحتري : عَبَث الوليد . وإذا كان الشعر كما يزعمون لذة عارضة ، لا معاني ، فشعر البحتري هو الشعر ، لانك تخرج من قراءته كالشعرة من العجين ، اللهم إذا استثنينا ما ذكرت لك . والذي يلوح لي أن البحتري لم يقرأ كتاباً من كتب زمانه – وإن جمع ديواناً . مات الجاحظ في عهده ، ونعي إلى الخليفة فتلهف حتى كاد يبكي على رجل الجيل ، بينا نرى البحتري يكاد لا يشعر بموت أبي الأدب العربي ، ولا يعنيه أن يرثي غير مجزيه .

والخلاصة عندي ان قول البحتري في ابي تمام : مدّاحة نوّاحة ، أكثر انطباقاً عليه هو منه على ابن عمه . في مدح أبي تمام ونوحه عبر منثورة ، وحكم ناصعة ، بينا كل شعر البحتري خالٍ إلا من ألفاظ تُستلذ منفردة ومجتمعة وان لم يكن تحت تألّفها طائل. لا يعني هذا انني اشايع ابن الرومي إذ يقول فيه :

رُقَى العقاربِ أو هَذْرُ البُناةِ إذا أضحوا على شعف الجدران في صخب[1]

لا يا جورجيوس ، ولكنه كالموسيقى تطربك وان لم تقل شيئاً تقوله فيها أو ترويه عنها .

---

(١) شعف الجدران ، أراد بها : أعلى مكان منها .

رَأسٌ ضَخمٌ



نسب المتنبي وهجرته

« مالىء الدنيا وشاغل الناس » كلمة قيلت في ابي الطيّب فسارت مع الدهر . ثم انقضى ألف عام ، والناس ، كما كانوا في عهده ، رجلان ، واحد عليه وآخر معه .

فتناوه بحثاً وتمحيصاً وما انكشفت لهم صفحته. وكانت ذكراه الألفية منذ اعوام ، فاشترك في تمجيدهـا من يُعنون بالادب العربي في الشرق والغرب ، فصدرت كتب عديدة اضخمها كتاب للاستاذ طه حسين – دكتور في الآداب– عنوانه : « مع المتنبي » ، تربي صفحاته على السبعمائة ، وهو خمسة فصول ، وان شئت فخمسة كتب كما سماها الاستاذ افتتح المؤلف الكتاب الاول بفصل يقع في ثماني صفحات مآلها ان طه قال كارها لصاحبه ان يصطحب المتنبي . ثم خبرنا كيف اخـذ ذاك الصاحب يعبّىء الكتب والدفـاتر والكراريس ويرزمها ، وكيف نهاه او تقدم اليه في ان يكتفي بايسر طبعة من طبعات المتنبي ، الى غير ذلك من احاديث تعوّد طه ان يسدّ بها الفراغ ويملأ الصفحات.

ثم يقول لقارئه في الصفحة السابعة : « وقل انه كلام يمليه رجل يفكر بما يقول ، وقل انه كلام يهذي به صاحبه هذياناً » . فقلنا انه كلام بين بين ، يغلب فيه الهذيان على التفكير ، فهو كالليمون اليافيّ قشرُه اكثر من لبّه . وهذا شأن الدكتور في اكثر ما يكتب ، يغمّط الكلام ويمطّه كالعلكة ، فطوراً تراك امام حسناء فلا تتكرّه ولا تتقزّز ، وتارة تجدك امام عجوز تكره محضرها ، وتسأل الله الفرج .

ان طه في صناعـــة الكلام اقدر المعاصرين على التخمير ، فعجينه يرفخ

ويطفطف، فتحسب المعجن يمونّ البيت شهراً، حتى اذا مُدت الأيدي الى الزاد عرفت ان هذا العيش هش" كـ « كرابيج حلب » .

ابتدأ عميد كلية الآداب بتشريح المتنبي حلّة ونسباً ، فأنكر أباه وجدّه، ثم سلّم اخيراً ان للمتنبي أباً وجداً ، فحمدنا الله وقلنا استرحنا ، كما قال البهاء زهير في الشيخ الامام .. ولكنه عاد الى « عبدان السقاء » والد المتنبي فشرع يتنقل على شجرة نسب الشاعر يفلت غصناً ليتعلّق بآخر، حتى تمسّك بكلمة « الكِذّاب »[1] ولم يفلتها الا بعد جهد :

ان « الكذاب » الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقله

فظن ان هذا «الكذاب» يتصل بنسب المتنبي ، وهذا شأن طه في « أكبر ظنونه » كلها كما سترى ثم ترك أبا المتنبي ليفتش عن امه ، « ولكن الخطب في أم المتنبي أعظم من الخطب بأبيه ، فالمتنبي يسكت عنها كما يسكت عن ابيه ، والرواة لم يذكروها » .

حقاً انها مصيبة كبيرة امتُحن بها الأدب العربي أجيالاً وحقباً ، فجاء طه اليوم يكشفها عنه ، جزاه الله خير الجزاء . كيف لم يذكر المتنبي أمه ؟ هذه بدعة ! اذن المتنبي لا امّ له ثم انتقل الى المرحوم جدّه ، فوقف عند هذا البيت ليشكّ وليشك فقط :

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباكِ الضَّخمَ كونُكِ لي أمّا

فاستنتج ان المتنبي يشكّك في نسب جدّته بعض التشكيك لانه قال هذا البيت « الذي املاه الغرور وصاغته الكبرياء » ، ثم قعد يطالبه بذكر ابي جدته الذي كان اكرم الناس ، فمن هو هذا ؟ وما اسمه ؟ ولماذا لم يسمه لنا؟ الى غير ذلك من تساؤل بارد .

---

(١) الكذاب : الكلب .

مسكين ابو الطيب ، فهو من طه في جهد جهيد . ان يقل عيّره بالغرور والكبرياء ، وان سكت أحرجه ، ولكنّ المتنبي كالجاحظ عنده ألف جواب مسكت .

متى كان الشعر موطن التراجم يا ترى ؟ ان « متى » وحده كتب الجيل السلسلة ، وكثيراً ما كانت تضحكنا قراءته ، فهل مثل هذا ما يطلبه طه من المتنبي ، وهل كنا نصبر عليه لو نظم لنا سيرة تلك المستورة ؟ أما ضقت به يا دكتور لأنه ذكر جده ، وتساءلت من هو هذا الذي كان أكرم الناس ؟

وهكذا يسوّد طه عشراتِ الصفحات مفتشاً عن لا شيء ، ثم لا يظفر بشيء الا الشذوذ الذي رآه في حياة المتنبي فعزاه الى ضعف اسرته . نحن مثلاً نرى في حياة طـه شذوذاً – ومن تخلو حياتـه من شذوذ ؟ – فلماذا لا نعزوه الى شيء من هذا ؟ ولماذا لا نطالبه باسم امه وقد ورد ذكرها مئات المرات في « الايام » ؟ لماذا لا نسأله عن اسم ضيعته ؟ لماذا لا نسأله عن اسم ابيه – ذكره مرة ؟ بل لماذا لا نسأله عن اسم جده البغيض اليه ، ذاك الجد الذي « صلـّى ونسك حين اضطرته الحياة الى الصلاة والنسك » ؟ فهـل في هذه الاسماء ما يستحي منه ؟ وهل لنا ان نسأله هذا السؤال البليد ؟ ثم هل يكتب المتنبي « الأيام » ليخبرنا ايضاً انـه كان له عمّ يغضب وينهره ويلحّ عليه في تكبير اللقمة ؟ (الايام ص ١٩) . يستظرف هذا في كتاب كالأيام ، ولكنه يقبح في الشعر ، والمتنبي شاعر ما ينبغي ان يفوته هذا . ليست القصائد مثل « مكاتيب المهاجرين » لا ينسى صاحبهـا ان يُسلـّم على كل واحد من الضيعة لئلا يعتب عليه ، ولذلك يسلـّم على الجميع .

اما هذا « الكذاب » الذي شغلَ بالَ الدكتور ؟ فما الذي يدلّ على انه يتصل بالنسب؟ ولماذا لا يكون شيئاً من تلك الوشايات التي كانت تغمر قصور الامراء ؟ ففي اعقاب هذا البيت ما يشير الى ذلك . واكبر ظني ، كما يعبّـر

طه ، ان المتنبي يتيم الأم ، فهو يتألم من هذا اليتم ويذكره ويتوعد الناس به :

كأنْ بليهم عالمونَ بأنني جلوبٌ إليهم من مَعادنِه اليُتْمَا

واكبر ظني ايضاً ان المتنبي لم يترك الكوفة لضعة نسبه او لغمزة فيه ، بل أراه صبياً نجيباً طمّاحاً هاجر ككثيرين من شعراء العرب ، تاركاً في الكوفة تلك الجَدّةَ التي كانت له جدةً وأماً . فرافقته ذكراها في هجرته ولم يذكر امه لأنه لم يعرفها . اما هجرته فكهجرة طه نفسه من الريف الى العاصمة . اما نكباته فسببتها له نفسه الوثابة ، وعند طه من ذلك كل الخبر. فلماذا يتلمس هذه الاسباب ، أليدرس المتنبي على ضوئهـا ؟ فلندع « تين » مستريحاً في قبره .

يطلب طه اليوم من المتنبي ان يكون نسّابة كخلف الاحمر ، كما طلب امس من امرىء القيس ان يكون « جغرافياً» كابن بطوطة ، واذ لم يفعل محا ذكره . فلو كان امرؤ القيس قد وصف القسطنطينية كما اراد طه ، فمن كان يروي لنا هذا الشعر والرجل مات في الطريق؟ ثم أهُوَ خليّ ليقول شعراً في وصف القصور ؟

هكذا يتمنطق طه وهكذا يُصدر احكامه ، ولولا انـه يضلل القراء ويشغلهم في تعابيره التي يركب بعضها بعضاً كالجراد ، لمـا قلنا شيئاً ، ولما نظرنا في كتابه « مع المتنبي » ، فحظه الفني فيه ضئيل جداً .

يقف بنا طه عند « ميمية » المتنبي في رثاء جدتـه ويسألنا ان نقرأها « قراءة المستأني المتمهل الذي لا يمر بالشعر مراً ، والذي يشغله الجمـال الفني عن التماس نفس الشاعر » ، فقرأتها مطيعاً ، ثم وقفت لأسمع ما يقول فاذا به ينشغل بهذا البيت :

هَبيني أخذْتُ الثأرَ فيكِ من العِدَى ،

فكيْفَ بأخذِ الثأرِ فيكِ من الحُمّى ؟![1]

(١) ماتت جدة المتنبي على أثر رسالة وصلت اليها منه فانفعلت سروراً حتى حمت وقضت عليها الحمى .

يتساءل عن هؤلاء الأعداء من هم ، وعن تلك المساءة ما عسى أن تكون. ويمضي في البحث على سننه كما ورد في قرآن المتنبي متوهماً أن هناك أعداء معلومين للشاعر ، مع أن هؤلاء العدى وهميون كأعداء طه عينه في «الأيام»، فهو يقول لكريمته (ص ١٣٣) : « وكيف استطاع أبوك أن يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة ؟ » فهل يقول لي طه من هم هؤلاء لأقول له بدوري من هم أعداء المتنبي ؟

الشماتة مفروضة عند العرب، فاذا تذكر الدكتور ان معاوية قال لأصحابه في مرض الموت : حنّطوني ، واصلحوا من هندامي لئلا يشمت العُوّاد بي ، أدرك ان هؤلاء « العدى » هم هم في كل زمان ومكان ، فما أعداء المتنبي إلا كالأعداء في كل قرية . أكثرهم يا دكتور كذلك الشيخ الذي غاظه انتخاب أخيك الأزهري خليفةً يوم عيد المولد . فإذا أردت أن تقول شيئاً فهات غير هذه البضاعة . اننا نرجو منك شيئاً يلامس فنّ المتنبي ، معه وعليه ، فقرّبنا من جوه على الأقل .

ويشغل طه نفسه بغربة المتنبي فيقول : « وهو تغرّب لأنه لم يكن يقبل حكماً إلا لخالقه ، وما معنى هذا ؟ معناه في أكبر الظن أنه تغرّب منكراً للحياة الكوفية » .

الله اكبر يا استاذ ! معناه كما تغربت انا وانت ، لا اكثر ولا اقل . انني عاتب عليك اكثر من عتبك على المتنبي ، ولكنني لا اسألك عن حسبك ونسبك ، فهذا لا أشك فيه ، ولكن لماذا لم تسمّ لنا تلك الضيعة؟ فقد يقوم — بعد العمر الطويل — من يتساءل تساؤلك . أما قول المتنبي : « ولا قابلاً إلا لخالقه حكما » ، فلا يعني أن هناك من لا يقبل حكمهم ، بل هذا كقول القائل : أنا لا أخضع إلا لربي . خفف عنك فقد صح بك قول المتنبي : إذا رأى غير شيء ظنّه رجلا .

أما ان المتنبي ضيّق بالحكم المستقر بالكوفة ، راغب في تغييره ، فهذا لا نشك فيه ، هذا شأن كل نابغة ، أما ضقت أنت بانظمة الأزهر وغيرها ؟

ليس المتنبي ثائراً على نظم الكوفة فقط بل على نظم الدنيا كلهـــا . اننا نسلم ان صبا المتنبي لم يكن عادياً ، أمـا الطفولة فلا أدري انها تكون عادية وغير عادية ، مألوفة وغير مألوفة كما قلت عن طفولة المتنبي ، بل لا استطيع أن أفهم أن بين الطفولات اختلافـاً إلا إذا كانت كطفولة عيسى الذي كلّم الناس في المهد... أو أن تكون عثرت على اسطورة كالتي لهوميروس وغيره.

ويعود طه مرة أخرى إلى « الكِذاب » وربما عـاد اليها مرات ، أما أنا فقد فرغت منهـا ، وسأضرب عنها صفحاً لئـلا ابلوك بتكرار كالذي ننماه على طه .

وينتقل طه إلى رقم ٤ فيصف الحياة العراقية ويبيّن فسادها ثم يستنتج : « واكبر الظن أن مولده - المتنبي - كان اثراً من آثار هذا الفساد العظيم أو انه لم يخل من تأثر بـــه على كل حال » . فمن يقول لنا كيف يكون - وفي اكبر الظن ايضاً - مولد طفل اثراً من آثار الفساد ؟ فهذا لا أفهمه كما لم أفهم الاختـلاف في الطفولة ، ولكنني فهمت جيـداً ان الدكتور يسعى في اطفال الحاجات ...

ويرافق طه المتنبي إلى المكتب فيرى انه تلقـّى فيه اصول الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين - وهذا مـا رواه الأقدمون . وقد قال طه كلمة لو أمعن فيها لما طالب المتنبي برثاء امه. قال : ان اختلاف المتنبي إلى المدرسة العلوية لا يدل عندي على امتياز ولا استثناء، إنما يدل على الاتجاه الديني الذي وجـّه اليه،ويدل على ان الذين كانوا يكفلون الصبي كانوا من الشيعة العلويين».

فهذه « الكفالة » التي زعمهـــا تنفي ان يكون مولده اثراً من آثار ذاك الفساد العباسي... كما ان تلك الجدة النبيلة التي قال فيها أبو الحسن محمد بن علي العلوي : « وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها، وكانت

جارتنا، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات». ان هذه الجدة تخلع على ابي الطيب شرفاً، وهو لا يسقط من عيني إذا فقد هذا الشرف، وتمّ لطه ما لم يجرؤ على التصريح به .

إن حياة فجرُها َفقْدُ الأم، وضحاها موت الاب، تربدُ آفاقها، ويسخط صاحبها على الناس فيراهم كأنهم اساؤوا اليه ، ومن فقـد حنو الأم فقد شيئاً كثيراً . إلى القرائن وإلى هذا نعزو شذوذ المتنبي

هذا تمهيد طه لدرس شعر المتنبي في صباه . وبحذر عظيم منحه العروبة ، مع ان الاميركان يمنحون جنسيتهم مهاجراً عربياً قضى خمس سنوات في بلادهم، وقد يكون هذا ممّازاً ... أمـا ماذا ظهر للأستاذ بعد هـذا البحث فثلاث خصال : ١ – الصبي مقلّد في الفن الشعري، ٢ – أن شعره شعر صبي متشيع للعلويين ، ٣ – أن هذا الشعر ، شعر صبي ، لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة. ثم أضاف خصلة رابعة ، وهي ان هذا الصبي كان طويل اللسان شيئاً ما، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم للهجاء . رهنا يتفضل عليه طه بشيء من الثناء فيقول : « وكل هذه الخصال تدلنا على ان الصبي قـد كان ممتازاً حقاً ، فليس قليلا على صبي لم يكن يتجاوز العاشرة ان يقول شعراً يروى » .

اني اعجب للدكتور كيف مرّ بهـذه « السنّ » مطمئناً ، ولكن طه بك يشكّ ساعة يستحلي ، ويصدّق ساعة يريد . أما شعر المتنبي، في هذا الدور، فشعرٌ نغل يدل على ان « الصبي » يصير شاعراً ، وانـه دارسةُ كتبٍ حفظ شعراً كثيراً َطبَعَ على غراره ، فلا تشيُّعَ الآن ولا قرمطة ، بل تلك اخلاق صبياننا المتمرنين أنمتها روح شعرائنا القدمـــاء الذين رأوا الموت على الفراش عاراً وسبّة . وأما مدح المتنبي قرمطياً أو علوياً فلا يعني انه تقرمط، ولكننا سنماشي طه ، وشرط المرافقة الموافقة



شعر الصبي

تناول طه البيتين اللذين افتتح بهما ديوان المتنبي :

بأبي من وددتُه فافترقنا   وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولاً ولما التقينا   كان تسليمُه عليّ وَداعا

وأغرق في شرحها فسوّد صفحة ليشرح فكرة الصبي ، وأخرى لينتقد تعبيره ، واستنتج بعد اجهاد الفكرة « ان الصبي أراد أن يقول « أحببته » فلم يستقم له الوزن ، والتمس ... فلم يجد إلا « وددته » هذه » .

قلت : لو سمع المتنبي لقال للدكتور ما قاله لابن خالويه في ذلك الزمان : اسكت ، ليس هذا من علمك . استغفر الله ، فطه لا يجهل العروض ولكنه نسيه . أما قال في « الأيام » انه نظم ؟.. أليس له في « القصر المسحور » منظومة على الشين ؟.. قل هذه غلطة ، وجلّ من لا يغلط .

والذي عندي ان أبا الطيب لم يقل « أحببته »، وهي لا ترجح الميزان لو وضعها ، خوفاً من أن يحصى في رعية أبي نواس... وهو يربأ بنفسه أن يرعى مع أولئك. رأى وددته أحسن حالاً ففضلها وزالت الشبهة . أما لماذا أحبّ طه هذين البيتين فللناس فيما يعشقون مذاهب ، وهذا لا يعنينا . ثم انتقل إلى الأبيات الثلاثة : أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني ، فقال فيها ما قاله في البيتين الأولين ، واعترض على « أسفاً » ، زاعماً انها كلمة أتت لتقيم الوزن ليس إلا . فردّ عليه صديقه العقاد وأرشدنا إلى معرفة الكلمة النابية - فقال نفعنا الله « بضوابطه » التي كنا نقرأ مثلها في كتب الحساب العتيقة :

« وعندنا – أي عند عباس محمود العقاد – ان الطريقة المثلى لتحقيق

الكلام الذي تجيء بـه ضرورة الوزن ان تحذف الكلمة وتنثر البيت وتنظر بعد ذلك إلى قوة المعنى أو قوة الأثر . فان بقيت للمعنى قوته وبقي له أثر ، فالكلمة المحذوفة حشو لا موجب له غير اقامة العروض . فهل « أسفاً » في الشطرة التي عابها الدكتور من الكلمات التي يصدق عليها هـــذا القياس ؟ لا نظن » (هلال مارس ١٩٤١) .

قلت : ان دلّ هذا الكلام على شيء فعلى اخراج العقاد خرائده الخالدات من خدرها ، وعلى مقاييس النظم والفن عند الاستاذ الجليل ... فهل «اسفاً» الزائدة الدودية لتحتاج إلى لجنة اطباء ؟

ويرى طه ان المتنبي وفق إلى شيء من الموسيقى إذ جمع بين الهوى والنوى. قلت : لو قال المتنبي مثلاً : أبلى الهوى اسفاً يوم النوى شغفا أو سغفا ، ماذا كان فعل الدكتور ؟ كان رقص بلا شك .

ثم تخطّى إلى البيتين اللذين قالهما الشاعر في « وفرته » [1] :

لا تحسن الوَفرةُ حتى تُرى منشورة الضَفرين يوم القتالْ [2]

على فتىً مُعتقِلٍ صَعْدَةً يعلّها في كل وافي السبالْ [3]

ويشغل طه في هـــذا الكلام « الملتهب شوقاً إلى الحروب ورؤية الدم المسفوك » ، ثم يتساءل : أفهل كانت الوفرة التي استحسنت له وفرته هو ؟ أو هل كانت الوفرة وفرة تِرْب من أترابه في المكتب ؟ وبما انه ترك لنا حق الفهم نقول : ان الوفرة وفرة المتنبي لا غيرهـا ، والشطر الأخير موجه إلى شيخه الذي استحسنها ، وفوق كل ذي علم عليم ... ثم وقف طه عند هذين البيتين ليقيمها دليلاً على القرمطة ويشمّ فيها ريحها ، ولكن هذا بعيد .

وانتقل إلى أبياته في «الجرذ المستغير» فرأى — وقد أصاب — ان في هذه الأبيات الاربعة سحراً لاذعاً وخصوصاً في البيت الأخير :

---

(١) الوفرة : ما سال من الشعر على الأذنين . (٢) الضفر : ما ضُفِرَ من الشعر .

(٣) الصعدة : القناة ، كنّى بها عن الرمح . يعلها : يسقيها . السبال : هنا : الشوارب .

وأيُّكما كان من خَلفهِ فإن به عَضَّةً في الذَّنبْ

أما ان المتنبي يلوّح فيها إلى أحوال القرامطة كما توهم الدكتور، فهذا بعيد جداً. وأقرّ طه للمتنبي بالسخر فقال: «فلن ترى سخرية ألذع من هذه السخرية ولا هجاء أمضّ من هذا الهجاء»، ثم أنكر عليه السخر في مصر لا لشيء إلا مخالفة الاقدمين. ونظر في هجو المتنبي للقاضي الذهبي فرأى ان هذا البيت :

سُمّيتَ بالذهبيّ اليــــوم تسميةً مشتقةً من ذهابِ العقلِ لا الذّهبِ

مطبوع على غرار أبي تمام «والحرب مشتقة المعنى من الحرب»، وان الصبي يتجه بعض الاتجاه الى مذهب ابي تمام، وهذا ما سنعرض له جملة لا تفاريق لان الاستاذ حوّم حوله كثيرا.

اما خروج المتنبي الى البادية فلا يدري طه «أرحل يستفيد علماً وصحة أم ارتحل اليها التماساً لهذه البيئة القرمطية؟» ثم لا يقطع بشيء، ويرى «ان رحلته افادته من الناحيتين: ربا جسمه ونما عقله وفصح لسانه، وتعلم اصول القرامطة وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معاً». اننـا ننكر تعلمه اصول القرامطة، ونسلم بمعرفته مذاهبهم كما يعلم الطلاب المصريون ما يعلمون عن باريس. فما خرج المتنبي الى البادية الا ليتسنى له القول في حفظه لكلام العرب:

أنامُ مِلْءَ جفوني عن شوَاردِها ويسهرُ الخلقُ جرّاهـــا ويختصمُ

وحتى يقول فيه ابو علي الفارسي ما قاله. واستدلّ طه على قرمطة المتنبي بقوله :

الى أيّ حينٍ أنت في زيّ مُحرِمٍ؟ وحتى متى في شِقوةٍ؟ والى كمِ؟
وإلا تمُتْ تحتَ السيوفِ مُكرّماً تَمُتْ وتقاسِ الذّلَ غيرَ مكرّمِ
فثِبْ واثقاً بالله وثْبةَ ماجدٍ يرى الموتَ في الهيجا جنى النحلِ في الفمِ

فقلّبت هذه الأبيات ظهراً لبطن لاظفر منها بدليل على هــذه القرمطة المزعومة، فما فتح الله عليّ بشيء. ما اخال المتنبي قرمطياً الا في مشيته..

فان رضي طه بهذا فقط اتفقنا . اما هذه الابيات التي نفث من رأسه كل شك فما أرتني انا الا شاعراً يمدح رجلاً بما يحب ان يمدح به فقال له :

يا أيها الملكُ المصفّى جَوهرا من ذاتِ ذي الملكوتِ أسمى من سمي
نورٌ تظاهرَ فيكَ لاهوتيُّه فتكادُ تعلم عِلمَ ما لن يُعلما

وهذا في نظري كقول ابن هانىء لواحد من هذه النحلة :

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القهّارُ

فماذا نفعل بهؤلاء القرامطة ؟ هكذا يعتقدون . كلهم آلهة تمشي على الأرض . أما إلحادُ المتنبي في هذه الأبيات وغيرها فلا شبهة فيه، وقد اصاب الدكتور بقوله : « وهذا الكلام وحده صريح في انحراف المتنبي عن الجادّة الدينية ، واندفاعه الى هذا اللون من ألوان الفلسفة التي هي الى الالحاد أقرب منها الى أيّ شيء آخر » .

ان شعر المتنبي ، في كل طور من اطوار حياته ، يدلنا على شكوكه ، ولكن هذا غير القرمطة . المتنبي صبا الى ما هو ابعد منها، فلماذا نضيّق عليه؟ هبْ اننا اكتشفنا هذه القرمطية فهي لا تسوى قرشاً مثقوباً يا دكتور . المتنبي أوتي عقلاً حراً طليقاً وعرف مذهب ديكارت قبل وضعه ، وقبل اعتناقك له في الأدب . المتنبي مشكك وليس الشك للعوامّ . تدرّج تدرجاً فدغدغ المعتقد في داليته وسينيته — والالحاد لا يضير الشعر كما قال صاحبُ يتيمةِ الدهر ، منذ الف عام — ثم وقف في البائية [1] موقف المنافق فقال : تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ، الخ . واخيراً صرّح من بعد تهدار فقال :

تبخلُ أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هنّ من كسبهِ
فهذه الأرواحُ من جوّه ، وهذه الأجسام من تربهِ

فقل معي يرحم الله سليمان الحكيم القائل قبله : من رأى روح الانسان

(١) أراد بالبائية ، القصيدة ، التي نظمها المتنبي في رثاء خولة أخت سيف الدولة .

صاعدة الى فوق ، ومن رأى روح البهيمة نازلة الى تحت ، باطلة الاباطيل وكل شيء باطل . وعلى القرمطية السلام .

ان الجزء الذي يستهلكه الضمير من عقولنا يبقى سالماً عند النوابغ ، وهو الذي يقوّي تآليفهم . والمتنبي من هذا الضرب ، فليكن هذا النور هادينا في درسه . امـــا اذا صح مذهب فاليري في النصوص ، والدكتور يخمع وراء هؤلاء ، كان طه على حق ، وكان المتنبي قرمطياً ، علوياً ، اسماعيلياً ...

يرى فاليري « النص اشبه بآلة التصوير يستطيع كل واحد ان يستعملها حسب ذوقه وحسب طرقه »، ولكن لا تنس ان فاليري ابو الاغاليط، وان هذا المذهب قـد ينطبق على شعره ، ثم على شعر مقلديه من الرمزيين المنحطين الذين صيّروا الشعر كالطبل ... أما عندنا فلسطيح وشق" اثمار أكبر حظ من مذهبه هذا . وكأني بالمتنبي كان « فاليريا » يوم سئل كيف تقول : بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا ، فأجاب : اسألوا الشارح ، أي ابن جنّي .

ويعود طه القهقرى ليتناول « أهلاً بدار سباك أغيدها » ، والذي يقوله فيها كأكثر مـــا سيقوله في شعر الصبي . وهو يلخّص بكلمتين : طباق ، مبالغة ، وإن زاد على هذا فتنافر الحروف الذي يعبّر عنه بالفأفأة، والقفقفة ، والدأدأة ، ورقس البواقي ، كما يقول النحاة . لا يخرج في كل هذا عن الدائرة التي رسمها الجرجاني صاحب الوساطة بقوله : « وأنا أرى لك ان كنت متوخياً العدل مؤثراً للانصاف أن تقسم شعره — المتنبي — فتجعله في الصدر تابعاً لأبي تمـــام ، و ... الخ » ثم يؤيد ابن الأثير هذا الرأي فيقول في مثله السائر : « أراد المتنبي أن يسلك مسلك أبي تمـام فقصّرت عنه خطاه » . وعلى هذه الطريق المعبّدة تمشى طه حتى جعل الطباق قريباً وبعيداً (ص ١٠٨) .

قال المتنبي في هذه القصيدة واصفاً نصْـله :

لا ناقتي تقبلُ الرّديفَ ولا بالسوط يوم الرهانِ أجهدُها
شِراكُها كورُها، ومشفرُها زِمامُها، والشسوعُ مِقودُها

فيرى طه كما رأى الثعالبي ، فالعكبري ، ان هذا من قول ابي نواس :

اليك أبا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الحضرميَّ الملسَّنا

ولم يدرِ الثعالبي والعكبري ، وطه في آخر الزمان ، انه لا أخذ هنا . فكلنا نمشي وكلنا ننتعل ، وشتّان ما بين القولين . فحذاء أبي نواس جورب نبيل ، حضرمي ملسّن كالخف الأحمر الذي كان يلبسه المشايخ وكان سبب ثورة كسروان سنة ١٨٥٨ . أما نعل المتنبي فمداس مقطّع . وإذا فرغنا من أمر هذا المداس نرى ان وصفه الجلي عن حقيقة تاريخية عرفها طـه وهي ان المتنبي جاء بغداد ماشياً ... والعهد بطه أخرجه من الكوفة داعية قرمطياً . كأنني أسمع أبا الطيب يحتج علينا قائلاً :

قِفَا قليلاً بهـــا عَليَّ فلا أقلَّ من « جحشة » أزَوِّدُها

وإذا كان الاستنتاج كما رأينا فلماذا لا يستنتج الاستاذ من هذا البيت :

أشَدُّ عصفِ الرياح يسبقُه تحتيَ من خطوِها تأوُّدُها

ان المتنبي يقلد الشنفرى ويسرقه وهو يريد ان يحصى في العـدّائين والصعاليك ؟..

والقصيدة بوجه عام في نظر طه كشعر القدماء في التفكير، وكأبي تمام في التعبير ، فأصاب في الرمية الاولى وأخطأ في الثانية. ورأى أيضاً ان القصيدة « تنحدر انحداراً يوشك أن يكون عنيفاً ، والسبب هـذا البحر الذي تظهر فيه السرعة والانحدار، ثم القافية الدالية وهي قوية متينة، والهاء المطلقة تصور الرحب والسعة » . نعم ان هذه الهاء تصوّر شيئاً من ذلك وتقتضينا فتح فم كما قال الخليل لبنته ، ولكنها كثيراً ما أتت معلقة بالبيت كما تتعلق بعض العنات بذنب الهر فتركضه . جعل طه كل وكده في هذه القصيدة فأدرك ما أدرك . لم يفته إلا الذي تعمّده فيها المتنبي وهو ريح البداوة، فهذه الالفاظ : خرعوبة ، وقردد ، وربحلة ، وجحجاح وغيرها من بضاعة البادية ، يعرضها

الشاعر اظهاراً لعلمه وفنه، وما عليه لو خبط فيها قبل أن يبلغ الشام ويمتلك الذوق - لا تنس هذه الكلمة .

واستدل طه على شيء آخر له قيمته التاريخية « فالشاعر لم يمدح رجلاً من رجال الحكم وانما مدح رجلاً علوياً » وانه محتفظ بمذهبه السياسي ، أي القرمطة » أرأيت هذا البرهان؟ لا أدري كيف يصل هذا الشاب إلى رجال الحكم ليمدحهم؟ أما رأينا الشعراء قبله يقفون سنين بباب الأمير ولا يدخلون القصر ؟ ولكن توهم القرمطة لبّس على الاستاذ مسالكه وكأنه لو وجدها ملك البصرة. ان العناد الأدبي يضلل الاستاذ كثيراً ، وربك يهدي من يشاء . وبعد هنيهة ينسى الاستاذ ذاك المذهب السياسي فيرجح خلافاً لما ظن بلاشير ان اقامة المتنبي في بغداد لم تطل ، وانه لم يمدح العلوي إلا ليستمين بنائله على الرحيل ، والدليل عنده على قِصَرِ الاقامة ان المتنبي لم يصف « المشاهد التي شهدها في دار السلام » .

كثيراً ما يتوكأ الاستاذ على هذه الحجة في مَهَامِه الانكار ، ولكنها خيزرانة لا تصلح الا للهشّ . ان بضاعة الوصف لم تنفق في ذلك العصر ، وللمتنبي هدف ، فهو لا يدلو إلا بما يصلح مستنداً . ثم يرى ان المتنبي كان شاعراً دواراً لا ينقصه إلا رَبَاب ، يمدح حتى الأوساط والفقراء . أوحى إلى الاستاذ بهذا قول صاحب اليتيمة « يمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركي والعندليب ».وليس هذا مضمون كلام الثعالبي . ثم يرى وهذا أغرب الآراء: ان الشاعر كان يجعل هذا المدح وسيلة لتبيّن استمدادهم للقرمطة،وهو يعيش في الحالين بما يأخذه منهم اجراً .

ويبلغ الشاعر سوريا ، حافياً أو منتعلا أو راكباً لا ادري ، فلم يوح إلى الاستاذ بشيء من هذا، ولكنه عدّد لنا من مدحهم ليقول: ان المتنبي لم يذكر البحتري، حين مدح الطائيين احفاده ، لأنه يمن في قراءة شعر المحدثين وأدب

البلغاء ، ويدّعي مع ذلك أنه لا يقرأها ولا يحسن العلم بها ، حتى افتضح في ذلك كما جاء في الصبح المنبي .

الجواب على هذا : من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر .

وبلغ مدح مساور فقال : « ويرى الاستاذ بلاشير والدكتور عزام انـه لم يمدح مساوراً إلا في وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق ، والدالية تؤيد هذا الرأي . ولكنني مـع ذلك أميل إلى ترجيح ما قدمته ولعله مدحه مرتين » (ص ١٠٤) .

قال أبو علقمة : كان اسم الذئب الذي أكل يوسف رجحون. فقيل له: ان يوسف لم يأكله الذئب ، وإنما كذبوا على الذئب ولذلك قـال الله عز وجل : وجاؤوا على قميصه بدمٍ كذِبٍ قال: فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف: فطه يريد أن يكون له « قول » ولو مثل قول ابي علقمة الجاحظ .

ها قد اشرفنا على قصيدة قتلها القدماء درساً وشرحاً ومطلعها :

أحيا ،وأيسرُ ما لاقيتَ ما قتلا والبينُ جارَ على ُضعفي وما عَدَلا

قال طه في أول كتابه انه اخذ معه ابسط نسخة من ديوان المتنبي ، وأنا أزعم له ان شيخنا العُكبَري زار في « المعية » جبال الالب . فاكثر الأشياء التي رأيتها في « مع المتنبي » تثبت ذلك ، فهـل احرج ان شككت ؟ أليس طه يبيح الشك ويريدنا عليه ؟ فهذا الاتفاق أكـّد لي ان طه هيأ الرفيق قبل الطريق ، ولهذا رأيته في كتابه هذا مكبّراً فوتوغرافياً ، أو رساماً – بالقلم الرصاصي – أخذ في نقد المتنبي بأقوال العرب ، وفي تاريخـــه بقول بلاشير وجبريلي . أما النقد الذي حاوله شخصياً فما صحّ منه نادر، إلا الذي من باب الطباق وتنافر الحروف والمبالغة وغـيرها من الهينات ... اليك مثلاً قوله في أحيا وأيسر ، الخ ... » قال : « دار المتنبي حول هذا المعنى ولم يستطع أن يؤديه إلا في شيء من التكلف،فاصطنع هذا الفعل – احيا – في أول البيت».

فماذا يضر الابتداء بهذا الفعل ، أنكرة هو ؟ ولا يجوز الابتداء بالنكرة ...
أم قيل لهذه اللغة الدربَ الدربَ فلا تحيد عنهـا ؟ أتريد تعابير كالحدود !
فالحدود، وهي من وحي الله، تغيّرت بتغير الزمان والمكان، فإذا كان الاستاذ
يحظر الابتداء بهذا الفعل فليفترض الهمزة كما افترض القرمطية . اتسقط السماء
على الأرض لو أسقط المتنبي هذه الهمزة ؟

وينتقل طه إلى الشطر الثاني « والبين جار على ضعفي وما عدلا »، فينتقد
القافية ويرى انها « عتلت إلى مكانهـا عتلاً » . اننا نحيـله على العكبري ففيه
كلام من تمثّل لها بقوله تعالى: اموات غير احياء. لماذا ينقل طه الطعن ويترك
البراءة ؟ ويصل إلى « شيب الكبد » وإلى « الطفل الذي ما سعلا » فيكرر
أقوال الموتى في هذه الأبيات التي هي من الخُـمْـس الدون من شعر المتنبي. وقبل
أن ادع هذه القصيدة أحب ان اعرض عليك نموذجين من نقد طه الفني .

قال المتنبي :

بما بجفنيكِ من سحر ، صلي دَنِفاً يهوى الحياة،وأما إن صددتِ فلا

قال طه :«فستنكر هذا الاستعلاف الذي يفجأك بهذه الباء تليها باء أخرى
لا يفصل بينها إلا هذا الموصول، وهو حاجز غير حصين، كما يقول النحاة. ثم
اقرأ البيت فسترى قصوراً في الاداء لم يستطع الشاعر ان يخلص منه فاضطرّ
الى الحذف والى الاضمار ، فهو يريـد ان يقول لصاحبته : صلي دنفاً يهوى
الحياة ما وصلته ، فأما ان صددت عنه فلا يهواها »

ألا تعجب معي لهذا الذوق ولهذا العلم ، بل لشيخ أزهريّ كالأستاذ قبل
ان تدكتر ؟ ألم يقل العرب : خير الكلام ما قلّ ودلّ ؟ أليس الايجاز خصلة
عربية بدوية في الملبس والمسكن والمأكل والمشرب والكلام ؟ فكيف لا يرى
هذا « الاكتفاء » الذي عدّوه من ضروب البديع ، ثم يرى السجع ، وهو
آخرها ، فيستحسنه ، ويسمع موسيقى ساحرة حيث يلائم المتنبي بين كلاب
وتراب وجناب ؟

ويقول المتنبي :

لولا مفارقةُ الأحبابِ ما وجدت   لها المنايا الى أرواحِنا سُبُلا

فيحتج طه على الاضمار قبل الذكر ، ثم يقول : « وانا اعلم ان هذا ليس خطأ ولست اذكره لذلك ، وانما اذكره لاضع يدك على الجهد الذي يبديه الصبي في اقامة شعره » .

وهناك امر آخر انا اذكره لك بالنيابة عن الدكتور وهو زيادة صفحة في الكتاب ، وآية ذلك قوله بعد ان بيّض احدى عشرة صفحة في نقد قصيدة هي من رديء المتنبي : « نحن لا نخرج من هذه القصيدة بشيء ذي غناء » . قلت : ما دامت هذه حالها فلماذا نفشها هذا النفش ، ألينتقم من قرائه يا ترى ؟

وانتهى الى « أرق على ارق » فمضى فيها حتى بلغ قوله :

« أبَني أبينا » نحن أهْلُ منازلٍ   أبداً غرابُ البَيْنِ فيها يَنْعَقُ

فظن ان الشاعر يعني بني ابينا قومه القحطانيين — وهذا آخر الآراء في العكبري — فأكد هو أن المتنبي يعني ذلك لأن الهجرة من طبعهم والغربة معروضة عليهم . وهكذا قضى على القرمطية التي جعلها سبب هجرة الصبي.

عظّم الله اجر طه في هذه القرمطية التي أقضّت مضجعه! والذي عندي ان مرام المتنبي هو الوعظ، فكلنا ابناء آدم، ولكنه وعظ بليد . ولا يكفّ طه عن الطباق ، والطباق في كل كلام الناس ، فلو قلت : أكل وشرب ، ونام وقعد ، وطلع ونزل ، لا يبعد ان يراك طه تقلد ابا تمام ، ولهذا نترك الطباق وطه وشأنه فيه ...

واستغرب طه كيف يبكي المتنبي على شباب لم يفارقه حيث قال :

ولقد بكيتُ على الشبابِ ولمّتي   مسودةٌ ولماءِ وجهي رَوْنَقُ

حذراً عليهِ قَبْلَ يومِ فِراقِه   حتّى لكدتُ بماءِ جفني أشرق

فقال : « واكبر ظني ان الشاعر يتكلف التعليل هنا كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين واعتذاره بعد ذلك عنهم » .

قلت : لا اكبر ولا اصغر يا استاذ ، هذا ضرب في الرمل ... فبكيت هنا لا تؤدي اكثر من حسرة تمرّ كثيراً في رؤوسنا فتؤلمنا كنكزة عارضة في الشرايين . هـــذا الذي لحه الشاعر العظيم فسجّله ، وقرائح الشعراء الكبار كتلك العدسات التي تصور ابعد النجوم ، وما اقلّ الشعراء الذين يلمحون الشبهات .

وينتقل الى السينية « هذي برزت لنا » فيبرز لها وتبرز له فيرى فيهـــا سفاسف اطفال ، وكذلك هي ، فالشعر الذي ينظر فيه طه حصرم فج . وينتقل الى السينية الاخرى فيراها كأختها . ويستكين المتنبي قليلا ويأكل ، في طرابلس ، حلواً مصنوعاً ُطرَفاً (يظهر ان الطرابلسيين يحسنون اصطناع هذه الحلاوة واهداءها من قديم) فيراه طه فارغاً لصغائر الامور لانه وصف هذه الطرف الحلوة . قد تكون اول مرة لقي المتنبي ضيافة سابغة ، وأطعم شيئاً حلواً ، فأية كبيرة ارتكب ان قال شعراً في ذلك ؟ ولمـــاذا نتشدق في اطراء شعر ابن الرومي حين يقول شيئاً من هذا ؟

ونمرّ عجالاً فنصل الى رثاء التنوخي اولاً وثانياً وثالثاً فيقف بنا طه عند هذا البيت :

أليس عجيباً أن بين بني أبٍ لنجلِ يهوديٍّ تدبُّ العقاربُ

وانما وقف عنده – كما قال بازائه هذا البيت :

فلا تَسْمَعَنّ من الكاشحينَ ولا تعبأنّ بِمَحْكِ اليهودِ (١)

فيتساءل طه عن هـــذا اليهودي كانّ هناك يهودياً حقيقاً ... وترافقه

(١) المحك : اللجاجة في الكلام .

الفكرة في الكتاب فيعمل من الحبة قبّة، كعادته ، ثم لا يجزم بشيء ، وهذا شأنه في دراساتـــه ، فهو يبني ويهدم كما كنا نعمل صغاراً في بناء العلالي والقصور حول بيوتنا .

أما هذا اليهودي الذي يسأل عنه فلا يبعد ان يكون ذلك « التائه » الذي لقطه اوجين سو ، فيما بعد ، فاقضّ خياله مضجع الآباء اليسوعيين فليسارح بال الاستاذ ليريحنا من مشاكل عديدة كهذه، فأقلّ ما يقال فيها انها توافه...

طه بين بلاشير وماسينيون

ويبلغ طه بالمتنبي باب التنوخيين فيذكر انه مدح أحـــدم علياً بثلاث قصائد مطلع أولاها :

أحادٌ أم سُداسٌ في أحادِ   لُييْلَتُنا المنوطةُ بالتنادي

ويسأل القارىء ألاّ يقف عند مطلعها السخيف الغامض . ويحشّي كتابه لينبئنا باكتشاف جديد في علمي الحساب والفلك ... وهو ان العالم ماسينيون فسّر هذا « الجفر » الذي حيّر المتقدمين والمتأخرين ، فرأى ، نفعنـا الله بعلمه ، ان حاصل « أحاد أم سداس في أحاد » سبعة ، وقد فسره المتنبي في البيت الذي يليه :

كأن بناتِ نَعْشٍ في دُجاها   خرائدُ سافراتٌ في حِدَادِ

فهذا العدد – كما حدثنا طه عن ماسينيون – رمز لبنات نعش . ويقول طه في اكتشاف ماسينيون هذا : وهو رأي أقل مـــا يقال فيه انه طريف (ص ١٤٥) . قلت : فلنضمّ اذن هذا الطريف إلى تليد مـيراثنا الأدبي ، ونعلّم فتياننا أن يتوغلوا هكذا في مجاهل التفكير مقتفين آثار جهابذة العرب والعجم ... فيا ليت شعري إذا كانت هذه طرافة فمن يقول لي كيف تكون السماجة والبلادة ؟ اننا نعوذ من هذا الهذر بشيخنا الشدياق فالجواب عنده . وقد رأى قبلنا غرائب المتمشرقين وعجائبهم في تفسير أدبنا العربي فنبّه اليه منذ قرن . قال رحمه الله :

« ولما حان الذهاب إلى برستول مررت باكسفورد وقصدت أن أرى خزانة الكتب فيها ، فسألت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهديني لها . ثم بعد طول بحث ومعالجة اهتديت إلى دار الشيخ – الاستاذ – فقابلته

وسألته ان يريني المكتبة تفضلاً وتكرماً . فأجاب إلى ذلك وسرنا معاً .
وأول كتـــاب فتحه كان بالخط الكوفي ، وإذا في أول الصفحـة « ألا »
فقرأها « ألّا » وفسّرها : الله ، فتعجبت كيف انخدع فهمه لسمعه ، لانهـم
جميعاً يلفظون اسم الجلالة مرققاً هكذا . وسألني مرة استاذ آخر : أتعرف
لماذا دلت « في » على الظرفية ؟ فقلت :لا . قال : لانها مشتقة من الفم الذي
اصله فوه.وهكذا يخمّنون ويخرّصون على معاني المفردات والمركبات في لغتنا.

« وهاك مثلاً على علم هؤلاء الاساتيذ وعلى شرحهم كتبنا تطفّلا، فتصور
مثلا شرح استاذ اكسفورد لبيت ابي تمام :

همّةٌ تنطح النجومَ وجَدٌّ آلفٌ للحضيضِ فهو حضيضُ

فيقول الشيخ بلغته:النطاح مختص بالحيوانات التي لها قرون كالثور والتيس
والوعل ونحوها ، وقد ذكر في التوراة مرات كثيرة، ويمكن ايضاً ان ينسب
الى ما ليس له قرن ، فقد روى ليناوس، الذي قسم جنس الحيوان الى سبعة
اقسام ، ان الحيوانات الجمّاء تتناطح بجباهها، وقد اطلقت العرب اسم الكبش
على آلة من آلات الحرب ، لانها تنطح الجدار . و « النجوم » معروفة وقد
كانت العرب تهتدي بها في اسفارهم قبل ان عرفت خاصية ابرة المغنطيس ،
ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في اوروبا من يشم لها رائحة
— وهنا نترك تلخيص استاذ اكسفورد لتاريخ الاندلس في هــذه المناسبة —
وينتقل الى « ال » التعريف في النجوم فيشرحها في اللغات الأخرى،ويتناول
النون في النجوم حيث اختفت« ال » التعريف مع الحرف الشمسي فيخبر عن
ناموس وتاريخ نيوتن — إقرأ كشف الخبا ص ١٢٦ اذا احببت التفكهة تامة
فانا لا انقل هنا إلا ما يمس موضوعي — ثم يقول : اما قوله : جدٌ آلف
للحضيض . الحضيض هنا معناه الارض من تسمية الكل باسم الجزء، وروروده
في التوراة كثير . وفحوى البيت انه ، أي الممدوح ، ذو عناية بالارض أي
بحرثها واحيائها ، وانشاء المدن فيها وتسوية الاحكام بين اهلها ، لان الارض

كثيراً ما تذكر ويراد بها سكانها ، وذلك ايضاً مستفيض في التوراة حتى ان الممدوح صار خصباً وارضاً لقاصده هذا اذا لم يفهم الحضيض الجديد،فيكون التفسير غير هذا .

ويختم الشدياق كلمته بقوله:«وهكذا يمشي على انعكاس البيت بهذا العصد[1] هو وتلامذته . وبعد انقضاء ساعة ونصف على تأويله يقومون وهم سامدو الرؤوس،عجباً وفخراً، ويظنون ان شيوخ الجامع الازهر والاموي والزيتونة هم دون هذا النحرير » .

قلت : وكذلك هي حالنا اليوم – في النصوص– مع اكثر علماء الغرب، فانهم ينطحون جدران أدبنا متوهمين انهم اتوها من الابواب . لا ننكر انهم صاروا احسن مما كانوا في عصر شيخنا الشدياق ، ولكنه ينقصهم فتّ خبز كثير حتى تشتد سواعدهم ويرموا صائباً في هذه المواقف التي قصرت فيها فحول العرب .

وان رأى طه – وهو الاستاذ الكبير – سفساف ماسينيون شيئاً طريفاً، ولم يجرؤ على تسفيهه ، فسترى منه اكثر ، فاصبر وانتظر ، ها هو ينتقل الى القصيدة الثانية التي مطلعها :

مُلِثّ القطر ، أعطِشْها ربوعا، وإلا فاسقِها السمّ النقيعا

ثم الى الثالثة ومطلعها :

احقّ عافٍ بدمعك الهممُ أحْدَثُ شيءٍ عهداً بها القِدَمُ[2]

فلا يرى في هذا الشعر الا«جزالة اللفظ ورصانته،وصحة المبنى واستقامته واعتدال الاسلوب وحسن انسجامه »(ص ١٤٤) . اما الخطوة الواسعة التي

---

(١) العصد ، هنا : الاكراه والتعقيد .

(٢) العافي ، هنا : الدارس والبالي ، أراد به الطلل ، وكان الشعراء يقفون بالاطلال باكين، فيقول المتنبي : أحق طلل دارس تذرف عليه دمعك هو الهمم ، اي العزائم والمروءات التي زالت من الناس منذ زمن بعيد ، حتى اصبح القدم نفسه هو احدث من عرفها .

جراها الشاعر فما تحسسها طه. لم يشعر قط ان المتنبي يثور بالاقدمين ولا يزال في صفوفهم ، وهو يتهيأ للانفصال عنهم حين تواتيه الفرصة . انشغل طه عن كل هذا بمذهب الشاعر السياسي فرآه هنا « اعم من القرمطية والتشيع»،فقلنا اهتدى الاستاذ . ولكن شيطان القرمطية المريد يعود فيوسوس له فيقول : « وانا اعتقد ان الفتى اخفى قرمطيته بعد انهزام القرامطة » (ص١٥٥) .

وتعاود النوبة الاستاذ حين يصل الى الداليّة«كم قتيل كما قتلت شهيد»فيرى ان المتنبي يسخر ويستهزىء حين يقول« هنّ فيه أحلى من التوحيد » وانه قد أثِمَ في هذه القصيدة،أما انا فازعم لطه انه هو الساخر الهازىء هنا لا المتنبي.

ويبلغ طه « ضيف ألمّ برأسي غير محتشم » ، فيجد فيها ضالته بشياتهـــا وسماتها ، فيحسب ان المتنبي قرمطي لأنه يقول :

شيخٌ يرى الصلواتِ الخمس نافلةً ويستحلُّ دم الحُجّاجِ في الحـَرمِ

فهذا ما يفعله القرامطة ، فهم لا يصلّون وقد ذبحوا الحجاج في الحرم ، اذن المتنبي قرمطي

لقد حان أن نودع هذه القرمطية الوداع الأخير ، ونرمي آخر حجر في قفاها . زعم بلاشير ان المتنبي عارف باصول القرامطة ، واستدل على زعمه بهذا البيت : شيخ يرى ، الخ ... فجاء طه الذي اعتمد على بلاشير في تاريخ الشاعر فقال ان المتنبي قرمطي لا شك فيه ، وهـذا حق . أمّا هكذا تنمو القصص وتكبر حـين تتناقلها ألسن الرواة ؟ وإذا لم يزد طه على بلاشير ، فماذا يكون فعل ؟ أيترجم فقط ؟..

أما أنا فأعجب لهذين الاستاذين ، بلاشير وطه حسين ، كيف عالجا المتنبي ولم تظهرْ لهما شخصيته ، فعللاها بابسط الأشياء كالقرمطية مثلاً .

يقول طه :«ولكن اقامة المتنبي في طبرية قد كشفت عن ناحية من نواحي ملكته الشعرية لم تظهر في شعره السابق، وهي قدرته على الوصف وبراعته في

تصوير الطبيعة ». ثم يسرد عشرة أبيات من « احقّ عافٍ » في وصف بحيرة طبرية ، منها :

والموجُ مثلُ الفحولِ مزبدةً تهدر فيها وما بهـا قطمُ [1]
والطـير فوق الحباب تحسبها فرسانَ بُلْقٍ تخونُها اللُّجم [2]
كأنهـا ، والرياح تضربها ، جيشا وغى هازمٌ ومنهزم
يشينُها جريُها على بـلدٍ تشينُه الأدعياءُ والقَزَمُ ا [3]

كان يجب أن يفهم طه - إذا لم يفهم بلاشير وماسينيون- من شعر المتنبي كله ، ومن هذه الأبيات التي وقف عندها أن للمتنبي هدفاً ظهر في شعره منذ صبوته فلا يعلله بهذا الغرض السخيف : القرمطية .

للشاعر فكرة تسيطر على كل شعره ، صبياً وشاباً ومكتهلا ، لا تحـول ولا تزول، فكأنها « الله » الذي علمني جدّتي انه موجود في كل مكان حتى في جهنم،هذه الفكرة تظهر في شعر المتنبي كله حتى في غزله ورثائه وذكر الخمر. خذ أية قصيدة شئت ، وراقب أية منظومة تقع أمام عينيك ، فان لم تجد ما قلت لك ، فأنا أقطع يميني .

فأي دليل على القرمطة في شيخ يرى الصلوات ، الخ ..؟ أهناك غير ذلك الحادث التاريخي ؟ ولماذا لا يكون المتنبي نفسه هذا الشيخ ؟ أهذا بعيد عـن لحيته ؟ أتعصمه تقواه ؟ ان المتنبي يستغل كل شيء ويستخدم كل فكرة مهما سمت وقدّسها البشر ليخضعها لفنه . ليس يعنيني أأحسن أم أساء ، فخطيئته برقبته، وإثمه على نفسه، انما العجب من اثنين مسرف ومقتصد: طه وبلاشير ،

---

(١) الهدير ، صوت فحول الجمال ، القطم : هياج الفحول .

(٢) الحباب ، هنا : طريق المـاء عند اختلاف الأمواج . البلق ، هنا : الخيول التي فيها سواد وبياض . شبه الطير فوق أمواج البحيرة المزبدة بفرسان على خيول بيضاء وسوداء . أما قوله « تخونها اللجم » فاراد بها ان الخيول ، أي أمواج البحيرة ، لا ضابط لها فتندفع كيف شاءت . (٣) يشينها : يعيبها .

كيف يتنازعان دليلا أوهى من شعرة معاوية . رحم الله الجاحظ، أليس هذا الزعم أشبه « بانبياء النحل » صلوات الله عليهم ؟

خبّرنا أبو عثمان قال : « زعم ابن حائك وناسٌ من جهّال الصوفية أن في النحل أنبياء ، لقوله عزّ وجل : وأوحى ربك إلى النحل . وزعموا ان الحواريين كانوا أنبياء لقوله عزّ وجل : وإذ أوحيت إلى الحواريين . وما خالفَ أن يكون في النحل أنبياء ، بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله عزّ وجل على المخرج العام: وأوحى ربك إلى النحل . ولم يخصّ الامهات والملوك واليعاسيب ، بل أطلق القول إطلاقاً ، الخ .. »

اننا نرفع هذه النكتة الجاحظية إلى مقام عميدكلية الآداب ولا نعلق عليها شيئاً ، ولكننا نتمثل في مملكتنا الأدبية بقول أبي الطيب في السياسة :

وإنما النّاسُ بالملوكِ وما تُفلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ

فلنتّقِ الظّلْعَ [1] خلف هؤلاء المستعربين لئلا تُضرب علينا المسكنة في الأدب والسياسة معاً .

(١) الظلع : العَرَج .

هوس وعبقرية

ويبلغ الاستاذ قول المتنبي :

أيَّ محلٍّ ارتقي ؟ أيَّ عظيمٍ أتقي ؟
وكلُّ ما قد خلق الله وما لم يخلقِ
محتقرٌ في همتي كشعرةٍ في مفرقي

فيقف عنده ليقول : « ان الشاعر تجاوز كل حد ممكن ، وان الخلفاء والامراء حبسوا غير شاعر في القرون الاولى لأمور ايسر جداً من هذه ، وان الآثينيين قتلوا سقراط لأمور ليست اشد مما تورط فيه المتنبي » . يقول هذا ليذهب مذهب اعمى المعرة الذي ينفي دعوى النبوّة عن « الشاعر » زاعماً لنا انه اخذ بهذا الالحاد . اما انا فما رأيت ابياتاً كهذه تفتح باب السجن في دولة تتفكك وتتناثر كأعضاء الابرص. ولكن حماقات المتنبي مجتمعة، اذ يرى نفسه كالمسيح وصالح ثمود ، وهذه الثورة الصاخبة كالتنّور المسجور ، تغري الحاكم بتأديبه خوفاً على الكرسي لا على السِدرة ...

ما رأيت في « اي محل ارتقي » الا محموماً حرارته فوق الاربعين ، او كالمصروع في الهلّة . ولكنه جنون كالعقل يُستملح ويُستحب لهذا الاطار الفني ، وكم صورة يحمّلها اطارها . في دماغ المتنبي ظلمات مدلهمة لها عندنا ألف يد تخبّر ان المانوية تكذب . ولاجل هذه الاشعة المنفلتة ، لاجل هذه الابيات المجنونة واشباهها اكاد اجزم ان في دماغ ابي الطيب ناحيةً خربة ، بل انصوّر دماغه دنيا فيها العامر والغامر ، وفيها الرُبع الخالي والحرّات ، فهو تارة ينزلنا بوادٍ غير ذي زرع ، واخرى عند جنات تجري من تحتها

الانهار ، وفيها من كل فاكهة ازواج ... اتصور دماغـه كقرص عسل فيه نخاريب مقطّنة ، ونخاريب عامرة فيها دواء للناس وقد يكون هذا النقص الذي عبّرنا عنـه بالجنون - ولا نعني جنون ذاك الذي يراشق بالحجارة - سبباً للكمال الفني الذي جلس المتنبي على عرشه يمثل المهازل ، وكم في المهازل من عظة وحكمة ...

ألا يلذ لك صراع هذا الشاعر المهوّس مع «الدهر» ؟ فهو غريمه لا الناس. ألم تره كيف يمثل الدهر بشراً سوياً ليطالبه بِدَيْنه ، ويركب كتفيه ، فهو يجدُّ في ابشع هوسه ، ويستعدي عليه كافوراً بقوله :

ويا آخذاً من دَهْرِهِ حَقَّ نَفْسِه ومثلُكَ يُعطى حقَّه ويُهابُ
لنا عِنْدَ هذا الدَّهْرِ حقٌّ يَلطُّه وقد قَلَّ إعتابٌ وطال عِتابُ[1]

أرأيت كيف تموج الحياة تحت قلم الفنان ؟ ألا ترى المتنبي يتحدث كأنه جادٌّ فتكاد تقول معه : آهاً منك يا دهر ، يا أكّال الحقوق !.. يا كافور احجز متاعه ، وسلّط عليه ابا الطيب يتصرف به تصرّف المالك المطلق ... ان حماقات المتنبي الكثيرة مكّنت منـه حساده واعداءه فادعوا عليه ما شاؤوا . ولو لم ترافق دعواه الشبهات لظل ناعم البال يحمق ويبتهر. لا اخال المتنبي يحب مملكة الروح ، فهو لا يؤمن بغير مملكة اللحم والدم ، ولا يؤلّه غير العقل، وبهذه الاداة حاول ان يسود فحبطت مساعيه وكان الادب اسعد حظاً. لم يُنِط به كافور ضيعة او ولاية، فشكراً لابي البيضاء وعاش الخصيّ، فقد اسدى الينا جميلاً عجزت عنه الفحول البيض ...

ما لنا وللنبوة فهي حكاية لا تنفع ولا تضر ، وقلما تلامس فن الشاعر ، وهو غير باك عليها ، فما آلمه إلاّ الخيبة ، الا هذا الدهر القليل الدين ، فقد ماطله جداً واكل اخيراً حقه ... فعاش ومات منحوس الطالع كما قال :

أبَداً اقطعُ البلادَ ونجمي في نحوسٍ وهمّتي في سعود

(١) يلطه : ينكره علينا ويجحده . الاعتاب : الارضاء بإزالة سبب العتاب .

اما اليأس فما عرف الى نفس شاعرنا سبيلا، فكأنه المصارع لا يسقط حتى يقوم ، يعالج هذا الحرمان بهذا الشعر المُزْرَقّ اللهب ، فينفّس عن ذاك الوعاء المسلّح فلا ينصدع ولا ينفجر بل يقول :

كَذَا أنا يا دُنيا فان شئتِ فاذهبي   ويا نَفْسِ زيدي في كرائِهها قُدُمَا

وكأن وهمه يتحقق في آخر ايامه فيرى الدهر شخصاً يتنفّس مثله، وانه هو شجا في حلقه فيهتف :

ما أجْدَرَ الأيام والليّالي   بأن تقولَ ما لهُ وما لي

وكفى الله المؤمنين القتال .

ما رأيت المتنبي إلا رباباً - واجلّ قدره عن الطبل وان كان التشبيه انسب - تزيدك انيناً وانغاماً ما زدتها مسّاً وجساً ، فهو ومنيته كبولس الرسول القائل :"لا حبس ، ولا اضطهاد ، ولا جوع ، ولا عري، ولا ملوك ولا سلاطين ، ولا قتل ، ولا موت، تفصلني عن محبة المسيح . أو كما قال ابن القدوس :

والشيخُ لا يتركُ أخلاقَـه . حتى يُوارى في ثَرى رَمْسِه

فانه لم يترك هذا الحق الذي نغبنه اذا قوّمناه بالشيَم والبِدَع ، فلولاه ما كان لنا هذا الفنان المهوّس، ما كان لنا شاعر ضجّ من طول عمره الأبد . .

ويصف طه حيرة المتنبي بعد الحبس فيجيد،ولكنّه يلتهي بزبرج الكلام، فينقض ما زعمه سابقاً عن اسبـاب خروج الصبي من الكوفة فيقول : « وفيما يعود الى الكوفة بائساً معدماً وقد خرج منها يبتغي الامل والغنى».ثم تهجس القرمطية في صدر الدكتور فيقول فيها ما يقول،اما نحن فقد طلّقناها ثلاثاً.

ويأتينا ببرهانه على وحشة المتنبي ومناجاته الأسود حين قال : « أجارُكِ يا أسْدَ الفراديس مُكْرَمُ »، فيلبثنا انه متأثر بامرىء القيس والفرزدق لأنه خاطب هذه الأسْد كما خاطب الذئب . ويسأل طه اسئلة لذيـذة ، كقوله :

أسمعت الاسود لغناء هذا الشاعر الحزين ؟ لست ادري . ولكن الحقق انها لم تحفل به ، الخ .. (ص ١٩١) .

ويطل على « دمع جرى فقضى في الرّبع ما وجبا » التي ختمهـــا المتنبي ببيت يدلنا على انه ما لان ولن يلين كما توهم طه :

فالموتُ أعذرُ لي،والصبْرُ أجملُ بي،   والبرُّ أوسعُ، والدُّنيا لمن غَلَبَـا

فيشتغل طه بتاريخها ليرى غير ما رأى بلاشير ويمر على «فؤاد ما تُسليّه المدُام » كالبرق الخاطف فلا يلمّ بتطوّر الشاعر فيها وفي اختها«افاضلُ الناس اغراضٌ لدى الزّمَنِ » بل يهرول الى « لكِ يا منازل » وغيرها حتى يبلــغ « أركائبَ الأحبابِ إن الأدمعا » فيقول في هذه ما قاله في غيرها ، أي انها « مدح متصل متشابه معاد لا تجديد فيه ولا تغيير ، وان الشاعر ينهج نهج ابي تمـــام واذا ظهرت شخصيته من حين الى آخر فانما تظهر في اوقات العنف الذي ليس بعده عنف » . وانما قال : « ليس بعده عنف» ليوهمنا ان المتنبي لا يأبى الضيم . ولكنّ طه ادرك الآن بعض ما كان يجب ان يدركه ، ويضع يد القارىء عليه ، ويستغني عن تلك الجمل المرصوفة التي لا تغني شيئاً .

لا شك ان الشخصية كالحياة الكامنـة في البراعم ، فهي لا تتفتح الا اذا احتضنتها امّنا العظمى . فهذا العنف او هذا الاستفزاز هو ابو الشعر الخالد، وبالقـدْح تبعث النار .

ثم يتساءل طه عما ينقص المتنبي ليلبغ ، فيرى انه ينقصه شيئان : عيشة راضية وبيئة مثقفة . أما أنا فأراه قال احسن شعره في حالتي الأمـل والألم ــلا ادري اذا كان الاستاذ يتهمني بجناس ابي تمام ــ فلا البيئة المثقفة ولا العيشة الراضية قوّلتاه شعرا قوّله الشعر الرائع هذان الصاحبان - الامل والالم ــ اللذان لم يفارقاه ساعة . اما البيئة فقد فعلت كثيراً في شعره ، وسنؤدي حسابها جملة للاستاذ الجليل لانه يعرض لها بشيء من المكر،وما أحلى التمثّل بقول عبد الملك للاخطل:ما اخرج هذا منك،يا ابا مالك، الا خطة في رأسك.

ويخرج طه مع المتنبي الى طبرية فيرى انه وجد عند بدر بن عمار الحيـاة الهادئة – ومن يقول ان هذا الاعصار يحب الهدوء ؟ – والبيئة المثقفة التي لم يجدها في سوريا . فوثب فنه . ثم تناول بنقده المعهود « أمِنَ ازديارَكِ في الدجى الرقباءُ» فمغط شرحها ما اطاق واطاقت،ورأى ريح الصوفية تعبق من اردانها . واعجبته « الطعنة النجلاء » وتهلل لإشراك الشاعر ناقته والليل في التفكير والعمل،ولكني لا ادري كيف نسي ان يقول ان المتنبي يقلد عنترة في هذا . ويبلغ طه هذا البيت :

فتبيتُ تُسْئِدُ مُسْئِداً في نَيِّها إسآدَها في المَهْمَهِ الإنضاءُ [1]

فيرتمي فوقه كما يقع صبي على لقطة، ولا حاجة في نفس طه إلا الدلالة على التكرار . وقد دهشت لغفلته عن الطباق في هذا البيت :

أنساعُها ممغوطةٌ ، وخِفافُها منكوحةٌ ، وطريقها عذراءُ [2]

أفلا يجد ذاك الطباق – البعيد على الأقل – بين منكوحة وعذراء ؟ قد يكون انشغل عنه بالمبالغة ، ولكنه انصف الشاعر ولم يخف اعجـابه ببعض هذه القصيدة .

وهنا يطلع علينا طه ببدعة جديدة في تقويم الفن ، وهذا شأنه كلما سمع شعراً خفيف الخطى،أو رأى تصريعاً كما سترى،فانه يتأول تـأويل مضحكة. رأى في « أحلماً نرى أم زماناً جديدا » ان الشاعر باصطناعه هـذا البحر المتقارب كأنما هو عَجِلٌ يريد أن يغلب الأمير على التفكير والرويّة ، فهو يرميه رمياً سريعاً جداً،ولكنه ان غلب الأمير، فلن يغلب طه، كما يقول.ثم يغالط الدكتورُ نفسه ليرينا المتنبي ذليلاً فيعكس على المتنبي معناه بقوله لبدر:

طلبنـــا رضاهُ بتركِ الذي رَضِينَا له فترَكنا السُّجودا

---

(١) الاساد : ادمـان السير . النيء : الشحم . المهمه : الصحراء . الانضاء : الاهزال والمعنى ان ناقته تدمن السير ، فتسرع في الصحراء كما يسرع الهزال في شحمها .

(٢) الانساع ، جمع النسع ، وهو المفصل بين الكف والساعد . الخفاف ، جمع الخف ، وهو للبعير والناقة كالحافر للفرس .

فيقول : « ولو ان بدراً طغى على نفسه وعلى الناس وخرج عن طوره ، ورضي من المتلبي وأشباهه أن يسجدوا له ، لما تردد المتنبي فيما أرى » .

ان شعر المتنبي وأخباره المأثورة تنفي ما قال وسيقوله طه في هذا الصدد. واني أرى الدكتور فهم السجود بمعناه الكبير، وليس هذا الذي يفعله الشعراء للأمراء ، ولكن المتنبي يأباه في حالتيه ، ومـا رأيته هنا إلا ممتنعاً عنه ، فتغدّى الأمير قبل أن يتعشاه ، وكان لبقاً كيساً ... أما ما تعقّبه طه على هذه القصيدة فلا يتعدى المبالغة والطباق .

وهنا لا بد لي من كلمة جاء وقتها وإلا فما عذري عند قرائي ؟ ان في شعر المتنبي لعشاق المبـــالغة وتراكب الحروف مرعى لا يجف ، ومعيناً لا ينضب . وفيه للعبقرية سماء مـا طاولتها سماء – اللهم في الشعر – فالمتنبي كالصبي النابغة يدهشك ذكاؤه وفهمه ، ثم لا تلبث ان تراه يتمرغ بالتراب إرضاء لصبوته.هو –كالمنجم تبرٌ وحصى– كما نظم حافظ قول هيغو عن نفسه. انه ظلمة كثيفة كليل امرىء القيس ، ولكنه كعارض الأعشى في حـافاته شُعَـــل .

ونصل إلى لاميّة الأسد فيعجب بهـا الاستاذ ويعدّها آية ، غير انه ينعى على الشاعر الانحراف الديني لقوله :

لو كان علمُـــك بالإلهِ مقسَّماً في الناس ما بعث الإلهُ رسولا
لو كان لفظُك فيهمِ ما أنزل القرآنَ والتـــوراةَ والإنجيلا

وهذا النعي نقبله من غير طه، إلا إذا كان يريد الاحتكار «فليست الديانة – كما قال الثعالبي بعد الأخطل – عياراً على الشعراء ، ولا سوء المعتقد سبباً لتأخر الشاعر » . ولكن طه تجاوز عن هذا السخف للشاعر ، والعفو حـلو عند المقدرة ، في سبيل الوصف الرائع للأسد.وقد سرده بيتاً بيتاً وأثنى عليه بقوله : « هذا كلام يمكن أن تنظر فيه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال

وروعة وترى فيه فتوة وقوة ما أرى إلا ان الشاعر قـد استعارهما من نفسه وخلعهما على ممدوحه » (ص ٢٢٩) . لا تنس هذه الكلمة فساعتها قريبة . وهنا أحس طـه بقدرة الشاعر الفنية إذ رآه يجمع الوصف المادي والمعنوي لليث ، والحكم والأمثال ، فحمدنا الله على ذلك .

وعرض طه لسخط بدر على الشاعر ، واستعطاف المتنبي له ، فـما شرد هـذه المرة ولا ذنّ بل لم يتمحّل لذلك أسباباً عجيبة ، فعزا ذلك إلى كيد القصور وإلى جهل الشاعر مصطلحاتها وآداب الملوك ، واستعلائه على أصحابه عند الأمير .

ويفر المتنبي إلى جرش ويقول فيها قصيدته الخالدة حِـكَمُها : « لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضام » ، فيحسن الدكتور كل الاحسان تحليل الساعات التي حبلت بها وأنتجتها . ولكنه ضلّ ضلالاً بعيداً بل فهم بالمقلوب إذ ظن المتنبي يقولها لأنه ذل ، فها هو يترك « بدراً » وسوف يترك بعده الشمس والليل ... ففي قوله : لا افتخار إلا لمن لا يضام ،فخر امرىء ما رأى فوق نفسه من مزيد ، وادلال رجل واحد على العالمين ،ومعاذ الله أن يقر المتنبي الذل في نفسه ، وأن يعنيها بقوله كما توهّم طه :

من يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ما لِجُرْحٍ بِمَيّتٍ إيلامُ

وفي قوله بعد هذا جلاء الشك والريب :

أقَراراً الذُّ فوق شَرارٍ ؟ ومَراماً أبغي وظُلْمي يُرَامُ ؟
دون ان يَشرَقَ الحجازُ ونَجْدٌ ، والعراقانِ بالقَنا ، والشّامُ !

يلذّ لي ان اقرئك ما علّقه العكبري على شرح هذا البيت الاخير ، قال : « المعنى » يقول : « لا الذ قراراً دون ان تشرق هذه المواضع بالرماح ، وان أملأ البلاد بالخيل والرجل ، واقاتل الملوك وآخذ بلادهم . ولعلهـــا كانت لآبائه فاغتصبت منهم . وهذا من حماقته المعروفة ، ولا بد له في كل قصيدة من هذا » .

ولست اقول شيئاً في الاسلوب الرومنطيقي الذي اصطنعه الاستاذ ليحدثنا عن الشاعر وشيطانه ، فاقرأ تَـمَلـَّمْ ان طه يعبث كما انذر في اول كتابه . ثم يعرض لاتصال الشاعر بالاخشيد او بعامله فيخالف بلاشير ويبزه ، وهذه جسارة نشكرها له ونعرفها به ، انما على غير الافرنج ، فرأي طه هنا امثل من زعم بلاشير « ولو قـد لقي المتنبي الاخشيد – كما يقول الدكتور – لمـا قصر في ذكر ذلك والافتخار به ، والموازنة بين الاخشيد وبين مولاه كافور ولا سيما حين غضب على كافور » (ص ٢٧٠) .

ويتصل المتنبي بابن طغج في الرملة ويمدحه بقصيدته :

أنـَا لائمي إن كنتُ َوقـْتَ اللوائمِ   علمتُ بما بي بين تلكَ المَعالِمِ

فيعترض الاستاذ على ألف « أنا » بقوله : « فانظر الى هـذه الألف التي أثبتها في الضمير اول البيت ليقيم الوزن » . قلت : هذه الالف يجوز حذفها وما جاز حذفه لا يمتنع اثباته . ثم يعود بنا الى المجانسة بين لائم واللوائم ، اما نحن فقد فرغنا منها ومللنا عرض هذه البضاعة في سوقنا .

ويتخطى الى نقد حذف المضاف فيقول : « كان عليه ان يقول : ان كنت وقت لوم اللوائم » . فليعرني الاستاذ سمعه دقيقة لا غير : ان طبع المتنبي وعلمه يأبيان عليه حصر المضاف والمضاف اليه في هذا المضيق وهما من لفظ واحد ، فاكتفى بهذا الظرف الذي ينجده على الاضافة . ولمثل هـــذا اوجب النحويون حذف اسم لات ومـا اشبهه . فانا احمد لأبي الطيّب هـذه الفطنة والجرأة ، وأود ان يظل باب الاجتهاد مفتوحاً فتقاس الاشياء على اشباهها . فهذا الحذف يدل على علم وذوق معاً يستحق لاجله المتنبي اجزل الشكر .

ثم يذكر طه هذين البيتين :

حسانُ التثنـّي ، ينقشُ الوَشْيُ مِثْلـَـهُ ،   اذا مِسْنَ ، في أجْسامِهنَّ النـَّوَاعِمِ

ويبسِمنَ عن ُدرٍّ تقلـّدن مثلـَه   كأنَّ التراقي ُوشـِّحَت بالمباسِمِ

فيقول : « قد وجدا من يعجب بها اعجاباً شديداً ، اما انا فلا ارى هذا التشبيه الا اغراباً ينتهي الى السماجة » . قد نكون على رأي الدكتور فيها ، ولكن : « تلك امة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما يفعلون » .

ويرى طه ان المتنبي قد صُقل بعد ترك « بدر » وثقّفته الحوادث فصلح للمنادمة ومعاشرة الملوك والامراء ، غير انه انتقد عليه شعراً « يغضب الله ويغض من المروءة ، ويصوّر لنا استهانته بالدين وتلوّنه » لقوله :

وأوضح آياتِ التّهاميّ أنّه   أبوكم وأجدى ما لكم من مَناقِبِ

قال طه : « وواضح ان أبهر آيات النبي التهامي انما هو القرآن لا ابوّته للعلويين » . أفلا يغتفر لي طه اساءة الظن ؟ ان نضاله عن الله ، عزّ وجلّ ، ورسله · عليهم اشرف الصلاة والسلام ، يريبني جداً .

واخيراً بعد كتابة ثلاثمائة صفحة أدرك طه او كاد ان المذاهب السياسية عند المتنبي وسيلة لا غاية . قلنا ان المتنبي بشر مثلنا رغم انفه ، وشعرة مفرقه تلك ...

واناخ الدكتور بكلكله على القصيدة التي على الزاي وليس فينا من يستخف قافيتها وتطربه موسيقاها، وان آخذنا الاستاذ فلأنه لم يذكر اولها بخير، وهو وصف فذّ للسيف لم نقرأ مثله في الشعر العربي . أفنلهو دائماً بالجراز والعكّاز والوجوه والاعجاز لنذكر الطباق؟ أنكون في نقدنا كالمرّض لا يصب سخطه إلا على العضو الضعيف؟ فليس المتنبي كهؤلاء الذين ننقدهم ونتمنى ان نرى لهم حسنة ننوّه بها . فحسانهُ ، والحمد لفنه ، ملء السهل والجبل . فليته انتقد واحدة منها لنستطعم حديثه الفني . أما هذه الضعيفات المزيلات فقد نسل صوفها لكثرة ما رازتها أيدي النقاد متقدمين ومتأخرين . فاين الاستاذ من خرائد ابي الطيب يدخل خدرها ويهتك ستورها ، فهي لن تقول له « انزل » ولو مال الغبيط .. أفلا يدلنا على ومضة من بوارق ابي الطيب ؟

وعلى ذكر هذه « الزائية » يطالعنا برأيه في الشعراء والقوافي فيقول : «ان فيكتور هيغو كان يجمع قوافيه ويهيئها قبل ان ينظم شعره ..» الى ان يقول: « وما اظن الا ان الشعراء جميعاً يستعرضون ما قد يتهيــــأ لهم من القوافي ليختاروا منها لا ليحكـّموها في انفسهم وفي اذواق الناس » (ص ٢٩١) .

لا هذا ولا ذاك يا استاذ،فالشاعر لا يركض وراء قافيته كما يركض المعّاز خلف عنزته الشاردة ، بل هي تأتيه ليحلها محلها ، وكل قافية يرغمها الشاعر على مقعدها تقف كالمظلوم ، صاخبة داعية ، ابد الدهر .

ويمدح المتنبي فارسياً ويثني على قومه ، قبل الاسلام ، وفي ظله ؛ فيخيل الى طه انه شعوبي . ان هذا كقولنا بشعوبية البحتري لأجل وصفه الايوان ، وكقولهم بشعوبية ابي نواس الهازيء المستهتر لأنه قال: لا درّ درك قل لي من بنو اسد ، ومن تميم ومن قيس .. وعند طه ان الشاعر « لم يستطع ان يرقى بفنه .. وهو لم يستطع ان يعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقي بفنه شيئاً فشيئاً إلا في كنف الاشراف والسادة والامراء كأنه النبت الطفيلي لا ينمو ولا يزهر إلا في ظل الشجر الضخام المرتفعة في السماء ».

لقد تخيلها اعظم من « نبعة » الاخطل وأطول من سلـّم يعقوب، فركب من مراكب الغلو ما لم يسخّر لامين ابي نواس . وبعد فماذا تطلب من شاعر في ذلك العهد ، وماذا تريد ان يفعل ؟ فما رأيت المتنبي يسمو في مصرع اسد طبرية لأنه بلغ رجلا منظوراً يلي الحكم ، بل لأن الفنّ له ساعات واوقات ، وان شئت فقل للفن فلتات . قد يحلـّق الشاعر ويسفّ في موضوعين متشابهين وقد يؤتى سحر البيان في ليلة تعقبها شهور واعوام تعقم فيها القريحة ، وان انتجت فلا تنجب .

واية فعلة فعلها المتنبي اذا وصل او حاول الوصول الى امير كبير ؟ وهل يبلغ الى ذلك غير النبوغ ؟ أنعيّره بمدحه الرعــاع الطغام حتى اذا بلغ القصر

وصار أميراً كالأمير نقول أنه ُطفيلي ؟ ما كان القصر في ذلك الزمان غير وظيفة ، ومن يميّز رجلا بوظيفته وانتاجه في ظل قصر ؟ أفلا يعيبنا الناس اذا قلنا، مثلاً : لم ينتج طه حسين « إلا في ظل الجامعة المصرية حيث كان له جراية » فأمن واطمأن ؟

وقبل ان يبلغ ابو الطيب قصر سيف الدولة يمدح ابن عمه ابا العشائر بقصيدة على الشين ، وهاك ما قاله طه في وصفها لتدرك ما يضمره للشاعر من بغض، فكأنه قاتل أبيه :

« وكأنه في ذلك الوقت كان مشغوفاً بشوارد القوافي فآثر لقصيدته قافية الشين ، وخضع لمثل ما خضع له في زائيته من الذل والصغار امام تحكم القافية الصعبة » . فهل رأيت نقادة يلصق الذل والصغار بشاعر لأنه ركب القافية الصعبة ؟ وهل للشاعر في هذا اختيار ؟ لا اظن. يذكرني هذا الذل والصغار قول دعبل الخزاعي في ابي تمام : ولعله سرقه ..

وينبري طه لهذه الشينية المسكينة فيحدثنا عن الشأشأة والحأحأة ليس غير ، وما أكثر هذا – كما قلنا سابقاً – في رديء أبي الطيب وقد فرغ منه الصاحب وغيره من احباب شاعرنا. .وهذا ما نمرّن عليه اليوم طلاب الفصاحة فلا ينبغي ان يهم استاذاً كبيراً كالدكتور .

وينتقل الى: « اراها لكثرة العشاق » فيقفز قفز السيارة اعترض طريقها خط حديدي ، وما فعل هذا الا ليدلنا على اشياء تعوّد ان يحسبها ولا يمل تكرارها . ثم يعود الى اللامية التي اتخذ ابياتها برهاناً على اظلام نسب المتنبي وهذا ما فنّدناه سابقاً .

السيفيات والشعر القصصي

ها قد بلغنا حلب فخبّرنا الدكتور « ان للمتنبي في سيف الدولة ديوانـاً خاصاً يمكن أن يستقل بنفسه،وهو ان جُمع في سفر مستقل لم يكن من أجمل شعر المتنبي وأروعه وأحقه بالبقاء، بل «من» أجمل الشعر العربي كلّه وأروعه وأحقه بالبقاء » .

فلو ترك طه هذه « المِنْ » ، كان أقرب للتقوى . فالطيّب من شعر المتنبي لا مثيل له في ديوان العرب ، وان شئت أن تعبّر كالجاحظيّين فلك أن تقول : نسيج وحده ... ثم نظر طه في انقطاع المتنبي إلى سيف الدولة فقـال : « فلنلاحظ هذه الظاهرة في نفسها والقياس إلى شخصية المتنبي ، الخ ... » ثم خرج من هذه الملاحظة يرى « في هـذا الانقطاع تناقضاً غريباً بين رأي المتنبي في نفسه وسيرته بين الناس إذ كان ينزل عن نفسه لكل أمير اتصل به». وأخيرا تطوّح في هذه الصحراء فقال :« وأغربُ من هذا ان سيف الدولة لم يشغل المتنبي عن غيره من الأمراء والملوك فحسب،بل شغله عن الشعر الخالص».
أما التناقض بين رأي المتنبي في نفسه وسيرته بين الناس فقد لمسناه في كل قافية قالها فلا حاجة إلى التخمين ، وبحسبنا بيته المشهور : ومن نكدِ الدّنيا على الحرّ ... ولكن هذا لا يعني ما يريده طه، فليس في ديوان المتنبي برهان واحد على نسيانه نفسَه وبيعها من الدلاّل ، وهو لو فعل لاستراح وأراح الدهر ... ولكن الطبع غلب التطبّع ، فمات المتنبي شهيد نفسه وقيل فيه: كان من نفسه الكبيرةِ في جيش ...

ويضرب الدكتور مثلاً ، على انشغال المتنبي عن الشعر الخالص، أبا نواس الذي اتصل بالأمين وظل يقول الشعر في الخمر والوصف والهجاء . يا سبحان

الله ، كأن قصيدة المتنبي لم تحور شيئاً غير المدح ، وكأنما النفوس سواء ، لتقابل بين سكّير مستهتر رعديد ، وبين بطل زِمّيتٍ عرفه الليل والخيل والبيداء ... ثم ما هو الشعر الخالص ؟ وكيف يكون « هذا الشعر من أروع الشعر وأحقه بالبقاء » ، ولا يكون شعراً خالصاً ؟ لا أدري . أعلى الشاعر أن يقول في كل غرض ؟ وهل لم يقل ابو الطيب في كل غرض ؟ فماذا يضير هذا الشعر إن كان ذيله مدحاً ؟ بل لماذا لا يكون المدح شعراً خالصاً إذا كان كمدح المتنبي لسيف الدولة ؟ ان كتاب طه هذا ، كتب « عن سابق تصور وتصميم » كما يعبّر رجال العدل ، وطبقاً لهذه المادة سنحكم ان شاء الله .

فكل ما رأيت من الأغاليط يتوسل بها طه ليقول : « فهذا كله يدلنا على أن المتنبي كان يتخذ الشعر وسيلة لا غاية ، وعلى انه كان عبداً للطمع والمال لا للجمال والفن » . المال يغري ليس في ذلك شك ، ولكن أكلّ من يكتب ويقبض يكون عبداً للمال ؟ أكلّ من انحاز إلى حزب فعاضده يكون عبد ما وظف له من رزق لا عبد الجمال والفن ؟.. فأحرِ بالمتنبي إذا كان عبداً للمال أن ينام على الضيم عند من أنعلَ افراسه بنعماه عسجداً وألا يقول للأسود : إذا لم تهبني ضيعةً أو ولايةً ... ولو كان لا ذمة له لما رعى عهد أميره الأول وحنّ اليه بقوله : خُلِقتُ ألوفاً ... وكأني بعظام أبي الطيب تتحرك صارخة :

كم تطلبونَ لنا عيباً فيُعجزُكم ... ويكره اللهُ ما تأتونَ والكرمُ
ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ من شرفي ! ... انا الثريّا وذانِ الشيبُ والهرمُ !

لست أعني إلا هذا العيب الذي يريد الدكتور أن يلصقه بالشاعر ذاهباً مذهب مبغضيه في الأمس الدابر ، لا تلك الشأشأة والفأفأة التي اعرض عنها المحدثون فجاء طه يلهو بها ويلعب ، أو كما يعبّر القدماء : يعيدها جَذِعة[1] فينقد بعض قصائد لا تثبت على المحك .

---

(١) يقال : يعيد الحرب جذعة ، أي : يعيدها جديدة بعدما هدأت .

وسرعان ما يرجع طه عما قال – وهذه مصيبتي في هذا الكتاب فكأنه لا يهتم إلا بنفخه كما يفعل الزيات بالزقّ – فينقض ما ابرم بقوله : « فما نفقده من حرية المتنبي في فنه تُعوِّضُه علينا عبودية المتنبي لسيف الدولة ، ان صح هذا التعبير » . لا ، لم يصحّ ، فالعبودية لا تصلح للمتنبي بحال، فمن لم يكن عبدَ ربّه لا يستعبده بشر .

ويصل إلى وصف المتنبي للجهاد بين الروم والمسلمين فيحدثنا كأننا نجهل « ان المتنبي لم يخترع هذا الباب، فقد قال فيه أبو تمام والبحتري، ولكنه أنماه وقواه ». ثم يُثني على شعر المتنبي ويُميّزه من شعر صاحبيه تمييزاً صحيحاً حتى يقول : « ونحن نستطيع أن نفهم عجز الاستاذ بلاشير عن أن يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي، فجنسية الاستاذ واختلافُ مزاجه وطبعه، واخشى ان اذكر دينـــه أيضاً ، كل هذا يجعل تأثره بهذا النحو من شعر المتنبي قليلاً ضئيلاً » .

قلت : للجنس والطبع تأثيرهما،أما الدين في هذا الزمان فما أراه يفعل ما يخشاه الدكتور، واننا لنقرأ قول المتنبي : وبنى السّفين له من الصُّلبانِ ، فلا نثور كبطرس الناسك ... ونمرّ بقوله : وأذلّ دينُكَ سائرَ الأديانِ ، معجبين بشاعر يحمّس الامير وجنوده وشعبه.أما ما أجحده صراحة،الآن وكل أوان، فهو فهم هؤلاء المتشرقين لنصوص الأدب العربي فهماً كاملاً ، وخصوصاً هذه التي شرحها أربعون عالماً منا .

أما الدكتور عزّام الذي قدم هذا الفن من شعر المتنبي على الشعر القصصي القديم كله ، فقد لا يخلو من غلو . قال عزّام في كتابه الرصين « ذكرى ابي الطيب » ص ١١١ :

« وقصائد الحروب كلهـــا ، وهي ثماني عشرة قصيدة في واحد وسبعين وسبعماية بيت، يبلغ فيها المتنبي الغاية التي ليس بعدها متقدم لشاعر أو ناثر...

ان هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي لا نظير له في الالياذة والشاهنامة ، واحسبه منقطع النظير في الانيادة الرومانية، والمهابهراتا والرميانا الهنديتين.وهي – يعود الضمير إلى الثاني عشرة قصيدة ولو يعدث بـ اروع شعر حماسي » .

إذا مزجنا رأي عزّام برأي حسين كان لنا رأي معتدل.وفي كل حال ان لم يكن المتنبي فوق هؤلاء فهو مثلهم، وهذا لا يسلّم به طه ولو اعطيته ملء الأرض ذهباً ، فالاجنبي عنده خير من البلدي . ولكن لا ننس ان لعزّام حق الحكم في الأدب الفارسي فهو من اختصاصه ، أما يونانية طه فاتحيلها كيونانية الخوري بسترس ، وفوق كل ذي علم عليم .

ويقابل طه بين المتنبي وابي فراس فيجيد كل الإجـــادة في تمييز هذا من ذاك،ويعزو فتور شعر ابي فراس إلى قصْر منبج. والذي عندي انها النفس، فهي التي جعلت شعر ابي فراس ينوس نوساً كرقاص الساعة .

ويخشى ان يُخدَع القارئون لهذا الفن من فنون المتنبي عــن أنفسهم بعض الشيء فيظنوا ان هذا الفن هو القصص كما نجده في الالياذة واشباهها من آيات الشعر القصصي القديم والحديث ، وقـــد خدع الاستاذ بلاشير نفسه عن هذا الشعر ، وعن الشعر الحماسي كله فسمّاه قصصاً .

ان طه لا يرضى ولو قال الف بلاشير ومليون عزّام . أما قال هو : ليس في الأدب العربي شعر قصصي ، فكيف يكون الآن ؟ واليك حجة طه : «ان المتنبي لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة – تذكّر قوله انه باعها – وانما هو يذكرها دائماً حين يغرق في وصف سيف الدولة » .

قد يفتك أحدنا بثعلب، يا استاذ، فيصوّره للناس غولاً انيابه زرق،ويظل يحدث الناس عن فتكته حتى يلاقي ربه، فكيف تريد، من شاعر بطل كالمتنبي يعمل سيفه في رقاب الأعداء ويشاطر اميره مرّ الجهـــاد وحلوه ، ان ينسى

نفسه ؟ أرأيت أنه ليس عبداً كما توهمت ؟ فمن فمك ادينك . ان العبد هو ذاك الأمير – ابو فراس – الذي قال في وصف احدى هذه الوقعات :

دعانا والأسنّةُ مُشرَعاتٌ ... فكنّا عند دعوته الجوابا
وكنا كالسّهام إذا أصابت ... مراميها فراميها أصابا

وهنا لا بد من كلمة هذه ساعتها حول الشعر القصصي. يقول طه : « وأخص ما يمتاز بـه الشعر الغنائي من الشعر القصصي هو هـذا العنصر بالضبط ، هذا العنصر الذي يمثل الشاعر أمامك في كل لحظـة ويقنعك بأن الشاعر لا يصف وانما يتغنى ... فليس شعر المتنبي في وصف الجهاد بين المسلمين والروم قصصاً وان اشتمل على كثير من مميزات القصص، ولكنه غناء لانه يشتمل على أخص مميزات الغناء » . أما أنا فأرى ان الفن لا يعرف القيود ، وان بـين الشعراء فروقاً، فلا يلزمنا تطبيق فننا على شعر هوميروس والفردوسي وغيرهما ليرضى طه حسين . ان شخصية المتنبي غير شخصية هوميروس ، ولا يستوي الأعمى والبصير والسامـع والرائي . وانني أرى العرب أبصرَ بمواطن الشعر – وقد يكون للوزن والقافية يد في ذلك – فهم يأنفون أن يكون شعرهم كالبوّ [1]، فلم يحشوه بالاعلام والأرقام بل كانوا يهرعون إلى النثر حيث لا يصلح الشعر ، ولهذا لم يُخضعوا شعرهم للملحمة ما أما تحطمت شاعرية سليمان البستاني ، وهو الشاعر البصير ، حين نطحت تلك الجدران التاريخية في الالياذة ؟ وهل يحيا الشعر إذا لم ننفخ فيه من روحنـــا كما نفخ الله مرةً ثانيـةً فكانت كلمته المتجسدة؟وهل نطلب من أعمى كهوميروس ان يكون في شعره فحيحُ المتنبي ذاك الحية الذكر ؟ وهل يؤمن طه ان شاعر الالياذة ما ظهر قط في أبطاله ، فمن احياهم يا ترى ، أأنا وهو ؟

ويا ليت شعر قلمي كيف يستطيـع شاعر كالمتنبي خاض الحرب فشرى

---

(١) البو : جلد فصيل الناقة أو البقرة يؤخذ اذا مات الفصيل فيحشى تبناً ويقرب من امه، فتنخدع وتحنو عليه وتدر .

وباع ان يخفي عاطفته وينكر وجوده ليقوم واحد مثلي في آخر الدهر ويقول: هذا شعر قصصي ؟

ان طه لا يسمح للمتنبي أن يقول :

ورعن « بنا » قلبَ الفُراتِ كأنما تخرُّ عليه بالرِّجال سُيُولُ
تملّ الحصونُ الشمُّ طُولَ « نزالِنا » فتُلقي « إلينا » أهلَها وتزولُ

يريد طه أن ينكر المتنبي وجوده فيقول : ورعن بـه قلب الفرات ... او : تمل الحصون الشم طول نزاله ، ليصير شعره قصصياً .

إن المتنبي لا ينزل عن «نا» حتى يُنفخ في الصور، ويلقى المعري أباه عند الحوض. نريد أن يكون لنا شعر قصصي وطه لا يريد ما لم ينس المتنبي نفسه، ويَعودُ العجل إلى بطن امه صعب ، فامرنا لله بين هذين العنيدين .

لم يحسب المتنبي للناس حساباً فأرضى نفسه وفنه وأميره . والفن الفذ لا يعرف الحدود والمقاييس، فالفنان كهؤلاء الجبابرة الذين يقلبون الدنيا، ويكبّون نُظُمَها، كما كبّ أمير المؤمنين كنانته حين رمى العراق بالحجاج والفن الذي لا يكون هكـذا لا يعيش . ان الفنان يخلق فنه ويلقيه في أحضان القوابل يقمطنه وينادي :

إذا شاء أن يلهو بلحيةِ أحمقٍ أراه غُباري ثم قال له : الحق

وبعد ، فليس على المتنبي أن يحذو حذو هوميروس ، فهوميروس حكّاء وصّاف لما سمع كما تخيّل ، فمن أين تأتيه العاطفة المشبوبة التي لأبي الطيب ؟ أما شاعرنا ، وهو أبو النهضة العربية الواثبة اليوم ، فوصف شيئاً خالط لحمه ودمه وشيّب رأسه، فكيف يخبىء الزمّار ذقنه ؟ فليطوِ طه بركاره ومتره، وليضع زاويته في صندوقته ، فليس الفن مثلثات ومسدسات وموشورات واهراماً . أليس لحبة الثلج ألف شكل؟.. لقد طال لغو الاستاذ حول الشعر العربي . فهو يحدّثنا أبداً عن الشعر اليوناني القصصي كأنه كان — اي طه —

قبل آثينا وحارب مع اخيل طروادة ، أو هندس الاكروبول ورضع مع هوميروس شهداً ، وسمع معه في المهد تلك الأنغام ...

وخلاصة ما أقول : ليس للفن أقيسة ، فالفن يخلق خلقاً ، ولو وصف شاعر كهوميروس حروباً شهدها بنفسه كالمتنبي، لأضطر أديب موقر كالاستاذ طه ان يحاول وضع هذه الأغلال في رقبة الفن ، ولكن الفن كسبع لافونتين يموت من الجوع ولا يلبس الطوق الذهبي .

فليخلق الفنان فنه، وكل فن غير بكر ليس عندي بفن ولو اشبه الذكر الحكيم، ومعاذ الله أن يؤتى بسورة من مثله، فليس وصف المتنبي لما رأى إلا أروع الفن القصصي ، ولطه أن يحكم كما يريد .

إقليمنا وشعر المتنبي

سيقولون : اقليمية . ادب اقليمي . عصبية ادبية . اما نحن فنجيب : الإقليمية باب الادب العالمي فادخلوها بسلام آمنين .

واذا قلنا الاقليمية فـلا نعني الخروج على سيبويه ، فمن يتمرد حتى على الاخفش وثعلب ويونس تُفكّ رقبته . ومن يتطاول على الخليل ، بل على اقل اعرابي ، نجعله عبرةً للعالمين . اننا ندعو الى ادب مرغوب فيه ، الى ادب طازج ، فقد سئمنا اكل القديد . ندعو الى ادب يصور امصارنا تصويراً صحيحاً ، فاقليميـة كهذه تنفع ولا تضر . فليعفنا احباؤنا ، عفا الله عنا وعنهم ، من الزندقة ، فليس من يستعبده القديم مؤمناً مخلصاً ، ولا من يكدح لتضخم ثروة امته الادبية كافراً مرتداً . فالعربية لساننا ، ولنا فيها الطريف والتليد ، فكيف نجحدها ؟

لست اعد الادب الروسي الا اقليمياً ، وغيره مثـله ، وان لم يقم فينا مبدعون يصورون اقاليمهم بالوان لسان العرب يظل ادبنا فاتراً مزاً . تقرأ واحداً من ادبائنا فلستغني عنهم اجمعين .

فليكتب الشامي والحجازي واليمني والعراقي والمصري بلغة العرب ولا جُناح عليه ان استوحى بلاده واستلهم محيطه .

وعدت الدكتور انني اؤدي له حساب البيئـة جملة ، وها هو ذا الدين يستحق ، فلنقل كلمتنا في البيئات الثلاث : الشامية والمصرية والجليلية التي اشار اليها الدكتور فقال :

« كان ينقصه — المتنبي — شيئان : حيـاة راضية ... وبيئة مثقفة ... قوية الثقافة ، رشيدة ، بصيرة بالادب ، قادرة على النقد ، عالمة بالوان الكلام ،

وهذه البيئة لم تتح للمتنبي اثناء اقامته الاولى والثانية في شمـــال الشام » (ص ٢٠٠) . « ولم يكن للبيئة العربية في الشام في ذلك الوقت حظ ممتاز من الثقافة الادبية والعلمية ، وانما كان المتنبي محتاجاً الى البيئة المصرية التي نشأ فيها فن ابي تمام ، والى البيئة العراقية التي نضج فيها فن ابي تمام . اما المتنبي فقد نشأ شعره في العراق وحاول ان ينضج في الشام فأدركه البطء ودبّ اليه الكثير من الفساد وظهر فيـــه تكلف يمقته الذوق العربي الصريح » (ص ٢٠١) . « ولست اشك في ان المتنبي لو اقام في العراق وجه حياتـه لأسرع الى النبوغ، ولاتخذ شعره لوناً آخر ، ولبرىء من كثير من العيوب التي انكرت عليه ، ولاجتنب كثيراً من فساد اللفظ ، ولارتفع عن هذه المبالغات السخيفة التي سيعاب بها شعره ابد الدهر « (ص ٢٠٢) . « والأمر لا يقف عند المتنبي وحده ، فقد اصبح المتنبي ، كما تعلم ، إماماً للشعراء ، فأخـــذ الناس عنه فنه بما فيه من خير وشر ، وكذلك كان استقبال المتنبي شبابه في الشام مصدراً لكثير من الضعف الذي ألمّ بشعره هو ، ثم بشعر الذين قلدوه » (ص ٢٠٣) .

يوطـّيء بهذا الكلام لقوله: « فترك شمال الشام وانتهى الى طبرية واتصل ببدر بن عمار فوجـــد البيئة المثقّفة الناقدة فوثب فنه في اشهر قليلة » (ص ٢٠٤) .

ثم يعود طه الى البيئة مرة ثانية فيقول: « وانا اعلم ان هذه النهضة العقلية والادبية لم تكن طبيعية ولا متوطنة في سوريا الشمالية، وان البيئة العربية في شمال سوريا كانت جاهلة في شباب المتنبي ، وان جهلها قد اثر في شعرالمتنبي آثاراً ظاهرة نكاد نلمسها بايدينا، انما طرأت هذه النهضة طروءاً وظهرت فيها فجأة حين نهض فيها هذا الفتى العربي – سيف الدولة – فلقي شاعرنا في حلب بيئة لم يلق مثلها من قبل ، فيها غذاء لعقله وارهاف لحسه وتقوية لشعوره ،

وفيها قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، ملاحظة متصلة ونقد مستمر وحسد وكيد . فتأثر عقله وشعوره وذوقه بهذه البيئة الجديدة وظهرت آثار هذا كله في شعره الذي قاله في هذا الطور » (ص ٣٣٦ و ٣٣٧)

ثم يذكرها مرة ثالثة بمناسبة بلوغ المتنبي الفسطاط فيثني على مجد تلك البيئة الاثيل وشرفها الأصيل، بكلام مغلق مبهم ، فهو لا يستطيع أن يسمي لنا واحداً ، فيخبرنا عن العلم والعلماء — وهذا لا ينكر — ويغمغم إذ يتحدث عن الأدب والفن لأن هذه البضاعة لم تكن في ذلك البندر بل كانت تصدر اليهم من العراق والشام ، يعرضها أصحابها على امراء مصر فلا تنفق عندهم ، فيعودون هاجين متذمرين كما عاد ابو نواس والمتنبي وغيرهما . لذلك يحدثنا طه عن هذه البيئة الثالثة المصرية حديثاً عاماً مطّاطاً كقوله : « ان البيئة المصرية تالدة لا طارفة ، أو لم تكن عارضة ولا طارئة ، وانها لم تزل بزوال أمير كما حدث في الشام . ولست أغلو ان قلت ان شعر المتنبي في مصر أقل سقطاً من شعره في حلب لأن المتنبي فيما يظهر كان يقدّر العلماء والمثقفين المصريين أكثر مما كان يقدر العلماء الذين كان يلقاهم في قصر الحمدانيين » (ص ٥٤٧) .

هذا الذي ظهر لطه . أما الذي ظهر لي أنا فهو أننا أرسلنا المتنبي إلى مصر ناضجاً كل النضج بعد أن قضى في محيطنا سنين أنمت ذوقه وصيّرت بُسره رطباً وتمراً ، وأذهبت كثيراً من جفاء طبعه ولسانه الذي حمله الينا من البوادي . فاللهجة الشاميّة التي هي أصح لهجات العرب ، والتي تكاد تكون حتى اليوم فصيحة ، هي التي أسبغت على اسلوب الشاعر العظيم هذه الروعة وهذا الاسلوب البعيد عن الكلفة والعجمة ، بل هذه التعابير الدمثة التي يفوح من اردانها عرف المدنية وأريج الحضارة ، لا كتلك الرواسم والقوالب التي تأبطها شعراء العرب أجيالاً فرددوها جيلاً بعد جيل ، وقد حملها الينا

المتنبي حين « شرّف » أرضنا .

كان المتنبي أبصر من زرقاء اليمامة فاترك تلك « القوالب » القديمة حين قال الشعر عندنا . تحضّر فصار كالملبّس على اللوز ، أساس عزبي متين وزخرف فني أكتسبه من لسان الشام . فلو أخذنا ديوان أبي الطيب وقرأنا الشعر الذي قاله في حلب ومصر ، رأينا ان اللهجة الشامية شائعة فيه ، وهي التي صارت للمتنبي فناً تحير الناس في فهم أسراره . ومن يقف اليوم وقفة مدقق يتحقق ان اللهجة الشامية أقرب الكلام إلى فصيح العرب لا تدانيها لهجة الحجاز ومصر والعراق فصاحةً وصحة تركيب .

اننا لا ننطق عن الهوى ، فخذ الكتاب الكريم وقابل بين آياته الخالدة وتعابيرنا ، تجدنا اليوم ننطق بالكثير منها. وخذ شعر المتنبي في سيف الدولة فصاعداً ترَ أيضاً ما قلت لك. والاسلوب الشامي الذي ينعى علينا ابناء عمنا المصريون استعماله هو هذا الذي يدور على ألسنتنا ، ولا يحتاج إلا إلى تهذيب قليل ليصير فصيحاً .

فالذي يلوح لي ان هذه البيئة ، التي عدها طه جاهلة لم تسعف المتنبي على وثوب فنه ، لهي التي خلع لسانُها ولهجتها على أبي الطيب بردة الخلود . لم يكن المتنبي من الشعراء الذين تُخلق معانيهم من ألفاظهم كالبحتري حتى يفتش عن قوالب معلومة ، بل كان يفصّل الألفاظ أثواباً للمعاني، وقد وجد النسيج المطلوب في مخزننا الشامي ، ففصل منه ذخائر وطرفاً للأدب الخالد .

قال طه ان فن المتنبي وثب حين اتصل ببيئة سيف الدولة ، ولكنني رأيته جاءهم وهو أعلم منهم ، فلم يثبتوا له في ميدان من الميادين ، لا في اللغة ولا في غيرها ، فاستفحل عليهم وما كانوا من رجاله . فهو إذاً لا يحتاج لغة ونحواً بل يحتاج ذوقاً وفناً ، وهذا ما خلقه اقليمنا فيه. فماذا أفادت الشاعر بيئة أبي علي الفارسي وقد سمعناه يقول له في أول ساعة : اسكت ، هذا

فوق علمك ؟

ويا ليت شعر طه ، اين كان يتعلم الشعراء — في ذلك الزمان — اللغة والتعبير ، أفي السوربون حيث درس هو الآداب ، أم في البوادي والحواضر التي كانت لهم كأكسفورد وكمبردج ؟ ولو كانت تلك « الحلقات » التي يسميها طه بيئات تعلّم الأدب والفن لما قال صاحب اليتيمة في شعراء القطر الشامي وأولهم المتنبي —

« والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيا أهل الحجاز،وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة اهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم ، ولما جمع شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ».

خص الثعالبي أهلَ العراق بالذكر لان الشعر كان ملقياً بجمله عندهم ، ولم يذكر مصر لانه لم يكن لها حساب جارٍ في متجر الأدب . اما البيئة المصرية التي يتبجح طه بمدحها ويمنّ على المتنبي ، فعدت الى تاريخها وأنصتّ الى تلك الحقبة لما سمعت إلا دجاجات تقوقي وضفادع تنقّ — شعر علماء. فهناك علماء ليس لهم في الادب خل ولا خمر . فلا ديك يصيح حق ولا طماطم تهذي كما قال ابو الطيب في بيئـــة حلب الحمدانية التي يُكبرها طه تضليلاً . ثم ماذا تكون عملت البيئة المصرية للشاعر ، واية خواصه تعزى اليها ، فهل من يدلني على واحدة وله الاجر والثواب ؟ هل من يدلني على اثر واحد وله الشكر ؟ أما لونه الشامي فصارخ ، وهذا ما اسخط شيوخ ابن خلدون ...

لم يشأ الشاعر ان يكون مجارّاً فجاء بتعابير رأوهـــا هم حدثاً عجيباً ، ورأى غيرهم فيها المتنبي مبدعاً . انه لم يتأثر بتلك العبارات المهيأة التي اقتتل عليها الشعراء قبله وبعده ، بل لم يعبأ بكلمتهم المأثورة : ليست على مجرى الكتابة . وهل الاساليب انهر لا تجري إلا في مسيلها ؟.

لمحيطنا وحده كان مدرسة الشعر والشعراء لا تلـــك البيئات التي هي جماع من هاهنا ومن هاهنا كما تتجمع الاغربة، والدليل على ذلك قول الثعالبي أيضاً: واخبرني جماعة من اصحاب الصاحب بن عبّاد انه كان يعجب بطريقتهم المثلى ... ويستملي الطارئين عليـــه من تلك البلاد حتى كتب دفتراً ضخم الحجم وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ احد منه عينه غيره . (اليتيمة ، جزء ١ ص ٦ و ٧) .

وهذا صاحب وفيات الاعيان يؤيدنا بقوله : وفي بلاد الشام خرج المتنبي الى البادية فشافهَ الاعراب - الذين سماهم طه جهلة (ص ٢٠٢) — وبلغ غايته من البيان ، وكانت اللغة يومئذ لا تزال صحيحة في البادية ، وكان علماء اللغة يغتنمون قدوم الفصحاء من اهلهـــا ليحاوروهم في أساليبها ويستأنسوا بسليقتهم في تقرير قواعدها واستبانة الصواب فيما استبهم من مسائلها (معجم الادباء ٥ — ٢٨) .

فنحن كنا مع صاحبنا المتنبي كدنياه التي قال فيها : « فلما دهتني لم تزدني بها علماً ». قد نكون لم نزده علماً، ولكننا، رققنا حواشيه. واستهوته لهجتنا ففصّلها حللاً للشعر الرائع ، وقد ظهر ذلك ابرع ما يكون في مدائح كافور واهاجيه ، فخلب ألباب ذوي الاذواق السليمة ولم يسخط إلاّ المتقعرين .

وسنتحدث طويلاً عن هذا الاسلوب الشامي في اثناء بحثنا القصة اللبنانية ونبين محاسنه وما فيه من قوة وضعف . وهـــذا الاسلوب سبب الخلفة بيننا وبين ابناء عمنا المصريين ، فهم يريدون منا ان نعبّر بما لا نحسّ ، ونحن نرى في بيتنا ما يغنينا عن الالتجاء الى غيره ، فنمشي في سبيلنا ولا نجعل كلامنا على القوالب المعلومة وشرطها .

ان المتنبي مدين للبيئة الشامية في اكثر خواصه الادبية، وهذا الذي تمنّى بلاشير ان يتذوّقه كما جاء في المكشوف (عدد ٨٥ ، ص ١١) .

قال بلاشير : « ان العقاد والمازني ، الخ ... يطلعوننا بدقة على الاهواء الوطنية والقومية التي يغتبطون بايجادهـا في اقوال مادح سيف الدولة ، وهم بخلاف ذلك عاجزون عن بسط الاسباب « الادبية » الخاصة بهم والتي تجعلهم يتحمسون لبعض ابيات المتنبي . لا نقول هذا لانهم اهملوا ذلك في مؤلفاتهم ، بل لانهم عندما يبحثون اسلوب ابي الطيب يكتفون غالباً بنقل احكام النقد القديم .

« فبالنسبة الينا – اي الى المتمشرقين – لا يزال سر بعض الابيات التي يؤخذ بها الشرقيون كما هو ، لا من حيث الفكرة التي تعبّر عنها ، ولا من حيث الفن الذي تتجلى فيه ، ولا من حيث الايقاع الذي تتصف به ، بل من حيث تمازجات مؤتلفة بين الاحرف الصوتية والساكنة لا تستطيع اذننـــا تذوّق سحرها » .

قلت : لقد طلب الاستاذ بلاشير امراً صعباً، فهو يريد ان يتذوق موسيقانا الشعرية المنبثقة من تمازجات مؤتلفة بين الاحرف الصوتية والساكنة . فكأني بالاستاذ يتحدث عن لغته لا عن لغتنا، ثم ليس الحق علينا بل الحق كله على من خلق بلاشير هكذا، فعسى ان يخلقه خلقاً ثانياً ليدرك هذا ويتذوقه، فهل يفهم مولانا بلاشير خصائص حروفنا فهماً صحيحاً ليطرب لها طرب العربي، بل هل يستطيع التلفظ بها تلفظاً كاملاً ، ولا أقول صحيحاً ؟ فهبنا دللنـــاه على ذلك فهل نستطيع أن نعمل عجيبة، فنخلق بلعوماً وخياشيم جديدة تحسن اخراج العين والغين والحاء والخاء وغيرها من فمه ؟ رحم الله المطران جرمانوس فرحات القائل :

كأني حَرْفُ الحلْقِ والدهرُ إفرنجي

فالذي لا يستسيغ الحروف ولا يحسن التلفظ بها لا يحسّ موسيقاها .

ويقول الاستاذ بلاشير ان الطلبة المراكشيين سمعوا منه شرح ثلاث قصائد

فضحكوا لمعانيها ، أما أنا فراجح عندي انهم انمـــا ضحكوا لمنطق الاستاذ بلاشير ... أما الأسباب « الأدبية » التي يطلب بلاشير إيضاحها عند نقـاد العرب فلا يجدها ، ويسعى وراءها عند المتمشرقين ، فلا يظفر بشيء ، فلعلنا نعود اليها في آخر هذه الفصول فنتحدث عن فن المتنبي ، وتأثيره في العقل العربي . أما الآن فنقول للاستاذ بلاشير : على من يريد تذوق أدب أمة تذوقاً تاماً ، أن يدرك أسرار تلك اللغة ليفهم ما يقرأ فهماً غير منقوص . فبلاشير وزمـــلاؤه المتمشرقون يتلهون بقشور لغتنا ، والذي يبلغ اللب منهم قليل وجوده . وبرهاني على ما أزعم عمل بلاشير نفسه ، فقـد فتحت ، عرضاً ، كتاباً ألـّفه بلاشير لبني جنسه الراغبين في تعـلم العربية ، فرأيته يترجم لهم « مضى لسبيله » أي مات : IL continua son chemin (راجع ص ٣٥٢ من كتاب بلاشير المطبوع في بيروت) .

ان فهماً كهذا لأسرار اللغة العربية لا يمكـّن صاحبه من تفهّم البهاء زهير ، فكيف بشاعر ضخم كالمتنبي حيـّر الشرّاح العرب ؟

في حلب

نحن في الشهباء، والدكتور يعرض علينا شعر المتنبي في سيف الدولة من :
« وفاؤكُما كالربعِ أشجاهُ طاسمُهْ »، إلى : « فهمت الكتابَ أبرّ الكتب ».
ويبادرنا بشرح لا يغذّي ولكنه يملأ الكرش ... يوسوس في صدره شيطان
النقد فيريه اختلافاً بين الميمية التي يستقبل بها الشاعر سيف الدولة ، وبين
الدالية التي استقبل بها بدر بن عمار — « أحلماً نرى أم زماناً جديدا » —
فيقول : كان المتنبي في مدح بدر مندفعاً شديد الاندفاع يكاد لا يملك نفسه،
وكان يلائم بين شعوره وشعره، فيصطنع البحر المتقارب الذي يصور اسراعه
إلى الأمير — بدر بن عمار — . أما ميميته في سيف الدولة فلا تصور اسراعاً
ولا اندفاعاً ، انما تصور أناةً ومهلاً . وأنا اقدّر ان المتنبي كان في الخامسة
والعشرين حين اتصل ببدر ، وكان في الرابعة والثلاثين حين اتصل بسيف
الدولة ، وأنا اقدّر اثر الشباب في ذلك الاندفاع واثر الكهولة في هذه الاناة.
(ص ٣٤٦) .

هذا ما قدّره طه . أما أنا فاقدّر ان طه أمسى يحسب قرّاءه همجاً فينثر
عليهم مثل هذه المزاعم ولا يستحي . يحدثهم عن الاندفاع « البحري » كأنه
حقيقة" لا شك فيها حتى يعزو مثل هذا السخف إلى بحور الشعر . ثم يصدق
نفسه فيلتمس لذلك الاعذار فيحتج للبحر الطويل بالكهولة، وللبحر المتقارب
بالشباب . فهل يقول لنا طه لماذا اصطنع المتنبي البحر المتقارب ، قبل موته
بعام ، حين أجاب سيف الدولة على كتابه الأخير ؟ أليظهر له اسراعه اليه ،
أم تراه استغاث بالدكتور فورونوف فأرجع الشيخ إلى صباه موجع القلب
باكيا؟! ..

انها رحـــلة سندبادية قام بهــا طه لأجل الفن ولكنه ضاع حيث تناطح البحران ... ان ضِرّاتِ هذه السفاسف كثيرات عند طه . رأى تصريعاً في شعر المتنبي الاخير فخاله ضرباً من التجديد ، وترجّى حدثاً عظيماً ، لو عاش الشاعر ، ولكن العقاد، صديق الدكتور، ادرك هذا الشطط فنبهه اليه واسقط عنا هذه المؤونة . وهناك افتراضات غير هذه يحاول بهــا فك طلسم البحر الطويل والقافية الميمية ، فهما في نظره اشد خطراً من تلك العقد التي نفثتهــا هند لابن ابي ربيعة ... فيتساءل لماذا اصطنع المتنبي كلمة الطاسم وعدل عن الكلمة المألوفة وهي الطامس ، ثم لماذا اختّر الجار والجرور عمداً ، الخ ؟..

ولو فعل المتنبي كما شاء الاستاذ لقال بلا شك : ما اثقلها قافية ! انظروا الى هذه السأساة . وبعد دوران ولف طويلين ينتقل الى البيت الثاني :

وما انا الا عاشقٌ ، كلُّ عاشقٍ   أعقُّ خليليه الصفيّينِ لائِمُه

فيرى فيه – وهذا اغراب القدماء – فصلاً تعمّده الشاعر ليثير استطلاع النحويين . ان في وسع طه ، لو اختار الوصل، تقدير الواو ، وهذا ورد عن القدماء كقول الحطيئة :

ان امرءاً رهطُه بالشامِ ، منزلُهُ   برمل يَبْرِينَ ، جارٌ شدّ ما اغتربا

والمتنبي لا يرى في الاغراب بدعاً ، ولا في الجري على خطة القدمــــاء حرجاً . وهناك وجه آخر غير هـــذا لم يقله القدماء ايضاً وهو عندي خير الوجوه . فما علينا ان جعلنا « كل » نعتاً لعاشق، وهذا كثير في كلام العرب كقول الشاعر :

وان الأُلى حانت بطلحٍ دماؤهم   هم القومُ ، كلُّ القومِ ، يا أمَّ خالدِ

ما أرى المتنبي يلحن ، وانصح لمن يخطـّئه ان يقرأ عشر ليال قبل ان يفعل ، فما رأينا أحداً ساوره وبزّه ، بل لم نر حرفاً في كلامه الا قد جرى على لسان العرب. وما اخال المتنبي في شأشأته، وفأفأته، ومأمأته الخ.. الا فاعلاً

ذلك لأمر ما ، لا لجهل وقلة ذوق .

اما تعليل طه لقوله :

كثيباً توقّاني العواذلُ في الهوى كما يَتَوَقّى رَيّضَ الخيلِ حازِمُهْ[1]

فقد طبّق فيه المفصل كما يعبّر القدماء ، فالمتنبي شموس حرون حتى في هواه ، وبيته هـذا بلاغ وانذار للامير ... ويصف الشاعر تصاوير على السرادق المنصوب لسيف الدولة فيقول طه : والخطأ كل الخطأ ان يظن قارئو هذا الوصف لما كان على الخيمة من تصاوير ان المتنبي قد ارتجل هذا الوصف ارتجالاً ، والخطأ كل الخطأ ايضاً ان يظن ظان أن المتنبي قد ابتكر هـذا الوصف وجـاء به من عند نفسه « ص ٣٦٠ » . ويذكرنا بوصف ابي نواس للكؤوس ، ووصف البحتري للايوان • ويظن ان المتنبي قرأه وانتفع به .

ليس فينا من يظن ان المتنبي لم يقرأ وصف القدمـاء ، ولكنه قرأه ليتحاماه ويبزّ قائليه « فشخصية المتنبي لا تضعف ولا تتضاءل امام الفحول الذين سبقوه ، ولكنها تثبت لهم وتقوى عليهم ، وهذا ما يعترف به .

وبعد ان يشبع هذه الميمية عركاً وعَرْقاً يقول : « ان المتنبي قد بهر وراع وملأ القلوب والاسماع » بهذه القصيدة ولكنه يحتاج الى شيء آخر وهو « الذلة والملق » ، ويؤيد زعمهُ هذا بقول الشاعر لاميره من قصيدة :

ليت أنّا ، اذا ارتحلتَ ، لك الخيل وأنّا ، اذا نزلتَ ، الخيام

ثم يسأل القارىء : « وما رأيك في هذا الشاعر العظيم الذي يفاجر الشعراء ويستعلي عليهم ويسرف في الكبرياء ثم يتمنى ان يكون فرساً يحمل الامير اذا سار ؟ » قلت : الجواب عند المتنبي ، أولَم يقل لأميره :

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بعد الجوادِ أنكرَ أظلافَـه والغَبَبْ[2]

---

(١) ريض الخيل : المهر او ما يراهق .

(٢) الغبب : اللحم المتدلي تحت الحنك من البقر .

هذه بهذه يا استاذ ، فشاعرنا دنيا ، وان تعدّوا نعمة لا تحصوها .

وينظر في المراثي فيقرر ان المتنبي لم يكن يصدر فيها عن العاطفة بل عن العقل والفن ، ويعرض علينا رثاءه ام سيف الدولة قائلاً : وما اظن الا انك ستوافقني على ان الشاعر اعتمد على فنه اكثر مما اعتمد على أي شيء آخر (ص ٣٧٩) . وفتشت عن هذا « الشيء الآخر » فرأيت ان رثاء النساء المُحْصَنَات صعب جداً ، وشكرت لأبي الطيب هذه الكياسة التي أزّر بها في هذه المحارم . ويمضي بنا الدكتور الى قول الشاعر :

يُدَفّنُ بعضُنا بعضاً ويمشي   أواخرُنا على هـــامِ الأوالي

فتخطر له الفلسفة العلائية فيخبرنا هنا ، وفي مواطن شتى ، ان هذا الشعر كان نواة فلسفة المعري . قد زعم حقاً ، ولكن النواة لا تؤدي المعنى تاماً . فالمعري ، في نظري ، شارحٌ لكليات قررها أبو الطيب في شعره ومضى كما يفعل الشاعر . فجاء هذا الضرير يكبّرها فأفقدها الكثير من روعتها الفنية .

ويقول المتنبي لسيف الدولة في هذه القصيدة :

وان تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم   فان المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

فيقابله طه بقول المتنبي من ذي قبل :

ومـــا أنا منهُمُ بالعيشِ فيهم   ولكنْ مَعدِنُ الذهبِ الرَّغَامُ

ثم يقول : « والمتنبي حرٌ أن يسرق نفسه » . فهذه « اليسرق » شاهد عدل على حكومة طه ونزاهتها ...

ويرى طه ان القافية الشهيرة – يا أختَ خيرِ أخٍ ، يا بنتَ خيرِ أبٍ – التي أحرقت قلب ابن عبّاد هي أجمل ما قاله المتنبي في الرثاء، لسيف الدولة ، ولكنه يتعجب كيف يَشرَقُ الدمع بالمتنبي . ثم يناقش الاستاذ محمود شاكر الذي زعم ان المتنبي أحب خولة المرثية بهذه القصيدة ، فلا « يرى فيها مـا يدل على صلة أو شبه صلة قريبة أو بعيدة بين المتنبي والفقيدة »

قلت: ان هذا الجزم القاطع المانع لا يقبل من طه وهو الذي تبنّى مذهب ديكارت وبشّر به، ولاسيا ان في هذه القصيدة شبهة تدعم ظن الاستاذ محمود. فما حدث بين المتنبي وسيف الدولة وابني عمه يثير شكاً قوياً . ومم يخاف الشاعر ليعقّب على قوله :

يَظنُّ أن فؤادي غيرُ ملتهبٍ ، وأنَّ دمعَ جفوني غيرُ مُنسكبِ

بقوله :

ولا ذكرتُ جميلاً من صنائعِها إلا بَكيتُ، ولا وُدٌّ بلا سَببِ

فمثل هذا التبسط، بل مثل هذا التعليل لا يُطلب من الشعراء. انها عاطفة حاول الشاعرُ إخفاءَها فأبت إلا أن تمد أذُنيها ، وتظهر بصور لا تخفى على متأمل لا هوى له .

ثم بماذا نعلل هذا الحنين الدائم إلى سيف الدولة وهو مصطبغ بألوان الحب أشد اصطباغ :

رحلتُ فكم باكٍ بأجفانِ شادنٍ عليَّ ، وكم باكٍ بأجفانِ ضيغمِ
ولو أنَّ ما بي من حبيبٍ مقنَّع عذرت ، ولكن من حبيبٍ معمَّم
رمى واتّقى رميي ومن دونِ ما اتقى هَوىً كاسرٌ كفّي وقوسي وأسهمي

وما معنى ذلك الائتمار بقتل الشاعر العظيم وقد تشاركت فيه الاسرة الحمدانية من انطاكية إلى حلب ومنبج ؟ أتبرّئه الأسباب « الأدبية » التي رواها المؤرخون؟ ولماذا دعا الأمير شاعره بعد موت خولة، ولم يستدعه حين كتب اليه أول مرة ؟ كل هذا يقرّب زعم الاستاذ محمود من الحقيقة ، فليشكّ شاكر فليس الشك ملك طه وحده .

وبعد ، فلماذا لا تحب « ست الناس » أشعر الناس ؟ فهو نجيّ أخيها وناموسه ولسانه وسميره. لقد أمسى عديله وان صاهره فما يصاهر امرأ سوء . فها هما دون الناس على فرسيهما في ساحة حلب ، وأمير القلم ينشد : لكل

امريءٍ من دهره ما تعوّدا .

وماذا تريد خولة بعد ؟ لست الحظ أسعد اخت أمير السيف بزفافها إلى أمير القلم ، لنبارك لها بهذا العريس الفذ ، ولكن ان أراد سيف الدولة فأبو فراس الحسود ، وأبو العشائر الكنود لا يريدان . وما قدّر كان .

وبعد ، فكاد سيف الحمداني يستريح في قرابه ، وكاد صدى « الطـائر المحكي » يَنْبَتّ ، والاستاذ الجليل مـا انفك يعبث بالروائع الفنية كما تفعل الأطفال بالدمى. يؤدي لنا خطة، لو نهجناها فيما كتب ، من «الشعر الجاهلي» إلى « مع المتنبي » ، لمـا بقي لدكتورنا الجليل شيء يعتز به ، وأصابه مـا أصاب ذلك المسكين الذي قيل فيه : لو قال الحاكم فليقف كل في عقاره لوقف على السكّة .

لا تؤاخذني أيهـا القارىء قبل أن تقرأ ، فهي غضبة للحق أولاً ولطه ثانياً . قد رأيته يدرز درز القاضي الجرجاني واضرابه . ويفعل كأبي فراس الحسود في نقد « واحرّ قلباه » . وإذا طغى هـذا النقد أصبح الفن لعبة صبيان . إن الالفاظ والمعاني مشاع كما ان القلـم ملك المثّال ، والصباغ ملك المصوّر ، ومن يحسن فحظه ذكرٌ باقٍ ، ومن أساء فموت ونسيان .

ويحمل الاستاذ فانوسه العجيب ثاني مرة ويحلل على ضوء « الاندفاع البحري » قصيدة : « إلامَ طَماعيَةُ العاذل ؟ » فيرى « هذا المتقارب يلائم اندفاع الخيل في طلب العدوّ ومـا يكون بينها وبينه من كر وفر ، ويلائم كذلك اسراع الأمير إلى نجدة ابن عمه». ترى لو كان قالها المتنبي على المتدارك ماذا كان يفعل طه ؟ لا شك انه ينطّ قامتين ، ويرى فيها ما لم يره ابو نواس في الخمرة . لست أذكر لك ما حاك طه حول القصيدة من أساطير ، ومـا خمّن وزعم ، فارجع إلى ذلك في مكانه لتعلم أن في يد الدكتور مقلاعاً فنياً دونه مقلاع داود، ولكنه لا يصيب إلا واحدة من الف . وما تأوّله من خير

في المتقارب يتوسمه أيضاً في الوافر،فيراه لا يقل بهلوانية عن ذاك فهو « يسيرٌ سهل سريع يكاد لا يتأتى فيه الوقوف،وليس أقل من المتقارب ملاءمةً للسير اسريع اليسير في الفضاء الواسع السهل » (ص ٤٠٨). وهكذا يتركك « بغيرك راعياً عبث الذئاب » مطمئن القلب يحسب انه قال فيها شيئاً كثيراً .

ولكن المتنبي نظم أيضاً آخر قافية على هذا البحر وفيها يقول :

وأنّى شئتِ يا طُرُقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكا

فهل يظن طه ان الشاعر « اصطنع » الوافر أيضاً لأنه مستعجل ليلاقي الموت الذي ينتظره عند دير العاقول ... من يدري ؟ قد يكون المتنبي نبياً وآياته هذه البحور التي تتكشف عن مخبّآت الغيب على يد طه .

وهنا ، وهي أول مرة ، يذكر الدكتور المتنبي بخصلة كريمة وان مازج قوله الشك : « فلست أستبعد أن يكون المتنبي قد وفى لهؤلاء الناس — بني كلاب — وعرف احسانهم اليه وبرّهم به فجزى خيراً بخير وإحساناً باحسان » .

وتخفّ خطوات الاستاذ في تأريخ سيفيات المتنبي بعد أن سار سيراً رويداً صدقنا لأجله : ما لِلجمال مشيّها وئيداً . ثم وقف بنا حيناً على « غيري بأكثرِ هذا الناس ينخدع » وشرحها شرحاً وافياً،وان سمعت نصيحتي تقرأه في محله من الجزء الثاني . ولا يخامرك شكّ في أن النقد اعلان مسبوب صاحبه غير مأجور .

ثم ينتقل بنا إلى « لياليّ بعدَ الظاعنينَ شُكولُ » وهي عنده — وعند كل لبيب مثله — آية من آيات أبي الطيب . كأني بطه قد تخيّل الراقص على الحبل عند نيتشه فشرح على غطه حركتها وخفتها ورشاقتها بصورة رومنطيقية لا بأس بها .

وإذا كان لا بد من قول شيء فاسمع ما قاله فيها : « صاغ الشاعر هذه

القصيدة على مثال لامية السموأل ... فاصطنع نفس الوزن ، ونفس القافية ، ونفس اللغة أيضاً – يريد أن يقول الوزن نفسه ، الخ ... – بل هو استمار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعاني والأساليب، ولكنه لم يصنع ذلك تقليداً ولا احتذاء ، وانما أعجبه هذا المذهب الشعري فعارض السموأل ولم يتخذه اماماً » .

حُلْ لنا طلاسم طه ان كنت تضرب في الرمل،واحضر لنا المتني لنسأله كيف فعل ، ان كنت كعرّافة شاول ... اصدّقت قولهم : عش رجباً ترَ عجباً ؟ فأية قصيدة في الأدب العربي لا تجمعها أواصر قربى الوزن والقافية واللفظ باخوات لها ؟

وهكذا تنطوي سيفيات المتنبي ولا يدلنا الدكتور في الآداب على شيء من عناصر فن الشاعر ، ولكنه يرافق بلاشير فيؤرخ كالعلمـــاء ، ويمشي ، وحده ، فينتقد كالناشئين... لعنها الله رحلة ، تغرينا لنأكل الكباب فاشتهينا المرقة . وإذا شئت صحناً من عصيدته فخذ : « وستمضي أنت في قراءة هذه القصيدة كما مضى المتنبي في اتباع سيف الدولة مندفعاً من بيت الى بيت ، منتقلاً من مقام الى مقام ، صاعداً مع الجيش حين يصعد ، ومنحدراً مع الجيش حين ينحدر ، ودائراً مع الجيش حين يدور حول العدو ، ثم هاجاً مع الجيش حين يهجم على العدو ، (ص ٤٤١) فالشاعر مفنّ ، والشاعر مادح ، والشاعر قاصّ ، والشاعر هاج ، والشاعر مفاخر متحمس ، والشاعر يجمع اكثر فنون الشعر في هذه القصيدة التي لم تسرف في الطول »(ص٤٤٣).

واخيراً يراها أروع ما قال المتنبي لسيف الدولة فيقف ونقف معه امامها وقفة ابن السبيل امام القافلة ، فلا يدري ولا ندري ما في حمولتهـــا ... ثم يسألك ان تقرأ معه بعض ابياتهـــا لترى انه ليس مسرفاً ، ويعرض عليك كـوْكَبَة منها . وتبرئة لذمتي اخبرك ان طه رأى ، في مطلع القصيدة

والبيتين اللذين بعده ، كما جاء في قانون الايمان : ما يُرى وما لا يرى – اظن هذه العبارة ذكرتك اديباً فذاً هو المرحوم اسكندر العازار ، ان كنت ممن يقرأون ولا يمرون كبعضهم مرور البقرة على قبر صاحبها – ويعتذر عن هذا الفهم المغلق برأي شعراء اوروبا الرمزيين فيقول : « وانما أُريدُ من الشاعر البارع كما اريد من الموسيقي الماهر ان يفتح لي ابواباً من الحس والشعور ، ومن التفكير والجمال ، وما اشك ان المتنبي قد وفـّق الى هذا التوفيق كله في هذه الأبيات » .

وفي غيرها ايضاً ، وهذا ما كنا نتمناه . تمنينـــا ان تحسّ ولو مرة لئلا نشكّ فيك ، اما وقد فعلت فلنتلُ ترنيمة الشكر ...

ويختم هذا الفصل معتذراً عن ترك درس قصائد اخرى وينصح للقارىء ان يتدبر مثله قصائد اخرى سماهـــا له مثل : على قـَدْرِ أهل العزمِ تأتي العَزائِمُ . أراعَ كذا كلّ الأنامِ همامُ . ذي المعالي فليعْلُوَنْ من تعـــالى . الرأي قـَبْلَ شجاعةِ الشجعان . ولكنهـــا محاولةٌ تـَفـْلـَق ، فعندي ألا يجرّبَها احد .

وينظر طه نظر المؤرخ البصير الىالابيات التي يراها تتصل بحياة ابيالطيب السياسية في مصر والعراق ، تلك التي كان يعرّض فيها بمنافسي سيف الدولة ككافور والخليفة نفسه ، فيصيب كثيراً ويخطيء قليلاً . اخطأ حين ظن ان المتنبي قصد الى مُعِزّ الدولة بقوله :

فواعجباً من دائلٍ أنـْتَ سيفُه   اما يتوقـّى شـَفـْرَتـَي ما تـَقـَلـّدا

فيرى الشاعر يهاجم الخليفة تصريحاً لا تلميحاً ويرسل اليه نذيراً لا لبس فيه . ومـــا هذا الا صورة شعرية اعجبت الشاعر ، فما نزل عنها ولا بالى بعواقبها .

ويقول في هذا البيت :

اذا كان بعضُ النـّاسِ سيفاً لِدَوْلـَةٍ   ففي النـّاسِ بُوقاتٌ لها وطـُبُولُ

غير الذي قاله ابن عبّاد ، ويراه من روائع المتنبي ، وللناس فيا يعشقون مذاهب .

ويمر الاستاذ بشعر المناسبات فيرذله اي رذل ويكيل له ولقائله الاحتقار بالمدّ ، وهذا اقل ما يستحق وان كان قائله المتنبي . اما هذا الشعر الذي يقوله البلداء في هذا الزمن فعليه لعنات يوم ايوب الف مهر .

وقد احسن الدكتور جداً اذ دل على شعر المناسبات المتنبّيّ . فقد ظن سواد الادباء ان شعر ابي الطيب كله شعر مناسبات ، ولو تأملوا قليلاً بعيون انفسهم لميزوا هذا من ذاك .

وبعد ان يشبع من ازدراء هـذا الشعر ينتقل الى النظر في انذار المتنبي لأميره بالذهاب عنه فيجيد التحليل والتقدير . وما احسن وصفه نفسية المتنبي بعد انشاده : « واحرّ قلباه » فهو يصورها أحسن تصوير بقوله : وقد خرج المتنبي من هذا المجلس آمناً كالخائف،وخائفاً كالآمن . ومثل هذا في الحسن قوله من قبل في هذا البيت :

فــلا يتّهمْني الكاشحونَ فإنّني   رعيتُ الردى حتى حلَتْ لي عَلاقِمُهْ

« فلست ادري لماذا وجدت فيه حلاوة مرة لا آخر لها » .

ليته يشعر دائماً مثل هذا الشعور ، وسواء عندنا أدرى أم لم يدرِ . ويختم الكلام على المتني في حلب بقوله : « والغريب ان افتراق هذين الصديقين كان شراً عليهما جميعاً » .

أبعدْ اللهمّ عنا هذا الشر لندخل أرض مصر آمنين ونزور الفسطـاط ، ونرى ذلك البحر الذي أزاره الشاعر حياته وهواه ، فابصر الوجه الذي كان اليه تائقاً ولقي المَرَوْرَى (١) والشَّناخيب (٢) دونه . اللهمّ آمين ،

(١) المرورى : جمع المروراة ، وهي الفلاة الخالية .
(٢) الشناخيب : جمع الشنخوب ، وهو رأس الجبل .

عند الشمس السوداء

أقبل الشاعر على الفسطاط بعدما تغضّرت خيله من النيل، واستذرت بظل المقطم ، فإذا بالمرعى عابس لا يحرك شهوة، فاستعاذ بشيطانه الرجيم فألهمه : « كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافياً » .. هذا الشطر ، وحده ، يستوعب وحشة الشاعر في الوادي، وما ألقته سحنة كافور من الرعب في نفسه . كأني به توقّع قبحاً مقبولاً فإذا به يرى بشاعةً عبقرية فاضلة على الكفاية، فنكدتْ عيشه النظرة الأولى ، وعلم انــه استبدل بغزاله قردا ، فأدمى شفتيه ندامة وصاح ساخراً من نفسه ومن ممدوحه

أبا المِسْكِ، ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقاً إليه ، وذا اليوم الذي كنتُ راجيا

واستقر في مصر على مضض يرثي نفسه وأميره المحبوب ، ويهزأ بممدوحه البغيض ، وكأني به قد عناه ، قبل أن يراه ، حين قال :

ومن نَكَدِ الدنيا على الحُرّ أن يَرى عَدُوّاً له مــــا من صداقته بُدُّ

وعُني طه بدرس مقام الشاعر الجديد الذي كان يتهدد بــه سيف الدولة حين قال :« لئن تركن ضُمَيْراً عن مَيَامِينا »... فإذا بالندم قد أ كل قلب الشاعر قبل قلب الأمير . قد فرّق طه أحسن تفريق بين المقامين ، في حلب والفسطاط ، وأجاد في الفصلين الأولين من الكتاب الرابع ، وزبدة ما مخضه أن البطالة والخمود يشغلان أبا الطيب في نفسه . ولطه آراء طريفة حين يؤرّخ، فيمشي مِشية صاحبة المُنْخَل إلى الغدير، أما إذا جاءت نوبة النقد فيذكرك أبا مرّ قال .

دلته حياة المتنبي الجديدة على سذاجة لأنه المخدع ، ورأى في كافور الذي عبّر عنه بالمصريين سياسياً لبقاً لأنه خدّع . فالمتنبي « كان شاعراً كغيره من الشعراء ورجلاً كغيره من الناس ، ظنّ نفسه حراً ولم يكن إلا عبداً للمال ، وظنّ نفسه صاحب رأي ومذهب ولم يكن إلا صاحب تهالـــك على المنافع العاجلة » (ص ٥٣٧). ثم يقابل بينه وبين المعري الذي انكر الملوك والامراء وزهد في التقرب اليهم ، حتى قـــال كالجازم : « ولم يكن أقلّ شاعرية من المتنبي » .

اما إعراض المعري عن السلاطين فأسبابه معلومة . قد رأيناه يدغدغ ام دفر في العراق فتعرض عنه بجفلة ويرجع من بغداد رجعة مشؤومة تنكر على طه قوله .. اما تقويم شاعرية ابي العلاء فليس هنا محله، وقد سعّرناها مراراً وكفاك من القلادة ما احاط بالعنق ، كما يعبّر القدماء . واذا كان الحب يعمي عن المساويء، فالبغض يعمي عن المحاسن والحقائق، كما قال الجاحظ، وحسبنا من طه اعترافه ان هذه العصا من تلك العصيّة .

ويتمخض طه ويتوجع ليرسلها صرخة داوية تزعج الحي —لا ادري اذا كانت الاخيرة — فيقول : « ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها وانما خدع معها كثيراً جداً من الناس فظنوا به ... وليس هو من هذا كله في شيء ، انما هو رجل من اهل زمانه ولم يمتز منهم باخلاقه انمـــا امتاز منهم بلسانه » (ص ٥٣٩) .

وهل كان يظن انه يمتاز منهم باذنيه وذنبه ؟..

ثم يراه : اقبل على كافور وضيعاً ذليلاً قد هان على نفسه فهانت نفسه على الناس ، وانه لم يصف احداً كما وصف نفسه حين قال :

واذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلب الطعنَ وحدَه والنزالا

أحَشَفاً وسوء كيلة يا استاذ ؟ لا اخلاق ، ولا اباء ، ولا شجاعة ايضاً ؟

هذا بغي . أنسيت ما قلته (ص ٢٣٩) في وصفه لمصرع اسد ابن عمار :
« فهذا كلام يكفي ان تنظر اليه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة وترى فيه فتوّة وقوة ما ارى الا ان الشاعر قد استعارهما من نفسه وخلعهما على ممدوحه » الخ ». ثم في (ص ٣٢٠) : « ان ابا تمام والبحتري لم يشتركا في الجهاد كما اشترك فيه المتنبي ، ولم يشهدا مواقعه كما شهدها المتنبي » . فهل من يجاهد ويحارب ، هل من يهاجم الامير الحمداني في ديوانه المحبوك ، ويخرج منه آمناً كالخائف كما قلت ، ثم يرتمي بين سواعد الجبال ، وفي أحضان الفيافي والتنائف ، لا تروعه الطريق المقنّعة بفضل إزار لبنان الذي لا تحلّ حبوته إلا في تموز وآب ، هل يكون هـذا جباناً يطلب الكر وحده والنزالا ؟.. ثخينة يا دكتور !..

المتنبي اشجع من مشى عليها ، وهو من المفارد الذين يغيّرون وجهها ، وكان لو ساعد المقدور ينتصر ... ان بني اسرائيل خرجوا من مصر سائرين في خفارة إلههم الدموي رب الجنود ، فشق لهم البحر الاحمر فعبروا ، وكان فرعون وقومه من المغرقين . وفجّر الرب من الصخور ينابيع ، وتقدّمهم عمود الغمام نهاراً ، وعمود النور ليلاً ، ورزقهم المن والسلوى و ... و ...
أأقص عليك حكايات التوراة ، وما جاء في الزبور من تغنّي داود بهذا الظفر ، لتعذر المتنبي على مقصورته ؟ اما المتنبي فأراه اعظم من امة كاملة انصرف وحيداً ما معَهُ إلا الصبر ، من وجه الذي :

يدبر المُلْكَ من مصر الى عَدَنٍ   الى العراقِ فأرض الشّامِ فالنُّوبِ

لا يعاونه رب ولا تؤازره معجزات . أتظنه فعل ذلك ليطلب الكر وحده والنزالا ؟ فألف مرحى لهذا النقد ... هـذه غلطة بألف يا شاطر ، اياك ان تعيدها ...

ويلوي طـه كجيران العَود على نفس الشاعر منادياً متفجعاً كأنه ينعاه

الينا لنؤجر فيه : « ماتت نفس المتنبي ... ماتت نفس المتنبي ... ماتت نفس المتنبي او كادت تموت ولم يبق منها إلا رمق ضئيل لم يكن خير ما بقي منها ، إنما كان شر اجزاء نفسه واهونها على الناس حين يلتمسون الخلق والفلسفة ، وكان خير اجزاء نفسه واكرمها على الناس حين يلتمسون الشعر والفن والغناء » .

ليس لك ان تسأل كيف كانت امس فلسفة المتنبي اساس الفلسفة العلائية النبيلة ، ولا كيف امست الآن شر اجزاء نفس المتنبي . لا، ولا ان تقول كيف يكون الاصل فاسداً والفرع صالحاً . ان هذا لا يعنيني ولا يعنيك ، فعميد كليـة الآداب كسلاطين آل عثمان مقدس غير مسؤول ... ومن شاء فليؤمن .

ويلاحظ الاستاذ بلاشير ان كافوراً طلب الى المتنبي وصف دار جديدة انتقل اليها فلم يزد ابو الطيب على وصف كافور، وتهنئته بهذه الدار . فتوحي كلمة بلاشير هذه الى طه فصلا كاملاً يبحث فيه وصف الطبيعة في شعر المتنبي فرآه معرضاً عنها لانشغاله بنفسه والناس . أما الذي لاحظته أنا بهذه المناسبة فهو أن طه يحسن جرّ الخيط إذا استلمه ، وانه أبداً في حاجة إلى من يسلمه إياه، وبلغة أوضح ان طه فاعل ماهر في التمهيد والتعبيد، أما أن يخطط طريقاً فليس هذا شغله ...

لا أدري كيف يكون وصف الطبيعة والعمران ، أحين يقف ابو الطيب أمام الأهرام كما وقف إسمعيل صبري؟أليقول قصيدة من طراز «دار البطيخ» كابن الرومي ؟ شتان بين المزاجين والعقلين. المتنبي ابن الفلاة والعراء، وربيب الصحراء والبيداء ، لا يستهويه من مشاهد الطبيعة ما يستهوي ذلك الموسوس المتطير الذي يخشى الناس كالطفل النفور فيهرب منهم ليغطي وجهه بذيل فسطان أمه ...

ان تلك النظرات التي ألقاها المتنبي على الطبيعة عرضاً يزخر وجيزها بما لم

تتحمله مطولات ابن الرومي . وهو لا يستفزه من مشاهدها إلا ما كان فذاً كشِعْب بوّان وجبال لبنان ، وغيرها من غرائب الكون وأعاجيبه ، فتقع عليها قريحته وقوع النحلة على الزهرة تلثمها وتناجيها هنيهة وتلثني عنها بالشهد. أما ابن الرومي – وله قليل أحلّه المحل الأول – فدودةٌ ترعى ، تـــلزق بالجذع وتنبطح على الورق ثم لا تتحلحل حتى تمتص المــــاوية وترعى اللحاء وتقرض القش . واني لأعجب من عشاقــه – في آخر هذا الزمان – كيف يخصّونه بالتشخيص وقد سبقه اليه ابو تمام والبحتري وغيرهما كما ذكرنا ... فابن الرومي « شاعر البيت » وشاعر الظل ينشده للطبيعة . وقد علمت أن ابن الرومي يطلب أن يكفي مؤونة السفر وتأتيه الصلة إلى داره محلوقة منتوفة كما اقترح على أحمد بن ثوابة ، وأدركت جزعه وبلادته ووقفت على سر غرامه بالطبيعة التي لا يراها إلا متبرجة .

أما ابو الطيب فركب شعره في وصف الطبيعة ، إلى ممدوحه فشّانتّه كما تشين الجلال والقرّب الخيول الكريمة . ولكنه في كل حال وصف الخوارق وصفاً رائعاً جداً ، وقليله خير من كثير غيره عند من يقوّم الأشياء ولا يزنها بموازين تأخذ وتعطي كموازين طه الأدبية .

وتروق طه الرقة والغناة في شعر المتنبي الكافوري فيرى« ان شاعرنا يحب سيف الدولة ويرجو نائله ، وانه كان يبغض كافوراً أشد البغض ويحمل نفسه على ما لا تريد ، فكان صادقاً أمام نفسه حين مدح سيف الدولة ، وكان كاذبا منافقاً أمام نفسه حين كان ينشىء المدح وينشده في كافور ، فلا غرابة ان أجاد في مدح سيف الدولة.وإذا أتيحت له الاجادة في كافور فهذا هو الغريب العجيب » (ص ٥٥٦) .

قلت في مطلع هذا الفصل ، وأقول أيضاً ، فمجال القول ذو سعة : ان من يبرح أفخم نادٍ يزينه أمير أروع في عرنينه شممٌ ، ينفر ويشمئز إذ يقبل على مثلوب المشفر والمنخر ، في حضرة ، فيها :

من كلّ رَخْوِ ، عظيم البطن،منتفخ   لا في الرّجال ولا النسوان معدودُ

ولا دواء أدوأ لدائه من كظم عواطف البغض التي فتحت للفن منفـذاً عجيباً ، يمدّه حقد الشاعر على صاحبه الحمداني ، وانتقامه لنفسه ممن حذره وأنذره فما نفع ، فأرسل الحمم والشرر. انها رحلة كلها خير وبركة يا دكتور ، فلو بقي المتنبي عند أمير حلب لنضب وجفّ . ولا ينس الدكتور ان شاعرنا فلّاح ماهر والأرض السوداء مغلال، فشخصية كافور كانت مرعى خصيباً لقلم الشاعر العظيم فلم يسلم مغرز ابرة في جلد ذاك الأسود فجاء الوشم رائعاً ... وألحّ على تلك الدمنة فلم يدع منها مغرز إبرة إلا استغلها . وفي هذا روعة الفن المتنبئيّ ، المصري ، فعلينا أن نتقرّاه على أشمة الفن خاصة ، وأشدنا ضلالاً من يحسبه حقائق كله ، فليس كافور في عقله كما صوّره الشاعر حين رأى النهى كلها في الخِصى ، كما أن ذاك « الشّعر » الذي رآه جرير من قبله، لم يكن : كمنفقة الفرزدق حين شابا ...

أما الفناء في شعر أبي الطيب القسطاطي الذي أدهش الدكتور فهو درس ينفعه اذا راجع « الادب الجاهلي » ، فمنه يتعلم أن الشاعر يلين ويشتدّ في القصيدة الواحدة فلا يتمسك في قابل بحبال المتمشرقين ، وحجته الواهية ان كل شعر تقلّ كلماته عن الرطل الشامي وزنـــاً ليس بشعر جاهلي وصاحبه كالغول والعنقاء .

ويعدّ قصائد المتنبي في كافور ليقول لنا : « ومن الخطإ ان يظن ان المتنبي قد خصّ كافوراً بهذه المدائح « فتحسب هول ما طرق أذنيك انك ستعثر على حجر الفلسفة، فتتيهاً كالقادم على جليل، حتى اذا سمعت « وانما الصواب انه جعلها قسمة بين ثلاثة اشخاص ، سيف الدولة والمتنبي وكافور » ضحكت وأرخيت ثوبك وشمّرت عن ساقيك لتخبط مع طه في المهمه الواسع .

لست ادري ماذا اسمّي هذا في الادب، أمفاجآت ؟ ولكنها تافهة ، وطه

يكاثر منها جداً . انه يخلق ما لا يخطر لمخلوق ببال ليعارضه بشيء من عنده.
فمن قرأ المتنبي مرة او سمع به يعلم انه يخصّ نفسه بكثير من نشيدتـــه
وخصوصاً حين يكون الممدوح هزأة لا يحتشم محضره ككافور . ويرى طه
ابا الطيب معرّضاً لا مصرّحاً بقوله :

وغيرُ كثيرٍ ان يزورك راجل ، فيرجع ملكاً للعراقين واليا

اما كيف يكون التصريح فلا ادري ! وهل يكتب الشاعر بالمسّاس ؟
الله أعلم .

ويترك البائية الى البائية الرائعة : من الجآذر في زيّ الأعاريب ، فيرى
في غزلها رمزاً وايماء ، وينتهي الى البيت الذي فتن القدماء :

أزورُهم، وسوادُ الليل يشفع لي ، وأنثني ، وبياضُ الصبْحِ يغري بي

« فيحب ان يعجب به ولا يظفر بما يريد » . ويحدثنا عن الطباق الذي
فيه كأنه مصدر لروعته ، مع ان جمال البيت لا ينبثق من هذا الطباق المخمّس
الذي عظّمه الثعالبي ، ولأجله سمّى البيت امير شعر المتنبي .' أما انا فأرى
ان الطباق لم يخطر ببال الشاعر ، والدليل على ذلك قعود كل لفظة في محلهـا
بلا كلفة . وبعد الجدل المعهود يقول طه : « وهذا الطباق نفسه قد يرضيني
لولا انني اجد في القافية انحدارا ثقيلاً على السمع اشد الثقل » .

لو ترك الاستاذ « اشد الثقل » كان اعدل ، فمثل هـــذا كثير في الشعر
العربي حتى في الذي اختاروه للغناء مثل : قال لي أحدٌ ولم يَدْرِ ما بي .
ولكن هذا لا يمنع ان يكون هناك بعض الثقل كما أحسّ طه ، والحكم للاذن
في القافية لا للعين ، وبارشاد الأذن يهتدي الشعراء ، فهنيئاً للرهيف الحسّ .

ثم ينظر في المدح فلا يرى المتنبي هازئاً بكافور ولا معرّضاً به كما زعموا ،
ولكنه « صادق في الغرَضين وكاذب في وقت واحد » . اما نحن فسيّان
عندنا صدقه وكذبه ، فلسنا في موقف العَرْض ننظر في كتابـه ... فالذي

يعني الفن من الصدق غير ما يعني اللاهوتيين والمجتهدين... اننا نُكبِر كذب هذا الفن إذ أشبه الصدق، ونحمد القدر الذي سلّط هذا النسر على تلك الفريسة. فالمتنبي مصوّر فذّ ظهر جبروت عبقريته في سحنة غريبة أظفره بها جدّه الفني لا السياسي، فليست الأشخاص كلها تعين الفن والنبوغ.

أما السخر الذي يحاول طه انكاره فظاهر كالعنزة البلقاء، وما خفي على كافور اللبيب، ولكنه تبالهَ بالعرفان كصاحبات عمر. فمن يصدّق ان سيد مصر الفطن والعبد الداهية الذي سمّوه الحجر الاسود يحلّ من البلاهة منزلة لا يحسّ معها سخر الشاعر الذي يقول له:

تَفضَحُ الشمسَ كلما ذرّتِ الشمسُ بشمسٍ مُنيرةٍ سوداءِ

ربما طَربي لمّا رأيتُك بِدعةً لقد كنت أرجو أن أراكَ فأطربُ

فِدًى لأبي المسكِ الكرامُ، فإنها سَوابِقُ خيلٍ يهتدين بأدهمِ

أبا المسكِ، ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقاً اليه، وذا اليومُ الذي كنتُ راجيا

فلولا الشك في هذا المديح ما قال الشاعر لكافور:

وإنّ مديحَ الناس حقٌّ وباطلٌ ومَدحُكَ حقٌّ ليس فيه كِذابُ

وحسبنا شاهداً على مقدرة الشاعر العظيم ان يخدع اليوم استاذاً جليلاً كطه حسين، فيحسب ذاك الهزل جداً وتلك السخرية مديحاً. ان الفن الرائع خدّاع...

ونظر طه في الدالية والميمية والبائيتين الأخريين فرأى بعد الجمع والطرح والضرب والقسمة ان « المتنبي لم يكن يستحق اكثر مما أخذ من مال الامير » حتى خفت ان يقترح اقامة الدعوى على وكلا الشاعر.. ولكنه رضي والحمد لله، رأساً برأس، ولم يشغل الحكومة المصرية في هذه الازمة.

ويصل الى: « حسمَ الصلحُ ما اشتهته الأعادي »، فيحكّم فيها عاطفته تحكيما أشعرياً، ويصفع الفن في قفاه صفعة ملعونة فيراها من اجل

شعر المتنبي وأصدقه في تصوير السياسة المصرية فيقول : « ومن ابياتها ما يمكن انشاده والتمثل به في هذا العصر الذي نعيش فيه في هـذا الطور من أطوار تاريخنا الحديث » . (ص ٥٨٧)

حيّرني هـذا الحكم فرحت افتش عما اعلل به أعجاب طه وانشداهه فوجدته في هذه القصيدة عينها فداويته منها بها كمجنون عامر . قال المتنبي في حسم الصلح :

انما تُنجِحُ المقالةُ في المرء ، اذا صادفت هوى في الفؤادِ[١]

فلو توافق كل قصائد المتنبي هوى طه السيامي البلدي لكان سيد الشعراء وأشرف الناس اخلاقاً، واعمامهم فلسفة . لقد كاد يقضي لها بالتعليق على جدران الجامعة المصرية « لمطابقتها مقتضى الحال .. » وما بهذه العواطف يقاس الفن. انني اذكّر الدكتور، وهو سيد العارفين ، بمقال النقّادة برينتيير وردّ اناتول فرانس عليه (الحياة الادبية ، جزء ٢) فلعل فيه بعض الهداية ..

حاشية . — وبهذه المناسبة أسأل الدكتور : أعنك أخذ تلميذك الطاهر الدكتور زكي مبارك هذه الهنداز؟ فقد خبّرتنا جريدة المكشوف ان الصداقة من عيارات زكي الادبية فاذا قوّمنا الادب بما يحكّ لنا من جرب محلي وقدّرنا فنّ الناس بما نحب وما نكره منهم ، فيا خيبة الادب ! لقد اكبرنا فتحكم الجليل وليس فينا من ينكره عليكم ولكن احذروا التخييم في الشاطىء.. فبوادره ظاهرة

« حسم الصلح » قصيدة طيبة ولكن في ديوان المتنبي اطيب منها كثيراً ولم يعجبك لأنه لم يوافق هواك ولا يلابس احوالكم المصرية . ان هـذه العلل العارضة — الهوى والصداقة — لا تصلح مثلاً للفن وان كان عملها منه كالتوابل من الطعام ، فلنفتش عن كية الغذاء ، عن الفيتامين قبل كل شيء

---

(١) تنجح : تبلغ النجاح .

ان شعر المتنبي ثلاثة اقسام : قسم مات وصار رمّة ، وقسم يلائم نفسية البلاد العربية ، وهذا يظل حياً ما دامت ارضها ملعباً وملهى للدخيل، وقسم لا يموت ابداً وهو الشعر الانساني . وهناك شيء آخر في هذه الاقسام ثلاثتها يستيقظ كلما أيقظته ، هو الفن المتنبئي الذي لا يموت، فكلما فتحت الديوان يبرز امامك المتنبي بلحيته وكشرته فيعيد حقبته جذعة ، بكافورها وسيف دولتها وضبّتها ، وهذا هو الفن كيفما كان . واليـك الآن نموذجاً من رديء استحسنه طه جداً لأنه احبه :

لا عدا الشرُّ من بغى لكما الشرَّ ... وخصَّ الفسادُ اهـلَ الفسادِ
انتما ما اتفقتما الجسمُ والروحُ ، ... فـلا احتجتما الى العُـوّادِ
هذه دولةُ المكارمِ والرأفـةِ ... والمجدِ والنّدى والأيـادي
كسفت ساعةً كما تكسفُ الشمسُ، ... وعادت ونورُهـا في ازديادِ

فيقرّظها طه بقوله : « وانظر الى هذه الأبيات التي يملأها الحنان، أرأيت اجمل من هذا الكلام وابرع من هذا التصوير الخ .. » (ص ٥٩١) مع انها، كما رأيتها أنا ، اشبه بدعوات العجائز . لعل جدة المتنبي طلبت له ليلة القدر طلبة قُبلت فأعجب طه بقصيدته هذه وخلا كلامه عنها من « لو » و «لكن»

ويتناول قصيدة: « عدوُّك مذمومٌ بكلِّ لسانِ » فيقف عند هذا البيت:

ولله سرٌّ في عُلاك ، وإنمـا ... كلامُ العدى ضربٌ من الهذَيانِ

فيخطّىء آراء القدماء في هذا البيت ويراه مدحاً محضاً، ورأيه هنا اوجه وامثل من آرائهم، فلو كان المتنبي يؤمن بالآخرة بعض ايمانه بالحظ لدخل الجنة بثيابه . أليس هو القائل :

هو الجَدُّ حتّى تفضلُ العينُ أختها ... وحتّى يكونَ اليومُ لليومِ سيّدا[1]
أقلُّ فَعالي بَلْهُ أكثرُه مجـدُ ، ... وذا الجِدُّ فيه، نلت أم لم أنلْ، جَدُّ

---

(١) الجد : الحظ .

ثم انداحت دائرة هذا الايمان بالحظ حتى قال للأسود :

أردْ لي جميلاً جُدْتَ أو لم تجُدْ به   فإنّكَ ما أحبَبْتَ فيَّ أتاني

وينتقل الاستاذ إلى المتنبي السياسي فيرى « المامه بالسياسة المصرية يسيراً لأنها لم تكن سياسة حرب وقتال - نسي أنه يطلب الكر وحده والنزالا - وإنما كانت سياسة مكر ودهاء ». ثم يصف لنا حياة المتنبي عند كافور وما فيها من قنوط ويأس فيرينا الشاعر تاعساً بائساً .

ويشرح قصيدة الحمّى « ملومُكما يجلّ عن الملام » فيراها فوق الفن : « لأن حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفنّ وصار أعظم منه وأبعد مدى » .

وتجيء نوبة : « صَحِبَ الناسُ قبلَنا ذا الزمانا » ، فيشرحها ويقول إن الفلسفة العلائية انبثقت منها. ثم يذكر : « بِمَ التعلّلُ لا أهلَ ولا وَطنُ » ، ويحب لك أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها فهي من أبقى شعر المتنبي وأرقاه (ص ٦١٠) فاقرأها إذن واقرأها ... وان كان لي شيء أقوله في هذه المرحلة من نقد طه فهو أنه نظّاميّ المذهب في — النقد — لا يقول بالمنزلة بين المنزلتين ...

وهنا ، وهذا غريب ، يعتقد طه كعجائز لبنان اللواتي يعللن موت غير الأبرار ومصائبهم بغضب الله فيقول : « إن الزمان يعاقب المتنبي على ما أظهر عند سيف الدولة من بغي وكفر للنعمة وجحود للجميل فأقسم — أي الزمان — لينغصنّ عليه حياته في مصر تنغيصاً » .

لست أدري كيف يكون الرجل باغياً طاغية وتموت نفسه ذاك الموت الأسود كما نعاها إلينا طه ، وهل ماتت نفس يدرسها الناس كل يوم ولا ينكشف لهم إلا القليل من سرائرها .

وينظر طه إلى هجو الشاعر كافوراً والمصريين ومصر فلا يراه شيئاً غريباً ،

وهذه رحابة صدر ذكّرتني المأمون حين جاؤوه في قتل دعبل الخزاعي فخيّبهم . لقد أنصف الاستاذ كل الانصاف ، فهذا الهجاء يقرأ كفنٌ لا كذم لأمة كريمة ، والمتنبي ، في رأي طه ، قد وفـّق إلى إجادة الهجاء أكثر ممـا وفـّق إلى إجادة المدح « وهو قد أضحك الناس من كافور ولكنه قـد غض من نفسه عند الناس ، فالناس ينكرون الشاعر الذي أعطى ثم أخذ ، ومنح ثم استرد ، وقال ثم كذّب نفسه ، وهم حين يضحكون من هذا الشاعر لا يبخلون عليه بالإعجاب والإكبار ، يكبرونَ فنه وبراعته ولكنهم يُصغّرون رأيه ويحقرون خلقه . فالمتنبي في قصته مع كافور كلها صغير حقاً ، صغـير حين مدح وصغير حين هجا » .

قلت : إن غراب المتنبي كان أدهى من غراب لافونتين ، لما ترك الجبنة للشاعر ... وكثيرون فعلوا مثل المتنبي ، شربوا من البئر ورموا فيها حجراً، فلا تلمه ... فكافور كان أحقر وأخس لأنه قبل هذا المدح المخزي ، بـل استعطاه وجزى عليه الشاعر مالاً وكذباً ووعوداً . وفي كل حال أرى صفقة كافور رابحة، فحسبه هذا الذكر فلولا شعر المتنبي ما ذكره أحد بلسان... لم يطلب المتنبي مالاً من كافور ، بل ولاية عشقها صغيراً ومات على حبهـا ، وكافور وعد ولم ينجز ، انني أميل جـداً إلى الشك بسَيْبِ [1] كافور ونائله [2] ، فليس المتنبي أول شاعر خاب في مصر وعاد هاجياً .

ويتناول طه اليائية : « أريك الرّضا لو أخفتِ النفس خافيا » ، فيقول فيها بعض كلماته المعهودة : جميل ، أو غير جميل ، لا بأس به ، الخ ... ثم يقول في هذا البيت :

وإنـك لا تدري ألونـُكَ أسودٌ من الجهل، أم قد صار أبيضَ صافيا ؟

إنه « مبالغة سخيفة ، لم يكن كافور يظن به الجهل إلى هذا الحد » ولحن

(١) السيب : جري الماء ، وهو هنا كناية عن العطاء . (٢) النائل : العطية، المعروف.

أيضاً لم نكن نظن أن الدكتور يفهم الشعر هذا الفهم ، وهو لو تبصّر قليلاً لأدرك أيضاً أن هذا ممكن ، وتفكير المتنبي صحيح ، فالمرء يألف قبحه ، وقبح من يألفهم ويخالطهم ..

وعند طه ان الميمية أجود هجـــاء قاله المتنبي في كافور ، وقد سردها الدكتور كلها ، أما نحن فنكتفي ببعض أبياتها لضيق المقام :

من أيّةِ الطُّرْقِ يأتي مثلَكَ الكرمُ ، أينَ المحاجمُ يا كافورُ والجلَمُ ؟[1]
جاز الأُلى ملكت كفّاكَ قدْرَهمُ فَعُرّفوا بكَ أنّ الكلبَ فوقَهمُ
لا شيء أقبحُ من فحْلٍ له ذكَرٌ تقودُه أمَةٌ ليست لهـــا رَحِمُ
أغـايةُ الدّينِ أن تُحفوا شواربَكم ؟ يا أمةً ضحِكت من جهلها الأممُ !

قلت: لو عاد المتنبي اليوم ووقف على طلول شواربنا فما تراه كان يقول؟..

(١) المحاجم : جمع المحجمة ، وهي القارورة يحجم بها الجلد . الجلم : أحد شقي المقراض .

الفرار والنهاية

وفي يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ جـاش صدر المتنبي فقال الدالية الشهيرة : « عيد بأيّةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ » . القصيدة من آيات المتنبي وفيها ما يلائم هوى كل نفس وخصوصا ذات الآلام الخفية، فما قرئت على طه حتى هام بهذه الأبيات الأربعة هيام دانتي ببياتريس :

لم يتركِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي شيئاً تُتيّمُهُ عـينٌ ولا جيدُ
يا ساقييَّ أ خمرٌ في كؤوسكما ، أم في كؤوسِكما همٌّ وتسهيـد ؟
أصخرةٌ أنا ، مـا لي لا تحرّكني ، هذا المدام ، ولا هذي الأغاريد ؟
إذا أردتُ كُمَيْتَ اللونِ صافيةً وجدتها ، وحبيبُ النفس مفقود

واليك ما قال في تقريظها : « لا أعرف أجمل منها ولا أصلح للغناء ... أما أنا فمفتون بهذه الأبيات وبالثلاثة الأخيرة منها خاصة . ومـا أعرف اني وجدت في كل ما قرأت من الشعر العربي مـا يشبهها جمالاً وروعة ونفاذاً إلى القلب ، وتأثيراً في النفس. ومهما أحاول فلن أستطيع تصوير ما يملأ نفسي من الحزن حين أسمع تحدثه إلى ساقييه وسؤاله اياهما عما في كؤوسهما ، أخمر هو أم همّ وتسهيد ، ومهما أقل، فلن أستطيع ان أصور اعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه ما له لا يطرب للخمرة ولا يطرب للغناء ، ومـا أعرف بيتاً يصوّر السكون وجمود النفس وموت القلب خيراً من هذا البيت ، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود والموت من أشـد الشعر تحريكا للنفوس وإثارة للطرب الحزين في القلوب » . (ص ٦٢٩)

ليس من الكياسة أن نقف حيـال هذا الاعجاب الغريب لا نبدي ولا نعيد ، فالمروءة الأدبية تقضي علينا أن نعين أخانا وننصره على حيرته . فـلو

حلل طه نفسه كما حلل نفس المتنبي لاستولى على ذلك السبب . لعن الله ذلك الحلاق الذي داواه صبياً فقد جنت يده الاثيمة على النبوغ والادب . لقد آلمني حزن الاستاذ حتى وددت ، وربي شهيد عليّ ، لو استطيع ان اشاطره البلوى ، فعينٌ واحدة تكفي لقضاء نهار مالت شمسه . لقد صوّر طه نفس الضرير وشعوره في الاعياد والمواسم من حيث لا يدري . فلست اشك ابداً ، وأن لم أر طه بعد ، ان طربه حزين وابتسامته فاترة، وبهذه الحسرة يستقبل الاعياد . فلا يحزن الله الاستاذ الكبير ، فبصيرته النيّرة خير من الف عين .

وينفض طه عنه الكآبة اذ يبلغ قول ابي الطيب :

نامت نواطيرُ مصرٍ عن ثعالبها ، وقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيد[1]

فيرى ان الشاعر ألهم البلاغة والحكمة حقاً حين صوّر مصر اصدق وابرع تصوير .. لست اذكر هنا «العاطفة البلدية» فهذا البيت من وثبات المتنبي التي يمتاز بها من شعراء العرب ، ولا ابالغ ان اقل من شعراء الدنيا اجمعين .

وبعد الثناء والحمد ينتقل الى المقصورة الخالدة: «الا كلُّ ماشيةِ الخَيْزَلى[2]» فيخص بالذكر هذا البيت العبقري :

وكم ذا بمصرَ من المضحِكاتِ ولكنَّه ضحِكٌ كالبُكا

ثم يسرد ابياتاً أخرى رائعة ويجمل الكلام قائلاً : « ان لمصر على المتنبي فضلين ، فهي قد رققت غناءه وعلمته الحزن الطويل العميق والتأمل الذي كاد يرقى به الى الفلسفة ، وهي قد علمته الهجاء اللاذع الممض الذي يبقى على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة » (ص ٦٣٥)

ويلذ لي آن اذكر ايضاً صورة رائعة رسم بهـا طه حياة المتنبي في مصر ؛ قال : « فلما انتهى الى مصر واستقر في ظل كافور اتيح له السكون والهدوء

---

(١) بشم : أخذته تخمة وثقل من كثرة الأكل

(٢) الخيزلى : مشية للنساء فيها تثاقل وتفكك ، وماشية الخيزلى كناية عن المرأة .

ولم يعرض له احد بكيد او حسد ولم يضيّق عليه في حياته المادية، وانما وضع على نار هادئة من الوعد والاخلاف فنضجت نفسه نضجاً بطيئـاً ولكنه نضج صحيح » .

قلت : ونحن نأكل كل يوم هذا الشواء الشهي طعام اليدين الذي كان يسأل عنه حسان في اخريات العمر . ان المتنبي مدين بكثير لمصر، ولو بقي في حلب لم يزد على ما قال، فالشاعر الملهم كالمتنبي يخلق من محيطه الملائم عوالم عجيبة، وكلما تهيأت له الاسباب باض وفقّص كالجرادة .

ويهرب ابو الطيب من مصر فيتبعه طه ليحصي عليه انفاسه ويحدثنا عن قتله عبده في الطريق لأنه يسرق متاعه ، « فيصوّر استهانته بالحياة الانسانية واستباحته الدم الانساني في سبيل متاع يقوّم بالدراهم والدنانير» . وقد فنّد هذا الرأي الفطير الاستاذ العقاد واعتذر عن فعلة الشاعر التي هي « خليقـة – في شرع طه – ان تسبـغ على الشاعر لوناً احمر قانياً » .

وتذكـّر طـه « الاندفاع البجري » بمناسبة الكلام على هذه المقصورة ، وروى أبياتاً من فخر المتنبي ليعقّب عليها بهذا الطعن المر : « فهـذا الفخر الرائع البديع كله ينحلّ إلى يسير ، وهـو ان الشاعر قد فرّ من مصر فرار اللص ، واندفع في الصحراء اندفاع الصعلوك ، وقتل في طريقه عبداً لأنـه سرق بعض المتاع » .

هكذا يرى طه نجـــاة جواد أضرّ بجسمه طول الجمام [1] ، ولا هو في العليق ولا اللجام . الحرب في النظارات هينة ... لقد جددت عهد قرقاش يا دكتورنا النزيه . أنسيت كم أكلت الصحارى من جماعات، أتجهل انها لا تزال تزدرد قوافل النار والحديد، فأين كان عقلك حين أصدرت هذا الحكم الجزاري وسجلته على نفسك ؟ لقد سبق تسفيه هذا الرأي فليراجع .

---

(١) الجمام : الراحة .

ويحاول الدكتور معرفة أسباب اتجاه المتنبي لناحية دون اخرى ، فليقرأ ذلك من تهمه معرفة هذه الأمور .

وأخيراً يبلغ الشاعر حضرة ابن العميد ويقول في مدحه شعراً كالشعر أحسن طه جداً في اجمال الكلام عنه بقوله : « ان المتنبي أخذ من ابن العميد أكثر مما أعطاه » .

فهذا الشعر الذي قاله أبو الطيب في مدح من ختمت بـه الكتّـاب – كما سجع القدماء – شعر ميت لا حياة فيه ولا نبض ، فشاعرنا لا يبدع إلا حين يزجيه أمل واسع أو يحدوه غيظ صاخب ، وماذا عند ابن العميد ؟ .

أما شعره عند عضدالدولة ، فجيّده كثير ، وقد أدرك طه ذلك وحيزته كثرة الانتاج . فلا يتعجب الاستاذ ، فالسراج المحتضر يرسل لهباً رائعاً ثم يَشْرقُ بنوره وينطفيء ، وهكذا الشاعر ولا سيما إذا كان اخا خمسين مجتمعاً اشده .

واعجب طه بوصف شعب بوّان ، وباللامية الطرديه ، وغيرهما فظن – ولكن ليس اكبر الظن – ان المتنبي لو اقام طويلاً في بلاد فارس لتغير مذهبه الشعري تغيراً قوياً ، ولجاز ان يحدث في الشعر العربي فناً جديداً ، لم يسبق اليه (ص ٦٩٤) . وآية ذلك تصريح رآه الاستاذ في شعر ابي الطيب . وهو لا يقف عند هذا الحد بل يقول شيئاً كثيراً في شعر المتنبي الشيرازي ولكنك تخرج منه كما قالت تلك البدوية في علكة لم تمضغها : ما فيها غير تعب الاضراس وخيبة الحنجرة ... انه يرى في هـــذا الشعر الشيرازي شيئاً غريباً عجيباً ولكنه لا يقول ما هو ، و « يدهشه حقاً ألا يكون النقاد – القدماء – قد التفتوا إلى ما يمتاز به شعر المتنبي في شيراز من سائر شعره . واغرب من هذا – عنده – ان الاستاذ بلاشير لم يكد يشعر بهذا التطور العميق الذي احدثته زيارة الشاعر القصيرة لفارس في شعره ، مع ان الاستاذ بلاشير اوروبي وكان خليقاً ان يحس ما بين هذا القسم من شعر المتنبي وبين العقلية الاوروبية والفنية الاوروبية من تقارب ليس شديداً ولكنه واضح كل الوضوح ». (ص ٦٩٤).

لا ادري لماذا يستغرب طه بهذه الدهشة قـلة فهم الاستاذ بلاشير وضعف شعوره بهذا التطور الذي تراءى لطه ، ألأنه افهم للشعر العربي من القدماء ، ام لأنه يدرك من أسرار اللغة ما لا يدركون ولا تدرك ؟ فلو كان هناك بدع لأدركوه ولم يفتهم مهما دق وخفي .

أيطلب هذا عند من يعبّرون عن المُحْصَنات بالمُهَسْنَات ، ويقولون في شرحها : كان العرب يضعون نساءهم في حصون ؟ ألم يبلغه ان « ألاّ جالا » هي « الله جعـل » عند اساتذته السوربونيين ؟ فكيف يطلب ادراك الفـن العربي عند من يلفظون كمولى زياد الذي حدّثنا عنه الجاحظ في بيانه، ويعظون كما روى الشدياق في فارياقه ؟

وبعد ، فما لنا ولهؤلاء ، فلنرجع اليك انت يا دكتور ، قلت : « وكم كنت أحب ان اطيل الوقوف عند هذا القسم من شعر المتنبي فهو من الناحية الفنية آثره عندي واعجبه فيّ واحبه الي ، وهو خليق ان نقف عنده قصيدة قصيدة ، وان نفصله ونستخرج دقائقه ونضع ايدينا على مواضع التطور فيه، ولكن هذا شيء لا نفرغ منه ان اخذنا فيه الا بعد اطالة لم يبقَ يتحمّلها هذا الكتاب (ص ٦٩٥) .

فلندع الهزل ، او الخلط – اختر لنفسك ما يحلو – وأجبني : أمطلوب في هذا الكتاب ان يكون صفحات معدودات ؟ أتُباع الكتب مذارعة من الناشرين ، ولذلك لا (تكتب) لهم الا بمقدار ؟ وان كان هذا فلماذا لم تقتصر حيث فلقت الناس بالفأفأة والشأشأة والطباق والقرمطة الخ ؟ لماذا اشغلتنا باللف والدوران كالغرانق عند البيات ؟ لمـاذا أطلت الوقوف عند ما يفهمه ابسط ناشيء ثم قطعت الحديث عن هذا النجم المجوسي الجديد الذي اكتشفته في سماء فارس ؟ ان الدلالة عليه لا تحتاج الى اكثر من سطر او سطرين، فلماذا لم تقل ماذا رأيت ؟ ألحن في الف ليلة وليلة ليدرك شهرزاد الصباح ؟ .. انها لخيبة

ولكن عاقبتها يأس مريع ... لقد صحّ بك قول الشاعر القديم :

تُقاتلُ الشيبَ ولمـا تفعلِ   في لجّةٍ أمسِكْ فلاناً عن فُلِ

ليتك أذقتنا لقمة واحدة من هذا السماط الذي مدّته لك آلهـة الفن ، وتركتنا نفتش عن اخواتها . انني أقترح عليك انْ تتفضـل – كما وعدت – وتدلنا على الشيء الذي لم يفهمه أحد من العرب حتى ولا بلاشير، الاستاذ الأعظم في لغة الضاد ! ولست أقترح عليك أن تضع يدي على هذا الشعر الشيرازي ، فأنا مثل توما أكتفي بأن أضع اصبعي لأؤمن بك وبقيامة فن المتنبي الجديد . فكل ما قلته في هذا الكتاب – ما عدا التاريخ – ليس فيه ما يغري .

وما لي أعجب من هربك ؟ أمَا عوّدتنا من قبل ذاك ؟ هكذا فعلت حين حدثت الناس عن أبي تمـام – حديث الشعر والنثر – فأجلّت درس فنه الشعري لضيق الوقت واعداً أن تتفضل في الكلام على البحتري ، ولما تناولت البحتري رأيتك تسترشد بذوق ابي هلال العسكري فتأخذ قصيدتين أعجب هو بهما ، وهكذا يضيق عنك ديوان البحتري فلا تجد فيه حـاجتك الأدبية الفنيـة .

ويترك المتنبي عضد الدولة ساعياً إلى حتفه ، فيصدق طه كل ما رواه ابو نصر الحلبي عن مقتل الشاعر العظيم ناسياً زعمـه ان المتنبي لم يصور إلا نفسه حين قال :

وإذا مـا خلا الجَبانُ بأرْضٍ   طلبَ الكرَّ وَحْدَه والنزالا

ويراجع طه وسواس القرمطية، فيحاول أن يجعل لها يداً في مقتل الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

بعد الفراغ

ختم الدكتور طه حسين كتابه « مع المتنبي » بفصل عنوانه «بعد الفراغ» فرأيت أن أجعله عنواناً لهذا المقال الأخير، واقتسمناه بالسوية، فكانت حصة الاستاذ رأيه في كتابه ، وحصتي رأيي المجمل فيه ، فاسمع اذن مـــا يقوله الاستاذ في السبعمائة صفحة التي سمّاها « مع المتنبي » :

« إني حين أقبلت على صحبة المتنبي لم أكن جاداً ولا صاحب بحث ولا تحقيق، وإنما كنت عابثاً أريد أن أداعب المتنبي أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعاً، ولكني لم أكد ألقى المتنبي وآخذ في الحديث معه أو الحديث عنه حتى صرفني عن اللهو والعبث واضطرني إلى محاولة البحث والتحقيق ... ودفعت في ذلك دفعاً عنيفاً حتى إذا انتهيت إلى حيث انتهيت وجدتني مكدوداً قد انتهى بي الاعياء إلى أقصاه . لم أقل للمتنبي أو لم أقل عن المتنبي كل ما كنت أريد أن أقول ، فطويت الصحف وأرجأت الحديث حتى أعود إلى القاهرة ، وكنت اريد أن أستأنفه متى عدت فأفصّل القول في فن المتنبي بعد أن فرغت من تفصيل القول في حياته ، وأقف بنوع خاص عند أشياء لم أزد على ان ألممت بها إلماماً...فما أكاد أبلغ القاهرة حتى تتلقاني الأعمال الجامعية فتستغرق أكثر جهدي ووقتي ... فما أكثر ما بقي في نفسي من المتنبي ، والله وحده يعلم ، أيتاح لي أن اشفي من حديثه نفسي ، أم تحول بيني وبين ذلك الحوائل والخطوب » . (ص ٧٠٦)

« ان هذا الكتاب ان صوّر شيئاً فهو خليق أن يصوّرني أنا — اي طه — بعض لحظات الحياة أثناء الصيف أكثر مما يصوّر المتنبي ، وانه لمن الغرور أن

يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ فسجل هذا في كتاب ظن انه صوّر الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغي أن يدرس، على حين انه لم يصوّر إلاّ نفسه ، ولم يعرض على الناس الا ما اضطرب فيها من الخواطر والآراء » .

فعنده ان شعر المتنبي لا يصوّر المتنبي وانما يصوّر لحظات من حياة المتنبي لا اكثر ولا اقل ، كما ان كتاب « مع المتنبي » وكل ما كتبه طه من كتب لا يصوره صورة صادقة تطابق الأصل وتوافقه ، « فنقد الناقد انما يصوّر لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر او الاديب الذي عني بدرسه » .

وقد تعجّب طه من انه قد انتظر هذه السن وهذا الطور من اطوار الحياة قبل ان يفطن لهذا الرأي ويطيل التفكير فيه .

قلت : فليقلّ طه تعجبه ، ولوم نفسه ، فليس هذا الرأي له، ولمثل هذا الزعم عنّف بريلتيير اناتول فرانس وجول لومتر منكراً عليهما تحكيم الهوى في الآثار الادبية ، كما فعل الاستاذ في « مع المتنبي » فكان عاطفياً ذاتياً اكثر من فرانس . وكأني به قد ادرك هذا التقصير الفني فاعتذر عنه بالاشغال الجامعية كما يعتذر بعض المؤلفين عن اغلاطهم بالتورّك على الطبّاع او على صفّاف الحروف . اما التماس صور الشعراء كاملة في دواوينهم فهذا لن نظفر به لأن الانسان لا يستطيع ان يصوّر نفسه كما هي ، وهو ان افشى سراً من اسرارها بقيت اسرار يعز عليه ادراكها ، ويفوته التعبير عنها ، ولذلك جاءت دواوين الشعراء مختلفة في الدلالة ، منها ما يدل كثيراً ، ومنها مايدل قليلاً ، وديوان المتنبي اشدها دلالة على صاحبه . اما كتاب « مع المتنبي » فلست اقول فيه شيئاً بعدما أسمعتك رأي صاحبه فيه .

ان الاستاذ الجليل الدكتور طه حسين أقدر على تأريخ الادب منه على

نقده ، وقد يكون لنشأته ، ولتكوينه العلمي ، ابلغ اثر في هذا ، فالرجل معذور غير محجوج كما تقول الجاحظية . قد نشأ نشأة مستمع قصّاص ، ومن نشأ هكذا كان في التأريخ ابرع منه في درس النصوص التي قد تحتاج الى اطالة نظر ، ففيها ما لا تلقاه اول وهلة . ولهذا رجحت كفـة « مع المتنبي » التاريخية وشالت كفـة النقد ، فالكتاب تاريخ ممزوج بنقدات عجاف مكرورة . وفي التاريخ ايضاً ظلمات كثيفة تحوج قارىء « مع المتنبي » الى الاستعانة بكتاب منظم ككتاب الدكتور عزام .

ان قارىء « مع المتنبي » كراكب الصعبة ، فطه يعلو فيـه ويسفل كمُكَاءِ الشنفرى ، ويروح ويجيء كحائك يسدّي ، ولا سيما حين ينقد او يحاول اكتشاف خصلة او نحلة كقرمطية المتنبي... تراه واقفاً للشاعر بالمرصاد ويشد عليه كمن يتمهد الفتك، وهو لو اخلص للحق والفن لكان اعظم فلاحاً، فبينا تراه في حديثه عن ابي تمـام يصطنع اساوب المدافع – حديث النثر والشعر – اذا به في « مع المتنبي » يفتش عن العيب بالسراج ، واذا وجده ضحّى وعيّد ، واذا رأى لومة عدّها جناية وكانت فرحته راقصة وأسمعك الزفّة في داره .

ينظر في الشعر ليتأوّله على هواه ، وكثيراً مـا يجمع خلف المتمشرقين كالجواد المشكول ، اما تعبيره فواسع رحراح غير محدود ، وهو يهز الالفاظ اكثر من المعاني ، ومثل اللاعب بالسيف والترس يروعك ولا يؤذيك ، فانت تشعر – كما قال – انك تقرأ طه حسين لا المتنبي، فكأن الساعات التي قضاها معه لم تكن ساعات فأل. ولعله تعمّد مخالفة ضرير المعرّة فكتب ما كتب...

توقعنا ان نقرأ كتاباً يسد الفراغ فساء فألنا ، فاستاذنا كالمتمتع يجادل نفسه ويفرض ما لا يخطر ببال مخلوق ، وقد يزعم زعماً ثم ينسى انه زعمه .

اما حسنة كتابه الضخم فهي انك تقرأه لانه لطه حسين ، وقل قراءته

ولكنك تستنجد بالصبر وتتجلد وتقرأ لانه لطه حسين ، ثم تقرأ وتترجى متوكلا على الله لأنه لرجل وجيه في قومه ، وهكذا تقرأه كله وان لم تفز بما ينسيك التعب والعناء ، فحسبك انك قرأت كتاباً صفحاته سبعمائة ونيف ، وغير قليل هذا المجد الادبي .

اما اذا كانت «الثرثرة والاغراق في الكلام اظهر صفات الاديب» كما كتب طه مرة في مجلة الهلال ، فيكون كتابه هـذا خير اثر ادبي اخرجته المطبعة العربية في القرن العشرين .

ولكنني اشك في ذلك .

رأيت الناس لم يتحدثوا كثيراً عن « مع المتنبي » فتناولته ، ولست أزعم اني فلقت الحبة ، ولكنني واثق انني لم أجنف في احكامي ، وأعتقد أيضاً انني وفيت الاستاذ حقه ، وان قصرت فعن غـــير قصد . ومهما يكن من شيء فالدكتور – أطال الله بقاءه ووقاه الخطوب ليعود إلى المتنبي عوداً احمد – من أفذاذ القرن العشرين غزارة قلم ، فليس بالسهل املاء كتاب صفحاته سبعمائة وأكثر وخصوصاً في بلاد أجنبية كسالنش ، وفي الصيف أيضاً ... وان نحن رأينا فيه معاظلة وتكراراً فسببه انهماك الدكتور في أشغاله الجامعية ، أخذ الله بيده . ثم من يكفل لنا ان أحداً يكتب كتاباً أحسن منه أو مثـله ؟ أما المخالفة الشائعة فيه فهي «علامة فارقة» لطه يدوّنها له سجل نفوس ادباء هذا العصر .

وبعد ، فاننا نعتذر الى الدكتور عما بدر من لواذع ، فهو قد مارس النقد وعرف لغته ، فلا بد من التوابل حتى للحم الضأن ، وخير الشراب ما كان مفلفلا. وأحق تقريظ لكتاب « مع المتنبي » الذي انتهينا من مناقشته ، هو ما قاله الدكتور فيه عن شعر المتنبي : « كلام كثير لا يخلو من روعة وقوة وجمال ، ولكنه كلام لا أكثر ولا أقل » . (ص ٢٢٢)

فمن ذنَبِه ، خناقُه كما يقول الرعيان .

نَوَاحِي شِعرِ المتنبي

نواحي شعر المتنبي

سيطر ابن الأثير على دواوين من استكتبوه من الملوك الصغار فأراد أن يستبد في « ديوان العرب ». اصدر في كتابه، النامّ عنوانه على خلق صاحبه، أحكاماً فنية مبرمة تدل على أن الرجل كان ذا بصر نافذ إلى أعماق الكلمة، ولكن ادعاءه العنيف كشف للناس صفحته فكرهوه في الدواوين .

واليك نص فقرته الحكمية على المتنبي بعد أن صال وجال في ميدان المقابلة بينه وبين الطائيين ، أبي تمام والبحتري ، قال : « وهو – أي المتنبي – وإن انفرد بطريق صار ابا عذره ، فان سعادة الرجـل كانت أكبر من شعره . وعلى الحقيقة فانه خـاتم الشعراء ، ومهما وُصف فهو فوق الوصف ، وفوق الاطراء . ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبنّ كريمـاً بعد رؤيته ، إنّ الكرامَ بأسخاهم يداً خُتموا
ولا تبالِ بشعرٍ بعد شاعرِهِ قدأفسدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصمَمُ

« ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقساماً خمسة : خُمسٌ في الغاية التي انفرد بهـا دون غيره ، وخُمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره ، وخُمس من متوسط الشعر، وخُمس دون ذلك، وخُمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها ، وعدمها خير من وجودها » .

كأني أراك ، أيها القارىء العزيز ، تحـكّ رأسك معملاً فكرتك لعلّك تتذكر أين رأيت كلاماً مثل هذا مهلاً . سأكفيك مؤونة هذا العناء . قد قالته العرب شعراً :

الشعراء فاعلمنّ أربعهْ : فواحدٌ يجري ولا يُجرى معهْ
وواحدٌ يجول وَسْطَ المعمعه ، وواحد لا تشتهي ان تسمعه
وواحد لا تستحي ان تصفعهْ !

لقد اصاب ابن الاثير في تقسيمه، فالجو الذي حوّم فيه المتنبي لم يبلغه احد من نسور الشعر العربي. ان قلوبهم ورئاتهم لا تحتمل ذاك الفضاء فرأوه باعينهم ولم يلجوه ، كما رأى موسى ارض الميعاد ولم يدخلها .

وبعد ، فشعر المتنبي يقسم اقساماً اخرى. يقسم من حيث الفنّ الى اربعة اقسام : القسم الأول وفيه ينحو ابو الطيب نحو المتقدمين ، فهو يغرب فيه ويعمله من الطراز الذي يحبّه الاعراب لأنه كان يحيا بينهم ويألف خيامهم ، ويطمح الى النبوّة والامامة ...

والقسم الثاني وهو الذي قاله في « برّ الشام » فقد صقله المران ولكنه ظل متيناً كالدمقس ، ثم عدل صاحبه عن الزاد المعدّ ، ولجأ الى اسلوب اغضب شيوخ ابن خلدون فعدّوه لأجله ساقطاً عن مقام الشعراء . وهل يرضى هؤلاء ان يقول شاعر :

إلامَ طماعيةُ العاذلِ	ولا رأيَ في الحبِّ للعاقلِ
خذوا ما اتاكم به واعذروا	فإن الغنيمةَ في العاجلِ
وان كان أعجبَكم عامُكم ،	فعودوا الى حِمْصَ في القابل
واني لأعجب من آملٍ	قتالاً بكُمٍّ على بازلٍ [1]
أقالَ له الله لا تلقهم	بماضٍ على فرسٍ حائلٍ ؟
اذا ما ضربتَ به هامةً	براها وغنّاك في الكاهلِ
فهنأك النصرُ مُعطيكه ،	وأرضاه سعيُكَ في الآجلِ

(١) البازل من الابل الذي شق نابه . وفي البيت سخر بالخارجي الذي كان يركب في المعركة جملا بازلا ويشير بكمه على أصحابه ان يقاتلوا . وقد هزمه سيف الدولة في تلك المعركة التي نظم فيها المتنبي قصيدته هذه .

فذي الدار أخونُ من مومسٍ ... وأخدعُ من كِفّة الحابلِ
تفانى الرجال على حبّها ... وما يحصلون على طائلِ

والقسم الثالث وهو الشعر الكافوري ، نهج الشاعر في اسلوبه نهجاً جديداً فقال شعراً يقرأ في كل زمان ويصلح لكل آن . شعر انكشفت فيه شخصية جديدة لم تدرك من ذي قبل ، فكان المتنبي فيها ابرع الساخرين وامهرهم .

واخيراً الشعر الشيرازي ، وقد رقّ هذا الشعر كأخيه الشعر الكافوري ، التفت فيه المتنبي الى الطبيعة فانبعثت من شعره رائحة الارض التي لم نشمّها في شعر العرب .

ومن حيث التجديد في خطة القصيدة ، فشعر المتنبي اقسام ايضاً . ففي شعره الاول ينحو نحو المتقدمين ، يتغزل ويظهر الوجد والهيام وقد يبكي على الطلول ، ثم تضطرم نار الثورة في فكره فيثب الوثبة الاولى ، يبكي على الربوع بكاء فيه طرافة واغراب ، فيقول :

مُلِثّ القطر أعطشها ربوعا ... وإلا فاسقها السمّ النقيعا[1]
اسائلها عن المتديّريها ... فلا تدري ولا تذري دموعا
لحاها الله إلا ماضييها ... زمانَ اللهو والخود الشموعا[2]

ولا تلبث هذه الفكرة المتمردة ان تنمو في دماغ الشاعر وتكبر ، فيهتف بعد زمن وجيز :

أحق عافٍ بدمعك الهممُ ... أحدثُ شيء عهداً بها القدمَ
وانما الناس بالملوك ، وما ... تفلح عُربٌ ملوكُها عجمُ

ثم يتنكر العبقريّ لنواميس العادة وشرعاتها ، فينكر ان تكون الطريق المعبّدة هي الجادة المثلى للقريض ، فيقول :

---

(١) الملث : الدائم لا ينقطع . القطر : المطر .
(٢) الخود : الفتاة الناعمة . الشموع : اللعوب الضحوك .

اذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدّمُ؛ أكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيّمُ؟
لَحبّ ابنِ عبدِ الله أولى، فانه به يُبدَأ الذكرُ الجميلُ ويُختَتم

وأخيراً يريد المتنبي، والارادة أم التجدد، فلا يتوسل الى موضوعه بشيء ولا يمهد له ولا يوطّيء، فيقول :

على قَدْرِ اهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ

لكل امريءٍ من دهرِه ما تعوّدا، وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العدى

بغيرِك راعياً عَبَثَ الذئابُ، وغيرَك صارماً ثلمَ الضِّرابُ

دروعُ لملكِ الرومِ هذي الرسائلُ يردّ بها عن نفْسِه ويُصاوِلُ

أعلى المَمالكِ ما يُبنى على الأسَلِ، والطعنُ عِندَ مُحبّيْهِنّ كالقُبَلِ

ثم اذا نظرنا الى شعر ابي الطيب من حيث البقاء والخلود،فهو اقسام أيضاً. القسم الاول ، وقد مضى وراح ، وهو ذلك المدح الزائل كأصحابه ، ويلحق به الغزل المصطنع ، وقد يتبعها شعره الملحميّ ، وان كان في الذروة من الوصف . فالشعر الملحميّ لا يخلد الا اذا كان قومياً وظل يلامس حياة قارئيه، كشعر المتنبي الآخر، الذي تهتز له نفس العربي اليوم، لانه يصور موقفه الحاضر .

كانت بلاد العرب في عهد المتنبي دويلات ، يحكمها فلول من الامم والشعوب ، اقطار متفرقة متشعبة ، فثار ابو الطيب على تلك الحالة وحمل عليها حملات غاشمة كحملات اميره فقال :

بكلِّ أرضٍ وطئتُها أُمَمٌ تُرعى بعبدٍ كأنّها غَنَمُ
يَستخشنُ الخزَّ حين يلمسُه، وكان يُبرى بظُفْرِهِ القَلَمُ

ويقول :

وما أعاشرُ من أملاكِهِم مَلِكاً الا أحقّ بضربِ الرأسِ من وَثَنِ

أرانبُ غيرَ أنهُمُ ملوكٌ مُفتَّحةٌ عيونُهمُ نيامُ

وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأن تُرى
لكَ الهبَوَاتُ السودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ

واخيراً يرى كافوراً الاخشيدي ، فينفجر ذلك البركان المتقد ، ويقذف الحمم ، فيصرخ :

سادات كلّ أناسٍ من نفوسِهِم ، وسادةُ المسلمين الأعبُدُ القزَمُ
جازَ الألى ملكت كفاكَ قدْرَهُمُ ، فعرّفوا بك ان الكلْبَ فوقَهُمُ

لم يعجب المتنبي إلا صديقه سيف الدولة ، رأى فيه رجل العروبة والاسلام اليقظ ، الواقف في درب الروم يحمي التخوم العربية ، فغنّاه اصدق أغانيه المدحيّة .

ان هذا الشعر ، الشعر الذي ينادي بالوحدة العربية ، ويعنّف العرب ويدفعهم الى الثورة ليكونوا سادات أنفسهم ، يظل حياً خالداً ، ما دمنا نشعر به في كل ساعة ومأزق ، كما شعر المتنبي في شعب بوّان ، مع انه فتنه كل الفتنة ، فقال :

مغاني الشِّعْبِ طيباً في المغاني بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ
ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريبُ الوَجْهِ واليدِ واللِّسانِ

ان شعر العروبة المتنبّيّ يبقى حياً ما بقيت الاقطار غير موحّدة ، فعسى ان يموت ولو خسر المتنبي عنصراً جديداً من ديوانه .

ولكن اذا مات هذا القسم الذي يبكّتنا فيه ويوبّخنا فلا يموت شعره العربي الاسمى ، شعر الطموح ، شعر حب السيادة . فالعربي يأنف ان يُساد ، وهذا ما يحثنا عليه المتنبي . قد كان في شعره وفي سيرته ، في حله وفي ترحاله ، اصدقَ نموذج عربي . فالمتنبي هو مثال الانفة العربية ، ابى ان ينام على ضيم ، وان يستقر في وطن يُسام فيه الخسف ، وهو الذي قال :

وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزَّ طيّبُ

ولا أقيمَ على مالٍ أذلُّ به ولا ألَذّ بما عِرْضِي بِهِ دَرِنُ

وكم كان العاهل العربي العظيم الملك فيصل يستلذ هذه الابيات ويردّدها :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يضامُ مُدْرِكٍ أو محاربٍ لا ينامُ
واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيه غذاءٌ تَضوى به الأجْسامُ (١)
ذلَّ من يغبِط الذليلَ بعيشٍ ؛ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمَامُ
كلُّ حِلْمٍ أتى بغيرِ اقتدارٍ حُجّةٌ لاجىءٌ اليهـا اللئامُ
من يَهُنْ يسهُلِ الهوانُ عليه ؛ مـا لِجُرْحٍ بميّتٍ إيلامُ

مثلَ هذا الشعر يجب ان نعلّمَ ابناءنا اذا كان التعليم غاية تربوية ، امـا اذا كنا نفهم العلم حشو ادمغة فلنعلمهم شعر القدماء والذين سبقوا ابا الطيب . فمثل هذا الشعر لا يموت ابداً لانه الشعر الحي ، شعر الخلود الذي لا تأخـذ الايام منه ثقل حبة خردل . فالمتنبي في حكمته يصدر عن النفس الانسانية العزيزة الكبيرة ، فيصور لنا الاخلاق العربية الاصيلة . شاء أحدهم ان يشبهه بنيتشه فاخطأ . ان نيتشه يريد ان لا يبقي الا الرجال الفحول الاشداء . اكبر همه الفلسفيّ انتقاء الناس واصطفاؤهم ، امـا نحن ففي غنى عن ذلك الاصطفاء لانّ المحيط القاسي نقّانا واصطفانا . وأسلوب الحياة لم يبق من العرب إلا العرق المتين.ان صورتنا، الكاملة الخطوط، التامة الملامح، لا نجدها إلا في ديوان هذا الشاعر ، ففلسفته العامة هي أيضاً فلسفتنا الخاصة .

لا يخدعنّكَ من عدوٍّ دمعُه ، وارحمْ شبابَكَ من عدوٍّ ترحمُ
لا يَسلم الشرفُ الرفيعُ منَ الأذى حتى يُراقَ على جـوانبهِ الدمُ
والظلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإن تجد ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يظـلمُ

من أطـاقَ التماسَ شيءٍ غِلاباً واغتصابـاً لم يلتمسهُ سؤالا
كلمـا أنبتَ الزمـانُ قناةً رَكّبَ المرءُ في القناةِ سنانا

(١) تضوى : تهزل .

ومرادُ النفوسِ أصغرُ من أن تتعادى فيـه وأن تتفانى
غيـرَ أن الفتى يُلاقي المنايا كالحاتٍ ، ولا يلاقي الهـوانا
ولو انَّ الحيـاةَ تبقى لحيٍّ لعددْنا أضلَّنا الشُّجعانا
وإذا لم يَكُنْ من الموتِ بدٌّ ، فمن العجزِ أن تموتَ جبانا
كلُّ ما لم يكن من الصَّعبِ في الأنفسِ سَهْلٌ فيها إذا هو كانا

فمن يقرأ مثل هذا الشعر ولا تتحرك فيه العزة والكرامة والاباء ؟ فهذه هي الخلايا التي لا تموت من جسم الأدب العربي ، فيظل متمتماً بالشباب الخالد الذي ذكره أبو الطيب :

آلةُ العيشِ صحّةٌ وشَبابٌ ، فإذا وَلَّيا عـن المرءِ وَلّى
وإذا الشيخُ قال أفٍّ ، فما ملَّ حياةً ، وإنما الضعفَ مـلّا

نعوذ بالله من الضعف ، ولا منينا به ، إن كان ذلك مستطاعاً .

قد قسمنا شعر المتنبي، كما تراءى لنا ، فبقي علينا أن نقسم قصيدة الشاعر الأعظم . انها أقسام أيضاً : قسم يرضي به ممدوحه، وقسم يرضي به ذاته التي غالى في محبتها والاعتداد بها ، وقسم يرضي به الانسانية جمعاء. لا نعني بالقسم الثالث غير تلك الكلمات الخـالدة التي لا تخلو منها قصيدة من قصائد ابي الطيب.ان هذا القسم الأخير من الشعر المتنبّيّ قد تجاوز تخوم الأقاليم وخرج من منطقة الكتب والمدارس ، فدخل الحياة العظمى . قد اطرب الناس جميعاً وهذا ما حبّب المتنبي الينا . أحببناه لأننا فهمناه ، لأنه أقرب بنا عهداً ، ولحن أشدّ به انساً ، وكلامه أليق بطباعنا ، وأشبه بعاداتنا . وإنما تألف النفس ما جانسها، وتقبل الأقرب فالأقرب اليها . أما بلاشير، الذي سألنا أن ندلـّه على موطن الحسن فيه ، فسيظل جاهلاً ذلك ولو وضعنا اصبعه عليه ، لأنه لا يشعر شعورنا حين يقرأ هـذا الشاعر ، ولا يدور كلامنا على لسانه ، ناهيك ان للمتنبي فناً يختلف عن فن غيره من الشعراء،ولحن في بحثه ماضون .

منابع شاعرية

قال تورغنيف : السعادة هي الراحة والراحة لا تخلق شيئاً. فالحمد والثناء لمن لم يمنح أبا الطيب يومَ راحة . فلو ظل في حلب مستريحاً لاسترخت قريحته وترهّلت . ان الركود يلائم شاعراً كالبحتريّ إذا حضرت رحله الهموم يوجّه إلى ابيض المدائن عنسه [1] ، فيتسلّى عن الحظوظ ، ويأسى لمحلّ من آل ساسان درس [2] ... ثم يعود مساءً الى وكره .

أما المتنبي ، وشعره منبثق من خاطر فوّار، وعين تشاهد فتلتقط ، وفكر لا يستقر على حال ، فلا يلائمه الوقوف أمـام قصر دارس . فهو لا يكسو قصائده ثياباً معدّة كالبحتريّ بل يلبس لكل حالة لبوسها . ان ارتماء المتنبي في احضان الصحارى والفيافي ، وانتجاعه الحواضر والعواصم ، غذّى فكرته، ولوّن شعره، وحمّله رسالة عليا، لم ينهض باعبائها شاعر قبله. فلولا هذا التنقل لم يقـل :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني ، والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

لولا العُلى لم تجُبْ بي ما أجوب بها وجناءُ حرفٌ ، ولا جرداءُ قيدودُ [3]

وتركُكَ في الدنيا دويّاً كأنما تداوَلَ سمعَ المرءِ أنمُلُه العشرُ [4]

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لدى الزمنِ يخلو من الهمّ أخلاهم من الفِطنِ [5]

---

(١) العنس : الناقة القوية . (٢) درس ، هنا : بال .

(٣) لم تجب : لم تقطع . الوجناء : الناقة الشديدة . الحرف : الضامرة ، الصلبة . الجرداء : الفرس التي قص شعرها حتى لاصق جلدها . القيدود : الطويلة العنق .

(٤) الدوي : صوت الريح والرعد ونحوهما . يقول : وان تترك في الدنيا دوياً من أفعال الشجاعة والمجد يحاكي ما يسمعه الانسان إذا سد اذنيه بأنامله .

(٥) الاغراض جمع الغرض ، وهو هنا : الهدف الذي ينصب ليرمى بالسهام .

لا أقتري بلداً الا على غَرَرٍ ، ولا أمرّ بخلقٍ غيرِ مُضطغِنِ[1]
وكِلمةٍ في طريقٍ خِفتُ أعربُها فيُهتدى لي فلم أقدِرْ على اللحَنِ[2]
يقولونَ لي:ما أنتَ في كلّ بلدةٍ ، وما تبتغي؟ما أبتغي جلّ ان يُسمّى !
وما الجمعُ بين الماءِ والنارِ في يدي بأصعَبَ من أن أجمَعَ الجَدّ والفهْما
وإني لمن قومٍ كأنّ نفوسَهم بها أنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعَظما

فهذه الاسفار ، وقد سبقت لنا كلمة حولها ، كانت موارد خفية لهذه العبقرية ، كانت تجدّد شعر المتنبي فينشط كلما تبلّد ، وقد ادرك المتنبي خطرها فتهدّد سيف الدولة قائلا :

لئن تركن ضُميراً عن مَيامِننا ليحدُثنّ لمن وَدّعتْهم نَدَمُ[3]

ان المتنبي من مجانين العظمة ، ولكن هذا الجنون لم يفقده اتزانه ، ولو قال:

أيّ محلٍّ أرتقي ؟ أيّ عظيمٍ أتقي ؟
وكلُّ ما قد خلَقَ اللهُ وما لم يَخلُقِ
مُحتَقَرٌ في هِمّتي كشَعرةٍ في مَفرِقي

أما حاله مع « العظمة » التي عشقها وحنّ اليها فكان أشبه بقول الشاعر :
جُنّنّا بليلى وهي جنّت بغيرنا ... انف المتنبي السير على الطريق المعبّدة فمشى وحده . فاذا طلبنا فن المتنبي فلنفتّش عنه في افكاره الثائرة ، وخياله المولّد . وأما لهجته التي هي لهجتنا ، فهو يعبّر لنا فيها عن صوره الحية بالفاظ وأساليب مألوفة منا ، ولكنها تسامت حين ألقى عليها رداء بلاغته . لقد ابتعد هذا الشاعر العظيم عما لاكه الشعراء الذين سبقوه فظلوا في وادٍ وسامعوهم في وادٍ . لجأ الشعراء إلى لغة خاصة بهم ، أما المتنبي فما بالى باساليبهم ، ولم يتقيد بما فصّلوه لأنفسهم من طراز وزيّ ، وهذا شأن

(١) اقتري : التتبع . الغرر ، تعريض النفس للهلكة ، المخاطرة . مضطغن : حاقد .
(٢) اللحن : ارتكاب الخطأ في الاعراب .
(٣) ضمير : اسم جبل يقع عن يمين الراحل من ديار الشام إلى مصر .

الفنان المظيم ، فهو لا يتقيّد بقيود البشر بل بقيود ذاته

ان معظم البشر كقطيع المعزى يحممهم « البطّال » حول الجرن الآسن . يمزج المعّاز الماء القذر بنقطة قطران من بطّاله فيعب القطيع منه الماء بعدما عافه . كذلك كان تهافت شعرائنا على جرن التقليد ، فمضى هؤلاء المساكين ولم يقولوا شيئاً يبقى . امـــا ابو الطيب فحمّل شعره رسالة خالدة ، فقاموا ينعون عليه غزوه اليونان ، وهذا شأن كل مجدد، فقلما نجد تجديداً غير منفعل بعوامل خارجية . واذا كان كل موزونٍ شعراً فكل متكلم بالعربية شاعر ، فكلهم قـالوا الشعر ، وافراطهم في قوله وارساله كيفما اتفق جعلهم يقولون « بيت القصيد » وان يكتفوا بالبيت الرائع . امـــا المتنبي فلم يرد ان يقوله مثلهم .

الشعر يقال للتنفيس عن النفس، اما عند الشعراء الذين بادوا فكان ألهيّة، حاشا المتنبي ، فانه قاله منفعلاً ، فظلّ يحدث في نفوس قارئيه مـا أحدثه في نفس قائله . ان الشعر هو المعمل الذي يصنع تعابير جديدة سامية ، ويرسم الصور الخالدة ، وفي هذا يتفرد المتنبي .

لقد وهب المتنبي خاصة لم تكن لشاعر عربي، ولو جارينا صاحب « الوساطة » وتعقّبنا آثار المتنبي في ما يسمونه سرقة أدبية لرأينا ان المتنبي لم يدع صورة رائعة من الصور الشعرية إلا حاول إخراجها بشكل جديد. تارة يخرجها لوحة رائعة ، وطوراً يكبسها أي كبس، فتتلازّ ذرّاتها، فتقع في الذهن كالقنبلة . إن تلازّ الذرات مصدر الثقل ، والمتنبي فاق العرب أجمعين بخاصية الايجاز الذي هو التلازّ بعينه، فجاء شعره مجهراً ، والعرب مولعون بالايجاز يتهافتون عليه، فرأوا في شاعرهم المظيم خواصهم مجتمعة، فأجمعوا على تعظيمه واكباره . قابل بين قوله :

لو يَمَّمْتَهم في الحَشرِ تجدُو ، لأعطَوكَ الذي صَلوا وصاموا [1]

(١) يممتهم : قصدتهم . الحشر : يوم القيامة . تجدو : تسأل الجدوى : أي العطاء .

وبين قول أبي تمام في هذا المعنى . ثم قابل قول المتنبي :

لا يَقبِضُ الموتُ نفساً من نفوسِهِم إلا وفي يَدِهِ من نَتْنِها عُودُ

بقول أبي تمام أيضاً ، تدرك المدى البعيد بين الشاعرين في إجادة التصوير ، والإيجاز .

ان الفكر العربي قد أصبح سبائك ذهبية مخزونة في هذا المستودع – ديوان المتنبي – وهذا هو الحرام الحلال. فما على العربي إلا أن يدخل هذا المخزن فيكفيه مؤونة اللف والدوران في الأسواق ...

كم تمنّيت على صديقي المصوّر الفنّان قيصر الجميل رسم بضعة مشاهد من ديوان شاعرنا العظيم مثل :

تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمى هزيمَةً ، ووَجهُكَ وَضّاحٌ ، وثغرُكَ بَاسِمُ

ومثل : لا يقبض الموت ، الذي مرّ ذكره ، ومثل :

من كل رَخوِ عَظيمِ البطنِ مُنتفِخٍ لا في الرجالِ ولا النِّسوانِ مَعدودُ

يضاف اليه :

ومــا طربي لمّا رأيتُكَ بِدعَةً فقد كنتُ أرجو أن أراكَ فأطربُ

ومثل هذا كثير في ديوان شاعرنا العظيم .

أما مصدر إيجاز المتنبي فاعتدادُه بنفسه ، فهو لا يناقش ولا يعلّل ، فكأنّ قولَه الفصلُ في كل قضية يلمُّ بها. وغزارة أفكاره صرفته عن التعبير، بصور مختلفة ، عن الفكرة الواحدة، كما فعل غيره من الشعراء .

وإذا شئنا التفتيش عن فن المتنبي وجدناه في الضخامة . فأبو الطيب ، إن صحّ ما رووه، كان يلبس طاقاً فوق طاق حتى السبعة ليبدو ملء العيون فاضلاً عنها ... ومن يقابل بين « على قَدْرِ أهلِ العزم تأتي العَزائِمُ » وبين « السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتُبِ » يلمح أن كل نفس تنضح بمــا فيها .

فنفس أبي الطيب عـاتية جبارة تستعين بالألفاظ الضخمة والحروف الآزّة الداوية :

خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ ، وفي أذُنِ الجوْزاءِ منه زمَازِمُ

إن القرابة شديدة بين أبي الطيب والأخطل حين يصفان الوقائع ، فهما يشتركان في التفكير ، والألفاظ والهزء ، الذي تحمرّ له الوجوه ولا تنبسط. قال الأخطل في فرار ابن بدر :

يُسرُّ اليها ، والرِّماحُ تنوشُه : فدًى لكَ أمّي ان دَأبْتَ إلى العصرِ [١]

وقال المتنبي في هرب الدُمُسْتُق :

أفي كلّ يومٍ ذا الدمستقُ هارِبٌ قَفَاهُ على الإقدَامِ للوجهِ لائِمُ

ناهيك ان للاثنين عيناً حادة تلتقط أدقّ ما تقع عليه . أدرك المتنبي أن للشعر موسيقى تستخرج من غير الوزن فتعمّدها.فلغتنا العربية ليست كما توهّم بلاشير تعتمد على الحروف الصوتية في موسيقاها ، فللحروف الساكنة عمل كبير عندنا . فلكل مخرج حروف تختلف ضخامةً ، فمنها حروفٌ لا تكاد تحس بها ، ومنها حروف تملأ الفم ولا تخرج منه إلا ببذل طاقة شديدة ، وهذا الذي كان يتوكأ عليه أبو الطيب في فنه الشعري .

ان المتنبي أحب فنه كثيراً ، فهو ينظم الشعر ليخلد به . قال طرفة :

ولولا ثلاثٌ هنّ من لذةِ الفتى ، وجدّكَ لم أحفِلْ متى قامَ عوّدي

وقال بول بورجه الكاتب الفرنسي : المضجر في الموت هو ان الانسان لا يستطيع الكتابة بعده ، ولو سئل المتنبي لقال : انهم لا ينظمون الشعر . بيْدَ ان المتنبي لم يحسب للموت اقل حساب،فالغريزة والفناء خطان متوازيان في خارطة دنياه ان فن المتنبي ، في معانيه وصوره والفاظه، التي لا يفهمها على حقها الا العربي.وعلمه العميق، بما تؤديه كل لفظةهوّن عليه احياناً استعمال

---

(١) يسر : يهمس . اليها أي إلى الفرس . الرماح تنوشه : الرماح تتناوله بأطرافها .

الفاظ نابية فآثر اخراج المعنى ناتئاً قوياً على موسيقى لا تغني عنده غناء المعنى.

وفي هذا قال :

وكم مِن عائِبٍ قولاً صحيحاً ، وآفتُــه من الفَهْمِ السَّقيمِ

وجد المتنبي في عصر مضعضع فحلم في فتوّته احلاماً جامحة فكانت الصدمة الاولى التي بعثرت احلامه المبكرة. يقول من يعبّرون الاحلام: ان احلام اول الليل لا تصدق . وكذلك كانت احلام صَبْوَةِ [1] المتنبي وشبابه ، فخلقت فيه هذا السخط المنيف ، ولا سيا على الملوك والولاة ، وكيف ينسى السجن وثقل القيود ؟ ولذلك رأى ان الظلم من شيم النفوس ، فما ذكر الرحمة فيما بعد بل قال : « وارحم شبابَك من عدوٍّ ترحم » ، ولم يحث على الاحسان الى الفقراء والارامل مثل ذلك الأرمل الذّكر .. جرير .

عاش المتنبي عمره كله مشبوب الشاعرية : توليدٌ في الصور متتابع ، تصويرٌ رائع باقل خطوط ممكنة ، ولعٌ بالمعاني يبحث عنها كعامل في منجم ، بُعْدٌ عن الصناعة اللفظية . فلغته وتفكيره وآراؤه وثقته بنفسه تتآزر وتتماضد لتؤثر على اعصابك ايما تأثير ، فتتبعه كما تتبــع الشاة الذئب ، أو النائم من نَوَّمَه . والمتنبي يتدفق في غرر قصائده كالشلال الغضبان ، فقصائده موسيقى معارك لا أنين رباب في مجالس لهو وطرب . تصلح للقواد الجبابرة لا للحُوْرِ والخنثين . فاذا عرضت المتنبي على مقاييس القدماء ، غير ناظر إلى مراميه البعيدة ، فأنت ظالمه ...

قال سلفاؤنا : ان ابن الرومي شاعر مولِّد ، وقد صدقوا . ولكن ابن الرومي يقع فراشةً ويستحيلُ دودة ، بخلاف المتنبي ، فانه يقــع عصفوراً ويستحيل نسراً . فهو كالمغامرين الذين يكتشفون المجاهل ويتسلّقون الجبال المستعصية : تطلّب المعنى وجدّ ، فأتاه من كل فج عميق ، فوهل [2] الناس

---

(١) الصبوة : جهلة الفتوة . كنى بها عن الصبى .

(٢) الوهل : الفزع ، والمراد أن الناس دهشوا لمعاني المتنبي ووجدوا فيها الروعة .

بمعانيه وافكاره وخصوصاً البصراء بقويّ الكلام . فهو فرس الخيال الجموح السبوح ، وان شئت فقل : «قيد الأوابد هيكل». فكما يتغير الماء إذ يصير ثلجاً كذلك تتحول اللفظة إذا نحتت بمحل مناسب . فالمتنبي حاذق متمكّن من صناعته كما قال عن نفسه :

أنامُ مِلء جفوني عن شواردِهــا ويسهرالخلقُ جرّاها ويختصِمُ[1]

فهو نموذج من نماذج العقل البشري الفطري ، ويحقّ له ان يردد :

وإني، على ما كانَ من عنجهيتي ولوثةِ أعرابيتي، لأديبُ ؟ [2]

فهو أول من اخضع الشعر لقوالب جديدة وأعفــاه من المحنّطات . خذ مثلا شعره في كافور وتأمّل ، فترى كأن البيت بأسره كلمة واحدة وكأنّ الكلمة بأسرها حرف واحد .

ان الشعر كالقطيع يجب ان تكثر فيه الكبوش السمان فلا يضره الهزيل ان كان هكذا . فأبّهة الكبوش تلهيك وتغطّي على الشويهات الهزيلات .

ان شعر المتنبي سرفق كبير ومعونة حاضرة للاديب العربي ، فكأنّه جاء ليقضي على عهد البضاعة اللفظية،وقد اخذ آياته معاصروه -الصاحب وغيره- فجعلوها تعاويذ لرسائلهم المنمّقة ، فكانوا كالصائغ يزركش الذهب ليضع فيه لؤلؤة ، أو حبّة من معدن كريم .

أما الذي لا يعنيه من الشعر غير الموسيقى النــاعمة فيصح فيه قول المتنبي في الخيل :

إذا لم تشاهدْ غيرَ حسنِ شِيَاتِها وأعضائِها،فالحسنُ عنكَ مغيّبُ[3]

وإذا شبّهنا الشعراء العرب بأوتار العود كان المتنبي البم [4] ، وان شبّهنا

---

(١) شواردها،أراد بها: شوارد الأشعار،أي غرائبها التي لا يستطيع ادراكها الا المتفوقون.

(٢) العنجهية ، أراد بها الخشونة . لوثة الاعرابية ، اراد بهـا : النزق المشبه مس الجنون .

(٣) الشيات: الالوان . أراد : انك اذا لم تشاهـد من الخيل الا حسن ألوانها واعضائها فانك لم تعرف حقيقة الحسن فيها لأنه كامن وراء الألوان والأشكال الظاهرة .

(٤) البم : اغلظ اوتار العود .

الشعر بعمل صائغ كان البوتقة ، فهو كدول اليوم إذ تصبّ الذهب سبائك .
وإذا لجأنا الى علم البصريات الطبيعي رأينا المتنبي يحسن حصر النور في بؤرة العدسة فيحرق . لم يستطع ان يكون مسيطراً في السياسة فكان في الأدب .
ليس المتنبي كالكأس البلورية يطنّ لأقل لمس ثم يختفي صوته ، بل هو جرس قنطاريّ لا ينقطع رنينه الا بعد حين . إذا قرأت وصفه اسد بدر بن عمار خلت اسداً يصف اسداً ، بينا البحتري يصف اسد ابن خاقان وكأنه يخشى ان يفترسه. هذا أسده هرّ يداعب الأزهار المفضضة وهذاك ليثه اسد هصور يجمع نفسه في زوره [1] :

ويدقّ بالصدْرِ الحجارَ كأنّه   يبغي إلى ما في الحضيض سبيلا[2]

ليس شعر المتنبي دواء يؤخذ بالفم بل بالدم ، فهو حامل رسالة العروبة وهو شاعرها القومي الأوحد . لم تكن نافذته مسدودة فأطلّ منها على الدنيا بأسرها ، اما مخيلته فكانت كالرياح التي ارسلها الله لوافح . وبعد ، فالمتنبي مركّب غريب عجيب . كأنه عنى نفسه حين قال : « كأنّك من كلّ النفوسِ مُركّبُ » ، فيه جفاء الفرزدق ، ورقة جرير ، ووصف الاخطل ، وتفكير الفلاسفة ، وخيـال الشعراء العظام ، وهو الذي خطا بالشعر اعظم خطوة ، فجعل لغته لغة الناس المألوفة . واذا كان حدّ الشاعر أو الكاتب الكبير كما يقول فاجيه : « أن لا يُكتب بعده كما كان يُكتب قبله » فيكون هـذا هو ! فدع النقـاد يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون .

ان تعدّد البيئات كان من أهم الاسباب التي ساعدت على اظهار فن المتنبي. وقد رأيته يبذل جهداً عنيفاً في القصيدة التي يستقبل بهـا محيطاً جديداً ولم يبق على الاجادة إلا عند سيف الدولة وكافور .

واذا فتشنا عن ضريبٍ لشاعرنا بين شعراء الفرنجة رأينا مـا قيل في

(١) الزور : وسط الصدر حيث تلتقي عظامه . (٢) الحضيض : القرار من الأرض .

فيكتور هيغو ينطبق على شاعرنا . فلا حدّ لاعجابه بنفسه ، وهو يسعى ابداً لاعجاب الناس به ، يهتم دائماً بوقع ما يكتب، لا يترك صغيرة اذا كانت تؤدي الى اكباره ، ولا يعبأ بالخوف والاستهزاء . حقود بلا شفقة ، لا يعرف الحنو ، – راجع رثاءه لجدته – لا يرحم الذين يطعنون في شخصيته المتورّمة الضخمة :

بِأيّ لَفْظٍ تقولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ تجوزُ عِنْدَكَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ[1]؟

رجل جدّ واجتهاد، شعبي على غلظة في طباعه ومزاجه، ابتهاجه ضخم، وألوانه خشنة ، مفتون بالاغراب ، يتفجّر شتائم اذا أثير : « ما أنْصَفَ القومُ ضَبّه » ... « يحمي ابن كيغلغ الطريق وعِرسُه »[2] ... قليل الاحساس ، وان أحسّ فاحساس المتغطرسين . يتكلم عن الحب بازدراء ونزق عصبيين : « وللخود عندي ساعةٌ » ... يسرّه جداً – كهيغو – ان يرى المرأة ككلبٍ تحت قدميه اما عقيدته السياسية ، فالعروبة فوق الجميع . عصبي المزاج ، تسوؤه اقل بادرة ، يثور اذا قدر ، ويكظم ويداري اذا ضعف :

ومِنْ نَكَدِ الدّنيا على الحرّ ان يرى عدوّاً له ما من صَداقتِهِ بُدّ

واخيراً يضيق صدره فيهرب ... كانت نفسه حملاً ثقيلاً عليه ، وهمه بتضخيم شخصيته ، أتعبه جداً .

ان قوة نظره لا تحدّ ، يتخيّل الأشياء كما تكون وإن لم يرها ، الرؤى لا أثر لها عنده ، يرى الأشياء الناتئة ولا يرى الألوان ، لا تلهمه الطبيعة شيئاً روحياً كأن يتصور نفسه فيها ، بل يصف أحوالها ويظلّ بعيداً عنها . هو أمهر في تصوير أخلاق البشر منه في تصوير الطبيعة . قد لا تريك عدة قصائد صورةً ، وقد يلهمك بيتٌ واحد لوحةً رائعة .

---

(١) الزعنفة ، هنا : الجماعة من الاوباش . تجوز ، هنا : تروج وتنفق .

(٢) عرسه : زوجته .

ديوانه مخزن مملوء مُثلا عليا للحياة وصوراً رائعة لأحداثها ، وكلها صغيرة تستطيع أن تؤلف منها «ألبُوم» لا نظير له . يوحي اليك في شطر من الشعر موضوعَ كتاب ضخم . وهو لا متحيّر ولا متردد كالمعرّي . يجزم في آرائه حتى الغريبة منها ، كأنه يسنّ شريعة . يكتفي بفكره ، ويعتمد عليه ، اعتماد البطل على سيفه ورمحه وفرسه

ثقافته كاملة ، ولكنهـــا ثقافة في شخصية كأنها من الطور الحجّري . شخصية خشنة لم تصقلها ثقافتها كما تصقل ألباب قارئيها .

أما آراؤه فتتجه في ديوانه اتجاهاً مستقيماً ، فكأنه يؤيد فكرة فيدعمها كلما انفسح له المجال ، أو كأنه لا يفكـّر إلاّ بها . يلوح لي انه أحبّ أن يكون فيلسوفاً ومشترعاً ، وان لم يصرّح .

وما الموتُ إلا سارقٌ دَقَّ شخصُه يصولُ بلا كفٍّ ويسعى بلا رِجْلِ
إذا مـــا تأمّلْتَ الزّمانَ وَصَرْفَه تيقّنتَ أنالموتَ ضَرْبٌ من القتْلِ
وما الدّهر أهلٌ أن تؤمل عِنْدَه حياةٌ وأن يُشتاق فيه الى النّسْلِ

كأنّ اعتقاده بما وراء الطبيعة عمل منظّم . باح بسره رويداً رويداً لأنه غير قادر على التفكير المستطيل ، أو أنه يلوذ بالتقيّة ، والملسوع يخاف من جرة الحبل . ومع ذلك يجتهد ان يفكر ويعمل بكدّ وعجب . لم يحلّ لنا القضية الكبرى حلا مرضياً ولكنه أيقظ فينا الشك والقلق والرغبات للتطلّع الى ما وراء الطبيعة . كان له هدف ، وهذا الهدف يستفزّه ، فيوحي اليه في كل موضوع ويردّه دائماً الى فكره الرئيسي .

تجنّب المتنبي جفاف الشعر الجاهلي كما تجنب هيغو جفاف الشعر الكلاسيكي وكلاهما لم يتقيد بما تقيّد به الشعراء . كانت المرثيات توقظ شاعرية المتنبي ولم تكن تزعج خاطره قضايا عديدة. « المعالي » فقط .. لم يخلق مبادىء جديدة ولكنه أخرجها في شعر رائع فملكها .

نقمة على الحظ ، فالدهر خصمه الألدّ ، والحظ عدّوه . ليس له امل في الغد ليتعزّى ، فما بالى لأنه ما انتفع بأن يبالي . كان فناناً مالكا لأصول فنه رغم ما في مزاجه من عيب ، فلم يخضع للنواميس الفنيّة بل عمل ما اراد ، فكان له فنه الذي صار مقياساً لمن جاؤوا بعده .

كان واثقاً من لغته فلعب بتعبيره كما شاء. واعتداده بنفسه أبعده عن تقليد القدماء واتباع تقاليـدهم . وقد اجتمع وهيغو في مثـــل هذا الضرب من الاستعارات :

في الخدّ أن عَزَمَ الخليطُ رحيلا مَطَرٌ تزيدُ به الخدودُ مُحولا

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيهِ غذاءٌ تضوى به الأجسامُ

عناصر متنبية

المتنبي مسلم قومياً ، يدين بالعروبة وبما تحتوي من خصال . يؤمن بالقوة التي يؤيدها الحظ ويناصرها. في شعره حياة وقوة لا يجدهما العربي عند غيره.

في المتنبي عرق نزّاز هو عرق الدم ، فهو ظمآن اليه دائماً. تحس في جميع ديوانه انه في حاجة الى ارواء غليله ، ولكنه مات ولم يُروه ومن حسن حظه أنه مات ، لأنه قال ما اراد ان يقوله ، ولم يبق في جعبته شيء . ختم رسالته في شيراز ، وان قال :

وفي الجسمِ نفسٌ لا تشيبُ بشيبه ... ولو أنّ ما في الوجهِ منه حِرابُ
لها ظُفُرٌ إن كلَّ ظُفْرٌ أُعدُّه ... ونابٌ اذا لم يَبْقَ في الفَمِ نابُ
يُغيِّرُ مني الدّهرُ ما شاء غيرَها ... وأبلغُ أقصى العُمْرِ وهي كَعابُ[1]

لو كانَ يُمكِنُني سَفَرْتُ عن الصِّبى ... فالشَّيبُ من قبلِ الأوانِ تلثُّمُ[2]

ولكنه في كل حال قال خير ما عنده ، ولا خير فيما تبقّى له من العمر .

للمتنبي إباء العرب وجفاؤهم وترفّعهم ، فهم عند انفسهم ارفع الناس ، والمتنبي في نظر نفسه أرفع العرب .

تصدر كلمات شعراء العرب عن شفاههم وألسنتهم، أما كلام المتنبي فينبع

---

(١) الكعاب : الفتاة نهد ثديها ، وهي هنا كناية عن الشابة ، فيقول الشاعر ان الدهر يغير ما شاء من جسمه ولكنه يبلغ أقصى العمر ونفسه شابة لم تتغير .

(٢) سفر : كشف الغطاء . التلثم : لبس اللثام ، وهو ما وضع على الانف وما حوله . يعني ان الشيب قبل الأوان عبارة عن لثام ، أي انه يغير منه مظهراً ولا يغير جوهراً .

من قلبه. عبارته جافية كخلقه، ومعانيه جبارة كآماله ومطامحه. كان فرجيل يقدّس الرومان، اما المتنبي فيقدس العرب في نفسه.

. لم تصقله الحضارة فظل خشناً جافياً عاتياً غليظ القلب، وهذا طبع لا يغلبه التطبع وان لان هنيهة فلا يلبث ان يعود كما كان:

غنيٌّ عن الأوطانِ لا يستخفّني إلى بَلدٍ سافرتُ عنه إيابُ

مادّيّ ليس للروحِ من شعره نصيب، لا يفهم العاطفة كما فهمها غيره، وإخاله لا يفهم الالفة البشرية وخصوصاً العائلية، كما نفهمها:

وللخَوْدِ مني ساعةٌ، ثم بَيْنَنا فلاةٌ إلى غيرِ اللقاءِ تُجابُ [1]
وما العشقُ إلا غِرّةٌ وطَماعةٌ يُعَرّضُ قلبٌ نفسَه فيُصابُ
وغيرُ فؤادي للغواني رَمِيّةٌ وغيرُ بَناني للزُّجاجِ رِكابُ [2]
تركْنا لأطرافِ القنا كلَّ شهوةٍ فليس لنا إلاّ بهنّ لِعابُ [3]
أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سَرْجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ [4]

لا يعرف القنوط واليأس، وإذا تذكّر المرأة في احدى غفلات الغريزة ويقظاتها تذكر سيفه ورمحه. تغزّل ليقول غزلاً، أو لأنه مكبوت العاطفة ينفّس عنها بهذا الحديث، فهو لا يصرّح كبشار: نَفَسي يا عَبْدَ عنّي ...
المتنبي عفيف حقاً بل هو أعفّ شعرائنا. حبه حب عربي أوّلي لا يشذ عن التقاليد ولا يتعداها.

---

(١) الخود: المرأة الشابة. تجاب: تعبر، تقطع.

(٢) الرمية: ما يصاب بالرمي. وقوله، غير بناني للزجاج ركاب، كناية عن انه لا يشرب الخمر، فلا يحمل بنانه مركوباً لكؤوسها.

(٣) يقول: تركنا كل لذة من النساء وغيرهن لنهتم بالرماح (أدوات الحرب) فنحن لا نلعب إلا بها، أي ان شغلنا الحرب.

(٤) السابح: الجواد: يعني به ان اعز موضع هو ظهر الجواد، في المعركة، وخير الجلساء هو كتاب تقرأه.

المتنبي رجل يعشق المجد ويحب الحرب ويعشق السلاح ويصبو إلى الدم . وقد يؤثر الجلوس أمام فرسه ولا يقول كابن الثمانين :

وفيهِنَّ ملهىً لِلطيف ومنظرٌ أنيقٌ لِعَيْنِ الناظِرِ المتوسِّمِ

ابن بيداء وفلاة ، يحلم بالسيادة ، تصبيه المناظر المخوفة أكثر من المشاهد الأنيقة ، ولهذا ترى تصويره يخيف كجهنم دانتي . وإذا صوّر أهمل الخطوط التي لا تزيد صورته روعة ، فيعطيك سيماء الشيء أو سحنته لا تفاصيله ، كما وصف شعب بوّان وجبال لبنان . يصف ما له علاقة بموضوعه . فلو عاش ابن الرومي مثله في حلب ما ترك أكلة إلا وصفها .

لا يعنى المتنبي بالذكريات بل ينعم بالحالة الحاضرة ، وفي هذا قال :
خُلِقْتُ أَلوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شَيْبي مُوجَعَ القلبِ باكيا

لا يتأسف على ما فات ولا يخشى ما هو آت. انه يسعى للخلود ، والخلود في نظره كما قال :

ذِكْرُ الفتى عمرُهُ الثاني ، وحاجته ما قاتَه ،وفُضولُ العيشِ أشغالُ[1]

له في مطالعته الدائمة واسفاره المتتابعة خير غذاء لمخيلته وقريحته ، فهضم المتقدمين ولم يدع شيئاً للمتأخرين. ترك للاولين تعابيرهم ورواسمهم واعتمد على اسلوبه الخاص وانقياد شعوره ، وعلى تأمّله وقوة توليده ، وقد ذكر الجمال لا للاعجاب به والانشداه ، بل لأنه طريف .

الدم يتكلم عند المتنبي ، وما المال عنده الا وسيلة لادراك العظمة وارضاء كبريائه . يطل المتنبي على دواوين الشعراء كزائر يعرف مخارم البيوت ، لا كلصٍّ او مستجير . فهو غازٍ فاتح اكتسح الأدب العربي كله ، وبنى مملكة أدبية اسمها مملكة المتنبي ، فلا يبحث ضعاف العقول عن سرقاته ، فالدنيا

(١) ماقاته : ما كان قوتاً له يمسك رمقه .

كانت كلها لواحد .. ان خارطة الأرض تتغير ولا يغيّرها غير الجبابرة .

قد صبغ المتنبي دولته صبغة لا تحول ولا تزول. كثيرون حاولوا اجتياحها فتحطمت امانيهم عند اسوارها المنيعة . فروح المتنبي تنتشر في كل قصيدة من قصائده، فهو منقذ الشعر العربي. انقذه من عبودية التقليد، ووجّهه نحو تكوين الرجال وتربيتهم .

أحيا كثيراً من موتى الشعراء ، فلولاه ما ذكروا . ذكرهم نقاد المتنبي إذ زعموا انه سرق هذا أو ذاك المعنى منهم فعاشوا .

هو محيي الملوك والامراء ، وحسبه انه استخرج الالماس من فحمة القسطاط ... تَسُودُ ديوان المتنبي فكرة شاملة ، فهو ان مدح او رثى او وصف او هجا ، يريد خلق الرجل الامثل ، والرجل الامثل عند ابي الطيب هو العربي النبيل .

فاذا اخترنا من شعراء العرب معلماً لاولادنا فلا يصلح لهم الا هذا الرجل. لا خوف على العذارى والفتيان من السير في خفارة المتنبي . انهم يلوذون بحصن منيع من الاخلاق السامية . فحيث كانوا في ديوان هذا الرجل العظيم يتلقون درساً بليغاً لا يجدونه عند غيره . يهوّن عليهم اصعب الاشياء ليخلق فيهم الشجاعة العظمى، فكيفما اتجهوا يروا رجلاً يزدري ما يخافه اشجع الناس:

إلفُ هذا الهَوَاءِ أوقعَ في الأنفسِ أنَّ الحِمَامَ مُرُّ المذاقِ
والأسى قبلَ فُرْقةِ الروحِ عجزٌ والأسى لا يكونُ بعْدَ الفِراقِ

فيا ليت شعري ، لو عاد « الصاحب » اليوم أفلا يخجل من قوله : بديء الشعر بملك وختم بملك ؟ اما مات جميع الملوك وخلّد المتنبي ، الشاعر الحي في ضمير الانسانية ؟

ان المتنبي ، بَلْهَ انه شاعر العرب الأعظم ، هو رجل نضال ، لشعره علاقة وثيقة بحياة كلها آمال واماني ، فالشخصية المتنبئية مرتبطة اشدّ ما

يكون الارتباط بما قاله صاحبها من شعر، وازدادت هذه الشخصية نمواً، لا بل تضخمت جداً، لكثرة التنقل والضرب في فضاء الله . وهذا التنقل صيّر تلك النواة التي أحسّ بها في « المكتب » دوحةً وارفة الظل برغم أنف الجَدّ العاثر والنجم الهاوي الذي يرافقها :

أبداً أقطعُ البلادَ ونجمي   في نحوسٍ وهمتي في سعودِ

وهذه الشخصية الحالمة بالعظمة، حسبت كما يحسب كل شاب، انما تتخيّله ممكن الحصول، حتى اذا أقبلت على الكهولة تراجعت رويداً رويداً، وأدركت ان « ما كل ما يتمنى المرء يدركه » فأقلت لومَها وعتابَها الزمانَ ، ثم ما أحجمت عن انتحال الأعذار ، فقالت :

أريدُ من زَمَني ذا أن يُبلّغني   ما ليس يبلغه من نفسِهِ الزّمنُ

وبعد الطموح الى الامامة والنبوّة رضي صاحبنا بولاية . ولكنه لم يحصل على ضيعة .. فأبرق وأرعد ، وهو لا يدري انه يؤدي رسالته التي بُعث لها، أي رسالة الشعر الباقي .

ثم كانت المعركة الفاصلة بين المتنبي وغلامه وولده ، وبين الدهر والحظ في دير العاقول، وأرخي الستار ليفتح عن فصل الختام الخالد، الفصل الذي لا ينتهي.

في شخصية المتنبي خطان رئيسيان متوازيان يمتدان في ديوان ابي الطيب الذي هو صورة صادقة لنفسه. فالخطّ الأول، وهو الاعجاب بالنفس والاعتداد بها ، ابتدأ في اول شعر قاله :

ان اكن معجباً فعُجْبُ عجيبٍ   لم يجدْ فوق نفسِهِ من مزيدِ

وانتهى في آخر شعر نظمه :

وأنّى شئتِ يا طُرُقي فكوني   أذاةً او نجَاةً أو هلاكا
ولو سِرْنا ، وفي تشرينَ خَمْسٌ ،   رأوني قبْلَ أن يرَوا السِّماكا [1]

---

(١) السماك : نجم معروف . والمعنى انه لو سار عن مدينة شيراز وقد مضت خمس ليال من شهر تشرين لبلغ الكوفة التي كان يقصدها فرآه أهلها قبل أن يروا السماك، يريد بذلك سرعة سيره.

ألست ترى ان هذا « الاعتداد » هو الذي قتل أبا الطيب ، بعدما انذره ابن نصر بالخطر الكامن ؟

والخطّ الثاني الذي يناوح هذا الخط الأصيل –وقد يكون هذا من ذاك– هو خط الشكوى من الدهر، والدهر في نظر هذا الشاعر أبو الحظوظ ومقسّم الأرزاق . ترعرع المتنبي وشبّ واكتهل ولم يفلت هذا الخيط ابداً،حتى تخيّل الدهر « غريماً » من لحم ودم فاستعدى عليه بحر الفسطاط . وكأن الشاعر أحسّ ، ولكن بعد خراب البصرة،انه يتجنّى على هذا « الغريم » فيما ادعى عليه ، فنزل عن كتفيه ، وقال :

ما أجْدَرَ الأيامَ واللّيالي   بأنْ تقولَ : ما له ومَا لي

وهكذا تندحر تلك الشخصية الجموح بعد تخطّي العمر .

ومن الخط الأول ، خط الاعجاب بالنفس ، يشتقّ خط طويل عريض ترحف عليه قاطراتُ أبي الطيب مشحونة موادّ سريعة الانفجار. فهو يزدري كل شيء حتى الموت والحياة ... ويحتقر الناس جميعاً كبارَهم وصغارَهم ، ملوكاً وسوقة :

اذمُّ إلى هـذا الزمانِ أُهيْلَهُ   فأعلمُهم فدْمٌ،وأحزمُهم وَغْدُ
وأكرمُهم كَلْبٌ،وأبصرُهم عمٍ   وأسهدُهم فَهْدٌ،وأشجعُهم قِرْدُ

فكلّ هذا منبعه الاعتداد بالنفس حتى الهوَس والجنون .

وكأني بالمتنبي يحدق إلى شخصيته العجيبة بنظّارة تضخم الشخوص جداً، فصوّرها لنا كما رآها هو ، حتى إذا شمل مَن حوله بنظره العالي قلّب « نظّارته » تلك فرأى « أُهَيْلَ » زمانه كالذرّ والذبّان .

ولست أدعي انني أحطت بكل ما في ديوان الشاعر من خطوط ، فهناك خطوطٌ رئيسية اخرى ، وكلها متفرعة من صميم «كبريائه» . فعلى من يدرسه بعدي أن يتتبّعها فيتألف من ديوان الشاعر « وحدةٌ » تجعله « كلاً » . وسبحان الواهب بلا حساب .

بَعدَ المتنبي

الشريف الرضي

كأني بابن الأثير قد شاهد تدهور الشعر ، بعد أبي الطيب ، فقال في مثله السائر : « وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وُصف فهو فوق الوصف وفوق الاطراء » . أجل ان « الرؤوس » التي هي من العيار الثقيل قد ذهبت بذهاب المتنبي ، وكاد يفقد القريض رصانته لولا شاعران ، هما المعرّي والشريف الرضي .

أما المعرّي فتفوّق بدرعيّاته [1] وحلّق في رثائه ، فإذا أردت شعره ، كشعر عربي ، فعليك بالسّقْطِ وضوئه [2] ، وإذا طلبت مذهبه الذي اختصصناه بكتاب سميناه «زوبعة الدهور» فاقرأ لزومياته وكتبه الاخرى.

وأما الشريف الرضي ، وهو شاعر زمانه لا سواه ، فخير لي ذلك أن تقرأ هذا الفصل الذي كتبته حول كتابَي زكي مبارك وعبد المسيح محفوظ ، وعنوانه « الشريف الرضي بين دكتورين » ، واليكه :

جرى حديث بين الشيطان وايفان ، في رواية « الاخوة كرامازوف » للقصصي العظيم دوستوفسكي ، فقال الشيطان لايفان :

« يجب أن تشك وتجحد ، فبدون الشك والجحود لا نقد . وبدون النقد كيف ننقّح ونهذّب ؟ إذا توارى النقد لم يبق إلا «أوصانا» وهذا لا يكفي. يجب أن نضع التقريظ والنقد في كفتي الميزان. ومع ذلك فما أنا الذي اخترعت النقد ، ولست أنا تيس الخطيئة . يجب أن أنتقد لأن النقد أصل الحياة . »

(١) الدرعيات : مجموعة قصائد للمعري يصف فيها الدروع .

(٢) أراد ديوان المعري : سقط الزند ، وديوانه : ضوء السقط .

أما تورغنيف الروائي العظيم الآخر فيقول في روايته « الأرض البكر » :
« أين النقد في روسيا ؟ عندنا بعض شبان يريدون أن ينتقدوا ، فإذا أرادوا أن يبرهنوا أن الدجاجة تبيض سوّدوا عشرين صفحة لإظهار هذه الحقيقة ... وقد لا يظهرونها كما يريدون .

« إذا صدقنا سكوروبيكين قلنا : كل انتاج قديم هو كالعدم، أو لا شيء لأنه قديم . وإذا كان الأمر كذلك صارت الفنون كالأزياء، ولا لزوم للتحدث عنها بجد . إذا لم يكن في الفن شيء دائم لا يتغير ، مثل العـلم ، فليأخذه القرد ...

« نعم إن قواعـد الفن صعب اكتشافها كقواعد العلم ، ولكنها موجودة ومن ينكر وجودها فهو أعمى .

« لا شيء أقوى فينا من الشيء الذي يبقى فينـا ، ويظل كبـيرٌ مغلق لا نفهم منه إلا القليل » .

هذا رأي الشيخين الروسيين الخالدين ، امـا أنا ، ولا ادعاء ، فأرى النقد لا يعدو ثلاثة أنواع : إما بعث ، وإما نشر وتحنيط ، وإما قبر .

أمامي الآن كتابان في الشريف الرضي ، والشريف الرضي أشهـر من أن يعرّف ، فهو شاعر بعيد مرامي الكلم ، كبير الهمّ . فبيت المتنبي الذي قاله عن نفسه :

وفـؤادي من المـلوكِ وإن كا ـنَ لساني يُرى من الشُعَرَاء

يصحّ في الشريف الرضي لا في ابي الطيب . انه ملك حقا ، ومستقره في حنايا القلوب الكبيرة لا القصور الرفيعة العماد . أما الكتابان فواحد للدكتور زكي مبارك، وواحد للدكتور محفوظ . فلنقل إذن الشريف، رضي الله عنه، بين دكتورين ولكن لا ، فالاستاذ مبارك ، كما يتضح من الكشف الذي على الجزء الثاني من كتابـه : « عبقرية الشريف الرضي » ، اكثر من دكتور ، هو

دكتور في الآداب من جامعة باريس ، ودكتور في الآداب من الجامعة المصرية مرّتين . لقد حيرني هذا فقلت : ترى صارت الدكتوراه كبعض الاوسمة ... تمنح مرتين واكثر ...

وكيفما دارت الحال بالدكتور مبارك فهو كاتب ملهَم وملهِم ، كما يعبّر زميله الدكتور الآخر. فكرت قبل أن أفتح كتابه أن أثني ثناء طويلا عريضاً على كتبه الضخمة ، فالرجل ، بارك الله في عمره ، سوّد وحبّر من الصفحات ما يعز على عشرة من فطاحل الكتّاب أن يسوّدوه . وفيما أنا أفتش عن كلمة أفي بها قسطاً من الديون المستحقة ، فتحت الكتاب بدون انتباه فوقعت عيني على أول صفحة فاستغنيت عن كلامي انا بكلمته هو ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه. فبعد أن قال الدكتور، ولأنه، ولأنه ... كما يقال في المراسيم : بناء وبناء ، قال اخيراً : « ولأن القلم جرى فيه – أي في كتابه – باسلوب ما احسبني سبقت إليه في « شرح أغراض الشعراء » حتى كدت أتوهم اني طفت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين » .

وحسبي بهذا ثناء على الدكتور الجليل ، فرجعت ولساني يردد قول العوام عندنا : من مالك يهدى لك ...

روى الدكتور بيتاً للشريف وهو :

أنا النُّضارُ الذي يُضَنُّ بــه لو قلّبتني يمينُ مُنتَقِدِ [1]

وقد علق مبارك عليه بهذه العبارة: اشهد انك وجدت المنتقد، ايها النضار.

ليت الدكتور اصر على ما ادعى في عبارته التي تقدمت، فقد انصف نفسه لانصاف كله، حين زعم انه شرح أغراض الشريف . قد أجاد في هذا وأفاد، وصوّب أشعة التاريخ الكاشفـــة على عذارى الشريف الخالدات ، فبهر جمالها العيون، وفهم الناس عن ذلك النبيل ما لم يكونوا يفهمون لولا كتاب مبارك .

---

(١) النضار : الذهب والفضة ، وغلب في معناه : الذهب .

ناهيك ان الديوان اصبح نادراً فكأنه أعاد طبعه ، او اختار دراريه ، فأصبح القارىء في غنى عن التماس الأصل . أما النقد الذي توعّد به الشريف الرضي، أو وعده ، فما وقفت على أثر له في الكتاب ، إلا إذا كان مـا قاله الدكتور مبارك نقداً في نظر غيري ... لعله كذلك ، ومن يدري ؟..

أتقول هذا نقداً ؟ قال الدكتور نقداً في الصفحة ١٢ : « سيرى قراء هذا الكتاب إني « جعلت » الشريف افحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد:أيكون الشريف أشعر من المتنبي !

«واستطيع ان اجيب بان الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في أي كتاب ولن يكون المتنبي اشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هـــذا الكتاب »

واذا قلبت الورقة عثرت على هذه العبارات: « وبيان ذلك اني لم اقف من الشاعر الذي ادرسه موقف الاستاذ من التلميذ ، كما يفعل المتحذلقون ، وانمـا وقفت منه موقف الصديق من الصديق . والتشابه بيني وبين الشريف الرضي عظيم جداً ، ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق » .

قلْ له ، يا سيدي ، قم فيقوم ، ويشهد الناس عناقاً لم يشهدوا مثله في بيت عنْيا ... ما زلت تُحمل شاعراً كالمتنبي اذا شئت ، وينبه ذكره اذا كتبت عنه كتاباً مثل هـذا الكتاب ، فلا يصعب عليك ان تنشر الشريف هنيهة ليعانقك معانقة الشقيق ، وانا اكفل له الخلود الى قيام الساعـــة مثل ايليا واخنوخ ... لان معانقة من يحيي قلمه ويميت ليست بالأمر الكثير الوقوع ..

حقاً ان العبقرية فنون !... او جنون .

ومع كل هـــذا القول فما أرى كتاب المبارك الا نشراً وتحنيطاً ، ومصر بزت العالم في هـــذا الفن . قد كان موقف الدكتور في هذا الكتاب موقف

الدليل من العاديّات[1]، او كمن يعرض « صندوق الدنيا ». قلت ان الدكتور في غنى عن المدح لأنه ادرى بنفسه ، وقد وفّاها حقها . انه محتاج الى من ينتقده ، وقلّ من يقدم على ذلك ، لان عند الدكتور بضاعة لا يعرضها غيره في سوق الادب ، فهو محتكر هذا الصنف ومُدّخره لحين الحاجة .

وقد فرغنـــا من كتاب « عدّة دكاترة » . فلنعد الى الكتاب الاخر ، كتاب الدكتور الواحد .

كتاب الدكتور محفوظ جديد في بابه، وفيه جهود ذات بال ، لولا مغالاة صاحبها في بسطها. ان فرحته بالعثور عليها تحاكي في ضوضائها وضجتها فرحة ذلك العالم الذي هتف : وجدتها وجدتها !

لقد اصبت يا دكتور ، ولكن حنانيك ... وهلتنا يا شيخ . فليس مـا تسمونه « الرمزية » باكتشاف جديد ، فمحاولة الاستعارة الرمزية ، كما فعل الشريف اللبيب ، تبلغك الهدف . احذف كاف التشبيه واضف المشبّه به الى المشبّه ، وفتش عن الاستعارات الغريبة والكنايات البعيدة تكن رمزياً .

نشر هذا الكتاب الطريف الجديد في لغة الضاد السيد محمود صفي الدين صاحب مكتبة بيروت ، فخدم الادب خدمة جلى ، إذ ادخل هذا البرعم الجديد الى حديقة آدابنـــا المحتاجة الى التطعيم . فالكتاب نفيس مفيد جداً للشعراء الرمزيين . ففيه كل شيء حتى التمارين لتحويل الكلام الواقعي الى رمزي ... يعلّم الذين يستحلون الاسلوب الرمزي، وخصوصاً من لا يغيرون على الموتى ، كما قال ابن الرومي في صاحبه البحتري ، او الذين لا يعرفون الفرنسية ليعرّبوا صور مالرمه وسامان ورنبو وفاليري حـــتى نثر جورج دوهاميل – عفواً يا سيدي دوهاميل ، انت دكتور ، فعندكم يهملون هـــذه الالقاب ، وانا اتكلم بلغتكم حين التحدث عنكم .

---

(١) العاديات ، هنا : الآثار القديمة .

من قراءة مقدمة السيد صفي الدين،ناشر كتاب محفوظ، يفهم القارىء ان الكتاب جديد في بابه ، وهذا لا ينكر . فهو، عدا تعريفنا بعبقرية الشريف الرضي، يعرّف القارىء الذي لا يعرف لغة اجنبية مذاهب الأدب الأجنبي، فيخرج من مطالعته وعنده من كل فن خبر ، فالكتاب حجر جديد في المكتبة العربية .

اما انه ادرك دون سواه رمزية الشريف وعبقريته فهذا ما اشكّ به . سمعت من استاذ لي - في ذلك الزمان - اطيب الثناء على شعر الرضي . كان هذا الاستاذ - ادركته وهو شيخ - يعلّمنا المعاني والبيان ، يقول عن الشريف الرضي : انه شريف في معانيه ، شريف في غزله ، لا تستحي البنت ولا خوري مثلي ان يردّدا نسيبه . يؤدي فكرته باسلوب يخفف من وطئها وسماجتها ، فتحلو في السماع ولا تنبو عنها الطباع. وما سماه الدكتور محفوظ اليوم « رمزياً » كان يسميه معلمنا تشبيهاً بليغاً ، وكثيراً ما كان يتلمظ اذ يقول :

والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقد جرى ذَهَبُ الأصيل على لُجينِ الماء[1]

كان يحب ، رحمه الله ، اسلوب الشريف الرضي لفحولة كلامه وتعففه ، وبعده من الركاكة والحشو ، ويعجبه جري تعبيره فيشبهه بأنهار لبنان . ويتكلم عن متانته ، فيقول : هذا عمّار - بنّاء - ماهر ، مدماكه حلو...

نعم إن استاذنا ، في ذلك الزمان ، كان عارفاً بالأدب الفرنجي. ولم يكن يقيم وزناً للرمزيين لأنه محافظ لا يعدل بكورناي وراسين شاعراً فرنسياً.كان ينظر في شعر الشريف على ضوء كتابه الذي يعلّمه -كتاب البلاغة العربية - وكان يقول لنا:متى قلّت الأدوات والوسائل كان المجازُ أبلغ وأحلى . وخير مثالٍ على هذا عنده شعرُ الشريف .

---

(١) البيت لابن خفاجة الأندلسي .

رحم الله ذاك الخوري ، لقد كان كما قال الشاعر : حَجَرَ شَحْذٍ يسنّ الحديد ولا يقطع . كان شعره بارداً ونثره أبرد . ولكنه كان معلّماً .

أما كتاب الدكتور محفوظ ، فيفتح أذهان الشعراء والطلاب ، ويرشدهم في مهمه الرمزية : فهو كالصوى [1] في الصحراء ، أو كهذه الأعمدة المنصوبة على مفارق طرقات لبنان تهدي السائق الغريب طريق البلد الذي يقصد . لا تعيب هذا الكتاب تلك الفصول الخارجة عنه،فهي مفيدة للقارىء وهي تمتّ إلى موضوعه بنسب. يردّ على الدكتور طه حسين في المقارنة بين الأدب العربي والآداب الأجنبية ، ويسمي ذلك وقفة ، فإذا بالوقفة تطول جداً فتستغرق أربعين صفحة من الكتاب . ولكنها وقفة ، على طولها ، لم تخلُ من فائدة إذ يتحدث فيها عن أدب اليونان فيقع الدكتور محفوظ فيما وقع فيه الدكتور طه حسين من المراجعة والتكرار والمطّ ، فكأنه يريد أن لا يستقل طه حسين بهذا الاختصاص ، بل يريد — ويا للجسارة ! — أن يعلّم طه كيف يدرس، وكيف تدرس الآداب ،، وطه حسين كبر على العلم . . .

وما كدنا نفلت من طه حسين ومنه حتى اعادنا في عشرين صفحة اخرى إلى ذلك المحيط ، محيط التعليم،وتعليم درس لا علاقة له بالكتاب . وبأسلوب لا أحبه . ان أكرهَ ما اكره اسلوب أولاً وثانياً وثالثاً .

وبمناسبة الكلام على المدارس الأدبية يأتينا الاستاذ محفوظ بترجمة جديدة لكلمة رومنطيقي فيعرّبهـــا الأدب المطلق ، ويحتج على تسمية الابتداعي والاتباعي .

حقاً لقد كان القدماء أنبه منا ، فعرفوا كيف يعرّبون الألفاظ . أما نحن فكل يعرّب على هواه ، فقد قرأت اسم شاعر الالمان صاحب فوست أشكالاً متعددة ، إن أصح تعريب هو كلمة رومنطيقي ، وهي مطبوعة على غـرار العرب في التعريب .

---

(١) الصوى : جمع الصوة ، وهي العلم ينصب في الطريق .

ويحدثنا الدكتور محفوظ ويثير قسطلاً[1] من الإعجاب حول هذا البيت:

ولو استطاعَ لقــد جرَى   مجرَى الوشاحِ على حَشَاها

فهذه الفكرة ، التي غالى في وصفها وتحليلها ، بسيطة جداً . وردت لغير الشريف وقد ترد كل يوم ، وفي كل ساعة ، عند ذوي العيون النهمة حتى صارت مبتذلة .

ويكتب فصلاً شائقاً قيماً عما يلتبس بالشعر الرمزي ، ولا عيب في هــذا الفصل إلا انه كلف نفسه فيه مناقشة الاستاذ الزيات حول شعر ابن الفارض. فيقول الدكتور محفوظ أن البيتين والثلاثة في القصيدة لا تكفي لاعتبارها شعراً رمزياً ، فلو كان لابن الفارض ثلاث قصائد كاملة من مرتبة هذين البيتين المليئين بالصور الجميلة :

وفي مَساقِطِ أنداءِ الغَمامِ على   بِساطِ نَوْرٍ منَ الأزهارِ مُنتسِجِ
وفي مَساحِبِ أذيالِ النسيمِ،إذا   أهدى إليَّ سُحَيراً أطيبَ الأرجِ[2]

لجاز لنا أن ندعوه شاعراً رمزياً،ولكن بكل أسف لا نجد له سوى أبيات متفرقة فقط غير كافية لإلباسه التاج الرمزي الصحيح .

قلت : وهل للشريف الرضي قصائد كاملة ! أقول هذا وأنا مثل الدكتور محفوظ لا أرى الرموز الصوفية شعراً رمزياً كما نفهم الشعر الرمزي الاوروبي.

ويقابل الدكتور محفوظ بين الشريف الرضي وشعراء الفرنجــة الرمزيين فيوفق توفيقاً حسناً وإن تكلف.ويحاول تهشيم شعرائنا المتقدمين ليثبت قضيته التي أثارها حول شاعرنا الشريف . ثم يعجب حتى يفوق عجبه العجب باتفاق رنبو صاحب « المركب السكران » وشريفنا صاحب « العرف السكران » حتى كدت أقول ان كتاب محفوظ يدور كلــه حول هذا البيت دوران القمر حول الأرض :

---

(١) القسطل : الغبار الثائر في الحرب .   (٢) الأرج : الرائحة الطيبة .

كم نفحةٍ لكِ كالطيمـــةِ مســ ـراها نمومٌ وعَرْفُها ثمِلُ [1]

ويعجب محفوظ ببيت آخر للشريف :

تزاحمُ أنجمـــه للأفولِ والبدْرُ في إثرِ ذاك الزِّحــام

فيقابله بقول شعراء الغرب وينسى « نابغتنا » القائل : « وليس الذي يرعى النجومَ بآيبِ » .

ويغالي الدكتور محفوظ جداً في استخراج الصور كأنها كل شيء ، مع ان الشعر الرمزي يقوم على الموسيقى قبل الصور . وهــذا رأي العرب في الشعر أيضاً فقالوا عن البحتري : أراد أن يشعر فغنّى . وقال الجاحظ : الشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوّل سقط موضع التعجب منه[2].ولهذا اتعجب كيف ان الدكتور لم يسهب في وصف موسيقى الشريف الشعرية ، مع انها موسيقى فائقة يضارع فيهــا البحتري شيخ النغم الشعري . ولكنها وياللاسف غير موجودة في الأبيات التي طبقها محفوظ على الأصول التي وضعها « مشارع الرمزية » مالرمه ...

أما « الدزينة » من الصور التي استخرجها محفوظ من بيت الشريف هذا :

كم فيكِ من مُهجةٍ مُعَذَّبةٍ هجيرُهــا بالنّسيم يلتطمُ

فمدهشة حقاً ، وادهش منها تفتيشه دائماً عــن بيت رديء أو وَسط عند المتنبي ليقابله بما قاله الشريف . واني لأعجب من الدكتور حين يطيل الثناء على هذا الشطر للشريف:« ترى العينُ ما لا تنالُ اليدُ »،ثم يقول عن بيت المتنبي: تركتُ السُّرى خَلفِي لمن قلّ مالُه وأنعلْتُ أفراسي بنُعماكَ عَسْجَدَا

---

(١) ثمل : سكران .

(٢) النص التام لكلام الجاحظ: والشعر لا يستطاع ان يترجم ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب (الحيوان . جزء ١) صفحة ٧٥ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) .

إن في استطاعة كل انسان ان يقول: ملأت جيوبي ذهباً، أو ملأت داري ذهباً ، وأنعلت خيلي ذهباً وعسجداً . ونحـن نقول له : ان شطر الشريف ، وان أجاد نظمه، هو أيضاً نظمُ قولنا العامي : العين بصيرة واليد قصيرة..

ما هكذا تقاس الفنون يا نطاسي ، وما هكذا يقابل بين شاعرين عظيمين كالشريف والمتنبي . فكل فنّان يستقي من الواقع ، ولكنــه يخرج فكرته كما تخرج النحلة عسلها ، أي مطبوعة بطابع نفسه ، فرويداً رويداً.ولا تنس ان الشريف ترسّم خطى ابي الطيب .

لقد أجاد الدكتور فأفاد حين حدد الشعر الرمزي وذكر أسسه وأصوله . ولم يفته ذكر عيوبه فحذر جماعة الرمزيين بقوله:فنقع في العيب الذي وقعفيه الأدب الرومنطيقي حيث كانوا يعيبون على شعرائه تكرار بعض عبارات .

لقد وقعتم يا صاحبي – ان كنتم منهم – وابتُذل شعركم ، كما قلت لكم غير مرة ، واصبحتم ترتطمون في تعملكم . فحذار !

وكأنه تصور ان الشريف الرضي شاعر رمزي حقاً فقال (ص ٩٦) بعد أن بيّن العيوب التي وقع فيها الشعراء الرمزيون : ان عبقرية الشريف المدهشة لم تقع في واحد من العيوب المنسوبة إلى الأدب الرمزي وإلى اسلوب شعرائه.. انها لغريبة تلك العبقرية التي تتجرد من نفسها لتنتقد ذاتها بذاتها .

فالجواب : ان الشريف الرضي ليس بشاعر رمزي كما يشاء الحكيم أن يكون، ولكنه شاعر ملهم ، له استعارات وتشابيه طريفة أرشده إليها ذوقه الرفيع ، واسلوبه الفذ ، ولغته الجزلة ، وقد سبقه إلى هذا أبو تمام . أما انه واضع أسس الرمزية قبل بودلير فلا يا صاحبي . وهل للرمزية أسس تتجرد كل التجرد من المدارس التي سبقتها ؟

أما تعجُّب الحكيم منخاصة النقد عند الشريف فلا داعي له، فهذه خاصة لا بد منها لكل فنان في الأدب وغيره،وان حرم منها فلا يقول شيئاً يذكر، بل يضع السكر والملح في طبخة واحدة .

تهيأ يا قارئي فنحن قادمون على «مأتم» ، مأتم طويل يدوم خمسة اسابيع واكثر ، فلا ترع . مأتم حول بيت قاله مولانا الشريف ، واليكه :

تـــلذُّ عيني ، وقلبي منــكِ في ألمٍ فالقلب في مأتمٍ ،والعينُ في عُرُسِ !

من عادة المأتم، حتى الملوكي منه، ان يدوم اسبوعاً، أما المأتم الذي أقامه الحكيم فظل خمسة وثلاثين يوماً، أي ٣٥ صفحة من القطع الكبير. راح، آجره الله ، يحدثنا عن « المأتم » في الشعر العربي من ابي تمام حتى شوقي ، فخلنـــا نفسنا في مأتم حقاً . لم يلس مأتم البحتري في ايوان كسرى ، ومأتم شوقي في الحمراء . ولست ادري لماذا أتعب المؤلف نفسه كل هذا التعب وجاءنا بكل هذه المآتم . لا علاقــة بين مأتم الشريف وبين أي مأتم آخر الا المأتم الذي أقامه قبله حبيب الطائي ، حيث يقع فيه الحافر على الحافر بينَ الشاعرين ، كما عبّر قبلنا ابن الاثير . واليك قول ابي تمام :

أسكنْنُ قلباً هائمـــاً فيه مَأتَمٌ من الشوقِ، إلاّ أن عينيّ في عُرُسِ

وتعصّب الحكيم لشاعره – وهو شاعرنا الذي نحبه لأنه عشير الصبا – فقال: ان الشريف لم يطلع على بيت ابي تمام هذا . قلت . ان اطلاع الشريف لا يضيره يا دكتور ، فلا تعنّ نفسك ، فأبيات الشريف الأربعة التي اوردتها هي خير ما قيل في الشعر العربي اظهاراً للتحرق ، وهي من الشعر « الناعم » جداً ، كما تعبّر عن شعركم الرمزي ، ولا بد من ايرادها تبريراً لمغالاتي :

خذي حديثَكِ من نَفْسي عن النفَس، وَجْدُ المشوق المعنّى غير مُلْتَبِسِ
الماءُ في ناظري ، والنارُ في كبدي ، ان شئتِ فاغترفي، او شئتِ فاقتبسي
كم نظرةٍ منكِ تشفي النَّفْسَ عن عَرَضٍ وتُرجِعُ القَلْبَ مني جِدُّ مُنتكِسِ
تلذّ عيني ، وقلبي منـــكِ في ألمٍ ، فالقلبُ في مأتمٍ ، والعينُ في عُرُسِ

فالشريف هنا ، وفي كل مكان ، يبذ أبا تمام ديباجةً ، اما المعاني فذاك ربها ، كما وصفه ابن الاثير . ولم يكتف الدكتور بنهاية المأتم العربي حتى نقله

الى اوروبا فجاءنا بما قاله فرلين في هذا المعنى ، وقال هو ان القصد من هذه الابحاث هو تحليل الأدب الدقيق . وقلت انا : ولكنه تحليل طويـل يحلّ المفاصل ...

ومن عادة المأتم ان يعقبه البحث في زوال الدنيا ، وهكذا كان ، فشرح لنا الحكيم بيت الشريف العذب :

وقفاتٌ على غرورٍ وإقدا م ٌ على مَزْلَقٍ من الحَدَثانِ

وحدثنا حديثاً قيماً عن الصور الفارغة والمتناقضة ، وليس هنـــا باب التحدث عنها ، فالكتاب ضروري للمكتبة العربية ، فليطالعه الراغبون في الفن الرفيع ليعرفوا الصور الفارغة والمتناقضة وكيف تصنع .

قد رأيت ان عند الدكتور اشياء لم يقلها ، فعسى ان لا يحرمنا منها في جزء تالٍ ، ولا عيب في كتابه هذا الا التكرار واللف والدوران ، واخاله قد اضطر الى ذلك اضطراراً .

لقد طبّق المفصل اذ اهتدى الى الشريف ، فهو وابن المعتز ملكان ، والتأنق من صفات الملوك . وقد يصح هنا القول العربي المأثور : كلام الملوك ملوك الكلام .

ان للشريف خاصـة موسيقية فريدة في شعره الذي يرسله عفو الخاطر ، اما حين يتكلف الاستعارات البعيدة ، او الرمزية ، فقد رأيتـه يفقد كثيراً منهـا . ناهيك ان هذه الاستعارات الجميلة هي في ديوانه الضخم كشذور في منجم ، وقد ادرك ُبعد غوره القدماء فاشاروا الى ذلك ، وما أخـّرهم عن وضعه مع المتنبي الا لأنّ شعره يجري في مستوى واحـد ، فليس له وثبات ابي الطيب ولا إسفافه .

ان للشريف مقدرة عظمى على تحميل الكلمة ما تطيق ، فتبرز فكرتـه ناتئة كأنها تفويف الرخام أخرجه ازميل نحات حاذق. وللشريف شخصيتان

بدوية وحضرية . فللشريف البدوي كل صفات الشاعر القديم الا الخشونـة . وللشريف الحضري ليونة الاطلس ونعومة الخمل .

فبينا نسمعه يرثي بدوياً تخالك أمام شاعر جاهلي اذ يقول :

منابتَ العُشْبِ لا حامٍ ولا راعِ   مَضَى الرّدى بطويلِ الرُّمْحِ والباعِ

ثم يختمها بقوله :

استودعُ الأرضَ خُلاّني لتحفظَهم   لقد وَثِقْتُ الى مَوْجاةِ مِضْياعِ

واذا تغزّل قال :

يا حبّذا مِنْكِ خَيالٌ سَرَى   فدلّه الشّوْقُ على مَضْجَعي

ان الشريف مَن أحـلى شعرائنا استعارة وأبلغهم تشبيهاً ، ولو كنا من معاصريه ، رضي الله عنه ، لقلنا فيه بيته هذا :

خَلا مِنكَطرفي،وامتلامنكخاطِري،   كأنّكَ من عيني نُقِلْتَ إلى قلبي

عاشت العبقرية ، والأخلاق الرضيّة ! إنه لشريف حقاً .

الموشحات

بشار بن برد أول شاعر تغنى بتسهيل الشعر فقال معتداً بشعره :

وشعرٍ كنورِ الروضِ لاءمْتُ بينه بقولٍ إذا مـا أحزنَ الشِّعرُ أسهلا

أمـا الذين سهّلوه حتى أسهـلوه فأولئك هم شعراؤنا المغاربة . ثاروا على القوافي والأوزان وقالوا الشعر بالكلام الجاري على ألسنتهم، في جميع الأغراض التي قاله فيها المشارقة . تهافتوا على الشعر معتمدين السهولة الفائقة فصح فيهم قول الشاعر : زادَ في الرقّةِ حتى انفلقا ... لست اطيل الكلام وحسبي نموذجان أخذتهما عن ابن خلدون ، قال : « وذكر الأعلم البَطَلْيوسي انـه سمع ابن زهير يقول : ما حسدت قط وشّاحاً على قولٍ إلا ابن بقيّ حـين وقع له :

ما ترى أحمدْ، في مجده العالي لا يُلحقْ أطلعه الغَرْبُ، فأرِنا مِثله يا مَشرقْ !

ثم انتقل إلى رواية أخرى فحدّث عن الحكيم ابي بكر بن باجة انه حضر مجلس مخدومه ابن تيفوليت صاحب سرقسطة، فألقى على بعض قيناته موشحته :

جَرِّرِ الذَّيْـلَ أيمـا جَرّ وصِلِ الشكرَ مِنكَ بالشُّكرِ

فطرب الممدوح لذلك لما ختمها بقوله :

عَقَدَ اللهُ رَايَةَ النَّصرِ لأمير العـلا أبي بكر

فلـما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفوليت صاح : واطرباه ! وشق ثيابه وقال : ما أحسن ما بدأت وختمت ! وحلف بالايمان المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه » .

فليحكم القارىء في نفسه ، ثم لا يظنن ان القريض الأندلسي كله من هذا الحوك ففيه أنماط وضروب مختلفة. وقد كان في المغرب شاعر يضارع المشارقة ويجاريهم هو ابن هاني، كانت تتجاوب في نفسه اصداء الشرق فيحاكيها بكلام يقفز قفزاً ويحمز جمزاً ، وما رأيت ابا العلاء عادلاً ، اذ نقده ، فشبه شعره برحى تطحن قروناً ، فللرجل موسيقاه وفنه، وليست مبالغاته من نوع المبالغة الشعرية المعهودة، ولكن شاعر الفاطميين الاكبر يستوحي عقيدة راسخة فتحت مصر بقوة ايمانها وسيفها ، والشاعر على دين ملكه .

واذا استعرضنا شعراء الاندلس رأينا فيهم شعراء لم يتناهوا في هذا الشطط واشهرهم ابن زيدون ، وابن خفاجة ، وابن عبد ربه ، وابن الخطيب ، واذا قرأت موشح هذا الاخير « جادكَ الغَيْثُ اذا الغيث همى » هبّت عليك منه رائحة الشرق ، وادركت انهم لم يُبتَلوا جميعاً بالفالج الادبي الأندلسي .

لست انعى على الاندلسيين سهولتهم ، ولا صورهم الحلوة ، ولا الوانهم المتآلفة ، ففي شعرهم حلاوة السحر البياني وخفته ورشاقته كما في هذا المقطع الرشيق :

كُحْلُ الدجى يجري ، مِن مُقْلةِ الفَجْرِ ، على الصَّبَاحْ
ومِعْصَمُ النَّهْرِ ، في حُلَلٍ خُضْرِ ، مِنَ البِطَاحْ

ولكني انعى عليهم ما انعاه على شعرنا الشرقي ، وهو هذا التشابه ، فلا تكاد تقرأ موشحاً او موشحين حتى تعلم انك أتيت على كل ما عند القوم ، ولست تخرج من هذا الجو الشعري مهما قرأت ، وهكذا أصيب شعرنا الغربي بما ابتلي به شعرنا الشرقي .

اما المأثرة التي لا تنسى فهي سبقهم الناس اجمعين الى هذا النمط من الشعر. جاء في مقدمة مجموعة الازجال والموشحات للشيخ فيليب الخازن: « ان القافية لم تكن معروفة في اوروبا ، قبل عهد العرب ، فانما هم الأُلى ادخلوها اسبانيا

في بدء القرن الثامن ، كما حقق العالم السيد هويت اسقف افرانش ، ولم تنتشر في المانيا الا في القرن التاسع على يد الراهب اوتفريد الالماني . اما القول بأن القافية كانت معروفة قبل ذلك العهد استدلالاً بقصيدة لاتينية التزم فيها ناظمها القافية ، على كونها منسوبة الى القرن السادس[1] ، فليس ذلك بحجة واردة على اسقف افرانش ولا يقدح في صحة قوله المار ذكره ، اذ ليس في كتب العروض عند اللاتين من ايماض الى القافية في ذلك التاريخ . وفضلاً عنه فان المنظومة اللاتينية المستشهد بها لم تكن معروفة حتى المئة الثامنة عشرة . وباعثها من مدفن جهالتها وخمولها انما هو العالم لويس انطون ميراطوري .

و فلو سلمنا بتعارف القافية في اوربا منذ المائة السادسة لورَدَ علينا الاحتجاج بعدم استعمالها حتى القرن التاسع ، فبطل الاول لثبوت الثاني ، ولا عبرة ببعض مزدوجات جاءت في شعر «اوفيد وفرجيل وانيوس وهوراس وفادر » فانه من النادر او النزر القليل الذي لا يصلح حجة للقائل بغير قول السيد هويت ،خصوصاً وان نَقَدَةَ الكلام قد حملوا ما ورد من الشعر المقفّى لاولئك الشعراء على قصد الافتنان الخاص بهم دون غيرهم ، يؤيده ان شعراء اوروبا لم يحتذوهم فيه على المثال ، وانما لزموا سنن الشعر اللاتيني حتى جاء العرب اسبانيا مستصحبين كتاب عَروض شعرهم ، ومدارُه القافية ، فأخذها عنهم الفرنج وجعلوها اساساً لكتب عروضهم .

« اما الموشحات فاستحسنها شعراء الفرنجة من الاسبان والجرمان والطليان والفرنسيين » ، ونسجوا على منوالها كما يرى في ديوان الاغاني الاسبانية الاهلية الموسوم Le Romancero وديوان القوافي Les Rimes لفرنسيسكو بترارك احد فحول شعراء ايطاليا الذين ظاهروا على النهضة الادبية في القرن الرابع عشر ، وكما يظهر من المنظومات الاوروبية المعروفة عندهم ، وقد نظم على هذا الاسلوب شاعر فرنسا العالمي المشهور فكتور هيغو في ديواني شعر له عنوانها : Odes et Ballades, Les Orientales ، ولا مراء في ان العرب هم السابقون

الى هذه الطريقة بدليل ان شعراء الفرنجة في اوروبا لم يألفوا اساليبها ولا آنسوا من انوارها رشداً إلا في اواخر القرن الثالث عشر . »

لا شك ان الموشحات طِرَازٌ مُعلمٌ من الشعر . وها هو الشعر الاوروبي اليوم يمشي في تلك الجادة التي اختطوها ومهدوها في دنيا الشعر منذ عشرة قرون. لقد تبعهم العالم الادبي العالمي وتخلف عنهم اخوانهم في الجلدة واللسان، وكانت اليقظة اللبنانية فسمعنا في فجر القرن التاسع عشر صدى هذه الانغام في قصر أمير لبنان. مدّ شعراء الأمير بشير أيديهم إلى تلك القيثارة فاهتزت أوتارها . سمعنا نقولا الترك يهتف : بأبي عَهْدُ التّهاني والصفا ، الخ. وسمعنا بعده بطرس كرامة ينشد مهنئاً بقدوم مياه الصفا إلى دار الأمير :

صاحِ قد وافى « الصّفا » يُروي الظّما بشرابٍ كَوْثَرِيٍّ أَلْعَسِ
وأفاضَ الشهدَ في روضِ الحمى لِجَلا الغَمّ وُبرءِ الأنفُس

إلى أن يقول مادحاً أميره :

سَيّدٌ أهدى المعالي سُؤدَدا ، وحَبَاها كلَّ عزٍّ شامِلِ
خَرقَ الصّخرَ وأجرى مَوْرِدَا فاضَ من نَهرِ الصّفَا بالنائِلِ
أنشدت من كفّهِ سُحْبُ الندى: « لا يُضِيعُ الله أجرَ العامِلِ »

فبأعيانٍ ثَنَاهُ قد سَما غَزَلي ، لا بالعُيونِ النُّعَّسِ
وبمِيَّاسٍ قَنَاهُ نظّمَا عِقْدَ مَدْحي لا بقدٍّ أمْيَسِ

ثم انتشر أبناء لبنان في أقطار المسكونة ضاربين في مناكبها مترنمين بلسان عربي مبين ، فخلقوا في كل قطر من أقطار العالم أندلساً جديدة. أطلقوا الشعر العربي من أقفاصه ، ولقحوه بدم جديد . ألبسوه حللاً طريفة دون أن يطمسوا ملامحه أو يخفوا العروق الاصلية التي تمتاز بها كل أمة من غيرها . فكانت له الملاحة الأندلسية دون أن ينزلوا به إلى الميوعة التي ابتلاه بها بعض شعراء الأندلس .

ابن الفارض

وتمرّ قرون ينقطع فيها صدى الموسيقى العربية الضخمة ، ويركض الشعر ركضاً نحو السهولة ، فلنسمع الأقطار العربية ، صوتَ شاعر ، رخيماً ناعماً .

كان شعر ابن الفارض نموذجاً للشعر السهل المتماسك، يرينا ان للسهولة حدّاً يجب أن لا تتعداه . والشاعر، في هذا النحو من الشعر ، طائر لم تألفه دوحة الشعر العربي ، وإن لم يكن غريباً عنها. يحكى عن هذا الشاعر « الربّاني » انه بلغ في تصوّفه ذروة «الوجد» ويروون عنه أحاديث غيبوبات لا محل لذكرها في كتابي . ولكن الذي أستشفّه من شعره السهل الرصين يحملني على تصديق جميع تلك الروايات . فأيّ « وجد » يجده القلب البشري في شعر الشعراء أكثر مما يجد في ديوان شرف الدين ، العارف بالله ، ابن الفارض :

غيري على السُّلوانِ قادرْ … وسِوايَ في العُشّاقِ غادرْ
لِي في الغرامِ سريرةٌ ، … واللهُ أعلمُ بالسَّرائرْ
يا ليــلُ ما لكَ آخرٌ … يرجى ، ولا للشوقِ آخرْ
لي فيكَ أجرُ مُجَــاهِدٍ … إنْ صحَّ أنَّ الليلَ كافِرْ

زِدْني بفَرطِ الحُبِّ فيكَ تحيُّرا … وارحَمْ حَشاً بلظَى هَواكَ تسعَّرا
وإذا سألتُكَ أن أراكَ حقيقةً … فاسمحْ ،ولا تجعلْ جوَابي:لن تَرَى !

تِهْ دَلالاً ، فأنت أهــلٌ لِذاكا ، … وتحَكّمْ فالحسْنُ قــد أعطاكا
ولكَ الأمرُ فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ ، … فعــليَّ الجمَالُ قدْ وَلاّكا
وتلافِي إن كان فيه ائتــلافي … بِكَ ، عَجّلْ به جُعِلتُ فِداكا[1]

(١) تلافي : بمعنى تلفي ، فنائي .

قلبي يُحَدِّثُني بأنَّكَ مُتْلِفي ، روحي فِداكَ عَرَفْتَ أم لم تَعْرِفِ
ان لم يكن وَصْلٌ لَدَيْكَ فعِدْ به أملي وماطِلْ إن وعدتَ ولا تَفِ
يا مَا أُمَيْلِحَ كُلُّ ما يَرْضى بِه ورُضَابُه يا ما أُحَيْلاه بِفي [1]
إن زار يوماً يا حَشَايَ تقطَّعي كَلَفاً به، أو سار يا عَيْنُ اذْرِفي
ما للنَّوى ذَنْبٌ ومَنْ أهوى مَعي، إن غاب عن إنسانِ عيني فَهْوَ فِي [2]

ما بَيْنَ مُعْتَرَكِ الأحْداقِ والمُهَجِ أنا القَتيلُ بِلا إثْمٍ ولا حَرَجِ
أعوامُ إقْبالِه كاليومِ في قِصَرٍ ، ويومُ إعراضِه في الطُّولِ كالحِجَجِ [3]
قلْ للّذي لامَني فيه وعَنَّفَني : دَعْني وشأني، وعُدْ عن نُصْحِكَ السَّمِجِ
تَراهُ إن غاب عَنّي كُلُّ جارِحَةٍ في كلِّ مَعْنًى لَطيفٍ رائِقٍ بَهِجِ [4]
لم أدْرِ ما غُرْبَةُ الأوطانِ وهْوَ مَعي، وخاطِري أينَ كُنّا غَيْرُ مُنْزَعِجِ

هو الحُبُّ ، فاسْلَمْ بالحَشَا ، ما الهَوَى سَهْلُ ،
فمَا اخْتارَه مُضْنًى بِهِ وَلَهُ عَقْلُ
وعِشْ خالياً فالحُبُّ راحتُه عَناً، وأوّلُه سُقْمٌ ، وآخِرُه قَتْلُ
اذا أنعمتْ نُعْمٌ عَلَيَّ بِنَظْرَةٍ ،
فلا أسعدت سُعْدَى ، ولا أجْمَلَتْ جُمْلُ !

أرأيت ان « نعم » ذات حظ سعيد عند كل الشعراء ؟ فهي حق عند ابن الفارض ، اكبر حظاً من سعدى وجمل . لقد قدمتها الصناعة التي عيب بها شعر الشيخ ، ولكنها صناعة قلّما يحس بها القاريء ، لأن جراح الشاعر سخنة ، والجرح لا يُشعَر بألمه الا متى برد .

حقاً ان ابن الفارض شاعر الوجد، وسواء عندي أإلهيّاً كان أم انسانياً... فهو وجد لا نظير له في كل حال ، والاعمال بالنيات . لمث هذا الشاعر وهو

(١) الرضاب : الريق . بفي : بفمي .
(٢) انسان العين : سوادها ، او ما يرى في سوادها . في : فيّ .
(٣) الحجج جمع الحجة وهي السنة . (٤) الجارحة : العضو من الانسان .

حمويّ الأصل ، مصريّ الدار ، وعجبت منه ، وهو الشاعر الحادّ الشعور ، كيف لا يحنّ الى « العاصي » ولا يذكر النيل ، فيقول :

أرواحَ نعمانَ ، هلاّ نَسْمَةٌ سَحَراً؟ وماء وَجْرَةَ ، هلاّ نَهْلَةٌ بفَمِي؟

ان الجمرة لا تحرق الا حيث تقع ، وقد تكون أرواح نعمان وماء وجرة ، في عرفهم ، كمدامة هذا الشاعر التي شربها على ذكر الحبيب ، فسكر بها من قبل أن يخلق الكرم .

القليل من الصوفية يُستملح ويُستحلى في الشعر لأن المادية الصاخبة كمادية الشعر الجاهلي تخفّفه ، ولكنه يُستهجن أيضاً متى صار صوفياً كله وبلغ الحد الذي بلغه مع هؤلاء الشعراء ، فيقول ابن عربي مثلاً :

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ ، فمرعىً لغزلانٍ ، وديرٌ لرُهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ ، وكعبةُ طائفٍ ، وألواحُ توراةٍ ، ومُصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحُبّ أنى توجّهتْ ركائبُه ، فالحبُّ ديني وإيماني!

ومع ذلك أرانا نستسيغ هذا الشعر ونقبله متى سمعنا قول شيخنا العارف بالله ، قدّس الله سره :

ولا غَرْوَ إن صلّى الإمامُ إليّ إن ثَوَتْ في فؤادي وَهْيَ قِبْلةُ قِبْلتي
وكلُّ الجهاتِ الستِّ نحوي توجهت بما تمّ من نُسكٍ وحجٍّ وعُمْرَةِ
لها صلواتي بالمقامِ أقيمُها ، وأشهَدُ فيها أنّها لِيَ صلّتِ
كِلانا مُصَلٍّ واحِدٌ ، ساجِدٌ إلى حقيقتِهِ بالجمعِ في كلّ سَجْدَةِ
وبي مَوْقِفي لا بَل إليّ تَوَجُّهي كذاكَ صَلاتي لِي ومِنّي كَعْبَتي

ان هذه « الشطحات » تُبكي وتُضحك ، واليك قولَ احد شعرائهم ، فاسمع كيف يعتذر عنها :

انا الحقُّ في عشقي كما أن سيّـدي هو الحقُّ في حُسنٍ بغيرِ تَمِيَّةِ
فان كنتُ في سُكْري «شَطَحْتُ» فإنني حكمتُ بتمزيقِ الفؤادِ المُمتّتِ

«سقَوني وقالوا لا تُغنِّ ، ولو سقَوا   جبالَ حُنينٍ ما سقَوني لغَنَّتِ »

وعلى ذكر هذا العشق العنيف نروي بيتين موجّهين الى هذه « الجماعة » :

أرى جيْلَ التصوّف شرَّ جيلٍ ، فقُــلْ لهمُ وأهْونْ بالحلولِ
أقالَ الله حــين عشقتموهُ : كُلوا أكلَ البهائم وارقصوا لي؟

رحم الله شيخنا فقد كان رجلاً صالحاً . ان الحب ، على جميع انواعه ، مستبد جائر ، وقد ادرك هو ذلك فوصفه ادق وصف ، ولكنه وان كان يُعمي ويصم ، فهو ، وحده ، يخلق مثل هذا الشعر ، أما الآن فلننتقل إلى ساحة شاعر آخر ، أحب مثلما نحب ، ولم يحدثنا أحاديث غريبة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم ...

بهاء الدين زهير

الشعراء كالطيور. منها الكناري والحسّون. ومنها الغراب، ومنها الحجل والحمام . لم يستطع الفرزدق ان يكون كجرير ، ولا ابو تمام كالبحتري . في الاستطاعة التكيّف والتجويد ، وليس في الامكان خلق شيء من لا شيء ، فهذان شاعران معاصران عاشا في قطر واحد وجريا في ميدان واحد، ميدان الحب والغزل ، الاول وهو ابن الفارض تغنى بوجده العنيف بصوت رخيم وسهولة عظيمة ، ولكنه في كل حال يختلف اختلافاً كبيراً عن بهـاء الدين زهير الذي جاء شعره كأنه الكلام الجاري ، لولا الوزن والقافية . ومع ذلك فقد فُتن الناس بهذا الشعر الخفيف ، ولا عجب ، فليس للفن عبارات ثقيلة او خفيفة .

تقرأ ديوان زهير من الجلد الى الجلد، فلا تلتقي وجهاً غريباً تنكر معرفته من وجوه اللفظ . يجري الشاعر في نظمه كلّه على نمط واحد ، ولا تملّ حديثه لأنه حديث كل قلب ، ولأن قائله خفيف الروح ظريف ، لا يكلّف نفسه فوق طاقتها. وقد أدرك انه الطائر الفريد في جنان الشعر العربي، فقال يخاطب مولاه الملك الصالح ، نجم الدين ايوب :

هذا زهيرُك ، لا زهيرُ مُزَيْنةٍ ... وافاك لا هَرِماً على عِلاّتِهِ [١]
دَعْهُ وحَوْلِيّاتِهِ ثم اسْتَمِعْ ... لزهيرِ عَصْرِكَ حُسْنَ لَيْلِيّاتِهِ

(١) زهير مزينة ، عنى به الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى المزني احد المقدمين في اصحاب المعلقات . ومعنى عجز البيت : أن شاعرك البهاء زهيراً وافاك وانت لست هرماً على علاته ، وهرم هو ممدوح ابن ابي سلمى الذي انشد فيه : ان الكريم على علاته هرم .

واذا تحدث متوسلاً الى الحبيب ، فبهذه اللهجة الحلوة العذبة :

تعيشُ أنت وتَبْقى ... أنا الذي مِتُّ حقّا
حاشاكَ يا نورَ عيني ... تَلقى الذي أنا ألقَى
قد كانَ ما كان مِنّي ... واللهُ خَيْرٌ وأبْقى
ولم أجِدْ بين موْتي ... وبين هَجْرِك فَرْقا
يا أنعَمَ النّاسِ قلْ لي ... إلى متى فيك أشقَى
سمعتُ عَنْكَ حديثاً ... يا ربِّ لا كان صِدْقا !
حاشاك تَنقُضُ عَهْدي ... وعُرْوَتي فيك وُثقَى
فما عَهِدتُك إلاّ ... مِنْ أكرَمِ النّاسِ خُلقَا
يا ألفَ مَوْلايَ ، مَهْلاً ؛ ... يا ألفَ مولايَ ، رِفقَا !
لكَ الحياةُ ، فإني ... أموتُ لا شكَّ عِشقَا
لم يَبْقَ مِني إلاّ ... بَقيّةٌ ليس تَبقى !

واذا كتب اليه لائماً على الهجر ، فبهذه الرقة والافتنان :

قرأ سلامي على من لا أسمّيه ، ... ومن بروحي من الأسواءِ أفديهِ
ومن أعرّضُ عنه حين أذكرُهُ ، ... وإن ذكرتُ سواهُ كنتُ أعنيهِ
أشِرْ بذكريَ في ضمْنِ الحديث له ... إنّ الإشارةَ في معناي تَكفيهِ
واسألْهُ إن كان يُرْضيهِ ضنَى جسَدي ، ... فحبّذا كلُّ شيءٍ كان يُرضيهِ
هل كنتُ من قَوْمِ موسى في محبّتِهِ ... حتى أطالَ عذابي منهُ بالتّيهِ
من مِثلُ قلبيَ ، أو من مِثلُ ساكِنِهِ؟ ... اللهُ يحفَظُ قلبي والّذي فيهِ !

واذا مال هذا الحبيب عن خياله ، ارسل اليـه البهاء يعنّفه ، ولكن تعنيف البهاء كما يقول مثلنا : ضرب الحبيب زبيب وحجارتُه رمّان. فانظر الى هذه الحجارة :

تراكمْ قد بَدا مِنكم ... أمورٌ ما عَهِدْناها

وعَرَّضتُمْ بأقوالٍ وما نَجهَل مَعناها
كشَفتُمْ بَينَنا أشياءَ قد كُنَّا سَتَرْناها
وكم جاءَت لنا عَنكم أحاديثُ رَدَدناها
وأشياءٌ رَأيناهـا وَقلنا مـا رَأيناها
قَرأنا سُورَةَ السُّلوانِ عَنكمْ بَل حَفِظناها
وما زِلتم بنا حَتّى جَسَرْنا وفَعَلْناها
فَرِجلٌ تَطلُبُ المَسعى إليكم قد مَنَعناها
وعينٌ تَتَمنّى أن تَراكمْ قد غَضَضْناها
ونفسٌ كلما اشتاقت لِلُقْياكم زَجَرْناها
وكانت بَينَنا طاقٌ فَفيها نحنُ سَدَدناها
وَلَو أنّكمُ جنّـا تُ عَدْنٍ ما دَخَلناها
وأمّا الحالَةُ الأخرى، فإنا قـد سَلَوناها
وقد ماتت وصَلَّينا عَليها وَدَفَنّاها
هَجرنا ذِكرَها حتى كأنّا مـا عَرَفناها
وفي النَّفسِ بَقايا من أحاديثَ خَبأناهـا
فلو أرضَتكمُ الأرْوا حُ مِنّا لَبَذَلناها

وله في هذا الصدد كلام يستحق الذكر لسهولته وخفته وسرعة جريه، قال:

أمـا تَقرَرْ أنّا، فلِمْ تأخَّرْتَ عَنّا
وقد أتيناكَ زَحفاً، وأنتَ تَهرُبُ مِنّا
ولمْ يَكُنْ لَكَ عُذرٌ، وَلَو يكونُ عَلِمْنا
فَلا تَلُمْنا، فإنّا قُلْنا وقُلْنا وقُلْنا!

واخيراً يخطو شاعرنا الخطوة الاولى نحو الصلح، فيستسفر الى الحبيب، مَن يحمل اليه هذه العُروض الاخيرة :

من اليوم تَعارَفنا، ونَطوي ما جَرى مِنّا

ولا كانَ ولا صارَ ولا قلتمْ ولا قلنا
وإن كانَ ولا بُدّ من العتبِ ، فبالحُسنى
فقد قيل لنا عنكم ، كما قيل لكم عنّا
كفى ما كانَ من هَجرٍ ، وقد ذُقتمْ وقد ذُقنا
وما أحسنَ أن نرجعَ للوَصْلِ كما كُنّا !

وكأن هذه الخطوة نحو السلام الزهيري قد كللت بالنجاح فسمعنا البهاء يتغنى :

سمِعَ الناسُ ، وقُلنا ، وافتَضَحْنا واسترَحْنا
شكرَ اللهُ لمن بَشّر بالوَصْلِ وَهَنّا
ليْ حبيبٌ ليَ منهُ كلُّ شيءٍ أتمنّى
كانَ غضبانَ فلمّا أن تلاقَيْنا اصطلحْنا
يتجنّى ، ولعَمْري ، حقُّه أن يتجنّى
جمعَ الحُسنَ ، وفيه غيرُ ذاكَ الحُسنِ معْنى
هاتِ حدّثني وقلْ لي : ما على العاذلِ منّا
نحنُ لا نسألُ عنه ، ما له يسألُ عنّا ؟

ثم عادت حليمة إلى عادتها القديمة ، فعاد الشاعر إلى بث شكواه ، مطارداً ذلك الغزال كأنه يطلبه بدين :

قد طالَ في الوعدِ الأمدْ ، والحرُّ يُنجِزُ ما وَعدْ
ووعدتَني يومَ الخميس ، فلا الخميسُ ولا الأحدْ
وإذا اقتضيتُك لم تَزِدْ عن قولِ : أيْ واللهِ غدْ
فأعدُّ أياماً تمرُّ ، وقد ضجِرتُ من العَدَدْ
وتقول : أوصيتُ الخطيبَ ، فهل نفَوهُ من البلدْ ؟
وإذا اتكلتَ على الخطيبِ فما اتكلتَ على أحدْ

ولا يخلو شعر الوزير من الصّنعة، ولكنه تمَش لا يضير ذلك الوجه الجميل كقوله :

اقـــول إذ أبصرتُــــه مُقبلا مُعتَدِلَ القَامَــةِ والشكل :
يا ألِفـــاً من قدّه أقبَلَتْ ، باللهِ كـــوني ألِفَ الوَصْـل !

وكقوله هاجياً :

لعنَ اللهُ « صاعداً » وأباه فصَاعِـــداً
وبنيــهِ فنــازلاً واحِداً ثم واحِـــداً

والبهاء كان، ككل عاشقٍ مبتلى بالثقلاء الذين لا يعرفون متى ينصرفون، فاسمعْه يئِنّ منهم :

لي مجلسٌ ما رُمْتُ فيه خَلوَةً الا أتاح اللهُ كُـــلّ ثقيــل

وخير ما نخص بالذكر في هذا المقام قوله ايضاً :

كلما قلنا استرحْنا جاءَنا الشيخُ الإمامْ
فاعـــترانا كُلّنا منه انقباضٌ واحتشامْ
فهو في المجلسِ فَدْمٌ، ولنا فهـو فِـدَامْ (١)
وعلى الجُملةِ فالشّيْخُ ثقيـــلٌ والسّلامْ !

وأخيراً يلتقي الشاعران الروحـــاني والجسداني – ابن الفارض والبهاء – وكل منهما يدّعي عقد لواء الحب له . قال ابن الفارض :

نسختُ بحبّي آية العِشقِ من قبْـلي ،
فأهلُ الهوى جُندِي وحُكمِي على الكلّ
وكلُّ فتىً يهـــوى فإني إمامُــهُ ،
وإني بريءٌ من فـــتىً سامِعُ العَذْلَ

(١) الفدم : الغليظ الدم ، الفدام، أصلا ما يسد به الابريق، أو ما يوضع على فم البعير لمنعه من الاكل . والمقصود هنا : انه مضايق ثقيل يغم النفس حضوره .

ويقول أيضاً :

وملكُ معالي العشقِ مُلكي،وجنديَ المعاني ، وكلُّ العاشقـينَ رَعيّـتي

أما الوزير فلا يخطر بباله ان يصوّر لنا زعامتـه بتعابير العلماء بل بلغة الدول ، ولا عجب في هذا ، فهو وزير ملك ، قال :

رُفِعَتْ رَايـتي على العُشّاقِ ، واقتدى بي جميعُ تلك الرِّفـاقِ
وتنحّى أهلُ الهوى عن طريقي، وانثنى عـزمُ من يرومُ لحَـاقي
سرت في الحبِّ سِيرَةً لم يَسِرْها عاشقٌ في الورى على الإطلاقِ
ودُعاتي تجـولُ في كلّ أرضٍ ، وطُبولي يُضرَبنَ في الآفـاقِ
مَثَلَ العاشقونَ فـوقَ بساطي في مَقام الهوى ، وتحت رِواقي
ضُربتْ سِكّةُ المحبّةِ باسمي ، ودَعَـتْ لي منـابرُ العُشّاقِ
كان للقومِ في الزُجاجةِ باقٍ أنا وحـدي شَربتُ ذاكَ البَاقي
شنّفَ السامعـينَ درُّ كلامي ، وتحلّت أجيـادُهم أطواقي

فما قول صديقنا الشاعر بشاره عبد الله الخوري ، أيعترف بالامامة للبهاء؟ البهاء يقول انه لم يَدعْ للقوم شيئاً ، ووحده شرب ذاك الباقي في الزجاجة ، وبشارة يقول انه أفرغ كأسه وحطّمها على شفتيـه - انكسر الشرّ - فلمن نحكم ؟ حقاً ان لبنان علم يتماثل امامي اين اتجهت ، ففيه كل مطلب ولكن ، ليس هنا مجال هذا البحث فنطيل الكلام .

وبعد ، فيلوح الشيب في رأس زهير ، فيقول :

نزلَ المشيبُ وإنّـه في مفرقي لأعزُّ نازلْ
وبكيتُ اذ رحلَ الشّبابُ، فآهِ آهِ عليـهِ راحِلْ
بالله قلْ لي يا فلانُ ، ولي أقولُ ، ولي أسائِلْ
أتريدُ في السّبعينَ مـا قد كُنتَ في العشرينَ فاعل؟
هيهاتِ ، لا والله ، مـا هذا الحديثُ حديثُ عاقل
قد صارَ من دونِ الذي تُبْديه من مَزْحٍ مَراحل

ثم رأى ان المراحَ والأخيَلَ يراجعه فقال :

قالوا كبرتَ عن الصِّبا ،	وقطعتَ تلكَ النّاحيهْ
فدَعِ الصِّبا لرجالهِ ،	واخلعْ ثيابَ العاريه[1]
ونعمْ كبرتُ ، وانما	تلكَ الشمائـلُ باقيَه
ويفوحُ من عِطفيّ	أنفاس الشّباب كما هيَه
ويميل بي نحو الصّبا	قلبٌ رقيقُ الحاشيه
فيهِ منَ الطّربِ القديمِ	بقيّةٌ في الزّاويَه !

قلت : ما أشبه شاعرنا بذاك المنادي على بضاعته : ترمس أحلى من اللوز...

وقد مدح شاعرنا ، ولا بدع في ذلك ، فهو شاعر ملك . ورثى ايضاً وأجاد الرثاء وله فيه قصيدة لم يوفّق الى مثلها في قوة العاطفة الا التهاميّ في رثاء ابنه ومطلعها :

حكمُ المنيةِ في البريةِ جارِ ،	ما هذه الدّنيا بدارِ قرارِ

اما البهاء فاليك بعض ما قال في هذا المرثيّ ، ولا تعجب فالبهاء هو هو في كل اغراض شعره ، تظهر شخصيته بارزةً ناتئة :

أراكَ هجرتني هجراً طويلا ،	وما عوّدتني من قبلُ ذاكا
يعزُّ عليّ حين أديرُ عيني	أفتّشُ في مكانِك لا أراكا
ويا خجلي إذا قالوا مُحبٌّ ،	ولم أنفعْكَ في خطبٍ أتاكا
تموتُ وما أموتُ عليكَ حزناً؟	وحقِّ هواكَ خنتُكَ في هواكا !
فيا من قد نوى سفراً بعيداً	متى قل لي رجوعُكَ من نواكا؟
فيا قبرَ الحبيبِ وددتُ أني	حملتُ ولو على عينيّ ثراكا

ان ديوان البهاء ، على صغره ، جامع لجميع اغراض الشعر حتى وصف

(١) ثياب العارية : الثياب المستعارة .

الحرة . اما اختصاصه ففي الناحية التي ذكرناها . فهو شاعر الحب في هذه الحقبة الجافة ، وقد ملأ صوته الرخيم هذه الصحراء القاحلة من التاريخ الأدبي فأنعشها وآنسها .

ان شاعرنا ، بخلاف ابن الفارض والمتنبي وغيرهما من الشعراء النازحين ، قد ابتلي بداء « الحنين الى الوطن » وقال فيه ، واليك شيئاً من ذلك :

احنُّ الى عهد المحصَّبِ من مِنًى ... وعيشٍ به كانت ترِفُّ ظلالُه
ويا حَبّذا أمواهُه ونسيمُه ! ... ويا حَبّذا حَصْباؤه ورمالُه
فكم ليَ بين المَرْوَتَيْنِ لُبانةٌ ... وبدرُ تمامٍ قد حوَته حِجالُه
وأذكرُ ايامَ الحجازِ وأنثني ... كأنّي صريعٌ يَعتريه خَباله
ويا صاحبي بالخيفِ كن لي مُسعداً ... إذا آن من بين الحجيجِ ارتحالُه
وخذ جانبَ الوادي كذاعن يمينِه ... بحيثُ القَنا يَهتزُّ فيَّ طِوالُه
هُناك ترى بيتاً لِزينبَ مُشرِقاً ... اذا جئتَ لا يَخفى عليكَ جَلالُه
فقلْ ناشداً بيتاً ومن ذاقَ مثلَه ... لدى حيرةٍ لم يَدْرِ كيف احتيالُه
وكن هكذا حتى تصادفَ فرصةٌ ... تصيبُ بها ما رُمتَه وتناله
فعرِّضْ بذكري حيث تَسمَعُ زينبٌ ... وقل: ليس يخلو ساعةً منكِ باله
عساها إذا ما مرّ ذكري بسَمْعِها ... تقول : فلانٌ عندكم كيف حاله؟

انك عندنا في احسن حال، ولا نعدل بك الكثيرين من الشعراء . حسبك انك وجدت ذاتك ، ولم تنسحب على ذيل غيرك . فطب نفساً وقر عيناً .

رؤوس صغيرة

في عالم الأدب كما في كل العوالم حظوظ وبخوت ، فبعض الشعراء خلّدوا بقصيدة كما خلّد غيرهم بديوان، اما وللموت سنّة ايضاً في عالم الادب، فمنهم من يحيا اجيالاً بعد موته ، ومنهم من يموت « ادبياً » ساعة تنطفيء حياته . ومنهم من يموت وهو حي ، كما قال برنارد شو في زميل له : كتب خير ما عنده في الاربعين ، فليكتب على قبره : مات في الاربعين وأجّل دفنه الى الثمانين ، لقد صدق شو ، فالذين يؤجّل دفنهم كثيرون ...

اما الذين عُرفوا بقصيدة تدور أبياتها على اغلب الالسن ، او يذكرها الناس ، فالطغرائيّ عاش بلاميّته المعروفة بلاميّة العجم ، كما عاش الشنفرى باللامية المعزوّة اليه ويعرفها الناس بلاميّة العرب. والسموأل اشتهر بلاميّته، كما عرف ابن النبيه بـ « ألنّاس للموتِ كخيلِ الطّراد » ، وابن سناء الملك بـ « سوايَ يهابُ الموتَ او يرهبُ الردى » . وسار صيتُ : « عُلوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ » ، حتى كدنا ننسى اسم صاحبها ، وكذلك قصيدة : « لا تعذليه » ، كما اشتهر البوصيري ببردته الرائعه ، وابو البقاء الرندي بـ« لكلّ شيء اذا ما تمّ نقصان »، والتهاميّ بـ« حكم المنية في البرية جار ». وكما بقي ذكر ابن الورديّ بلاميته الشهيرة : « اعتزل ذكر الغواني والغزل ». وهناك قصيدة : « هل في الطلول لسائل ردّ » ، التي لا يُعرف لها حسب ولا نسب ، حتى صح فيها قول الشاعر :

ماتُوا وعاشت بَعْدهم   فلذاك سُمّيَت « اليتيمه » !

لقد ارتفعت اصوات من خلال العصور ، بعد البهاء زهير ، ولكنها

اصوات محاكاةٍ اكثر منها أصوات إبداع . لم يكن كلامهم غير تقليد للذين تقدّموهم . استوحوا القدماء لا الحياة والمحيط ، فقضي على اقوالهم بالفناء كما يقضي القيظ على النبات الضعيف الاصول ، ولا يدع الا ذا الجذور المنسلّة الى الاعماق والفروع المتسامية الى الأعالي .

اسمع ما يقول احد هؤلاء الشعراء – ابن زيلاق – واصفاً الربيع ، وقابله ، اذا شئت ، بقول ابي تمام ، وان كان قليلاً :

قمْ لا عدمتُك ، فالرياحُ تغربلُ ، والرّعْدُ يطحَنُ ، والغمائم تنخلُ
والمسكُ قد عجن الثّرى بسحيقِه ، والعودُ يحرّق ، والحُميّا تُشْعَل
والدنُّ تنّورٌ تَوَقَّدَ جمرُه ، الصّهباءُ باطِنُه ، وفارَ المَنزل

ألا تقول مثلي ، بعد سماع هذه الابيات من قصيدته الطويلة ، ان الشاعر ابن خباز ؟

ان خير ما سمعنا من الأصوات في هذه الحقبة، صوتان ارتفعا في آن واحد. اولهما في العراق ، وهو صوت صفي الدين الحلّي ، الشاعر الذي استعبدته الصناعة اللفظية حتى اجتمعت في شعره جميع معايبها . كان صفي الدين كالطفيليّات يعيش على جذوع الاقدمين ، فخمّس وضمّن ، ثم حاول اجتراح العجائب في الشعر – كما كان يظنّ – فراح ينظم لسلطانه الذي فزع اليه من ظلم المغول قصائد سماها « دُرَرُ النحور ، في مدائح الملك المنصور » وهي تسع وعشرون قصيدة ، على كل حرف من حروف المعجم . يبدأ بالحرف البيت ويختمه . واليك نموذجاً منها :

مغانمُ صفوِ العيشِ أسمى المغانم هي الظّلّ الا أنّه غيرُ دائمِ
ملكتُ زمامَ العيشِ فيها وطالما «رُفِعتُ»بهاولاوقوعُ«الجوازم»

أرأيت كيف يبدأ بالميم التي هي قافية قصيدة،ثم أرأيت «الرفع والجزم»؟ ان صفي الدين الحلّي لم يدع جريمة ادبية في النظم إلا ارتكبها، قال القصائد

طويلة وقصيرة ، والموشحات والازجال ، وكما نظم ابن مالك النحو والصرف نظم الحلّي « بديعية » مطلعها :

إن جئتَ سَلعاً فسَل عن جيرةِ العَلَمِ ، واقرا السّلامَ على عُربٍ بذي سَلَمِ

وكما اتبع ابنَ مالك ابنُه، واخيراً الشيخ ناصيف اليازجي، كذلك اقتفى عزُّ الدين الموصلي، وابنُ حجّة الحموي، وعائشةُ الباعونية، وعبد الغني النابلسي، آثار الحلي في نظم البديعيات، وإذ كان لا بد للبنان من أن يجاري في كل شوط فقد سمعنا في القرن الثامن عشر صوت الخوري نيقولاوس الصائغ يرتفع ببديعته متعمّداً ذكرَ النوع ، كما فعل ابن حجة الحموي، ويغني – على ليلاه – كما غنّى البديعيون قبله ، فيقول :

بديعُ حُسْنِ امتداحي رُسْلَ ربّهم براعةٌ في افتتاحِي تحمَدَ برّهم

وبعد قرن يقوم شاعر آخر لبناني هو الخوري ارسانيوس الفاخوري فينظم ثلاث بديعيات لا واحدة . واليك مطلع إحداهن :

براعةُ المدح في نجمٍ ضياهُ سَمِي تهدي بمطلعها من عن سَناهُ عَمِي

وهكذا لا نرى للحليّ شيئاً جديداً – ان كان هذا شيئاً – إلا سَبْقَه إلى نظم فنون البديع في قصيدة، ولكن بديعيته لم تصب من السيرورة ما أصابته « بديعية » الحموي فركدت ريحها .

أما شعر الحلي فجارٍ حين يتبع سجيته ، ولكنه لا يخرج أبداً من دائرة التقليد ، فهو يعارض قصيدة المتنبي ليقول من الجناس :

أسبلنَ من فوقِ النّهود « ذوائباً » فتركن حبّاتِ القلوب « ذوائبا »
بيضٌ دعاهنّ الغبيُّ كواعباً ، ولو استبانَ الرّشدَ قال كواكبا

ثم شاء أن يكون له شعر مثل البهاء زهير ، فقال ناحياً نحوه :

ان غِبْتَ عن عِيَاني يا غايةَ الأماني
فالفكرُ في ضميري والذكرُ في لساني

ما حالَ عَنكَ عَهْدِي ولا انثنـى لساني
شوقي اليـك باقٍ والصّبرُ عَنكَ فـاني

وشاء ايضاً أن « يتمنتر » فقال قصيدة معارضاً بهـا قصيدة « حكّم سيوفك » ، ومدّ يده فيها إلى نجم الشعر العربي فأخذ قوله :

تماشى بأيْدٍ كلـما وافتِ الصّفا نقشْنَ به صَدرَ البُزَاةِ حَوافِيا

فقال وقصّر تقصيراً شائناً :

فتَظلُّ ترقمُ في الصّخور أهِلـّةً بسَنا حَوافِرهـا وإن لم تُنعَل

أما الباقي على الألسنة من شعر هذا الفاضل فقصيدته النونية المشهورة :

سَلِي الرِّماحَ العَوَالي عـن مَعَالِيْنا واستشهِدِي البِيضَ هل خابَ الرّجا فينا

أما الصوتُ الثاني فهو صوت تعـالى في الشام ومصر ، هو صوت الشاعر ابن نُباتة، معاصر الحلّي وصديقهُ الحميم. وكانت الحال في مصر، حيث نشأ، مثلها في العراق ، حال مخاوف واضطرابات ودسائس واستبداد. ان ابن نباتة ضريب الحلّي في شعره ، وهو مثله يستوحي الكتب لا الحياة .

وكما ارتحل الحليّ ، كذلك هاجر ابن نباتة، فجاء سوريا ثم عاد إلى مصر. ولكن رحلات كلا الشاعرين عقيمة، لم تتأثر بالمحيط. فظلت تتسكع في ظلال دواوين القدماء فلم تورق بخير لنرجو الثمار الشهية . ولكن هنـاك اثماراً ، في كل حال ، اثماراً أشبه ما تكون بالتي تستقبلها الاسواق في سني المَحْل .

وفي اثناء مروري في ديوان ابن نباتة سمعت انيناً متصلاً، وشكوى مرة، فهو يندب حظه دائماً ، ويشكو جهل الناس قدره . فقـير مسكين يطلب حيناً بيتاً يسكنه حتى بلغ به نكد العيش أن طلب الخـبز . ان أحوال ابن نباتة تشبه كثيراً حالات ابن الرومي وخصوصاً في موت بنيه . أما شعر ابن نباتة فكشعر صفي الدين ، يتلهى بالألفاظ ملتمساً الغذاء الفني عندها . وإذا عجز عن معنى يخلقه من لفظة مهّد بشيء من عنـده لشطر أو بيت من شعر القدماء أرضى به نفسه وسامعه . ومن أمثلة تضمينه قوله :

يا تاليَ القولِ كتباً في لواحِظِه ، «السيفُ أصْدَقُ إنباء من الكتبِ»

ومن أمثلة تضمينه ايضاً، ما كتبه لشاعر صديق، أرويه للتفكهة :

فطمتَ ولائي ثم أقبلتَ عاتباً، ... أفاطمُ مهلاً بعدَ هذا التدلّل[1]
بروحيَ ألفاظٌ تعرّضَ عتبُها ... تعرُّضَ اثناءِ الوشاحِ المفصّل
فأحيين وُداً كانَ كالرّسمِ عافياً ... بسقطِ اللّوى بين الدَّخولِ فحومَل
تعفّي رياحُ الغدرِ منكَ رقومَه ... لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل
نعم قوّضت منك المودّةُ وانقضت، ... فيا عجباً من رحلِها المتحمّل
أمولايَ لا تسلكْ من الظلمِ والجفا ... بنا بطنَ خبتٍ ذي حِقافٍ عقنقل
ولا تنس مني صحبةً تصدعُ الدجى ... بصبحٍ، وما الإصباحُ منها بأمثل
فكم خدمةٍ عجلتَها ومحبّةٍ ... تمتّعتُ من لهوٍ بها غيرَ معجَل
وكم أسطرٍ مني ومنك كأنها ... عذارى دُوارٍ في مُلاءٍ مذيّل
وكم ناصحٍ كذّبتُ دعواهُ إذ غدت ... عليّ وآلت حلفةً لم تحلّل
إلى ان تبدّى عذرُه متمطّياً ... وأردفَ أعجازاً وناء بكلكل
وضنّ بأسطارٍ كأنّ يراعَها ... أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسحِل
ويقرعُ سمعي من معاريضِ لفظِه ... مداكُ عروسٍ أو صلايةُ حنظل
وعدنا لودٍّ يملأُ القلبَ عودُه ... بشحمٍ كهدّاب الدّمقس المفتّل
أعدتَ صلاحَ الدّين عهدَ مودّةٍ ... بكلّ مُغارِ الفتلِ شُدّت بيذبُل

فأجابه صديقه صلاح الدين هذا، وهو ابو الصفاء خليل بن ايبك الصفديّ، الكاتب المؤرخ الشاعر :

أفي كلّ يومٍ منكَ عتبٌ يسوؤني ... كجلمودِ صخرٍ حطّه السّيلُ من عَلِ[2]
وترمي على طولِ المدى متجنّياً ... بسهميكَ في أعشار قلبٍ مقتّلِ
فأمسي بليلٍ طالَ جنحُ ظلامِه ... عليّ بأنواعِ الهموم ليبتلي
وأغدو كأنّ القلبَ من وقدة الجوى ... اذا جاش فيه حميُه غليُ مِرجَل

(۱) جميع الاعجاز في أبيات هذه القصيدة منقولة من معلقة امرىء القيس .
(۲) جميع الاعجاز في ابيات هذه القصيدة منقولة من معلقة امرىء القيس .

تطيرُ شظاياهُ بصدري كأنّها بارجائِه القُصوى أنابيشُ عُنصُل
إذا عاين الإخوانُ ما بي من الأسى يقولون : لا تَهلكْ أسًى وتجَمَّل
ترفّقْ ولا تجزعْ على فائت الوفا فما عند رسم دارسٍ من مُعَوَّل
ولي فيك وِدٌ طالما قد شَددتُه بأمراس كَتّانٍ الى صُمّ جَندل
ولي خطراتٌ فيك منها جَوانحي صُبِحنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفَلفَل
فكُرٌ على جَيْش الجِناية عائداً بمنجردٍ قَيْد الأوابِد هَيْكل
وخلّ الجفا وارجعْ إلى مَعْهَد الوفا وان كنت قد أزمعت صَرْمي فأجمِل
حلا ودُّك الماضي وان لم تَعُدْ أعُدْ لدى سَمُرات الحَيّ ناقف حَنْظَل

قد سردنا لك المنظومتين لنريك ان الجماعة كانوا يتلهون بالشعر ويتسلون به عن الملوك الذين ذهب ذهَبُهم مع دولهم. وسيطغى بعد هذا سيل تمادح الشعراء حتى يمسي طوفاناً يلقي بصحراء الغبيط بَعَاعَه ... أمـا الآن فلندع هذا عائدين إلى ابن نباتة فنريك ولو قليلاً جداً من أمثلة تعليله وتوريته ، قال :

تجاسر عودُ اللهو يشبـه صَوْتَها ، فمن أجْلِ هذا أصبح العود يُضْرَبُ

وكنتُ أخا سعدى فأصبحتُ عَمَّها، فهيهاتِ لي جَسدٌ بتقبيلِ خالِها

عذلوه على النّـوال « فأغروا » « فنَدَاهُ » نصبٌ على « الإغراء »

ان استلهام العلوم اللسانية بدأ مع المعري . أكثر ابو العلاء من استخدامه حتى كاد يستعبده الذين جاؤوا بعده كما ترى .

وكما اشتهرت نونية الحلّي كذلك طار صيت ميمية ابن نباتة لأجمل هذا البيت :

هناكَ محـا ذاك العزاء المقدّما ، فما عَبّسَ المحزون حتى تبسّما

وإذا سألتني أيها اسبق،أصفيُّ الدين الحلّي أم ابن نباتة، قلت لك كلاهما

مقصر ، ولكن الحلّي يسبق صاحبه بضع خطوات ...

وبعد هذين الشاعرين تظهر في عـالم النظم امرأة هي عائشة الباعونية ، ولكنها لا تمتّ بنسب الى شاعرات العرب . ولولا « بديعيّتها » ما كانت تستحق الذكر .

ثم ظهر بعدها شاعر هو ابن معتوق ففاقهـا قليلاً ، وقصّر عمن تقدموه كثيراً ، وهكذا خلا غابُ الأدب العربيّ من أسْدِه .

يقظـة



وحي الجبـــل

لم يخلُ العالم العربي من « النظم » وان خلا من الشعر . فالنظامون كانوا في كل عصر أكثرَ من الهمّ على القلب. فالشعر عندنا كالجبن والزيتون للسُفرة . تعوّدنا أن نهيّء الشاعر قبل الوليمة ، فهو من حوائج كل حفلة. فلا بد للزواج من عقد شعري يهدى إلى العروسين ، ولا بد للمولود من أقمطه شعرية . وحقّ كل ميت أن يكفَّن بالشعر ، ثم يختم قبره – بعدئذ ببلاطة التاريخ الشعريّ . . . كانت للشعر سوق رائجة ، ولما انسدت الأبواب بوجه الشعراء حوّلوا وجوههم صوب أنفسهم فمدح بعضهم بعضاً .

وإذا قلنا نام الشعر نومة أهل الكهف ، مئات من السنين ، فلا نعني انه لم يكن هناك من يحسنون توقيع الكلام على « مفاعلتن مفاعلتن فعولن » ، فقد سمعت هذه الدندنة أو الشقشقة – سمّها كما تشاء – حتى في القسطنطينية ، حول عرش سلاطين بني عثمان الذين لم يعرفوا من لغة الضاد غير حروفها .

لقد نام الشعر نوماً عميقاً قروناً ، ومـــا تمطّى وتثاءب إلا في أخريات القرن الثامن عشر ، حين تنبه الغرب واستيقظوا على صراع أوروبا حول أبوابهم في مصر ، وعند أسوار عكا. انفتحت أبوابُ المسألة الشرقية فانبثثنا في أربعة أقطار المسكونة حاملين معنا قيثارتنا وآدابنا .

فهذا الغريب الذي جاء مصر فاتحاً لم يكن يجهله لبنان ، بل عرف بلاده ، وعرف لسانه حين كان يأخذ منه ويعطيه. تعلّمنا لغته وعلّمناه لغة الضاد . و «كراسينا» الجامعيّة في عواصم الدنيا لا يجهلها التاريخ لأنها ما زالت وطيدة القوائم. أجل كان اللبناني رسولَ ثقافة بين الشرق والغرب فأنشأ في سفوح جبله

وعلى قممه مدارس تعلّم لغات الغرب على حقها،قبل أن صاح الديك الفرنسي فقلبت ثورته وجه المعمورة.وكان الذين تعلموا في تلك المدارس تراجمة الاجنبي حين جاء مصر غازياً ، ثم انكفأ عنها بعدما القى فيها بذور علمه ومدنيته .

لا نعني بهذا ان لبنان هو الذي احيا الأدب والشعر،ولكننا نزعم انه هو الذي حاول إيقاظه من رقدته ، وهو الذي طعّم الأدب العربي ببراعم جديدة فأورقت وأثمرت على ذاك الجذع القديم . ففي تلك الحقبة الخرساء كان للبنان امير ، وكان لهذا الأمير بلاط فيه شعراؤه وادباؤه. وما انتعش الشعر على يد الترك وكرامة ، وناصيف اليازجي في لبنان ، حتى كان شاعر آخر يجوب الآفاق، ويمدح الملوك واشباه الملوك، مثل السلطان عبد المجيد ونابوليون وباي تونس ، فيستقدمه «الباي» على دارعة حربية . يظهر ان « بانت سعاد » كانت ميمونة الوجه في كل عصر فبوّأت احمد فارس الشدياق ، صقر لبنان ، اسمى اريكة ادبية . ان كرامة والشدياق واليازجي وغيرهم من اشباههم قد أيقظوا الشعر من غفوته . فقصر الامير بشير، على ما في انشاء شعراء بلاطه من ركاكة وضعف وتبلّد خيال، قد أيقظ الأقطار الأخرى . فهذه « الخاليّة » قصيدة شاعر القصر – بطرس كرامة – تفتق قرائح شعراء العالم العربي ، فيعارضها الشاعر الشيخ عبد الباقي العمري الموصلي،ويخمّسها الشيخ ابراهيم يحيى العاملي، والشيخ موسى بن شريف المهدي ، وينتقدها الشيخ صالح التميمي نقداً عنيفاً، راداً على ناظمها بقصيدة هذا مطلعها :

عَهِدْناكِ تعفوعن مُسيء تعذّرا ، الا فاعفِنا عن ردّ شِعْرٍ تنَصّرا
وهل من مسيحيّ فصيحٍ نعدّه إذا أينع الشعرُ الفصيحُ وازهرا

فيرتفع صوت من باريس، هو صوت الكونت رُشَيد الدحداح منتقداً التميمي ، وينهض صاحب الخاليّة بطرس كرامة مدافعاً عن نفسه بقصيدة مطلعها :

لِكُلِّ امرىءٍ شأنٌ،تباركَ من بَرا، وخَصَّ بما قد شاء كُلاًّ من الوَرَى
ولو شاء كان الناس أمَّــةَ واحدٍ ولم تَلْقَ يوماً بَيْنهُم قطّ مُنْكَرا
إذا انحطَّ قدْرُ الدرِّ من أجْل بائِعٍ فذلك جَهْــلٌ باللآلي بِلا امْتِرا
كما عابَ شعري قائلٌ في قريضِــه : ألا فاعفِنــا عن ردّ شعر تنصّرا
عجبتُ له مَعْ أنَّــه خيرُ فاضل فكيف تغاضى عن أخي الفضل وازدرى
نعَمْ إنَّني من أمَّــةٍ عيسويّةٍ وأهْل كتابٍ لن يُشَانَ ويُحْقَرا
وأقربُ من كلّ الأنام مــودّةً إليهِ كما قد جَاءَهُ الذّكرُ مُخْبِرا
لعمرُكَ مــا داعي الفصاحةِ مِلّةٌ ولا نسَبٌ حتى ألامَ وأهْجَـــرا
فَقِسٌ مَسِيحيٌ والسَّمَوْألُ مُوسَوي وغيرُهمـــا ممن تقدّم أعصُرا [1]

فانبرى للرد على الشاعر صالح التميمي، شاعرٍ عراقي، هو السيد عبد الجليل البصري ، فقال معارضاً :

حكمتُ، وحكمي الحقُّ تاه عن المِرا بـــأن التميميّ الأديبَ تعثّرا
بذمّ قوافٍ في تمـــام جناسِهـا وذلك نوعٌ في « البـديع » تقرّرا

ومما قال رادّاً على الكلمة المأثورة : ابت العربية أن تتنصر :

وقد قام من أهْل الكتابين زُمْرَةٌ جَنَوا من رياض الشّعر ما كان مُزْهِرا
فَمِــن كابن عبّادٍ يجاري مُهَلْهِلا وكان مسيحيّاً تقــدّم يَشْكُرا
وكالأخْطَل المعروفِ شاعر تغْلِبٍ يسوق به القِسّيسُ في الدّيْر كالقُرا

ثم يثني على بطرس كرامة ثناء طيباً حتى يقول :

أتى منه نظمٌ هدّ حجةَ « صالح » وان كان في المنظوم قِدْماً تصَدّرا
وقد كان لي من «صالح» خيرُ صُحْبَةٍ وعند اتّباع الحقّ ما زلت أجْدَرا
لكلّ تراني قد قضيتُ بحقّــه وأسالُ بارينـــا الهُدَى والتبصّرا

---

(١) قس : أراد به قس بن ساعدة الايادي أسقف نجران في الجاهليـة والخطيب العربي المعدود ، والسموأل : هو السموأل بن عاديا صاحب الحصن الأبلق في تيماء وأحد شعراء الفخر .

كان في كل الأقطار شعراء ككرامة، بل أرصن وأمتن منه كلاماً، ولكنهم لم ينعموا بشهرته وصيته . وانقضى عهد الأمير ولكن المجرى الأدبي لم ينقطع، فكانت نهضة عظيمة بالمدارس والصحافة والجمعيات الأدبيــة والتآليف العلمية الضخمة التي صنفها المعلم بطرس البستاني . واستمر ناصيف اليازجي ينسج على منوال القدماء ويتبع آثارهم خطوة خطوة، فبلغ في التقليد مبلغاً يحسد عليه ، بينا كان خصمه الأدبي يشن الغارة على التقليد في الفارياق ، وكشف المخبا ، والجوائب، ويكتب بأسلوب جديد، وهو، وان لم يبلغ في شعره ما بلغه في نثره، فقد انعش الشعرَ نقدُه المنيف. أما المعلم بطرس البستاني فراح يبني صرح العلم حين فاته ان يبرّز في الأدب فكان مع رهطه ، بناةِ النهضة الحديثة .

لا نزعم ان اللبناني كان ذاك « الفطحل » في اللغة ، إذا استثنينا الشدياق واليازجي الابن ، ولكن اللبناني كان دائماً وابداً رسول تجديد في الأدب ، حتى انه ليصح في تحديده قول ابنِ عربي عن نفسه : لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... وبخلف هذه العصابة عصابةٌ قامت في مصر، فبزتها في قول الشعر على نهج القدماء ، فأعـاد البارودي وصبري شبابَ الشعر العباسي ، ومنها انبثق حافظ ابراهيم وأحمد شوقي .

أحمد شوقي

إن أحمد شوقي هو الشاعر الذي يعنينا أمره ، لأنه خلاصة « الرؤوس » وخاتمة الشعر المدرسي – الكلاسيكي – . لا شك أن أحمد شوقي رأس ، وفي هذا الرأس معانٍ من جميع الرؤوس التي تقدّم ذكرها. ففي شعره رقة البهاء زهير ، وحلاوة أبي نواس ، وفيه من أبي تمام تصيّده المعاني وأخذها عنوة إذا اقتضى الأمر ، وفيه سلالة بحترية ، وفيه حِكم متنبئية تهالك عليها شوقي ، طمعاً في سيرورة شعره ، كما يقول :

رواةُ قصائدي فاعجبْ لشعرٍ   بكلّ محلّةٍ يرويهِ خَلْقُ

حوّل شوقي وجهه شطر التجديد في الشعر فلم يظفر بذلك ، فعاد أخيراً يعارض جميع « الرؤوس » التي مرّ ذكرها ، فكان له في كل عرس قرص . وإذا رجعت إلى ديوانه أدركت ، دون أن تتنبّه ، آثار هذه المعارضة الصارخة.

عارض الجميع وكاد يجاريهم إلا المتنبي ، فما حاول محاكاته إلا قصر عنه ، ومع ذلك نسمعه يخاطب السلطان عبد الحميد بقوله :

ملكتُ ، أميرَ المؤمنين ، ابن هانئٍ   بفضلٍ له الألبابُ مُمْتَلِكاتُ

وما زلتُ حسّانَ المقام ولم تزل   تليني وتسري مِنْكَ لي النّفحاتُ

ومن كان مثلي أحمدَ الوقتِ لم تجزْ   عليه ، ولو من مِثْلِكَ ، الصّدقاتُ

ولي دُرَرُ الأخلاقِ في المدح والهوى ،   وللمتنبّي دُرَّةٌ وحصَاةُ

ان احمد شوقي الذي يقدّم نفسه على ابي الطيب قد كان يستوحي هذا الشاعر العظيم كلما نظم ، ويحاكيه حتى في الفخر الذي عابه الناس على المتنبي ، فقال للسلطان ايضاً :

وإنّيَ طيرُ النّيلِ لا طيرَ غيرُه ، وما النّيلُ إلا من رِيّاضِك يُحْسَب

كما قال لأميره :

إنّ عصراً مولاي فيه المُرَجّى أنا فيــه القريضُ والشُّعَراءُ

قلنا ان في احمد شوقي ملامح من جميع الرؤوس ، ولكن هذا لا يعني انه شاعر لا شخصية له ، انما نعني ان همه الاكبر كان في معارضتهم ، فيعارضهم وكأن لسان حاله يقول : ما قولكم ؟ اما فقتهم ؟.. قد كوّن هذا التحدّي شاعراً هو شوقي ، فكان شأنه في هذا شأن عنصر تولّد من عنصرين كيماويين فجاء منفصلاً عنهما وان نشأ منهما ، والدليل على هذا هو انك اذا عرضت على بصير بأساليب الكلام شعراً لشوقي فلا يتردد ان ينسبه اليه .

واذا صدّقنا ما قاله شوقي عن نفسه ان فيــه اربعة اصول ، ولله در التطعيم ، قلنا : هذا شاعر أخير يضاف الى سلسلة المستعربين الذهبية .

اما العناصر التي عملت عملهــا في شاعرية شوقي فمنها : معرفته الفرنسية والتركية ، وسياحاته ، وتقلبات حياته ، وتطوراتها ، فلو بقي الشاعر عند اميره لما كان لنا شعره الذي يبقى. فهو في ظروف واحوال شتى يشبه المتنبي، ويتشبه به ، ولكنه لم يدركه قط ، وان ادعى انه فاته .

ولا ننسَ الحوادث العظمى فقد كان لها اثر بيّن في شاعرية شوقي . فمن امير ينفى ، وشاعر يبعد الى الاندلس ، فيئنّ ويحنّ ويشكو ، ويقــابل في الاندلس، بين الفردوس المفقود، وجنته الضائعة، فيصف من كبد مقروحة بقايا الملوك العرب مقابلاً حالاً بحال ، فيتذكر النيل باكياً شاكياً :

نحن اليواقيتُ خاضَ النّارَ جوهرُنا، ولم يَهِنْ بيَدِ التشتيتِ غالينا
ولا يحولُ لنا صِبْغٌ ولا خُلُقٌ ، اذا تلوّن كالحرباءِ شانِينــا [1]
لم تنزلِ الشمسُ ميزاناً ولا صَعِدَت في ملكِها الضَّخْمِ عرشاً مثل وادينا
ألم تُؤلّهْ على حافاتِــه ورأتْ عليه أبناءَهــا الغُرَّ الميامينا ؟

(١) شانينا : مبغضنا .

ومن خلافة تركية اسلامية تتقوض اركانها ، فيبكيها متذكراً عزه، وعزّ اميره في ظلها ، ومن وطنية مصرية يجلّي في ميدانها ، الى نزعة فرعونية يباهي بها ، الى جامعة اسلامية شرقية يحض عليها ، الى سياسة محلية يخوض غمارها ، ولكن بحذر كلّي . تعلّم هذا الحذر فحذقه يوم كان في القصر وفي ظل العهـــد التركي ، فيقول مخاطباً اللورد كارنارفون مطالباً اياه بآثار توتنخ امون :

سكتَّ فحام حولَك كلُّ ظنّ ، ولو صرّحت لم تُثرِ الظنونا
يقولُ الناسُ في سرّ وجَهْرٍ وما لكَ حيلةٌ في المُرجِفينا :
أمَنْ سرق الخليفة ، وهو حَيٌّ ، يعِفُّ عن الملوك مُكفّنينا ؟

الى بلدان يزورها فيكرم فيها ، فيقول شعراً يقضي به الحقوق ، فيأتي رائعاً لان شوقي يخلص الحب لمن يجله ويحترمه ، ويغضب على من يمسّ قدس اقداس شعره ، فهو حريص على ابعاد شعره عن حضرة النقد ، ليظلّ كأنه في حرم .

كان شوقي قوي المخيلة ، وعينه احدّ من قلبه ، فوثب وثبات استولى بها على الامد فكان شاعر جيله . كان له الكتب وحوادث التاريخ أمْرَاً مرعى، وكان شاعر الوقت يدعى للمواقف الجلّى، فاذا استطاع الوثوب نظم القصيدة واجاب الداعي ، وإلا طواها واعتذر. اما اذا كان في مأزق ، وتدجّت على آفاقه مظلمة كان له مخرج منهـــا ومعتصر ، يدقّ باب الحكمة والاستجارة بالاخلاق وهي جابرة الخواطر عند شوقي . وشوقي في جميع مواقفه بين بين ، لا يهاجم ، ولا يشن غارة ، فهو كالطائر يغني اذا طاب له التغريد ، ولكنه حذر دائمـــاً يخاف ان يُحَصّب . واذا ضيّقت عليه السياسة جذبته رغبته الملحّة الى الوصف . اقرأ هذا الوصف الطريف تدرك قوة التخيُّل عنده :

أيُّهـــا المنتحي بأسوان داراً كالثريّا تريـــدُ أن تنقضّا
قف بتلك القصور في اليمّ غرقى مُمسِكاً بعضُها من الذّعر بعضا

كمذارى اخفين في الماء بضاً سابحات به وابدين بَضّا
شاب من حولها الزمان وشابت وشبابُ الفنون ما زال غضّا
رُبّ نقشٍ كأنما نفض الصانعُ منه اليدين بالأمس نفضا
وضحايا تكادُ تمشي وترعى لو أصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتها عزماتٌ من عزمة الجنّ أمضى

رحم الله جنّ النابغة الذين بنوا تدمر بالصفاح والعمد ...

يظهر لنا شوقي من خلال شعره انه هادىء الأعصاب ، متزن الميول ، وقد يكون في ذلك كالأخطل يوم شيّخ ، فقال : .

ولقد اكونُ لهنّ صاحبَ لذةٍ حتى تغيّرَ حالهُنّ وحالي

أما مذهبه في الحياة فيعلنه في قصيدته معتذراً لتخلفه عن اداء فريضة الحج في معية اميره إذ يقول :

ولا بتُّ إلا كابن مريمَ مُشفِقا على حُسّدي مستغفراً لعُداتي
ولا حملت نفسٌ هَوًى لبلادِها كنفسي وفي فِعلي وفي نفثاتي
وإني ، ولا منٌّ عليك بطاعةٍ ، أجِلُّ وأغلي في الفروض زكاتي
ابالغُ فيها وهي عدلٌ ورحمةٌ ، ويتركُها النسّاكُ في الخلواتِ

ولكن النسّاك ، يا سيدي ، لا يحوزون مالاً فيزكّوه ، وان تموّلوا فما هم بنسّاك .

ونهر شوقي هادىء غير عجّاج حتى في أحرج ازمات الدفاع. فهذا اللورد كرومر يخطب شاتماً مصر والمصريين بضع ساعات يشرب في خلالها زهاء خمسة اباريق من الماء المثلوج، فيرد شوقي على أدقّ قضايا خطاب اللورد بقوله:

من سَبّ دينَ محمّدٍ فمُحمّدٌ متمكّنٌ عند الإله رسُولا

الا ترى مثلي ان احمد شوقي في هذا الموقف هو الانكليزي طبعاً ، لا اللورد كرومر ؟..

أما ماتخص شوقي الوجداني، فهو عندي على هذا الترتيب: تركي مصري، مسلم شرقي، وفي كل زاوية من هذه الزوايا الأربع متّسع من الوعي ينفسح ليدخله الآخرون عند الضرورة ...

وشاءشوقي ان يكون كالشعراء العالمين الكبار،فنظم المسرحيات والأساطير والخرافات كلافونتين وهيغو وراسين . أراد أن يكون له شعر في كل فن ومطلب، فما ترك شيئاً، فسار في جادّة قدمـــاء الشرق والغرب ولم ينسَ احداً حتى الزمخشري .

لقد نظم شعراء كثيرون قبل شوقي مسرحيات ولكنه وفق اكثر منهم . لم يوفق التوفيق كله لأن رواياته غنائية أكثر منها تمثيلية، فهو ينظر الى الشعر قبل الفن التمثيلي فظهرت شخصيته في كل مسرحياته، فكانت صوراً بيانية يتعمدها الشاعر، وافكاراً فلسفية اجتماعية يتعمد نظمها ولا يبالي بقائليها،فلا يهمه ان صحّ ان تقال بلسان هذا او بلسان غيره،والمحادثة وخصوصاً المناجاة تطول جداً، فنُسمعُ كقطع شعرية رائعة تزيّنها ديباجة بحترية اندلسية ذات الفاظ منتقاة لا تنافر بينها، ورنّة موسيقيـة تطرب لها، فكأن الجيّد من شعر شوقي في هذه الروايات موقّع ايقاعاً .

كأني بشوقي كان يؤلف هذه المسرحيات وعبد الوهاب ملء خاطره، كأنه كان يتخيله ويتخيل غيره من بلابل النيل يغنونها فيسير مرخياً زمام قريحته، ضارباً بشكيمة الفن عرض الحائط . ان لغة الشعر، وخصوصاً العربي منه، لا تصلح للتمثيل فكيف بها حين ينظمها شاعر كشوقي لا يعنيه الا الشعر، ينظمه بلسان هذا وتلك فتبدو في وجوه رجال العصور الأولى سمات ناس القرن العشرين، فيضطرب الفن لظهورهم في ذاك الشذوذ الخلقي. فلولا وثبات رائعة فاق بها شوقي شعراء جيله ودنا بها من كبار القدماء لما كان هو ذلك «الرأس» الذي تختم به المدرسة القديمة . ان حظّ الشعر القديم المصقول قد ختم بشوقي

الذي اعاد عهد الديباجة البحترية ، فطلع وراءه رهط من اصحابنا « المؤجل دفنهم » .

وبعد كل ما قلت فلست ازعم انني درست احمد شوقي درساً اشتهيه،ولهذا سبب يعنيني اكثر مما يعني القارىء العزيز ، فليظن خيراً ولا يسأل عن الخبر.

أما الشعر الجديد ، ومنبعه هذا الجبل ، فجبران اول من شق الطريق اليه وعبّدها ، فهو زعيم المدرسة الرمزية الرومنطيقية ، وأتباعه منتشرون في كل قطر من الاقطار العربية حتى الحجازي واليمني منها.لا جدال في ان اتجاهات الذين تأثروا به قد اختلفت ، وتفاوتوا في الإبداع ، ونهجوا في الشعر نهجاً جديداً لا نستطيع الآن تقدير مداه ومصيره .

والانصاف الأدبي يقضي علينا ان نقرّ بما لخليل مطران من عمل بدائي في هذا التطور . كان مطران في عهد تقديس القديم حر التفكير ، عميق التحليل طريف التصوير، كما كان محافظاً كصاحبيه — شوقي وحافظ — فحبس قريحته مثلها في قلعة القافية وحصن العروض، وقيّد نفسه بأغلال التعابير الموروثة . فكأن رجلاً جديداً في ملابس قديمة . تطور تطوراً رصيناً لا طفرة فيه ولا جموح ، فوضع في بنية الشعر الحديث زاويةً يذكر بها .

أما أسباب ذهاب الشعر العربي في ُبنَـيّات الطريق ، زهاء عشرين قرناً، فأهمّها ما احدثك عنه خاتماً به هذا الكتاب،ولعل فيه عبرة وعظه للناشئين.

الشعر بين الناقد والمعلم

لم يفتن الشعر أمّة كما فتن العرب ، فكل ذي شفة ولسان قال شعراً حتى ابن خلدون فانه راود ربّة الشعر عن نفسها ، فاستبقا الباب ولم يقدّ لها قميصاً ...

خبّرنا مؤرخو الأدب أن بيت الشيخ زهير كان محشواً شعراء ، وإن وُلْدَ العمّ جرير كلهم قالوا الشعر. كان هؤلاء قطيعاً يقارب المئة ، كما بشرنا جرير بهذا النبأ العظيم حين قال لمعاوية بن هشام :

ماذا ترى في عيالٍ قد برمت بهم   لم تحص عدّتهم إلا بعَدّادِ
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيةً   لولا رجاؤك قد قتّلتُ أولادي

كان في كل بيت من الشَّعْر « فبركة » شِعْر ، اللهمّ زد وبارك ! والسوق تبرد متى غمرتها البضاعة . ومثل هذا النظم الذي لم يعجز عنه ناطق بالضاد ، يفسد الأدب والذرية .

عندي للشعراء الأفذاذ برد وسلام لا صواعق من معدّات جرير ، فلولا الشاعر لماتت الآلهة . لولا عمر ما خطرت الثريا ببال ، ولولا المتنبي ما دار ذكر أبي البيضاء على لسان. ولكن الشاعر العظيم، كما يقول رينان الفيلسوف الفرنسي ، يكلّف الطبيعة من المواد الأولية ما لا تكلفه أعظم الحروب ، فلا بد من استهلاك ثلاثين أو أربعين مليوناً من شعوبنا الكثيفة الجماجم ليكون لنا شاعر من الطراز الأول . هذا على قوله ، أما أنا فذمتي بريئة من هذه المعصرة أو هذا المكبس .

كان لنا في ذلك الزمان شاعر من الوارد الريناني ، ويكون لنا أيضاً ، ان اتكلنا على الله ، فلا خوف إذن من انقراض هذا النسل الطاهر . ولكن ما الذي جدّد أدبنا وصيّره جليداً ، بل ما الذي أبقى في أنفه الخزامة ؟ انه النقد العقيم .

لست اعنّف نقادنا القدماء جميعاً ، ففيهم المبدع والمصيب ، وفيهم التابع والجمّاع ، وخاتمة هؤلاء علاّ متنا الجليل ابن خلدون . لا ننكر ان لهذا المفكر العظيم اوليّة يقرّ له بها الشرق والغرب ، اما في نقد الشعر وصناعته ، فكان عبداً للقدماء ، يأخذ عنهم ولا يفكّر . كان للشعراء نافذة يأتيهم منها النور والهواء فسدّها عنهم هذا الفاضل ، وقتل الشعر صبراً . قال سامحه الله :

« كان شيوخنـا ، رحمهم الله ، يعيبون شعر ابي بكر بن خفاجة شاعر الاندلس لكثرة معانيه ، وازدحامها في البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعرّي بعدم النسج على الاساليب العربية ، فكان شعرهمـا كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر » . (المقدمة ص ٥٧٥)

ان إمامنا عبد الرحمن قاس الفن بالباع والذراع ، وتخيّـله كالهنداز ، والقالب ، فحبس الشعراء في صيرةٍ أحاطها بالقندول ، فقعدوا يجترون قديمهم كالمعزى في القيلولة لم يخرجوا الا مزاود وقرباً واجرية متكرّشة هريئة . ثم توغّل في مفاوز الارشاد الفنّي حتى جعل للنظم مراقيت كالصلوات ، ووصف للشعراء صفة Régime يأخذون بهـا انفسهم ، كما يفعل اطباء اليوم للمصابين بالسكّر والزلال والضغط ... وهو لولا يأتي على ذكر المآكل لحظر البصل لانه يعمي القلب ، واشار بالصعتر لانه يفتح الذهن . واليك رأيه في الزمان والمكان اللذين يهبط فيهما الوحي على الشعراء :

« ثم لا بد له — اي الشاعر — من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار ، وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . ثم مع هذا كله فشرطه ان يكون على جمام ونشاط ، فذلك اجمع له وانشط للقريحة ان تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه . وخير الاوقات لذلك اوقات البكر عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاط الفكر ، وفي هؤلاء الجمام . وربما قالوا ان من بواعثه — اي الشعر — العشق والانتشاء ،

فان استصعب عليه ، بعد هذا كله ، فليتركه الى وقت آخر ، ولا يكره نفسه عليه »

اذن فلا بد للشاعر ، عند ابن خلدون ، من طبل وزمر ، وخمر ونهر ، وبستان وعروس، وعندي انّ من أوتي هذا كله يطلق عروس الشعر ثلاثاً...

ولم يقف ابن خلدون عند ذاك الحد بل تعرّض لبنيان بيت الشعر، فقال: « وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه بعضهـا ، ويبنى الكلام عليها الى آخره ، لانه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقة » . المقدمة ، ص ٥٧٤)

كأني بالاستاذ قد حسب الشاعر بنّاء والقافية زاوية ، فلا بد اذن من وضع الزاوية اولاً ليستقيم المدماك ، ويشد بعضه بعضاً .

كان النقد العربي في اوله، يوم كان كلمات جامعة ، خيراً من آخره كان موكلاً بالذوق حتى جاء المتأخرون بشرائعهم فصيّروا الشاعر عبداً لا ينفع . فالكلمات التي قالها الرواة والاعراب ، اجمع وانفع من كتب المتأخرين التي شدّت الزيار على الشاعر واقتادتـه بخناق . لم يقل الرواة والاعراب للشاعر انظم وقت كذا ، ولم يتعرضوا لفراغ المعدة ... وامتلائهـا ، أما اعلامنا المتأخرون كابن رشيق وابن خلدون فامتد سلطانهم حتى علموه كيف يمدح ، وكيف يهجو ، وكيف يتغزل ، بل قـل كيف يبكي ويضحك ... وهكذا وضع دستور شعر « غبّ الطلب » .

اسمع نقد بدويّ في ذلك الزمان . جـاء في زهر الآداب ، قال بعض الرواة : افضنا في ذكر الاصمعي فقال راويته ابونصر : رحم الله الاصمعي ، انه معدن حِكَم ، وبحر علم، غير انه لم نر مثل اعرابي وقف بيننا فسلم وقال: أيّـكم الاصمعي ؟ فقال : انا ذاك. فقال : اتأذنون بالجلوس؟ فأذنّـا له وعجبنا من حسن ادبه مع جفاء الاعراب .

قال : يا اصمعي ، انت الذي يزعم هؤلاء النفر انك أثقبهم معرفة بالشعر

والعربية وحكايات الاعراب ؟

قال الاصمعي : فيهم من هو أعلم ، وفيهم من هو دوني . قال : افلا تنشدني من شعر اهل الحضر حتى أقتدي به على شعراء اصحابنا ؟

فانشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

أمسلمُ انت البحرُ ان جاء واردٌ وليثٌ إذا ما الحرب طار عقابها
وانت كسَيْفِ الهندوانيِّ انغدت حوادث من حرب يعبّ عبابها

قال : فتبسم الاعرابي وهز رأسه ، فظننا ان ذلك لاستحسانة الشعر ، ثم قال : يا اصمعي ، هذا شعر مهلهل ، خلق النسج ، خطأه أكثر من صوابه ، يغطي عيوبه حسن الرويّ ورواية المنشد . يشبّهون الملك بالأسد ، والأسد ابخر ، شتيم المنظر ، وربما طرده شرذمة من امائنا ، وتلاعب به صبياننا . ويشبهونه بالبحر ، والبحر صعب على من ركبه وعلى من شربه ، وبالسيف ، والسيف ربما خان في الحقيقة ونبا عند الضريبة .

وروى صاحب الأغاني عن حماد انه قال : استنشدني جعفر ابن أبي جعفر المنصور المعروف بابن الكرديّة لجرير فأنشدته: بان الخليط برامتين فودّعوا ولما انتهيت إلى قوله :

وتقول بوزعُ قد دببتَ على العصا هلا هزأت بغيرنا يا بوزع

قال لي : أعدْ هذا البيت . فاعدته . فقال : بوزع أي شيء هو ؟ قلت: اسم امرأة.قال: امرأة اسمها بوزع!انا بريء من الله ورسوله،ونفيّ من العباس ابن عبد المطلب ان كانت بوزع إلا غولاً من الغيلان تركتني،والله، يا هذا، لا انام الليلة من فزع بوزع يا غلمان، قفاه . فصفعت والله حتى لم ادر اين انا. ثم قال: جرّوا برجله . فجرّوا برجلي حتى خرجت من بين يديه مسحوباً...

فما اسطع هاتيك الومضات النيّرة ، وما أقل خير تلك المجلدات الضخمة التي صنفوها بعدهم ليجعلوها اصولا للفن! ان العلم لا يعمل شاعراً. فعلم التشريح يعرف المواد التي يتركب منها الجسم وقد يحدها ، ولكنه لا يقدر على خلق بهلول واحد .

قال تولستوي : ان المدارس لا تعلّم الفن ، فالأساتذة يؤثرون شاعراً فيروّضون تلاميذهم على نمطه واسلوبه ، فيخرجونهم مقلدين . وهذا ما فعله نقادنا المتأخرون فصيروا الشعر علماً بأصول ، وقالوا للشاعر كن كالقدماء حذوك النعل بالنعل – هذا من تعابيرهم – فابتلونا بهذا السل الأدبي . ان الشاعر لا يعلّم كيف ينظم ولا أين ومتى ، فالشاعر الحق يقول شعراً في جهنم ، والشعرور يقرزم في الجنة تحت أجنحة الكاروبيم وعلى تهاليل الساروفيم .

هذه حقيقة يجب أن يعلمها شبابنا ، فجذور المستقبل تمتد في الحاضر ، اذكروا قول أبي العتاهية : روائحُ الجنةِ في الشباب ، فانفحونا بروائحكم الطيبة لنتعلل .

قد تقولون هكذا تعلمنا وبهذا نحمل الشهادات العالية . وأنا أقول لكم ليست الشهادة ، مهما كبرت ، غير مفتاح باب الثقافة والفن ان لم تفكروا وتريدوا تبقوا خارجاً كعذارى الانجيل الجاهلات . وإذا كان سلاحكم هذه الدروس التي تستظهرونها فالغد مظلم قاتم . ان تقديس القديم طبع في الشيوخ فأين ثورات الشباب ؟ دعوا الدراسات والمذكرات للخمسين والستين ، أما العشرون والثلاثون فللخلق والابداع .

قد درستم، ولا ريب، فصل الارادة، درساً عميقاً وحفظتموه كالماء الجاري، ولولا ذلك ما صرتم فلاسفة ... أفما علّمكم علم النفس ان كل بديع وجديد هو من فعل الارادة ؟ يريد المرء فيخلق نماذج جديدة ، فلماذا لا تريدون ؟ الارادة تصيّر الفعل الآلي والعادي فعلاً تأملياً مقصوداً ، فتفرغه في قالب جديد طريف، فأريدوا وتأملوا. الارادة كما علموكم، تسيّر الحركات والتصورات كما يقتضي الزمن والأحوال، فلماذا لا تقرأون في كتب الحياة؟ لماذا لا تستوحون الظروف والأحوال بدلا من تدارس مواضيع مبتذلة أورثتكم اياها المدارس ؟ دعوا « العادة » العمياء ، فهي بنت المدرسة وام كل مبتذل . طيروا بأجنحة

الارادة إلى الآفاق البعيدة . اريدوا تخلقوا الطريف الجديد . لم يفسد الشعر العربي إلا نسج نوابغــه على منوال واحد ، فلا تقولوا : نبني كما كانت أوائلنا تبني ... اننا نتوقع ، كل ساعة ، ان ندعى الى مآدبــكم الحافلة بالطيبات ، فاعِدُّوا لنا كل شهي .

إن أذكى ما خلق الله هي هاتيك الجدّة التي يسمونها حواء . كانت، نفعنا الله بدهائها، من ذوات الارادة الفولاذية ، فعقدت الف صلة وصلة مع المخلوقات الفردوسية ، قبل ان يزول عن الشيخ آدم خطر العملية الجراحية الاولى.. يوم استُلّت ضلع من اضلاعه وسدّ مكانها بلحم . أيقظت ارادة حواء الجنـــة الغافية . ولو لم «ترد» تلك النبيهة لظل الانسان في«الفردوس "تكـَلَةَ حكـَلَةَ"[1]» وعاش الابناء والاحفاد آكلين شاربين ، ولم يدركوا سراً واحداً من الاسرار التي خبأها الله في احشاء أمهم . ان نقطة من عَرَقِ الجبين الانساني خلقت ألف فردوس ، وستخلق كل يوم فراديس ما دام الانسان مريداً .

قد حان للوثنية الأدبية ان تتوارى ، فالفن لا يعرف غـير اله واحد هو الجمال . فابحثوا عنه . اذا كان يستطاع تبديل حياة النبات بتبديل الاضواء والانوار ، أفلا يستطيــع مصباح أديسون ان يبــدّل شعرنا المعمول على ضوء مصباح امرىء القيس ذي الذبال المفتّل !

لقد عشنا عشرين قرناً وعيوننا في ظهورنا ، فلننظر الى الامام. ان ثقافتنا لفي خطر ، وستهوي اذا لم تتداركها يد جبارة فتنتزعها من فم اللجة الــتي تجذبها اليها ، ومن لها غير سواعد الشباب ؟

اريدوا ايها الشباب، تفلحوا. لا يتبــع بعضكم بعضاً فتشيخوا قبل الاوان.

تشرين الثاني سنة ١٩٤٥

---

(١) التكلة الحكلة : العاجز المعتمد على غيره .

فهرست القسم الأول

فهرست القسم الثاني



